

د / عبد العظيم رمضان

الصراع الاجتماعي والسياسي في عصر مبارك



الصراع السياسى والاجتماعى
فى عصر مبارك

الإخراج الفني والتنفيذ

صبره عبد الواحد

تصميم الغلاف : نجوى شلبه

الصراع الإجتماعى والسياسى فى عصر مبارك

بقلم

د. عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

تقديم

المقالات الصحفية مصدر هام من مصادر الكتابة التاريخية ، لأنها ترصد الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع ، وتتابعها بالرأى والنقد ، وتساعد بذلك على تكوين صورة الحدث التاريخى ، ورسم لوحة الحياة الفكرية والصراعات الحزبية والتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ومن هنا أهمية جمع هذه المقالات فى كتب ، بدلا من تركها مدفونة فى بطون الصحف والمجلات ليضيع أثرها ويغيب ذكرها من ذاكرة الناس ، ويتعذر على الباحثين الحصول عليها لمساعدتهم فى تكوين الصورة التاريخية للعصر الذى يدرسون . فهى نوع من التاريخ الحى - أو «التاريخ الساخن» يحتفظ بنبض لأحداث.

ولعلى كنت أكثر الباحثين استفادة من المقالات السياسية فى رسالتى للماجستير والدكتوراه عن تطور الحركة الوطنية فى مصر ، فقد كانت تقدم لى من المعلومات ما كان يتعذر على الحصول عليه لاندثار أثرها لسبب أو آخر . وأذكر فى هذا الصدد مجموعة المقالات التى نشرها المرحوم فكرى أباطة فى ثلاثة أجزاء عن الفترة التى سبقت ثورة ١٩١٩ ، إذ ندد فيها بهجوم الانجليز على الوظائف فى مصر وطردهم المصريين منها ، واستياء الخريجين من هذا الهجوم الذى يحرمهم من تولى

الوظائف الإدارية فى بلادهم . وكان هذا الاستياء من أسباب اشتراك الطلبة والمثقفين فى ثورة ١٩١٩ لانهاء السيطرة الانجليزية على مصر .

ولقد سبق لى أن قدمت للقارئ مجلدين كبيرين يضممان مقالاتى فى عصر السادات ، تحت عنوان : «مصر فى عصر السادات» ، وقد لقيتا اقبالا جماهيريا واسعا حتى عمدت بعض دور النشر فى بيروت إلى تزويرهما ! وذلك لما تضمناه من رصد ومتابعة للأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى جرت فى عهد السادات . وقد شجعنى هذا على أن أقدم هذا الجزء الذى يضم مقالاتى عن الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك وكان غرضى من ذلك أن أحفظ هذه الصفحة من تاريخ مصر حتى يتسنى للباحثين فيما بعد تقديم الدراسات التاريخية التى تتناول شتى مناحيها وجوانبها . وسؤتبع هذا الجزء باجزاء أخرى .

وقد أخضعت الكتاب للتبويب العلمى ، فقسمته تقسيما موضوعيا دون أن أغفل التسلسل الزمنى لصدور المقالات على قدر الإمكان ، خصوصا بالنسبة للموضوعات المتكاملة .

وقد بدأت فى الفصل الأول بمقالاتى عن التطرف الدينى والإسلام السياسى ، وقد عبرت فى هذه المقالات عن رأى فى هذه القضية الهامة - أو هاتين القضيتين إذا صح التعبير ، فليس كل من يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية متطرفا دينيا ، ولكن كل متطرف دينى يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية . واعتقد أن القارئ الذى يقرأ هذه المقالات سوف يلم بكافة أطراف الموضوع ، وقد يوافقنى فى رأى أو يختلف ، ولكنه فى كل الأحوال سوف يتزود بوجهة نظر لا غنى عنها لتكوين وجهة نظر شاملة وخاصة فى هذا الموضوع . .

فقد تتبععت فى هذه المقالات قصة تطبيق الشريعة الإسلامية ، والخلافة الإسلامية ، والحكومات الإسلامية عبر التاريخ ، والحركة الإسلامية فى مصر ، والممارسات السياسية للحركة الدينية ، والإرهاب تحت مظلة الدين ، ومواجهة فكر التكفير ، وقضية الحجاب ، وغير ذلك من القضايا ، كما ختمت هذا الفصل بمقالى «الخارجون من تحت

السماء» الذى يتضمن رؤيتى الشخصية للدين والإيمان ، وهو مقال أعتز به كثيرا لما وفقنى الله إليه من وضوح الرؤية وصحة التعبير .

أما الفصل الثانى ، فقد جمعت فيه مقالاتى التى حاربت فيها فكرة توظيف الدين فى خدمة رؤوس الأموال ، ومقالى المعروف فى مجلة «أكتوبر» : «لا .. لإرهاب المفتى» ، الذى كان عاملا مساعدا فى سرعة اصدار فتواه الشهيرة التى نفى فيها عن فوائد البنوك صفة الربا . كما نشرت مقالى الثانى فى هذا الصدد ردا على الأستاذ طارق البشرى الذى هاجم المفتى بسبب هذه الفتوى .

أما الفصل الثالث ، فيضم مقالاتى عن حياتنا الديموقراطية والحزبية . وسوف يرى القارئ الكريم أننى وقفت فى هذه المقالات موقفا ثابتا ضد جميع الممارسات غير الديموقراطية ، سواء جاءت من قبل الدولة ، أو جاءت من المعارضة . ففىما يتصل بممارسات الدولة نشرت مقالى : «تلامذة حمزة البسيونى لن يفيدوا نظام مبارك» ، ومقالى الآخر «لتكن حادثة أبو زعبل آخر ما يشهده عهد مبارك» وأيضا مقالى : «حول مصادرة جريدة الأهالى» . أما فيما يتصل بممارسات المعارضة ، فقد نشرت مقالى المعروف : «جحيم الديموقراطية» ، ومقالاتى الأخرى التى تتناول حرية الرأى وحرية التشهير ، وحرية الصحافة وقانون الغاب ، وحياتنا الحزبية ، وأيضا مقالى الذى ودعت به مجلس الشعب السابق ، الذى صدر حكم المحكمة الدستورية ببطلانه ، وعنوانه : «مجلس القطط السمان» .

أما الفصل الرابع ، فيشتمل على مقالاتى عن نظام الرئيس مبارك ، وقد تناولت فيها شرعية نظام مبارك ، وما إذا كان يستمد شرعيته من ثورة يوليو ، أم أن ثورة يوليو قد انتهت بموت عبد الناصر ؟ كما تناولت فيه أحداث الأمن المركزى التى هزت نظام مبارك بعنف ، وأوضحت جوهر هذا النظام . وقد ضمنت هذا الفصل مقالى فى مجلة «أكتوبر» عن «المؤسسة العسكرية» ، بعد استبعاد المشير عبد الحليم أبو غزالة من موقعه كوزير للدفاع والانتاج الحربى والقائد العام للقوات المسلحة ، ثم مقالى عن طبيعة الديموقراطية التى يمارسها نظام مبارك فى مصر وما يمكن أن تفرزه فى ضوء علاقات الانتاج . وأخيرا مقالى الذى تناولت فيه

تعيين الفنان فاروق حسنى وزيرا للثقافة ، وهو المقال الذى رددت فيه على الصديق الأستاذ إبراهيم سعدة الذى هاجم فيه هذا التعيين فى مقال له بجريدة «أخبار اليوم» .

أما الفصل الخامس ، فيتضمن مقالاتى عن «لعبة معارضة كامب ديفيد فى مصر» . ويتناول المعارك الصحفية التى قامت بينى وبين الكتاب المعارضين لكامب ديفيد ، بسبب ممارساتهم السياسية فى مصر تحت مظلة هذه المعارضة . وقد تضمن مقالاتى التى هاجمت فيها تجاهلهم لعيد تحرير سيناء ، وتغير مفهوم الوطنية والعمالة بين عهدى عبد الناصر ومبارك ، ثم المعركة الصحفية التى دارت بينى وبين حزب التجمع حول موقفه من كامب ديفيد وافتراءاته على الرئيس السادات ، وقد دارت هذه المعركة تحت عنوان : « اللعبة السياسية الرديئة » الذى اخترته بعناية ، لأنه يعبر عن لعبة الافتراء على زعماء نجحوا فى تحرير تراب الوطن من الاحتلال الاسرائيلى لحساب زعماء فرطوا فى هذا التراب وسلموه غنيمة للأعداء بدون قتال تقريبا . وقد استأنفت هذه المعركة مع الحزب الاشتراكى الناصرى تحت التأسيس حول نفس القضية ، وأطلقت على هذه القوى السياسية اسم الطفح السياسى الجديد الذى يتظاهر بالتطرف فى الوطنية والقومية ، ولكنه يدين بالولاء لهذا الحاكم العربى أو ذاك ممن يحاربون مصر فى كل محفل دولى تحت اسم القومية العربية . كذلك نشرت مقالاتى عن المعركة التى خضتها ضد نقابة الأطباء أولا ، ثم المركز القومى للسينما ثانيا حول نفس القضية ، . ثم مقالى الذى هاجمت فيه موقف وزراء خارجية مصر فى عهد السادات الذين اختلفوا معه حول كامب ديفيد ، لتمسكهم بموقفهم رغم نجاح سياسة السادات فى تحرير سيناء . كذلك مقالى عن أعضاء تنظيم «ثورة مصر» وهل يسمون مجرمين أو أبطال ؟ وأخيرا مقالى الذى علقت فيه على عودة طابا إلى مصر ، وأوضحت أنه بعودة كل شبر من أرض مصر إليها تكون الخصومة بين مصر واسرائيل قد انتهت ، وتكون حرب أكتوبر قد انتهت من الناحية الفعلية . وقد تضمن هذا الفصل المقال الذى رددت فيه على الصديق العزيز الأستاذ أنيس منصور حول حضوري مؤتمر ووترجيت .

أما الفصل السادس ، فيتضمن حوارى مع الناصريين حول ديموقراطية ثورة يوليو ، ومحاولاتهم تحسين صورة النظام الناصرى ، واظهار الغيرة على الديموقراطية وحقوق الإنسان . وردودى على ما كانت جريدة « صوت العرب توجهه إلى من تجريح وهجوم . وكذا ردى على ماكتبه المرحوم مجدى حسنين فى هذه الجريدة مرافعا عن انجازاته فى مديرية التحرير .

أما الفصل السابع فيتناول مقالاتى عن الثورة والوفد ، وتجاهل الثورة للزعيم مصطفى النحاس ، ثم افتراءات الناصريين على الوفد وموقف الرئيس مبارك من زعامات ما قبل الثورة . وأخيرا ردى على تهمة مسئولية الوفد عن فشل ثورة ١٩١٩ .

وبهذه المناسبة أعرب عن تقديرى الكبير للرئيس مبارك الذى أنهى مؤخرا مقاطعة الثورة للزعيم مصطفى النحاس ، ووصل بذلك بين ثورة ١٩١٩ وثورة يوليو .

وقد تضمن الفصل الثامن مقالاتى عن الحرب العربية الباردة ، والتى تناولت فيها العلاقات العربية - العربية ، والعلاقات المصرية العربية ، وتمزق العالم العربى، والجامعة العربية ، وعودة العرب إلى مصر بعد المقاطعة ، وموقف مصر من الانتفاضة الفلسطينية . كما ضمنت هذا الفصل مقالى عن مفارقات ميزان القوى بين العرب واسرائيل، وأسطورة النظم التقدمية العربية ، ثم مقالى عن : « مصر والجزائر والاحتكام إلى التاريخ » الذى رددت فيه على هجوم الصحافة الجزائرية على مصر . وأخيرا مقالى عن معرض السعودية فى مصر ، الذى أعقبه - لأسباب غير معروفة تشدد السلطات الكويتية فى تطبيق قرار المقاطعة ضدى وضد كل من نجيب مجفوظ وتوفيق الحكيم وأنيس منصور، بعد أن كانت قد تساهلت فى هذا التطبيق . ومنع عدد جريدة الوفد من دخول الكويت ، وربما كان للاخوة الفلسطينيين فى الكويت فى ذلك الوقت دور فى ذلك اوعلى كل حال ، فقد كان الغزو العراقى للكويت فى ذلك الوقت فى علم الغيب .

أما الفصل الثامن ، فيتضمن مقالاتى عن القضية الفلسطينية وموقف منظمة التحرير ، وقد انتقدت فيها موقف منظمة التحرير من

معالجة القضية ، واشتمل على مقالى : «ونبشر الشعب الفلسطينى بطول احتلال » الذى تتبعته فيه موقف المنظمة من القضية ، وتوصلت فيه إلى أنه نظرا لأن أى حل للقضية الفلسطينية سوف يعكس علاقات القوى التى هى لصالح إسرائيل ، فإن المنظمة لن تكون حريصة على مثل هذه التسوية لأنها لن تكون لصالحها ، و سوف تسعى إلى صورتها بالضرورة . وقد عرضت هذا المقال على بعض الزعامات الفلسطينية فى الضفة الغربية وغزة فى مؤتمر حضرته فى ميريلاند بالولايات المتحدة، وكانت هذه الزعامات متفقة معى فى هذا الرأى .وقد انفجرت بعد ذلك انتفاضة الحجارة فى الأراضى المحتلة التى غيرت الموقف رأسا على عقب.

وفى النهاية يجب على أن أعترف بأنه إذا رأى القارىء فى هذه المقالات - أو بعضها - شيئا من الشجاعة فى إبداء الرأى ، فإن الفضل فى ذلك يعود إلى مناخ حرية التعبير الذى أفسحه الرئيس محمد حسنى مبارك ، وإلى شجاعة الأستاذين : أنيس منصور وصالح منتصر فى مجلة أكتوبر ، والمرحوم مصطفى شردى أولا والأستاذ جمال بدوى ثانيا فى جريدة الوفد . فالكاتب - وحده - لا يستطيع أن يفعل شيئا ، وإنما يستطيع الكثير من خلال صحافة حرة ، تعيش فى مناخ حر ، يفرضه نظام حر .

والله الموفق .

مصر الجديدة فى أول ديسمبر ١٩٩٢

أ . د . عبد العظيم رمضان

الفصل الأول
التطرف الديني

قصة تطبيق الشريعة الإسلامية *

فى وسط هذه المعاناة التى يعانىها شعبنا على أيدي ملوك الانفتاح ، وتعانى الحكومة أيضا من المحاولات المستمرة للوى ذراعها من جانب هؤلاء الملوك غير المتوجين . وفى الوقت الذى يمتلك الغضب جماهيرنا الشعبية وهى تقرأ فى الصحف عن سكب اللبن فى الترع والمصارف ! بينما يرتفع ثمن كيلو اللبن إلى سبعين وثمانين قرشا ! ، أو تقرأ عن إعدام البيض فى مزارع الدواجن بحجة فسادها ! لرفع أسعاره، أو تقرأ عن إعدام أربعة ملايين ونصف مليون كتكوت حى كانت معدة لتسليمها من الشركة العامة للدواجن إلى مزارع الدواجن ، بينما يعانى كل فرد للحصول على فرخة ! أو يقف من أجلها فى طابور للجمعية طوله عشرة أمتار - فى هذا الوقت لاتجد بعض القوى من مشكلة من مشاكل مجتمعنا سوى مشكلة تطبيق الشريعة الإسلامية!

* أكتوبر فى ٣٠ / ٦ / ١٩٨٥

وهكذا تُظهر هذه القوى مدى حذقها وذكائها فى صرف انتباه جماهيرنا عن مشاكلها الاجتماعية التى تؤثر على مستوى حياتها الاقتصادية ، وتحويله إلى مجرى آخر يستهوى أفئدة أرباء الشباب ، ويمتلك عواطفهم الشريفة فيثيرون قضية تطبيق الشريعة الإسلامية ، بحجة أن هذه القضية هى أم القضايا ، وأنه إذا أمكن حلها فسوف تختفى بقية المشاكل التى يعانى منها الشباب والمجتمع ككل^١ .

وهذه هى تجارة الدين الرابحة - أو المتاجرة بالدين بمعنى أدق - التى ينساق إليها بعض رجال الدين دون وعى ، والتى يلجأ إليها الانفتاحيون لاختفاء جرائمهم الاقتصادية وأرباحهم الفلكية ، بل ولحماية سرقاتهم الكبرى ، بتطبيق أحكام الشريعة على السرقات الصغرى ! ، وشد انتباه الشباب عن مشاكل السكن والعمل والطعام بجلد شارب الخمر ، أو المفطر فى شهر رمضان . وكانت آخر هذه المحاولات ما عرف بإسم «المسيرة الخضراء» ! ، التى دعا إليها البعض ، لمطالبة رئيس الجمهورية بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية .

نقول إنها متاجرة بالدين لصرف انتباه الجماهير عن قضاياها الحقيقية ، لأن هذه القوى تعلم بدون شك أنها تزيف قصة تطبيق الشريعة الإسلامية ، وأنها تخدع الجماهير بقصة تعلم هى نفسها مقدار ما فيها من زيف وتلفيق .

فصحيح أن مصر ولجت باب التشريع المدنى بصدور التقنين المدنى المصرى ، المختلط والأهلى ، فى سنتى ١٨٧٦ و ١٨٨٣ ، الذى نُقل عن التقنين الفرنسى القديم الذى وضع فى أول القرن التاسع عشر - ولكنها لم تلبث أن فطنت ، بعد حصولها على قدر كبير من حريتها وسيادتها بتصريح ٢٧ فبراير ١٩٢٢ أولا ، وبالمعاهدة المصرية الانجليزية فى سنة ١٩٣٦ ثانيا - إلى وجه القصور فى هذا التقنين ، وأخذت فى تنقيحه تنقيحا شاملا .

وكانت أول لجنة تشكلت لهذا الغرض فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٦ برئاسة مراد سيد أحمد باشا وعضوية ثمانية من رجال القانون ، وقد حُلت هذه اللجنة فى ٢٦ مايو ١٩٣٦ بعد أن أنجزت فى ثلاثة أشهر بعض النصوص التمهيدية المتعلقة بمصادر القانون ويتنازع القوانين ، استبقى منها المشروع بعضها . وفى ٢٠ نوفمبر ١٩٣٦ تألّفت لجنة ثانية برئاسة كامل صدقى بك (باشا) وعضوية عشرة ، وسلخت نحو ثمانية عشر شهرا ، وأنجزت فى هذه الفترة النصوص الخاصة بالكفالة والشفعة ، وقد استبقى المشروع التمهيدي هذه النصوص بعد أن أدخل عليها بعض تعديلات تناولت ترتيبها وأحكامها . وفى ٢٨ يونيو ١٩٣٨ أسند إلى الدكتور عبد الرزاق السنهورى مهمة وضع مشروع تمهيدى كامل للقانون المدنى ، ساعده فى وضعه أحد كبار رجال الفقه فى فرنسا . وقد وضع هذا المشروع فى سنة ١٩٤٢ ، ورأت وزارة الوفد فى ذلك الحين عرضه للاستفتاء على أوسع نطاق ، وأرسل إلى جميع الهيئات والأفراد الذين رأى الاستفادة من استفتائهم فيه ، وظل المشروع معروضا للاستفتاء زهاء ثلاث سنوات ، ثم تشكلت لجنة فى ٢٩ مارس ١٩٤٥ برئاسة السنهورى وعضوية أربعة من رجال القانون لمراجعة القانون فى ضوء ما قدم عنه من ملاحظات ، تمهيدا لعرضه على مجلس الوزراء فالبرلمان .

وقد عرض المشروع بعد مراجعته على مجلس النواب ، واستغرق نظره من ١٧ ديسمبر ١٩٤٥ إلى ٢٧ مايو ١٩٤٦ ، ثم أحيل إلى مجلس الشيوخ، الذى أحاله بدوره إلى لجنة خاصة سميت «لجنة القانون المدنى»، ناقشت ما قدم إليها من آراء ، سواء من أعضاء المجلس أو من رجال القانون ممن ليسوا أعضاء بالمجلس ، بما فى ذلك مستشارى محكمة النقض والإبرام ، واستغرق نظر المشروع أمام المجلس من ٢٧ مايو ١٩٤٦ إلى ٢٨ يونيو ١٩٤٨ ، ثم أحيل إلى مجلس النواب ، الذى انتهى من نظره ، بعد ما أدخل عليه من تعديلات بواسطة مجلس الشيوخ، فى يوم ٥ يوليو ١٩٤٨ ، وصدر المرسوم بالتصديق عليه وإصداره فى يوم ١٦ يولييه ١٩٤٨ ، على أن يكون العمل به اعتبارا من

١٥ أكتوبر ١٩٤٩ ، وهو اليوم الذى يبدأ فيه القضاء الوطنى ببسط ولايته على سكان البلاد أجمعين .

ويتضح من ذلك أن مشروع القانون المدنى قد استغرق وضعه ومراجعته ومناقشته وإصداره اثنى عشر عاما كاملة واستفتى فيه الأفراد والهيئات وممثلى الشعب ورجال القانون ، ولم يصدر بقرار من أعلى بعد دراسة سطحية ، ولم يصدر اعتراض عليه .

والسؤال الآن : ما هو نصيب الشريعة الإسلامية فى القانون المدنى؟ لقد أدخل القانون فى شأن الشريعة الإسلامية تجديدا خطيرا ، حين جعلها من المصادر الرسمية للقانون المصرى ، إذا لم يجد القاضى نصا تشريعا يمكن تطبيقه . والفروض التى لا يعثر فيها القاضى على نص فى التشريع ليست قليلة ! ، ومعنى ذلك أن يرجع القضاء إلى الشريعة الإسلامية يستلهم مبادئها فى كثير من الأقضية - الأمر الذى اعتبر وقتذاك فتحا عظيما للشريعة الغراء ، لا سيما إذا لوحظ أن ما ورد فى القانون من نصوص ، هو أيضا يمكن تخريجه على أحكام الشريعة الإسلامية دون كبير مشقة ! . ومن هنا فسواء وجد النص أو لم يوجد ، فإن القاضى فى أحكامه بين اثنتين : إما أنه يطبق أحكاما لا تتناقض مع مبادئ الشريعة الإسلامية ، وإما أنه يطبق أحكام الشريعة ذاتها .

وهذا الكلام ليس من عندياتنا ، وإنما نستقيه من المذكرة الإيضاحية للمشروع التمهيدى للقانون المدنى . وقد أوضحت أن المشروع أخذ بنظريات عامة فى الشريعة الإسلامية ، وبأحكام تفصيلية . فقد اقتبس من النظريات العامة النزعة الموضوعية التى تميز الفقه الإسلامى ، كما أخذ بنظرية التعسف فى استعمال الحق ، وبمسئولية عديم التمييز ، وبحوالة الدين ، وبمبدأ الحوادث غير المتوقعة ، استنادا إلى نظرية الضرورة فى الشريعة الإسلامية .

كذلك أخذ القانون المدنى أحكاما تفصيلية كثيرة اقتبسها من الفقه الإسلامى ، منها الأحكام الخاصة بمجلس العقد ، وإيجار الوقف ،

والحكر ، وإيجار الأراضى الزراعية ، وهلاك الزرع فى العين المؤجرة ،
وانقضاء الإيجار بموت المستأجر ، وفسخه بالعدر ، ووقوع الإبراء من
الدين بإرادة منفردة ، بالإضافة إلى مسألة بيع المريض مرض الموت ،
والغبن ، وخيار الرؤية ، وتبعة الهلاك فى المبيع ، وغرس الأشجار فى
العين المؤجرة ، والأحكام المتعلقة بالعلو والسفل ، وبالحائط المشترك ،
ومدة التقادم ، ومبدأ الأهلية والهبة والشفعة ، ومبدأ ألا تركه إلا بعد
سداد الدين - وغير ذلك من المسائل التى أخذت برمتها من الشريعة
الإسلامية .

لهذا السبب لا غرابة إذا وقف المرشد العام حسن الهضيبى فى
محكمة الثورة ، وكان أحد أعلام القانون فى مصر ، يقول إن القانون
المدنى فى مصر يتفق مع الشريعة الإسلامية ، فيما عدا الربا .

وكان ذلك حين أراد الدفاع عن محمود عبد اللطيف التعريض
بالمُرشد الهضيبى ، على أساس أنه قبل ، حين كان مستشارا قضائيا ،
الحكم بغير الشريعة الإسلامية . فسأله .

- كم سنة ، على وجه التحديد ، اشتغل الأستاذ الهضيبى فى
القضاء قاضيا أو مستشارا فى القضاء بوجه عام ؟ .

- أنا تخرجت سنة ١٩١٥ ، وبقيت فى المحاماة لمايو ١٩٢٤ ، وعينت
قاضيا فى مايو ١٩٢٤ .

الدفاع : ومنذ ذلك التاريخ ، أى قانون كنت تطبقه خلال هذه المدة ؟

الهضيبى : القانون المدنى والقانون الجنائى .

الدفاع : هل كنت طوال هذه المدة راضى بالضمير عن هذين
القانونين ؟ ..

الهضيبى : القانون المدنى متفق مع الشريعة فى كثير من المسائل ،
أو فى كل المسائل ، يعنى تقدر تُرجع القانون المدنى إلى أصول شرعية -

فيما عدا مسألة الربا . فأنا - بنيتي - كنت أحكم في مسائل على اعتبار أنها متفقة مع الشريعة في القانون المدني .

هذا ، على كل حال ، فيما يتصل بالقانون المدني ، وهذه شهادة المرشد العام للإخوان المسلمين فيه .

أما القانون الجنائي ، وليس فيه من الحدود الشرعية شيء باعتراف الجميع ، فيهمنا أن نعرض وجهة نظر مفكري الإخوان في العقوبات الشرعية ، خصوصا رجم الزاني وقطع يد السارق . فعقوبة السرقة في نظر هؤلاء المفكرين ، لا تقرر إلا إذا وفر المجتمع لأفراد كسافة احتياجاتهم . والدولة الإسلامية تحمي نفسها من السرقة بإعطاء كل إنسان ما يكفيه من المأكل والملبس والمأوى ، لذلك لا يسرق الفرد طالما تلبى له الدولة كافة احتياجاته . وفي هذا الضوء تصبح عقوبة السرقة عقوبة نظرية ليس إلا ، لأن المجتمع الإسلامي ، بمعناه الصحيح اقتصاديا واجتماعيا ، غير قائم ، وبالتالي لا مجال لتطبيق شرائعه في السرقة .

أما عقوبة الرجم بالنسبة للزاني والزانية ، فتعتمد على أن العقوبة لا تنفذ إلا باعتراف أحد الطرفين أو كليهما ، أو بشهادة أربعة شهود عيان - الأمر الذي يصعب توفيره .

ويهمنا في صدد القانون الجنائي أيضا أن نورد رأي المرجوم الهضيبي ، مرشد الإخوان السابق ، في محكمة الثورة . فقد سألته الدفاع عن موقفه منه ، فقال :

- القانون الجنائي كله تعازير ، وليس فيه من الحدود الشرعية شيء . ولكن الحدود الشرعية متى أوقفها ولي الأمر ، علينا الطاعة ، ونطبق القواعد المعمول بها ، أي التعازير

الدفاع : هل يملك هذا (ولي الأمر) ؟

الهضيبي : يملك هذا .

الدفاع : هل أفهم من ذلك أنك طوال خدمتك الجنائية طبقت مالم تقض به الشريعة الإسلامية فى ظل هذا التفسير ، وارتاح ضميرك لهذا؟ .

الهضيبى : كل العقوبات التى نص عليها فى القرآن والسنة ، سبعة كلها سبع عقوبات من أولها لآخرها ، وأما الباقي فأغلاط بترتكب كثير ، وفيها جرائم بترتكب (بترتكب!) عليها . فلولى الأمر أن يعزر عليها . وده عمل صح داخل فى حدود اختصاصه . فأنا قلت لحضرتك إن ولى الأمر أوقف الحدود لعله فى نفسه لا أعرفها ، وهذا من حقه . فيبقى الباقي كله تعازير مسموع بها شرعا» .

الدفاع : معنى هذا أنك طوال مدة خدمتك الجنائية كنت راضيا عن نفسك ، مستريح الضمير ؟ .
الهضيبى : أيوه .

وبعد هذه الحقائق فيما يتصل بالقانون المدنى والقانون الجنائى ، التى نرد بها على المزيفين والمزورين الذين يضللون شبابنا ، ويدعونه إلى المسيرات الخضراء والحمراء والزرقاء ١ - نثير قضية أهم من ذلك بكثير، لا أدري لماذا لا يشغلون أنفسهم بها ، إذا كانوا حقا يريدون الاصلاح - وهى قضية التربية الإسلامية ١ .

أليس الاهتمام بالتربية الإسلامية أجدى على المجتمع ، ولحياة الجماهير ، من قضية تطبيق الشريعة الإسلامية التى رأينا الحقيقة فيها من الزيف ؟ . وأليست التربية الإسلامية الحقيقية هى العلاج الحقيقى لأدواء المجتمع ، وحماية للفرد من نفسه ، وحماية للمجتمع من المنحرفين؟ .

كم نصيب التربية الإسلامية من اهتمامات تلك القوى التى تدفع شبابنا وجماهيرنا إلى الخروج فى مسيرات ملونة لتطبيق الشريعة

الإسلامية ؟ ، بينما نصيبها من التربية الإسلامية الحقيقية ينحدر فى بارومتر الأخلاق والدين الإسلامى الصحيح . .

أليس غياب التربية الإسلامية الحقيقية هو المسئول عن الرشوة والفساد والمحسوبية التى تنخر فى الجهاز الحكومى ؟ ، وأليس غياب هذه التربية هو المسئول عن الجشع والطمع والاستغلال وفساد الضمير والرغبة فى الربح الحرام على حساب الجماهير الذى ينخر فى القطاع التجارى ؟ ، وأليس غياب هذه التربية هو المسئول عن الغش وقلة الذمة والتلف على الثراء السريع الذى ينخر فى قطاع الحرفيين ؟ . . وأليس غياب هذه التربية هو المسئول عن بناء عمارات تسقط بعد بنائها ؟ وأموال يسطو عليها النصابون لبناء شقق وهمية ؟ وشركات تتكون لتتهدب وتهرب قبل دفع ما عليها من ضرائب ؟ وتجار يتاجرون فى الأطعمة الفاسدة ؟ ومهربى مخدرات ينزحون إلى جيوبهم كل ما يكسبه الحرفيون بغير وجه حق من عملائهم ؟ .

وأليس غياب التربية الإسلامية الصحيحة هو السبب فيما يتعرض له المرضى فى مستشفياتنا من وحشية واستغلال ؟ ، أو يتعرض له القطاع العام من نهب ؟ ، أو يشعل الحرائق فى مصانعنا ومبانينا الأثرية والتاريخية والحضارية ؟ . . وأليس هو - غياب التربية الإسلامية الصحيحة - الذى يدفع الكثيرين إلى الإهمال والتسيب والتباطؤ فى العمل والتزويغ والحصول على أجر بدون إنتاج حقيقى ؟ . .

وأليس غياب التربية الإسلامية هو الذى دفع الابن إلى قتل أبويه ؟ ، وهو الذى دفع أحد مخرجى التليفزيون إلى اغتصاب طفلة عمرها اثنا عشر عاما ، ودفع مدرس ابتدائى فى أسوان إلى قتل طفلة أخرى لسرقة سوار ثمنه مائتى جنيه ؟ - إلى غير ذلك من جرائم وانحرافات نقرأها فى الصحف الصباحية والمسائية ، الحكومية والمعارضة ، وآخرها جرائم الاغتصاب المشهورة ؟ .

وإذا كانت هذه القوى التى تنظم المسيرات الملونة مخصصة فى دعوتها، فلماذا لم تتبع طريق الإخوان المسلمين فى الثلاثينات - قبل اشتغالهم بالسياسة - فى التركيز على التربية الإسلامية ؟

فلم يوجه الإخوان جماهيرهم الغفيرة فى زحف أخضر للمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية ، إنما خاطب الشيخ حسن البنا شباب الإخوان المسلمين بقوله: «انكم دعاة تربية ، وعماد انتصاركم افهام هذا الشعب وإقناعه وإيقاظ شعوره من كل نواحيه على قواعد الإسلام وتعاليم الإسلام ومبادئ الإسلام . بل إن غايتكم أوسع من هذا ، لأنكم تريدون من هذا الشعب أمة نموذجية لتنسج على منوالها الأمم الشرقية جميعها».

فليركز الدعاة المخلصون جهودهم فى هذا المجال الحيوى الذى يكون جوهر الإسلام ، ويكون جوهر المسلم الحقيقى - بدلا من صرف جماهيرنا عن مشاكلها الحقيقية بالأعمال البهلوانية ، والادعاء بأن التشريع الإسلامى غائب ! ، بينما هو - كما أثبتنا - موجود فى القانون المدنى ، ومتعذر تنفيذه فى القانون الجنائى فى أهم عقوباته ، ولولى الأمر الحق فى إيقاف هذه الحدود إذا تبين تعذر تنفيذها ، وأن يستبدل بها عقوبات أخرى - كما ذكر الهضيبى ! .

وبقى على الدولة واجب توضيح الحقائق لجماهير الشعب عن طريق أجهزتها الدينية ، لأن هذه الأجهزة الدينية - فيما يبدو - تغط فى نوم عميق ! .

الخلافة الإسلامية بين الدين والتاريخ *

من سوء حظ التاريخ أنه مطية
لكافة النظم السياسية ، تريد أن تمتطيه
وتوجه مساره إلى حيث تبغى وتريد ،
فلا يوجد نظام من النظم السياسية إلا
وأراد أن يؤصل لنفسه في التاريخ ،
ويستعين بوقائع التاريخ ليدعم فكره
ومسيرته ، فإذا لم يجد ، فإنه يزيّف
وقائع التاريخ ، وينصرف بها عن
حقيقتها لكي تخدم أغراضه ومراميه .

وفي وقتنا الحاضر يصور دعاة
الإسلام السياسى التاريخ الإسلامى
فى صورة وردية تحفل بالانتصارات
والأمجاد ، والخير والعدل والحق ، لكي
يشدوا الجماهير الإسلامية البسيطة
إلى تأييدهم فى دعوة الحكومة
الإسلامية التى ينادون بها ،
والانقضاء على النظام السياسى
القائم ، بدعوى أنه نظام غير إسلامى ،
مدنى فى بعض الأقوال ، وبدعوى أنه

* أكتوبر فى ١١/٣/١٩٩٠

نظام كافر فى بعض الأقوال الأخرى . وتحت هذا التصوير المضلل ارتكب بعض دعاة الإسلام السياسى أكبر المنكرات من اعتداء على الأموال والأرواح .

وقد كانت الدولة تواجه هذا التيار فى البداية بالعنف الذى لا تملك غيره ، ثم برز تحت تأثير الخطر الجسيم الذى يهدد البلاد مفكرون دينيون وعلماء يصححون الأفكار الضالة والمعتقدات الزائفة ، ويقدمون الدراسات العلمية التى تفند الأباطيل ، وكان من حسن حظ مصر فى هذه الأونة وجود مفتٍ مستنير على رأس الافتاء ، هو الدكتور محمد سيد طنطاوى ، ووجود مفكرين يمسون المشعل لآنارة الطريق فى وجه الضالين والمضللين .

ويعتبر المستشار محمد سعيد العشماوى من أبرز من تصدوا بالدراسة والعلم لإزالة الزيغ والأباطيل التى يهلبها دعاة الإسلام السياسى على المعتقدات والتاريخ ، فقد كتب كتابه المعروف : «الإسلام السياسى» منذ عامين ، وها هو ذا يقدم كتابا هاما آخر للمكتبة العربية كانت فى حاجة إليه ، وهو الخلافة الإسلامية ، الذى نقدم له عرضا فى هذا المقال نظرا لأهميته .

والخلافة الإسلامية من القضايا الشائكة التى لا يقدم على مناقشتها إلا كل ذى شجاعة واستعداد للتضحية ، وقد كلفت عالما جليلا ، هو على عبد الرازق ، فى العشرينيات درجته العلمية ووظيفته ، كما طارده على مدى حياته . وقد ظهرت هذه القضية بعد زوال الخلافة العثمانية - وهى آخر خلافة إسلامية فى التاريخ - من العالم الإسلامى ، وظهور الأطماع بين ملوك المسلمين ، وعلى رأسهم الملك فؤاد ، فى وراثتها ، وبقيت منذ ذلك الحين ركنا من أركان دعوة الإسلام السياسى ، تحت زعم أنها شعيرة إسلامية ، ورمز الوحدة الإسلامية - كما وصفها المرحوم الشيخ حسن البنا .

ومن هنا وعورة الموضوع ، وهى وعورة يدركها المستشار محمد سعيد العشماوى ، فيقول إن الخائن فى الخلافة الإسلامية كالخائن فى الغمر ، وكالسائر فى حقل من الألغام ، وعورة الموضوع تتحصل فى أنه - على أهميته - يختلط بكثير من الأوهام ، ويمتزج بوفير من الأحلام ، ومن يسعى إلى تخليصه من الأوهام يقع فى محاذير كثيرة ومخاطر عدة ، ولكن التعرض له ضرورة لآبد منها لتنقية الإسلام وتصحيح تاريخه ، وتقديم صورته الصحيحة . فالخلافة الإسلامية هى محور التاريخ الإسلامى ومحيط فكره ، وأى زيف عنها أو زور فيها لآبد أن يزيف التاريخ .

وقبل أن يمضى المستشار محمد سعيد العشماوى فى عرضه لتاريخ الخلافة ، يبدى تعجبه لما يسميه بمناقضة غريبة ! هى أن يحدث هذا اللاحاح من جانب أنصار الإسلام السياسى على نظام بعينه - هو نظام الخلافة - مع أن الإسلام ذاته قدم أفكارا وآراء ومبادئ تتعدى عصره بمراحل ، وتشرف على العصر الحالى وعلى عصور مقبلة .

ومثال ذلك مبدأ حرية الاعتقاد : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (سورة الكهف ١٨ : ٢٩) ومبدأ شخصية المساطة « ولا تزر وازرة وزر أخرى » (الأنعام ٦ : ١٦٤) « وكل انسان أزمانه طائره فى عنقه » (الاسراء ١٧ : ١٣) ومبدأ عدم رجعية القانون - أى عدم سريانه على الواقعات التى سبقت صدوره : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (الاسراء ١٧ : ١٥) وهكذا .

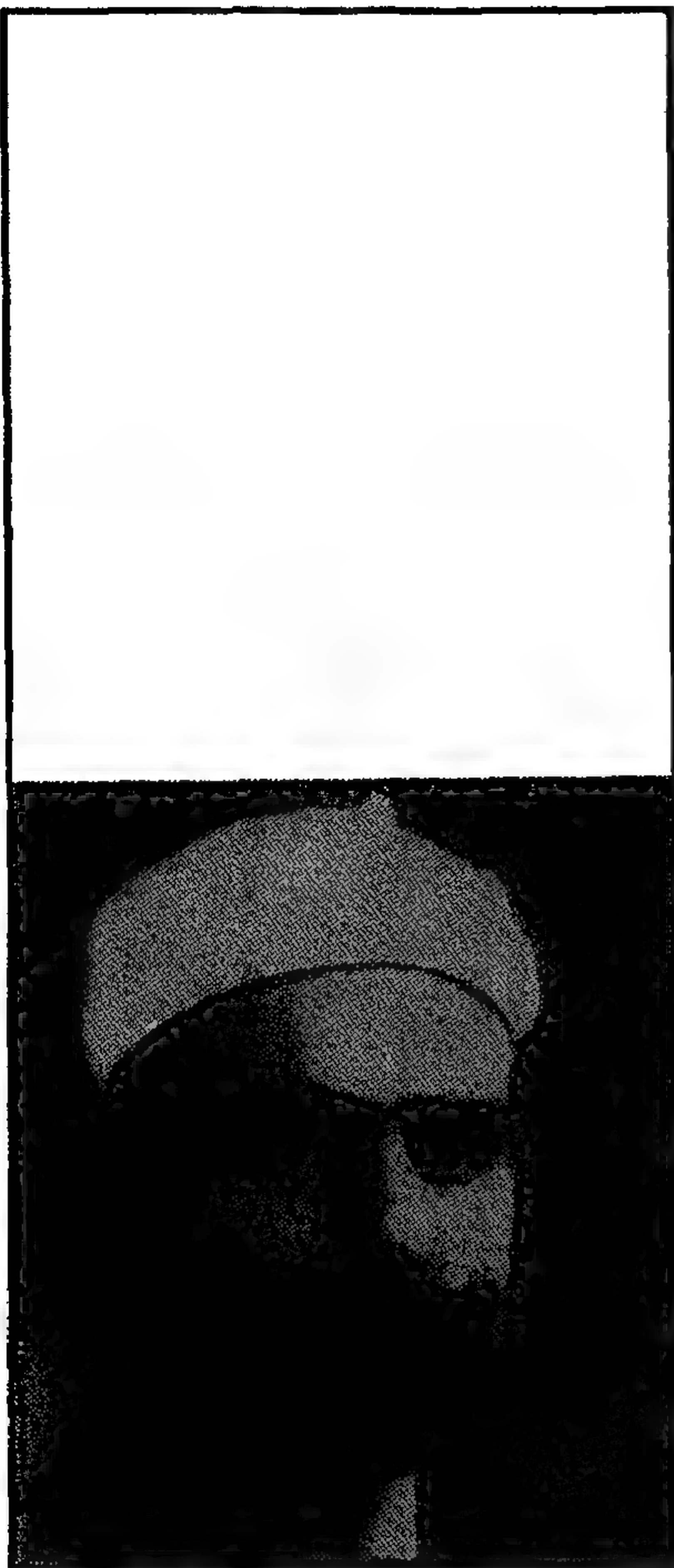
ومن هنا فاذا كان الإسلام لم يقتصر على مبادئ عصره ، وإنما تعداها إلى عصور تالية ، وإذا كانت الخلافة قد أخفقت فى ادراك هذا المعنى وفشلت فى تحقيقه ، فلماذا اذن تُحسب على الإسلام ولا تفصل عنه ؟ وما فائدة نشوء نظام معين ، وسريانه فترة ، والمطالبة به فى العصر الحالى ، إذا كان هذا النظام قد جانب مبادئ الإسلام وخالف أصول الشريعة ؟ .

ثم يقول المستشار العشماوى إنه يتعين بادىء ذى بدء فهم التفرقة بين فكرة الحكم فى ذاتها ونظام الحكم فى الواقع ، وإدراك الفاصل بين نظام الحكم كيفما يكون هذا النظام ، وبين نظام الخلافة ذاته . فالنظام والحكم والرياسة ضرورة لا معدى عنها ، ولزوم لا مندوحة منه ، ولكن ضرورة النظام لاتفرض شكلا معيناً له ، ولزوم الحكم لا يقصره على صورة واحدة ، وحتمية الرياسة لا تحدد وضعاً فريداً لها ، والناس يظنون أن الخلافة نظام دينى لابد منه لتمام الاعتقاد ، ولكن الأمر غير ذلك ، لأنه تجب التفرقة بين الحكومة المدنية والحكومة الدينية .

فالحكومة المدنية ، أو نظام الحكم المدنى ، هو النظام الذى تقيمه الجماعة مستنداً إلى قيمها ومرتكزاً على إرادتها ومستمراً برغبتها ، حتى ولو طبق أحكاماً دينية أو قواعد شرعية . ذلك أن تطبيق النص الدينى أو القاعدة الشرعية لاجعل الحكم دينياً غير قابل للمعارضة ، بل يظل التطبيق دائماً أبداً تطبيق الناس ، ويظل العمل على الدوام عمل الناس ، ليست له عصمة ، ولا له قداسة .

أما الحكم الدينى ، فهو الذى يضيف على الحاكم صفات دينية ، أو يسبغ على الرئيس معانى شرعية ، بحيث يصبح - فى الحقيقة والواقع - هو الدين وهو الشريعة ، ما يقوله هو قول الله ، وما يفعله هو فعل الله ، وما يحكم به هو حكم الله ، لا يعارضه أحداً وإلا صار مارقاً من الدين يستحق الإعدام دينياً ، ويستوجب القتل شرعاً .

فمناطق التفرقة بين الحكم المدنى والحكم الدينى لا يكمن فى تطبيق الأحكام الدينية ، أو تنفيذ القواعد الشرعية - فكل الحكامين ينفذ هذه القواعد ويطبق تلك الأحكام ، وإنما يكمن المناطق حقيقة فى صفة الحاكم ووصف الحاكم ، ففى الحكم المدنى يكون الحاكم شخصاً غير معصوم ولا مقدس ، بينما يكون فى الحكم الدينى معصوماً مقدساً ، ولو كان ذلك بحكم الأمر الواقع ، وخلافاً لحكم الدين .



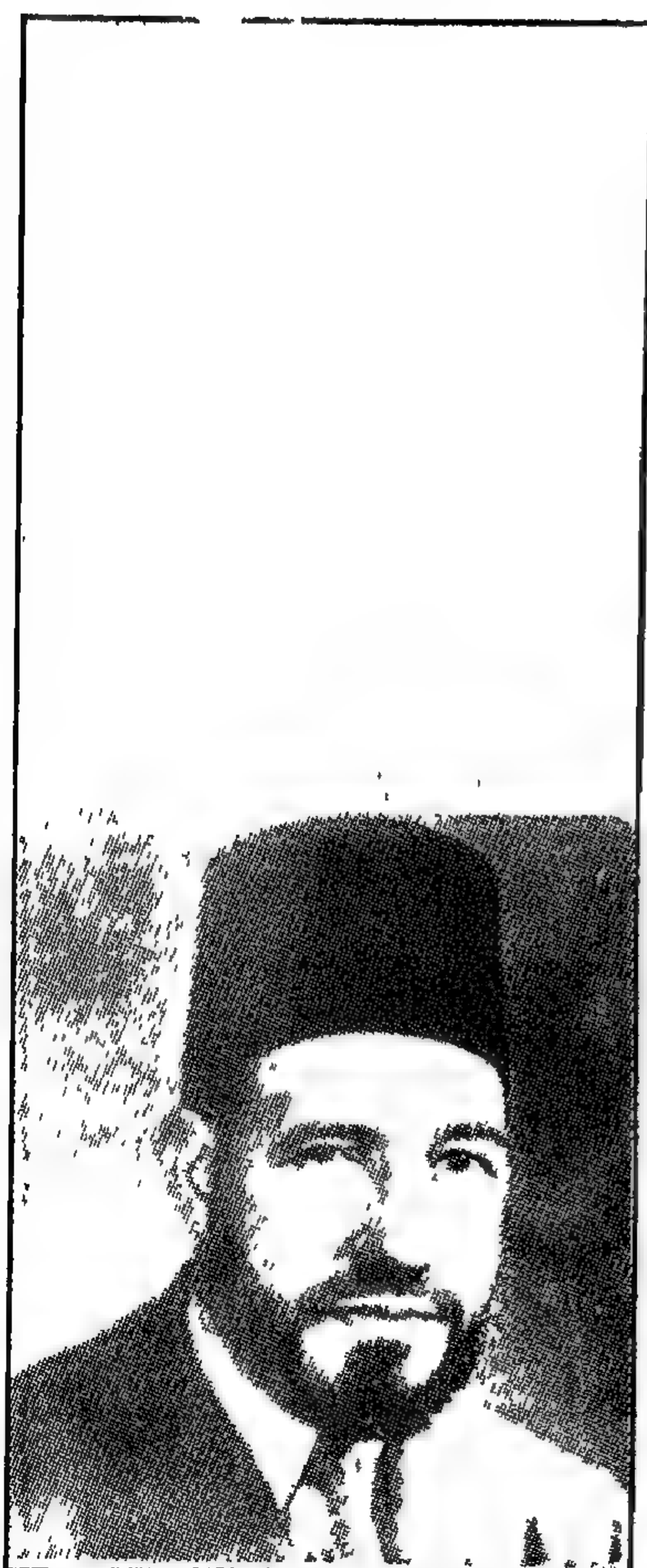
الشيخ على عبد الرازق



الملك فؤاد الأول



الشيخ محمد سيد طنطاوى



الشيخ حسن البنا

وبالنسبة للخلافة فإنها فى الأصل نظام مدنى . ذلك أنه لا القرآن ولا السنة قد أمرا بها أو نظمها ، وإذا كانت قد وجدت وصايا بالاعتصام بحبل الله والتضامن مع جماعة المؤمنين ، فإن هذه الوصايا تتعلق بالدين أو تتصل بوحدة الجماعة ، أو تشير إلى تكوين أمة ، وقد تحمل - من قبيل التجوز - على إيجاد رئيس أو قائد أو إمام ، لكنها لا تحدد شكل الرئاسة أو نوع القيادة أو رسم الامامة ، وبالتالي فإن حكم الدين لا يكون بتحديد شكل الرئاسة فى نظام بذاته هو الخلافة الإسلامية أو غيرها .

وقد بدأت الخلافة الإسلامية - بهذا المفهوم المحدد - مجرد رئاسة للجماعة التى كانت قد تكونت فى وقتها . وكان الرئيس خالفا للنبي (أى يليه فى الوقت ولا يرث حقوقه) ثم انزلت الخلافة إلى أحداث وتغييرات انحدرت بها إلى أن أصبحت نظاما دينيا ، خلافا لحكم الدين وحكم الشرع . فقد أصبح الخالف للنبي خليفة للرسول ، ثم خليفة الله ، ونور الله ، وظل الله ! وهى صفات تفاعلت مع الواقع ، وأثرت فيه ، فجعلت من الخليفة شخصا معصوما لا يحاسب ، مقدسا لا يساءل !

فإذا كانت الخلافة الإسلامية نظاما مدنيا بحسب الأصل ، فلقد انزلت من خلال التعبير ، وانحدرت من خلال الواقع حتى صارت نظاما دينيا بحكم الواقع ، وهذا الطابع الذى انتهت إليه الخلافة الإسلامية ليس تطبيقا للدين ، بل مخالفة له ! وليس إعمالا للشرع بل مناقضة لأحكامه .

وقد يُرد على ذلك بأن الخلافة الإسلامية تمازجت بالتاريخ الإسلامى، وتواشجت مع أحداثه ، مما يوحد بينها وبين الإسلام ، فيجعلها هى الإسلام . وهذا القول خطأ فادح وخط شديد بين الفكرة وتطبيقها ، وبين الإسلام وتاريخه .

فالإسلام - كما يقول المستشار العشماوى - غير تاريخ الإسلام . الإسلام هو المبادئ والتعاليم التى بشر بها النبي (صلى الله عليه وسلم)، والكائنة فى القرآن الكريم ، أو القائمة فى السنة الثابتة

الصحيحة . أما تاريخ الإسلام فهو التاريخ السياسى من مناظير مختلفة، والتاريخ الاقتصادى من رأى متباينة ، وتاريخ الحركات الثورية والسرية من كتابات متنوعة ، وتاريخ المذاهب من زوايا عدة ، وتاريخ الفكر من اتجاهات متغيرة . وهذا التاريخ وقع من بشر ، وسجله بشر ، له أفكاره ومطامعه ومطامحه ودوافعه ، وأغراضه وأسبابه ، فهو قد يصيب وقد يخطئ ، وقد يصح وقد لا يصح ، ذلك أنه عمل بشرى يختلف عن الإسلام ذاته .

فالخلافة الإسلامية - إذن - ليست ركنا من الإيمان ، ولا حكما من الشريعة ، لكنها جزء من تاريخ الإسلام ، والخلط بين الإسلام والتاريخ خطأ فادح ، لأنه يجعل البعض ينظر إليها من منظور عاطفى ، ويحكم عليها بمعيار وجدانى ، فيحاول أن ينكر فيها أى خطأ أو يرفع منها أى زلل ، أو يضيف إليها كل فضيلة ، ويصورها على أنها رمز الإسلام وعلم الشريعة - وهو مالا يتفق مع الحقيقة .

فلقد كانت بيوت الخلفاء - فيما عدا قليلا منهم - مغانى ومراقص ومحافل ومقاصف ومشارب ، يجرى فيها الغناء ويدور الرقص ، ويقع اللهو وتشرب الخمر ، وتنتشر المبازل . وبالتالي لا تعد رمزا للإسلام ، فالرمز يجب أن يكون من طبيعة المرموز إليه ، وإذا كان الإسلام فى الأصل عدالة وحرية ومساواة ورحمة ، فإنه يتعين أن تتجسد فى أى رمز عنه معانى العدالة والحرية والمساواة والرحمة ، ولكن الخلافة كانت مثالا للمظالم والاستبداد والتفرقة والعسف .

كذلك فإن الخلافة لا تعد رمزا لوحدة المسلمين ، لأنها لم تحقق وحدة العالم الإسلامى ، فقد كانت توجد فى وقت واحد خلافات ثلاث : الخلافة العباسية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية فى مصر ، والخلافة الأموية فى الأندلس .

بل فى فجر الإسلام ، وإبان الخلافة الراشدة ، جدت خلافتان : إحداهما لعلى ابن أبى طالب ، والثانية لمعاوية ابن أبى سفيان . وفى

أوائل عهد الخلافة خلافة أخرى كان مركزها مكة ، وكانت لعبد الله بن الزبير .

وقد أدى تقطيع البلاد الإسلامية فى أوائل القرن الرابع الهجرى (سنة ٣٣٤ هـ ، سنة ٩٣٥ م) إلى أن كانت فارس والرى وأصبهان والجبل فى أيدي بنى بويه ، وكرمان فى يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مصر فى أيدي بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الأخشيدى ، والمغرب وشمال أفريقيا فى يد الفاطميين ، والأندلس فى أيدي ملوك الطوائف ، وخراسان فى يد نصر بن أحمد الساسانى ، والأهواز وواسط والبصرة فى يد البريديين ، واليمامة والبحرين فى يد أبى طاهر القرمطى ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ، ولم يبق فى يد الخليفة العباسى ووزرائه إلا بغداد وأعمالها !.

ويصف المستشار محمد سعيد العشماوى الخلافة الأموية بأنها كانت - كما يرى جميع المؤرخين - خلافة دنيوية ، وملكا قحا وسلطانا صرفا ، ولم يكن لها من الدين إلا مظهر ، ولا من الشريعة إلا القشور ، أما الخلفاء الأمويون فقد كانوا رجال دنيا ، وساسة ملك ، وكانوا فى الغالب فسقة وفى الأغلب ظلمة ، وقد حكموا بدعوى خلافة الله ، وحكموا بالسيف والنطع ، وجعلوا الخلافة ملكا ييرث ، ولبسوا الثياب الفاخرة والعدة الكاملة ، وصلوا بعيدا عن الناس فى المقاصير ، وجلسوا على أرائك السلطان ، وأقاموا الحرس والحجاب .

ثم ينقل عن المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون قوله : «انقلبت الخلافة إلى ملك ، صار الأمر إلى الملك ، ويظهر التغير فى الوازع الذى كان دينيا ثم انقلب إلى عصبية وسيف ، ذهبت معاى الخلافة ولم يبق إلا اسمها ، وصار الأمر ملكا بحتا ، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها ، واستعملت فى أغراضها من القهر والتغلب فى الشهوات والملاذ . ذهب رسم الخلافة وبقي الأمر بحتا كما كان الشأن فى ملوك العجم والمشرق» .

ويقول المستشار العشماوى إنه فى عهد الدولة الأموية ضربت كعبة المسلمين بالمجانيق مرتين بأيدي جيش المسلمين ! ففى المرة الأولى كان عبد الله بن الزبير قد دعا فور مصرع الحسين إلى بيعته بالخلافة ، فبايعه أهل تهامة والحجاز ، وسلم الناس عليه بالخلافة ، وظل خليفة للحجاز واليمن لمدة تسع سنين (أى طوال ولاية يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، ومبروان بن الحكم ، ثم عبدالله بن مروان) ، وسير يزيد بن معاوية جيشا لقتال عبد الله بن الزبير بقيادة الحصين بن نمير السكونى ، فسار إليه فى مكة ، وإذ ذاك تحصن ابن الزبير فى الكعبة - المسجد الحرام على المسلمين - غير أن جيش المسلمين بقيادة الحصين حاصر جيش المسلمين بقيادة الزبير ، ونصب الأول المنجنيق ورمى به الكعبة .

ثم كانت المرة الثانية فى عهد عبد الملك بن مروان ، حين سير الحجاج بن يوسف الثقفى لمحاربة عبد الله بن الزبير ، فحاصره بجيشه فى الكعبة ، ولثانى مرة يضرب جيش المسلمين كعبة المسلمين بالمنجنيق ! وكان عبد الله بن الزبير قد أعاد بناءها بعد أن احترقت من الضرب الأول ، واجتاز جيش الحجاج رأس عبد الله بن الزبير وصلبوا جثته ، وحتى كتب عبد الملك إلى الحجاج أنزلها وسلمها لأمه ، وقيل إن الجثة ألقيت فى مقابر اليهود !

ويقول المستشار العشماوى انه عندما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية - لما عرف عنه من فسق - فى سنة ٦٠ هـ ، أرسل يزيد جيشا بقيادة مسلم بن عقبة ، قاتل أهل المدينة ، فهزمهم فى موقعة الحرة الشهيرة ، ثم أصدر القائد المسلم أمرا لجيش المسلمين باستباحة مدينة النبى ثلاثة أيام ، كأمر الخليفة له - كما يفعل الغزاة الأجانب الهمج بأى شعب مهزوم - وبذلك أبيحت دماء وأموال وأعراض المسلمين لغيرهم من المسلمين !

وقيل انه قتل فى هذه الأيام الثلاثة أربعة آلاف وخمسمائة مسلم ، وأنه فضت بكارة ألف فتاة بكر ، ثم ألزم القائد المسلم من بقى فى المدينة

من المسلمين أن يبايعوا يزيد على أنهم عبيد له ! ومن أبي منهم هذه الصيغة الشائنة المهينة قتل . وقد اعتبر يزيد بن معاوية هذه الواقعة انتقاما لأشياخه - أى آبائه وأجداده من أهل المدينة ، عندما حاربوا في صفوف النبي ، وهزموا آل سفيان في بدر .

وقد اعترف معاوية بن يزيد بشناعة ما فعله أبوه ، عندما خلع نفسه من الخلافة ، فقال : «كان أبي يزيد ، بسوء فعله واسرافه على نفسه ، غير خليق بالخلافة على أمة محمد ، فركب هواه ، واستحسن خطاه ، وأقدم على ما أقدم من جراته على الله وبغيه على ما استحل حرمة» ا .

ممارسات الدولة الإسلامية عبر التاريخ*

التشويه الذي تعرض له التاريخ الإسلامي جاء من مصدرين : الأول خارجي ، ممن ينتمون إلى الأديان الأخرى ، والثاني داخلي ، أي من الفرق الإسلامية المختلفة ، التي اتخذت التاريخ مطية لها ، تركبه متى شاءت للوصول به إلى غايتها السياسية ! ومن هنا ، فليس أكثر فائدة من دراسة علمية منهجية تنقي التاريخ الإسلامي من الزيف وتظهر حقيقته ناصعة جلية ، وهذا ما قدمه المستشار محمد سعيد العشماوي في دراسته عن «الخلافة الإسلامية» الذي عرضنا بعضها منها في مقالنا السابق .

وفي البداية نود أن نؤكد على أنه ليس أخطر من الخلط بين التاريخ الإسلامي والدين الإسلامي ، ، فالتاريخ الإسلامي من صنع البشر ، والدين الإسلامي منزل من الله سبحانه ، ولا أحد يسيء إلى الدين

* أكتوبر في ١٨/٣/١٩٩٠

الإسلامى أكثر ممن يخلط بين الدين والتاريخ ، لأنه يخلط بين دين الله وتاريخ البشر، ويلحق بالدين سلبيات حكم البشر، مع وجوب تنزيه الدين عما ليس من شئونه أو من أسسه وقواعده.

لقد ظهرت الخلافة الإسلامية - من واقع التحليل العلمى والحقيقة التاريخية - كرياسة دنيوية ، وليست رياسة دينية . فقد قال أبو بكر بعد أن بويع بالخلافة : «إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم» . وقال عمر بن الخطاب إثر ولايته الخلافة : «إن رأيتم فى اعوجاجاً فقوموني» !

وهذا القول من كبيرى الإسلام ، وأول وثانى الخلفاء الراشدين والخلفاء عامة ، يفيد أن شرعية الخلافة جاءت من مبايعة الناس للخلفاء ، وأن هذه الشرعية تستمر مادام الناس راضيين عن مسلكهم فى سياسة أمورهم وفقاً للمبادئ العامة المذكورة فى القرآن الكريم والسنة النبوية .

وهذه الشرعية للخلافة فى الإسلام تختلف عن شرعية الخلافة فى المسيحية ، ففيما يروى عن السيد المسيح أنه سأل تلاميذه عمن يكون ؟ أو ماذا يعتقد الناس عن شخصه ؟ فأجاب سمعان كبيرهم إنه هو المسيح، فقال له السيد المسيح : «وأنا أدعوك (أسميك) بطرس (أى بيتر ، وهو الصخرة البيضاء) وعلى هذه الصخرة أبنى كنيسة ، فما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السماء ، وما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء» . وبهذا القول أصبح بطرس - الذى كان اسمه من قبل سيمعان - خليفة للسيد المسيح ، ما يحله على الأرض يصير محلولاً فى السماء ، وما يربطه على الأرض يصبح مربوطاً فى السماء . وهو ما يفيد فى اللاهوت المسيحى أن مشيئته هى مشيئة الله ، وأن فعله هو فعل الله، وأن كلامه هو كلام الله .

وعلى هذا المعنى إنبنت الكنيسة المسيحية ، إذ صار البابوات خلفاء لبطرس خليفة المسيح . فالخلافة فى المسيحية ، أى خلافة البابوات

ونوابهم ومن يرسمونهم ومن يولونهم ، هي فى الاعتقاد المسيحى خلافة دينية ، أما فى الإسلام ، فالخلافة - تبعاً لنشأتها ووفقاً لطبيعتها - خلافة تصدر عن إرادة الناس التى تتمثل فى بيعة الناس للخليفة ، وتظل تحت رقابتهم بمحض إرادتهم وبكل رضائهم .

وقد كانت فترة ولاية أبى بكر الصديق عامين مليئين بحروب تسمى - عموماً - حروب الردة ، غير أنها فى الحقيقة حربان وليست حرباً واحدة ، فهى حروب الردة لمن ارتد عن الإسلام من القبائل ، وكان عدداً محدوداً ، وحروب الصدقة لمن امتنع من القبائل عن أداء الصدقة إلى الخليفة الجديد .

ومن هنا فلم يحدث فساد يستلقت النظر ، خاصة أن المسلمين كانوا ، حديثى عهد بالإسلام ، يرعون قيمه ويحافظون على مثله . وقد خلف أبى بكر عمر بن الخطاب ، وكان حازماً مع الجميع حريصاً على نقاء المسلمين ومال المسلمين .

ولكن مع خلافة عثمان ، الذى كان هيناً ليناً ، بدأ الفساد ، إذ فتح خزائن بيت المال أمام أهله وعشيرته بنى أمية ، واتخذ أقرباءه عمالاً على أمصار الإسلام . ويقتل عثمان اندلعت الفتنة الكبرى ، واستنت فى الإسلام سنة إهدار الدم وقتل الحاكم ، وقام الأمويون بزعامة معاوية ، وظهر الخوارج بفكرهم العليل .

وفى عهد الخلافة الأموية زادت الفتن والقتال ، فعندما ضاق بنو أمية وحواشيهم بالخليفة العادل الزاهد عمر بن عبد العزيز ، رشوا عبده الأسود ، فدس له السم لقاء ألف دينار ، ومات عمر بن عبد العزيز ولم تزد خلافته على عامين إلا قليلاً . ودخل يزيد بن الوليد بن عبد الملك على عمه الخليفة الوليد بن يزيد هو وجماعة بايعته ، فقتلوا الخليفة الوليد ، الذى قال عندما رأى قتله : يوم كيوم عثمان ؟ فقالوا له : ولا سواه ! ثم قطعوا رأسه ، وطافوا به فى دمشق ، ثم نصب على قصر الخليفة أعلى السور .

وفى عز الخلافة الأموية ، وفى ضحى التاريخ الإسلامى كان الفسق كثيراً ، والفجور سافراً يقع فى قصور الخلفاء ويحدث بين صفوف المسلمين ، فكانت الخمر والغناء واللواط والتخنت والتشبيب بالنساء ، وبنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة ببیت المقدس ، ودعا الناس إلى زيارتها بدلاً من زيارة الكعبة ! فصرف الناس عن أداء الحج ، الذى هو ركن من أركان الإسلام ، مخافة أن يقابلهم فى مكة عبد الله بن الزبير فيأخذ منهم البيعة له ! وكان الناس فى يوم عرفة يقفون بقبة الصخرة ، إلى أن قتل عبد الله بن الزبير .

وفى سبيل تقويض هذه الخلافة لتستبدل بها خلافة هاشمية ، والى الهاشميون الثورة على الخلفاء الأمويين واحداً إثر واحد ، وكانوا يرجعون كل مساوئ الخلافة الأموية إلى عدم الحكم بالشرعية ، أو بشرع الله ، أو بما أنزل الله ، ووعدوا أن يحكموا بما أنزل الله فيما لو آلت إليهم الخلافة ، ولما تهيأت الظروف قام فى خراسان الفارسية أبو مسلم الخراسانى ، فقاد الثوار حتى قضى على الخلافة الأموية وأقام الخلافة العباسية .

على أن الخلافة العباسية كانت خلافة لبنى العباس وحدهم دون آل أبى طالب ، أى أنها اقتصرت على جزء من الهاشميين دون الآخر ، مما دعا إلى الانشقاق فى صفوفهم إلى عباسيين يحكمون ، وطالبيين يعارضون .

فخرج على أبى جعفر المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، الملقب بالنفس الزكية ، وكتب إلى أبى جعفر المنصور يقول : «إن أبانا علياً كان الوصى وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟» فرد عليه أبو جعفر المنصور قائلاً : «إنما أنتم بنو بنته (الرسول) ، وإنها لقربة لا يجوز لها الميراث ، ولا ترث الإمامة ، ولا يجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ؟» . فكان الطرفان يتكلمان عن الخلافة باعتبارها إراثاً وميراثاً عن النبى .

ولما ركن الخلفاء العباسيون إلى فكرة خلافة الله ووراثة النبی ، واستطابوا ألفاظ الجلالة واسترخوا في معاني العصمة ، فسدوا وأفسدوا ، فلم يعصمهم ضمير ولم ينههم خلق ، ولم يحدهم حد .

وبدأوا حكمهم بنش قبور الخلفاء الأمويين ، ثم القضاء على من بقى منهم في مذبحه فظيعة . فقد نبشوا قبر معاوية بن أبي سفيان ، فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد ، ونبشوا قبر عبد الله بن مروان فوجدوا جمجمته ، ونبشوا قبور باقي الخلفاء فلم يجدوا إلا العضو بعد العضو ، غير هشام بن عبد الملك فإنهم وجدوه صحيحا لم تبل منه إلا أرنبه أنفه ، فضربوه بالسياط ، وصلبوه ، وحرقوه ، وذرروا الرماد في الريح ! وتتبع أبو العباس بنى أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم ، فأخذهم ، ولم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس ، مثل عبد الرحمن بن معاوية ، المعروف بعبد الرحمن الداخل .

وكان أبو العباس قد أمّن سليمان بن هشام بن عبد الملك وكبار القوم من الأمويين ، ثم دعاهم إلى مأدبة عشاء ، وأمر بهم (ويقال بل عمه عبد الله بن علي) فضربوا بالعمد ، حتى قتلوا ، ثم بسطوا عليهم الأنطاع ، وأكل هو الطعام عليها ، وهو يسمع أنين بعضهم حتى لفظوا الأنفاس جميعا .

وعندما ولي أبو جعفر المنصور ، وهو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، افتتح خلافته بقتل عمه عبد الله بن علي ، خوفا منه أن ينازعه الملك ، أو يشغب عليه فيه . ثم انقلب على أبي مسلم الخراساني فقتله كذلك ! ولما قال له هذا : استبقني يا أمير المؤمنين لعدوك ، قال المنصور : وأي عدو أعدى منك ؟ .

وقد قال رجل للمنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو ؟ فقال المنصور : لأن بنى مروان لم تبل رممهم ، وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم ، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة واليوم خلفاء ، فليست تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا نسيان العفو واستعمال العقوبة .

وقبض الرشيد على يحيى بن عبد الله (أخى النفس الزكية) بعد أن أعطاه العهد ، ثم استفتى العلماء فى نقض العهد ، فوافقه بعض الفقهاء ، ومنهم محمد بن الحسن الشيبانى (تلميذ أبو حنيفة) فحبس الرشيد يحيى !

وكان المنصور قد قتل محمد (النفس الزكية) عندما استولى هذا على المدينة وهاجم أبا جعفر المنصور قائلاً : «قد كان من أمر هذا الطاغية (المنصور) عدو الله ما لم يخف عليكم ، من بنائه القبة الخضراء ، التى بناها معانداً لله فى ملكه ، وتصغيرا للكعبة الحرام ، اللهم إنهم أحلوا حرامك ، وحرّموا حلالك ، وأمنوا من أخفت ، وأخافوا من أمنت .»

وبعد قتل محمد النفس الزكية ، قام عامل (والى) المنصور عيسى بن موسى «بصلب» أصحاب محمد النفس الزكية ما بين ثنية الوداع إلى دار عمر بن عبد العزيز صفين ، وبقوا على هذه الحال أياماً ثلاثة ، ثم أنزلوا فألقيت جثثهم على مقابر اليهود ، ثم بعد ذلك فى خندق !

وكان العباسيون أشد قسوة على العلويين - وهم هاشميون - من الأمويين أنفسهم ! حتى ترحم هؤلاء على أيام بنى أمية ! وقال شاعرهم : «يأليت جور بنى مروان عاد لنا ، ياليت عدل بنى العباس فى النار» ! وقد بكى الإمام الشيعى محمد بن عبد الله بن حسن ، وقال : لقد نقمنا على بنى أمية ما نقمنا ، فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم ، ولقد كان للقوم (بنى أمية) أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر المنصور .

وفى عهد الخلفاء ضُرب الأئمة الأربعة بالسياط ! وبالنسبة لأبى حنيفة ، الذى عاش خلال الخلافتين الأموية والعباسية (٨٠ - ١٥٠ هـ) فقد أراد يزيد بن عمر بن هبيرة أن يوليه قضاء الكوفة أيام مروان بن محمد (آخر الخلفاء الأمويين) فرفض أبو حنيفة ، فضربه الوالى مائة سوط ، وظل يضربه كل يوم عشرة أسواط لا قناعه ! فلما يئس أخلى سبيله ! وبعد بناء مدينة بغداد استدعى الخليفة أبو جعفر المنصور

أبا حنيفة ، وعرض عليه أن يلى قضاء الرصافة ، فاعتذر ، فألحق به المنصور عسفا وعنتا !

ومع أن الإمام مالك (٩٣ - ١٧٩ هـ) كان يتجنب السياسة ، حتى لا يؤذى أو يقتل ، فقد أوقع البعض بينه وبين والى المدينة ، وهو عم أبى جعفر المنصور ، فقالوا له إن مالكا حدث بحديث النبى عليه الصلاة والسلام : «ليس على مستكره طلاق» . وأنه يقصد بذلك أن أيمان بيعة الخلفاء العباسيين غير ملزمة ، لأنها حدثت على الاكراه ، وليس على المبايع مبايعة . وقد غضب الوالى ودعا بمالك إليه ، وجرده من ثيابه ، وضربه بالسياط ، ومُدت يده حتى خلعت كتفه ! وقد استرضى المنصور بعد ذلك مالكا ، فغفر للحكم العباسى هذه الاهانة البالغة ، وأثنى على المنصور وعلى علمه وعلى فضله ! .

وعندما كتب ابن المقفع للمنصور كتابا سماه «رسالة الصحابة» ينصح فيه للخليفة بحسن اختيار من يعاونه ، وحسن سياسة من يحكمه ، أمر به المنصور ، وقطع أصابعه التى كتبت الرسالة ، ثم قطع أطرافه قطعة قطعة ، وشويت على النار أمام عينيه ، وأجبر على أكلها ، حتى مات ! .

وفى عهد الخلفاء العباسيين عمدوا إلى فرض الاعتقاد بمراسيم السلطة ! حين أجبروا الناس على الاعتقاد بخلق القرآن .

* * *

وقد دخلت فكرة خلق القرآن إلى الإسلام تأثرا باليهودية والمسيحية، فقد وجدت فرق فى اليهودية ترى أن كلام الله مخلوق ، لأن الله أزلى وكلامه حادث مع الزمن ، أى وقع بعد بدء الزمن ، ومن ثم فهو مخلوق غير أزلى . كما رأت فرق فى المسيحية ذلك أيضا .

وقد بدأت فكرة خلق القرآن خلال الدولة الأموية ، ثم تبنى المعتزلة فى العصر العباسى هذه الفكرة ، وذهبوا إلى أن القول بغير ذلك - أى بأن القرآن أزلى - يتضمن شركا بالله . وقد تبنى الخليفة المأمون ، وبعده الخليفتان المعتصم والواثق ، هذه الفكرة ، وأصدر كتابا يفرض هذا الاعتقاد على الرعية ، بحجة أن القول بغير ذلك يتضمن مساواة بين الله تعالى وما أنزل من القرآن ، ويطلب إلى ولاته أن يجمعوا من بحضرتهم من القضاة ، ويبدأوا فى امتحانهم فيما يقولون .

* * *

وقد امتُحن العلماء والفقهاء فى مسألة خلق القرآن ، ونزل بهم بلاء شديد وعذاب أليم ، فقالوا جميعا بخلقه ، ما عدا أحمد بن حنبل ، الذى أصر على أنه غير مخلوق ، فأمر الخليفة المعتصم بجلده وتعذيبه ، وأودعه السجن ، فظل فيه ثمانية وعشرين شهرا ، حتى ولى المتوكل الخلافة فعدل عن هذا الاتجاه .

ولم يكن حال الخلافة الفاطمية بأفضل من حال الخلافتين الأموية والعباسية ، وكما فعل الخلفاء العباسيين من لعن الخلفاء الأمويين وجلد رفاتهم ، كذلك فعل الخلفاء الفاطميون .

فقد عملوا على لعن الخلفاء الثلاثة الأولى ، أبو بكر وعمر وعثمان ، ولعن غيرهم من الصحابة ، إذ عدوهم أعداء لعلى . وكان الخطباء يلعنون هؤلاء الخلفاء والصحابة من كافة المنابر ، وكانت العقوبة الصارمة تنزل بمن يمتدح أى خليفة من الخلفاء السنيين .

وألزم الفاطميون جميع الموظفين المصريين اعتناق المذهب الفاطمى الاسماعيلى ، وحتموا على القضاة إصدار أحكامهم وفقا لهذا المذهب ، واشتدوا على أهل السنة ومنعوهم من إقامة مراسمهم . وأبطل الخليفة العزيز صلاة التراويح من جميع مساجد مصر لأن الذى نظمها عمر بن

الخطاب ! وعندما صلى إمام أحد المساجد صلاة التراويح في عهد الحاكم بأمر الله ، أمر به فضرب عنقه ! كما منع الفاطميون صلاة الضحى ، لأنها من صلوات السنة التي لا يعترف بها الشيعة .

واعتزم الحاكم بأمر الله نبش قبرى أبى بكر وعمر فى المدينة ، وأرسل رسلا لهذا الغرض ، لولا اكتشاف المؤامرة ، كما حاول هدم كنيسة القيامة بالقدس ، وكانت محاولته من أسباب الحروب الصليبية . كما ادعى الحاكم بأمر الله الألوهية ، وخطب صراحة بعبارات وأوصاف الجلالة ، مما أدى إلى نشوء العقيدة الدرزية التي لم تزل قائمة فى بعض أنحاء الشام !

ولم تكن الخلافة العثمانية بأفضل ، فقد كان السلطان سليم شخصية سوء بكل معيار ، فقد تأمر على والده السلطان بايزيد حتى اضطره إلى خلع نفسه ، فتولى هو السلطنة . وعندما استولى على مصر قبض على الخليفة العباسى المتوكل ، وحمله معه إلى القسطنطينية ، وقبل أن يخرج من مصر نزع منه الخلافة قهرا ، ولبس شعارها فى احتفال كبير ، وبذا خرجت الخلافة من بنى العباس إلى آل عثمان .

ويتضح من هذا العرض - الذى قدمه المستشار محمد سعيد العشماوى فى كتابه «الخلافة الإسلامية» - الذى نشرته دار سينما للنشر- كيف بُعد التاريخ الإسلامى عن روح الدين الإسلامى الصحيح ، بل إنه كان فى معظم فتراته نقيضا للدين الإسلامى !

كما يتضح أيضا أن الدين شىء والسياسة شىء آخر ، وأن القول بأن الإسلام دين ودولة ، ابتداء من الشيخ حسن البنا إلى سيد قطب إلى د . عمر عبد الرحمن وغيرهم ، يتغافل تماما عن أن التطبيق التاريخى لهذه المقولة قد أثبت أن الإسلام شىء والدولة شىء آخر ، وأن المزج بينهما فيه اهانة بالغة للدين ، فلم تحتو تعاليم الدين الإسلامى الحنيف على شىء مما مارسته الدولة الإسلامية عبر التاريخ ، ومارسه الخلفاء المسلمون من اعتداء وترويع وتنكيل ومفاسد وفتن وقتل وصلب للمخالفين

فى الرأى ، وضرب للكعبة بالمنجنيق ، ومظالم شملت العالم والجاهل والكبير والصغير ، وإن نسبة هذا الحكم إلى الإسلام فيه اساءة بالغة إلى الإسلام .

ومن هنا يتضح أيضا أن دعاة الإسلام السياسى والقائلين بتطبيق الشريعة الإسلامية - التى هى مطبقة بالفعل ! - إنما يتاجرون بهذه الشعارات لأسباب سياسية وليست دينية ، فقد كان تطبيق الشريعة الإسلامية قائما طوال التاريخ الإسلامى ، حتى نهاية الربع الأول من هذا القرن حين سقطت الخلافة العثمانية ، ولم يمنع هذا التطبيق الدولة الإسلامية من البطش والاعتداء والفساد وانزال المظالم بالرعية !

ومن هنا ، أفليس من الأجدى ، بدلا من محاولة بناء الدولة الإسلامية المزعومة ، بناء الفرد المسلم ؟

الحركة الإسلامية في مصر بين الأفهام والأوهام *

منذ سقوط الدولة العثمانية ،
وسقوط الخلافة في القسطنطينية ،
وقيام دستور مدنى فى مصر هو
دستور ١٩٢٣ . قامت الحركة
الإسلامية فى مصر ولم تقعد ، مطالبة
بتطبيق الشريعة الإسلامية وعودة
الحكومة الإسلامية والخلافة الإسلامية،
بدافع من الحنين الغريب إلى عصر
مضى ، دون أن تعنى نفسها بتقييم
ذلك العصر ومعرفة ما إذا كان انتهاؤه
نتيجة فقدته مبرر بقاءه ، أو أن هذا
الانتهاء كان نتيجة أجهاض بفعل قوى
خارجية عن إرادته . وقد قدر لهذه
الحركة أن تكبل أقدام التقدم فى مصر،
وأن تشل حركتها للحاق بركب العصر،
وأن تضع مصر دائماً فى الموضع الذى
يجعل حركتها كحركة الأرجوحة ، فهى
تتحرك مرة إلى الأمام ومرة إلى
الخلف، أو تجعل الناس يتحركون
بظهورهم إلى الأمام ووجوههم إلى
الخلف !

* أكتوبر فى ١٩٩٠/٥/٦

الحركة الإسلامية - إذن - مسئولة عن الوضع الذى صار إليه المجتمع المصرى . فلم يكن أمام مصر فى ذلك الحين بعد الحرب العالمية الأولى إلا طريق الحضارة الغربية التى أثبتت تفوقها ، ولم يكن أمامها من نموذج سوى نموذج اليابان ، التى تركت ماضيها وراءها بعد أن اكتشفت أنه فقد مبرر بقاءه ، وأقبلت على الحضارة الغربية تنهل منها ، حتى أمكنها فى فترة زمنية لا تتجاوز نصف قرن أن تهزم دولة القياصرة هزيمة منكرة فى عام ١٩٠٤ ، وتثير فيها القلاقل والثورات التى أدت ، بعد ثلاثة عشر عاما فقط ، إلى سقوط عرش القياصرة ، وسقوط النظام شبه الاقطاعى وشبه الرأسمالى فى روسيا ، وقيام النظام الاشتراكى .

وقد كان فى مصر بالفعل من نادى بهذا الاتجاه فى ذلك الحين ، فقد كتب سامى الجردينى فى الهلال فى عدد مايو ١٩٢٥ تحليلا لأثر الثورة العالمية فى النظام الدولى توصل فيه إلى هذه النتيجة ، وهى أنه «لا مفر أمامنا للوصول إلى ما وصلت إليه الحضارة الغربية ، إلا أخذ بأسباب هذه الحضارة الغربية فى مادتها وروحها ، أما أن نتخذ من الحضارة الغربية عدوا لدودا ، فإننا نسير إلى الاضمحلال لا محالة فقد كان فى الشرق حضارة عمت ، وامتد سلطانها إلى الغرب ، فوقف الحضارتان وجها لوجه ، ودام النزاع بينهما قرونا ، وما نحن أولاء نرى الغلبة للحضارة الغربية» .

ثم ضرب المثل باليابان «التي استطاعت الوقوف فى وجه الغرب عندما أخذت بأسباب حضارته فى مادتها وروحها ، وتمكنت من الوقوف معه على قدم المساواة» .

كان خطأ الحركة الإسلامية القاتل هو أنها لم تستطع أن تفرق بين الإسلام كدين وخلق وعقيدة تملأ جوانح الروح ، ومبادئ سامية تصا الفرد وتهديه سواء السبيل ، والإسلام كسياسة وحكومة ودولة وخلافة وكانت مصر فى حاجة بالفعل إلى الإسلام بالمعنى الأول ، ولكنها تكن فى حاجة إلى الإسلام بالمعنى الثانى ، لسبب بسيط هو أن الإسا

بالمعنى الثانى كان هو السائد فى مصر على مدى أربعة عشر قرنا ، فقد كانت هناك الخلافة الإسلامية ، وكانت هناك الدولة الإسلامية ، وكانت هناك الحكومة الإسلامية - ومع ذلك فلم تمنع الخلافة والدولة والحكومة الإسلامية مصر من الهزيمة أمام جيوش بونابرت ، ثم من الهزيمة أمام جيوش الاحتلال البريطانى ، أو من سقوط وسائل إنتاجها فى قبضة الامبريالية الغربية !.

بل إنه عندما ثارت مصر على الوصاية الأجنبية وعلى التدخل الأجنبى ، وبينما كان أحمد عرابى يقاوم جيش الغزاة البريطانيين وهم يتقدمون داخل أرض مصر ، وقبل موقعة القصاصين الثانية فى ٩ سبتمبر ١٨٨٢ ، أصدر خليفة المسلمين من الآستانة قرار عصيان عرابى فى منشور طويل نشرته صحف الآستانة يوم ٦ سبتمبر ١٨٨٢ فخلخل بذلك عزائم القوات المصرية ، وسلب من نفوسهم حب الشهادة ، إذ تساءلوا قائلين :

نحن إذن عصاة ؟

ومن هنا فقد كان على مصر أن تدير ظهرها بالفعل لأفكار الخلافة والدولة والحكومة الإسلامية ، وتقبل على الإسلام كمبادئ وعقيدة تصلح الفرد وتهديه ، وتجعله لبنة قوية صلبة فى بناء المجتمع المصرى ، وترتكز عليه فى بناء المجتمع المصرى ، وترتكز عليه فى بناء نهضتها من جديد على أسس الحضارة الغربية ، التى ترسمتها اليابان ودفعت بها من دولة ضعيفة تتعرض للاستعمار فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، إلى دولة قوية مهيبة ، تتغلب على الدول الاستعمارية ، وتأخذ مصاف الدول العظمى فى نهاية القرن التاسع عشر ، ثم إلى الصف الحالى الذى نراها فيه ونحن نقرب إلى أواخر القرن العشرين .

ولكن قيام حركة الإخوان المسلمين على يد الداعية حسن البنا غير هذا المسار. لقد بدأت فى مستهل حياتها كحركة دينية بحتة ، تهدف - كما كتب الشيخ طنطاوى جوهرى رئيس تحرير جريدة الإخوان المسلمين -

إلى «نشر فضائل النبوة المحمدية ومقاصدها والآداب المنقولة عنها والأحاديث الدالة على الأخلاق الفاضلة من الصدق والعفاف وحسن المعاشرة والاحسان إلى الجار القريب ، وذكر العبادات من صلاة وزكاة وحج، وتبين للناس كيف كان آباؤنا يعملون وكيف سادوا العالم بأخلاقهم واجتهادهم فى العلم والعمل ، وتكوين الخلق الاسلامى الصحيح فى الأمة تكوينا صالحا، بالاعتماد على وسيلة واحدة هى الحب والاخاء والتعارف التى تنتج حسن الأسوة واصلاح النفس».

هكذا بدأت ، ولكنها انتهت إلى جماعة سياسية تهدف إلى الخلافة والدولة والحكومة الإسلامية ، وتعتمد على المتفجرات والقنابل والمدافع، وتقتل النقراشى، وتحاول قتل عبد الناصر، وتفرض فكر التكفير على يد سيد قطب ، الذى هيا المناخ لقيام جماعة الجهاد التى قتلت السادات فى عرينه ، ثم شغل مصر بقضايا الفتن الطائفية ابتداء من الزاوية الحمراء فى يونية ١٩٨١ إلى أحداث المنيا الأخيرة فى مارس ١٩٩٠، وشل اقتصاد مصر بدفع بمئات الألوف من الملايين من مدخرات الشعب إلى جيوب شركات توظيف الأموال لتتبخر وتضيع ، وتضيع معها فرصة إصلاح هيكل الاقتصاد المصرى وفى الوقت الذى يتحدث فيه العالم عن مراكب الفضاء التى تجاوزت فى مسارها آخر كواكب المجموعة الشمسية وانطلقت فى الفضاء الأبدى . تشغل الناس فى مصر بقضايا من القرن الأول الهجرى عن الفائدة والربا ، إلى آخر تلك السلسلة من التخريب !

على أنه - مع ذلك - وتحت تأثير النتائج الفادحة التى ألحقها تيار الإسلام السياسى ، وجد فريق منه على درجة من الاستنارة تتيح له إدانة التيار السلفى المتشدد «الذى يرى فى أى انفتاح حضارى رجسا من عمل الشيطان ، وأى طريق للخلاص انما يكمن فى العودة المطلقة لعصر السلف وتراث السلف ، ويذهب فى عبوديته لسلوكيات هذا العصر ونصوصه إلى التشبه بارتداء «جلابيبه» واطلاق لحاه » ! ولكن هذه

الاستنارة لم تذهب إلى حد الاعتراف بضرورة فصل الدين عن الدولة والأخذ بشعار الدين لله والوطن للجميع .

ومن هذا الفريق المستنير بتلك الدرجة المحدودة الأستاذ حامد سليمان ، الذى كتب كتابا بعنوان : «الغام فى طريق الصحوة الإسلامية» ، أدان فيه التيار السلفى المتشدد ، وأدان - فى الوقت نفسه - ما سماه بالتيار العلمانى المنبهر بالحضارة الغربية .

ولكنه أخطأ فى تعليل مطالبة التيار العلمانى بفصل الدين عن الدولة، فعزا إلى هذا التيار الاعتقاد بأن الدين هو سبب التخلف، وأن التقدم - لذلك - يكمن فى عزل الإسلام عن كل ماله علاقة بالدولة والشئون العامة! وقد وضع الأستاذ حامد سليمان بذلك القضية فى صورة مغلوطة تماما . فليست مطالبة هذا التيار العلمانى بفصل الدين منشؤها اعتقاد هذا التيار بأن الدين هو سبب التخلف، وإنما منشؤها الرغبة فى تنزيه الدين عما ليس من شئونه . والحرص على الدين من أن تلتصق به سلبيات السياسة والصراع على الحكم وتصريفات الدولة ، التى يطلق عليها اسم الدولة الإسلامية بينما أثبت التاريخ أنها لا تستطيع فى سلوكها إلا أن تكون دولة مدنية لا دينية .

التيار العلمانى المنبهر بالحضارة الغربية» لا يقل - إذن - ديننا وتديننا عن التيار السلفى ، ولكنه أكثر حرصا على الدين من التيار السلفى الذى يحمل الدين أوزار الحكومات الإسلامية المتعاقبة عبر التاريخ ، وينسى دروس التاريخ وعبره التى تتحدث عن ابتعاد الخلافة الإسلامية فى حكمها عن الدين ، وأنها كانت أشد استبدادا بالمسلمين من أية حكومات مدنية دكتاتورية ، لأنها كانت تستخدم الدين كوسيلة لتخدير الشعوب الإسلامية عن المطالبة بحريتها الداخلية التى كفلها لها الإسلام .

ومن هذا المنطلق الخاطيء فى فهم منطلقات «التيار العلمانى المنبهر بالحضارة الغربية» - كما يقول - فإن الأستاذ حامد سليمان خصص كتابه للرد على ما أسماه «الغام» هذا التيار فى طريق الصحوة

الإسلامية، وخصص الفصل الأول منه للحديث منه للحديث عن اللغم الأول ، وهو : «لادين فى السياسة ، ولا سياسة فى الدين» فأطلق على محاولات فصل الدين عن الدولة وصف «المحاولات اللئيمة» !

على أننا نفاجأ بأن الأستاذ حامد سليمان يعتبر حكم الخلفاء حكماً «علمانياً صرفاً تحت اسم الخلافة لمحض التمولية فقط» ! وأن هذا الحكم العلمانى الصرف بدأ بعد وفاة الرسول عليه السلام بفترة وجيزة لم تزد على الثلاثين عاماً ، بداية من العصر الأموى . ويعتبر أولى محاولات فصل الدين عن الدولة تلك التى تمثلت فى ذلك المشهد المروع الذى أطبق فيه الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان مصحفاً كان يقرأ فيه - فى حجره - وقال : «هذا آخر عهدى بك»! وذلك عندما دخل عليه رهط من أصحابه يبشرونه بأنه أصبح خليفة للمسلمين - رغم أن عبد الملك بن مروان كان من أفقه رجال عصره ! .

وفى رأينا أن هذه المحاولة من الأستاذ حامد سليمان لوصف حكم الخلافة الإسلامية على مدى التاريخ بأنه حكم علمانى ، على الرغم من صحتها وموافقتنا عليها موافقة تامة ، فإنها تخفى تحتها نفس فكرة الإسلام السياسى والحكومة الإسلامية ، وهى محاولة للدوران من حول هذه الفكرة . فهى تريد أن تقول إن ما تطالب به حركة الصحوة الإسلامية الحالية هو حكومة إسلامية بالمفهوم الإسلامى الصحيح، وليس بالمفهوم الذى طبق على مدى أربعة عشر قرناً تطبيقاً خاطئاً !

وفى ذلك يقول :

«إن محاولة إبعاد الدين عن السياسة تعتبر بالنسبة للإسلام إجهاضاً لمفهومه السياسى الذى أكدته نصوص القرآن والحديث وممارسات الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابه وكبار الفقهاء المجتهدين . فالإسلام جاء بتنظيم شامل لإدارة شئون حياتنا السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية من خلال نظام مرن صالح لكل زمان ومكان وغير قابل للتوقف أو التجسد أو الفشل» .

ولم يسأل الاستاذ حامد سليمان نفسه : إذا كان الحكام المسلمون قد عجزوا - على مدى أربعة قرنا - عن تطبيق المفهوم السياسى للإسلام، الذى أكدته نصوص القرآن والحديث وممارسات الرسول والصحابة وكبار الفقهاء المجتهدين ، فكيف يتوقع سيادته من حكام هذا الزمن تطبيق هذا المفهوم ؟

وإذا كانت الحكومة الإسلامية التى عرفها التاريخ هى الحكومة التى وصفها هو نفسه بأنها حكومة علمانية ، فكيف يتأتى قيام حكومة إسلامية بعد أربعة عشر قرنا تختلف عن هذه الحكومة ؟

وإذا كان بعض حكام تلك الحكومات العلمانية ، ممن شهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعينهم ، مثل حكام بنى أمية ، قد عجزوا عن تأسيس حكومة إسلامية صحيحة، فاستحقت حكوماتهم من الأستاذ حامد سليمان وصف : «حكومات علمانية صرفة تحت اسم الخلافة» ، فكيف يكون الحال مع حكام هذا الزمن الذين لم يشاهدوا الرسول ، وتغيرت معايير الحكم بالنسبة لهم ؟ هل يمكن لهؤلاء الحكام المعاصرين إقامة الحكومة الإسلامية التى ينطبق عليها المفهوم السياسى للإسلام الذى أكدته نصوص القرآن والحديث إلى آخره ؟

لماذا لا يعترف الأستاذ حامد سليمان بأن تجربة أربعة عشر قرنا من الحكومة الإسلامية قد أثبتت أنها لم تكن حكومة إسلامية وإنما كانت حكومة علمانية ؟ وأن هذه التجربة - من ثم - تجعلنا ندرك أن فكرة الإسلام دين ودولة هى فكرة غير قابلة للتطبيق ولم يطبقها التاريخ ، فنعترف بالأمر الواقع ونكف عن التقدم إلى الأمام بظهورنا ووجوهنا متطلعة إلى الماضى ؟ ما معنى التشبث بمبدأ لا يطبق إلا فى عهد الرسول ؟

وهل نقلل من أهمية الإسلام إذا نحن قصرناه على الدين والخلق والعبادة ، وخلصنا من الدولة والحكم ؟ وهل نقلل من شأن دور الإسلام إذا قصرناه على بناء الفرد بناءً خلقيا سليما - والفرد هو اللبنة الأولى

فى المجتمع - وفصلناه عن الحكومة العلمانية بالضرورة وبالتجربة التاريخية ؟

ما معنى المطالبة بالحكومة الإسلامية ، وسعى الجماعات الإسلامية إلى الحكومة الإسلامية إذا كانت التجربة التاريخية قد أثبتت أن كل الحكومات التى دخلت التاريخ باسم الحكومة الإسلامية كانت علمانية تفصل الدين عن الدولة بالفعل ؟ ألا يكون فصل الدين عن الدولة هو درس التاريخ ظل يلقنه لنا على مدى أربعة عشر قرنا ؟

هل يقلل من إسلام المسلم ذرة أن يكون مسلما يؤمن بضرورة فصل الدين عن الدولة بناء على التجربة التاريخية ؟ بل ان التجربة الشخصية نفسها تؤيد هذه الفكرة ، فأنا أسافر إلى انجلترا - التى تحكمها حكومة مسيحية - فى رمضان ، فأصوم وأصلى ولا أقرب المنكرات والفواحش ، وأتمسك بدينى الإسلامى كما يتمسك به أى مسلم يعرف دينه ، فما هو إذن مغزى ما يطلق عليه أنه حكومة إسلامية ؟ وما هى الحاجة الأكثر إلحاحا لشعبنا : هل هى الحكومة الإسلامية ، أو حكومة تنقذه من متاعبه الاقتصادية ، وتعطيه حريته الشخصية والمدنية ، وتعمل على نهضة البلاد وتقدمها ، وتحميه من أعدائه ، وتحفظ وحدته الوطنية ، ولا تتصادم تصرفاتها مع ديننا الحنيف ، ولا تتناقض قوانينها مع شريعتنا السمحاء ؟

على أن الأستاذ حامد سليمان يقول : إن «فصل الدين عن الدولة يعنى خلق دولة من الدراويش ! وإنها دعوة رجعية لتغيب إرادة المسلمين وحصر نشاطهم فى الطقوس والعبادات .»

وهو قول غريب أشبه باتهام هذه الدعوة بأنها دعوة إلحادية ! لأن ما يطالب به العلمانيون هو أن يكون الدين فى الفرد المسلم ، وتكون الحكومة للوطن كله بمسلميه وأقباطه ويهوده ، لأنه لا فائدة فى حكومة إسلامية إذا كان المسلمون فيها مسلمين اسما بينما الدين الحقيقى اختفى من النفوس !

إن الفرق الحقيقي بين دعوة الحكومة الإسلامية ودعوة فصل الدين عن الدولة هو أن الدعوة الأولى تعمل على فرض الدين من أعلى - من الحكومة - بينما الدعوة الثانية تعمل على فرض الدين من أسفل - من الفرد - أي حصر الدعوة الإسلامية في الأفراد ، وتكوين الخلق الإسلامي الصحيح في الأمة تكويناً صالحاً ، ونشر فضائل النبوة المحمدية ومقاصدها والآداب المنقولة عنها ، والأحاديث الدالة على الأخلاق الفاضلة من الصدق والعفاف وحسن المعاشرة ، وذكر العبادات من صلاة وزكاة وحج ، وتبين للناس كيف كان أبائنا يعملون ، وكيف سادوا العالم بأخلاقهم واجتهادهم في العلم والعمل .. إلى آخره .

وهذه الأهداف هي بنفسها الأهداف التي حددتها لنفسها جماعة الإخوان المسلمين في بداية ظهورها (كما أوردنا في بداية هذا المقال) ولم نحددها نحن - كما قد يتهمنا البعض ! أو تحددها جماعة علمانية .

فلماذا الخوف - إذن - من العلمانية والعلمانيين ، حتى يكرس الأستاذ حامد سليمان كتابه القيم - الذي يتفق فيه مع العلمانيين أكثر مما يختلف - في الرد عليهم ؟

من عبود الزمر إلى الخميني والممارسات الديموقراطية الخطرة!*

فى طوال دراساتى للحركات
الوطنية على مستوى مصر والعالم
العربى ، لم أعرف أو أشهد ما أشاهده
فى هذه الأيام من بعض فرق المعارضة
من استخفاف بالمسئولية ولعب بالنار
وعمل لوجه الشيطان لا وجه الله !. ولم
يكن هذا ما طمحت اليه جماهيرنا وهى
تفكر فى الديمقراطية فى أثناء ظلام
الحكم الدكتاتورى السافر لعبد
الناصر، أو فى أثناء ظلام الحكم
الدكتاتورى المقنع بقناع القوانين السيئة
السمعة فى عهد السادات .

نعم لم تتصور جماهيرنا أبدا أن
تقرأ فى العهد الديموقراطى صحفا
للمعارضة يتدنى احساسها بالمسئولية
عن النظام والأمن فى البلاد إلى هذا
الدرك ، أو صحفا تتجاهل عقل
الجماهير وتلعب على عواطفه الدينية
كما تفعل الآن!.

وهذا هو ما أستطيع أن أطلق عليه
اسم : «استنقاع الحركة الوطنية»، أو

* اكتوبر فى ٦ / ٧ / ١٩٨٦

«استنقاع الشعور الوطنى»- أى دفع حياتنا السياسية إلى مستنقع عفن تغوص فيه أقدام جماهيرنا فلا تطفو أبداً!!.

ذلك أن قيمة الحياة الديمقراطية الصحيحة فى بلدنا الآن تتمثل فيما تقدمه للجماهير من امكانية التخلص من الحزب الوطنى! وبمعنى آخر ، من حرية الاختيار بين الحزب الوطنى - الذى هو امتداد لهيئة التحرير ثم الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى - وبين غيره من الأحزاب الأخرى المعارضة ، والخروج بذلك من المأزق الدكتاتورى الذى وضعنا فيه ثورة يوليو، والذى حرم جماهيرنا من ارادتها السياسية .

فاذا أتت هذه الديموقراطية بأحزاب تفرط فى مصريتها ، وتخاطب غرائز الجماهير، وتتدنى بالعمل السياسى إلى ما تتدنى اليه حالياً، فإن هذه الأحزاب تكون قد ألحقت بمسيرتنا الديموقراطية صدماء خطيرة لا أظنها تستطيع أن تبرأ منه .

ولن أضرب المثل بموقف تلك الأحزاب من قضية سليمان خاطر المفتعلة ، وهى صفحة مخزية من مخازى الممارسات السياسية، كادت تحدث فتنة فى البلاد، بل انها دفعت برلمان احدى دول الخليج إلى التدخل فى الشؤون الداخلية لمصر ! لفرط ما قرأ لصحف تلك الأحزاب عن البطولة المزعومة للجندى العاثر الحظ - الذى لم يزعم أبداً لنفسه بطولة، ولم يتفاخر أبداً بما فعل، ولم يدع أنه كان يقوم بعمل وطنى ، أو بأنه كان يعرف أن القتل اسرائيلين! - وكل ذلك مقابل مكسب جماهيرى رخيص، سرعان ما تبخر بعد أن فهمت جماهيرنا الحقيقة، فنسيت القضية التى اختفت كما لو كانت فقاعة هواء! .

نعم لن أضرب المثل بهذه القضية، وانما أتناول القضية الجديدة التى تثيرها بعض هذه الصحف حالياً وهى قضية عبود الزمرا .

وبادئ، ذى بدء ، فانى أقف مع حقوق الانسان بلا حدود وبلا أدنى تحفظ، وأقف ضد أى اضطهاد يلحق بمعتقل أو مسجون، لأن حرمان

المرء من حريته هو أكبر عقاب - ولكنى ضد صنع بطل من عبود الزمر، وهو، يدين بالفكر المتطرف الذى يدين به - فكر التكفير - والذى يختلف مع جمهرة علماء المسلمين ، لأن انتصار هذا الفكر فى البلاد معناه القذف بها فى هاوية ليس قرار .

اننى أحترم عبود الزمر، رغم اختلافى معه جذريا فى رأى واستهجانى فكره ، لأنه دافع عما يعتقد أنه حق، ودفع حريته ثمنا لما دافع عنه. وأقف بكل قوتى إلى جانب حقه فى أن يحظى بمعاملة انسانية وفقا للقوانين، وأدافع عنه اذا تعرض لأى أذى فى ضعفه، ولكنى أقف على الفور ضده اذا أراد هو، أو أرادت الجماعة التى ينتمى اليها، قلب الحكم فى هذا البلد ، وفرض الفكر الذى يدعو اليه، خصوصا وليس فى هذه الجماعة عالم يعتقد بع من علماء الدين أو المتفكرين فى شئونه! .

وما يحدث الآن من جانب بعض تلك الأحزاب المعارضة، هو أنها تصنع من عبود الزمر زعيما يقتدى به الشباب، وتروج لفكر التكفير المخالف لاجماع علماء المسلمين، الذى يدعو اليه، وتجعل من أعضاء جماعة الجهاد المحكوم عليهم بالسجن، شهداء ومجنى عليهم . مع أن التنظيم لو وصل إلى الحكم فسوف يقضى على كل رأى مناهض له لا محالة، وسوف يحيل الديموقراطية العلية، التى نحيها الآن، إلى المعاش! ويقيم بدلها دكتاتورية حكم لا يرحم ، نشاهد الآن جرائمه فى ايران فى سوق الأطفال إلى القتال باسم الاسلام وطلب الشهادة ! .

اننى أفهم أن تنشر هذه الصحف شكوي هؤلاء المسجونين ، وتنبيه الرأى العام إلى طلب معاملتهم وفقا للقانون واحترام حقوقهم ، أما تنتقل من هذا الستار إلى الغرض الحقيقى ، وهو الدعوة إلى الخروج على الحاكم باعتباره كافرا ! فمعنى ذلك أن هذه الأحزاب تقتل الديموقراطية بأيديها ، وسوف تكون هى نفسها أول ضحايا الحكم الذى تريد جماعة الجهاد اقامته فى البلاد ، لأنه حكم أبسط ما فيه أنه يرفض تماما فكرة الديموقراطية الليبرالية .

فما هو الذى روجت له الجريدة* - على لسان عبود الزمر - من فكر مخرب تحت عنوان : «عبود الزمر يخرج عن صمته»؟

لقد سأل الكاتب قائلًا: ماذا عن تكفير الحاكم ؟ ، فرد قائلًا : « إن الحاكم الذى لا يحكم بما أنزل الله ، المستبدل لشرائعه ، يجب الخروج عليه اجماعا » . ثم يقول عبود الزمر- مخاطبا أعضاء تنظيم الجهاد خارج السجن - : «أبشر الصحبة المخلصة من رجالات الحركة الاسلامية بنصر ربها القريب » وعليهم أن يعدوا أنفسهم ليكونوا وقودا للدولة الاسلامية فور قيامها ، ويعملوا جميعا على تثبيت أركانها . وأذكرهم بأنه لا طريق سوى الجهاد ! .

ثم يتحدث عبود الزمر عن وزير الداخلية اللواء زكى بدر حديث التهديد للنظام الحاكم فى بلدنا ، فيقول : ان استمرار الوزير فى منصبه ، « يعجل بقيام الدولة الاسلامية ، بتصرفاته الطائشة . . ان التضيق والتشديد والضغط على الحركة الاسلامية هو الذى يربى الرجال من خلال المواقف العملية الصعبة ، وينقى الصف ، ويظهر الصادق من الكاذب ..»إلى آخره.

وهكذا يمارس تنظيم الجهاد دعوته من وراء القضبان ، بفضل صحيفة المعارضة ، التى تزعم أنها تنادى بالديموقراطية ، ومع ذلك تروج لفكر ارهابى يسعى لفرض نفسه على شعبنا بالعنف والدمار.

ولقد كان فى وسع الجريدة ، لو كانت تقف موقف الحياد ، أن تنشر- فى مواجهة هذا الفكر التكفيرى المتطرف ، الذى يتشعق بوشاح الدين ، ويسعى لفرض سيطرته السياسية تحت عباءة الاسلام - الفكر الاسلامى الاخرالذى يقول به اعلام الفكر الاسلامى المستنير فى مصر والعالم العربى ، والذى يرد على ادعاءات جماعة الجهاد ، حتى تضع أمام جماهير قرائها الصورة كاملة للرأى الآخر ، فى اطار اسلامى صحيح.

* جريدة الشعب

ولكنها لم تفعل ذلك ، لأن الغرض الذى تسعى اليه ليس مخاطبة عقل الجماهير وانما عواطفها ، واللعب على أحاسيسها الشريفة والترويج للفكر المتطرف الذى تقوم بنشره .

ويكفى فى ذلك أن أعرض هنا وجهة نظر مفكر اسلامى كبير ، لايشك أحد فى اسلامه أو اخلاصه وجهاده ، وهو الدكتور أحمد كمال أبوالمجد ، ردا على ادعاءات وفكر جماعة الجهاد ، وفيها يقول : « إن رفع شعار الحاكمية لله للبشر أمر غير مفهوم ، ولانفع فيه . لأنه اذا أريد به أن أمر الله سبحانه فى شئون التشريع قيم علي أوامر العباد ، فهذا لاخلاف فيه من أحد ، والشعار بهذا المعنى لا يضيف جديدا إلى ما هو مقرر عند علماء المسلمين جميعا . ولكن الخطير فى استعمال هذا الشعار ، والاحتجاج به - عن غير بيئة ولا معرفة بأصول التشريع وفنونه - أن القائلين به يقفزون إلى مقولة أخرى ، مؤداها أنه لا يجوز للبشر أن يشرعوا ، لأن ذلك يكون افتئاتا على سلطة الله تعالى فى التشريع ! . ويمضى أصحاب هذه المقولة فيها جمون النظام الديموقراطى ، ويقولون إن الأكثرية التى يستند إلى قرارها ورأيها فى هذا النظام ، لاتملك من أمور التشريع شيئا ! .

«وهذه كلها مقولات فاسدة ، لأنها تساق دون ضبط ولا تحديد للمصطلحات ، وأولها مصطلح التشريع . فاذا أريد بالتشريع القواعد الكلية والنظم الأساسية التى تضبط السلوك فى الجماعة ، فذلك - حقا - مما لايجوز للناس وضع قواعده ابتداء ، أما إن أريد بالتشريع تنظيم مرافق المجتمع المختلفة تنظيما يستهدى بالقواعد الكلية ، ويدور فى فلكها ، فهذا مايملكه الناس ، ويختص به علماءهم وأهل الاجتهاد والرأى فيهم ، وانكاره عليهم انكار بغير دليل ، فيه ما فيه من التضيق على الناس وتعسير أمورهم .

« ولاندرى من أين جاء أصحاب هذا الرأى برأيهم ؟ ، ولا إلى أى دليل يستندون ؟ . كما لاندرى كيف يستطيع عاقل أن يذهل هذا الذهول المعيب عن مقاصد الشريعة ووظائفها ؟ .

«ان الذين يرفعون أصواتهم محتجين على قيام البشر بالتشريع، يعودون فيقولون :ان الناس يملكون التشريع «ابتداء»، ولا يملكونه «ابتداء»! - أى أنهم يملكون التشريع فى إطار القواعد الكلية المقررة من الشارع سبحانه. وهذه العبارة تعنى - عند التأمل - أن أهل الاجتهاد، أو أهل الشورى، يملكون أن يضعوا تشريعات تعالج عشرات من المسائل المتعلقة بالحياة اليومية لأفراد المجتمع، وغير ذلك من المسائل التى تتصدى لها المجالس التشريعية فى أيامنا هذه، ما دامت التشريعات التى تصدر محققة لمصالح الجماعة، وغير مخالفة لما جاءت به النصوص ..» إلى آخره .

وقد نفى الدكتور أحمد كمال أبو المجد - بصورة قاطعة - أن السلطة السياسية فى الاسلام دينية، وقال : «وهذا ليس رأى وحدي، وإنما هو رأى أهل السنة والجماعة - وإن خالفه أهل الشيعة - فالحاكم، أو الرئيس الأعلى فى الجماعة المسلمة، ليست له صفة دينية خاصة تستوجب طاعته، إنما وجوب طاعته يأتى من اختيار الجماعة له ورضاها بحكمه ومبايعتها له. وهذا فى تقديرى أمر واضح لم يعد يحتمل كثيرا من الخلاف والجدل، ولا يجب التوقف طويلا عند أقوال لا يعتد بها ولا يشهد لها شاهد من نص أو منطق أو تجربة» .

هذه اذن - القضية الأولى، التى تضرب مسيرتنا الديمقراطية فى الصميم، والتى تقودها الصحيفة المعارضة باسم الديموقراطية وتحت ستارالدفاع عن حقوق الانسان ، بينما تتجاوز أبعادها هذا الغرض الشريف إلى الترويج لفكر هدام من شأنه أن يدفع بلادنا إلى هوة ليس لها قرار، ومحاولة صنع بطل يحتذى به الشباب ممن يحمل هذا الفكر الهدام! .

أما القضية الثانية، وهى مرتبطة بالأولى، فهى موقف هذا الحزب المعارض* الذى يصدر الجريدة من الحرب الايرانية العراقية. فعلى حين

* حزب العمل .

غرة عرفنا أن موقف هذا الحزب من تلك الحرب هو نفس الموقف الذى يتبناه الرئيس القذافى والرئيس حافظ الأسد! - وهو الموقف الذى ينتقد موقف العراق العربى. واذا بالتحقيقات الصحفية تنشر فجأة من داخل ايران، تحت عنوان : «أول تحقيق صحفى أمين من داخل ايران الاسلامية»، وصورة فى الصفحة الأولى للجماهير الايرانية تحت عنوان : «الجماهير الايرانية فى يوم القدس» ! .

وهذا تغرير فظيع بالجماهير المصرية، ومحاولة سحبها إلى تأييد سياسة دولتين عربيتين تنفردان بموقفهما المخزى من الحرب الايرانية العراقية، وهما ليبيا وسوريا! * . فالحديث عن ايران «اسلامية» يغفل أن العراق «اسلامية» ! . وأنها ليست فقط «اسلامية»، وانما «عربية» أيضا ! . ومن المتوقع من حزب ينادى بشعار العروبة أن يؤثر بتأييده دولة «اسلامية عربية» على دولة «اسلامية فارسية» ! - اللهم الا اذا كانت العروبة مجرد شعار وليست مبدأ، والا اذا كان الحزب ينتمى إلى فكر آخر، هو الفكر الدينى الذى روج له فى قضية عبود الزمر ! .

ويتبدى هذا التغرير بالجماهير فى قصة «مؤتمر القدس» المنعقد بطهران، لأن هذا الحزب المعارض يعرف تمام المعرفة حقيقة تعامل النظام الايرانى مع اسرائيل، كما يعرف إصراره على سياسة العدوان على شعب العراق ومواصلة احتلال جزء من أراضيه، الذى يعطل كل فاعلية للعراق - أو لأية دولة عربية - بل يعطل فاعلية ايران نفسها اذا كانت مخلصه للقضية الفلسطينية - فى تحرير القدس ! . وبالتالي فان التستر برداء «القدس» هو تستر برداء متهرب لا يكشف شيئا غير التغرير والخديعة .

وهذا التغرير بالجماهير تحاول الجريدة تأكيده بالتظاهر بالتطرف ضد اسرائيل، حتى لقد شرعت فى نشر قوائم سوداء بعدد من الأسماء

* كانت جميع الدول العربية ، وعلى رأسها مصر ، وأشدها تحمسا الكويت! تساند العراق فى حربه مع إيران على أساس العروبة ، فيما عدا سوريا وليبيا

الشريفة التي زعمت تعاونهم مع اسرائيل ! وطلبت من الشعب مقاطعتهم! بينما هي تؤيد ايران المتعاونة مع اسرائيل ضد العراق المعادى لاسرائيل! . فهل هناك تناقض وتغريب بال جماهير أكثر من ذلك ؟ .

ولكنه نفس التناقض الذى يقع فيه القذافى، المحرك للأمور، فهو يعلن تطرفه فى العداء لاسرائيل، بينما هو يؤيد ايران المتعاونة مع اسرائيل ؟ . وهو نفسه التناقض الذى يقع فيه النظام السورى، الذى يزعم التطرف فى مواجهة اسرائيل - التى ما زالت تحتل الجولان! - بينما هو يؤيد ايران المتعاونة مع اسرائيل! . وهذا ما يكشفه الموقف السليم لحزب التجمع من هذه القضية، فى كلمته إلى حافظ الأسد (الأهالى ٢٥ يونيو ١٩٨٦) وفيها يقول :

«إننا لا نملك الا أن نضع النقاط فوق الحروف بالنسبة لعدد من الممارسات الخطرة التى تضر بمجمل الموقف العربى . فتحالف الحكومة السورية ومساندتها السياسية والعسكرية للنظام الحاكم فى ايران، رغم استمراره فى العدوان على شعب العراق ومواصلة احتلال جزء من أرضيه، وتعامل النظام الايرانى مع العدو الاسرائيلى - لا يفيد الموقف السورى ..» إلى آخره .

وواضح أن الخلافات التى وقعت مؤخراً بين مصر والعراق حول مطالب وحقوق المصريين فى العراق، والأحكام التى صدرت ضدهم - قد رأت فيها الجريدة الفرصة للترويج لايران تحت عباءة القدس، كما رأت فيها جريدة معارضة أخرى أيضاً الفرصة لتفعل نفس الشيء ! .

وكل هذا لعب غير أمين بقضايا بلادنا الأساسية، لا تفيد منه جماهيرنا سوى زيادة بلبلة فكرها، والانحراف بمسارها إلى دروب خطيرة، وتعرض قضية الديمقراطية فى مصر - فى نهاية الأمر - إلى الخطر والدمار ! .

الفكر الديني الانقلابي والسود المفجود!

لعل هذه الرسالة، التي وصلتني
من قارئ من السعودية كانت تتركب
سفينة الصحراء ! حتى وصلت إلى في
ثلاثة أشهر !، وان كنت قد لاحظت أن
كثيرا من رسائل القراء تؤثر هـ
الوسيلة من وسائل المواصلات !، فـ
أتسلمها الا بعد انتهاء العصر الد
كتبت فيه ! .

على أن هذه الرسالة ذات أهمية
خاصة ، من قارئ يحمل فكر
الجماعات الاسلامية ، ويعبر عنها ،
واسمه ابراهيم حسن - ويتضمن تعليقا
على ما كتبت في عدد ٢ مارس ١٩٨٦
حول كتاب « قبل السقوط » ، الذي كتبه
« المارق على الاسلام ، الساقط » ،
الدكتور فرج فودة ! - ومعدرة للصديق
الدكتور فرج فودة ! فهذه هي الألقاب
التي أنعم عليه بها القارئ ابراهيم
حسن - ولست أنا ! .

وفي هذه الرسالة الهامة ، التي
سوف أرد على أفكارها أولا بأول ،

* اكتوبر في ٢٠ / ٧ ١٩٨٦

يلومنى القارىء لتأييدى للدكتور فرج فودة فيما أورده فى كتابه ، ويعتبر هذا التأييد «تهجما» ومحاولة « لهدم » الدين - حسب قوله - ورفض تطبيق الشريعة الاسلامية والحكم بما أنزل الله . ويقول :

«ألم تقرأ يادكتور قوله تعالى : « ان الحكم إلا لله » ؟ ، أو تقرأ قوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ؟ ، أو لم تقرأ قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » ؟ .

ألا تنطبق هذه الآية اليوم على مجتمعاتنا العلمانية التى تفر من تطبيق الشريعة ؟ . فاذا نحن لم نطبق شرع الله من الحاكم إلى المحكوم، فسوف نكون كبنى اسرائيل : حملوا التوراة فلم يحملوها ، فأصبحوا كالحمير ! أتريدنا حميرا يا حضرة الدكتور ؟ ، اتق الله ، فانك غدا ملاقيه . كيف تقول ان الاسلام دين فقط وليس بدولة ؟»

وفى بداية الأمر ، فلست أوافق القارىء ابراهيم حسن فيما نعت به الدكتور فرج فودة من أنه « مارق » من الاسلام ، أو أنه « ساقط » - لفصله بين الدين والدولة ، لأن جمهرة المسلمين تفصل بين الدين ، الذى هو لله ، والوطن ، الذى هو للجميع . وقد عبر مصطفى النحاس باشا ، رئيس حزب الوفد الذى كان يحظى بتأييد الغالبية الساحقة من الشعب المصرى - عن هذا رأى تعبيرا صريحا بقوله : « الاسلام لا يعرف سلطة روحية ، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وبين عباده ، فلامعنى للاحتجاج فى هذا الشأن بما نص عليه الدستور من أن دين الدولة هو الاسلام ، وليس أحرص منى ولا من الحكومة التى أتشرف برئاستها على احترام الاسلام وتنزيه الاسلام، كما أنه ليس أحرص منا على التزام أحكام الدستور .

فاذا اعتبر القارىء ابراهيم حسن كل من يقول بهذا رأى مارقا من الدين وساقطا، فانه يحكم على الغالبية الساحقة من الشعب المصرى - التى مازالت تعتقد هذا الاعتقاد - بأنها مارقة من الدين! وهذا هو فكر

التكفير الذى تتلاعب به الجماعات الاسلامية، فبعضها يقول بتكفير المجتمع، والبعض الآخر يكتفى بتكفير الحاكم فقط، حتى لا يستجلب عدااء الشعب وسخطه! .

ومع ذلك، فيعلم القارئ ابراهيم حسن نفسه أن هذا الرأى عن الحاكمية، والتفسيرات للآيات التى أوردها، ومنها «ان الحكم الا لله»، هو رأى وتفسيرات تنفرد بها الجماعات الاسلامية - التى لا يوجد فيها عالم يعتقد به من علماء الاسلام - للوثوب إلى السلطة، ولا يقول بها جمهرة علماء المسلمين.

فالحكم بما أنزل الله هو فرض على كل مسلم فى كل أمر من أمور حياته، فيأتمر بما أمر الله، وينتهى عما نهى - ولا ينصب بصفة خاصة على السلطة والحكم كما تدعى الجماعات الاسلامية فى فكر التكفير .

وحتى بخصوص القوانين التى تحكم بها الدولة، فيكفى هذا أن أورد ما قاله المرشد العام السابق للاخوان المسلمين، وهو المرحوم المستشار حسن الهضيبي، فى هذا الصدد. فقد قال بعبارة صريحة:

«ان القانون المدنى متفق مع الشريعة فى كثير من المسائل، أو فى كل المسائل. يعنى تقدر تُرجع القانون المدنى إلى أصول شرعية - فيما عدا مسألة الربا» - أما القانون الجنائى، «فليس فيه من الحدود الشرعية شىء، ولكن الحدود الشرعية متى أوقفها ولى الأمر، علينا الطاعة، كل العقوبات التى نص عليها فى القرآن والسنة سبعة ، وأما الباقي فأغلاط بترتكب كثير، وفيها جرائم تكسب . فلولى الأمر أن يعزر عليها، وده عمل صح داخل فى حدود اختصاصه» .

وقد سبق أن أوردت فى أحد مقالاتى رأى مفكر اسلامي آخر هو الدكتور أحمد كمال أبو المجد، والذى أورد فيه أن «رفع شعار الحاكمية لله لا للبشر أمر غير مفهوم، لأن أصحابه يقفزون إلى مقولة أنه لا يجوز للبشر أن يشرعوا .» وقال إن هذه كلها مقولات فاسدة، لأنها تساق دون ضبط ولا تحديد للمصطلحات، وأولها مصطلح التشريع . ولا ندري من أين جاء أصحاب هذا الرأى برأيهم، ولا إلى أى دليل يستندون؟. فأهل

الاجتهاد وأهل الشورى يملكون وضع تشريعات تعالج عشرات من المسائل المتعلقة بالحياة اليومية لأفراد المجتمع وغير ذلك مما تتصدى لها المجالس التشريعية فى أيامنا هذه . كما نفى أن السلطة السياسية فى الاسلام دينية ، وقال ان هذا رأى ليس رأيه وانما هو رأى أهل السنة والجماعة .

ومن هنا فإذا جاء القارئ ابراهيم حسن يردد أفكار جماعات التكفير، ويطلق أحكام المروق من الاسلام على من يختلفون معه فى رأى، ويسألنى مستنكرا : «أتريدنا حميرا يا حضرة الدكتور؟» - فانى أجيبه بقولى : «لا والله، لا أريدكم حميرا، وانما أريدكم مسلمين فى سلوككم وتصرفاتكم، متبعين أوامر الله ونواهيه، متأدبين بأداب الاسلام الحنيف، متبعين اجتهادات أهل السنة والجماعة، لا اجتهادات كل من هب ودب من غير المتفقهين فى الدين. كما أريدكم أكثر استنارة، وأريدكم أن تدرسوا التاريخ الاسلامى جيدا لتستفيدوا من دروسه، ولتعرفوا أن تطبيق الشريعة الاسلامية - بالمعنى الوارد فى فكركم - ليس من شأنه بالضرورة تحويل مصر إلى جنة».

وهذا ما قدمه الدكتور فرج فودة فى كتابه «قبل السقوط»، فلم يكن هناك أكثر من الخلفاء الراشدين تطبيقا للشريعة وحكما بما أنزل الله، ومع ذلك فقد كان عهدهم حافلا بالقلق السياسى، لأسباب كثيرة، ولم يمنع هذا الحكم من اغتيال ثلاثة منهم، هم : عمر وعثمان وعلى . بل ان مقتل الخليفة الثالث كان على يد ابن الخليفة الاول، ان كان أول طاعنيه محمد بن أبى بكر.

وهو أمر يوضح أنه يوجد فرق كبير بين الاسلام كدين، والاسلام كدولة، وأن الذين يصورون الحكم الدينى فى صورة وردية، ويتصورون أنه سوف يحول المجتمع المصرى إلى مجتمع مستقر، انما يخدعون البسطاء من المسلمين ليصلوا من خلال خديعتهم إلى السلطة والحكم ، فعملهم سياسى بالدرجة الأولى وليس عملا دينيا لوجه الله الكريم.

القضية الجوهرية - اذن - هى قضية تكوين الشباب المسلم والفتاة المسلمة على المبادئ الاسلامية السمحاء، وتربية الشعب على اتباع ما

أمر الله واجتناب نواهيه. فهذا هو الذى يكون المجتمع الإسلامى الصحيح، ولا يكونه الأفكار الدينية المتطرفة التى تنحرف بشبابنا إلى أفكار سياسية تستهدف قلب نظام الحكم وتعتقد بتكفير المجتمع أو الحاكم .

ومن المحقق أنه لو تكون المجتمع الإسلامى الذى يتبع أوامر الله ويتجنب نواهيه، فلن تجد بين هذا المجتمع من يشرب الخمر، أو يمارس الزنا المرخص وغير المرخص، أو يشاهد ما يعتقد أنه يغضب الله. فالفرد هو اللجنة الأولى للمجتمع الإسلامى وهو المسئول عن تصرفاته .

وعلى سبيل المثال، فانى عشت فى أوروبا، وزيت كل بقعة فيها، ومع ذلك فلم تذق شفتاي قطرة من الخمر، ولم أمارس الزنا المرخص أو غير المرخص المنتشر فى أوروبا، بل انى فى الحفلات الرسمية وغير الرسمية لا أذوق الخمر إطلاقاً رغم كل المغريات، لأن تربيته الإسلامية ومراقبته لله تعالى تعطينى مناعة داخلية ضد كل أنواع هذه الموبقات .

ولست فى حاجة لمن يشرع لى ذلك من الحكام، لأن عندى شرع الله أحفظه عن ظهر قلب منذ حفظت القرآن وعمري أحد عشر عاماً ونصف. وهذا هو الإسلام الصحيح، وليس الإسلام الصحيح هو تكفير المجتمع أو الحاكم، ومحاولة القفز إلى السلطة من خلال دفع شبابنا للطبب النقي إلى اعتناق أفكار التكفير والحاكمية وغيرها .

لذلك فلست مع القارىء فى أفكاره السياسية الانقلابية التى تتشبع بوشاح الدين . ولو أن الجماعات الإسلامية صرفت جهودها إلى تكوين الشباب المسلم على المبادئ الإسلامية، دون الزج بهم فى مستنقع السياسة، لخدمت بلادنا خدمة جليلة.

والمثال على ذلك الشهيد حسن البنا، الذى بدأ دعوته بالتربية الإسلامية ينشرها بين طبقات الشعب المختلفة، وينتقل بها إلى معازل التفكير العلمانى فى الجامعة وبين المثقفين، واستطاع أن يجول مسلمين لفظاً إلى مسلمين فعلاً، وأن يهدى عصاة مستعصين على الإصلاح، وكان فى طريقه إلى تكوين المجتمع المسلم الذى يعمل بما أمر الله ويتجنب نواهيه،

لولا أن لعبت به ريح السياسة، فتحطم قاربه الثمين في وقت كانت مصر في حاجة اليه .

وهكذا نجد أنفسنا الآن أمام أنماط من التفكير الانقلابي الهدام، الذي يعتنقه شباب سليم النية باسم الإسلام، والإسلام براء. ويكفى هنا أن أضرب مثلاً لأسلوب القاريء إبراهيم حسن في مناقشة القضية التي أثرتها في مقالتي، نقلاً عن كتاب الدكتور فرج فودة ، وهي قضية ضرب الأئمة الأربعة بالسياط في عهود الخلفاء الأوائل في العصر الإسلامي بعد الراشدين - أي في ذروة عهود تطبيق الشريعة الإسلامية والحكم بما أنزل الله، فبدلاً من أن يقتنع القاريء بمبدأ فصل الدين عن السياسة، وبأن الدين الإسلامي يرى من ضرب الأئمة الأربعة، وإنما السياسة هي المسؤولة عن ذلك - فإنه يحاول أن يؤصل هذا الضرب تأصيلاً دينياً! ويدرجه في التعامل الإسلامي الصحيح ! ويعتبره من البلاء المشروع الذي وعد الله به المؤمنين ! . فيقول :

«تقول إن الأئمة الأربعة ضربوا بالسياط ! . ألم تقرأ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : «أشد الناس بلاء الأنبياء، فما لأمثل، فالأمثل؟»، وقوله تعالى في أول سورة العنكبوت : «الم ... أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» - إذن، المؤمن دائماً مبتلى : إما في صحته أو في أولاده، وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» ! .

فهل هذا الكلام معقول ؟ . وإذا كان الأمر كذلك فإن اضطهاد عبد الناصر للأخوان المسلمين وسجنهم وتعذيبهم هو أمر لا غبار عليه،! وهو فتنة من الله لهم ويدخل في باب البلاء أو الابتلاء المكتوب على العباد، وليس عملاً إجرامياً بعيداً عن روح الدين وتعاليمه ومبادئه وأسسـه ! .

ووفقاً لهذا المفهوم - الذي يقدمه القاريء إبراهيم حسن - فليس أمام المسلم المضطهد (بفتح الطاء) إلا أن يتقبل هذا الاضطهاد بصبر، حتى يوفى أجره بغير حساب! ولا يشكو ولا يتململ من أمر كتبه الله عليه - مع

أن روح الدين الاسلامى تكره الظلم، وتعاف التسلط، وتدعو المسلمين إلى رفع الضيم والظلم عن أنفسهم بكل ما يملكون من قوة .

ولكن هذا هو المنطق التبريرى ! . فليس فى وسع القارىء ابراهيم حسن أن يقول إن الخلفاء الذين اضطهدوا الأئمة الأربعة، لم يكونوا يحكمون بما أمر الله، ولم يكونوا يطبقون الشريعة الاسلامية - لأن الخلافة، فى رأيه ورأى جماعته، هى المثل الأعلى للحكم الاسلامى، الذى يجب أن يتجه اليه المسلمون! . فهو يقول فى رسالته :

«يا حضرة الدكتور، بعد سقوط الخلافة، فالآن هى فرض عين على كل مسلم ومسلمة أن يرجعوا خليفة المسلمين، لكى يرجع لنا السؤدد، ونرجع نجاهد الأعداء بقوة، ونستغنى عن أمريكا وروسيا، ونأكل من تحت أرجلنا، ونزرع القمح، لكى نستغنى عن كل الكفار» .. الخ .

وينسى القارىء العزيز أن الخلافة كانت موجودة فى العالم الاسلامى إلى ما قبل نصف قرن فقط ! وكانت موجودة منذ وفاة الرسول الكريم صلوات الله عليه ولمدة أربعة عشر قرنا تقريبا! . ولم يمنع ذلك من تدهور حال المسلمين منذ عشرة قرون تقريبا، مما مكن للغزوة الصليبية أولا، ثم للغزوة الاستعمارية الحديثة ثانيا - وذلك بعد أن ترك المسلمون المبادئ الاسلامية الصحيحة، والخلق الاسلامى السليم، وتفشت فيهم الافكار الهدامة والأباطيل والخرافات. كما ينسى أن الخلافة ذاتها كان لها نصيب فى تدهور حال المسلمين ! بعد أن تحولت إلى ملك استبدادى متعفن يجثم على صدر الأمة الاسلامية، ويعتمد على السيف لا البيعة . ولذلك لم يخل عهد خليفة من خارج عليه، ولم يخل جيل من مشاهدة مصرع أحد الخلفاء ! .

فأين السؤدد الذى يتوقع القارىء العزيز أن يعود إلى المسلمين من عودة الخلافة؟، لعله يقصد السؤدد الذى نعم فيها الأئمة الأربعة؟ - سؤدد الضرب بالسياط! أو لعله يقصد السؤدد الذى ضيع قرطبة، وأسقط بغداد فى أيدي التتار؟ ومعروف أن هذا حدث فى عهود الخلافة! .

ولكن هكذا يفعل الجهل بالتاريخ الاسلامى بعقل شباب الجماعات
الاسلامية، مع أن تعلمه فى حد ذاته كاف لازالة الغشاوة عن عيون هذا
الشباب المخدوع بالأكاذيب والضلالات !.

فأئى للقارىء ابراهيم حسن أن يعرف أن الصراع بين الخلافة
الفاطمية والخلافة العباسية كان من الأمور التى رجحت كفة الصليبين،
وسهلت لهم فتح الشام! فقد وفدت إلى معسكر الصليبين أمام أنطاكية،
فى يناير - فبراير ١٠٩٨ م ، بعثة فاطمية للتفاوض على عقد تحالف معهم
ضد خصومهم من أهل السنة (أى الخلافة العباسية فى بغداد
والسلاجقة فى الشام) وقد سعد الصليبيون بهذه السفارة الفاطمية، لأنها
أكسبتهم وضعاً سياسياً فى هذا الركن من العالم.

بل لعل القارىء العزيز لا يعلم أن الحروب الصليبية لم تكن حروباً
بين صليبين ومسلمين على الدوام، وإنما كانت حروباً بين تحالفات
صليبية اسلامية ضد تحالفات صليبية اسلامية!.

ولعله أيضاً لا يعلم أن دمشق كانت، فى فترة طويلة من فترات
الحروب الصليبية، حليفة لمملكة بيت المقدس الصليبية ضد الممالك
الاسلامية الأخرى! ولم يكن العالم العربى والاسلامى فى ذلك الحين قد
عرف بعد القوانين المدنية الغربية، وإنما كان يعرف فقط الشريعة
الاسلامية والحكم بما أنزل الله !.

وقديماً قالوا : العلم نور !، ولكن هذا النور لا يريد أن ينفذ إلى
رعوس كثير من شباب الجماعات الاسلامية، المخدوعين بالأفكار المتطرفة،
والذين يعيشون فى أحلام وأوهام لاصلة لها بالواقع والتاريخ ! .

وأخيراً فإن القارىء العزيز ابراهيم حسن يهددنى بالمحاكمة بعد
وثوب الجماعات الاسلامية إلى الحكم! ، فيقول - بخفة الدم المصرية
المعهودة! - «أريد أن أخبرك شيئاً قد لا يخطر على بالك، فغدا الكرة
للاسلام، وستحاكمون فى الدنيا على أيدي الشعب المسلم وفى الآخرة
عند العزيز الجبار» !.

وفيما يتصل بالمحاكمة في الآخرة فاني أستعد لها في كل لحظة من لحظات يومي، أما بالنسبة للمحاكمة في الدنيا، فاني أرحب بمحاكمة تجرى على يد الشعب المسلم في ظل نظام ديموقراطي حقيقي، ولكنني لن أرحب بمحاكمة تجرى على يد الجماعات الاسلامية، التي ترى في نظام الخلافة، الذي جرى فيه جلد الأئمة الأربعة، مثلاً أعلى !.

الانتخابات وأصحاب اللى السياسية!

*

لست أظن أن نتيجة الانتخابات
التي جرت مؤخراً قد جاءت فى صالح
الحزب الوطنى، على الرغم من الأغلبية
الساحقة التي حصل عليها لمختلف
الأسباب!. ذلك أنه أذ كان ثمة من أهمية
لمعركة الانتخابات الأخيرة، فهي أنها
فرزت القوى السياسية فى مصر فرزا
حضاريا! - بمعنى أنها قسمت هذه
القوى إلى قوتين : قوة تريد أن تمضى
ببلادنا إلى الأمام ، وقوة تريد أن تعود
ببلادنا إلى الوراء .

أما القوة الأولى فتتمثل فى الحزب
الوطنى والوفد وحزب التجمع،
وتجمعها - على اختلاف تياراتها
الفكرية وأصولها السياسية - الفكرة
التي قامت عليها الدولة القومية
الحديثة، وهى فكرة الدين لله والوطن
للجميع - أى فكرة الوحدة الوطنية التي
لا تفرق بين مذهب ودين .

أما القوة الثانية، فهي قوة
أصحاب اللي من الزعماء والأنصار!

* أكتوبر فى ١٩ / ٤ / ١٩٨٧

وتجمعها فكرة الدولة الدينية التي كانت سائدة في العصور الوسطى ،
ليس لايمان عميق بسلامة هذه الفكرة وصلاحياتها لدولة تعيش في
العصر الحديث ، وانما لأن هذه الفكرة بالذات هي ما يشد تأييد شعب
اسلامى تعيش غالبية الكبرى في ظلام الأمية بعد خمسة وعشرين عاما
من عمر ثورة يوليو الرشيدة! فهم يبسطون مشاكله الاقتصادية
والاجتماعية والسياسية في كلمة واحدة جامعة مانعة تقول ان «الاسلام
هو الحل» (هكذا!) افتراضا بأن شعبنا يعتنق البوذية أو المجوسية! أو
أن حكومتنا حكومة من السيخ أو اليهود .

وهم يقصدون - بطبيعة الحال - بناء دولة دينية على نسق الدولة
الخمينية، التي لم يعرف الشعب الايرانى في ظلها لحظة واحدة من
الاستقرار أو الهناء، وانما عرف الحرب التي لا تنتهى، وضياع ثروته
التي جناها من البترول منذ اكتشافه حتى الآن، وسفك دماء مئات الألوف
من أبنائه على مدى سبع سنوات في قتال لم يعرف تاريخ الاسلام كله
أشد منه كفرا والحادا وزندقة!، لأنه قتال ضد مسلمين جنحوا للسلم،
ولأن هذه الحكومة الدينية هي الحكومة باغية - بحكم الدين - لا تجد من
قوة العالم الاسلامى من يقاتلها حتى تفىء إلى أمر الله .

يتاجر أصحاب اللحى من الزعماء والأنصار بهذا الشعار، البسيط
الغامض معا ، لابتزاز عواطف جماهيرنا الاسلامية، وشراء تأييدها
ويخدعونها بأن الدولة الاسلامية هي الحل، ويكتمون عنها الحقيقة وهي
أن الدولة العثمانية كانت دولة اسلامية وليست دولة علمانية، ومع ذلك فقد
كانت تعج بالمشاكل التي لم تعرف حلا حتى أودت بها في الحرب العالمية
الأولى ١.

بل يكتمون عن الجماهير الاسلامية البسيطة أن الدولة في عهد
عثمان بن عفان كانت دولة اسلامية ، وكانت أيضا دولة اسلامية في عهد
على بن أبى طالب ، ومع ذلك فقد كانت تعج بالمشاكل التي لم تجد حلا

حتى أودت بحياة عثمان ، ثم أودت بحياة على . ولم يشفع فى حل هذه المشاكل أن الدولة كانت دولة اسلامية !.

بل يكتّم أصحاب اللحن من الزعماء وأنصارهم أن الشعوب الاسلامية لم تعرف فى تاريخها الطويل ، الذى يبلغ أربعة عشر قرنا ، دولا علمانية ، بل عرف فقط دولا اسلامية خالصة - ومع ذلك فقد كان فى ظل هذه الدول الدينية أن عرفت الشعوب الاسلامية ما لم تجد له حلا الا بالحرب الطويلة والثورات الأهلية.

بل لقد كانت الدولة الفاطمية دولة دينية مائة فى المائة ومع ذلك فلم تمنع دخول الصليبيين الشام ، بل فكرت فى التحالف معهم ضد السلاجقة المسلمين ! وأكثر من ذلك أنه حين أصبحت مصر محورا لصراع بين الصليبيين والزنكيين ، طلبت الدولة الفاطمية معاونة الصليبيين ضد الزنكيين ! .

شعار « الاسلام هو الحل » بمعنى اقامة الدولة الدينية الاسلامية ، هو - اذن - خداع وتضليل للجماهير ، واساءة للاسلام نفسه ، بتحميله فى عين الجماهير مسئولية عدم حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التى يعانى منها الشعب فى حالة اقامة مثل هذه الدولة - كما هو الحال بالنسبة لحكومة الخمينى الدينية ، التى ساءت أوضاع الشعب الايرانى فى عهدها ، وافتقد الأمن والسلام ، وزادت مشاكله.

والهدف الوحيد لهذا الشعار هو الوصول إلى الحكم بطريقة تستغل دين الله ، وتعبت بالوحدة الوطنية ، وتقضى على الأساس الشرعى لقيام الدولة القومية الذى يجعل الدين لله والوطن للجميع . فاذا كان هذا الشعار يعد من قبيل تحصيل الحاصل بالنسبة دولة مثل المملكة العربية السعودية ، التى يتكون كل شعبها من مسلمين فقط ، فانه بالنسبة لدولة يتكون شعبها من عنصرين أو أكثر ، يعد تقويضا لوحدتها الوطنية وتخريبا لها .

والمذهل أن مثل هذه القضية لم تكن مطروجة قبل ثورة يوليو المباركة!، فلم يكن يوجد فى الساحة من يستطيع تحدى شعار « الدين لله والوطن للجميع»، وذلك بفضل يقظة الوفد لمؤامرات الرجعية الأوتوقراطية والفاشية ، وشجاعة مصطفى النحاس فى وضع الأمور فى نصابها فى هذا الأمر بطريقة قاطعة وحاسمة . ففى خطابه أمام مجلس النواب فى يولية ١٩٣٧ أوضح فى عبارة صريحة أن «الاسلام لا يعرف سلطة روحية»، «وأنه ليس بعد الرسل وساطة بين الله وبين عباده» . وأنه « لا معنى - اذن - للاحتجاج فى هذا الشأن بما نص عليه الدستور من أن دين الدولة هو الاسلام، أو بمكانة مصر لدى الأمم الاسلامية، بل ان هذه المكانة نفسها تستلزم أن ننزه الدين عن اقحامه فيما ليس من مسائل الدين .

فى ذلك الحين كان مصطفى النحاس يواجه نفس القوى السياسية التى تتحالف الآن تحت شعار «الاسلام هو الحل»، وهى جماعة مصر الفتاة، التى غيرت اسمها عدة مرات حتى وصلت الآن إلى اسم «حزب العمل» ، وجماعة الاخوان المسلمين، التى لم تغير اسمها إلى الآن للحقيقة والتاريخ!

وكانت هاتان الجماعتان تصران اصرارا غريبا على تدعيم سلطة الملك فاروق الدنيوية بسلطة دينية! فالاخوان يعلنون بدون مواربة خصومتهم للوفد والديمقراطية الليبرالية، ويبدون أمل الاخوان المحقق فى «جلالة الملك المسلم»، ويتوجهون بأعلامهم إلى باب القصر الملكى ليبايعوا الملك المعظم على كتاب الله وسنة رسوله»..

ومصر الفتاة تنادى صراحة بخلافة فاروق وتدافع عن نظام الخلافة : «نحن ننادى بزعامة مصر للاسلام، وخلافة فاروق». ويصف أحمد حسين فاروق، بأنه «فى هذه السن المبكرة يتصرف كأمرير للمؤمنين حقا! بل وكأمرير ممن يعتز بهم المسلمون فعلا .. ان الكلمة اليوم للدين، وان نجاتهم فى عودتهم للدين»!.

فما أشبه اليوم بالأمس؟ ولكن الظروف اختلفت، ففي ذلك الحين كانت مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها تؤمن إيماناً عميقاً بأن الدين لله والوطن للجميع، وكان هناك من الكتاب الشجعان من يتصدون على الفور لكل دعوة تهدد الوحدة الوطنية، كما كانت هناك زعامة شعبية تتصدى على الفور لكل من يمس بهذا المبدأ الذى تقوم عليه الدولة الحديثة. أما الآن فلا يوجد الكاتب الذى يجرؤ على القول بفصل الدين عن الدولة، فإذا ظهر هذا الكاتب - مثل الدكتور فرج فودة - لينادى بذلك، وهو ما كان أمراً مسلماً به من كافة المصريين قبل ثورة يوليو - خرج الصديق محمد الحيوان يتهمة بأنه يدعو إلى «دولة بلا دين»!، ويطالبه بأن يعلن صراحة فى برنامجيه بأنه «لا لتطبيق الشريعة الإسلامية»!

إلى هذا الحد تبلغ المغالطة من جانب أصحاب اللحن حتى يتصور الصديق محمد الحيوان أن مصر تحكم بشريعة أخرى غير الشريعة الإسلامية! وإذا كان كاتباً من كتب الأعمدة فى الصحف القومية يعتقد هذا الاعتقاد، أفلا نلتمس العذر للشباب الإسلامى وهو ينساق وراء شعار غامض مثل: «الإسلام هو الحل»، سعياً وراء تطبيق الشريعة الإسلامية التى يعتقد أنها غير مطبقة؟ .

وحتى لا أفتى بما لا أعلم فى هذا الشأن، فلا أرى بداً من أن أورد هنا ماسبق لى أن أوردته فى مقالى السابق فى عدد «أكتوبر» يوم ١٩٨٥/٦/٣٠، وهو رأى المرشد العام السابق للاخوان المسلمين، المرحوم حسن الهضيبى، فى شهادته أمام محكمة الشعب . ومن المعروف أن المرحوم الهضيبى كان علماً من أعلام القانون فى مصر . فحين أراد الدفاع أحراراً الهضيبى على أساس أنه حين كان مستشاراً قضائياً قبل الحكم بغير الشريعة الإسلامية - رد الهضيبى قائلاً فى وضوح تام: إن «القانون المدنى متفق مع الشريعة فى كثير من المسائل، أو فى كل المسائل - يعنى تقدر تُرجع القانون المدنى إلى أصول شرعية، فيما عدا

مسألة الربا . فأنا كنت أحكم فى مسائل على اعتبار أنها متفقة مع الشريعة فى القانون المدنى .

أما القانون الجنائى، فقد وصفه الهضيبى بأنه «كله تعازير، ولكن الحدود الشرعية متى أوقفها ولى الامر، علينا الطاعة ونطبق القواعد المعمول بها .

وقد سأله الدفاع : هل يملك هذا ؟ (أى ولى الأمر)

فرد الهضيبى قائلا: يملك هذا . كل العقوبات التى نص عليها فى القرآن والسنة سبعة. كلها سبع عقوبات من أولها لآخرها. وأما الباقي، فأغلاط بترتكب كثير، وفيها جرائم بترتكب عليها. فلولى الأمر أن يعزر عليها . وده عمل صحيح داخل فى حدود اختصاصه. فأنا قلت لحضرتك ان ولى الأمر أوقف الحدود لعله فى نفسه لا أعرفها . وهذا حقه. فيبقى الباقي كله تعازير مسموح بها شرعا .

الدفاع : معنى هذا أنك طوال مدة خدمتك الجنائية كنت راضيا عن نفسك، مستريح الضمير ؟.

الهضيبى : أيوه .

(يرجع إلى محكمة الشعب : الجزء الرابع، شهادة حسن الهضيبى، ص ٨٠٩ - ٨٢٣)

وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك بالفعل - فما هو معنى المناذاة بأن «الاسلام هو الحل» ، وهو مطبق بالفعل على هذا النحو ؟ ، يكون المطلوب هو تسليم السلطة فى البلاد إلى خمينية أخرى تدفع بالبلاد إلى هوة من الصراعات الداخلية ليس لها قرار ؟ .

وإذا ينكشف أمر هذه اللهى، فتبدو فى شكلها الحقيقى كلهى سياسية وليست لهى دينية؟ - لهى سياسية هدفها سلطة الدولة، وليست لهى دينية هدفها تطبيق الشريعة الاسلامية - المطبقة فعلا !

لقد كتب الأستاذ خليل عبد الكريم فى جريدة «الاهالى» يوم ٨ ابريل ١٩٨٧، يطلب إلى أصحاب اللهى السياسية تفسير ذلك الشعار

الغامض: شعار «السلام هو الحل»، وأن يشرحوا كيفية تطبيق الشريعة الإسلامية في مسألة من يتولى الإمامة العظمى!، وما هو نوع الحكم الأمثل؟: هل يكون الحكم الملكي، أو الجمهوري، أو الأميري، أو السلطاني، أو المشيخي، أو العسكري الانقلابي - وكلها أنواع تنتسب للإسلام ويبد كل منها الأسانيد الشرعية! . وما رأيهم في مشاكل التنمية والسكان، والديون الخارجية وفوائدها الربوية، وتحديد النسل، والتعليم والقضاء والصحة والصحافة والمرأة والمسارح والسينما، أو أكاديميات الفنون وكلية الفنون الجميلة، ومباريات الكرة التي يرتدى فيها اللاعبون شورتات لا تغطي الركبة ! . وهل الاقتصاد الموجه أقرب لروح الشريعة ، أو الاقتصاد الحر السداح المداح ؟ . وهل يجوز للدعاة الدين يرفعون عقيرتهم بطلب التطبيق الفوري للشريعة الإسلامية ، أن تبلغ أرصدتهم الملايين في البنوك بخلاف العقارات ، ويسكنوا الفيلات والشقق الفاخرة ويركبوا السيارات الفارهة ؟ . . الى آخره .

وأود أن أطمئن الأستاذ خليل عبد الكريم إلى أن أصحاب اللحي السياسية لا يشغلون أدمغتهم بهذه القضايا طالما أنهم خارج الحكم ، وطالما أنهم في مرحلة المتاجرة بشعار «السلام هو الحل» ! لأنهم يخشون الفتنة والانقسام حول التفاصيل !

وقد كان المرحوم الشيخ حسن البنا هو الذي وضع هذه القاعدة - كما اتضح من محاكمة عام ١٩٥٤ ، فحين سأل المدعى العام هندأوى دوير عن أهداف الجماعة ، أجاب بأن هدفها الوحيد الحكم بالاسلام . وعند ما سألها عما اذا كانت الجماعة قد وضعت أبحاثا عن كيفية الحكم بالاسلام ، مثل الدستور والقانون وشكل الدولة ؟ أجاب : « شكل الدولة ، وكونه يبقى جمهوري أو ملكي ، أو حكم على أي صورة من الصور المعروفة ، ما تعملش شيء في هذا الصدد ، وإنما الشكل كان يتحدد في صورة اسلامية ، تختلف عن الديموقراطية وعن الدكتاتورية وعن الشيوعية ! .

ثم قال هنداوى دوير إنه فى أيام الأستاذ البنا طلبتُ منه أن يكتب فى هذا ، فقال لى : احنا شعبنا كتب وكتابات ، والمكتبة الاسلامية مليانة . وذكر أنه قال فى مناسبة ما : ان الناس يجتمعون على مبادئ ، لا على تفصيل ، لأننا اذا دخلنا فى التفاصيل فسنختلف ونتفرع ، ولا ننتهى إلى خير كثير . احنا ماشيين على مبادئ اسلامية ، ولو تعرضنا للتفاصيل فيمكن ييجى فقيه ويختلف معنا ، وجايز نستهلك فى مسائل فرعية !

ومعنى ذلك أن أصحاب اللهى السياسية ليسوا أفضل حالا فى فهم شعار « الاسلام هو الحل » من الجماهير التى يخدعونها عمدا بهذا الشعار . ومن هنا كان قصارى تفسيرهم لهذا الشعار هو تلك العبارات الساذجة التى وردت فى نقاط برنامجهم العشر ، مثل أن الايمان بالله أساس الأخلاق والفضائل ، وأن حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية يبدأ من هذا الايمان ، وأن الشريعة لا تقتصر على الحدود وانما هى نظام متكامل للحياة والحكم ، وانه من الضرورى اشاعة الفضائل !

بمثل هذا الكلام ، الذى يلوكه الناس وهم يجلسون على المصاطب ، أو يقطعون الوقت على المقاهى ، أو يتبادلونه فى وسائل المواصلات ! - يشرح أصحاب اللهى السياسية شعار « الاسلام هو الحل » ، ويكسبون به ٥٦ مقعدا فى مجلس الشعب ! ويعبثون بالوحدة الوطنية ، ويحاولون جر بلادنا إلى الوراء !.

ومن المحقق أنهم يدينون بالفضل فى كسب مقاعدهم لنسبة الأمية المرتفعة فى بلادنا !، وهى التى حافظت عليها ثورة يوليو المباركة كماتحافظ على أغلى المقدسات!، ليسهل عليها فرض دكتاتوريتها على الشعب! . كما أنهم يدينون بالفضل أيضا لفرقة أخرى لا تمتاز كثيرا عن جماهير الأمين، وهى فرقة ترزية القوانين !.

التطرف الدينى فى أكاديمية الشرطة!*

أعتقد أن الحوار الذى دار فى
معهد القادة لضباط الشرطة، المنعقد
فى مبنى أكاديمية الشرطة بالعباسية،
يوم الاثنين ١٠ أغسطس، حول التطرف
الدينى فى مصر، يعد من أهم وأجراً ما
أثير على ساحة الفكر السياسى فى
بلادنا فى الآونة الأخيرة، بسبب سخونة
القضايا التى تناولها، وجرأة التناول
وديمقراطيته، مما لا أعتقد أنه يمكن أن
يدور فى بلد آخر فى المنطقة العربية من
الخليج إلى المحيط ! .

فقد رأى معهد القادة لضباط
الشرطة، بمناسبة اليوبيل الفضى
لانشائه، اقامة مؤتمر علمى كبير يتناول
«قضايا الساعة الأمنية تحت المجهر»،
وداعا لمعالجتها عددا من كبار رجال
العلم والفكر والدين فى بلدنا، وافتتحها
وزير الداخلية السيد زكى بدر يوم
الاثنين الماضى كما ذكرت. وقد أقيمت
فى جلسات هذا اليوم مجموعة طيبة من
الأبحاث، حول «التطرف الدينى»، قدمها

* الوفد فى ١٧ / ٨ / ١٩٨٧

عدد من كبار رجال الفكر ، وقد قدرلى حضور الجلسة المسائية ، التى كان على أن أقدم فيها رؤية تاريخية لنشأة التطرف الدينى فى مصر وتطوره. وبالتالي أتيح لى فرصة الاشتراك فى المناقشة الخصبة التى تلت عرض الأوراق التى قدمت .

ولأول مرة عرفت أن مصطلح «التطرف الدينى»، الشائع فى كل وسائل اعلامنا، هو مصطلح غامض يحتاج إلى تعريف دقيق! كما عرفت أنه ما يزال يوجد فى بلادنا حتى الآن من يعتقدون أن التطرف الدينى قد نشأ فى سجون عبد الناصر حسبا تروج الجماعات الاسلامية! . وعرفت أيضا أن هناك من لا يزالون يعتقدون أن قانوننا المدنى يتناقض مع الشريعة الاسلامية، رغم ما أعلنه المستشار محمد سعيد العشماوى من أن أحكام القوانين المصرية عموما مطابقة لأحكام الاسلام. وعرفت كذلك أنه ما زال هناك من يعتقد بأن ظاهرة الحجاب فى مجتمعنا المعاصر هى دينية بحتة وليست ظاهرة اقتصادية أيضا! بل عرفت ان هناك من لا يزال يعتقد فى طهارة وبراءة الشباب المتطرف الذى يرتكب حوادث العنف ويتسبب فى اهراق دماء رجال الشرطة فى كل مناسبة يستعرض فيها عضلاته - إلى آخر هذه القضايا التى كانت محور نقاش خصب وساخن فى تلك الجلسة التاريخية من جلسات المؤتمر .

وأعترف بأن محاضرة الدكتور أحمد المجدوب كانت محاضرة استفزازية، كما كانت كذلك محاضرة الأستاذ الكبير أحمد بهجت، وان كنت أعترف فى الوقت نفسه بالروح الديموقراطية والصدر الرحب لكل من الصديقين العزيزين، ولكن تحليلاتهما استفزت الصديق الدكتور فرج فودة، الذى لم يملك الا التعليق بخطاب طويل حماسى مدعم بالاستشهادات التاريخية الدقيقة والصحيحة التى تثبت أمرين :

أولهما أن التطرف الدينى فى مصر ظهر قبل سجون عبد الناصر بوقت طويل. وقد استشهد بحيثيات قرار محمود فهمى النقراشى باشا بحل جماعة الاخوان المسلمين، وهى الحيثيات التى استندت إلى مذكرة عبد الرحمن عمار بك ، وكيل وزارة الداخلية لشئون الأمن العام،

والتي عدد فيها وقائع القتل والنسف والتدمير التي ارتكبها أفراد الجماعة ، والتي انحرفت بها عن أهدافها الدينية والاجتماعية التي تأسست من أجلها. كما استشهد بواقعة قتل محمود فهمى النقراشى نفسه، وهو رئيس وزراء مصر - وكل ذلك من قبل أن تنشأ سجون عبد الناصر !

أما الأمر الثانى الذى أثبتته الدكتور فرج فودة، فهو أن ما يقال عن براءة وطهارة الشباب الذى يرتكب حوادث العنف، هو كلام ساذج، فالشباب البريء والطاهر هو فقط الشباب الذى يبنى ولا يخرب، ويعمل ولا يقتل، ويدافع عن رأيه بالكلمة ولا يدافع عنها بالمدفع الرشاش.

وقال إنه ليس من الصحيح أنه لا يوجد فى الساحة السياسية فكر يواجه فكر الجماعات المتطرفة، لأن الفكر الانسانى كله ضد العنف والقتل والتدمير . وقرر أنه لا يوجد ما يبرر التجاء الشباب إلى العنف، وأنه لا توجد من وسيلة فعالة لمقاومة العنف سوى القانون .

كذلك كان من رأى الدكتور فرج فودة أن نصوص القانون فى بلدنا كافية ورادعة لو طبقتها الدولة ووضعتها موضع التنفيذ الصحيح، ولكن المشكلة أن السلطات لا تستخدم القانون لأنها تخشى من استخدامه! وفى الوقت نفسه، فإن وسائل الاعلام تساعد على التطرف الدينى بمبالغتها فى تناول الجرائم الخلقية الفردية وازهارها فى صورة تهدد المجتمع ، الأمر الذى يبرر ما تفعله الجماعات المتطرفة الارهابية باسم حماية المجتمع من السقوط !.

أما عن ضرورة تعريف التطرف الدينى، وقد أثار ذلك الدكتور أحمد المجدوب، فقد تذكرت على الفور اجتماعا حضرته فى اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين، منذ بضعة أشهر، وكنت قد أعددت تقريراً عن الانتاج العلمى لمدرسة جامعية فى احدى الكليات ، دلت فيه على أنها ارتكبت سرقة علمية من كتاب آخر! . واذا بى أفاجأ بأحد الأساتذة المتحمسين لترقية المدرسة المذكورة يسألنى عن تعريف السرقة العلمية ؟ .

وكدت أصعق!، فها أنا أسمع من يسألنى عن تعريف السرقة العلمية بعد ثمانين عاما من انشاء الجامعة المصرية، وبعد ألاف التقارير العلمية التى قدمت من الأساتذة الذين قاموا بفحص الانتاج العلمى للمتقدمين للترقية للوظائف الجامعية الأعلى! . وهنا رفضت الاجابة على هذا السؤال البديهي خوفا من أن تنتهى المناقشة بتعريف للسرقة العلمية يجردها من أركانها، فتصبح مباحة للباحثين يرتكبونها كما يشاءون! .

على أن الموقف كان مختلفا فى مؤتمر معهد القادة، لأن الجميع كانت تحدوهم الرغبة فى الوصول إلى الحقيقة بدون غرض أو تحيز، ومن هنا قدمت التعريف الذى يعرف التطرف الدينى بأنه المفهوم الاصطلاحي الذى يطلق على الجماعات الدينية التى تسعى للوصول إلى السلطة لتطبيق مفهوما وتفسيرها للدين الاسلامى، وتستخدم فى ذلك القوة والعنف بدلا من الوسائل الديموقراطية التى يحددها الدستور .

على أن الخلاف ثار حول ما اذا كانت ظاهرة الحجاب مجرد ظاهرة دينية أم أنها ظاهرة اقتصادية بالدرجة الأولى – وهو رأى الذى قلته – وقد كان رأي الدكتور محمد سيد طنطاوى، مفتى الديار المصرية، أن حجاب المرأة أمر ضرورى تنفيذا لأوامر الله ، وأورد الآيات الكريمة التى تسند قوله.

وهذا الكلام شئ ، والبحث عن أسباب الظاهرة شئ آخر ، فكلام الله فى الحجاب لم ينسخ فى الأربعينات والخمسينات والستينيات من هذا القرن بكلام يبيع الحجاب، حتى تتخلى المرأة المصرية عن الحجاب، كما حدث فى تلك العقود من السنين، وانما كان قائما، ولم تتبعه المرأة المصرية! .

وقد كان الاخوان المسلمون هم القوة الدينية المسيطرة فى تلك العقود من السنين ، ومع ذلك فانهم لم يدعو إلى الحجاب بالشكل السائد فى هذه الظاهرة حاليا ، بل دعوا إلى الاحتشام وتغطية شعر المرأة ولبس جوارب سميكة لا تظهر بشرة ساق المرأة .

فاذا ظهر الحجاب بتلك الصورة التي هي عليها الآن، تلقائيا بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، وانتشر في ظل الأزمة الاقتصادية التي ظهرت في عصر الانفتاح الاقتصادي، فان البحث عن هذه الظاهرة لا يكون في كتاب الله، لأن كتاب الله الكريم كان موجودا عند اختفاء هذه الظاهرة، وانما يكون البحث في أسباب دينوية - اللهم الا اذا أردنا أن نتهم المرأة المصرية بأنها نسيت كتاب الله فجأة طوال العصر القومي الليبرالي في مصر، ثم تذكرته فجأة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، وهو ما لا نقوله ، لأننا ننسب ترك الحجاب إلى رياح التغريب ولا ننسبه إلى أسباب دينية . ومن هنا علينا أن ننسب الظواهر الاجتماعية إلى أسبابها الاجتماعية أولا وليس فقط إلى أسباب دينية، لأن الأسباب الدينية موجودة منذ نزول القرآن .

وعلى كل حال فريما كانت هذه اللوحة من المؤتمر العلمي الذي عقد في أكاديمية الشرطة كافية لتهنئة منظميه والداعين اليه، وعلى رأسهم اللواء فاروق القصاص مدير الأكاديمية، واللواء علوى أمجد مدير معهد القادة لضباط الشرطة ، واللواء مجدى أمين مساعد وزير الداخلية .

الارهاب تحت مظلة الدين*

لم يفرض الارهاب باسم الدين نفسه على المسرح السياسى المصرى كما فرض نفسه فى السنوات الأخيرة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، وما تبعها من تحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية، الأمر الذى كان من شأنه أن يثير اهتمام الدولة من جانب، ورجال القلم والفكر والدين من جانب آخر، ويدعو إلى دراسة هذه الظاهرة دراسة علمية بغرض التوصل إلى مواجهتها مواجهة سليمة وناجحة .

ولما كان رجال الأمن هم الطرف الآخر المواجه للارهاب، بل هم الطرف المنوط به مقاومة الارهاب، فقد كان ذلك ما دعا معهد القادة لضباط الشرطة، إلى أن ينتهز فرصة مرور خمسة وعشرين عاما على انشائه، ليدعو إلى مؤتمر علمى تشترك فيه المراكز العلمية والسياسية المختلفة، بغرض دراسة هذه الظاهرة، ومحاولة تشخيصها تشخيصا علميا وايجاد الحلول لها .

* اكتوبر فى ٢٣/٨/١٩٨٧

· وهذا هو الذى حدث بالفعل، حيث انعقد المؤتمر فى المدة من ١٠ إلى ١١ أغسطس برياسة اللواء فاروق القصاص، رئيس أكاديمية الشرطة، واللواء الدكتور علوى أمجد مدير معهد القادة ومقرر المؤتمر .

وأمام المؤتمر كان موجودا ٥٨ بحثا مقدماً من رجال الفكر والعلم والدين والأمن، حيث دارت اخطر المناقشات، وأثيرت أخطر القضايا فى حرية تامة، وبرزت من خلال ذلك آراء فى التشخيص والعلاج تعبر عن التيارات الفكرية التى تنطلق منها - والتى هى بالضرورة تيارات متعارضة بل ومتناقضة - ولكنها تطرح القضايا من زوايا مختلفة تسمح بتصوير المشكلة تصورا أكثر رحابة وعمقا .

وفى اعتقادى أن ما طرحه المستشار محمد سعيد العشماوى عن أبعاد التطرف الدينى يعد من أهم وأخطر ما يتعلق بهذه القضية ، لأنه لا يستخدم الفكر وحده بل ويستخدم العلم والنصوص الدينية التى تسانده، خصوصا فيما يتعلق بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الاسلامية التى تطلقها بعض الأحزاب السياسية فى بلدنا، والتى تعطى المبررات للتطرف الدينى ليلعب دوره فى مجتمعنا وفى الحياة السياسية .

فقد تساءل المستشار محمد سعيد العشماوى عما يقصده دعاة تطبيق الشريعة الاسلامية بدعوتهم ؟- أو على حسب قوله :«إذا كانت الشريعة الاسلامية تعنى منهج الله أو طريق الله - كما هو معنى لفظ الشريعة فى القرآن - فإن هذا الطريق وذلك المنهج أمر تعبدي ، واتجاه فردى أو جماعى لا صلة له بالحكومة ولا شأن له بالسياسة ولا علاقة له بالتحزب . وإذا كان المقصود بالشريعة الاسلامية أداء شعائر الدين وممارسة عباداته، فإن الحكومات المصرية جميعا لم تحل بين أى مسلم وبين عباداته أو أداء شعائر الدين ، وإذا كان المقصود بالشريعة الاسلامية أحكام المعاملات والحدود والقصاص ، فإن أحكام القوانين المصرية عموما موافقة للشريعة الاسلامية ومطابقة لأحكام الاسلام ، وإذا

كان ثمة عدد قليل جدا من الأحكام لم يطبق بعد، فانها فى حاجة إلى اعداد وفى حاجة إلى اجتهاد .

وقال المستشار محمد سعيد العشماوى : ان القرآن الكريم لم ينص إلا على حكم واحد فى المسائل المدنية ، وهو الخاص بتحليل البيع وتحريم الربا، وهذه القاعدة كما يقول الفقهاء من مجملات القرآن التى لا يبين منها حلال من حرام، والتى تحتاج إلى تفسير وبيان يقوم به الفقهاء استهداء بأحاديث النبى عليه السلام. أما جميع أحكام الأحوال الشخصية والموارث والوصية فى القانون المدنى فهى مأخوذة مباشرة من القرآن الكريم والسنة النبوية ومما رآه المشرع صالحا من مذاهب الفقه الاسلامى .

أما عن الحدود (العقوبات) الواردة فى القرآن، فعددها أربعة فقط، وهى حد السرقة، وحد قذف المحصنات، وحد الزنا، وحد الحرابة - ويضاف إليها حد الردة وحد شرب الخمر، وقد ورد الأول فى حديثين للرسول عليه السلام، وورد الثانى فى تعزيز استخراجه على بن أبى طالب، ولم يرد فى القرآن أو فى السنة .

وهذه الحدود كلها شرطية، بمعنى أنها لا تطبق الا بعد قيام مجتمع من المؤمنين الثقة العدول ، وتحقيق العدالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وأى دعوى لتطبيقها قبل ذلك ليست الا مجرد فتنة للناس ومحض حرب على الاسلام.

وكان من أقوى ما قدمه المستشار محمد سعيد العشماوى ، ما يختص بتفسير آيات القرآن الكريم ، الذى ذكر أنه لا يجب أن يتم بمعزل عن أسباب النزول، وإلا وقع الناس فى الفتنة. وقد دلل على ذلك بان القرآن الكريم لم يتنزل مرة واحدة، وانما نزل مجزءا متفرقا على مدى ثلاثة وعشرين عاما، وكانت كل آية تتعلق بواقعة بذاتها، أو تعد ردا على سؤال موجه أو تحد مثار .

ومن هنا، فالمنهج الأصولي الصحيح لتفسير القرآن الكريم هو الذى يفسر آيات القرآن بعد ربطها بأسباب التنزيل، وفهمها على خلفية الواقعة أو الحادثة التى تنزلت بشأنها. واستدل بقول عبد الله بن عباس إنه «سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن، ولا يدرون فيم نزل، (أو يعرضون عن سبب التنزيل)، فيكون لهم فيه رأى، ثم يختلفون فى الآراء، ثم يقتتلون فيما اختلفوا فيه. وقد قال ابن تيمية إن معرفة سبب النزول يعين فى فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب. وقد أشكل على جماعة من السلف معانى آيات، حتى وقفوا على اسباب نزولها، فزال عنهم الاشكال.

وقال المستشار محمد سعيد العشماوى: ان الخوارج كانوا هم أول من خالف هذا المنهج الأصولي السليم، فقد اقتطعوا الآيات من السياق القرآنى، واجتثوها من أسباب التنزيل، واستعملوها على عموم ألفاظ، مثل الآيات الكريمة التى تقول: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، وإن الحكم الا لله»، و«أفحكم الجاهلية يبغون».

ولم يلبث الأمر أن تطور فى عهد الظلام الحضارى والانحطاط العقلى، اذ وضع الفقهاء هذا الاتجاه الخاطيء فى قاعدة تقول إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب! ويمقتضى هذه القاعدة تغير تفسير القرآن تماما، وأصبح من الجائز لكل جماعة ولأى فرد أن يستعمل آية على عموم ألفاظها – لا على خصوص تنزيلها، وتبعاً للتركيب اللفظى وحده أو التكوين اللغوى دون سواه. وكان نتيجة ذلك ما توقعه ابن عباس، وهو اقتتال المسلمين، وما قرره ابن تيمية من إشكال الفهم على الناس.

وهذا الكلام الذى أورده المستشار محمد سيد العشماوى يردده الدكتور أحمد كمال أبو المجد، أستاذ ورئيس قسم القانون العام بكلية حقوق جامعة القاهرة، والمفكر الإسلامى الكبير، حين يحدد فى أسباب ظاهرة التطرف الدينى ما يطلق عليه تعبير «ظاهرة انتشار فهم خاص

للاسلام، مقترن بأسلوب خاص فى الدعوة اليه، ويتميز بالحرفية فى فهم النصوص الدينية، والاعراض عن الرؤية المجتمعية لوظيفة الدين، وتصور الشريعة الاسلامية - تبعا لذلك - تصورا ميكانيكيا كما لو كانت كيانا جاهزا معلبا، يستدعى إلى المجتمع فيصلح كل فساد ويقوم كل اعوجاج ويحل مشاكل المجتمع كلها !

ثم يتساءل الدكتور محمد كمال أبو المجد عما يحمل هذه الجماعات على تبني تفسيرات للاسلام تقوم على التشدد والغلو وسائر المظاهر الأخرى؟ ويرد على ذلك بقوله : «ان الجواب لا يكمن أبدا فى النصوص الدينية، وانما يكمن فى الواقع الاجتماعى والسياسى الذى يحدد للناس معظم اختياراتهم، ويتحكم فى أكثر مواقفهم .

وفى هذا المجال فان قضية التطرف الدينى تغدو قضية اجتماعية تحتاج إلى بحث ميدانى واسع لتحديد عناصر الواقع الاجتماعى الذى يؤدى إلى نمو هذه الاتجاهات داخل اطار العمل الاسلامى . وهذه الأسباب من بينها الغياب النسبى للمشاركة السياسية الجادة، وغياب الاحساس بهوية الذات الحضارية، نتيجة تناقض مصادر تحديد تلك الهوية داخل المجتمعات العربية والاسلامية واختلافها فيما بينها ، وعلى سبيل المثال : هل نحن مصريون فى المقام الأول، أم عرب، أم مسلمون ؟.

كذلك من الأسباب التى أوردها الدكتور أبو المجد تعاقب الهزائم السياسية والعسكرية على عالمنا العربى والاسلامى، والاحساس بأن النظم السياسية السائدة قد عجزت عن منع هذه الهزائم أو تحقيق انتصارات تمحو أثرها ، لذلك تتجه الأجيال إلى البحث عن بديل .

ومن الأسباب أيضا الاحباط الاجتماعى الذى يتمثل فى غياب العدل الاجتماعى ، وانتشار الاحساس بالظلم، وهو احساس يخلق بنية صالحة للتمرد على الأوضاع القائمة ورغبة فى هدمها والقضاء عليها . ثم نقص التعليم الدينى الصحيح الذى يؤدى إلى تفسير النصوص الدينية ممن

ليس لهم قدم راسخة فى العلم تؤهلهم لذلك. وقال الدكتور أحمد كمال أبو المجد إن أخطر آثار هذا التطرف هو فيما يلحقه بصورة الاسلام والمسلمين من ضرر بالغ، اذ يصور للدنيا كلها أن الاسلام لا ينفك عن تلك المعالم السلبية المنفرة، فتفر قلوب الناس منه. وهكذا يسد التدين المنحرف الطريق أمام التدين الصحيح، ويفسد التطرف الدينى الأمر على الاعتدال والمعتدلين، ويؤخذ ملايين الناس من المسلمين العاملين العادلين بجريرة مئات الجفاة المتعنتين الذين تشقى بهم مجتمعاتهم .

وأوضح الدكتور أحمد كمال أبو المجد أن التعامل مع هذه الظاهرة يجب أن يدور على محورين : الأول، انزال حكم القانون على الخارجين على أحكامه فى حزم وأمانة، وبلا تفريط أو افراط. والمحور الثانى ، رسم خطة طويلة المدى تشمل أجهزة التعليم والاعلام والشباب والدعوة الدينية، يكون الهدف منها تنشئة الجيل الجديد على أساس فهم معتدل للاسلام وأحكامه ووظيفته فى المجتمع .

على كل حال فريما كان الدكتور على الدين هلال أكثر اقترابا من الدكتور أحمد كمال أبو المجد فى تفسير أسباب ظاهرة التطرف الدينى، من ناحية ارجاعها إلى ظروف اجتماعية وليست أسبابا دينية .

وفى رأى الدكتور على الدين هلال أن أهم تلك الظروف الاجتماعية، تعثر الجهد القومى التنموى المصرى، وهو ما تمثل أولا فى هزيمة ١٩٦٧ والآثار النفسية والمعنوية لها على جيل بأكمله من الشباب، وما كشفت عنه من اختلالات كبيرة فى هيكل الحكم كما وضح خلال محاكمات جماعة المشير عامر. ثم موت عبد الناصر وما أوجده من فراغ، ثم أحداث مايو ١٩٧١ وتصفية جزء من النخبة الحاكمة .

وكان مما ساقه الدكتور على الدين هلال من أسباب: استخدام الدولة خلال حقبة السبعينات لسلح الدين لتبرير شرعية بعض سياساتها وضرب القوى السياسية المناوئة لها، وتعاون بعض أجهزة

الدولة مع الجماعات الدينية فى بداية السبعينيات فى الجامعات كعنصر توازن مع التيارات الناصرية واليسارية المعارضة، واتهام المعارضة السياسية مرارا وتكرارا بالاحاد، حتى صارت تهمة الاحاد جزءا من قاموس التعامل الحكومى مع المعارضة!.

واستشهد الدكتور على الدين هلال بما أشار اليه المرحوم عمر التلمسانى فى حديثه الى مجلة المصور، ولم ينكره أحد، من أن الدولة منحت أحد أمراء الجماعات الاسلامية مقرا لجماعته فى السيدة زينب، وأرضا زراعية ليعيش عليها أعضاء الجماعة!.

كذلك ساق الدكتور هلال من الأسباب اشتداد قسوة الظروف الاجتماعية من أزمات اسكان ونقل ومواصلات وغذاء وتضخم وارتفاع أسعار، ووطأة ذلك على الطبقات الفقيرة الثابتة الدخل ، فى وقت برزت فيه طبقة ثرية جديدة فاضحة الاستهلاك، ومصدر ثرواتها غامض، وأسلوب تعاملها مع جهاز الدولة مريب !.

وأخيرا دعا الدكتور هلال إلى دعم وتشجيع التفسيرات الدينية المستنيرة، واعطاء الفكر الاسلامى المستنير فرصة لعرض وجهة نظره، حتى لا تحتكر اتجاهات بعينها ساحة الفكر الاسلامى !.

وربما كان البحث الذى قدمه المستشار رجاء العربى، المحامى العام الأول لنيابة أمن الدولة العليا، من أكثر البحوث ثراء وتحليلا للظاهرة، ولكن يهمنى ما أبرزه من تأثير الثورة الايرانية، التى يرى أن نجاحها فى الاستيلاء على الحكم فى ايران أضحى هو المثل الذى تحاول الجماعات الاسلامية فى مصر الاقتداء به ، وقد اخذ بعضها بالفعل يقيم جسورا للاتصال بهذه الثورة ، التى تدعمها فى اتجاهها إلى العنف .

كذلك أشار المستشار رجاء العربى إلى أحكام البراءة التى حصلت عليها بعض الجماعات الاسلامية بعد ضبطها وتقديمها إلى القضاء، وقال إن الاحكام قد شجعت هذه الجماعات على الاستمرار فى نشاطها،

بل وزادتها جرأة وخبرة فى العمل التنظيمى المدروس، بحيث أضحت تمارس نشاطاتها علنا غير أبهة بالضربات الأمنية التى تصيبها! .

وقد انفرد الدكتور فرج فودة - فى وسط السلبيات التى ابرزتها جميع الأبحاث لظاهرة التطرف الدينى - بتقديم ايجابيات للموقف تخفف من حدته. وقد ذكر من هذه الايجابيات أن التيار السياسى الاسلامى تيار متفتت إلى تيارات غير متجانسة فى الفكر أو أسلوب العمل، وهى : التيار التقليدى، والتيار الثورى، والتيار الثروى (نسبة إلى الثروة) . وهذه التيارات الثلاثة تفتقر إلى قيادة اسلامية واحدة - أى تفتقر إلى شخصية مثل شخصية حسن البنا، بعد عزوف القيادات الاسلامية التى تحظى بقبول شعب واسع ، مثل الشيخ شعراوى عن العمل السياسى التنظيمى. ثم ضعف قيادة الاخوان المسلمين الحالية (حامد أبو النصر) ، وظهور ردود فعل شعبية مناهضة للتيار الاسلامى الثورى نتيجة تزيده فى التطرف ، وظهور تيار فكرى علمانى واضح تبناه بعض المفكرين فى مقالاتهم وكتبهم استطاع ان يفرض نفسه على الساحة الفكرية .

وطالب الدكتور فرج فودة بان تسمح الدولة بتكوين احزاب سياسية اسلامية، حتى توقف مزايده الأحزاب السياسية على الشعارات الدينية من جهة، ومن جهة أخرى تضطر هذه الأحزاب إلى وضع برامج سياسية لمشاكل المجتمع الحقيقية، مثل الاسكان والاسعار والديون، مما يفسح دائرة الحوار معها .

وقد اشترك الاستاذ أحمد بهجت مع كل من المستشار محمد سعيد العشماوى والدكتور أحمد كمال أبو المجد ، فى تفسير ظاهرة التطرف الدينى بالأخطاء التى ترتكب فى تفسير القرآن الكريم بسبب الجهل ببواعث النزول، أو على حد قوله : إن الناس حين يجهلون فيم أنزلت الآية، يذهب كل فيها مذهبا مختلفا، وليس عندهم من العلم ما يهديهم إلى الصواب. وقال ان ابن عمر سئل عن رأيه فى الخوارج، فقال : هم شرار خلق الله، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت فى الكفار فجعلوها على المؤمنين!.

ثم تساءل قائلاً : أين العلماء الذين يطمئن المرء إلى علمهم وتقواهم؟ إن عددهم قليل، ومن هنا فإن هناك فراغاً هائلاً في ساحة الدعوة الإسلامية، نحتاج فيه إلى أضعاف أضعاف ما لدينا من العلماء، وهو الآن فراغ يملؤه كثيرون ممن لا يحسنون فهم الدين ولا فهم الدنيا! .

هذه عجالة في تحليل البحوث القيمة التي قدمت لمؤتمر «قضايا الساعة الأمنية تحت المجهر» الذي نظمه معهد القادة لضباط الشرطة، وقد تسنح لي الفرصة في وقت لاحق لتقديم جرعة أخرى للقارئ، قد تكون لها فائدتها في إحاطته بهذه المشكلة التي تعد حالياً من أخطر قضايا مجتمعنا المعاصر .

التطرف الدينى ومحاكمة الشيخ على عبد الرازق مرة أخرى!*

اعتمدت الجماعات الدينية المتطرفة فى نشر فكرها وتفسيرها للدين الاسلامى على شىء واحد، هو جهل الجماهير! . وجهل الجماهير هنا لا نعى به أمية الجماهير، وانما نعى به جهلها بتفاصيل الدين ودقائقه وأسراره التى يعرفها فقط المتفقهون بالدين. والجماهير المصرية هى أكثر الجماهير العربية تدينا، ولكنها تفهم الدين فى أبسط صورته المتمثل فى الشعائر والأحكام الشائعة البسيطة التى تتصل بحياتهم العامة، مثل الصلاة والزكاة والزواج والطلاق، ولكنها لا تتغلغل بفكرها إلى ما وراء ذلك من مسائل فلسفية ، مثل الحكومة الاسلامية، والأصولية، والحاكمية، والقومية ، والدولة، وغيرها مما تتطلب مستوى أعلى من العلم والتفقه فى الدين .

ولأن الجماعات الاسلامية تعرف أنها لا تستطيع أن تخاطب الجماهير

* فى اكتوبر ١/٣١ / ١٩٨٨

غير المتعلمة فى أمثال هذه المسائل الفلسفية، فقد وجهت همها إلى مخاطبة الجماهير المتعلمة تعليما مدنيا، مثل الطب والهندسة والعلوم والتجارة والآداب وغير ذلك من العلوم التى تبتعد بطبيعتها عن العلوم الدينية البحتة، فهذه الجماهير تجمع بين العلم والجهل! العلم بالعلوم التى تخصصت فيها، والجهل بالعلوم الدينية جهلا تاما، وتستطيع - بالتالى - تلقى تفسيرات الجماعات الاسلامية للدين فى جانبه الفلسفى الذى أشرنا اليه - أى فى الحاكمة والحكومة الاسلامية والدولة والقومية وغيرها - دون أن تجد لديها من المعرفة الدينية ما ترد به أو تحتاج به .

وقد كان هذا هو السر فى تركيز الجماعات الدينية المتطرفة جهودها فى طلبة الجامعات، الذين يمثلون، بمستوى تعليمهم وتفكيرهم، تربة خصبة لزراع الأفكار الدينية المنحرفة، كما كان هذا هو السر فى توجيه تلك الجماعات عداها للمتفقهين فى الدين، وقتلها الشيخ الذهبى عندما دخل فى نقاش دينى معها يكشف انحراف فكرها ويبعده عن الدين الصحيح .

ومن هنا تبرز هذه المفارقة، وهى أن ألد أعداء الجماعات الدينية المتطرفة هم علماء الدين والمتفقهين فيه، وليس الجهلة والأمينين! فالعلماء هم المصابيح التى تكشف انحراف الفكر الدينى لدى هذه الجماعات، والجهلة والأمينون وأنصاف المتعلمين والمتعلمون تعليما مدنيا هم البيئة الاجتماعية الصالحة لهذه الجماعات لنشر فكرها .

وفى هذا الضوء تبرز أهمية كتاب «الاسلام السياسى» الذى يفجر هذه الأيام مناقشات واسعة النطاق، والذى صدر حديثا للمستشار محمد سعيد العشماوى، عن دار سينا للنشر. لأنه كتاب يصدر عن أحد العلماء المتفقهين فى شئون الدين، فهو أستاذ محاضر فى أصول الدين، والشريعة الاسلامية، والقانون المدنى، وهو رئيس محكمة الجنايات ومحكمة أمن الدولة العليا، وكان رئيسا لمحكمة استئناف القاهرة العليا للأحوال الشخصية. فهو يناقش فكر الجماعات الدينية المتطرفة من موقع العالم المتفقه فى الدين، العارف بالنصوص وبتفسيرها الصحيح وأسباب

وحكمة نزولها، ومن هنا تظهر أهمية هذه المناقشة التي يديرها المستشار محمد سعيد العشماوى بأسلوب السهل الممتنع، المدعم بالأسانيد الصحيحة من كتاب الله وسنة رسوله .

وليس من السهل - بطبيعة الحال - عرض كل ما ورد فى هذا الكتاب من أفكار، كما أن عرض هذه الأفكار مجردة مما دعمها بها صاحبها من أسانيد ونصوص ، قد يسطح هذه الأفكار، ويفقدها قيمتها المستمدة من الأدلة والبراهين . على أنه يمكن - مع ذلك - عرض بعض النتائج التي توصل اليها ، ونترك للقارئ الحرية فى الرجوع إلى أسانيدها اذا شاء فى الكتاب .

لقد تناول الكتاب عدة قضايا، تتكون منها فصوله، وهى حاكمية الله، والحكومة الاسلامية، والجهاد فى الاسلام ، والشرعية والسياسة الدينية، والأصولية الاسلامية، والقومية الاسلامية، وحقيقة شعار «الاسلام دولة ودين»، والسبيل إلى الدين، والحقيقة فى دعوى تقنين الشريعة .

ويهمنا القضية الأولى، وهى حاكمية الله، وهى المقولة الأساسية التي يستند اليها دعاة تسييس الدين للوصول إلى الحكم بالتطرف والعنف والارهاب ، ففيها يقولون : إن الحاكمية لله وحده، ولا حكم لغيره ، فله وحده حق التشريع والقضاء، ومن يقل بغير ذلك، أو يفعل على خلافه، فهو كافر! وإنه لابد من الحكم بكل التشريع الالهى، بحيث لا يجوز تعديل حكم فيه، أو وقف حكم آخر ، أو القول بنسبية حكم ما، أو وقتية أى حكم، ومن لم يحكم بكل التشريع الالهى دونما تعديل أو وقف، فهو كافر!. وأن المجتمع المعاصر كله مجتمع جاهلى ينبغى الانقضااض عليه لهدمه، وعدم مهادنته أو مسايرته أو متابعته، فلا يوجد الا حزب الله ، وهو الحزب الذى يضم قادة وأتباع هذا التيار ، وحزب الشيطان ، وهو الحزب الذى يضم من عداهم فى العالم كله .

ويوافق المستشار محمد سعيد العشماوى على رأى بأن الحاكمية لله ، والحكم لله دوما ، ولكن ليس بالفهم الذى يدعيه هؤلاء ، ولا بالمنطق الذى يزعمونه ، ولا بالأسلوب الذين يريدون فرضه ، والذى يؤدي إلى

اسقاط التكليف الالهي ، والغاء الارادة الانسانية ، وجعل عقاب البغاة عبثا ، وجعل حساب الآخرة لغوا .

ذلك أن كل عاقل يدرك أن وراء ارادته ارادة عليا هي ارادة الله سبحانه ، وأن فوق كل فعل يقوم به فعل أسمى هو فعل الحق جل وعلا ، وأن إزاء كل حدث في الحياة عناية عظمى هي عناية المولى عزوجل ، ولكن كل عاقل يدرك أيضا أن ارادة الله لا تلغى ارادته ، وأن فعل الله لا يجب فعله ، وأن عناية الله لا تحول دون حريته ، وأن هذه الارادة وهذا الفعل وهذا الإحداث هو أساس التكليف ومناط المساءلة : فهو مسئول عن كل ما يفعله ، مسئول عن كل ما يقوله ، مسئول عن كل ما يأتيه .

ومعنى ذلك أن الحكم لله بالقوة والمشيئة والقضاء ، والحكم للناس في الحقيقة والواقع والارادة . وهذا هو مدار التكليف الذي ورد في كل الكتب السماوية ، فالإنسان يريد أو يشاء ، فإذا وافقت ارادته ارادة الله ، وطابقت مشيئته مشيئته المولى ، وقع ما أراد ، ونفذ ما شاءه ، لكنه - دوما - يكون هو المسئول عن الفعل ، والمأخوذ بالارادة ، والمحاسب بالمشيئة .

ومن هنا فإن مقولة «إن الحكم الا لله» ، أو أن «الحاكمية لله وحده» ، بالصورة السياسية وبالمنطق الأعوج الذي تقال به ، لا يعرفها القرآن الكريم ولا السنة النبوية ، وقد اتخذها الذين يريدون أن يغتصبوا الحكم تكأة لتبرير هذا الاغتصاب أمام الجماهير الإسلامية ، فيزعمون أنهم إنما يريدون الوصول إلى الحكم لتحقيق حاكمية الله ، فإذا وصلوا إلى الحكم بالقوة زعموا أنهم لم يصلوا الا بترتيب من العناية الالهية ، ويستمررون بعدها في الحكم بزعم أنهم يحققون حاكمية الله ، وأنهم باسم الله ، فلا يحق لفرد في الأمة معارضتهم أو الوقوف ضد ما يرتكبون أثناء حكمهم من مظالم واستبداد ، إذ يزعمون أنه حكم الله ، وأنهم يحققون حكم الله مع أنه حكمهم هم ، ولا يمكن أن يكون حكم الله ، لأن الله تعالى منزّه عن الظلم والفساد . ومن هنا فاستخدام مقولة «إن الحكم الا لله» و

«الحاكمية لله» بالمعنى الذى تروج له تلك الجماعات ، هو «قولة حق يراد بها باطل» - كما وصفها على بن أبى طالب كلما واجهه بها الخوارج .

أما اذا كان المقصود بهذه المقولة الحكم بشرع الله وحده ، أى أن يكون له تعالى وحده - دون غيره - حق التشريع وحق القضاء ، فقد دلل المستشار محمد سعيد العشماوى على أن لفظ «الحكم» فى القرآن لم يقصد به السلطة السياسية كما يفهم من هذا اللفظ فى لغة العصر الحالى ، وإنما لفظ «الحكم» يعنى فى لغة القرآن الكريم ومفرداتها ووقائعها - القضاء بين الناس ، أو الفصل فى الخصومات أو الرشد والحكمة . ودلل على ذلك بآيات الكتاب الكريم ، وأوضح أن الحكم ، بمعنى السلطة السياسية أو الحكومة ، قد عبر عنها القرآن الكريم بلفظ «الأمر» . ويرهن على ذلك بآيات كتاب الله وتطبيقات اللفظ بعد وفاة الرسول .

ثم تناول المستشار محمد سعيد العشماوى فكرة التكفير التى تتهم بها الجماعات الاسلامية المجتمع الاسلامى والحكام ، وتستعملها كشعار سياسى وهتاف حزبى ، استنادا إلى قوله تعالى : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» - فأوضح المستشار محمد سعيد العشماوى أن استخدام هذه الآية وغيرها على هذا النحو دليل على تحريف هذه الجماعات مقاصد الله واستعمال آياته فى غير ما أنزلت من أجله . فقد نزلت هذه الآية بسبب معين ، وهو عندما أخفى اليهود عن النبى حكم رجم الزانى فى واقعة احتكموا اليه لى يقضى فيها . وقال إن الطبرى أورد أنه روى عن رسول الله عليه السلام أن هذه الآيات نزلت فى أهل الكتاب ، وليس فى أهل الاسلام منها شئ . والزمخشري روى عن ابن عباس هذا المعنى كذلك . والقرطبي قال انها فى أهل الكتاب كلها، نزلت كلها فيهم .

وبعد ، فهذه مجرد لمحة خاطفة من كتاب المستشار محمد سعيد العشماوى ، ومن هنا يدرك القارئ أهمية القضايا التى تناولها ، ويمكنه

أيضا أن يفهم الاعتراضات التي قامت في وجهه من جانب بعض المفكرين الاسلاميين ، الذين نصبوا - بالمناسبة - محاكمة جديدة للمرحوم الشيخ على عبد الرازق وكتاباه «الاسلام وأصول الحكم» ! وهي محاكمة تختلف هذه المرة عن المحاكمة القديمة في أنها لا تتم على يد القصر الملكي وأعوانه ، الذين كانوا يطمعون في الخلافة الاسلامية ، وفي تولى الملك فؤاد عرش هذه الخلافة ، وانما تتم على يد قوى شعبية اختارت التشدد في تفسير النصوص الدينية وفي فهمها ، إلى حد أنه لم يعد هناك فارق كبير بينهم وبين مفكرى التكفير والحاكمية المتطرفين ، الذين اغتالوا الشيخ الذهبي ، واغتالوا السادات ، وكادوا يغرقون بلادنا في بحر من الفوضى والدماء .

لقد كتب الأستاذ فهمى هويدى ، وهو صديق أحترمه ، مقالا فى جريدة الاهرام يوم ١٩/١/١٩٨٨ ، شن فيه هجوما حادا على كتاب المستشار محمد سعيد العشماوى ، استخدم فيه براعته فى الكتابة ، حيث أبدى دهشته من أن المستشار العشماوى مصرى ومسلم وأنه أستاذ محاضر فى أصول الدين والشريعة؟ - بما يحمل من الإيعاز بأن ما كتبه المؤلف فى كتابه يخرج به عن المصرية والاسلام والعلم !. وهذا أقسى ما يوجه لكاتب ، ويعيد إلى الأذهان ذكرى محاكم التفتيش، والارهاب الفكرى الذى تشنه الجماعات الدينية المتطرفة على خصومها فى الرأى - وهو ما أنزه الصديق فهمى هويدى عنه . وأخشى ما أخشاه أن يوالى الصديق فهمى هويدى هجومه بهذا الأسلوب ، بدلا من المجادلة بالتى هى أحسن كما شرع الله فى كتابه الكريم .

وأهم ما فى هجوم الصديق فهمى هويدى لا يتمثل فيما نقده من كتاب المستشار محمد سعيد العشماوى ، فكل عمل علمى قابل للنقد واختلاف الآراء - ولا يزعم الصديق فهمى لنفسه انه بلغ من التفقه فى الدين - ولم يتخصص فيه! - ما يجعل آراءه فوق النقد - وانما فى اعادته محاكمة الشيخ على عبد الرازق وكتاباه «الاسلام وأصول احكم» ، الذى

صدر فى عام ١٩٢٥ ، وهو المحور الأساسى الذى بنى عليه نقده وهجومه.

وهذا ينقل الخلاف إلى مستوى آخر ، لأنه اذا كان كتاب الشيخ على عبد الرازق ، وهو عالم متفقه فى الدين قد شد تأييد وتعاطف قسم كبير من رأى العام فى مصر ، خصوصا بعد نصب محكمة تفتيش له من أعوان القصر ، فى عام ١٩٢٥ - أى منذ ستين عاما - فمن شأنه أن يجذب تعاطفا أكبر فى عام ١٩٨٧ بعد كل التطور الاقتصادى والاجتماعى الذى شهدته مجتمعنا طوال هذه السنين .

فهذا التطور لا تستطيع أن تقلل منه مظاهر الردة الحضارية التى تقودها الجماعات الدينية المتطرفة الحالية ، التى تريد أن تدفع ببلادنا إلى الفوضى والدمار ، كما دفعت مثيلاتها فى ايران ببلدها إلى حرب دامت ثمانى سنوات حتى الآن ، دفعت فيها مئات الألوف من القتلى ، فضلا عن التصفيات الجسدية والارهاب الداخلى للخصوم السياسيين .

فمن المحقق أنه اذا وجد المواطن المصرى المعاصر نفسه بين نظام حكم يرفع شعار الاسلام ، ويعمل بما ينقضه ، مثل نظام الحكم فى ايران ، ونظام حكم يطلق حرية الفكر وحرية العقيدة وحرية التعبير ، فانه يكون معتوما أو مخدوعا اذا اختار الحكم الأول ، ولم يدافع عن الحكم الثانى مهما كان ما يوجه اليه من نقد بكل ما يملك من قوة .

إن دفاع الأستاذ فهمى هويدى عن فكر التكفير فى مقاله ، بتوسيع مفهوم الآية الكريمة : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» ليشمل المسلمين واليهود ، قد نقله - بالضرورة - إلى معسكر التكفير ، لسبب بسيط هو أنه اعترف بأن الآيات نزلت فى أهل الكتاب !.

ولا يُعتد فى ذلك بما قاله من أن «كافة المفسرين والراشدين من المسلمين اعتبروها أحكاما عامة !» ، لأن الخلاف فى التفسير هو أمر مباح لكل مسلم ، ولا يجرده من اسلامه ، وانما الذى يجرد الانسان من

اسلامه عدم اعترافه بأركان الاسلام الخمس - وبالمناسبة فقد أضاف اليه الشيعة ركنا سادسا من عندياتهم ، وهو الامامة .

وفى الوقت نفسه ، فان وصفه لن قالوا بهذا التفسير بأنهم « كافة المفسرين والراشدين من المسلمين » غير صحيح ، لأنه لم يلبث بنفسه أن أبدى اختلافه مع مفسرين آخرين أخذوا بالتفسير فى ضوء التنزيل . ومعنى ذلك أنه لم يكن ثمة اجماع على رأى الأول كما حاول أن يوحى . وكان فى امكانه اختيار الجانب الثانى دون أن يقلل ذلك من اسلامه كما حاول أن يقلل من اسلام العشماوى .

ومن المعروف أن جميع المفكرين الاسلاميين المستنيرين عبر التاريخ قد أخذوا بالتفسير الثانى ، ولم يسدّ التفسير الأول الا فى فترات الظلام الحضارى . ولدينا مفكر اسلامى مرموق هو الأستاذ أحمد بهجت نسب فى بحثه إلى معهد القادة لضباط الشرطة ، وبدون أى التواء ، أسباب التطرف الدينى إلى ما ذكره الامام الشاطبى من « الجهل بمقاصد الشريعة » ، واستشهد بابن عمر عندما سئل عن رأيه فى الخوارج ، فقال: « هم شرار خلق الله ، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت فى الكفار فجعلوها على المؤمنين » . ولايستطيع الأستاذ فهمى هويدى أن يصف الأستاذ أحمد بهجت بالخلط بين الإفك والجهل كما وصف المستشار محمد سعيد العشماوى .

والمهم أنه من حق أى انسان أن يختلف مع عالم أو مفكر فى رأى، ولكن ليس من حقه أن يشن عليه ارهابا فكريا بأن يتهمه فى مصريته واسلامه وعلمه على نحو ما فعله الصديق فهمى هويدى مع المستشار العشماوى ، خصوصا اذا كان يستخدم فى هذا الارهاب فكرا يعزز - للأسف الشديد - دعاوى المتطرفين فى حمل المدافع الحديثة والاعتداء بها على حرية الفكر وقتل الحكام والمواطنين الأبرياء ، واشعال نار الفتنة فى البلاد باسم الدين ، والدين براء .

محاكم التفتيش مرة أخرى*

لست أدري هل ما نشاهده في أيامنا هذه من ردة دينية ، تتمثل في الرجوع بالفكر الدينى إلى عصور الظلام الحضارى ، هو من افراز حكم ديكتاتورى عسكرى ظل يجثم على صدر البلاد تحت شعارات التقدم والاشتراكية والوحدة والعلمية والقومية، بينما هو يحبس الفكر المصرى داخل الأطر التى رسمها هذا الحكم فى انتقاله من مرحلة الاصلاح الزراعى إلى مرحلة التأميم ، تحت وصاية ثورة يوليو، وبالهجمات فكر ضباطها الفلسفى؟ - أم أن ما نشاهده لا صلة له بثورة يوليو ، وانما هو افراز عصر السادات ، الذى يعد انقلابا فى كثير من مظاهره على هذه الثورة؟

ذلك ان ما يثير هذا السؤال فى ذهنى هو أن العصر الليبرالى السابق على الثورة ، والذى قضت عليه ثورة يوليو قضاء مبرما ، كان يمثل عصر

* اكتوبر فى ١٤/٢/١٩٨٨

الاستنارة الفكرية ، والاستنارة الدينية أيضا ، ففيه ظهر كتاب الشيخ على عبد الرازق : «الاسلام وأصول الحكم» ، وفيه ظهرت أفكار وفتاوى الشيخ محمد عبده ، وفيه ظهرت محاولة الشيخ طنطاوى جوهرى التوفيق بين الاسلام ومذهب داروين فى التطور ، ورد المذهب إلى علماء المسلمين، ومحاولة الشيخ عبد القادر المغربى التوفيق بين الدين والمدنية .

وعندما صدر دستور ١٩٢٣ ، الذى يرسى دعائم الحكم الليبرالى - رغم العيوب التى شابته بسبب وجود الاحتلال والملكية - كانت فكرة أن الدين لله والوطن للجميع قد استقرت ، ولم يعد فى وسع أحد أن يجرؤ على تحديها . ولذلك عندما حاول القصر الملكى ادخال الدين فى السياسة ، وارساء حكم فاروق الفاسق على المبايعة الدينية الشرعية ، وساعد القصر فى ذلك القوى الرجعية والفاشية - ضرب مصطفى النحاس هذه المحاولة فى حسم ووضوح وصرامة ، فصرح أمام مجلس النواب بأن «الاسلام لا يعرف سلطة روحية ، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وعباده» ، وأنه لا معنى للاحتجاج بما نص عليه الدستور من أن دين الدولة هو الاسلام ، أو بمكانة مصر لدى الاسلامية ، «بل ان هذه المكانة نفسها تستلزم أن ننزه الدين عن اقتحامه فيما ليس من مسائل الدين» .

ولم يجد مصطفى النحاس فى هذا القول الصريح الحاسم أى معارضة من القوى الشعبية ، لأن القوى التى كانت تتاجر بالدين فى ذلك الحين كانت قوى محدودة ، كما أنها كانت قوى مكشوفة للجماهير الشعبية ، وكانت - فوق ذلك - حيلتها قاصرة ووسائلها عاجزة ، ولم تكن قد أصبحت بالقوة التى صارت اليه الآن فى عهد الردة الحضارية والدينية ، أى بعد نصف قرن بالتمام والكمال !.

نعم لم تكن هذه القوى قد تغلغلت فى معاقل الفكر العلمى ، بل لم تكن قد اخترقت النقابات المهنية التى تضم صفوة أهل الفكر والعلم فى البلاد ، ولم يكن فى يدها وسائل الاعلام القوية التى تنتشر بها فكرها ،

ولم تكن لديها الأقلام القوية التى تكتب فى أوسع الصحف القومية انتشارا ، والتى كان من المفروض أن تؤثر على الجماهير وتدفع بها نحو الاستنارة واحترام العقل وتغليبه فى فهم الدين ، فاذا بها تدفع الجماهير إلى الايمان بقضايا التكفير التى ينبئ عليها الارهاب الدينى وحركات الانقلاب فى مصر .

ولهذا السبب ، لا يكاد أحد يكتب مقالاً أو كتاباً يقدم فيه تفسيراً مستنيراً للدين وأحكامه ، حتى تتلقفه أقلام البعض تتهمه فى دينه وعلمه ومصريته ، وهو ما حدث مؤخراً للمستشار محمد سعيد العشماوى (وقد تناولته فى مقال سابق) .

وفى هذا المقال سوف أتناول قضيتين : القضية الأولى قضية تطبيق الشريعة الاسلامية ، والثانية هى قضية التفسير ، وهل تفسر الآية بعموم لفظها أم تفسر بمناسبة نزولها .

وبالنسبة للقضية الأولى ، فقد سبق لنا أن كتبنا بأنها قضية مفتعلة يريد البعض أن يوهمنا بها ، لأن أحكام القانون المدنى فى مجموعها موافقة للشريعة الاسلامية ومطابقة لأحكام الاسلام . وأما القانون الجنائى ، وفيما يتصل بالحدود ، وهى أربعة فقط : حد السرقة ، وحد قذف المحصنات ، وحد الزنا ، وحد الحراة ، يضاف إليها حد الردة ، وحد شرب الخمر - فهى عقوبات شرطية بقيام المجتمع الاسلامى الصحيح .

وحتى لا نتهم بالافك والجهل ، فقد استندنا إلى المرحوم المستشار حسن الهضيبى ، فى شهادته أمام محكمة الثورة فى عام ١٩٥٤ .! ولا مفر لنا من أن نورد مرة ثانية وثالثة ورابعة كلام الهضيبى فى هذا الشأن ، بعد أن لاحظنا أن البعض يعتمد على ضعف ذاكرة الجماهير فى تكرار هذا الادعاء الغريب . ونحن نستقى هذا الكلام من كتابنا : «الايوان المسلمون والتنظيم السرى» الذى صدر فى يناير ١٩٨٢ ونفدت طبعته .

وكانت المناسبة حين أراد الدفاع عن محمود عبد اللطيف احراج الهضيبي بأنه قبل - وهو مستشار قضائي - أن يحكم فى القضايا التى نظر فيها ، بغير الشريعة الاسلامية ، فسأله :

- كم سنة على وجه التحديد اشتغل الأستاذ فى القضاء قاضيا أو مستشاراً ؟ .

- أنا تخرجت سنة ١٩١٥ ، وبقيت فى المحاماة لمايو ١٩٢٤ ، وعينت فى مايو ١٩٢٤ .

- ومنذ ذلك التاريخ ، أى قانون كنت تطبقة خلال هذه المدة ؟ .

- القانون المدنى والقانون الجنائى .

- بطبيعة الحال أقسمت على تطبيقهما .

- طبعا .

- هل كنت طوال هذه المدة راضى الضمير عن هذين القانونين ؟ .

- أنا أجد مثلاً أن القانون المدنى متفق مع الشريعة فى كثير من المسائل ، أو فى كل المسائل . تقدر تُرجع القانون المدنى إلى أصول شرعية - فيما عدا مسألة الربا . فأنا - بنيتى - كنت أحكم فى مسائل على اعتبار أنها متفقة مع الشريعة فى القانون المدنى .

- وفى هذه الفرعية ، وهى الربا ، هل كنت تقضى بها أم لا ؟ .

- فى أكثر الأحيان كنت أخلى الناس تتنازل عنها ، ولما ما يرضوش يتنازلوا عنها ، أحكم بها .

- مخالف الشريعة ؟

- مخالف الشريعة!

- لأنك أقسمت على ذلك ؟

- أيوه .

- وفى القانون الجنائى ؟ .

— القانون الجنائي كله تعازير . كله تعازير وليس فيه من الحدود الشرعية شئ . ولكن الحدود الشرعية متى أوقفها ولى الأمر ، علينا الطاعة وتطبق القواعد المعمول بها . التعازير .

— وهل يملك هذا ؟ (ولى الأمر) .

— يملك هذا ! .

— هل أفهم من ذلك أنك طوال خدمتك القانونية الجنائية طبقت ما لم تقض به الشريعة فى ظل هذا التفسير ، وارتاح ضميرك لهذا ؟ .

— كل العقوبات التى نص عليها فى القرآن والسنة ، سبعة . كلها سبع عقوبات من أولها لآخرها ، وأما الباقي فأغلاط بترتكب كثير ، وفيها جرائم بترتكب (بترتكب !) عليها . فلولى الأمر أن يعذر عليها . وده عمل صحيح داخل فى حدود اختصاصه . فأنا قلت لحضرتك ان ولى الأمر أوقف الحدود لعله فى نفسه لا أعرفها ، وهذا حقه . فيبقى الباقي كله تعازير مسموح بها شرعا .

— معنى هذا أنك طوال مدة خدمتك الجنائية كنت راضياً عن نفسك، مستريح الضمير ؟ .

— أيوه !

انتهى كلام المرشد العام للاخوان المسلمين ، وبقي علينا أن نسأل : لماذا يجعل البعض من هذه المسألة قضية يشغلون بها رأى العام ، ويوهمون بها جماهيرنا بأن الدولة تحكم بقوانين تخالف الاسلام والشريعة الاسلامية ؟ . وهل نستطيع أن نثق فى بواعث هذا البعض ، فنقول إنهم مضللون ، أو إنهم جاهلون بالحقيقة ؟ . أم نشك فى تلك البواعث ونقول إنهم يعرفون ولكنهم يكتمون لأغراض سياسية يريدون الوصول اليها ؟ . أم أن بلادنا قد خلت من المشاكل الاقتصادية التى تأخذ بخناقها ، ولم يعد الا أن نشغل الجماهير بأمثال هذه المسائل القانونية والفقهية . أم أن الهدف استغلال هذه المشاكل الاقتصادية

لايهام الجماهير بأن سبب نشأتها هو عدم تطبيق الشريعة الإسلامية ،
وأن حلها الوحيد يكمن في الإسلام : الإسلام هو الحل ؟ .

بقيت مسألة تفسير آيات الله ، وهل يكون التفسير بعموم اللفظ أم
يكون في ضوء التنزيل . وقد تناولنا في مقالنا السابق خطورة التفسير
الأول ، الذي يتجاهل حكمة النزول ، والذي لجأ إليه الخوارج لتعزيز
قضيتهم ، ونقلنا عن الأستاذ أحمد بهجت قول ابن عمر عندما سئل عن
رأيه في الخوارج ، فقال : «هم شرار خلق الله ، انهم انطلقوا إلى آيات
أنزلت في الكفار ، فجعلوها على المؤمنين» .

وهذا ما فعله دعاة جماعات التكفير ، فقد انطلقوا إلى آيات أنزلت
في اليهود ، فجعلوها على المؤمنين ، وبرروا تكفير الناس والخروج على
الحكام بتأويل فاسد للآية الكريمة : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك
هم الكافرون» - وهي الآية التي نزلت في أهل الكتاب باعتراف ثقات
المفسرين - فعمموها على المؤمنين .

ومن المعروف أن القرآن لم يتنزل مرة واحدة، وإنما نزل متفرقا على
مدى ثلاثة وعشرين عاما، وكانت كل آية أو مجموعة من الآيات تتعلق
بواقعة محددة ، أو ردا على سؤال معين

وفي أيام الإسلام الأولى كان الجميع يعرفون مقاصد الشريعة
وأسباب النزول، فلم يكن هناك اختلاف في التفسير ، ولكن مع الجهل
بأسباب النزول ، دبّت الخلافات وانقسم المسلمون . ولذلك عندما سئل
عمر بن الخطاب ذات يوم . كيف تختلف هذه الأمة ونبينا واحد وكتابها
واحد ؟ ، أرسل إلى ابن عباس يسأله هذا السؤال ، فأجاب : «يا أمير
المؤمنين ، إنما أنزل علينا القرآن، فقرأناه، وعلمنا فيما أنزل . وإنه
سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يدرون فيما أنزل، فيكون لكل قوم
فيه رأى، فإذا كان كذلك اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا» . وفي ذلك يقول
الأستاذ أحمد بهجت : «إن الراسخين في العلم إذا عرفوا فيم نزلت الآية

أو السورة ، عرفوا معناها ، وتأويلها ، وما قصد بها ، فلم يجاوزوا ذلك ، ووقفوا عنده» .

والطريف أن الذين يسخرون من أصحاب هذا الرأي ، ويقولون بالتفسير على عموم اللفظ ، حين يحتاجون خصومهم في الرأي ، فانهم يرجعون النص إلى أسباب نزوله ، أو يرجعون الحديث إلى المناسبة التي قيل فيها .

ففي حوار الأستاذ فهمي هويدي مع مؤلفي كتاب : «تطبيق الشريعة الإسلامية بين الحقيقة وشعارات الفتنة» ، في عدد الثلاثاء ١٩٨٨/٢/٢ من الأهرام ، حين استشهدوا بما رواه مسلم عن رسول الله من أنه كان إذا أمر أميرا على جيش أو سرية ، أوصاه قائلا : إذا حاصرت أهل حصن ، وأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن انزلهم على حكمك ، فانك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا» - ربط الأستاذ فهمي هويدي على الفور بين هذا الحديث ومناسبة قوله ! ولم يقبل تعميم أحكامه ، فقال : «إن كلام النبي الذي سلفت الإشارة إليه ، منصب على حالة صلح تعقب القتال ، ولا ينسحب بأي معيار على حكم الدولة المستقرة» ! .

وعلى كل حال ، فلست أعتقد أن أهل التكفير يخدمون أحدا بمنطقهم الفاسد في التفسير بأكثر مما يخدمون اليهود والفكرة الصهيونية ! ، لأننا إذا أخذنا بتفسيرهم فإن الله تعالى يكون قد فضل اليهود على العالمين ! وذلك بعموم اللفظ في قوله تعالى : «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم على العالمين» (البقرة ، آية ١٢٢) ، وتكون فكرة الأرض الموعودة - وهي فلسطين - دعوة حقيقية ، بنص قول الكتاب الكريم : «وواعدناكم جانب الطور الأيمن» (طه ، آية ٨٠) ، أو قوله تعالى : «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تترددوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين» (المائدة آية ٢١) .

فلا زلت أذكر في الأربعينيات من هذا القرن ، حين كان دعاة الصهيونية في بلدنا يرددون هذه الآيات لا يهام الجماهير الاسلامية بحق اليهود في فلسطين ! وكيف كان يردد الجهلاء وراءهم هذه الآيات دون تفكير في أسباب نزولها ، بل يأخذونها على مطلق لفظها .

لا مفر - اذن - من العودة إلى أسباب النزول لفهم مقاصد الشريعة وأحكام الاسلام فهما واعيا مستنيرا ، بدلا من هذا الكم الهائل من الضلالات التي يروجها البعض بحسن نية وبسوء نية ، أو هذا الحشد من الارهاب الفكرى الذى يمارسه البعض ضد خصوم الرأى باستغلال اسم الدين ، متناسين أن عصر محاكم التفتيش قد انتهى ، وأن سلاح الارهاب الفكرى هو سلاح ذو حدين : ففي جانبه تهمة التكفير ، وفي جانبه الآخر تهمة التخريب والانقلاب على الحكم !.

وسلام علينا يوم نمسى ونصبح ، فاذا بعضنا يتهم البعض الآخر بالكفر والمروق من الدين ، وهذا البعض الآخر يتهم البعض الأول بتهمة التآمر واشعال نار الفتنة في البلاد والانقلاب على نظام الحكم !. وكل ذلك بينما العالم من حولنا يتقدم ولا يتأخر ، ويتوحد ولا يتفرق ، ويزيل خلافاته ولا يفتعل هذه الخلافات . ولا حول ولا قوة الا بالله !.

يا فضيلة الشيخ!*

المعركة الدائرة حالياً بين المتطرفين
الدينين والعقلانيين حول التكفير
والحاكمية ، تعد من أكبر المعارك التي
تؤثر على مستقبل بلدنا سلباً أو ايجاباً،
بعد أن جد فيها عنصران بالغاً
الخطورة : العنصر الأول ، انتقال
التطرف من جماعات التكفير التي تعمل
في الخفاء إلى بعض كبار الكتاب
الاسلاميين المعتدلين ، والعنصر الثاني
خروج أفكار التطرف من المنشورات
السرية والكتيبات ، التي تقرأ في دائرة
شديدة الخصوصية ، إلى صفحات
أوسع الصحف القومية في مصر
انتشاراً - بكل ما يمثله ذلك من نقلة
هائلة للفكر الديني المتطرف تضعه في
مركز التأثير الواسع المدى على القاعدة
الشعبية العريضة في بلادنا ، وتمهد
التربة اللازمة والمناخ المطلوب عند
حدوث أى قفز إلى الحكم من جانب
المتطرفين ، بعد أن كان الافتقار إلى

* أكتوبر ٢٨/٢/١٩٨٨

هذه التربة المناسبة يمثل أكبر عقبة في وجه مثل هذا القفز ، بسبب اعتدال جماهيرنا الشعبية وكرهيتها للتطرف والغلو ، وفهمها المستنير للدين .

ومن هذا يعد خطاب فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق ، شيخ الأزهر الشريف ، إلى الصديق الأستاذ فهمى هويدى ، والذي نشره فى جريدة الأهرام يوم ١٦/٢/١٩٨٨ ، نقطة تحول بالغة الخطورة فى هذه المعركة الحضارية الكبرى ، لأنه يعكس الأزهر - كمؤسسة - إلى جانب التطرف الدينى ، وينقله من موقفه السلبى فى مواجهة التطرف ، إلى جانب المساندة الايجابية للنشطة له ، بكل تأثير ذلك على مستقبل بلدنا السياسى ، بل وعلى مستقبل نظام الحكم الحالى ! .

وتزداد خطورة هذا الخطاب فى أنه لا يقول شيئاً فى الحقيقة ! فهو لا يناقش ماورد فى كتابى : الاسلام السياسى ، للمستشار محمد سعيد العشماوى ، أو كتاب «تطبيق الشريعة الاسلامية بين الحقيقة وشعارات الفتنة» - وانما يقدم حكماً بلاحيثيات ! .

فهو يحكم على ما ورد فى هذين الكتابين بأنه «سموم توجه إلى أبناء مصر بخاصة وإلى شعوب الأمة الاسلامية بعامة» ! وأنه «فكر مفتر على الاسلام! ثم هو يدعو الكتاب وأصحاب القلم إلى مواجهته، «وأن يذبوا عنه وعن المسلمين هذا الذباب الموجه إلى موائدهم الاسلامية لتظل بعيدة عن هذا البلاء الذى أوشك أن يحل بساحتهم» ! . وأن المفاهيم التى أوردها هؤلاء الكتاب هى «مفاهيم فاسدة» ! والفكر الذى ورد فى الكتابين «فكر يُشيع الفتنة» ! . ثم يصف أصحاب هذه الأقلام بأنهم عملاء : «من الذى يسلط أمثال هؤلاء على الاسلام والمسلمين ، ولحساب من يعملون؟» ، «ترى من وراء هذا المخطط الذى تبنته بعض الصحف والمجلات فى مصر، وهذه المطبوعات التى تظهر بين الحين والحين لتصد عن سبيل الله» ! . كما يصف فضيلة شيخ الأهر هؤلاء الكتاب بأنهم «تجار أوبئة الفكر ومروجى أحاديث الافك يضلون الناس ويحاولون زعزعة عقيدة الاسلام فى قلوب أهله» ! . إلى آخره .

هذه الاتهامات الخطيرة من رئيس أكبر مؤسسة دينية فى بلادنا ،
وهى الأزهر ، قد أزعجت كثيرين ، وأوهمتهم بأن الكتابين المذكورين قد
أوردا ما يفيد بأن الدين الاسلامى الحنيف قد أباح الزنى والقتل وشرب
الخمير والكذب والفجور والنفاق والسرقة والاعتداء على الأعراض - إلى
غير ذلك من ألوان المنكرات ، وأن هذا ما دعا فضيلة شيخ الأزهر إلى
التصدي لهذا «الافك» المبين ، والدفاع عن دين الله ، ودعوة الكتاب
وأصحاب الأقلام إلى مساعدته فى هذا التصدي !. كما دعاه لأن «يشد
على يد» الصديق فهمى هويدى ، لأنه قام بهذا التصدي !.

ثم تأتى المفاجأة حين يتبين الناس أن ماورد فى الكتابين لا يتعدى
مواجهة الفكر الدينى المتطرف!، وأنه تفنيد لفكر التكفير والحاكمية الذى
يريد به البعض فتنة المصريين وإعدادهم لحكومة خمينية تعلق على
المشائى كل أصحاب الفكر والقلم المستنيرين الذين يدعون إلى استخدام
العقل فى فهم الدين ، بل وشنق كل الجماعات الاسلامية المعارضة لمثل
هذه الحكومة الخمينية !. وأن كل ما ورد فى الكتابين - بالتالى - يدخل
فى اطار الخلافات الدينية المشروعة التى تستخدم فيها الكلمة الطيبة
والمجادلة بالتى هى أحسن ، ولا تتطلب هذا الحشد الرهيب من الاتهامات
الخطيرة التى ساقها فضيلة شيخ الأزهر !.

وأنا أشك فى أن فضيلة شيخ الأزهر قد قرأ الكتابين قراءة فحص
متعمقة ، يناقش بعدها ما ورد فيها مناقشة فقهية وعلمية تليق بمركزه
العلمى المرموق ، ثم يصدر بيانا يوضح لجمهورنا المصرى الاسلامى
وجه الخطأ فى تلك الآراء ، ويفتح الباب أمام حوار علمى ناضج ينفع
الناس .

ولهذا لم يستطع أحد أن يقتنع بقول فضيلة الشيخ : إنه «ليس فى
مقام مناقشة بعض هذه الكتب من انتاج هذه الفئة التى استمرت -
حسب قوله - سكوت العلماء والكتاب عن تعقب إفكها وفضح
مخططاتها!..» إلى آخره - لأنه اذا لم يكن شيخ الأزهر فى مقام مناقشة

هذه الكتب ، فمن هو الذى يحتل هذا المقام ؟ وإذا كان شيخ الأزهر يعيب سكوت العلماء والكتاب عن تعقب ذلك الافك المزعوم ، فلماذا يحذو حذوهم ويسكت عن تعقب هذا الافك ، ويمتنع عن مناقشة هذه الكتب ، ويكتفى بالتصفيق لما كتبه الاستاذ فهمى هويدى أو «الشد على يده» ؟ .

أم أن فضيلة الشيخ يعتبر أن الأستاذ فهمى هويدى يمكن أن يقوم مقام الأزهر فى التصدى لتلك الكتب ، وكفى الله الأزهر شر القتال ؟ .

ثم تصل المأساة قممتها اذا عرفنا أن ما كتبه الأستاذ فهمى هويدى فى مناقشة هذين الكتابين لا يدخل فى باب المناقشة العلمية بقدر ما يدخل فى باب الهجوم ، بل التهجم أحياناً ! لأنه اتهم المستشار محمد سعيد العشماوى فى مصريته وعلمه ودينه عندما أبدى دهشته لتمتع العشماوى بهذه الصفات ؟ . وقد كانت مناقشة الاستاذ فهمى هويدى للكتابين مناقشة تحمل رؤيته هو لا رؤية الحقيقة .

وهذا ما فعله تماماً عندما تصرف فى اسم كتاب : «تطبيق الشريعة الاسلامية بين الحقيقة وشعارات الفتنة» ، فقد نشره على النحو الآتى : «الدعوة إلى تطبيق الشريعة الاسلامية فتنة العصر الحديث» ! ، وقد احتج فى هذا «التصرف» بأنه قدم قراءته للعنوان «بما يرفع عنه التدليس والاحتيال» ! ، واعترف بأن السطر الأول من العنوان تضمن عبارة «فتنة العصر الحديث» ، وتحتته جاءت عبارة «تطبيق الشريعة الاسلامية بين الحقيقة وشعارات الفتنة» - مع أن المنهج العلمى يقضى بالألا يتصرف الكاتب فى عنوان الكتاب بحال من الأحوال ، بل يورده بكل دقة ، ثم يقدم رؤيته فيه كما يشاء . وقد ترتب على ذلك أن كل من قرأ مقال الاستاذ فهمى هويدى الذى هاجم فيه ذلك الكتاب لم يعرف عنوانه الحقيقى ! . وكنت أنا شخصياً من بين هؤلاء ، حتى اضطررت للسؤال عن اسم الكتاب من بعض الأصدقاء ! .

ومن هذا يتضح أن مناقشة الصديق فهمى هويدى للكتابين المذكورين قد ابتعدت عن المناقشة العلمية تحت حماسه الدينى ، ومن هنا

أيضا تأتي الدهشة لخطاب فضيلة شيخ الأزهر الذي «يشد فيه على يده»!، بل تأتي دهشة أعظم لا كتفائه بمناقشة الأستاذ فهمي هويدي للكتابين ، وإثاره العافية بقوله إنه ليس في مقام مناقشة مثل هذه الكتب! فليس بمثل هذا الاستخفاف تعالج الموضوعات التي حكم فضيلة الشيخ عليها بأنه «تزعزع عقيدة الاسلام في قلوب أهله» !.

واقتناعى الشخصى - الذى أرجو أن يكون صحيحا ، لأنى هنا فى محاولة تبرئة فضيلة شيخ الأزهر - أن فضيلة الشيخ لم يقرأ مقالات الصديق فهمي هويدي ، كما أنه أيضا لم يقرأ الكتابين ! والا لنأى بنفسه وبمؤسسة الأهر عن الدخول فى معسكر التكفير والحاكمية .

ذلك أن الأستاذ فهمي قد وضع نفسه - دون أن يدري - فى معسكر التكفير والحاكمية بأخذه بقاعدة تفسير الآية الكريمة بعموم لفظها ، وليس حسب المناسبة التى نزلت فيها . وهذه القاعدة هى التى أخذ بها الشهيد سيد قطب رحمه الله ، زعيم نظرية الحاكمية فى مصر ، نقلا عن المودودى ، ثم نقلها عنه معسكر التكفير والحاكمية .

فهل نفهم من خطاب فضيلة شيخ الأزهر أنه قد انحاز بمؤسسة الأزهر إلى معسكر التكفير والحاكمية ؟ أم أنه كتب الخطاب مجاملة للصديق فهمي هويدي وفقا لرواية شفهوية عن المعركة الدائرة ، وظنا بأن المعركة تدور دفاعا عن دين الله من التحريف ؟.

أنه اذا كان الاحتمال الأول ، وأن الأزهر - كمؤسسة - قد انحاز إلى جانب معسكر التكفير والحاكمية ، فعلى مصر السلام !.

نقول ذلك دون مبالغة ، لأن مضر ، فى مشاكلها الاقتصادية الرهيبة التى تعاني منها ، وهى تموج بجماعات التكفير والحاكمية التى استخفت بهذه المشاكل كلها ، ونسبت أسبابها وجذورها إلى ما زعمته من أن نظام الحكم لا يحكم بما أنزل الله ، وأنه - بالتالى - نظام كافر (وفقا للتفسير على عموم لفظ الآية الذى يتمسك به الأستاذ فهمي هويدي) - لا ينقصها الا أن ينحاز الأزهر إلى فكر التكفير والحاكمية ، فلا يكون أمام شعب

مصر الا حل مشاكله الاقتصادية بضرية واحدة ، تزيل هذا النظام الكافر، وتحل محله نظاما يحكم بما أنزل الله ، ثم تعيش فى أمن وسلام ورخاء!.

وهذا ما يعرف فضيلة شيخ الازهر أنه غير صحيح !. فهو يعرف أن نظام الحكم فى بلدنا ليس نظاما كافرا ، ويعرف أن مشاكلنا الاقتصادية لا يحلها الا الأخذ بأسباب العلم الحديث فى نظام الانتاج ، سواء كان نظام الحكم مؤمنا أو ملحدا !.

فالاتحاد السوفيتى دولة ملحدة ، ولكنها تأخذ بأسباب العلم الحديث فى الانتاج ، فتحولت من دولة شبه اقطاعية وشبه رأسمالية مهزومة إلى دولة منتصرة ، بل أصبحت تشغل مركز الدولة الثانية فى العالم !. والولايات المتحدة دول مسيحية ، ولكنها تأخذ بأسباب العلم فى نظام الانتاج ، ولذلك فهى تشغل مركز الدولة الأولى فى العالم . واسرائيل دولة يهودية ، ولكنها تأخذ بأسباب العلم فى الانتاج ، وقد مكنها ذلك من احتلال أراضى أربعة شعوب اسلامية هى شعوب مصر والأردن وسوريا وفلسطين ، ثم أضافت اليها شعب لبنان !. واليابان تدين بالبوذية والشينتو ، ولكنها تأخذ بأسباب العلم الحديث فى الانتاج ، ولذلك قفزت إلى قمة الدول الصناعية فى العالم .

وربما كان من المصادفة البحتة ! أن هذه الدول جميعها ، وغيرها من الدول المتقدمة ، لا تدور فيها محاورات وخلافات دينية حول تفسير الدين كتلك التى تدور فى مصر ! وتأخذ هذه الحوارات والخلافات شكل ارباب فكرى يسلط على كل من يجتهد فى تفسير الدين بما ينزع عنه الشوائب التى ورثها من عصور الاضمحلال ، وينقيه من الأفكار التى تحاول استخدامه جسرا للوصول إلى الحكم !.

كذلك فليس فى هذه الدول جماعات تدير وجهها إلى الوراء ، وتمشى بظهرها إلى الأمام ، وتريد من جميع المصريين أن يفعلوا ذلك كما يحدث

فى مصر !. كما لا توجد فىها جماعات تعلق أسباب فشل مصر فى حل مشاكلها الاقتصادية أو السياسية على شناعة الدين كما يحدث فى مصر ! وعندما هزمت ألمانيا واليابان فى الحرب العالمية الثانية، لم ينسب أحد فىهما أسباب الهزيمة إلى الابتعاد إلى الدين ، ولم يطلق الشباب فىها لحاهم ، بل شمرؤا عن ساعد الجد ، وأطلقوا طاقتهم فى العمل البناء ، حتى استطاعوا - فى مدة قياسية - إعادة بلديهم إلى صفوف الدول العظمى مرة أخرى ، وتعمير كل ما خربته الحرب .

لذلك حين يريد أحد أن يحول الدين من قوة دافعة إلى الأمام إلى قوة تعود بنا القهقرى ، فاننا نقف فى وجهه ونقول : لا .

والأزهر - كمؤسسة - له احترامه وتوقيره فى نفوسنا جميعا ، ولكننا نعرف جميعا أن الصلة بين السماء والأرض قد انقطعت بانقطاع الوحي وموت نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، وليس فى وسع أحد أو مؤسسة أن ينسب لنفسه قداسة خاصة تمنع من الاعتراض عليه أو عليها من أجل المصلحة العامة ، أى مصلحة الشعب ، مادام ذلك لا يمس شئون العقيدة .

وهذا ما فعله مصطفى النحاس فى عام ١٩٣٧ عندما أراد الأزهر اقحام الدين فى تنصيب فاروق ملكا على العرش ، والقفز من فوق نصوص الدستور لمحاولة اسباغ سلطة دينية على سلطة فاروق المدنية عن طريق مبايعته على كتاب الله وسنة رسوله . فقد وضع مصطفى النحاس الأزهر فى موضعه الصحيح بقوله : «الاسلام لا يعرف سلطة روحية ، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وعباده» ، ومضى قدما فمنع اقامة المبايعة الدينية رغم محاولة الأزهر ! .

كذلك عندما حاول الأزهر فى عام ١٩٢٥ تنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين ، وأخذ شيخ الأزهر وشيوخ المعاهد الدينية وكبار العلماء يرأسون لجان الخلافة ، وقف سعد زغلول فى وجه هذه المحاولات ، ووصفها بأنها « محاولات خيالية » !.

وصدر كتاب الشيخ على عبد الرازق يؤكد أن « الاسلام لم يقرر نظاما معيناً للحكومة ، ولم يفرض على المسلمين نظاما خاصا يجب أن يحكموا بمقتضاه ، بل ترك مطلق الحرية فى تنظيم الدولة طبقا للأحوال الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التى يوجدون فيها » ، وأن الخلافة ليست نظاما دينيا ، والقرآن « لم يأمر بها ولم يشر » ، والدين الإسلامى « برىء من نظام الخلافة ، برىء بالأخص من الأدواء التى عصفت به وعملت كثيرا على تأخير المسلمين فى سيرهم نحو التقدم ، سواء من الوجهة الفكرية أو العلمية أو الاجتماعية أو التشريعية » وأن الخلافة « شلت كل تطور فى شكل الحكومة عند المسلمين نحو النظم الحرة ، وخصوصا بسبب العسف الذى أنزله بعض الخلفاء بتقدم العلوم السياسية والاجتماعية ، وصوغها فى خير قالب يتفق مع مصالحهم » !.

وعندما ماغضب الأزهر على الشيخ على عبد الرازق ، وقرر محاكمته أمام هيئة كبار العلماء ، وقضت بإخراجه من زمرة العلماء ، اهتز الرأى العام المصرى لهذا الاعتداء ، وضاعف من الصدمة اخراج الملك فؤاد لعبد العزيز باشا فهمى من وزارة الحقانية ، عندما أراد استفتاء كبار رجال القانون فى الحكومة فى اختصاص هيئة كبار العلماء ١ .

وهنا ، وعلى الرغم من تصارع الأحزاب فى ذلك الحين مع الوفد ، إلا أن جريدة الوفد « كوكب الشرق » خرجت لمقال لمحزرها الأستاذ أحمد حافظ عوض يستصرخ الأحرار فى كل مكان فى مصر إلى الاتحاد ، ويقول : « إن الأحرار من كل الأحزاب فى حاجة إلى التآزر أمام الأفكار الرجعية مما يمس الدستور وماكفل من الحريات » !

ويبدو أننا سنعيد ترديد هذه الصرخة النبيلة ، فنذعو الأحرار فى مصر إلى التآزر فى وجه الأفكار الرجعية التى تريد أن تعود ببلادنا إلى الوراء ، والافسلام علينا يوم نسمى ونصبح فإذا بأحرار مصر معلقين على أعواد المشانق !.

بالتى هى أحسن ! *

أعتقد أن كثيراً من الخلاف فى
الرأى بين المفكرين المصريين يمكن حله
بسهولة - أو على الأقل حصره فى حيز
محدود - لو انخفضت كمية العبارات
الحادة التى يتبادلها الطرفان من جهة ،
وارتفعت كمية الحجج والأسانيد العقلية
التى تدعم وجهة نظر كل منهما من جهة
أخرى وهذا ما لا يحدث حالياً فى
حياتنا الثقافية ، بل والعملية !- للأسف
الشديد - رغم أننا نمتلك أقدم وأثمن
وأقدس نصيحة من رب العالمين بقوله
تعالى فى كتابه الكريم : «وجادلهم
بالتى هى أحسن» . وهذا هو السبب
أيضاً فى أننا نتحاور بل نتخانق !- أى
ياخذ بعضنا بخناق بعض - ولم نعد
نتبادل الأدلة والبراهين ، بل نتبادل
التجريح الشخصى . كما أن هذا أيضاً
هو السبب فى أن كل معركة فى الرأى
قد أصبحت تخلف وراءها كثيراً من
الندبات والجروح الشخصية التى تؤثر

* اكتوبر فى ١٩٨٨/٣/٣٦

على العلاقات الشخصية ، رغم الحكمة المعروفة بأن الخلاف فى رأى لا يفسد للود قضية !.

وأعترف بأننى فى كل حياتى لم أكره شيئاً قدر العنف . وأذكر أننى حين كنت صبياً كنت أنأى بنفسى عن رفقة أصحاب الذين يستخدمون أيديهم فى المزاح !.

بل من الطريف ما قادتنى اليه التجربة الشخصية وقتذاك من تجنب حضور الأفراح ، لما كانت تختتم به غالباً - فى الحى الشعبى التى نشأت فيه فى الجزيرة - من معركة تحطم فيها المصابيح والكراسى ، فأجد نفسى منكشاً تحت إحدى الموائد أنتظر الفرج ، حتى تنتهى المعركة ، فأعود إلى منزلى لتستقبلنى والدتى عاتبة : ألم أحذرك من «الشضلية» ؟ . ولا أعرف الأصل اللغوى لهذه الكمية ، ولكنها تعنى البلطجية ، ولعلها كلمة تركية !.

وعندما تقدمت فى السن ، استمرت على تجنب الاحتكاك «بالشضلية» ! وقد اكتشفت أنه يوجد منهم فى أهل الفكر أكثر مما يوجد فى الأحياء الشعبية! وتحققت من أنهم لا يفترون عنهم كثيراً ! فهم مثلهم فى أنهم لا ينطلقون من مبادئ أخلاقية فاضلة ، وأنهم يعمدون إلى التجريح كلما أحرق بهم وأسقط فى أيديهم !.

وقد تعرضت بنفسى لكثير من التجريح الشخصى على أيدي «شضلية الفكر» ، وعلى أيدي «شضلية العلم» ، بل على أيدي بعض الشضلية النكرات الذين لم يسمع بهم أحد ولكن بعض جرائد المعارضة الساقطة التقطتهم لتصفية الحسابات السياسية بينها وبينى .

على أنى فرقت دائماً بين الاحتداد فى اللفظ من جانب مفكر له الاحترام ، وبين هذا الاحتداد فى اللفظ من جانب «شضلى» من «شضلية الفكر» . فكنت أحرص فى الحالة الأولى على الاحتفاظ بالود ، أما فى الحالة الثانية فلم يكن ثمة ود أصلاً يمكن الاحتفاظ به ، لأن «شضلى

الفكر» لا يتمتع بأي قدر من الود تجاه مخالفه في الرأي ، وانما هو أصلا «شخصي» من «شخصية» الأحياء الشعبية ، ارتقى إلى «شخصي فكر» لظروف خاصة!.

ورغم ذلك فان هذا النوع من «شخصية الفكر» يعدون أقل الأنواع خطرا وضرا ، فسلاحهم الوحيد هو القلم ، والقلم يجرح ويدمى على وجه التحقيق ، ولكنه لا يزهق أرواح الخصوم السياسيين . وقد تخصص النوع الثاني من «شخصية الفكر» في ازهاق أرواح خصومهم السياسيين وخصومهم في الفكر ، ومسحهم من اللوح !

والغريب أن هذا النوع الثاني من «شخصية الفكر» يعتبرون في عين أصحابهم أبطالاً وطنيين ! وإذا لقوا مصرعهم أثناء ارتكابهم جريمتهم ، يطلقون عليهم اسم «شهداء» ! مع أنهم مجرمون حقيقون ، ونوازعهم الاجرامية ليست محل خلاف ، وانحرافهم أمر ثابت، وكل الفرق هو أن اجرامهم من النوع الراقى ! أى من النوع الذى يتصل بالفكر وبنظام الحكم وسياساته ، ولا يتصل بالأغراض الدنيا - مثل سرقة محفظة أو غير ذلك ! - بدليل أن أحدا من القراء الأعزاء لا يتصور نفسه قاتلا لأى سبب من الأسباب ! رغم أنه لا يقل وطنية عن ذلك الذى يزعم أنه يقتل حبا في وطنه !.

وكثيرون من القراء ، الذين يجدون في أنفسهم رغبة أكبر في خدمة وطنهم ، يمارسون هذه الخدمة من خلال اطار شرعى يتمثل في الالتحاق بأحد الأحزاب ، والنضال دستوريا من خلال هذا الحزب ، ولكنهم لا يفكرون اطلاق في اغتيال أى أحد بوازع من أنفسهم ، الا اذا كانت هذه النفوس منحرفة بالفعل ، ولديها الاستعداد لارتكاب جريمة القتل !.

كل هذه الأنواع من «شخصية الفكر» يمارسون اجرامهم ضد الشرعية ، والأخطر منهم جميعا هم «شخصية الفكر» الذين يمارسون اجرامهم باسم الشرعية !. وأقصد بهم الحكام الذين تربعوا على عرش الحكم في بعض أجزاء العالم العربى ، وفرضوا ارهابهم الفكرى على

شعوبهم باسم «الشرعية الثورية» ، ففتحوا المعتقلات ، وعلقوا خصومهم السياسيين على أعواد المشانق أوحصدوهم بالرصاص^١ .

هذا الكلام كله يرسم صورة لألوان الارهاب الذى يمارس باسم الفكر ، لغرض الفكر المضاد، سواء باطلاق الأقلام ، أو باطلاق الرصاص !. وهو ما يدعونا دائما الى مقاومة هذا الارهاب بشتى ألوانه ، ايماننا بأن الارهاب باطلاق الأقلام ، يؤدى فى كثير من الأحيان إلى الارهاب باطلاق النار ! وهو ما يجعلنا على الدوام نتوقف عند اللفظ حتى لا يفلت ويتحول من كلمة إلى رصاصة - سواء أكانت رصاصة معنوية أم رصاصة مادية ! كما يدعونا إلى الالتزام بأمانة الكلمة ، وتقدير مسئولية الكلمة .

فعندما كنت أكتب حلقات دراسة : «الاخوان المسلمون والتنظيم السرى» ، التى كانت تنشرها لى جريدة . «الهدف» فى الكويت ، بالاضافة إلى جريدتى «الاتحاد» فى أبو ظبى ، وروز اليوسف فى القاهرة- تصدى لى الداعية الكبير الأستاذ صلاح شادى فى جريدة «الوطن» الكويتية ، وقد اتسمت عباراته فى مقاله الثانى بحدة غير عادية ، فقد تحدث عن «وجهى الماركسى القبيح» ، و «فهمى الملتاث» لمعنى الوطنية !. ولكن احترامى للرجل دعانى إلى تذكيره بالآية الكريمة : «وجادلهم بالتى هى أحسن»! فأحسن على الفور جداله معى، وتوثقت الصلة بيننا. وعندما جاء إلى لندن - حيث كنت أقيم وقتذاك - تفضل فاتصل بى، فزرتة، وتناولت طعام الغداء معه، وصليت فريضة الظهر وراءه، ولم يفسد الخلاف فى الراى للود قضية بيننا .

ولعل الحوار بينى وبين الصديق الأستاذ فهمى هويدى أنموذج للحوار الذى يستهدف اظهار وجه الحق، ولا يسعى إلى التجريح، رغم ما بيننا من خلاف فى الراى .

فأنا - كما ذكر فى مقاله يوم الثلاثاء ١٩٨٨/٢/٢٣ فى الزن على - أؤمن بفصل الدين عن السياسة، بل وأدعو إلى ذلك صراحة دون خفاء،

إيماننا بأن في أبعاد السياسة عن الدين تنزيها له وتكريما، وتكريسا له لما أنزل لأجله، وهو إصلاح الفرد وهدايته، وتشذيبا لغرائزه، وارتقاء بأحاسيسه ومشاعره، وارتفاعا بفكره وعقله، وتعميقا لانسانيته، بل ونقله من مرتبة الحيوانية المنحطة إلى مرتبة الانسانية العليا - أما السياسة فإنها إذا اختلطت بالدين، أساءت إليه، واتخذته مطية لها، واستخدمته سلاحا ماضيا تضرب به الخصوم السياسيين، وفرضت تفسيراتها المريضة له على أعناق العباد - وهو ما أثبتته وقائع التاريخ منذ زمن بعيد، أي منذ فتنة عثمان الكبرى، وفتنة المصاحف في عهد على كرم الله وجهه، وكل الفتن التي استخدمت الدين في السياسة لتحقيق أغراضها، فحققت أغراضها، ولم تحقق أغراض الدين ! .

رأى إذن في فصل الدين عن السياسة، ينطلق من احترام أكبر للدين، ولا ينطلق من انتقاص من شأن الدين كما أنه ينطلق من فهم أعمق لرسالة الدين الحنيف، ولا ينطلق من فهم متلو أو سطحي أو مغرض. وهو ينطلق أيضا من اعتقاد بأن الدين ينبغي أن ينبع من القلب، ولا يفرض بالسيف، وأنه في وسع كل مسلم أن يمارس شعائر دينه، ويلتزم بمبادئه وأخلاقه وأدابه في ظل أية حكومة، سواء كانت حكومية بوزية، أو ملحدة، أو مؤمنة بالدين الاسلامي أو المسيحي أو اليهودي - وقد سبق لي أن ذكرت أنني حين كنت أزور لندن في رمضان الماضي وجدت المصريين والعرب المسلمين هناك يصومون ويصلون ويتعبدون ويسهرون الليل بطوله في مسجد لندن يستمعون إلى آيات الذكر الحكيم والخطب والأحاديث الدينية - رغم أن الحكومة التي يعيشون في ظلها هي حكومة مسيحية. كما أن الفلسطينيين الذين يعيشون في ظلام الاحتلال الاسرائيلي يمارسون شعائر اسلامهم رغم أن الحكومة التي تحكمهم هي حكومة يهودية. بل إن المسلمين السوفييت في الاتحاد السوفيتي يمارسون اسلامهم رغم أن حكومتهم حكومة ملحدة لا تؤمن بدين.

وليس معنى ذلك أنني أرفض الحكومة الاسلامية، وإنما معناه أنني أرفض حكومة تمنعني من ممارسة شعائر ديني، أو تعاقبني لأنني أعتقد

الاسلام ، أو ترغمنى على دين آخر . أما اذا كانت هذه الحكومة تؤمن بحرية العقيدة ، فلا غبار عليها فى رأى . فما بال الأمر اذا كانت هذه الحكومة تشرع قوانين تتفق فى جوهرها مع الشريعة الاسلامية ، ولا تسن ما يتناقض مع الشريعة ، مثل الحكومة المصرية التى يتفق القانون المدنى فيها مع الشريعة الاسلامية فى الغالبية العظمى من مواده ، ويقوم قانونها الجنائى على التعازير ، التى هى من حق الحاكم .

وفى هذا الصدد فربما كان أحسن تفسير لا يقاف التشريع الجنائى المصرى للحدود وأخذه بالتعازير ، هو عدم توفر شروط تطبيق الحدود كما اشترطها الدين الحنيف ! . ولذلك فقد أعجبت كثيرا بالعالم الاسلامى الأستاذ عبد الحكيم أحمد فى مجلة أكتوبر ، فى حوار لى معه حول ايقاف عمر بن الخطاب حد قطع يد السارق فى أيام الرمادة ، اذ صحح معلوماتى قائلا : ان عمر بن الخطاب لم يوقف الحدود ، وانما طبق شروط الحدود ! . وهو أمر صحيح .

من هنا كان اعتراضى على الصديق الأستاذ فهمى هويدى لهجومه الشرس على المستشار محمد سعيد العشماوى ، وتشكيكه فى دينه وعلمه ومصريته - وهو ما اعترف الصديق فهمى هويدى - فى رده على - بأنه « اتسم ببعض الحدة » ! ، وبرر ذلك بأن المستشار محمد سعيد العشماوى وصف « كل دعاة تطبيق الشريعة فجارا وأشرارا ، وكلهم دعاة عنف وتطرف وتكفير وتخريب ، وكل خلفاء المسلمين بعد النبى وسيدنا عمر ظلمة عاملوا الناس باعتبارهم قطيعا لا مواطنين ، وكل فقهاء المسلمين إما خدما للسلطين أو معزولين عن الواقع » .

وهو مدهشت له ، لأن قراءة كتاب « الاسلام السياسى » توضح أن المستشار محمد سعيد العشماوى قصد بالفجار الأشرار القتلة من جماعات التكفير ، الذين سفكوا دماء الشيخ الذهبى ، وقتلوا السادات ، واستخدموا العنف الفردى فى محاربة خصومهم فى الرأى . ولوقراً الأستاذ فهمى هويدى بعناية الفقرة التى ورد فيها الوصف الذى ذكره -

وهو وصف الفجار الأشرار - لتبين أن المستشار العشماوى يضيف إلى هذا الوصف عبارة : « يجعل سفك الدماء عملا من أعمال الجهاد » . وهوما يعترف الأستاذ فهمى هويدى بأن هذه الصفات « تجوز فقط بحق فصائل محدودة من الشباب ظهرت فى العقدين الأخيرين »! فكأنه يتفق مع المستشار العشماوى فى وصف تلك الفصائل بالفجار والأشرار .

القضية الأساسية - تتمثل فى فكرة التكفير والحاكمية ، التي نقلها المفكر الإسلامى الكبير سيد قطب عن المودودى ، والاتجاه إلى الانقضااض على المجتمع الجاهلى المعاصر . وقد تنصل الأستاذ فهمى هويدى من هذه الفكرة وهذا الاتجاه ، وهو ما أسعدنى حقا وطمأننى على موقفه المستنير الذى كنت أعرفه عنه ، خصوصا عندما قرر أن « المحيط الأعظم من الإسلاميين » يرفضون هذا الفكر وهذا الاتجاه ، كما يرفضون هذا المصطلح الذى لم يطرح على صعيد الحركة طوال الستين عاما الماضية . ودلل على ذلك باعتراض جمهرة الإخوان المسلمين عليه ، المسجل فى كتاب المرحوم المستشار الهضيبى المعروف : « دعاة لا قضاة »، خصوصا الفصل الخاص بنقد مصطلح « الحاكمية » .

وقد أكد الصديق فهمى هويدى موقفه بوضوح أكبر ، وبشكل يزيل كل لبس فى الفهم ، وبما يبعده عن معسكر التكفير ، بقوله : « نطمئن الدكتور عبد العظيم رمضان إلى أن وصمة الكفر لا تثبت بحق كل من تقاعس عن الحكم بما أنزل الله ، وإنما هى من نصيب من كان دافعه إلى التقاعس هو الجحود والانكار ، وأما من تقاعس لأى سبب غير الجحود والانكار ، فهو يعد عاصيا وليس كافرا ، ويسرى بحقه الكفر بمعناه اللغوى للتغليب ، وليس بمعناه الشرعى الذى هو الخروج من الملة - هو كفر بالنعمة وليس كفرا بالله » .

وقد سألتنى رأى فيمن يجعلون من المشروع الحضارى الإسلامى هدفا لهم ، يسعون إلى بلوغه فى أى أجل مقدور ، يطول أو يقصر ، ويتمنون

أن يقتربوا منه خطوة خطوة ، بغير تكفير أو تفسيق أو عنف ، ومن دون وكالة من الله ، أو احتماء بشعارات العصمة ؟.

وليس لى كمسلم ، بل وكتقدمى ، أن أعترض على مشروع حضارى اسلامى يتم الوصول اليه بالطريق الدستوري السليم الذى تحدث عنه الصديق فهمى هويدى فى عبارته السالفة الذكر ، فأنا ممن يؤمنون بعمق بأن الدين الاسلامى هو مع التقدم وليس مع التخلف ، وأن المسلمين الذين اهتضموا الحضارة الفارسية والرومانية واليونانية ، وقدموا للمجتمع البشرى الحضارة العربية الرائعة ، يستطيعون أن يهتضموا حضارة الغرب الحالية ، وينطلقوا منها إلى رحاب أكبر .

ولكنى ضد استغلال الدين فى شعارات سياسية انقلابية ، تحلل ما حرم الله من قتل وسرقة الأموال والارهاب الفكرى والتعسف فى تفسير النصوص . كما أننى أومن بأن مصر ، سواء فى عهد دستور ١٩٢٣ الليبرالى ، أو فى عهد عبد الناصر وخلفائه ، لم تكن أقل اسلامية مما يريدونها أصحاب فكر التكفير والحاكمية الذين يعتمدون العنف والقتل للوصول إلى أهدافهم ، ولم يكن شعب مصر أقل اسلاما .

ومن هنا فانى أرحب بما أورده الصديق فهمى هويدى من أنه فى تفسير الآية الكريمة ، فان سبب التنزيل يمثل أحد العناصر التى تفيد فى فهم النص القرآنى - بعد أن كان يأخذ بعموم اللفظ وحده ، فى رده على المستشار محمد سعيد العشماوى !. وترحيبى يرجع إلى أن الصديق الأستاذ فهمى هويدى انما يرد بذلك على الزعم الذى زعمه الدكتور محمد سليم العوا بأن «المفسرين لا يختلفون فى أن العبرة فى النص القرآنى والنبوى ، بعموم اللفظ لا بخصوص السبب !. وهو زعم جرىء ليس من العلمية فى شئ ، لأنه ينكر خلافا معروفا وليس مجهولا ! ، ولست أدرى من أين استقاه الدكتور العوا ؟.

وكنى أود أن يرد عليه الأستاذ الكبير أحمد بهجت بما يصح معلوماته : فقد كان الأستاذ أحمد بهجت هو الذى أورد - فى بحثه لمعهد

القادة لضباط الشرطة - أن من أسباب التطرف الدينى الجهل بمقاصد الشريعة ، واستند فى ذلك إلى الامام الشاطبى ، كما نقل عن ابن عباس قوله : «انما أنزل علينا القرآن فقرأناه ، وعلمنا فيما أنزل . وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يدرون فيما أنزل ؟ ، فيكون لكل قوم فيه رأى . فاذا كان كذلك اختلفوا ، فاذا اختلفوا اقتتلوا » !.

فاذا جاء الدكتور العوا لينكرا اختلاف المفسرين حول هذه القضية الخطيرة ، وليزعم اتفاقا فى القول بأن العبرة فى النص القرآنى والنبوى انما هو بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فلا نملك الا أن نحيله إلى رد الصديق فهمى هويدى السالف الذكر ، وإلى بحث الأستاذ أحمد بهجت ، وإلى الإمام الشاطبى ، وإلى ابن عباس ، ليعرف سيادته أينما أكثر التزاما بقواعد وأصول علم التفسير القرآنى ، وأينما أكثر حرصا على الدين الإسلامى الحنيف . والا كيف يفسر لنا الآية الكريمة : «ياأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك» (التحريم : ١) أو الآية الكريمة : «وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» (الأحزاب : ٣٧) بما فيها من اتهام لرسولنا عليه الصلاة والسلام - اذا هو قطع بين الآية وسبب نزولها ، واكتفى بتفسيرها بعموم اللفظ ؟ .

فهل يقنعنا ذلك كله بتجنب الاحتداد فى الجدل الدينى ، وبألا يحتكر بعضنا الحكمة والعلم والصواب لنفسه ويجرد منها الآخرين ؟ . فاذا لم نفعل ، فهل نكون أحسن حالا ممن ندينهم من تلك الفصائل الارهابية التى كفرت شعبنا ، وروعت أمننا ، وهددت مستقبلنا ، وأرادت أن تفرض علينا تفسيراتها السقيمة للدين لتحقيق أغراضها السياسية التى تعود ببلادنا إلى الوراء ؟ .

الجماعات الدينية المتطرفة بين الحقيقة والوهم *

لست أظن أن الدكتور حلمى القاعود كان جادا وهو يسألنى عما أقصد بمصطلح «الجماعات الدينية المتطرفة» فى مقاله الذى نشره ردا على فى جريدة الوفد يوم ٢ مارس ١٩٨٨ ،
خصوصا بعد أن وصف الجماعات المتهمة بتشكيل «تنظيمات لقلب نظام الحكم» بأنها «جماعات وهمية!» -
الأمر الذى يعنى أنه يعرف جيدا ماذا نقصد بـ «الجماعات الدينية المتطرفة» ،
ولكنه يريد أن ينكر وجود مثل هذه الجماعات أصلا فى مجتمعنا !

ويمكن للدكتور حلمى القاعود أن ينفى عن الجماعات ، التى اتهمت بتشكيل «تنظيمات لقلب نظام الحكم» ، صفة التطرف ، فيصفها بأنها جماعات «مسالمة» أو «معتدلة» أو أى وصف رقيق يراه !! ولكنه لا يستطيع أن ينكر وجودها ويصفها بأنها جماعات «وهمية» أو بأنها «الجماعات التى نطالع

* الوفد فى ٧ / ٣ / ١٩٨٨

عنها أحيانا فى الصحف» ! - أى أنها من اختراعات الصحف أو السلطة ! - لسبب بسيط هو أنه لا يستطيع أن ينسب مقتل الشيخ الذهبى أو الرئيس السابق السادات أو حادث «الفنية العسكرية» الذى راح ضحيته ١٣ شخصا من القتلى و٣٢ شخصا من الجرحى ، أو ينسب أحداث أسبوط يوم ٨ أكتوبر ١٩٨١ فى أعقاب اغتيال السادات - إلى الشيوعيين أو إلى الوفديين أو إلى أية قوة سياسية أخرى ، وإنما عليه أن ينسب هذه الجرائم إلى تلك الجماعات إذا أراد أن يحترم عقله وعقلنا معه .

ومن هنا فنحن نستطيع أن نتجاوز عن الرد على السؤال الذى طرحه عن تعريف مصطلح الجماعات الدينية المتطرفة ، بعد أن ثبت أنه يعرفه جيدا ! ، ولكننا نريد أن نطمئنه إلى أننا نقصد به : الجماعات الدينية التى تلجأ إلى العنف فى فرض آرائها على الآخرين أو فى قلب نظام الحكم ، كما أننا نقصد به الجماعات التى تعطى لنفسها الحق فى تكفير المجتمع أو الحاكم بناء على فكرة الحاكمية .

على أن هذا لايعنى أننا نقصر صفة العنف والإرهاب على هذه الجماعات ، فكل كتاباتنا السياسية تتجه على الدوام إلى إدانة ألوان الإرهاب والعنف التى عددها الدكتور حلمى القاعود - سواء كان إرهاب وعنف السلطة فى أيام عبد الناصر أو فى أيام السادات . وكل الفرق بيننا أننا لا نكيل بمكيالين ، فننكر وجود الإرهاب والعنف الدينى مثله ، ونقصره على السلطة ، بل إننا ندين كليهما .

على أن المشكلة أن الدكتور حلمى القاعود لا يستطيع أن يفرق بين هذه الجماعات الدينية المتطرفة ومجموع الشعب المصرى المتدين ، فيعتقد إنهما نسيج واحد ! ، فهو يسخر من فكرة أن السادات هو صانع الجماعات الدينية بحجة أن «الدكتور رمضان يعترف فى بعض مقالاته بأن الشعب المصرى شعب متدين تصدى للطاغية عبد الناصر فى عز جبروته وتسلط زبانيته ، وتقدم أبناؤه إلى حبال المشنقة رافعى الرؤوس»

وأنه - بالتالى - «لا يمكن أن يصنعهم أنور السادات أو محمد عثمان اسماعيل محافظ أسيوط السابق» .

وهذا تبسيط غريب للأمور ، بل إنه تعميم مغل حقا ، فالشعب المصرى متدين حقا ، ولكنه ليس قاتلا ! وعلينا أن نميز بين فريق من أبناء الشعب المتدين ، تطرف فكريا ، ولجأ إلى استخدام العنف وقتل الأبرياء - مثل الشيخ الذهبى - وبين مجموع الشعب المتدين المسالم الذى يكره العنف وإراقة الدماء . ومن الطبيعى أن السادات لم يصنع الشعب المصرى المتدين - ولم يقل أحد بذلك - ولكن لماذا ينكر الدكتور حلمى القاعود دور السادات فى تشجيع ظهور الجماعات الدينية كجزء من لعبة التوازن مع الجماعات الناصرية واليسارية ، مع أن هذه اللعبة لعبة قديمة فى النظم الشمولية

ولماذا ينكر دور السيد محمد عثمان اسماعيل ، محافظ أسيوط الأسبق ، فى تشجيع هذه الجماعات ، على نحو مهد لأحداث العنف التى وقعت فى المدينة فى أعقاب اغتيال السادات ؟ . ان الاكتفاء بالانكار دون تقديم الدليل والبيئة ليس من العلمية فى شىء ، بينما قدم مؤلف كتاب «الهجرة إلى العنف» الأدلة من المصادر التاريخية .

ثم إن الحديث عن «الملفات الملفقة التى يصنعها الهوى» يمكن تصديقه من جانب الدكتور حلمى القاعود لو كانت أحداث أسيوط ، التى حاولت فيها الجماعات الإسلامية الاستيلاء على المدينة فى أعقاب اغتيال السادات ، أحداثا «وهمية» قامت بها «جماعات وهمية» ! كما يريد أن يصور مستخفا بعقولنا جميعا ! ، لكنها كانت - للأسف الشديد - أحداثا حقيقية ، قامت بها جماعات حقيقية .

حديثنا - إذن - فى مقالنا السابق الذكر - الذى أثار استياء الدكتور حلمى القاعود - ينصب على الجماعات الدينية المتطرفة التى ارتكبت كل تلك الجرائم السالفة الذكر باسم الدين الإسلامى ، والدين الإسلامى منها براء ، ونحن فى ذلك ندافع عن دين الله بتبرئته من كل ما

ينسب إليه ظلماً وعدواناً ، فلماذا يقلب الدكتور حلمى القاعود الحقائق إذن بقوله : « ان المرء ليأسف حين يرى ذلك الالاحاح على تصوير الإسلام والمسلمين بالارهاب والدموية والعنف » ؟ .

أم أن الدكتور حلمى القاعود يعتبر الهجوم على الجماعات المتطرفة هجوماً على الإسلام والمسلمين ، وتصويراً لهم فى صورة الإرهاب والعنف؟ . وفى هذه الحالة أينما أقرب إلى فهم روح الدين الإسلامى الحنيف وحرصاً على صورته من الاساءة على أيدي بعض بنيه ؟ .

وهل يريد الدكتور أن يوهمنا بأن هذه الجماعات الدينية المتطرفة هى ما يسميه بـ « اليقظة الدينية الإسلامية التى ينبغى أن تجد من يساندها ويرشدها لتصنع المجتمع الطاهر النظيف المنتج؟ » .

وأى «مجتمع نظيف منتج» يمكن أن تصنعه تلك الجماعات المتطرفة ؟ هل تصنعه بقتل الشيخ الذهبى ومحاولة اغتيال حسن أبو باشا والنبوى اسماعيل ومكرم محمد أحمد وبقية القائمة التى لم تسقط فى يدها ؟ . أم تصنعه بتربية اللهى ولبس الجلباب وارتداء النقاب ، بينما غيرهم فى بلاد العالم المتقدمة يصنعون المجتمع المنتج بالعمل الدؤوب الجاد واحترام النظام والتقدم العلمى واختراق الفضاء .

ثم إن هناك خطأ لا يغتفر فى مقال الدكتور حلمى القاعود ، وهو الخاص بعداوة اليهود للمسلمين . فهو يرى أنها ليست من اختراع الجماعات الإسلامية ، وإنما هى رأى الإسلام . وقد استدلل على ذلك بكتاب الله فى سورة المائدة : ٨٢ ، ٨٣ .

وهو خلط غريب سببه التفسير بعموم لفظ الآية لا بخصوصية التنزيل ، وهو ما يأخذ به الخوارج الذين تابعهم فى ذلك كثير . وهذا ما جعل الدكتور يقرر أن الآية تفيد الاستمرار والحال !

فإذا كان علينا أن نصدق استمرار عداوة اليهود للمسلمين إلى يومنا هذا - وسوف نجد فى الصراع العربى الاسرائيلى مبرراً لهذا التصديق

— فما هي — بالله — المودة التي لقيها المسلمون من النصارى فى الأندلس أثناء محاكم التفتيش ؟ . وما هي المودة التي لقيها المسلمون من نصارى أوروبا أثناء الحروب الصليبية وهم يغزون المشرق العربى ويغيرون على مصر ؟ . وما هي المودة التي لقيها المسلمون من أوروبا النصرانية الاستعمارية وهى تحتل كل جزء من أجزاء العالم العربى وتذيق شعبه الإسلامى النكال ؟

وَألم تكن ايطاليا الكاثوليكية فى عهد الفاشية هى التى أعدمّت عمر المختار ؟ ، بل ما هى المودة التي لقيها الفلسطينيون من أوروبا المسيحية والولايات المتحدة البروتستنتية وهى تزرع اسرائيل فى العالم العربى الإسلامى ؟ — أين استمرار المودة فى كل هذا من جانب النصارى حتى نصدق استمرار العداوة من جانب اليهود ؟ وأليست هى المصالح المتغيرة التى تخلق المودة أو العداوة .

بل أليس هناك من المسلمين من هم أشدّ عداوة للمسلمين من النصارى واليهود ؟ والا كيف نصف ضرب بغداد بالصواريخ ، والبصرة بالمدافع ، واستمرار الحرب الإيرانية العراقية ؟ هل نصف هذا الضرب والقصف بأنه من علامات المودة أو القربى ؟ . وكيف نصف قتل حافظ الأسد ٢٥ ألفاً من المسلمين فى حماه ، أو قصفه تل الزعتر أو قتل الفلسطينيين فى طرابلس ؟ هل نصفه بالأخوة الإسلامية الصادقة ؟ .

وهل كان عبد الناصر يهودياً حين عادى الإخوان المسلمين وملاّ بهم المعتقلات والسجون وفتح لهم أبواب غرف التعذيب ؟ ،

بالله يا سيدى كفى وصاية على الدين الإسلامى ، واحتكاراً للصواب فى تفسيره ، واستغلالاً لاسمه ، فإن الإسلام الذى صمد على مدى أربعة عشر قرناً ليس فى حاجة لكى تدافع عنه تلك الجماعات الدينية المتطرفة ، بل هو — فى الحقيقة — فى حاجة لحمايته من هذه الجماعات !

ردة حضارية.. أم صحوه فكرية *

الصديق الدكتور محمد اسماعيل
على لديه بعض الاعتراضات على مقالى
فى الرد على الأستاذ فهمى هويدى ،
الذى نشرته مجلة «أكتوبر منذ أسابيع
قليلة تحت عنوان : «محاكم التفتيش
مرة أخرى» ، وقد سجل اعتراضاته فى
الرسالة التالية ، التى أنشرها
بحذافيرها لفائدتها فى اخصاب
المناقشة ، ولأنها تعبر عن وجهة نظر
لا يجب اغفالها ، بل من المفيد عرضها
والرد عليها حتى تكتمل الصورة أمام
القارئ .

وتمضى الرسالة على النحو
الآتى: « لا أضيف جديدا إذا قلت إننى
من المعجبين جدا بكتابات الصديق
الدكتور عبد العظيم رمضان ،
وخصوصا فى تأريخه الموضوعى
لأحداث عاصرناها خلال ثورة ٢٣
يوليو أى أن الدكتور عبد العظيم يكتب
بصدق القاضى وحياده ، وكأنه قد

أكتوبر فى ١٣ / ٣ / ١٩٨٨

عاش خارج هذه الأحداث . وتلك ميزة فريدة يتمتع بها حقا رغم أنه كان داخل هذه الأحداث .

«غير أن الدهشة قد اعترتني وأنا أقرأ مقاله الأخير : «محاكم التفتيش مرة أخرى» ، لما استشعرته فيه من تخل عن الموضوعية والحياد اللذين اشتهر بهما الدكتور عبد العظيم رمضان .

لقد حصر الصديق العزيز فكرة «الاستنارة الفكرية والدينية» في عصر ما قبل الثورة ، مع أن التاريخ والواقع يؤكدان وجود نفس الفكرة في عصور إسلامية متعددة ، ظهر فيها فقهاء وعلماء في كافة العلوم المدنية والدينية ، يمثلون تباينا وتمايزا في الفكر عموما ، وفي درجات الفهم الديني خصوصا . ولا يخلو زماننا الحال أيضا من وجود فكرة الاستنارة الفكرية والدينية ، بدليل وجود أفكار الدكتور عبد العظيم نفسه! وغيره من مفكرينا الأفاضل ، وبدليل وجود هذا الجدل الصارخ الذي اشترك فيه الدكتور عبد العظيم ! .

«ولست أدافع عن الأستاذ فهمي هويدي ، فهو ليس بحاجة إلى هذا الدفاع ، ولكنى مندهش من تصوير الدكتور عبد العظيم لمناقشات فهمي هويدي بأنها عودة لمحاكم التفتيش ، دون أن يعطيها اسمها الحقيقي والواضح ، وهو أن الموضوع كله يمثل «صحوة فكرية» ! . ذلك أن فهمي هويدي هاجم وناقش ودحض فكر التكفير في الكتاب الذي أصدره أحد القضاة منذ سنوات قليلة ، ومن الظلم بمكان أن يقال في مناقشاته إنها «تدفع الجماهير إلى الإيمان بقضايا التكفير» ، لأن ما يكتبه فهمي هويدي يمثل في تصوري حربا فكرية ضد التطرف بشقيه العلماني والديني ! .

«وإذا تركنا هذا الموضوع لنناقش بعض أفكار صديقنا الدكتور عبد العظيم في هذا المقال ، فإن نقطة البداية عندي هي قوله : «كانت فكرة أن الدين لله والوطن للجميع قد استقرت ولم يعد في وسع أحد أن يجرؤ على تحديها» . ذلك أن هذه الفكرة - فيما أعتقد - فكرة مبهمة غير محددة

المعالم ، وإلا فهل يرفض الدكتور مثلاً أن نغير الفكرة ونقول : «الدين والوطن لله وللجميع» ؟ ، أو أن نقول : «الدين للجميع» ؟ . أليس هذا التغيير منطقياً وواقعياً ؟ . وما معنى عبارة : «الدين لله» ؟ . أليس من المنطقي أن الدين من الله وللجميع ؟ .

«ولست أدري حقيقة كيف يعمم الدكتور عبد العظيم القول بأننا في «ردة حضارية ودينية» دون أن يفرز بقلمه المحايد المعنى الدقيق لكلمة «الردة» ! . أتصور - وأرجو أن أكون واهماً - أن الردة التي يقصدها الدكتور ، هي فكرة «الحل الإسلامي» ، كما سخر منها صراحة في مقاله، دون تمييز بين جاهل بالدين يلوذ بالخنجر والمسدس ، وعالم بالدين يعيش في رحاب كتاب الله وسنة رسوله ويفهم المغزى الحضارى الديناميكي للإسلام ، وأن الاستنارة التي يقصدها هي تسفيه الحل الإسلامى بالقول بأن قضية الشريعة الإسلامية هي قضية مفتعلة يريد البعض أن يوهمنا بها . فهل خفى على صديقنا اللبيب أنه قد نصب - بدوره - ومن حيث لا يدري ، محكمة تفتيش أخرى نصب كل من سفه الحكم بالشريعة قاضياً ، ووضع من سفه آراءهم فى القفص ؟ . هل خفى على صديقنا أنه وقع فى نفس المحذور الذى ينعاه على الأستاذ فهمى هويدى ، وكأنه يطالبه ويطالب كل من يتكلم عن تطبيق الشريعة بالسكوت ، إجلالاً واحتراماً للفكر العلمانى «المستنير» ! ، وإلا فكيف تبزع شمس الاستنارة إذا اختفى الجدل ؟ .

«ومن المدهش أن صديقنا العزيز يتصور أن الفكرة الإسلامية - وإن جاز التعبير - يكفيها لتتوافر أن يكون القانون المدنى فى مجموعه موافقاً للشريعة ومطابقاً لأحكام الإسلام ، وأن القانون الجنائى كذا وكذا ، وكأن هذه القوانين هي لب الإسلام وجوهره وهدفه ، وليست وسيلة لبناء مجتمع متحضر يعرف الصدق والاخلاص والعمل والوفاء وكل القيم التقدمية الجميلة التى تسهم فى الارتقاء بالإنسان ؟ . فكيف يمكن أن نتمسك بوسائل ثبت عجزها وفشلها الذريع فى خلق هذا المجتمع

المنشود؟ . وهل يمكن أن تستقيم أمور المجتمع بمجرد نجاحنا فى انجاز مثل هذه القوانين ، والكباريات وعلب الليل تعج بالميسر والخمر وهتك الأعراض فى حماية القانون ، لأن الفعل الفاضح لم يرتكب علنا ؟ . وهل تستقيم أمور المجتمع بالقانون وفيه الجوع والعراة وسكان القبور ، والمتخمون بالأكل والملابس وسكان القصور ؟ . إن هذه القضية كبيرة يا عزيزنا الصديق ، وتحتاج إلى مزيد من الجدل ومقارعة الحجة بالحجة . ومن الظلم البين أن يتم تحجيم الإسلام فى مجموعته ، ولفت الأنظار عما يتضمنه الإسلام من حلول مبهرة للإنسان الكادح المقهور ، وهى حلول لا تطاولها أفكار ماركس ولا آدم سميث ، لسبب بسيط جدا هى أنها حلول وضعها خالق هذا وذلك . وأدعو الله أن يوفقنى إلى اهداء الدكتور عبد العظيم كتابا أعده الآن عن الحل الإسلامى ، النظرية والبرنامج ، ليدرك - وأظنه مدرك فعلا - أن هذا الحل أكثر تقدمية مما يظن .

«أما استشهاد الدكتور عبد العظيم بأقوال المرحوم حسن الهضيبى أمام محكمة الثورة عام ١٩٥٤ ، وقد سمعته بأذنى شخصيا - فهو استشهاد غريب ومثير ، لا أظنه يعبر عن الفكر التقدمى الذى يعتنقه الدكتور ، إذ كيف يساغ الأخذ بأقوال متهم أمام محكمة الشعب - ويعلم الدكتور أكثر من غيره ما هى محكمة الشعب ! - لتكون دليلا عادلا وموضوعيا ؟ . هل نسى الدكتور أن أفراد هذه المحكمة الهزلية كانوا من صغار الضباط الذين طلب أحدهم فى نوبة زهو سلطوى مجنون من أحد المتهمين أن يقرأ إحدى سور القرآن بالمقلوب ؟ . هل يؤمن الدكتور عبد العظيم بأن أقوال المرحوم حسن الهضيبى جاءت أمام هذه المحكمة عن طواعية واختيار لإنسان حر ؟ . وهل يؤمن صديقى العزيز بعدالة أن يكون المجنى عليهم من الضباط هم قضاة محكمة الشعب ؟ .

«إننى مندهش مرة أخرى من دعوة الصديق العزيز للكف عن المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية ، لأن بلادنا تعيش مشاكل اقتصادية أهم تأخذ بخناقها ؟ ، وكأن الإسلام لا شأن له بالاقتصاد ؟ . إننى أدعو

الصديق العزيز لمكتبة كلية التجارة وكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر ، ليدرك من خلال اطلاعه على عشرات الرسائل العلمية فى الاقتصاد والسياسة والتجارة والقانون الدولى العام أيضا ، أن مقولة «الإسلام هو الحل» صحيحة علميا ، وليست مجرد مناقشات قانونية وفقهية ٩ .

«وأخير فإننى أؤمن ايمانا راسخا بأن الإسلام يعلمنا حرية الفكر وحرية الرأى وحرية المناقشة ، وأن الخلاف فى الرأى لايفسد للود قضية، بل هو مطلوب اسلاميا لتطوير الفكر وبناء مجتمع تقدمى مستنير. ولذلك فإننى أناشد كل الأخوة المجتمعين حول صفحات المناقشة ، مؤيدين للحل الإسلامى ومعارضين ، أن يكفوا عن كيل الاتهامات ، ويتفرغوا لمقارعة الحجة بالحجة ، حتى لايتوه القارئ المسكين ، فلا يعرف : مَنْ القضاة ومن المتهمين » ٩ .

انتهى خطاب الصديق الدكتور محمد اسماعيل على ، وقد نشرناه بحذافيره ايمانا بحرية الفكر وإثراء للمناقشة ، ولكنى أعترف بأن اعتراضات الدكتور الصديق على مقالى «محاكم التفتيش مرة أخرى» قد أدهشتنى ، وجعلتنى أتساءل عما إذا كان حقا قد تابع الحوار بينى وبين الصديق فهمى هويدى جيدا ٩ .

فلقد تصور أن الحوار يدور بين من يدعون إلى الحكم بالشريعة الإسلامية وبين من «يسفهون» - حسب وصفه - الحكم بالشريعة الإسلامية ! . ولم يكن الأمر كذلك اطلاقا ، وإنما كان الحوار يدور بين من يرتدون بالمجتمع حضاريا ، فيكفرون المجتمع والحكام ويحتكرون لأنفسهم الإسلام والإيمان ، ويقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ويستعدون للقفز إلى الحكم باسم الدين بالقوة المسلحة - وبين من يدافعون عن المجتمع ويبرئونه من تهمة الكفر ، ويطالبون بتنزيه الدين عن اقحامه فيما ليس من مسائل الدين ، وقد تبرأ الصديق فهمى هويدى من معسكر التكفير فانتهى الجدل .

ولو كنت بصدد «تسفيه» الحل الإسلامى ، حين قلت إن قضية الشريعة الإسلامية هى قضية مفتعلة ، لكان من الطبيعى أن أسفه القانون المدنى لأنه متفق مع الشريعة فى كل المسائل تقريبا فيما عدا مسألة الربا - ولكنى قلت إن القضية مفتعلة لأن أحكام القانون المدنى فى مجموعها موافقة للشريعة الإسلامية ، ومطابقة لأحكام الإسلام ، وأن التعازير الموجودة فى القانون الجنائى هى من حق الحاكم .

وكان من الطبيعى أن أستشهد بأكبر قاض من الإخوان المسلمين ، وهو المرشد العام السابق الهضيبى ، ولكن فيما يبدو أن هذه الشهادة لم تعد تعجب البعض ، بعد أن سكت عنها ربع قرن كامل ! ، فقد جرحها الدكتور محمد اسماعيل على ، كما جرحها قبله الدكتور محمد سليم العوا ، بحجة أن المرشد أدلى بها وهو واقف أمام محكمة الثورة ! . ونسى الجميع أنه سواء أدلى بها المرشد السابق مختارا ، أو مكرها ، أو لم يدل بها أصلا ، فإنها حقيقة قائمة يعرفها كل من درس القانون المدنى، خصوصا بعد أن جعل القانون الشريعة الإسلامية من المصادر الرسمية للقانون المصرى إذا لم يجد القاضى نصا تشريعىا يمكن تطبيقه، وبذلك أصبح القاضى فى أحكامه بين اثنتين : إما أنه يطبق أحكاما لاتتناقض مع مبادئ الشريعة الإسلامية ، وأما أنه يطبق أحكام الشريعة ذاتها (أنظر مجموعة الأعمال التحضيرية للقانون المدنى ، الجزء الأول ص ٢٠) .

والغريب أن كلا من الدكتور محمد اسماعيل على والدكتور محمد اسماعيل العوا يعرف هذه الحقيقة جيدا ، فكلاهما يحملان درجة الدكتوراه فى القانون ، ولكن هذه الحقيقة إذا قالها المرشد العام السابق الهضيبى شككا فيها بالقول بأنه قالها مكرها أمام محكمة الثورة ! .

على أن الدكتور محمد اسماعيل على لا يلبث أن يثير القضية من ناحية أخرى ، فهو يقول «إن القضية كبيرة ياعزيزنا الصديق !» - أى أكبر من القانون المدنى والقانون الجنائى ! - فحسب قوله : من الظلم

البين أن يتم تحجيم الإسلام فى مجموعة من العقوبات ، كأن مثل هذه القوانين هى لب الإسلام ، وانما القضية كما يقول إن هذه القوانين وسيلة لبناء مجتمع متحضر يعرف الصدق والاخلاص والعمل والوفاء وكل القيم التقدمية الجميلة التى تسهم فى الارتقاء بالإنسان ! .

وقد شعرت على الفور أن الدكتور لم يقرأ التاريخ السياسى الإسلامى أو تاريخ المجتمعات الإسلامية عبر العصور - حتى نهاية الدولة العثمانية ! . والا فليدلنا على أى عصر من هذه العصور فيما عدا عصر الراشدين وعصر عمر بن عبد العزيز - ساد فيها هذا المجتمع المثالى «الذى يعرف الصدق والاخلاص والعمل والوفاء وكل القيم التقدمية الجميلة التى تسهم فى الارتقاء بالإنسان ؟ » نعم فى أى عصر من العصور الإسلامية ساد فيها هذا المجتمع الخيالى الجميل الذى يبشر به ؟ .

أخشى ان الدكتور قد انخدع بوعود قتلة الذهبى والسادات وخلفائهم من أنصار التكفير والحاكمية ، الذين يوهمون الجماهير المصرية بأنهم سوف يبنون هذا المجتمع ، وأنهم سيعيدون أمجاد عهد أبى بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز عندما يقفزون إلى الحكم ، ناسين أن أيا من خلفاء بنى أمية والعباسيين ، ومن جاء بعدهم من الخلفاء حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، قد عجز عجزا مخزيا عن إقامة مثل هذا المجتمع ! .

صحيح أنه لم تكن هناك تلك الكباريهات وعلب الليل التى تعج بالميسر والخمر» التى تحدث عنها الدكتور فى خطابه ، ولكن كانت هناك مجالس الغناء والطرب فى قصور خلفاء الأمويين والعباسيين ، التى كان بعض الخلفاء يفقد فيها وقاره ، مثل يزيد بن عبد الملك الذى كان «يبالغ فى المجون بحضرة الندماء» ! كما يقول الجاحظ فى كتاب «التاج فى أخلاق الملوك» ، ونقله عنه المؤرخ الدكتور حسن إبراهيم حسن فى كتابه . «الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، بأجزائه الثلاثة ،

وهى التى سوف يفتقد فيها الدكتور محمد سعيد على ذلك المجتمع المثالى الذى تحدث عنه ، الذى لا يعرف غير الصدق والاخلاص والعمل والوفاء ! .. إلى آخره ، بل كان الرقيق يكونون طبقة كبيرة فيه منذ العصر العباسى ، وقد لعبوا دورا هاما فيه .

ولماذا نذهب بعيدا وقد انتهى عهد كل من عثمان وعلى بقتل الخليفين . على يد من اعتقدوا أن قتلها خدمة للإسلام والمسلمين ؟ .

دعنا - إذن - يا سيدى من وعود جماعات التكفير والحاكمية عن المجتمع اليوتوبى الخيالى ، ولنتفق على أن الدين شىء ، والسياسة والحكم شىء آخر . فالدين إلهى لا يخطئ ، والحكم البشرى يخطئ ، ومن الإساءة للدين تحميله بأخطاء البشر فى الحكم عن طريق وصفه بأنه حكم إسلامى أو حكم مسيحى ! .

فلم يكن عثمان بن عفان يعتقد للحظة واحدة بأنه يخالف روح الإسلام بانحيازهم إلى ذوى قرياه ومحاباتهم ، ولكن هكذا كان اجتهاده ، وهذا الاجتهاد يتصل بالسياسة والحكم ، ولا يتصل بمبادئ الدين الحنيف . ولم يكن على بن أبى طالب يفتقر إلى فهم الدين ومسائله ، ولكنه كان يفتقر إلى الحنكة السياسية ، وإلى حزم الحاكم ودهائه ، فتغلب عليه منافسوه على الحكم - لا على الدين ! - ولسنا فى حاجة إلى التأكيد على أن كلا من عثمان وعلى كانا أكثر تدينا واخلاصا للدين ورغبة فى العمل على تطبيقه التطبيق الصحيح من قتلة الذهبى والسادات.

وهنا نصل إلى شعار «الدين لله والوطن للجميع» ، الذى يسخر منه الدكتور الصديق بوصفه أنه «فكرة مبهمة» ! . فالدكتور - فيما أعتقد - قد درس النظريات والمذاهب السياسية ، ويعرف - بالتالى - أن هذا الشعار هو أوضح الشعارات فى تاريخ الفكر السياسى ! ، لأنه شعار الفكر الليبرالى القومى الذى يقوم على حرية الاعتقاد الدينى ، وعدم اضطهاد المواطن بسبب عقيدته الدينية ، وعدم التفرقة بين المواطنين

حسب معتقداتهم الدينية ، والمساواة بين الجميع فى الحقوق والواجبات مهما اختلفت أديانهم ومذاهبهم الدينية . فالوطن للجميع ، ولكل الحق فى أن يعبد الله وفقا لدينه أو مذهبه الدينى .

فإذا جاء الصديق الدكتور يسأل لماذا لايتغير هذا الشعار إلى شعار : «الدين للجميع» ؟ فسوف يواجه بهذا السؤال : أى دين يقصد ، وهناك ثلاثة أديان ؟ - اللهم إلا إذا كان ينكر وجود أديان أخرى غير الدين الإسلامى !

الفكرة - إذن - واضحة كل الوضوح ، وهى بعيدة عن كل ابهام يسعى الدكتور لإلقائه عليها . وعليه أن يعترف بأن العالم المتقدم كله ، الذى وصل بالمجتمع البشرى إلى عصر الذرة والوصول إلى الكواكب ، والذى يخضع له العالم الإسلامى حاليا - للأسف الشديد - اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، لم يتقدم إلى الإمام إلا بحفظ وحدته الوطنية عن طريق ذلك الشعار الذى يسخر منه الدكتور !

فهل نتبع نحن هذا الشعار، أم نمزق وحدة الوطن بفكر التكفير والحاكمية ؟ أم ننتظر كتاب الدكتور عن «الحل الإسلامى» ليحدد لنا معالم هذا الشعار السياسى الغامض الذى لم يقدر على تحديده أحد ممن أطلقوه فى الانتخابات الأخيرة ، وفازوا به فى الانتخابات ؟ فربما أتى بجديد ظل مختلفا طوال عصور التاريخ الإسلامى ، ولم تعرفه مكاتب كلية التجارة وكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر ، أو عشرات الرسائل العلمية فى هذا المجال ! .

ولكن الأمر الذى يجب أن نتفق عليه كحقيقة تاريخية راسخة ، هو أن الإسلام كدين ظل بمبادئه السياسية طوال العصور الإسلامية فى واد ، بينما بقيت السياسة والحكم فى واد آخر .

فأنا لا أقل عن الدكتور محمد اسماعيل على إيماننا بأن الإسلام يعلمنا حرية الفكر وحرية الرأى وحرية المناقشة ، ولكنى أكثر منه معرفة - بحكم كونى مؤرخا - بأن هذه المبادئ السامية التى علمنا إياها الإسلام

لم تطبقها دولة إسلامية من الدول الإسلامية التي تعاقبت على مر العصور بعد عصر الخلفاء الراشدين، فقد تحولت الخلافة بعد الراشدين إلى ملك آل إلى صاحبه بقوة السيف والسياسة والمكائد ، وفي عصر الخلافة ضُرب الأئمة الأربعة جميعهم بالسياط أو الهراوات ، دون أى اعتبار لمبدأ حرية الرأى الذى علمه الإسلام ! . فلننزه الدين - اذن - عن اقحامه فى السياسة ، إذا كانت وجهتنا خالصة لله والوطن ! .

فضيلة الشيخ مرة أخرى وأخيرة *

الحوار الذى دار بينى وبين
الأستاذ فهمى هويدى حول كتاب
«الإسلام السياسى» للمستشار محمد
سعيد العشماوى وكتاب : «تطبيق
الشريعة الإسلامية بين الحقيقة
وشعارات الفتنة» لكل من الدكتور
صفوت حسن لطفى والدكتور محمد
عبد العظيم على وجلال يحيى كامل -
أثار ردود فعل واسعة النطاق ، تمثلت
فى أكبر عدد من الرسائل التى
وصلتني من مصر ومن الخارج ، تؤيد
أو تحتج أو تستسفر ! . ولم يكن فى
وسعى تجاهلها كلية ، كما لم يكن فى
وسعى نشرها كلها ! ، ولذلك فقد
اخترت ثلاث منها تعبر عن وجهات نظر
متباينة ، لأختم بها هذا الحوار ،
معتزفا بأنه يحتاج إلى المزيد ، لولا أن
الأحداث السياسية تدهمنا على الدوام ،
فتجبرنا على التحرك إلى مواضيع
أخرى .

أكتوبر ١٩٨٨/٤/٣

والرسالة الأولى من الأستاذ عبد الغنى الراجحي بجامعة الأزهر ،
يرد فيها على ما تفرع عن الحوار بينى وبين الصديق فهمى هويدى من
مقالى الذى نشرته لى «أكتوبر» يوم ١٩٨٨/٢/٢٨ تحت عنوان :
«يافضيلة الشيخ» .

ورسالة الأستاذ المذكور يتهمنى فيها بأنى لم أقدم دليلا واحدا على
ما وجهته إلى فضيلة شيخ الأزهر من اتهام بأنه انتقل إلى المساندة
الايجابية للفكر الدينى المتطرف ، بخطابه الذى وجهه إلى الصديق فهمى
هويدى يصف فيه من فندوا فكر الحاكمية والتكفير بأنهم «تجار أوبئة
الفكر ومروجو أحاديث الافك» ، وأنهم « يحاولون زعزعة عقيدة الإسلام
فى قلوب أهله» ! ، وأنهم عملاء .. إلى آخره .

ورغم أننى سقت المقال كله فى التدليل على ما وجهته لفضيلة شيخ
الأزهر من اتهام ، إلا أن الأستاذ المذكور وصف مقالى بأنه «بهتان
عظيم» ، و«افتراء لا أساس له من الصحة» ، و«أحكام تصدر من الأستاذ
الكاتب دون حيثيات لها وأدلة تدل عليها» ! .

ورغم أن مقالى كان ينصب على ما ورد فى خطاب فضيلة الشيخ
إلى الصديق فهمى هويدى من اتهامات لمؤلفى الكتابين المذكورين - الذين
يفندون فيهما فكر الحاكمية والتكفير - بالعمالة وزعزعة عقيدة الإسلام
فى قلوب أهله ، إلا أن الأستاذ المذكور نسى موضوع هذا الخطاب ،
وأراد أن ينقلنى إلى ما لم أتعرض له ، فطلب منى متحديا أن أوافيه بدليل
يثبت أن «الشيخ الامام شيخ الأزهر» وجد متلبسا بحالة السكوت عن
شجب الارهاب والتطرف الدينى ، أو حالة المساندة الايجابية للارهاب أو
التطرف الدينى فى الماضى أو فى الحاضر أو فى المستقبل أو حتى فى
تصور أحد من الناس» ! .

ونسى الأستاذ المذكور أن خطاب فضيلة شيخ الأزهر إلى الصديق فهمى
هويدى هو نفسه حالة التلبس التى يطالبنى بتقديمها ! لأنه حين يصف
فضيلة الشيخ من يفندون فكر الحاكمية والتكفير بأنهم عملاء ، وأنهم

مروجوا أحاديث الافك ، وأنهم يحاولون زعزعة عقيدة الإسلام في قلوب أهله ، فألا يعنى ذلك أنه يعتبر فكر الحاكمية والتكفير هو عقيدة الإسلام الصحيحة التى يحاول أولئك الكتاب زعزعتها ؟ .

ومع ذلك فقد أردت فى مقالى : «يا فضيلة الشيخ» ، أن أدع للشيخ الفرصة للافلات ، فأبديت اقتناعى بأن فضيلة الشيخ لم يقرأ الكتابين ، وقلت صراحة إننى - فى إبدائى هذا الاقتناع - انما «أحاول تبرئة فضيلة شيخ الأزهر» . وكنت أتصور أن الأستاذ عبد الغنى الراجحى سوف يدافع عن فضيلة شيخ الأزهر مؤكدا أن الشيخ لايمكن أن يتهم أناسا بأنهم تجار أوبئة الفكر ، وأنهم عملاء ، وأنهم يحاولون زعزعة عقيدة الإسلام فى قلوب أهله - إلا إذا تأكد له عن طريق فحص كتبهم فحصا علميا دقيقا أنهم بهذه الأوصاف فعلا ، ولكنه فاجأنى بما لم أتوقع ! فقد اعترف بأن شيخ الأزهر لم يقرأ بالفعل تلك الكتب التى وصف مؤلفيها بتلك الأوصاف البشعة وقذف فى حقهم بذلك القذف الفظيع ، وأغرب من ذلك أنه أبدى دهشته لمطالبتى الشيخ بقراءة تلك الكتب ! ، فيقول فى رسالته بالحرف الواحد :

«أما لوم الدكتور عبد العظيم رمضان لشيخ الأزهر بأنه لم يقرأ الكتابين محل النقاش والرد ، فليس من الضرورى أن يشغل الشيخ نفسه، ويضيع وقته فى قراءة هذه الكتب المملوءة بالأغاليط والأباطيل . ولكن يكفيه أنه بكل تأكيد قرأ رد الأستاذ فهمى هويدى المشروع والمدعوم بالحجج والبراهين ، فاكتفى بذلك ، واقتنع به ، وأرسل خطابه إلى الأستاذ الذى تولى الدفاع عن الإسلام وشريعة الإسلام ليشكره على موقفه هذا» ! .

اذن شيخ الأزهر ليس لديه وقت يضيعه فى قراءة الكتب ، ولكن لديه الوقت الذى يضيعه فى اتهام مؤلفى هذه الكتب بالعمالة وزعزعة عقيدة الإسلام فى قلوب أهله وبأنهم تجار أوبئة الفكر ومروجو أحاديث الافك !

فهل هذا معقول ؟ . وأين ذلك من مطالبة رب العالمين لنا بأن «نتبين» أولاً حتى لا نصيب قوماً بجهالة ، فنصبح على ما فعلنا نادمين ؟ .
والأعجب من ذلك أن الأستاذ الراجحي وصف ما فعله شيخ الأزهر بأنه يتفق مع القواعد العلمية الصحيحة ! فيقول في رسالته :

«وبناء العلماء على ما انتهى إليه أمر العلماء الثقة أمر وارد في جميع الدراسات الإنسانية والعلمية : يبدأ باحث من حيث انتهى باحث آخر قبله ، ليبني عليه ما يراه . فأى شيء في هذا ؟ أو أى عيب في ذلك حتى يأخذ الكاتب في تجريح شيخ الأزهر بسببه» ؟ .

لقد صدمنى هذا القول ، لأن الأستاذ المذكور يقول إنه « أستاذ الدراسات العليا بجامعة الأزهر » ! فإذا كان هذا ما يعلمه لطلبة الدراسات العليا فإنه يكون أمراً محزناً للغاية ، لأن المقصود من قاعدة أن يبدأ الباحث من حيث انتهى باحث آخر ألا يكرر ما انتهى إليه الباحث الأول ، ولا يعنى بحال من الأحوال أن يأخذ ما قاله هذا الباحث كقضية مسلمة بها ، دون أن يخضعه للفحص العلمى الدقيق ، ويتحقق من أن هذا الباحث الأول قد توصل إلى النتائج الصحيحة - وإلا أدى هذا المنهج الفاسد إلى اعتماد كل باحث أخطاء من سبقه من الباحثين ، وعندئذ كيف يحدث تقدم فى العلم ؟ .

النقطة الايجابية فى رسالة الأستاذ عبد الغنى الراجحي هو ما أخذ يدلل به على فساد فكر التكفير فى دفاعه عن شيخ الأزهر ، ودعمه بالأسانيد الدينية ، فهو يقول : «نحن الأزهريين نعلم ونتعلم وندرس الإسلام دراسة جادة عميقة ، فلا نقول بتكفير مسلم مهما عصى ، ومرتكب الكبيرة ليس بكافر ، ومن كفر مسلماً بذنب فهو الكافر ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «من قالها لأخيه فقد باء بها» . وكذلك لا نقول بالحاكمية ، ونحن براء من حاكمية المودودى والمرحوم سيد قطب التى تطالب بتكفير الحاكم إذا لم يحكم بما أنزل الله ، لأن الآية الكريمة - كما جاء فى منظومها وفى سبب نزولها - هى فى اليهود » .

وهنا يلتقى الأستاذ عبد الغنى الراجحي مع فكر من أدانهم فضيلة شيخ الأزهر ووصفهم بأنهم يحاولون زعزعة عقيدة الإسلام في قلوب أهله» ! - فلم يقل هؤلاء أكثر مما قاله الأستاذ الراجحي من تفسير نص الآية الكريمة حسب النزول ، وأن الآية الكريمة السالفة الذكر قد نزلت في اليهود . وقد أكد الأستاذ الراجحي ذلك بقوله إنه «حتى لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإن الآية الكريمة محمولة على من لم يحكم بما أنزل الله احتقارا أو كفرا بما أنزل الله ، أما إذا كان مسلما موحدا فإن الكفر يكون بمعنى كفر النعمة ، وهو - كما يقول العلماء - كفر دون كفر» .

ويعجب القارئ . إذا كان الأستاذ الراجحي يتفق مع فكر من أدانهم إلى هذا الحد المذهل ، وإذا كان يتفق معهم في رسالتهم العلمية ، فما وجه الخلاف إذن ؟ . والرد على ذلك أنه كما أن فضيلة شيخ الأزهر لم يقرأ الكتابين ، فكذلك فعل فضيلة الشيخ الراجحي ! وفيما يبدو أن القاعدة في الأزهر هي الحكم دون قراءة ، والاكتفاء بإصدار الأحكام ! . ولنا أن نحمد الله على أن رجال القضاء في بلادنا لا يستطيعون التمتع بهذا الترف ، وإلا كنا جميعا الآن في السجون ! .

هذا - على كل حال - فيما يتصل برسالة الأستاذ الراجحي ، أما فيما يتصل بالرسالة الثانية ، فهي من قارئ أرسلها لي من لندن حيث يعالج ، وهو مصري مقيم في السعودية يدعى أسامة الألفي ، وفيها يقول إنه يتابع على مدى أعوام ما يخطه قلمي من موضوعات وبحوث ومقالات، وإنه طالع مقالتي الذي نشر بمجلة «أكتوبر» بعنوان «يا فضيلة الشيخ» في جريدة «الأهرام الدولي» ، «واسمحوا لي أن أعقب على مقالك سالف الذكر، لأقول لكم إنكم - وأرجو أن يسامحكم الله - قد جانبتم الصواب في هذا المقال وشططتم بعيدا ، بل نسيتم أبسط القواعد الأكاديمية والحقائق العلمية التي كانت تحكم كتاباتكم التاريخية قبلا» ! .

ويبدو أن الكاتب تصور أنني قلت إن الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية تعنى تكفير الآخرين ، لأنه يحاجنى بقوله : إن «الدعوة إلى تطبيق شريعة الله لاتعنى تكفير الآخرين ، ولكنها تعنى إلغاء ما يخالف الشريعة من أحكام ، تعنى اغلاق مواخير وعلب الليل التى زادت وتزايدت فى نصف القرن الأخير» .. إلى آخره .

ولم أقل أبدا إن الدعوة إلى تطبيق الشريعة تعنى تكفير الآخرين! وإنما قلت إن الشريعة مطبقة بالفعل فى القانون المدنى ، وإن شروط تطبيقها فى القانون الجنائى غير متوفرة ، وللحاكم حق التعزيز ، ومن هنا وصفت تلك الدعوة بأنها «دعوة مفتعلة» . وليس لدى - بطبيعة الحال - أى اعتراض على إلغاء ما يخالف الشريعة من أحكام .

على أن المشكلة أن السيد كاتب الرسالة يتصور المجتمع الإسلامى أيضا - فى شكل يوتوبى (خيالى) ، مع أن تاريخ أربعة عشر قرنا من الحكم الإسلامى فى عصر الخلافة الإسلامية يثبت عجز الخلفاء عن إقامة مثل هذا المجتمع ، لأسباب ترجع إلى عيب فيهم وليس إلى عيب فى الدين .

ومن هنا طالبنا بفصل الدين عن الدولة ، حتى لايتحمل الدين بأوزار الحكام ، وقلنا إن وصف حكم ما بأنه حكم إسلامى ، كما أطلقناه على العصور الإسلامية المتعاقبة ، يسىء إلى الدين ، لأن الإسلام برىء مما ارتكبه الخلفاء فى قصورهم من موبقات ، وما ألحقوه بشعوبهم الإسلامية من محن ، وما أصابوها به من تدهور واضمحلال ، وإن أصحاب الدعوة الحالية ليسوا أفضل من حكام أو خلفاء أربعة عشر قرنا - فيما عدا الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز - وفى حكام ايران الحاليين الدليل الدامغ على صحة هذا القول .

كذلك فإن المشكلة أن السيد القارىء لن يستطيع أن يصدق أن ما ذكره عن المواخير الحالية كان موجودا فى عهد آخر دولة إسلامية ، وهى الدولة العثمانية ، وأكثر من ذلك أن دراسة النظام المالى فى ولاية عثمانية،

مثل ولاية الجزائر، تثبت أن أحد موارد الدولة المالية كان من الضرائب المفروضة على الدعارة ، مع أننا نعلم جميعا أن الدين الإسلامى ينهى عن الفحشاء والمنكر ١. فالإسلام شىء ، والدولة شىء آخر .

ولعل وجود السيد القارىء فى لندن حاليا للعلاج يعطينى الفرصة للتدليل على هذه الحقيقة بشكل أكبر ، فالقارىء حاليا يقيم فى دولة مسيحية تحكمها حكومة مسيحية ، ولكنه لم يتحول إلى مسيحي بانتقاله إلى هذه الدولة المسيحية ، وإنما هو يحتفظ بإسلامه . وأعتقد - من فحوى رسالته - أنه يحافظ على دينه كل المحافظة ، ويؤدى الصلوات الخمس فى أوقاتها ، ويصوم إذا هلّ شهر رمضان ، ولا يجد من رجال الحكومة الانجليزية من يدهم بيته ليلا ليحمله إلى مواخير حتى سوهو ليقتضى فيها سهرته !، ولا يجد من رجال الكنيسة الانجليزية من يأتى إليه ليقنعه بذلك! . فأى فصل بين الدين والدولة أكبر من ذلك ؟ .

ان وجود حاكم دينى على رأس البلاد، يزعم بأنه يحكم بما أنزل الله، هو أمر خطير للغاية ، لأنه يتيح له أن يزعم بأنه وحده الذى ينفذ حكم الله ويطبق شريعته ، ويوحى بأن ما يصدر عنه هو حكم دينى، فتختلط السياسة بالدين ، ويتحول الخصوم السياسيون إلى كفرة . ملحدين يعارضون حكم الدين . وقد رأينا الدماء تسيل أنهارا طوال العصور الإسلامية بسبب الخلافات الدينية ، وضرب المفكرين الدينيين والفقهاء بالسياط ، وقتل الخلفاء حتى الخلفاء الراشدين ! فأى دعوة حق يراد بها باطل أكثر من هذه الدعوة التى يسعى بها البعض إلى السلطة ؟

والطريف فى رسالة القارىء أنه هاجمنى لأنى قلت فى مقال «يافضيلة الشيخ» ، إن الشيخ لم يقرأ كتاب المستشار العشماوى، ويسألنى قائلا : «لست أدري كيف جزمتم بذلك ؟ هل تقرأون الغيب ؟ لهذا لا أرى ما ذهبتم إليه من القول بمجاملة فضيلة شيخ الأزهر للأستاذ هويدى . فالشيخ جاد الحق بما له من مكانة عالمية بحكم منصبه ، أكبر من الحاجة إلى مجاملة كاتب ، واتهامكم إياه بالمجاملة يشكك فى ذمة

الرجل ودينه، وينتقص من أهليته للمنصب الكبير الذى يحتله رسميا وجماهيريا ، محليا وإسلاميا .

وبطبيعة الحال فأنى أحيل كاتب الرسالة إلى رسالة الأستاذ عبد الغنى الراجحي السالفة الذكر ، التى يدافع فيها عن شيخ الأزهر ، وفيها أورد أن فضيلة شيخ الأزهر لم يقرأ بالفعل كتاب المستشار العشماوى أو غيره ، فهل يرى السيد كاتب الرسالة أننى والأستاذ الراجحي نقرأ الغيب ؟ .

بقيت الرسالة الأخيرة ، وهى من الصديق الدكتور محمد اسماعيل على ، وفيها يعقب على ردى على رسالته التى نشرتها فى مقالى بعدد أكتوبر المؤرخ ١٣ مارس تحت عنوان : «ردة حضارية أم صحوة فكرية» . ويهمنى من الرسالة ما تصوره من أن ردى عليه « تحول كثيرا إلى انفعال يصل إلى حد التجريح والاتهام بالجهل أو الكفر ، وهو ما يخرج بالموضوع عن الموضوعية » ! فقد مسه قولى إنى - بحكم كونى مؤرخا - أكثر منه معرفة بأن المبادئ السامية التى علمنا إياها الإسلام لم تطبقها دولة إسلامية بعد عصر الخلفاء الراشدين ، واعتبر هذا القول اتهاما له بالجهل بالتاريخ ، فى حين لم تواتيه الجرأة - حسب قوله - للقول بأنه أكثر منى معرفة - بحكم كونه قانونيا - بأن محاكمة المرحوم الهضيبى كانت باطلة بطلانا مطلقا بتشكيلها وبكل ما جرى فيها وما ترتب عليها .

ولست أرى أن هذا القول من جانبه أو جانبى يشكل اتهاما بالجهل بالقانون أو التاريخ ! ، فمن الطبيعى أن كلا منا أعرف من الآخر بمجال تخصصه . ولكن لىذكر الصديق العزيز أن القضية لم تكن قضية قانونية أو عدم قانونية محاكمة الهضيبى ، وإنما صحة أو عدم صحة ما قاله أمام المحكمة فقد ذكرت أن قوله كان صحيحا ، بينما لم يورد الصديق ما ينكر صحة هذا القول ! .

بل لقد أورد الصديق فى رسالته - فى مجال الدفاع عن معرفته بالتاريخ - قوله : إنه لا يقل عنى معرفة «بمدى الانحطاط الذى ساد كثيرا

من الدول الإسلامية ، لا فى عهد العباسيين أو الأمويين ومن تلاهم ممن تمسحوا بالإسلام ، ولكن أيضا فى دول تحكم الآن بالشرعية ، ويتم فيها اغتيال حقوق الإنسان وتلفيق الاتهامات وزج الأبرياء فى السجون وانفاق الملايين فى الخمر والزنا والقمار - مما رآه بعينه وسمعه بأذنه ، ولم يقرأه بل عاشه ! . ويعلق على ذلك قائلا : «فهل هذا هو الإسلام ؟ أم هؤلاء هم من يدعون تطبيق الإسلام ؟ . وأين العيب ؟ . فى الإسلام ، أم فيمن يطبقه ؟ . وكيف يمكن أخذ الدين بجريمة أدعياء الدين من القتلة والسفاحين الذين يسيئون إلى الإسلام ، ويدعو مفكرا عظيما مثلك إلى التخوف من الحل الإسلامى ؟ » .

أفليس هذا القول من الصديق الدكتور محمد اسماعيل على هو السبب فى فكرة فصل الدين عن السياسة ، حتى لا يؤخذ الدين بجرائم الحكام الذين يدعون الحكم بالشرعية على مدى التاريخ ؟ ، وأليس هو السبب فى الفكر الليبرالى القومى الذى يقول بفكرة «الدين لله والوطن للجميع» - وهى الفكرة التى سخر منها الدكتور الصديق واعتبرها «فكرة مبهمة غير محددة المعالم» ؟ .

على أن الصديق العزيز لا يريد أن يمضى فى هذا المنطق إلى نهايته ، فهو لا يزال يتمسك بما يسميه «الحل الإسلامى» ، ويقول إن الهرب من هذا الحل لهذه الأسباب يساوى أن يصدر قرار بمنع استخدام السكين ، لأن بعض الناس يقتلون به ، أو نلغى القلم والورق لأن بعض الناس يتناحرون بهما !

ولست أدري كيف يمكن تطبيق هذا الحل ؟ ، والطريف أن الصديق الدكتور لا يدري أيضا ، وهو يعترف بذلك ، فهو يقول إن السؤال الذى ينبغى طرحه هو . «كيف يتم تطبيق الشريعة الإسلامية يا دعاة الحل الإسلامى ؟» . ويعلن أنه يرفض التطبيق بقوة السلاح ، كما يرفضه تحت لواء الحاكمية ، كما يرفض التطبيق القهرى للشريعة كنظام حكم ، ويرى أن تكون وسيلة التطبيق - أو ما يسميه الانطباق - هى التربية الدينية

للنشء منذ الصغر ، حتى يتم تكوين الوعي الانتخابى والوعي النيابى ، وإفراز حكام ووزراء نشئوا نشأة دينية .

وهذا الكلام من الصديق الدكتور شىء ، وما يقوله دعاة تطبيق الشريعة والحل الإسلامى شىء آخر ! . فهم يبدأون من الآخر - أى بالتشريع ، والصديق الدكتور يريد أن يبدأ من الأول - أى من التربية الدينية الصحيحة .

وفى ذلك فليس بيننا خلاف . فالأساس هو تربية المجتمع منذ الطفولة على آداب الشريعة الإسلامية وعلى نهجها القويم ، وليس إخضاعه لفئة متسلطة مجنونة تحتكر تفسير الدين وتريد إرغام الناس على قبول اجتهاداتها المريضة باعتبارها الدين الصحيح ! . ولقد تربيت تربية دينية ، وحفظت القرآن الكريم قبل أن أبلغ الثانية عشرة من عمرى ، وربيت أبنائى تربية دينية ، وكان الدين على مدى حياتى عاصما لى من مزالق كثيرة ، وهاديا لى إلى طريق العدل والحق والأمانة والعمل ولم يفتر إيمانى فى يوم من الأيام بأن الدين قوة روحية عظيمة يمكن أن تحقق للإنسان حياة متوائمة حافلة بالسعادة والخير والعزة والكرامة . فلنبداً إذن بالتربية ، ولندع الشعب بعد ذلك يقرر لنفسه ما يشاء ، دون وصاية أو تسلط ! .

بين الشريعة الإسلامية والقانون المصري *

أعتقد أن مشكلة الإسلام الأولى
فى هذا البلد تتمثل - أولاً وأخيراً - فى
الجهل بالدين من جانب عامة الناس .
وأقصد بعامة الناس هنا الذين لم
يتفقهوا فى الدين ، ولم يدرسوا أصوله
وأحكامه فى العبادات والمعاملات فى
الكتب المعتمدة . وهؤلاء يمثلون الغالبية
الساحقة من الشعب ، وهم يمثلون تربة
خصبة للغاية لأصحاب الأفكار
السياسية التى تتخذ الدين ركيزة
لدعوتها ، فيبذروا فى هذه التربة ما
يشاءون من أفكار دينية منحرفة تخدم
أغراضهم .

كذلك تتمثل هذه المشكلة فى ذلك
الكم الهائل من الأوهام التى أحاطت
بالدين عبر تاريخه ومسيرته ، والتى
يعتبرها البعض جزءاً لا يتجزأ من
الدين ، رغم أنها تبتعد عنه بعد السماء
عن الأرض . وهذا الكم من الأوهام هو

أكتوبر ٢٥ / ١٢ / ١٩٨٨

محصلة تراكم مستمر أخذ يتزايد مع الزمن مع تزايد التفاسير والاختلافات والاجتهادات .

فمن المعروف أن الدين هو جزء من البناء الفوقى للمجتمع - أى البناء الحضارى الذى هو انعكاس أمين لعلاقات الانتاج ، وبخاصة علاقات الملكية ، فإذا كانت علاقة الملكية علاقة اقطاعية انعكس ذلك على الدين بقدر ما ينعكس على كل الحياة الفكرية والثقافية ، ويتغير الأمر إذا تغيرت هذه العلاقة إلى علاقة رأسمالية ، وهكذا .

وكثيرون يسيئون فهم هذا المعنى ، كما يسيئون الظن بمن يقوله ! فأذكر أننى قلت هذا الكلام فى أثناء محاضرة عامة ألقيتها فى جامعة عليكرة بالهند ، تساءل البعض : كيف يتغير الدين مع علاقات الانتاج ؟ . وقد رددت بأن الدين المنزل من السماء ثابت ، ولكن التفاسير هى التى تتغير . بمعنى أن العقلية الاقطاعية لاتستطيع إلا أن تفسر الدين تفسيراً اقطاعياً يخدم مصالح الاقطاع ، والعقلية الرأسمالية تفسر الدين تفسيراً رأسمالياً ، وهكذا .

والمهم هو أن العصور المختلفة منذ ظهور الإسلام قد أفرزت كمّاً كبيراً من التفاسير والاجتهادات والخلافات المذهبية ، هيا الفرصة لأصحاب الهوى من الذين يستغلون الدين فى دعواهم السياسية للوصول إلى الحكم ، لاجتذاب جماهير غفيرة من غير العارفين والدارسين للدين ، لمساندة دعواتهم ، فكان ما نراه حالياً من حركات دينية تجتذب إليها الشباب - المحدود المعرفة بالضرورة - وتحاول أن تفرض رأيها على المجتمع ، تحت شعارات براقية مثل شعار : «تطبيق الشريعة الإسلامية» .

وكثيراً ما نبهنا إلى أن هذا الشعار غير ذى موضوع ، لأن القانون المدنى متفق مع الشريعة الإسلامية ، وأن الاختلاف فى القانون الجنائى هو فيما يتصل بالحدود ولا تتجاوز ستة : حد السرقة ، وحد القذف ، وحد الزنا ، وحد الحراقة (قطع الطريق) وحد شرب الخمر ، وحد الردة .

وهى حدود للحاكم فيها حق التعزيز . وقد كنا فى هذا الرأى نعتمد على المستشار الهضيبى ، المرشد العام السابق للاخوان المسلمين ، ولم نكن نعتمد على ماركس أو لينين ، ومع ذلك فقد انهالت الاتهامات علينا بالماركسية والشيوعية والمروق من الدين من أولئك الذين يستغلون الدين لأغراضهم السياسية ، ومن أتباعهم المخدوعين والمضللين .

ومن هنا تظهر أهمية هذا الكتاب الذى ألفه المستشار محمد سعيد العشماوى ، رئيس محكمة أمن الدولة العليا ورئيس محكمة الجنايات . عن : «الشرعية الإسلامية والقانون المصرى» . وقد سبق لنا أن قدمنا للقارىء بعض أعمال المستشار العشماوى العلمية التى تحارب أفكار الحاكمة والتكفير ، وآخرها كتابه الهام «الإسلام السياسى» - لأهميتها فى محاربة الجهل بالمعرفة ، والضلال باليقين ، والأوهام بالحقائق ، لأن هذا هو الأسلوب الأمثل لرد العقول المضللة إلى صوابها بعد أن طال بها التضليل .

والكتاب الذى نحن بصدده هو كتاب شديد التركيز ، يحتوى على مقدمة وستة فصول بعنوان : بين الشريعة والفقه ، وأساس القانون ، والأحوال الشخصية ، والقوانين المدنية ، ، والقوانين الجزائية ، والقوانين الاجرائية .

وهو فى المقدمة ينبه إلى خطورة اعتناق الشعارات بغير علم ، خصوصا إذا كانت هذه الشعارات تتعلق بالدين أو تتصل بالشرعية ، ويقول : «وإذا كان الإسلام يفرض على المسلمين العلم، ويأمر بالتزام الواقع ، ويدعو إلى أن يندب بعضهم نفسه ليتفقه فى الدين أو يرشد الناس أو يوضح الحقيقة ، فإن دراسة شعار «تطبيق الشريعة» يكون فرض كفاية على من درس القانون المصرى ودرس الشريعة الإسلامية ، حتى يبين للناس صلة هذه بذاك ، ويعمل على أن يُدرج الشعار فى صلب الواقع ، ويدمجه فى صميم الحياة .

ويبدأ الكتاب أولاً بتعريف تعبير الشريعة الإسلامية ، فيكشف أن الفكر الإسلامي عرف هذا التعبير أولاً ، بمعناه الأصلي الذي ورد في القرآن - أى بمعنى منهج ، أو سبيل ، أو طريق . ثم اتسع المعنى ليشمل القواعد القانونية (التشريعية) الواردة في القرآن الكريم . ثم امتد ليضم هذه القواعد والقواعد المماثلة التي وردت في الأحاديث النبوية . ثم تغير المعنى ليشمل الشروح والتفسيرات والاجتهادات والآراء والفتاوى والأحكام التي صدرت لايضاح هذه القواعد أو القياس عليها أو الاستنتاج منها أو تطبيقها - أى الفقه .

ومن هنا فإن الدعوة إلى تقنين الشريعة تعنى فى الواقع تقنين الفقه الإسلامى ، دون تنبه إلى أن قواعد الفقه قد تكونت عبر التاريخ خلال وقائع محددة ، وأنها لابد تتغير مع الظروف الناشئة والأوضاع الجديدة . وفى الوقت نفسه فإن الفقه من عمل الإنسان ونتيجة اجتهادات أو تطبيقات بشر ، ولا تحظى - من ثم - بأى عصمة أو قداسة ، ولا تحول دون اجتهاد جديد .

ولكن ما هو القصد من استعمال تعبير «مبادئ» الشريعة الإسلامية؟ إن المشرع الذى وضع القانون المدنى لم يضع تعريفا لهذا التعبير ، ولكن الظاهر من الأعمال التحضيرية للقانون المدنى أن المشرع قصد به القواعد الكلية المشتركة بين مذاهب الفقه الإسلامى . وقد جاء دستور ١٩٧١ بدون مذكرة إيضاحية أو أعمال تحضيرية يمكن الرجوع إليها للتعرف على قصد المشرع من استخدام هذا التعبير .

على أن التعديل الدستورى الذى تم فى ٢٢ مايو ١٩٨٠ ، جاء مسبقا بتقريرين للجنة الخاصة بادخال التعديل ، يخلطان خلطا شديدا بين الدين والشريعة والفقه ، فقد جاء فيهما أن مصادر الشريعة الإسلامية الأساسية هى : الكتاب والسنة والاجماع والفقه ، وبجانبها توجد عدة مصادر يختلف الرأى فيها من مذهب إلى آخر ، مثل المصالح المرسلة والعرف والاستحسان ، إلى آخره ، وأن الأحكام الشرعية تنقسم

إلى قسمين : النوع الأول ، أحكام قطعية الثبوت والدلالة ، ولا مجال للاجتهاد فيها ، والنوع الثانى ، اجتهادية !

على أن مصادر الشريعة الإسلامية الأساسية فى حقيقتها هى الكتاب والسنة والاجماع والقياس (لأن الاجماع والقياس وغيرهما هو الفقه) ، وهذه المصادر مصادر للفقه وليست مصادر للشريعة . وفى الوقت نفسه فإن الأحكام القطعية هى أحكام الشريعة فيما يتعلق بالعبادات ، أما الأحكام الاجتهادية فهى آراء الفقه .

ومن هنا يتضح أن الدعوة إلى تقنين الشريعة الإسلامية ، يمكن أن تؤدي إلى دوامة كبيرة من الاتهام بالكفر والتراشق بالالحاد تؤدي بالمجتمع فى هاوية ليس لها قرار ، لأن مفهوم الشريعة الإسلامية هنا هو الفقه الذى وضعه الفقهاء استلهاما لروح الدين ، فكيف يعد عدم تقنين الفقه كفرا ، أو توصم الحكومة التى لاتفعله بالكفر ؟ . وإذا كان عدم تقنين الفقه (المسمى خطأ بالشريعة) يعد كفرا ، فإن تقنينه قد يعد كفرا كذلك ، فالمشرع لابد أن يأخذ برأى من آراء عدة ، أو باجتهاد من اجتهادات متعددة ، ومن ثم يمكن لمن يأخذ بالرأى المقابل أو الاجتهاد المغاير أن يصم المشرع بالكفر !

وأوضح مثل لذلك ما حدث فى تعديل قانون الأحوال الشخصية بالمرسوم بقانون رقم ٤٤ لسنة ١٩٧٩ فقد وضع مشروع هذا التعديل وزير الأوقاف ووكيل الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية آنذاك ، وهم يقولون إن التعديل موافق للشريعة ، مأخوذ منها ، بينما يقول أعداء القانون وخصومه إن هذا التعديل مخالف للشريعة ومعارض لها ! .

ثم تتبع المستشار محمد سعيد العشماوى أسس القانون المصرى الحالى لينتهى إلى أن هذا القانون «ليس فرنسيا وليس رومانيا . بمعنى

أنه لا يتضمن قواعد غريبة عن المجتمع المصرى ، أو بعيدة عن الشريعة الإسلامية - وإلا لاستحال تطبيقه خلال أكثر من قرن !

إن ما حدث أن المشرع المصرى استعان بالتنظيم والتبويب والشكل والصياغة القانونية للتشريعات الفرنسية ، كما نستعين حاليا بكل نتاج التقنية الغربية ، وكما نستعمل الطائرات والقطارات وكل ما تنتجه الحضارة الغربية . والاطار القانونى الذى استخدم فى مصر ، والذى استعير من فرنسا ومن القانون الرومانى ، هو مجرد شكل وصياغة لقواعد قانونية كانت فى مصر وضمن الفقه الإسلامى ، ولم تكن غريبة على المجتمع المصرى ، وكان من اللازم أن توجد مع التطور الاجتماعى والتقدم الحضارى وتغير أساليب المعاملات . وليس فيها ما هو مناف للشريعة الإسلامية أو مضاد لروح المجتمع ، وإلا للفظها ولم تستقر فى كيانه أبدا .

ثم أخذ المستشار محمد سعيد العشماوى يدل على رأيه باستعراض القوانين المدنية ، وهى قوانين الأحوال الشخصية والمواريت والوصية ، فأكد أن أحكام هذه القوانين جميعا مأخوذة مباشرة من الأحكام التشريعية الخاصة بهذه المسائل فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومن مذاهب الفقه المختلفة .

وقال : إن الشريعة حرصت ، فى مسائل الأحوال الشخصية والميراث ، على أن تؤكد على أهم أصل من أصولها العامة . وهو الأصل الذى يفيد أن تطبيق الأحكام تطبيقا سليما منوط بوجود مجتمع صالح ، ومشروط بالركون إلى ضمائر الناس الحية وضمهم النقية .

كذلك أوضح أن عقد الزواج فى الشريعة الإسلام - على سبيل المثال - هو عقد مدنى ، وليس عقدا دينيا كما هو الشأن بالنسبة لعقد الزواج فى الشريعة المسيحية . فعقد الزواج فى الشريعة الإسلام - منه قد يقبل

وايجاب من الزوجين البالغين - أو من ينوب عنهما - ويصح بحضور شاهدين ، دون أن يصحب ذلك أى إجراء آخر دينى أو شكلى . وحتى الزواج الفاسد (دون شاهدين) تترتب عليه بعض النتائج (مثل ثبوت النسب) .

على أنه رغم هذه القاعدة الواضحة التى لا خلاف بشأنها على الإطلاق ، فإن الفكر الدينى فى الإسلام ، وتقاليده المجتمعات ، أضفت على العقد مسحة دينية ، فالزمت نفسها بما لايلزم ، وفرضت من عندها ما ليس مفروضاً ، ورتبت على ذلك أن جعلت من عقد الزواج ومن آثاره ونتائجه أحكاماً دينية . وربما كان ذلك بسبب ملابس المأذون الذى يتولى إجراءات العقد ، أو لأنه تتلى عادة بعض آيات القرآن عند انعقاده .

ومعنى أن هذا العقد هو عقد مدنى أن يكون للطرفين تعديل أحكامه، كأن تكون العصمة فى يد الزوجة - أو يكون للحاكم تعديل أحكامه ، كما فعل عمر بن الخطاب عندما أفتى بجعل الطلاق المقترن بلفظ الثلاث ثلاث طلاقات ، أو عندما ألغى المرسوم بقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ هذا الحكم ، فنص فى المادة الثالثة منه على أن «الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو إشارة ، لايقع إلا واحدة» .

كذلك لم يقن المشرع المصرى كل أحكام الشريعة (أى الأحكام التشريعية فى القرآن والسنة والفقہ الإسلامى) فى زواج المتعة ، والتسرى بالاماء .

فزواج المتعة ما زال قائماً فى المذاهب الشيعية ، ويعمل به . والرأى أنه يستند إلى الآية القرآنية : «فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن» - أى أنه أحل استمتاع رجل بإمرأة لقاء «أجر» ، لا «مهر» . وقد كان ابن عباس (ابن عم النبى) يقرأ هذه الآية : «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فاتوهن أجورهن» - أى أن الاستمتاع هو لأجل معين ، لا على وجه الدوام كما هو الأصل فى عقد الزواج .

ولكن عمر بن الخطاب نهى عن هذا الزواج ، وروى عن ابن عباس فى ذلك قوله : « ما كانت المتعة إلا رحمة من الله تعالى رحم بها عباده ، ولولا نهى عمر عنها ما زنى إلا شقى » .

أما التسرى بالجوارى فحكمه قائم من ملك اليمين (ما ملكت أيمانكم) ، وهو يجيز معاشرتهن جنسيا دون عقد زواج . وكان بعض الناس لايتزوجون قط ، بل يتسرون بالاماء - كما فعل الجاحظ مثلا .
ولكن القانون المصرى ألغى الرق ، لما ارتأه من منافاته لروح العصر ، والتزاما منه باتفاقية برلين سنة ١٨٨٥ التى وقعتها أغلب البلاد الإسلامية، وبالمعاهدة الموقعة بين مصر وبريطانيا بإبطال تجارة الرقيق سنة ١٨٨٧ .

ومعنى هذا أن الأحكام تطبق إذا وجدت الظروف التى تقتضى تطبيقها ، وتلغى إذا فرضت الظروف هذا الإلغاء . فقد ألغى عمر بن الخطاب زواج المتعة بعد أن استقرت الدولة الإسلامية ، وأخذت مذاهب السنة جميعها بهذا الإلغاء ، وألغى القانون الرق عندما فرضت ظروف العصر هذا الإلغاء .

ومعنى ذلك أيضا أن أحكام الشريعة - أو الفقه - التى نظمت هذه الأحكام ليست واجبة التقنين طالما تخلفت عن الظروف ، ومعناه كذلك أن وضع أحكام لنظام بذاته - كزواج المتعة والرق - لايعنى أن هذا النظام من صميم الإسلام وأن إلغاءه وعدم تقنينه يعتبر كفرا .

ثم تناول المستشار محمد سعيد العشماوى مسألتى الربا ونظام الفوائد على الديون ، وعقد التأمين ، فأوضح أساس تحريم الربا فى القرآن ، وهو أن العرب كانت تناسىء فى المال وتفاضل فى العقود والمطعومات ، فإذا حل أجل استيفاء الدين كان الدائن يسأل المدين : أتقضى أم تُربى ؟ أى هل تسدد الدين أو تزيد به إلى أجل آخر ؟ وكان

المدين يستسهل التأجيل ، إلى أن يحل أجل لا يستطيع فيه الوفاء بالدين ولا يقبل الدائن تأجيل السداد ، فيفلس المدين بسبب دين ، كان فى الأصل قليلا ثم تضاعف بالتأجيل ، ويمكن أن يكون ذلك سببا فى استرقاقه . ولذلك أراد الإسلام منع هذا الوضع الشاذ فى مجتمع المؤمنين .

ولكنه لم يحدد المقصود من الربا المحرم ، كما أنه أيضا لم يحدد المقصود من البيع بالحلال فى قوله تعالى : «وأحل الله البيع وحرم الربا» . فكثير من البيوع، التى تلحق الضرر بأحد طرفيها ، قد حظرها الفقه الإسلامى ، مثل بيع «العينة» ، وهو بيع بثمن معلوم إلى أجل غير مسمى ثم شراء المبيع بأقل من الثمن المباع به . وبيع المزابنة ، وهو بيع شىء جزاف لا يعلم كيـله ولا وزنه ولا عدده ، بشىء مسمى من الكيل أو الوزن أو العدد .

ثم بين المستشار العشماوى بعض الفوارق بين ربا الجاهلية ونظام الفائدة الحالى ، ومنها أن التنفيذ فى الربا يقع على شخص المدين باسترقاقه ، أما فى نظام الفوائد فيتم على المال فقط ، وأن الدائن فى ظروف تشعب الإجراءات القضائية وطولها الحالى قد يكون هو الضحية فى علاقة المديونية ! مما أدى إلى القول بأن «المدين أقوى من الدائن»^١

أما عقد التأمين ، الذى حرمه البعض على أساس أنه مقامرة تلحق ضررا بأحد الأطراف ، فهذا التعليل لا يصمد للتحليل ، فلا يوجد فى الإسلام محظورات بذاتها ، إنما ترتبط الأحكام بالعلل ، ويدور الحكم مع العلة وجودا وعدما ، ولم يتضمن القرآن آية عن عقد التأمين ، وكذلك السنة النبوية .

ثم تناول المستشار محمد سعيد العشماوى قضية الحدود فى الإسلام ، فبين أن السياسة العقابية الإسلامية قامت على ثلاثة نظم :

الحدود ، والتعازير ، والقصاص . أما الحدود ، فهي فى رأى الفقهاء ستة : حد السرقة ، وحد القذف ، وحد الزنا ، وحد الحرابة (قطع الطريق) وحد شرب الخمر ، وحد الردة ، وهذه الحدود جميعا مشروطة ، أى معلقة على شرط قيام مجتمع له خصائص معينة ، ولكل عقوبة شروطا خاصة بها لا يمكن أن تطبق إلا إذا توفرت هذه الشروط .

أما التعازير ، فسببها أن الحدود السالفة الذكر لا تتناول جرائم كثيرة أشد خطورة على المجتمع ، مثل جرائم الرشوة ، والتجسس ، واختلاس الأموال الأميرية ، والاستيلاء على هذه الأموال ، والتزوير فى المحررات الرسمية والعرفية ، وهتك العرض ، واللواط ، والحريق العمد ، والحريق باهمال ، والاتلاف العمدى ، وجرائم المخدرات ، وجرائم المبانى ، وجرائم التسعيرة ، وجرائم المرور . وقد رأى الفقه الإسلامى أنه من حق ولى الأمر - أى المشرع فى العصر الحديث - أن يؤثم أى فعل يرى فيه خطرا على الجماعة أو اخلافا بأمنها ، ويضع ما يشاء من عقوبات ، وأطلقوا على هذا النظام اسم «التعزير» - أى التأديب الذى لم يرد به نص

وفى التقدير السليم أن نظام التعزير هو النظام الجنائى الأساسى فى الإسلام ، لصعوبة تطبيق الحدود بشروطها ، ولأن الحدود لا تواجه كل الجرائم والأفعال الضارة بالمجتمع .

أما القصاص - ويعنى متابعة الجانى العائد حتى يُقتص منه - بما فيه من عفو ودية ، فيتصل بجرائم القتل والتشويه ، وهى ليست من جرائم الحدود . وقد كان له ما يبرره فى بداية الإسلام ، لكنه الآن أصبح يشكل خطورة شديدة على الناس من أولئك الذين يملكون ثروات طائلة من الحرام وشبه الحرام ، يفترون بها على الناس ، فيقتلون أو يضرّبون أو يتوهّون ، ثم يفرضون على المجنى عليه وعلى أسرته قبول الدية .

لذلك فإن النظام الجنائي المصرى عالج الأمر بما يساير روح الإسلام ويحفظ فى الوقت نفسه حق المجتمع ، وفى هذا النظام يجوز للمجنى عليه أو ذويه أن يصطلحوا على حقوقهم المدنية ، لكن ذلك لا يؤثر اطلاقاً على الدعوى الجنائية ، التى تبقى من حق المجتمع ، تباشرها النيابة العامة وكالة عنه ولا يمكن التنازل عنها .

والمهم فى هذا الكتاب الصغير الحجم ، العظيم القيمة ، هو أنه يُصلح بالعلم ما يُفسده البعض بالجهل ، ويحارب بنور الحقيقة ظلام الأوهام والشعارات التى تطلق بغير علم أو تحقيق أو يقين ، وهو ما نبه إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : «إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً» .

الشيخ الشعرأوى وخصومه *

الشيخ محمد متولى الشعراوى
مفكر إسلامى كبير لم تشهد مثله
بلادنا العربية والإسلامية منذ الشيخ
محمد عبده والشيخ على عبد الرازق ،
وان كان لا يعد تنمة أو استمرارا لهما
من ناحية فكرهما ، وإنما للرجل فكره
الخاص واجتهاداته الخاصة التى
تجعله نسيج وحده . وقد استطاع
بفضل هذا الفكر والاجتهادات أن
يستحوذ على اعجاب مئات الملايين من
المسلمين ، ويصبح فى حد ذاته ظاهرة
فى حياتنا الفكرية الإسلامية .

ولأن الرجل مفكر إسلامى ذو
شعبية وجماهيرية ، ولأن أفكاره
 واجتهاداته لا تتفق فى بعض الأحيان مع
آراء كثيرين من المفكرين العلمانيين ،
فقد كان من الطبيعى أن تحدث معارك

* الوفد فى ١٩٨٩/١/٩

فكرية بين هؤلاء المفكرين والشيخ ، يحاولون فيها رد الشيخ إلى آرائهم ، ويحاول ردهم إلى رأيه ، وكل ذلك كان يتم فى إطار كريم لا ابتذال فيه . وكانت آخر المعارك مع الدكتور يوسف إدريس والأستاذ أحمد بهاء الدين، ولم تحدث فيها خسائر !

ولكن مع تدهور مستوى الحوار الفكرى فى بلادنا فى السنوات الأخيرة ، برزت ظاهرة جديدة غريبة ، هى محاسبة الشيخ على ما لم يقله ! وليس على ما قاله ، والاختلاف مع الشيخ على ما لم يبد فيه رأيا بدلا من الاختلاف معه حول آرائه . وأخذ كل طالب شهرة يتحرش بالشيخ لينال منه بأية صورة من الصور ، حتى ولو كان التحرش حول مالىس للشيخ يد أو دور فيه .

وهذا أسوأ لون من ألوان الحوار تشهده المعارك الفكرية ! انه أشبه بمن يهاجم مؤرخا مثلى بأنه لم يتصد لكتابة تاريخ اليابان وأندونيسيا وبورما ! أو أنه لم يتصد لكتابة بعض فترات تاريخ مصر الهامة - بدلا من أن يهاجمنى لأنى أخطأت فى تصوير واقعة معينة أو شخصية تاريخية . كما أنه أشبه بمن يهاجمنى لأنى لم أتصد لتفنيد رأى تاريخى معين ، أو تصحيح واقعة محرفة ، ويتغافل عن كل ما كتبتة أو فندته أو صححته .

وهذا ما دفع كاتبنا مثلى ، ربما كان آخر من يدافع عن الشيخ الشعراوى ، لافتراق آرائنا فى أمور كثيرة بحكم اختلاف منهج التفكير الذى ينتمى كل منا إليه - إلى التصدى لدفع الافتراءات التى كتبها كاتب يزعم التقدمية والناصرية ضده فى مجلة «الاذاعة والتليفزيون» فى عدد

١٧ ديسمبر ١٩٨٨ حتى يتعلم هؤلاء الكتاب كيف يستخدمون المنهج العلمى فى الحوار ، بدلا من الطعن والغمز واللمز الذى يسىء إليهم أكثر مما يسىء إلى الشيخ .

نعم ، فلست أظن أنه يسىء إلى الشيخ هذا الغمز الرخيص من نوع أن الشيخ «ظهر فجأة» ! - أى كأنه ظهر من المريح ' أو كأنه لم يكن يخدم العلم والدين فى وطن عربى إسلامى آخر هو المملكة العربية السعودية .

أو غمزا رخيصا آخر من نوع أن الشيخ «كان أحد وسائل تهدئة الجماهير أثناء أحداث يناير المعروفة ! فمثل هذه الإدانة - حتى لو كانت صحيحة - لايقوم بها إلا كبار «الفوضويين» - وأنا أقصد الكلمة الأخيرة بمعناها الفلسفى الذى لا يفهمها الكاتب به ، وليس بمعناها الدارج - لأن أحداث يناير ١٩٧٧ لم تكن ثورة عقائدية يقودها عقائديون ، وإنما كانت هبة تلقائية يقودها كل من هب ودب من الصغار والكبار ، واستغلها الرجعيون الفاشيون لضرب القوى اليسارية وتوجيه التهمة لها بأنها دبرت هذه الأحداث - وهذا ما كتبتة فى حينه فى مجلة «صباح الخير» تحت عنوان : «حتى لا يفلت الجانى مرتين» . إذن فحتى لو كان الشيخ الشعراوى أحد وسائل تهدئة الجماهير فى ذلك الحين ، فهو دور يحسب له ولا يحسب عليه ! - ولكن العقلية التى كتبت هذا اللغو تتصور أن كل شغب ينتج عنه حريق ودمار هو الثورة الاشتراكية الكبرى فى روسيا ! وأن التصدى لهذا الشغب يستحق الادانة ! .

كذلك لست أظن أنه مما يسىء إلى الشيخ الشعراوى أن يلقي عليه مثل ذلك الكاتب مسئولية ظهور التيارات المنحرفة التى تشوه الإسلام ،

وتتخذ العنف والإرهاب والقتل سبيلا لتكبير المجتمع كله ووقف تطوره والعودة به إلى الكهوف - على حسب قوله - بججة أن أفكار الشيخ لم توقف هذه التيارات ! .

أو على حد قول الكاتب : «لأبد من التساؤل البريء عن تزايد الأفكار المتطرفة والمتخلفة - وليست القيم الإسلامية الأخلاقية الصحيحة - في هذه الأوساط ، رغم كل ما كان يقوله الشيخ الشعراوى كل هذه السنوات ، كل يوم ، على كل شاشة ، وفي كل ميكروفون ، وفي ملايين الصفحات التى نشرت كلماته وصوره بأكثر مما نشرت صور أى مفكر أو أى نجم أو أى لاعب كرة أو حتى أى رئيس أو ملك عربى» !

نعم لا يسىء هذا الكلام إلى الشيخ الشعراوى ، لأنه لم يزعم فى يوم من الأيام أنه زعيم هذه الجماعات ، أو أنها تهتدى بهديه وتأت به ، وأنه - بالتالى - يملك عليها مثل هذا التأثير . كما أن الكاتب يتصور أن أفراد هذه الجماعات يعشقون الجلوس إلى دروس الشيخ الشعراوى ليتعلموا منه ، بدلا من الجلوس إلى أمرائهم المنحرفين الذين يلقنونهم ما يشاءون من أفكار دينية منحرفة ، وينصحونهم بعدم الاستماع إلى ما لا يتفق مع هذه الأفكار .

ولكن الكاتب يسىء إلى نفسه إذا أنكر أن مئات الملايين من المسلمين الذين يستمعون إلى الشيخ الشعراوى ، والذين يلتفون حول عاموده الرمزي - أو أريكته التى يشاهدونها فى وسائل الاعلام مثل التلفزيون والراديو والصحيفة اليومية ، والذين سحرتهم شخصيته وأداؤه - أو ما يسمى بلغة السياسة : «الكاريزما» - انما هم - فى واقع الأمر - مئات

الملايين من المسلمين الذين شدتهم شخصيته وعلمه بعيدا عن الأفكار الدينية المنحرفة التي تدعو إليها تلك الجماعات الارهابية ، وأن هذا الدور الايجابى التاريخى للشيخ - دور توجيه الشعور الدينى الإسلامى المتغلغل فى قلوب المصريين والعرب والمسلمين فى كل مكان إلى الوجهة الصحيحة التى تتفق مع قيم الإسلام الصحيحة ، بدلا من أن تجذبه التيارات المنحرفة التى تتخذ من الدين مطية إلى أغراضها السياسية .

فإذا قلل الكاتب من شأن هذا الدور المجيد ، فإنه يقلل فقط من قدرته وامكاناته على التحليل الصحيح . وإذا تساءل : ما الذى كان يقوله الشيخ كل هذه السنوات التى ظهرت فيها التيارات الدينية المنحرفة ؟ فيكفى القول بأن الشيخ كان يقول شيئا مختلفا عن الشيء الذى كانت تقوله التيارات المنحرفة ، وأن نجاح الشيخ فى شد الجماهير الإسلامية إلى ما يقوله ، هو - فى حد ذاته - فشل لما تقوله التيارات المنحرفة ، وهو حماية لهذه الجماهير مما تقوله تلك التيارات ، وهو تحصين لها ضد تلك الأفكار ، لأنه شد لهذه الجماهير إلى ما يقوله كتاب الله بالفعل ، وليس إلى ما تقوله تلك الجماعات من تفسيرات ضالة للخوارج وغيرها ، وهو شد لهذه الجماهير إلى السنة الصحيحة والتفكير الإسلامى العقلى السليم ، وهو دعوة إلى هذه الجماهير لاستخدام عقلها وإدراك المعجزة اللغوية الكبرى المتمثلة فى كتاب الله

ومن هنا يُعرض الكاتب نفسه للسخرية حين يندد بالجماهير التى تستمع إلى الشيخ ، لأنها لا تناقشه فيما يقول ! ويتساءل عن « السبب الغامض » الذى دعا علماء الدين فى الأزهر الشريف ومفتى عام الديار المصرية ورجال الدين الأجلاء المستنيرين إلى عدم مناقشة الشيخ فيما يقول ؟

فالكاتب يتصور أن الشيخ يقول هذا أو ينطق إلحادا وكفرا لأنه لا يستطيع التفرقة بين المانفستو الشيوعى والقرآن الكريم ! بدليل أنه يبرز جمع الشيخ بين المسحيين واليهود والشيوعيين فى قوله إنهم لم يذوقوا «حلاوة الإسلام» ، ويبدى دهشته لهذه « الجرأة المدهشة » - فى رأيه - ويتساءل عن « من يتحمل مسئولية دعوة الشيخ لإخواننا المسحيين وحتى اليهود لكي يذوقوا حلاوة الإسلام ؟ .

وينسى فى كلامه جماعات التبشير التى غزت أفريقيا لتدعو المسلمين إلى أن يذوقوا حلاوة المسيحية ، ويذوقوا معها حلاوة الاستعمار !

ويحاول إرهاب الشيخ فكريا باتهامه بزرع فتنة طائفية ، كأن الشيخ جند الجنود وكون المليشيات للاعتداء على الكنائس وتخریب بيوت الأقباط! مع أن ما يقوله الشيخ يقوله كل ذى عقيدة مخالفة للدين الإسلامى ، إذ يتمنى أن يذوق الآخرون حلاوة عقيدته .

ولكن إلى هذا الحد يرفع البعض سيف الإرهاب الفكرى ، وإلى هذا الحد لا يستطيع البعض التفرقة والتمييز بين فكر الشيخ الشعراوى وفكر جماعات الإرهاب الدينى المتطرفة ، فيهاجم الشيخ بشكل مقزز جدا ، حتى إنه يسخر من كلمة «حلاوة» التى استخدمها الشيخ فى وصف الإسلام ، وهى كلمة رقيقة وعذبة ، فيصفها بأنها كلمة فيها «فجاجة وخفة» ! وينقلب إلى داعية إسلامى ومتفقه كبير فى الدين ، فيصفها بأنها «لاتليق بجلال الإسلام» ! ، وأن الكلام عن «حلاوة الإسلام» هو ضد الإسلام وضد مبادئه السامية (هكذا !)

والخلاصة أنه من حسن حظ الشيخ الشعراوي أن يهاجمه بعض الأقسام على هذا النحو البذيء ، لأن مثل هذا الهجوم يتيح الفرصة لذوى الضمائر أن يحددوا موقع الشيخ وأهميته التاريخية ، فى هذه الحقبة المعاصرة من حياتنا المليئة بالقلق السياسى والاجتماعى والاقتصادى والدينى .

عودة إلى الشيخ الشعرای وخصومه *

عندما كتبت مقالی فی جريدة الوفد يوم ٩ يناير ١٩٨٩ عن : « الشيخ الشعراوى وخصومه » ، كنت لا أقصد سوى الدفاع عن الشيخ ضد هجمة تترية ظالمة يتولاها بعض طلاب الشهرة تحت اسم «التقدمية» ، ويسوقون فيها أشد ألوان الافتراءات ضد الشيخ ، ويقدمون مفاهيمهم المريضة السقيمة لجمماهيرنا على أنها المفاهيم الصحيحة، ويجردون الشيخ من فضله وفضائله ، ويلصقون به أشنع الاتهامات ، وعلى رأسها «الفتنة الطائفية» .

وقد كنت حريصا فى هذا الدفاع ، فلم أزعم أننى أتفق مع الشيخ فى كل اجتهاداته وفكره ، بل لعلى قلت بصراحة إننى «ربما كنت آخر من يدافع عن الشيخ الشعراوى ، لافتراق آرائنا فى أمور كثيرة ، بحكم اختلاف منهج التفكير الذى ينتمى كل منا إليه» . وكان فى ذهنى أن الشيخ لا يوافق على

٢ الوفد فى ١٩٨٩/١/٣٠

كثير من آرائى العلمانية ورؤيتى للمجتمع الحديث ، كما أننى لاأتفق معه فى بعض اجتهاداته فى هذا الشأن .

ولكنى ضد كل افتراءات تركب موجة التقدمية تساق ضد الرجل ، وتزعم أنها تستخدم المادية الجدلية ، مع أن المادية الجدلية تحرص كل الحرص على ألا تعزل الظاهرة عن اطارها ، حتى لاتسوء الحكم عليها ، كما أنها تحرص أيضا على التعرف على الدور التاريخى لكل طبقة أو كادر قيادى أو زعيم شعبى أو حركة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية .

ومن هنا فقد حرصت على أن أحدد الدور التاريخى للشيخ الشعراوى فى هذه الفترة من فترات تاريخنا الاجتماعى ، التى تتلاطم فيها أمواج الجماعات الدينية المتطرفة ، وتتتابع واحدة وراء أخرى ، وهى جماعات شرسة تريد أن تغتال وحدتنا الوطنية المقدسة التى هى أساس قوميتنا المصرية ، وتستخدم فى ذلك اسم الإسلام وتفسيرات الخوارج المنحرفة للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، لدعم تأثيرها الضال فى نفوس الشباب .

وقد حددت الدور التاريخى للشيخ الشعراوى فى هذه الفترة بأنه النقيض لدور الجماعات الإسلامية ، فهو يشد الجماهير الإسلامية إلى ما يقوله كتاب الله بالفعل ، وليس إلى ما تقوله تلك الجماعات من تفسيرات مضللة ، كما يشد الجماهير إلى السنة الصحيحة والتفكير الإسلامى العقلى السليم ، ويدعوها إلى استخدام عقلها وإدراك المعجزة اللغوية الكبرى المتمثلة فى كتاب الله - وبالتالى حماية مجتمعنا الإسلامى من الوقوع تحت تأثير تلك الجماعات المضللة التى تريد - كما قلت - اغتيال وحدتنا الوطنية المقدسة .

على أن بعض الاخوة الأقباط رأى فى بعض ما قلته دفاعا عن الشيخ الشعراوى ، ما يخالف قصدى وما ألفوه من دفاعى المستميت عن الوحدة الوطنية والعلمانية ، فكتب إلى بعضهم خطابات عتاب ، استنادا إلى

بعض العبارات التي وردت في مقالى ، ربما كان أكثرها تعبيراً هو الخطاب الذى وصلنى من الأستاذ عماد كامل من الاسكندرية، وفيه يقول: «أعجبنى فى البداية أسلوبكم الساحر وحججكم القوية التى استهللتكم بها المقال ، واسترسلت فى القراءة بنهم وأعجاب ، إلا أننى ، وقبل أن أقترب من نهاية المقال ، هالنى ما كتبت ، وصدمت بعبارة كأنها الصفة ، فهى تشتمل على منطق مغاير لما عهدناه فيكم من صدق المواجهة . فقد أوردت عبارة الكاتب محمد جلال : «من يتحمل مسئولية دعوة الشيخ لإخواننا المسيحيين كى يذوقوا حلاوة الإسلام ؟ » ، وتساءلت : «هل نسى جماعات التبشير التى غزت أفريقيا لتدعو المسلمين كى يذوقوا حلاوة المسيحية ، ويذوقوا معها حلاوة الاستعمار» ؟ . ثم تهزأ سيادتكم من قول الكاتب أن مثل هذه الأقوال من الشيخ قد تزرع الفتنة الطائفية .. إلى آخره .

«وأريد يا سيدى أن أسألك بكل صدق : هل تريد حقيقة من الشيخ الشعراوى أن يبدأ فى القرن الخامس عشر الهجرى تبشير المصريين الأقباط بدين الإسلام ؟ وإذا كنت أنت نفسك تدمغ هذا السلوك بأنه سياسى مغرض لأنه استعمارى ، فما هو ياترى هدف الشيخ الشعراوى من ذلك ؟ . وهل يستوى وضع الأقباط .. وهم بالطبع من المصريين ذوى الحضارة والثقافة الممتدة من آلاف السنين ، مع أولئك الأفارقة المقصودين فى مقالك ، والذين يعيشون فى ظلام دامس من الجهل والتخلف - أى أنهم تربة خصبة لمن يريد التبشير أو التكفير بأى دين أو عقيدة أو مذهب ؟

«إن ما أسمعه من الشيخ الشعراوى يثير فى نفسى أقصى درجات الغضب والحزن والرغبة فى الهجرة من بلدى ، لأن الشيخ الشعراوى لا يكتفى أبداً بشرح مبادئ الإسلام والحث على الالتزام بتعاليمه ، وإنما يتجاوز ذلك دائماً إلى مهاجمة عقائد الآخرين . بل إنه حتى إذا دأبته

للبيان الأخير مع الشيخ الغزالي والشيخ الدكتور الطيب النجار ، انفراد وحده دونهم وبغير مبرر بالتعريض بعقيدة المسيحيين - عقيدة التثليث : «الايمان أن تؤمن بإله واحد» .

وكننت أطمع من كبار الكتاب أمثالك ، أن يردوا هذا الرجل إلى الأسلوب الصحيح ، الذي ينبغي أن يتحلى به رجل الدين - ولكن للأسف فغالبيتكم - عدا قلة مثل الأساتذة أحمد بهاء الدين وصالح حافظ وفيليب جلاب - يريدون استثمار شعبيته لصوالح خاصة بكم ، بغض النظر عن الآثار المدمرة التي تحدثها أقواله في نفوس الملايين من المسيحيين .

«الخلاصة أننى حزين أن ينضم من هو فى مثل مكانتك الثقافية للموجة العدوانية السائدة فى بلدنا تجاه عقائد الأقلية . والغريب أنك تتساءل : هل مثل هذه الأقوال تزرع الفتنة الطائفية ؟ وهل ألف الشيخ ميليشيا .. إلى آخره . طبعاً يا سيد ، يا رجل الفكر ، فالنزعة العدوانية المادية تبدأ دائماً بالفكر المشوش والتحريض المستمر ، وأى جماعة أو ميليشيا طابعها العنف والعدوان المادى ، يظاهرها ويغذيها بالطبع مثل هذه الأفكار التى تزرع الكراهية والحقد والتوجس بين أبناء الوطن الواحد» .

انتهى خطاب السيد عماد كامل ، ولتصدقنى يا سيدى أننى دهشت لخطابك بأكثر مما دهشت أنت لمقالى!

أولاً ، لأنك اعتبرت دفاعى عن الشيخ الشعراوى ضد مفتريات خصومه، «استثماراً لشعبية الشيخ لصوالح خاصة بى !» - بدون أن تتحقق أولاً مما إذا كان دفاعى عن الشيخ دفاعاً وحيها ومبنيها على أساس سليم أم لا . ومعنى ذلك أن قضية الافتراء على الشيخ لاتهمك فى قليل أو كثير ، وأنت تعتبر الدفاع عن الشيخ ضد هذه المفتريات دفاعاً مغرضاً «لتحقيق صوالح خاصة» وليس دفاعاً عن الحق !

ولست أظن أن هذا الموقف يعد موقفاً ديموقراطياً ، لأنى لم أنكر على خصوم الشيخ مهاجمتهم له بالحق لما يبيده من آراء ، ولم أتدخل إطلاقاً

فى أى معركة دارت بينه وبين الكتاب الذين هاجموه ، طالما أن الخلاف يدور حول آراء أبدأها لا تتفق مع آراء المهاجمين . ولكنى تدخلت عندما رأيت مستوى الحوار يتدهور ، وبدأت محاسبة الشيخ على ما لم يقله وما لم يبد فيه رأيا ، بل محاسبته على انتشار الجماعات الإسلامية المتطرفة ! وتشويه صورته بالباطل ، ومحاولة إرهابه بالزعم بأنه يهدد الوحدة الوطنية !

فلقد تراءى لى أن هذا الهجوم على الشيخ هو هجوم مغرض تحركه قوى من اليمين المتطرف واليسار المتطرف ، وكلاهما تؤذيه شعبية الشيخ.

فلم يكن خافيا على الجماعات الدينية المتطرفة تدمير الشيخ من آرائهم المتطرفة التى تهدد الوحدة الوطنية بالفعل ، وهو ما اتخذ أخيرا صورته العلنية فى البيان الذى أصدره الشيخ بالإشتراك مع كل من الشيخين الفاضلين : الغزالي والطيب النجار - وهو البيان الذى حدد موقف الشيخ تحديدا بليغا من الجماعات المتطرفة التى تريد تمزيق الوحدة الوطنية لهذه الأمة .

فإذا جاء المقال الذى رددت عليه فى الوفد ليزعم أن الشيخ هو الذى يهدد الوحدة الوطنية ، وإذا جاء كاتب هذه الرسالة يردد هذا الكلام ، فليس لى إلا أن أبدى أسفى لفهم الأمور على هذا النحو ، لأن مثل هذا الفهم هو الذى يهدد الوحدة الوطنية بالفعل ، وهو - فى هذه المرة - لا يأتى من الجماعات الدينية المتطرفة ، وإنما يأتى من الجانب الآخر !

وفى الحقيقة أننى لم أقتنع بما ذكره السيد كاتب الرسالة من أن دعوة الشيخ أصحاب العقائد الأخرى إلى أن يذوقوا حلاوة الإسلام فيه ما يدفع الأقباط إلى الهجرة من مصر ، وإنما هى مبالغة غير مستحبة ، لأنه يكفى ألا يذوق المسيحيون حلاوة الإسلام فتنتهى القضية بالنسبة لهم ، دون حاجة إلى الهجرة من بلدهم التى عاشوا فيها طوال أربعة عشر قرنا - خصوصا ولم تصحب دعوة الشيخ المدافع والجيش التى

صحبت دعوة التبشير التي غزت أفريقيا وغيرها لتدعو تلك الشعوب إلى تذوق حلاوة المسيحية .

وعلى سبيل المثال فلا يمكن مقارنة هذه الدعوة من الشيخ بالاضطهاد الذي تعرض له الأقباط في مصر منذ ألفين من السنين على يد دقلديانوس وغيره ، فتحملوا في سبيل عقيدتهم القهر والعذاب والموت ، ولم يفكر واحد منهم في الهجرة من بلده كما فكر صاحب الرسالة .

وفيما يبدو أن صاحب الرسالة عاش خارج مصر سنوات طويلة حتى يظن أن الشيخ ظاهرة فريدة ! أو أنه ينسى أن مصر كانت - منذ العشرينيات من هذا القرن - تعج بالجماعات الإسلامية التي تريد القضاء على النظام السياسي العلماني الذي أرساه دستور ١٩٢٣ والدساتير التي جاءت بعده ، وإقامة دولة دينية إسلامية - ابتداء من جماعة الإخوان المسلمين وجماعة شباب محمد وانتهاء بجماعة الجهاد ! ولم يهتز الأقباط في مصر لهذه الدعوات لأنهم يعرفون أن يد الدولة العلمانية القوية تستطيع أن تحمي الوحدة الوطنية من أي تهديد .

ومن هنا تأتي فائدة المنهج الجدلي ، الذي لا يعزل الظاهرة عن محيطها ، وإنما يضعها في إطارها الصحيح ، ولا يبالغ في تفسيرها مبالغة ضارة .

ومن هنا أيضا دفاعي عن الشيخ الشعراوي ، ليس باعتباره بابا قبطيا - فهو داعية إسلامي أولا وأخيرا - وإنما باعتباره الشيخ الشعراوي الذي يقف في وجه الأفكار الدينية المتطرفة ، ويصد بشعبيته وثقله الديني تيار الجماعات الإسلامية المتطرفة التي تهدد الدولة العلمانية، وتمزق الوحدة الوطنية ، وتريد أن تدفع - بنزقها وجهلها وطيشها ونزعتها الاجرامية - البلاد إلى هوة ليس لها قرار .

اغتيال الحجوب في الميزان التاريخي *

يعتبر الاغتيال السياسى من ألوان
النضال الوطنى والقومى ، ولكنه أخط
هذه الألوان ! لأنه قائم على الغدر ،
وقتل العزل ، وسفك دم الأبرياء
المحيطين بالضحية السياسية المختارة .
ونتائجه سلبية لكل من القضية
السياسية التى يتم الاغتيال السياسى
لخدمتها ، ولن ارتكب هذا الاغتيال ،
سواء كان فردا أو أفراد . وخسائره
تشمل الطرفين - أى أنها تشمل كلا من
الضحية ومن قاموا بالقتل من شباب
كانوا ضحية بدورهم لمن حَقَنوهم
بالأفكار الاغتيالية وأوهموهم بفائدتها
للمصلحة العامة .

الاغتيال السياسى - إذن - مأساة
تشمل المجنى عليه والجانى ، فكل
منهما يفقد حياته ، الأولى بالاغتيال ،
والثانى بالعقاب - العقاب الجنائى أو
العقاب الإلهى - . كما تشمل المأساة
الوطن أيضا ، لأنه يفقد دماء بنيهِ بدون

* أكتوبر فى ٢٨/١٠/١٩٩٠

أية فائدة من وراء ذلك . فلم يثبت التاريخ أن وطننا تحرر ، أو أن قضية انتصرت باغتيال فرد ، مهما كان موقع هذا الفرد فى قيادة البلد ، اللهم إلا إذا كان شعب هذا البلد شعبا من شعاب ! وإنما يتحرر الوطن ، وتنتصر القضية بالنضال الشعبى وحده ، وبحسن استغلال الظروف المحيطة بالقضية .

ومن سوء حظ الشباب الذى يقع ضحية للقوى السياسية صاحبة المصلحة فى الاغتيال - وهو عادة شباب متحمس لخدمة الوطن - أنه يجد من القوى السياسية الفاشية النزعة من يمجّد أعمال العنف الفردى والاغتيال السياسى ، ويحيط مرتكبيها بهالات من البطولة والفخار .

فمنذ أعوام قليلة رفعت الصحف المصرية ، الفاشية النزعة ، سليمان خاطر إلى مرتبة البطولة ، لأنه قتل سبعة أفراد عزل من السلاح ، تحت ذريعة أن هؤلاء الأفراد اسرئيليين ! رغم اعتراف سليمان خاطر بأنه لم يكن يعرف أنهم اسرئيليين ، واعترافه بأنه لم يكن ينوى القتل ، واستدلاله على ذلك بأنه لو كان ينوى القتل لكان فى مكانه قتل المئات بمدفعه الرشاش على الشاطئ ، بدلا من أن يكتفى بقتل سبعة أفراد .

وقد استطاعت هذه الصحف الفاشية تهيج طلبة الجامعات ، بهذا الأنموذج المزيف من البطولة ، فكادت تحدث فتنة بين الشباب لاتبقى ولا تذر ، لولا أن تصدت أقلام لهذا الوهم الذى تشيعه الصحف الفاشية ، ووقفت الدولة موقفا حاسما أنقذ البلاد .

ولم يكن غريبا أن يتأثر بعض الشباب بهذا الأنموذج من البطولة ، ويتوق إلى أن يمسك فى يده بمدفع رشاش يقتل به من يرى أنه يستحق القتل ، وهو أعزل من السلاح ، ولا بأس بأن يقتل بعض من حوله من الأبرياء الذين شاء سوء حظهم أن يقذف بهم إلى مكان التنفيذ .

وقد استخدمت منظمة التحرير الفلسطينية سلاح العنف الفردى والاغتيال السياسى على مدى تاريخها ، فما حررت أرضا ، ولا هزت شعرة واحدة فى جسد الاحتلال الاسرائيلى ، بل لم تثبت أقدام هذا

الاحتلال فى يوم من الأيام كما تثبتت فى عهد نضال منظمة التحرير! وكانت اسرائيل سعيدة بهذا النضال ، وكانت حين تقتل المنظمة اسرائيليا واحدا ، تقتل اسرائيل عشرة فلسطينيين أو أكثر .

وحين قتلت المنظمة يوسف السباعى لم تقع الخسارة على اسرائيل ، وإنما وقعت على مصر التى فقدت شهيدا ، كما وقعت على الفلسطينيين الذين ظلوا تحت الاحتلال الاسرائيلى !

كذلك حين قتلت بعض فرق المنظمة عصام صرطاوى لم يتحرر شبر واحد من الأرض الفلسطينية المحتلة ، وإنما خسر الفلسطينيون واحدا من أنصج القيادات المناضلة وأخلصها لقضية الوطن الفلسطينى .

وعلى مدى التاريخ المصرى الحديث ، أى منذ أن كانت هناك حكومة مستقرة ، سواء كانت حكومة وطنية أو حكومة احتلال ، لم يُسقط الاغتيال السياسى حكومة وطنية ، ولم يخرج الاحتلال !

فلم تخرج الحملة الفرنسية من مصر بسبب قتل سليمان الحلبي القائد الفرنسى كليبر ، وإنما خرجت بسبب ثورة القاهرة الأولى وثورة القاهرة الثانية ، وبسبب الصراع الدولى . ولم يفعل قتل كليبر أكثر من أنه قدم للمصريين أنموذجا ديموقراطيا لم يعهدوه من قبل ، وهو محاكمة قاتل كليبر ، بدلا من تنفيذ الحكم عليه بدون محاكمة - كما كان التقليد السابق !

وخطورة الاغتيال السياسى تكمن فى أنه نتاج تفكير فرد واحد أو مجموعة من الأفراد تتوهم فى نفسها الكفاءة والصلاحية لكى تقرر للوطن ما ينفعه وما يضره ، فتكون النتيجة أنها تضر الوطن أكثر مما تنفعه .

والمثال على ذلك مقتل السردار لى ستاك ، الذى وقع لخدمة القضية الوطنية ، فأصابها بنكسة لم تبرأ منها .

فقد ذهب تفكير المجموعة التى نفذت الاغتيال إلى أنه بعد أن فشل سعد زغلول فى تحقيق الاستقلال عن طريق المفاوضات ، فى الوقت الذى

كانت أعمال العنف فى السودان مستمرة ، لم يبق لاقناع بريطانيا بأن مصر لا تزال تدب فيها حياة ، سوى الاغتيال السياسى . فقررت اغتيال السردار لى ستاك ، قائد عام (سردار) الجيش المصرى وحاكم عام السودان ، ونفذت هذا الاغتيال بالفعل يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ .

وقد فتح هذا الاغتيال باب جهنم على الحركة الوطنية بدلا من خدمتها ! فقد أسقط حكومة سعد زغلول الوطنية ، وأخرج الجيش المصرى من السودان ، وقطع الصلة بينه وبين الجيش السودانى الذى أصبح تحت قيادة الحاكم العام للسودان ، وأرغم مصر على دفع مبلغ نصف مليون جنيه بعملة تلك الأيام ، أى أكثر من ١٣٦ مليون جنيه بالعملة الحالية (كان الجنيه المصرى يساوى جنيها ذهبيا يضاف إليه قرشان ونصف!) كما زاد من مساحة الأقطان التى تزرع فى الجزيرة فى السودان من ثلثمائة ألف فدان إلى مساحة غير محددة ، وحرّم مصر من الاعتراض على أية اجراءات تتخذها سلطات الاحتلال لحماية المصالح الأجنبية فى مصر .

وقد ترتب على ذلك أن شهدت فترة ما بعد اغتيال السردار لى ستاك انحسارا فى الحركة الوطنية بعد أن كانت قد بلغت ذروتها فى عهد حكومة سعد زغلول ! وفى السودان شهدت بداية انسلاخه عن مصر .

ومن الغريب - رغم كل هذه الخسائر الجسيمة التى أصابت مصر من حادث اغتيال السردار - أن أحدا من المؤرخين لم يدن هذا الحادث غير صاحب هذا القلم . فقد قلت فى كتابى «تطور الحركة الوطنية فى مصر» الجزء الأول :

«إن حادث اغتيال السردار يجب أن يؤخذ على أنه أنموذج لما يمكن أن يلحقه العمل الفردى من ضرر ماحق بالقضايا الوطنية مهما قدم لها من خدمات» ، ، وقلت : إن وزن هذا العمل الفردى فى دفع عجلة الحركة الوطنية إلى الأمام لم يكن شيئا يذكر ، فقد كانت الحركة ماضية فى

طريقها به أو بدونه ، وإن الوزن الحقيقي لحادث اغتيال السردار هو أنه تشابك في عجلة الحركة الوطنية ، فعرقلها ثم أدارها إلى الوراء .

وعلى طول الأربعينيات استخدمت جماعة الاخوان المسلمين الاغتيال السياسى فى نضالها الوطنى ، فألحق بها من الخسائر الفادحة ما كانت جديرة بتجنبه لو أنها اتبعت طريق الدعوة السابق على إنشاء الجهاز السرى . وقد كان على رأس هذه الخسائر ، اغتيال القصر الشيخ حسن البنا ، كرد على اغتيال النقراشى باشا ، وقيام المحنة الاولى للاخوان التى شهدوا فيها عذابا لا يتصوره بشر . ثم جاءت محاولة اغتيال عبد الناصر فى يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ ، لتفتتح المحنة الثانية ، التى شهد فيها الاخوان عذابا لا يتصوره الجن ! ثم جاءت مؤامرة ١٩٦٥ ، التى شهدوا فيها محنتهم الثالثة ، التى استتابتهم تماما ، وتحولوا بعدها من جماعة ارهابية إلى جماهير برلمانية .

ولم تستفد جماعات التكفير من درس الاخوان المسلمين ، فقتلت «جماعة المسلمين» لشكرى مصطفى ، المعروفة باسم «جماعة التكفير والهجرة» ، المرجوم الشيخ الذهبى ، فلم يغير هذا الاغتيال نظام الحكم فى مصر ، ولم يُقم الحكومة الإسلامية ، وإنما كان الشئ الوحيد الذى فعله هو أنه أنهى حياة شكرى مصطفى نفسه على حبل المشنقة ، وقضى على الجماعة قضاء مبرما .

ثم جاء اغتيال السادات ، فلم يُسقط الحكم فى مصر ، بل ازداد قوة على يد الرئيس محمد حسنى مبارك ، ولم تسقط معاهدة السلام مع إسرائيل ، بل تدعمت ، ولم تسقط سياسة الانفتاح ، بل توطدت ، ولم تتعزز قوة الجماعات الإسلامية بل أصيبت بضربات قاصمة ، ولم تكن فكرة إقامة الحكومة الإسلامية فى يوم من الأيام أبعد مما أصبحت بعد مقتل السادات ، وسقط كل من اشتركوا فى تنظيم الجهاد ، وقدموا للمحاكمة وتلقوا العقاب .

وقد لجأت جماعة «الناجون من النار» إلى الاغتيال السياسى ، وحاولت قتل كل من النبوى اسماعيل وحسن أبو باشا ، ومكرم محمد أحمد ، فلم تفلح فى شىء أكثر من تقديم نفسها لقمة سائغة لسلطات الأمن ، وقدموا إلى المحاكمة ، وتلقوا ما يستحقونه من عقاب . ولم تقم الحكومة الإسلامية ! .

وفى كل حوادث الاغتيال السياسى الذى ارتكبته بعض الجماعات الإسلامية ضد بعضها الآخر ، لم يترتب عليها أية قوة اكتسبتها الجماعة القتالة ، بل ترتب عليها تصفية هذه الجماعة ، والقبض على القتلة ، وتقديمهم للمحاكمة وتلقيهم العقاب ، ولم تقم الحكومة الإسلامية ! .

ومن المحقق أن مرتكب الاغتيال السياسى هو مجرم أصلا ، يتمتع بكل صفات المجرم ، وقد هيا له العمل السياسى الفرصة لاعلاء اجرامه وممارسته تحت شعارات القضية السياسية التى يعتقد أنه يحارب من أجل نصرتها . بدليل أنه لا يوجد سياسى سوى يتمتع باكتمال الشخصية يلجأ إلى اغتيال خصومه ! وبدليل أن مثل هذا المجرم السياسى لايهتم كثيرا بما إذا كان الاغتيال الذى قام به قد أدى دوره فى خدمة القضية التى يناضل من أجلها أم أنه لم يؤد هذا الدور ، فكل ما يهمله أنه قد حقق بالفعل اشباع غريزته للقتل .

وكنا نتمنى أن نجد دراسة سيكولوجية واجتماعية لشخصيات القتلة السياسيين ، توضح لنا سماتها العامة وأصولهم الاجتماعية والأسباب التى دفعتهم إلى القتل .

وعلى سبيل المثال فلا يستطيع أحد أن يزعم أن اغتيال المرحوم الدكتور رفعت المحجوب قد حقق أى غرض سياسى ، اللهم إلا خدمة نظام مبارك ! . فإذا كان الغرض من اغتيال الرجل الثانى فى الدولة ارهاب الرجل الأول ، فيعلم الجميع أن الرئيس مبارك ، هو مقاتل أصلا ، وليس ممن يرهبهم مثل هذا العمل ، إذ كيف يرهب القتل رجلا كان طيارا مقاتلا تعرض للقتل مئات المرات وعاش وهو يضع رأسه على كفه ؟

وكيف يحمله هذا القتل على الاحجام عن موقف سياسى اتخذه لخدمة بلده ؟

وإذا كان المقصود من القتل اللواء محمد عبد الحليم موسى ، وزير الداخلية ، فلم يكن هذا ليرغم خلفه على الخوف وعدم تتبع القتلة ، أما ولم يتعرض وزير الداخلية للقتل ، فسوف تدفعه جريمة اغتيال الدكتور المحجوب إلى القتال بشراسة لعدم تكرار هذه الجريمة سواء فى شخصه أو فى غيره * .

وفى الواقع أن اغتيال المحجوب قد خدم النظام خدمة لا تقدر بثمن . فقد كشف عن الثغرات الرهيبة فى نظام الأمن فى البلاد ، وفضح صورية إجراءات الحراسة وقوات الحراسة التى تستخدمها الدولة أو تستخدمها المؤسسات الخاصة ، وأوضح أن قوات الحراسة لاتزال تعيش بعقلية حراس المحمل النبوى الشريف ! أى العقلية التى تنظر إلى الحراسة على أنها مظهر من مظاهر الديكور والزينة ، وليست وظيفة حيوية لحماية أمن الدولة وحماية رجال الدولة .

كذلك فضحت عملية اغتيال الدكتور المحجوب أننا نملك جهاز أمن يعيش فى القرن التاسع عشر ولا يعيش فى القرن العشرين ، وأنه ينسى كل ما طرأ على العمليات الإجرامية فى العالم من تطور بل ثورة ، فلا هو جهاز مدرب ، ولا هو جهاز يملك امكانيات الكشف الحديثة فى العالم المتقدم ، ولا هو جهاز يصلح لأكثر من مواجهة محترفى الإجرام الجهلة الذين لم يتمرسوا بالعمليات الإجرامية الحديثة .

ومن الغريب أنه كان لدينا جرس إنذار منذ بضعة أشهر ، لم يفلح فى إيقاظ جهاز الأمن عندنا من سباته ! ويتمثل جرس الإنذار هذا فى حادث الأوتوبيس الاسرائيلى فى طريق الاسماعيلية ، الذى عجز جهاز الأمن عن كشف مرتكبيه ، كما عجز عن الاستفادة منه فى تحديث وسائل

* ثبت من التحقيقات التى أجريت مع المتهمين بعد القبض عليهم ، أن هدفهم كان اغتيال وزير الداخلية

الاتصال ، وتطوير ردود الفعل الأمنية لمواجهة مثل هذه الحوادث ،
وتطوير وسائل التقصى والكشف وغير ذلك ، أو إنهاء التسبب القائم فى
جهاز النيابة العامة وجهاز الاسعاف وغير ذلك من الأجهزة . الأمر الذى
كان صدمة للمواطنين على اختلاف مستوياتهم .

ومن هنا جاء حادث اغتيال الدكتور رفعت المحجوب لى يوقظ جهاز
الأمن فى بلدنا إلى ما يعانى من قصور ، وهو قصور لا يتحمل مسئوليته
فقط محمد عبد الحليم موسى ، وإنما يتحمل مسئوليته جميع وزراء
الداخلية قبله الذين تربعوا على جهاز أمن متخلف دون أن يناضلوا من
أجل اصلاحه .

وهكذا اتخذ محمد عبد الحليم موسى من حادث مصرع المحجوب
فرصة لى يطالب بزيادة ميزانية الداخلية بمقدار ٤٠ مليون جنيه فى
الميزانية التى تبلغ نحو ٧٣ مليون . وذلك لشراء أجهزة ومعدات حديثة
لتزويد قطاعات الأمن بها ، وتزويد جنود وضباط الحراسات الخاصة
بأحدث الأجهزة لمقاومة عمليات الارهاب - وذلك بعد أن تبين أن معظم
المعدات والأجهزة التى تمتلكها وزارة الداخلية غير صالحة للاستخدام ،
وإنما تصلح للزينة !

والأمر أخطر من تحديث الأجهزة والمعدات ، انه أمر تحديث العقلية
التي تملك الأجهزة والمعدات وتستخدمها ! ، لأن كل فرد من أفراد شعبنا
يعرف أن من يشاهدهم من أفراد قوة الحراسات هو نوع متخلف العقل
والتدريب ، وأنهم أشبه بخيال المائة الذى ينصبه الفلاحون لتطفيش
العصافير ، وأن ردود فعل هذا النوع من رجال الحراسات لى هجوم
لا يمكن أن يتواكب مع سرعة الإرهابيين فى التعامل فى هذه الظروف ،
فقد لا يفيق الفرد منهم للاستجابة لى هجوم والتعامل معه قبل أن يكون
قد مات ودخل الجنة !

وبطبيعة الحال فليس الذنب على عاتق أفراد الحراسات المساكين ،
إنما يقع على عاتق المسكين الأكبر الذى يوزع هؤلاء على المنشآت العامة

وفى رفقة الشخصيات ، دون أن يكون قد درّبهم على وظيفتهم التدريب الكافى ، وأجرى لهم المناورات العديدة للتحقق من امكانية قيامهم بواجبهم .

نعم ، ان هذا المسكين الأكبر كان عليه أن يعرف أن جنديا جاهلا بئسا لا يصلح إلا للحراسة فى الموالد والأفراح والمآتم ، وأن جندي الحراسة يجب أن يكون من نوع خاص ومن ثقافة خاصة وتعليم وتدريب خاص ، ويعامل ماديا معاملة خاصة .

ولست فى ذلك أبالغ ، فإننى أدعو بعض المسئولين الكبار أن يقوموا بجولة بسيطة فى وسط القاهرة دون أن يكشفوا عن شخصياتهم ، ويشاهدوا بأنفسهم نوعية رجال الحراسات أمام المواقع الهامة ، ليكتشفوا بأنفسهم أنهم آخر من يصلح لمهمة الحراسة !

ومن سوء الحظ أنه كان أمامنا فرصة زمنية كبيرة للقيام بهذا التدريب فى عشرات السنين التى مضت ، ولكن العقلية الزراعية لرجال الأمن لا تعترف بالتدريب وحسن الاختيار لأداء المهام ، وهى لا تفرق بين جندي يصلح للحراسة وجندي يصلح للزينة ، فكانت النتيجة أن ما لدينا حاليا هم أصلح للزينة منه للحراسة !

فحتى وقوع حادث اغتيال المرحوم الدكتور رفعت المحجوب كنت أعتقد أن وجود كاميرا سريعة الالتقاط مع جماعات الحراسة الخاصة هو أمر ضرورى ، يفيد حتى فى الكشف عن شخصيات الارهابيين إذا خابت فرصة القبض عليهم ، وأن مثل هذه الكاميرات تعتبر جزءا من المعدات التى يحملها أفراد القوة ، حتى جاء خبر الفرنسى السائح الذى التقط صورة المجرمين بألة التصوير الخاصة به لتكشف عن هذا النقص فى تجهيز قوة الحراسات .

والمشكلة كلها تتمثل فى أننا نفيق عادة متأخرين ، بعد أن تكون الأحداث قد سبقتنا ، وبعد أن يكون الزمن قد سبقنا .

ومن سوء حظ هذا الشعب أن العقلية التي رتبت لحرب أكتوبر كانت عقلية عابرة في حياتنا ، فلم تتكرر ، كأنما كانت عقلية مستوردة من الخارج ، مع أنها كانت عقلية مصرية صميمة . وليتنا نستعد لأعداء الداخل بنفس الكفاءة التي نستعد بها لأعداء الخارج !

ظاهرة الحجاب في مجتمعنا المعاصر : حجاب على الرأس أم على الفكر ؟

* أكتوبر في ٢/٦/١٩٨٥

في حياة الكاتب رسائل من قرائه ،
بعضها يمر مر السحاب ، وبعضها
يعمر طويلا ، لأنه يعبر عن شيء مميز
لا ينسى ، وفي حياة الكاتب صداقات
مع قرائه ، قد تفوق الصداقات
الشخصية توطدا ورسوخا ، لأنها
صداقات فكر مجرد من المعاملات
والعواطف الشخصية التي تتأثر بالغيرة
والحسد أحيانا ! .

وقد لا تكون هذه الصداقات نابعة
من اتفاق في الفكر ، بل من احترام
للرأي الآخر ، وهي نوع فريد من
الصداقات .

ومنها تلك الصداقة التي تربطني
بقارئ سبق أن رددت عليه على
صفحات أكتوبر تحت عنوان : «رسالة
من قارئ رجعي» ! ، وهو قارئ عزيز
يرفض أن يذكر اسمه ، ولكنه يتذكرني
بين الوقت والآخر برسالة من رسائله

التاريخية ، يسرد فيها بعض معلوماته التاريخية على الفترة الملكية ، التي أحس بنبض الذكريات فيها .

وقد كان آخرها رسالة رقيقة جدا ، بمناسبة مقال لى كشف عن عشقى للموسيقى الغربية الكلاسيكية ، وقد قدم لى فيه نصائح ثمينة بالاستماع إلى عديد من السيفونيات والكونشرتوات والسوناتات لهاندل وباخ (الأب والابن) وفيفالدى ، بل أرشدنى إلى أفضل فرق الأوركسترا التى تقوم بعزف هذه القطع فى أوربا ! ، وتحدانى إذا كنت قد سمعت عن سيمفونية لبيتهوفن باسم «سيمفونية المعركة» ، قدمها تخليدا لذكرى هزيمة نابليون فى معركة ووترلو ، وتمجيда للقائدين اللذين هزماء فى هذه المعركة ، وهما ولنجتون وبلوخرا .

وقد كسب التحدى ، لأنى - فى الحقيقة - لم أسمع بهذه السيمفونية، رغم قضائى نصف وقتى فى لندن كل صيف فى المحلات الضخمة التى تباع شرائط واسطوانات الموسيقى الكلاسيكية وغيرها ، بحثا وتنقيبا . وقد تأثرت لأن اصراره على عدم كتابة اسمه وعنوانه ، قد حرمنى من توجيه الشكر له على عنايته بالكتابة إلى ، وان كنت قد أحسست بدفع الصداقة التى تربطنى به ، وأدعو الله له بالصحة والسعادة والتوفيق .

وهذا الخطاب الذى أنشره فى هذا المقال خطاب غريب ، لأنه لم يوجه إلى مباشرة ، ولم يرسل إلى مجلة « أكتوبر » وإنما أرسل باسم صديقى الأستاذ عادل البلك ، ومع ذلك فلم يتناوله بحرف واحد ، وإنما كان الخطاب موجها إلى ، احتجاجا من الكاتبة ، واسمها نانسى أحمد عويس ، وتعمل مدرسة لغة انجليزية بكلية الطيران - على ما اعتبرته هجوما منى - فى مقال المنشور فى « أكتوبر » بتاريخ ٢٨ ابريل ١٩٨٥ - على الحجاب والمحجبات ! . ويمضى على النحو الآتى :

«أبعث» إليك هذه الرسالة ، والله أعلم إذا كانت ستلقى عندك أى اهتمام ، لأنها فعلا موجهة « لكلمة حق » ، وموجهة بالذات لمجلة أكتوبر ،

التي نشر بها مقال مؤلم للدكتور عبد العظيم رمضان ، بعنوان : «جرائم الاغتصاب بين مصر وتونس » فهذا المقال به فقرة أصابتني بالذهول والألم .. إنه يقول بالحرف الواحد :

« نقول ظاهرة عامة (يقصد الحجاب) لأنه لا يمثل جوهرًا عامًا ، بدليل التردى الخلقى الذي تكشفه الصحف بين الحين والحين ، الذي يختلف تحت هذا المظهر العام . ففي غياب التربية الإسلامية الحقيقية لا يصبح الحجاب ظاهرة صحية ، فقد يُظهر غير ما يبطن ، ويسمح للداء بأن يسرى في الجسد الاجتماعي دون اكتشاف » .

أقسم بالله أنى حتى الآن لا أفهم ما يعنيه الكاتب الكبير ، هل يعنى أن « تحت السواهى دواهى » - كما تقول العامية - وأن المحجبات فاسقات ؟ . ارحمونا يرحمكم الله .. هل هذا هو جزاء من تطيع الله سبحانه وتعالى أن يقال عنها : « يظهر غير ما يبطن » ؟ ، وأى داء يسرى في الجسد الاجتماعي دون اكتشاف ؟

أقسم بالله أنى حتى الآن لا أفهم ما يعنيه الكاتب الكبير ، هل يعنى أن « تحت السواهى دواهى » - كما تقول العامية - وأن المحجبات فاسقات ؟ . ارحمونا يرحمكم الله .. هل هذا هو جزاء من تطيع الله سبحانه وتعالى ، أن يقال عنها : « يظهر غير ما يبطن » ؟ ، وأى داء يسرى في الجسد الاجتماعي ! .

«نحن لا ننكر أن بعض المحجبات ينقصهن بعض السلوك الإسلامى السليم ، كخفض الصوت ، والاقلال من الضحك . ولكن هل هذا يعنى أن المحجبة أصبحت من الواقعين تحت طائلة القانون ، لأنها ارتكبت فعلا فاضحا بطاعتها لله ؟ . اتقوا الله وانظروا كم من الجرائم ترتكب بسبب تبرج الفتيات ، وابتعدوا عنا يرحمكم الله .

« الكاتب الكبير يقول أيضا فى مقاله : إن بالتربية الإسلامية السليمة سترتدى الفتاة الحجاب رغبة لا كرها ! . من أبلغ سيادته أن

الفتيات يرتدين الحجاب فى هذه الأيام كرها ؟، الا اذا كان يقصد اكراه أهاليهم (لهن) على تقبل الأمر الواقع بقبول ارتدائهن الحجاب ! .

« لقد لا حظت أن كثيرا من الناس يقولون : أليس من (الأفضل) أن تكون الفتاة مراعية لله فى تصرفاتها ، وغير محجبة ، أحسن من أن تكون محجبة وتجب سيرة الناس ؟ . وفاتهم أن يقولوا : الأفضل أن تراعى الله فى تصرفاتها ، وتكون أيضا محجبة ! .

«حقيقة أنا أشعر بالسأم والتقرؤ مما جاء فى هذه المقالة . لقد افترى علينا سامحه الله . ما قاله ليس بشئ هين . وأقول : حسبى الله ونعم الوكيل ، لأنى لأستطيع أن أجد ما يعبر عن ألى وحزنى» .

انتهت رسالة نانسى أحمد عويس ، وهى تفيض - كما يلاحظ القارئ - بمشاعر حقيقية لم تستطع الكاتبة أن تكتمها فى صدرها ، فأفضت بها إلى بطريق غير مباشر . وهى بالتالى تستحق النشر والتعليق .

والملاحظة الأولى هى فرط الحساسية من صاحبة الرسالة لتفسيرى لظاهرة الحجاب . ولقولى انه لايمثل جوهرنا وإنما هو مجرد ظاهرة ، واستدلالى على ذلك بالتردى الخلقى الذى تكشفه الصحف بين الحين والحين ، الذى يختفى تحت هذا المظهر العام - ذلك أن نقض هذا الكلام يكون بالتدليل على أنه ليس ثمة ترد خلقى يعانىه مجتمعنا رغم كل المظاهر الإسلامية التى تلفت نظر زواره عند نزولهم القاهرة لأول مرة ! . فهل هذا صحيح ؟ .

إن الخلق الذى أعنيه هنا هو الخلق الإسلامى الذى نص عليه القرآن والسنة ، والذى ربى به الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين ، واستطاعوا به أن ينساحوا من شبه الجزيرة العربية غربا إلى المحيط الأطلنطى ، وشرقا إلى بحر الصين ، وشمالا إلى جبال البرانس والألب ، وجنوبا إلى قلب أفريقيا - أعنى الخلق الإسلامى الذى يقوم على أن «الدين المعاملة» . و«أحسن» ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن

الخلق.» ، «ومن غش أمتى فليس منى» . والذي يدعو الناس إلى «الكلمة الطيبة» ، واتقان العمل والأمانة في الأداء ، والحرص على المال العام ، والابتعاد عن الكذب والنفاق والتكالب على المال بكل الطرق الشريفة وغيرها ، وهو الخلق الذي يدعو إلى احترام إنسانية الفرد ، والحرص على مصلحته وتفضيل صالح المجتمع العام ، وعدم استغلال حاجة الناس ، وعدم ظلم الإنسان لنفسه وللناس ، وخشية الله طول اليوم ، وليس فقط على سجادة الصلاة ! .. الخ .

هذا هو الخلق الإسلامى الذى أعنيه ، أو هو بعض أساسيات هذا الخلق ، فالإسلام عقيدة شاملة على المسلم أن يلتزم بها كلها ، ولا ينتقى منها ما يريد ويترك ما يريد ! .

وبالتالى فهو ليس مجرد حجاب ترتديه الفتيات والسيدات فيدرجن في الحال فى سلك المسلمات المتدينات ! - وإنما الحجاب مجرد مظهر لجوهر أساسى يجب أن تتحلى به الفتاة أو السيدة - وهو جوهر الدين الصحيح - وبدون هذا الجوهر تصبح الفتاة المحجبة مسلمة مظهرا ، وغير مسلمة جوهرًا ! - وبالتالي فالحجاب فى حد ذاته ليس دليلا على أى شىء ! .

وهذا ما دعانى إلى أن أقول إنه «فى غياب التربية الإسلامية الحقيقية لا يصبح الحجاب ظاهرة صحية ، فقد يظهر غير ما يبطن ، ويسمح للداء بأن يسرى فى الجسد الاجتماعى دون اكتشاف» !

كلامى - إذن - هو دعوة إلى التربية الإسلامية الصحيحة ، التى هى أساس الخلق الإسلامى الصحيح ، وليس هجوما على المحجبات ، واتهامهن بأنهن فاسقات ! - كما فسرت صاحبة الرسالة كلامى خطأ !

وهو دعوة إلى المحجبات ألا يكتفين بالحجاب لظهار اسلامهن ، بل لابد من السلوك الإسلامى الصحيح فى حياتهن الخاصة والعامة ، لأنه الأساس الصحيح للإسلام ، وأكثر من ذلك أنه الأساس الصحيح لتقييم المسلمة ! فما الذى يثير تقزز نانسى أحمد عويس فى هذا الكلام ؟ .

ومن هنا ، فالحجاب هو عنصر مكمل لدين الفتاة ، وليس بديلا له !
وأنا أقيم طالباتي حسب الجوهر لا المظهر ، فإذا رأيت الجوهر والمظهر
معا إزداد احترامى للطالبة ، لأنى أعلم أنها لبست الحجاب رغبة لا كرها ،
ولكن احترامى - فى نفس الوقت - لا يقل للفتاة المحتشمة التى تسلك
سلوكا إسلاميا صحيحا فى تعاملها مع أساتذتها وزملائها والمجتمع
الذى تعيش فيه ، فالمهم أنها لا تثير الغرائز بملابسها ، ولا تحرك أطماع
الذين فى قلوبهم مرض .

هذا الاحتشام هو المطلوب - فى رأى المتواضع - وهو الذى نادى به
المصلحون من أمثال الشيخ محمد عبده والشيخ حسن البنا .

فليس مطلوباً منا أن نرغم الفتيات والسيدات على لبس ملابس
انتهى عصرها التاريخى بانتهاء علاقات الانتاج التى أفرزتها . فالمجتمع
الاقطاعى له ملابس التى تنتهى بانتهائه لتبدأ ملابس جديدة تتفق مع
مقتضيات العصر الرأسمالى أو الاشتراكى الصناعى ، بحيث تعمل الفتاة
فى المصنع وتشارك الفتى فى قاعات الدرس ، وتذهب إلى مكان عملها
فى عربات المواصلات المكتظة بالركاب . ولكن فى كل أطوار المجتمع
البشرى فالاحتشام هو المطلوب أيا كان نوع الزى السائد فى عصره .

ومن سوء حظ الشعوب الإسلامية أنها تركت الجوهر وركزت على
المظهر ، ولذلك فهى تستحق المركز الذى تحتله بين الشعوب العالم -
أقصد فى أدنى شعوب العالم ! . ولأن هذه الشعوب لا تعرف الجوهر فهى
تفسر الدين تفسيرا متعصبا ، يكبل الإنسان بقيود من فولاذ ، ولا يدع له
مجالا للتنفس فى الحياة .

لذلك فإنى كثيرا ما أنصح طالباتي المحجبات بألا يدعن الحجاب
يلتف حول عقولهن وأفكارهن ، وأن يحرصن على إلتفافه حول الرأس
فقط ! .

وفى خطابى الذى أوجهه للطلبة والطالبات فى افتتاح العام الدراسى
من كل عام - بوصفى عميدا لكلية التربية - أحرص على أن أدعوهم

وأدعوهن إلى أن يكونوا ويكن دعاة تحرر فى بلادنا وليسوا دعاة انغلاق وتحجر وتزمت ! ، وأن يطلقن فى تلاميذهن وتلاميذهن روح البحث واحترام العقل ، بدلا من روح النقل الأعمى والاستسلام للتفسيرات الضارة لديننا ، التى أخضعت الشعوب الإسلامية للاستعمار ، بعد أن كانت تسود العالم وتملؤه بالعلم والخير والعقيدة الصالحة ، وجعلت هذه الشعوب تتقاتل فيما بينها بدلا من أن تقاتل عدوها .

موقفى إذن مع جوهر الدين لا مع شكله ، لأننى على يقين من أنه إذا توافر هذا الجوهر للفتاة المسلمة ، فإنه سوف يحميها ويحمي غيرها بأكثر مما يفعل الحجاب على رأس فتاة لا يتوافر لها هذا الجوهر ! فالفضيلة تضافى على صاحبته هبة ووقارا واحتراما فى عين ناظرها والمتعاملين معها بأكثر مما يضيفه أى حجاب .

وهذه الفضيلة يشعر بها الرجل فى قرارة ضميره وقلبه من السلوك الإسلامى الصحيح ، وليس من أى حجاب متأنق ترتديه الفتاة ! .

وهذه الفضيلة أيضا هى التى تكشف للرجل إذا كان الحجاب نتيجة اقتناع صحيح أو أنه نتيجة ضغط من الأهل أو المجتمع أو الظروف الاقتصادية .

ولكن نانسى أحمد عويس تنكر مثل هذا الضغط ، وتقول مستنكرة : «من أبلغ سيادته أن الفتيات يرتدين الحجاب فى هذه الأيام كرها ؟» . إذن فهى ترى فى الحجاب مظهرا لجوهر ! ، فما تكاد الفتاة ترتدى الحجاب حتى تفرض على المجتمع النظر إليها باعتبارها مسلمة استكملت جميع شروط دينها ، أى استكملت الجوهر أولا ثم أكملته بالمظهر ! .

وهيهات أن يكون الإسلام بهذه البساطة ! . فالحجاب على رأس الفتاة وجسدها هو أشبه بملابس الكهنوت على جسد القس ، أو ملابس الشيوخ على جسد علماء الأزهر والوعاظ ، فهذه الملابس لم تمنع الكنيسة فى العصور الوسطى من الوقوع فى حمأة الفساد والرذيلة ، وعلى

رأسها البابا نفسه - باعتراف جميع المؤرخين الأوروبيين - كما أنها لم تمنع علماء الأزهر من التمتع بحياة دنيوية كاملة والافتتان بحياة المال واللهو - باعتراف الجبرتي ! .

ومن هنا فالحكم على الإنسان من خلال مظهره مبدأ خطير ، لأنه يجعل الناس يركنون إلى المظهر ، ويدعون الجوهر ! ومن هنا فإذا كانت الفتاة المحجبة لا تتصرف تصرفاً إسلامياً حقيقياً ، فإنها تكون قد ارتدت الحجاب قهراً : إما تحت ضغط أهلها ، وإما تحت ضغط المجتمع ، أو مختلف الضغوط الاقتصادية .

وأناضد أى ضغط يمارس على حرية الفرد ، لأنى مع التربية السليمة التى تدفع الإنسان إلى انتهاج السلوك السليم من تلقاء نفسه .

والفتاة فى مجتمعنا الشرقى تتعرض لضغوط من الرجل متوالية تتناول شتى نواحي حياتها الاجتماعية ، بل تتناول جسدها الذى خلقها الله عليه بالتشويه ! فهى ما تزال فى ذهن الرجل تعيش فى عصر الحريم ، مهما برز منها من تزامم مع الرجل فى كل مجال من مجالات العمل ، بل والتفوق عليه فى كثير من نواحي العمل ! . ومع ذلك - وب عقلية عصر الحريم التى يعامل بها الرجل المرأة - فهو ينكر عليها أى حق كفه لها الشرع .

ولأنه هو الذى يملك فى يده سلطة التشريع ، فهو يفسر الشرع كما يشاء ، مما يبقيها على الدوام حيث كانت فى عصر الحريم .

وهذا ما تبدى واضحاً من صيحات الانتصار التى تعالت فور صدور حكم المحكمة الدستورية بعدم دستورية قانون الأحوال الشخصية رقم ٤٤ لسنة ١٩٧٩ ، وقد تعالت بالذات من الدوائر الرجعية التى تنتمى إليها نانسى أحمد عويس ! - التى توهمت أنها استعادت سيطرتها على المرأة كما ظلت طوال عشرات القرون ، أما الدوائر الأخرى - التى تنقز نانسى أحمد عويس من كلامها ! - والتى تقف إلى جانب حقوق المرأة وتحريرها

وانتشالها من الوضع الاجتماعى المهين الذى وضعها فيه الرجل على مدى قرون ، فقد وجمت وأصابها الذهول ، لأن المرأة فى نظرها هى الأم وهى الزوجة وهى الابنة وهى الشقيقة وهى الزميلة ، ولأنها المرأة التى أتاح لها الإسلام مكانة رفيعة فى المجتمع ، ولكن الكثيرين لا يزالون يعيشون بعقلية وأد البنات ! .

وقصارى القول أنه إذا كانت رسالة نانسى أحمد عويس دعوة إلى الحكم على الفتاة من خلال مظهرها ، فليست معها بحال من الأحوال ، أما إذا كانت تفترض أن يكون جوهر الإسلام الصحيح مستقرا فى صدر الفتاة قبل ارتدائها الحجاب ، وإذا كانت تفترض اقتناع الفتاة بالحجاب قبل إرتدائها له ، وإذا كانت تستنكر أن تقع الفتاة تحت أى ضغط من أى نوع لكى ترتدى الزى المحتشم الذى تظهر به ، فإنى معها قلبا وقالبا ، ولا يوجد بيننا خلاف ! .

1

الحجاب بين التشهير والترشيد ! *

فتياتنا المحجبات أصبحن شديداً
الحساسيات من أية مناقشة لظاهرة
الحجاب ، فهن يتصورن الهجوم عليهن
وراء كل تعليق لكاتب أو حوار لمفكر ،
وهن يرفضن رفضاً باتاً أى محاولة
للربط بين المظهر والجوهر ، ويردن
مناقشة كل قضية على حدة ! على
اعتبار أن الحجاب هو أمر إلهي - كما
كتبت لى القارئة رشا بالثالثة الثانوى
بالاسكندرية - أو كما كتب لى طالب
ببكالوريوس هندسة الاسكندرية ، يدعى
أحمد محمد محمد ، يقول :

«الحجاب للفتاة والمرأة المسلمة
واجب لازم ، شأنه فى ذلك شأن
الصلاة لكل فرد مسلم ، فهو ليس
مجال اختيار واختبار ، ولا هو من
السلوكيات التى تترك للإنسان لى
ينتهجها من تلقاء نفسه . وهذا الكلام
ليس من عندى ، وإنما هو من خالقى
وخالقك : خالق المرأة والرجل» .

* أكتوبر فى ١٤/٧/١٩٨٥

ومن ثم فإذا تصرفت المحجبة - وفقا لهذا الرأي - بما لا يتفق مع مظهرها ، فتلك قضية أخرى تناقش على حدة ! والمهم أنها قد أطاعت ربها بارتدائها الحجاب وأظهرت إلتزامها ، وهذا فى حد ذاته انجاز إسلامى كبير .

وهذا الكلام الذى أوردته على لسان الطالب أحمد محمد محمد ، ورد مثله فى رسائل لفتيات كثيرات ، ولكنه لم يكن بمثل الوضوح والحسم الذى ورد فى الكلام السابق الذكر . ولكن الشيء الذى انفرد به كلام أحمد محمد محمد هو اعتراضه على عمل المرأة على أساس أن هذا أيضا أمر إلهى ! . وهو يستشهد فى ذلك بالشيخ متولى الشعراوى فى حديث له بالأخبار يوم ١٩٨٥/٥/٢٥ يقول فيه إن «خروج المرأة للعمل هو هروب من مهمتها الأصلية» ! وأن هذا الخروج «يهدم المجتمع ولا يبنيه» .

ولست أدري ما رأى الفتيات اللاتى كتبن إلى ، ورأى غيرهن من المحجبات ، فى هذا الكلام عن عمل المرأة ، وهو يستند إلى رأى الإسلام كما أورده مفكر كبير مثل الشيخ الشعراوى ؟ . هل يُطعن رأى الإسلام فى مسألة الحجاب ، ويعصينه فى مسألة العمل فيؤمن - بالتالى - ببعض الكتاب ويكفرن ببعض ؟؟ أو يُطعن فى الحالتين ، ويستقلن من أعمالهن التى يشغلنها بالفعل ، ويمتنعن عن العمل إذا كن لا يعملن ؟ .

لقد كتبت إلى من قبل القارئة نانسى أحمد عويس ، التى نشرت كتابها فى مقالى بمجلة «أكتوبر» التى نشرت كتابها فى مقالى بمجلة «أكتوبر» يوم ٢ يونيه ١٩٨٥ ، تحت عنوان : «ظاهرة الحجاب فى مجتمعنا المعاصر : حجاب على رأى أم على الفكر» وهى تعمل مدرسة لغة انجليزية بكلية الطيران . وكتبت إلى الدكتورة نادية عوض كتابا سوف أنشره فى هذا المقال ، وهى تعمل طبيبة . فهل أتوقع أن تستقيل كل منهما من عملها انصياعا لفتوى الشيخ متولى الشعراوى ، لأن عملهما يهدم المجتمع ولا يبنيه ! أم تقبلا الطاعة فى مسألة الحجاب ، وتختارا المعصية فى مسألة العمل ؟

وهل أتوقع من طالبات كلية التربية بجامعة المنوفية التى أعمل عميدا لها وأستاذًا بها ، ومن كل طالبات كليات التربية الأخرى فى أنحاء مصر، اللاتى يرتدين الحجاب ، أن يمتنعن عن العمل مدرسات بعد تخرجهن ، تنفيذًا لتعاليم الإسلام كما يرى الشيخ الشعراوى ، أم يخترن تنفيذ هذه التعاليم فيما يختص بالحجاب فقط ، وعدم التنفيذ فيما يختص بالعمل ، فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض .

بل إنى أسأل كل فتاة وكل سيدة محجبة تعمل فى بلادنا : هل تقبل الانصياع لتعاليم الإسلام كما شرحها الشيخ متولى الشعراوى بعدم عمل المرأة ، وتستقيل كل منهن من عملها ، أم تفضل اتباع بعض التفسيرات الأكثر مرونة لبعض المفكرين الإسلاميين ، التى تسمح للمرأة بالعمل – وتضربن عرض الحائط بتفسيرات مفكر إسلامى كبير مثل الشيخ متولى الشعراوى يتغلغل فى كل قلب وكل عقل ؟

لقد ذكرنى هذا بقصة طريفة كنت أحد أطرافها وشهودها ، فقد كنت عضواً بمجلس المستشارين لجريدة الأهالى ، لسان حال حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى ، وحضرت اجتماعاً مشتركاً مع مجلس التحرير ، بعد زيارة الرئيس الراحل السادات للقدس ، وقد حضر الاجتماع الصديق الدكتور حسن حنفى مبتهاجا ، يحمل رداً على ما ذكره الرئيس السادات فى أسباب زيارته للقدس من أنه أراد أن يصلى فى المسجد الأقصى ! . وكان هذا الرد يتمثل فى نحو عشرين فتوى لكبار الفقهاء الإسلاميين تقرر أن الصلاة فى الأرض المغتصبة تعتبر حراماً قبل تحريرها ! . وقد أراد نشرها فى جريدة الأهالى ليعلم السادات أن صلاته فى المسجد الأقصى كانت حراماً .

ونظراً لخطورة النشر ، وما قد يستتبعه من ردود فعل عنيفة من الرئيس السادات ، فقد جرى جدل كبير حول جدوى النشر من عدمه ، وكان من رأى الدكتور أحمد خلف الله ، وهو مفكر إسلامى كبير ، أن هذا النشر يقذف بالحزب فى دائرة المعسكر الثانى ! لأن السادات لن

يعدم من علماء الأزهر من يأتى له بمائتى فتوى تبيح وتحبذ الصلاة فى الأرض المغتصبة قبل تحريرها ! . وطلب البعض حسم المسألة بالتصويت، فقلت ضاحكا : إننى أعتقد أنه لو نشرت فتاوى الدكتور حسن حنفى فسوف «نصوت» جميعا على «الأهالى» ! - بمعنى الولولة والصراخ ! ، ولم تنشر الفتاوى ، ولست أدري هل ما زال الصديق حسن حنفى يحتفظ بها ، أو أنه استكملها بالفتاوى المضادة التى تبيح الصلاة فى الأرض المغتصبة ؟

أروى هذه القصة لإظهار خطورة تمسك البعض من شبابنا باجتهادات بعض المفكرين الإسلاميين إلى درجة التقديس ، واعتمادها على أنها الاجتهادات الصحيحة التى لا يأتىها الباطل بين يديها ولا من خلفها ، واغلاق عقولهم عن الاجتهادات الأخرى كأنها رجس من عمل الشيطان ! . فقد قيل قديما «اختلفهم رحمة» - أى أن اختلاف الفقهاء رحمة بالناس ، لأنه يتيح للناس اتباع الأسهل من الفتاوى من جهة ، ولأنه يحفزهم على استخدام عقولهم فى فهم الدين واتباع ما يتفق مع مصالحهم حسب العصور المختلفة .

وقد كنت من أكثر من احتكوا بالفتاوى من غيرهم ، فقد قضيت فى صغرى أربع سنوات فى الأزهر نزولا على إرادة أبى - قبل أن أهرب منه إلى الأبد لكى أصنع مستقبلى العلمى كما يروق لى ! وقد رأيت العجب العجاب !

فهل سمع أحد أن زواج الرجل من ابنته من سفاح حلال ؟ . ولكن هذا هو رأى فى فقه الشافعية ، استنادا إلى أنه «لا حرمة لماء الزنا» ! ولمن يريد أن يتأكد من هذا الرأى الرجوع إلى كتاب : «النهاية» للعلامة أبى الفضل ولى الدين البصير ، وهو شرح على «متن الغاية والتقريب» للقاضى أبى شجاع الأصفهانى (الجزء الثانى ص ١٣٧ مطبعة حجازى بالقاهرة)

ويمكن أيضا الرجوع إلى كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» لإدراك مدى تعدد الآراء والفتاوى فى أمور الدين ، بل يمكن الرجوع إلى التفاسير المختلفة للقرآن الكريم !

وهذا هو السبب فى رأى الذى طرحته فى مقالى السالف الذكر عن الحجاب ، وهو الرجوع إلى المبادئ العامة للدين ، والاهتداء بها فى إطار ظروف حياتنا المعاصرة ، بدلا من الرسف فى أغلال الفتاوى المتناقضة لكبار الفقهاء والتى بلبلت شبابنا وقسمتهم شيعا متناحرة ، وصرفناهم عن جوهر الدين الصحيح الذى لا يختلف فيه أحد .

ومن هنا فإذا كانت الفتاة تراعى الاحتشام فى لباسها ، وتراعى الفضيلة فى تصرفاتها ، أفلا تكون قد حققت جوهر الدين الصحيح ؟ وهل يبقى مجال للفصل التعسفى بين المظهر والسلوك ، كلاهما ينبعان من الأمر الإلهى لصالح البشر ؟»

على أنى - مع ذلك - أقبل بترحاب وجهة النظر التى عبرت عنها القارئة الدكتوراة نادية عوض فى رسالتها الآتية ، التى أنشرها من باب الإعجاب والتقدير ، على الرغم من أنها تضع القضية فى شكل حجاب وخلاعة ، وليس فى شكل حجاب واحتشام كما وضعتها فى مقالى ، ولست أظننى أكره اقبال الفتاة على الحجاب عن اقتناع ، ما دامت تجد من الأسباب الاجتماعية أو الاقتصادية ما يدعوها إلى ذلك . وإلا إذا كانت المسألة من باب الالتزام الدينى فعليها أن تقبل كافة الالتزامات إذا أرادت استكمال دينها !

فقد كنت اليوم - وهو الذى أكتب فيه هذا المقال ، رأس لجنة تأديب بالكلية لمحاكمة من ارتكبوا الغش فى الامتحان ، وكان ممن مثلوا أمام اللجنة بعض الطالبات المحجبات ! وتمنيت فى قرارة نفسى لو استكملن دينهن بالامتناع عن الغش ، وتجنبن الاضرار بأنفسهن على هذا النحو ، فالتمسك بجوهر الدين هو لمصلحة البشر على وجه التحقيق ، وهو

العصمة الحقيقية لكل مسلمة ولكل مسلم ، وإلى القارىء العزيز الآن
رسالة الدكتورة نادية عوض
الدكتور / عبد العظيم رمضان
بعد التحية ..

«بعد الألم ، الذى فاق ألم كل مريض أعالجه .
«بعد قراءة مقالكم المنشور فى أكتوبر - عدد ١ يونيو - أكتب
لسيادتك ، وليس لدى أدنى أمل فى وصول أهاتى ، كقارئة تتألم من هذا
الذى ينشر فى صحافتنا بين يوم وآخر :
«ظاهرة الحجاب !

«أضبط ! محجبة تضحك فى الطريق العام !
«اضبط ! محجبة ترتدى حجاباً أنيقاً .. «لايخلو من لمسات أنثوية»!
«أين شرطة الآداب لتضبط محجبة تسير مع شاب أطلق لحيته دون
وجود دبلة «زواج» تربط .. بينهما؟

«هذا الكلام ليس من عندى ! لقد نشر - حيناً - بقلم الأستاذ أنيس
منصور ، وحيناً آخر بقلمكم ! وطبعاً الهدف التشهير والظلم والادانة من
طرف واحد ، حيث القارىء لا يملك رداً .

« ألم أقل لسيادتك إن الأمل تفوق كل آلام مرضاى ؟
أدعوك ، لا للاستماع إلى دفاعى ، بل لتوضيح الحقيقة .
«يظن البعض - وهم كثرة - ان الحجاب يعنى التجرد التام ، أو
محاولة التجرد التام من كل الأخطاء !

«هذه الفكرة خاطئة ! الحجاب يا سيدى بداية الطريق لأى مسلمة ،
بل لأى إنسانة تحترم نفسها وجسدها . ودعنى أقول الحقيقة أكثر : إن
نسبة كبيرة من المحجبات تحجبن من منطلق تتجاهله الأقلام ، وهو بذاءة
الرجال ! ولا أقول الكل ! نسبة ليست قليلة ، فى وسائل المواصلات (إذا
كنت سيادتك وعدت بركوبها) .

«الرجل لا يحترم المرأة بالمرّة ! فى الطريق يلاحقها بنظراته الوقحة ، فى أى مكان ! الرجل - للأسف - لا يبصر إنسانية المرأة ، ولكن يدقق كى يبصر تسريحة شعرها ! فستانها ! قوامها ! عينيها ! . هل هناك من ينكر هذه الطبيعة السيئة فى الرجل المصرى ؟ - عفواً .. فى نسبة كبيرة من الرجال ؟

والحقيقة ان نفس الرجل يحمل إيمانا عظيما بالفضيلة ، ولذا فهو يقدر بكل وجدانه حجاب المرأة ، لقد التقيت منذ شهور بكاتب شهير ، بخصوص قضية تمس الأطباء ، لقد نسى الرجل قضيتى وأنبرى فى ساعة كاملة يهاجم الحجاب والمحجبات ، ويقول فى ثقة : ما هذا الرداء الذى ترتدين ؟ ان الله جميل يحب الجمال ! ثم إننى رجل ، أحب أن أرى المرأة جميلة ، شعرها جميل ، قوامها ، هذه غريزتى الطبيعية ! هل تنكرين؟ أم تتنكرين للطبيعة التى خلقنا الله بها ؟

«طبعاً كان جوابى الوحيد «الصمت» !

«هذا يدل ياسيدى على أن الرجل ، ولو أحب التطلع للمرأة السافرة المتبرجة ، يحترم فى قرارة نفسه وأعماقه من أخفت شعرها وجسدها ، حتى لو كانت لها سلبياتها التى نأخذها عليها . يكفى أنها «صدت» باحتشامها عيون الرجال ! خاصة أصحاب النظرات غير المحترمة ، فهل فىنا من ينكر أن الحجاب هو رداء الفضيلة ، وأنه يمنع معاصى شتى ؟

« محجبة تضحك ، أم سافرة تضحك ؟

« محجبة أنيقة ، أم خليعة أنيقة ؟

« من قال لكم يا سيدى إن المحجبة فتاة ملائكية ، ينبغى ألا تخطئ؟

«.. هل فىنا من لا يخطئ؟

« ألا نعانى جميعاً من الهوة بين مظهرنا وجوهرنا ؟

« هل تطفو أعماقنا بنسبة مائة فى المائة ، أم نخفى عن الكون بعض تناقض المظهر والجوهر ؟

« الكاتب ! هل يكتب ما يكمن فى جوف صدره بالضبط ؟

« لماذا ياسيدى نوجه اللوم لفئة عظيمة ضحت بالكثير - مهما تأنقت فى سبيل الله والفضيلة ؟

« لماذا نسينا بقية الفئات المتناقضة مظهرها وجوهرها ؟ لماذا نرسم للمظهر لوحة جميلة زاهية ، وننسى أن الجوهر يصعب - فى كل منا - أن يكون لوحة بلون السماء الصافية ؟»

«إن الخطأ يكمن فى هذا الاعتقاد السائد بيننا ، وهو أننا ، وأنكم يا أصحاب الأقلام ، تحكمون بالمظهر !

« مثلاً ، نحن نرسم للحاكم صورة معينة ونحن جالسون على الأرائك، نضع مواصفات الحاكم ، فإذا حاد قليلاً ، نسينا بشريتنا الخطاءة ، وانبرينا فى الهجوم ! . أليس بشراً ؟

« هكذا المحجبة : إنسانة أطاعت ربها .. فى التزام أولى وأؤكد أولى - مبادئ الدين . المظهر الذى يعطى إشارة تقول : أنا مسلمة ، أنا أحترم نفسى بهذا الرداء ، لكى يحترمنى المحيطون !

« هذه هى القضية ببساطة . والحقيقة أن الحجاب ليس «ظاهرة» تحتاج لتعليق الكتاب بين يوم وآخر .. الحجاب هو أجمل لوحة للفضيلة فى مجتمع «ملوث» . دعنى أقل ما فى صدرى : إن الأخلاقيات منهارة .

« أنظر الشباب ! .. أنظر إلى انتشار «معدلات الأمزجة» ! أنظر إلى تعاظمى المنوعات ! أنظر إلى الفساد والرشوة والمحسوبية .. أفاتنا القديمة ! أنظر إلى هبوط الفن - إذا سمى فنا - أنظر إلى الخواء الفكرى والانسانى ! أنظر إلى ضياع الضمير فى متاهات الممكن والمستحيل والمتاح ! تجد الصورة الجميلة المشرقة هى صورة فتاة محجبة تطلت عن تاج المرأة الحقيقى ، وهو الشعر .

« ذات يوم مددت يدي أصافح شابا أطلق لحيتته ، وصدمني باعتذاره! ولكن كم أكبرت هذه النماذج من شبابنا ، وأنا أرى آخرين لايفيق مزاجهم من الأوبئة المنتشرة فى مجتمعنا .

« سيدى الفاضل .

«إن اللوحة جميلة ، لاتفسدوا جمالها بالهجوم ! . لاتحولوا أذيال السلبيات إلى رؤوس أفاع تلتهم صور الفضيلة القليلة فى المجتمع اللاهى الملوث . لاتجعلوا القضية قضية فتاة محجبة تخلت عن الملائكية التى توقعتموها لترتدى ثياب البشرية .

« لنجعل قضيتنا تسجيل الايجابيات - ايجابيات الفضيلة والطهارة - . لنهاجم الخلاعة ، فإن رحلت هاجموا سلبيات الفضيلة ! . لا تظلم بقلمك بمجرد النظر ؟ لو دقت بقلبك وفكرك ، ووضعت نفسك مكان أب تخلت ابنته عن زينة الشباب والفتيات لاطهار جمالها ، وارتدت هذا الرداء، كم سيكون فخرك بها ، مهما كانت سلبياتها ؟ .

«لقد اتخذت خطوة صعبة صدقنى .. لقد حاولت اقناع زميلات لى بالحجاب فشعرن بمدى صعوبة هذا القرار على نفوسهن ! . فالمرأة تحب الزينة ! .. ألا تشعر «مثلى» بأن أى محجبة ، قد ضحت بالكثير ؟ وهى تستحق ثناءكم ، بدلا من لومكم ، وتستحق إلقاء الضوء على الايجابيات بدلا من صيد السلبيات للتشهير والادانة .

« هل نعيد للوحة جمالها بنفس الأقلام التى شوهدت - أو حاولت تشويه جمال الحقيقة ؟

« انتهى خطاب القارئة الدكتورة نادية عوض ، وهو دفاع جميل عن مظهر الفتاة المسلمة - كما يرى القارىء . ولا اعترض لى على هذا المظهر ، وانما الاعتراض على أن يتناقض هذا المظهر مع الجوهر سلوكا وعملا ، فاذا وقع هذا التناقض يكون المظهر الاسلامى قد فقد روحه ومضمونه ، ويكون قد أساء إلى صورة الاسلام وشوهدا ، لأنه يكون قد

نسب إلى الاسلام سلوكا وعملا يبرأ منه الاسلام . وفى الوقت نفسه يكون قد أساء إلى صاحبه ، لأنه يصورها فى صورة من تظهر مالا تبطن ويفقدها ما تكتسبه الفتاة الملتزمة بجوهر الدين من احترام الناس وتوقيرهم .

مظهر الدين وجوهره - اذن - وجهان لعملة واحدة .

الفتاة المصرية بين الحجاب والجينز والاغتراب *

كنت قد اعتزمت إغلاق باب الحوار في ظاهرة الحجاب عقب مقالى الأخير، لولا أن شددنى إليه الخطاب الذى وصلنى من أحد القراء ، والذى أنشره فى هذا المقال فقد أثار فى ذهنى قضية كثيرا ما كانت تشغل بالى فى أثناء قراءتى لرسائل القراء ، وهى أن بعض الناس يولدون كتابا بالفطرة ، فإذا تهيأت لهم ظروف التعليم المناسب، وتمهد لهم الطريق إلى مخاطبة رأى العام ، أصبحوا كتابا معروفين ، وإلا عاشوا طوال حياتهم فى عزلة عن رأى العام ، لا يحس بهم أحدا ! . ومن هؤلاء صاحب الرسالة التى أنشرها ، فقد أعجبني تحليله لظاهرة الحجاب إلى درجة جعلتني أرى أن حجب هذا الرأى عن رأى العام فيه ظلم لفكرة تستحق النشر ، على الرغم من أنى لا أوافق الكاتب تماما على رأيه ! .

* أكتوبر فى ٢١ / ٧ / ١٩٨٥

وقد ذكرتني رسالة هذا القارىء بحقيقة أنى تعلمت الكتابة والتعبير من خلال الرسائل التى كنت أتبادلها فى صباى مع صديق وقريب لى يحمل نفس اسمى ، فيما عدا اسم الأب والجدة طبعاً ! . فلما كان يعيش فى ميت غمر ، وكنت أعيش فى القاهرة ، كان لابد من الاتصال عن طريق المراسلة . وكان أديبا بالفطرة ، وأخذ يقرض الشعر منذ الرابعة عشرة من عمره ، واضطرت إلى مجاراته فى أدب الكتابة ، ولم أزعج فى يوم أنى تفوقت عليه ، أو أننى يمكن أن أتفوق عليه ، فهو يملك زمام اللغة كما يملكها أحسن أديب ، وهو قارىء نهم ، موسوعى القراءة - أى أنه يقرأ المكتبات العامة من أول الرف إلى آخره ، ومن الرف الأول إلى الرف الأخير ! . وكنا فى صباى نتبادل الرسائل المطولة ، التى يصل بعضها إلى عدد صفحات كراسة كاملة ! (فى ذلك الوقت كانت ٣٢ أو ٤٨ صفحة فيما أذكر !) . وكنا نطلق على هذه الرسائل المطولة اسم «أعداد ممتازة» كما هو الحال فى المجلات والصحف ! . وكانت رسائل مبهوبة مثل المجلات ، وكنا نخصص جزءاً منها لأخبار الأسرة والأخبار الشخصية ، وبعضها للكتابة الفكاهية ، والآخر للكتابة الرصينة الجادة التى نتبارى فيها فى أدب الكتابة . فكانت هذه الرسائل أول مدرسة تعلمت فيها الكتابة ! .

وأنا على يقين أنه يوجد إلى جانب عبد العظيم السباعى - وهو اسم صديقى - ألوف فى مدن بلادنا يملكون موهبة الكتابة ، ولكن لم تتح لهم الفرصة لإظهار مواهبهم ، سواء لأنهم لم يحملوا مؤهلات متخصصة ، أو لأنهم لم يملكوا الإرادة والمثابرة ، أو لأنهم فقدوا الأمل مقدماً ، وقبلوا بالهزيمة من قبل أن يحاربوا ! .

وأنا أعرف أن جزءاً كبيراً من أسباب المشكلة يتمثل فى فقر الحياة الثقافية فى مدن محافظتنا ، وسيطرة القاهرة سيطرة طاغية على بقية أنحاء القطر ! . فصحف القاهرة ومجالاتها هى وحدها التى تقرأ فى كل بقعة من بقاع مصر ، وإذاعة القاهرة هى وحدها المسموعة فى الريف

وفى المدن على السواء ، وكل عبقرية أدبية أو صحفية تسعى إلى القاهرة منذ أن تحبو لتثبت وجودها وتحتل مكانها ، ولا توجد صحافة أو إذاعة فى الريف تستحق الاهتمام ! .

وهذه ظاهرة مرضية ، لأنها سمة من سمات العصور الوسطى الزراعية الاقطاعية ، حيث يقل شأن المدن ، التى لاتعدو أن تكون مقرا للإدارة والحكم ، أما العصر الحديث البورجوازى التجارى والصناعى ، حيث تقود الطبقة البورجوازية الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وبالتالى الثقافية والعلمية والفنية والأدبية - فإن المدن تكون المقار الطبيعية لهذه الأنشطة ، ويدور التنافس بينها للوصول إلى مكان الصدارة ، ولكن لاتحتكر العاصمة كل هذه الأنشطة وتنعدم فى المدن الأخرى ، كما يحدث فى مصر .

وهذا ما يحدث فى أوروبا ، حيث تمثل كل مدينة وحدة اجتماعية وثقافية وفنية وأدبية قائمة بذاتها ، ولها هويتها الخاصة وطابعها الخاص. بل أخشى أن القرى فى أوروبا أوشكت أن تصبح كذلك بعد أن دخل معظمها التصنيع الزراعى ! .

فقد أمضيت ليلة فى قرية ألمانية صغيرة فى «الغابة السوداء» (وهى بالمناسبة ليست غابة ، وليست سوداء ، وإنما هى منطقة شاسعة بهذا الاسم) . وكانت القرية تبعد عن مدينة ستراسبورج الفرنسية بنحو خمسة عشر كيلو مترا . وعندما خرجت للتجوال مساء ، شُدْهُتْ ! إذ وجدت بهذه القرية معهدا موسيقيا على غرار معهد الموسيقى بالقاهرة ! ، وكانت أصوات الكورال تتصاعد أثناء التدريب ! . وهكذا تتكون المواهب الفنية فى الموطن الأصيل ، ولا تحتاج إلى الانتقال إلى العاصمة لتحصل على فرصتها .

على كل حال فهذا يفسر لنا حقيقة تغيب عنا دائما ، وهى أننا بعد سنوات طويلة من الحكم المحلى ، ومن الجهود التى يبذلها كثير من المحافظين ، لاتزال مدننا تعيش حياة قروية ، لاهضرية بالمعنى الغربى ،

وأن سكان المدن هم قرويون فى صميم حياتهم الاجتماعية والثقافية والفنية ، وعلى الرغم من قصور الثقافة فى معظم هذه المدن ، فإنها قصور فقيرة للغاية فى الامكانيات ، بل نستطيع أن نقول إنها فى طريق الاضمحلال ، لأن ما تستهلكه لايعوض ، ولا تلمسها يد التجديد أبدا ! .

فقد أقمت منذ أيام قلائل حفل اختتام العام الجامعى وتخريج طلبة البكالوريوس والليسانس بقصر الثقافة بشبين الكوم ، بعد أن ذلل لنا الصديق الدكتور حمدى الحكيم ، محافظ المنوفية ، كثيرا من العقبات كما عودنا دائما ، وكنت قد زرت هذا القصر منذ نحو اثنى عشر عاما ، ولاحظت هذا العام أنه يتدهور ، لأن مايفقده لايعوض ، فعلى الرغم من أنه مجهز بسماعتين كبيرتين للاستريو ، فإن احدى السماعتين معطلة ، فلا يذيع إلا «مونو» ، وبصوت ردىء يشوه جمال الموسيقى والأغاني ، وحين كان راقصو فرقة الشرقية للفنون الشعبية يضربون بأقدامهم خشبة المسرح ، كانت الأتربة تتصاعد على الفور كأنما هى مخترنة منذ افتتاحه ! .

ولعل الصديق محمد عبد الحميد رضوان ، وزير الثقافة ، يهتم بهذه القصور. ومن المفروض فى مثل هذا المسرح الوحيد أن يكون مكيفا بما يناسب أغنى وأهم عاصمة محافظة فى مصر ، ولست أدرى لماذا لا يدعو الدكتور حمدى الحكيم أثرياء المحافظة للتبرع لتجديد هذا القصر حتى يكون لائقا بعاصمتهم ؟ ، ولكنى متأكد أنهم يعتقدون أن عاصمتهم هى القاهرة وليست شبين الكوم ! ، ولعلمهم مستعدون للتبرع للقاهرة وليس لشبين الكوم !

على كل حال فقد أثارت هذه الخواطر رسالة القارىء كامل حسن كامل التى أنشرها فى هذا المقال ، والتى تشهد بنضجه الفكرى وقدرته الأدبية ، وهو يعلق فيها على الرسالة التى سبق أن نشرتها للقارئة نانسى أحمد عويس - التى أكن لها التقدير - تعليقا على ظاهرة الحجاب .

وقد كان أقرب إلى الاتفاق معى فى رأى ، وأكثر منى خلافا معها فى رأى ! . ونظرا لاشتداده فى هذا الخلاف فقد أثرت ألا أنشر هذا الجزء من رسالته ، حتى لا أثير رد فعل أشد من جانب الأنسة نانسى ! مع عزمى على الاكتفاء بما نشر عن ظاهرة الحجاب .

ذلك أننى بت أعتقد أنه لن يتم اتفاق بين أنصار الحجاب وخصومه ، أو بين المحجبات والمطالبين بترشيد الحجاب وأنا من بينهم ! . فالظاهرة ليست من ظواهر الموضة ، كما هو الحال بالنسبة للملابس القصيرة أو الملابس الطويلة أو المتوسطة الطول ، وإنما لها جذور أعمق ، وهى فى رأى أشبه «بالجينز» بالنسبة للفتاة الأوروبية .

فالجينز لم تنشئه الموضة ، وإنما أنشأته ظروف المجتمع الغربى الاقتصادية ، التى أخرجت المرأة الغربية من اطارها الأنثوى البحت ، إلى إطار العمل فى كل مجال من مجالات الحياة ، جنبا إلى جنب مع الرجل ، تشاركه وتنافسه وتتفوق عليه ، وهى ظروف المجتمع الغربى التى جعلت البيت بالنسبة للمرأة الغربية المكان الثانى ، وجعلت العمل المكان الأول ، وأصبحت المرأة الأوروبية تقضى وقتها فى الخارج بأحر مما تقضيه فى بيتها .

ومن هنا كان لابد من أن يسقط عصر الفستان ، ويقوم عصر الجينز، الذى يتيح للمرأة حرية الحركة وبساطتها دون تقييد أو تحفظ . فهى تستطيع أن تجلس به على الأرض إذا تعبت ، أو تركب به وسائل المواصلات فى سهولة ويسر ، أو تقضى به أعمالها ومشروعاتها دون خوف من التلوث ، كما أنه لباس اقتصادى تستطيع أن تلبسه طوال الشهر دون تغيير ، اللهم إلا فيما عدا بعض البلوزات والأقمشة !

هذا الدور الذى يلعبه «الجينز» فى حياة المرأة الأوروبية ، هو الدور نفسه الذى يلعبه الحجاب فى حياة المرأة المصرية . فنحن لانعنى بالحجاب هنا ما يغطى به الوجه ، وإنما نعنى به الملابس التى ترتديها الفتاة المحجبة ، والتى تتمثل فى اللباس الطويل وغطاء الرأس والعنق ،

فهذه الملابس تتيح للمرأة المصرية من حرية الحركة ما يتيحها الجينز للمرأة الأوروبية . فهو لباس اقتصادى غير مكلف تستطيع المرأة المصرية أن ترتديه طول الشهر دون تغيير ، ودونا أى انتقاد يوجه إليها . وبفضل غطاء الرأس والعنق فهي تستغنى تماما عن الزيارة الأسبوعية إلى «الكوافير» التى باتت تكلف مبالغ طائلة ، وهذه الزيارة تستغنى عنها الفتاة الأوروبية عادة بسبب شعرها الناعم ، ولا تستطيع أن تستغنى عنها الفتاة المصرية بسبب شعرها الخشن غالبا .

وهذا اللباس ليس جديدا فى حياة المرأة المصرية ، فحتى المرأة السافرة فى مدن الأقاليم لديها عادة جلابية سوداء ووشاح أسود ترتديهما فى الخروج إلى السوق أو الزيارات القريبة غير الرسمية أو المشاوير المنهكة .

وما ترتديه الفتيات المحجبات حاليا هو تطوير لفكرة الجلابية والطرحة .. فيه اللمسة الأنثوية ، إذ يسمح بالملابس الملونة بدلا من السوداء ، ويبتدع أشكالا أكثر جاذبية من الطرحة العادية السوداء كغطاء للرأس . والفكرة التى أنشأته هى نفس الفكرة التى أنشأت الجلابية السوداء والطرحة السوداء ، وأنشأت فى أوروبا الجينز .

فقد تغير سبب خروج الفتاة المصرية إلى الشارع عما كان منذ ربع قرن ، فهي تخرج للعمل أو طلب العلم ، ولا تخرج للنزهة والاستعراض ، وهذه الملابس تؤدى هذا الغرض تماما دون حاجة لإرهاق نفسها اقتصاديا عن طريق لبس الفساتين المكلفة التى يلزم تغييرها باستمرار ، ويلزم معها ما يلزم من المساحيق المكلفة أيضا .

وهنا قد يسألنى سائل : إذا كان الأمر كذلك فإن كل ما تكتبونه عن ظاهرة الحجاب أشبه بمن ينفخ فى قرية مقطوعة ! . وأرد على ذلك بقولى: أبدا ، لو أن الفتاة المصرية اعترفت بالأسباب الحقيقية للحجاب لما أثرنا قضية الحجاب أصلا ! . ولكن المسألة أن الفتاة المصرية تقول إنها ترتدى الحجاب من باب التدين وليس من باب الحاجة الاقتصادية ! .

وهذا ما جعلنا نثير قضية المظهر والجوهر ، ونقول إن الدين الإسلامى ليس مجرد لباس على الجسد ، وإنما هو تربية إسلامية وسلوك إسلامى، فإذا انتفت التربية الإسلامية والسلوك الإسلامى انتفى أى مدلول للباس الجسد ، وأن الحكم على الإنسان من مظهره انما هو مبدأ خطير ، لأنه يجعل الناس يركنون إلى المظهر ويدعون الجوهر !

ومن ذلك يتبين القارئ أننا لسنا ضد الحجاب أصلا ، إنما ضد تفسيره على أنه ظاهرة إسلامية أو ظاهرة تدين ! . وهذا لاينفى أن هناك الكثيرات اللاتى لبسن الحجاب من باب التدين ، فإذا كان سلوكهن إسلاميا كان بها ، وإلا وجب اتباع هذا السلوك ، لأنه المعيار الصحيح للحكم والتقدير . ووقفنا إلى وجوب التمسك بجوهر الإسلام يجب ألا يُغضب أحدا ، لأن هذا الوقوف ينبعث من الفهم الصحيح للإسلام ورسالته النبيلة لإصلاح الفرد والمجتمع .

بقيت رسالة القارئ كامل حسن على ، وفيها يقول :

«بعد كل تقدير وإعجاب وتحية يقدمها كل طالب للعلم والثقافة إلى مؤرخنا الكبير، أتابع باهتمام كبير مقالات سيادتكم الأسبوعية بمجلة أكتوبر ، بل أنا لا أتابع ، وإنما أعايش كل فكرة ترد بالمقال - هكذا تعلمت وتعودت - بحيث ندخل أنا والفكرة فى حوار جوانى لاينتهى إلا وقد امتزجنا وتفاعلنا ايجابا أو سلبا .

« لقد قرأت مقالكم بمجلة «أكتوبر» بعنوان «حجاب على الرأس أم على الفكر» . تعرضون فيه لموقفكم مما جاء برسالة سيدة أرسلتها إليكم بشكل غير مباشر ، وتدافع هذه السيدة فى رسالتها عن المحجبات . وقد علقتم سيادتكم على هذه الرسالة فى عدة نقاط .. وهذا التعليق تفسير متواضع - من وجهة نظرى - لظاهرة الحجاب التى أسعدت بعض الواهمين ، الذين تصوروا أن العصر الذهبى للإسلام قد عاد على أيدي المحجبات ! .

«ان انتشار ارتداء الحجاب كظاهرة دينية ، ومعها ظواهر العنف والتطرف ، تعكس احساس الشباب المصرى بظاهرة أشمل وأخطر هي «ظاهرة الاغتراب» . الذى هو محصلة لكل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى عانت منها البلاد فى فترات متعاقبة . ولذلك يعانى الشباب من الشعور بالاغتراب فى عدة أبعاد :

«ان ظاهرة العنف وشعور وتحول الشباب بالضيق ولجوءهم إلى الحجاب، تعكس شعور الشباب بالاغتراب الذى يرجع إلى التناقضات التى لمسها الشباب بين السياسات المختلفة فى العهود المتوالية ، مما أدى إلى ضيق اليقين من الشباب ، وشكك فى كل شىء (اغتراب سياسى) .

كذلك يرجع إلى تطبيق نظم اقتصادية أضرت بمصالح طبقات الشعب العاملة لحساب فئات معينة ، مما أوجد فجوة حادة بين الطبقات، فالاعلان عن السلع فى التليفزيون ، أو عن الشقق ، يزيد من شعور الشباب بالاغتراب ، لأنه يشعره بأنه ليس المقصود بهذه السلع ، وأنه ليس المخاطب ، بل هى سلع لغيره ، إذ أن الحصول عليها يفوق قدرته ، وأنها رسالة موجهة إلى غيره من القادرين (اغتراب اقتصادى) .

«ولقد تجمعت آثار الاغتراب السياسى والاغتراب الاقتصادى ، وانعكست فى مظاهر «الاغتراب الاجتماعى» . ويكفى أن نشير إلى مسألة الزواج والعثور على شقة فى الوقت الحاضر ، لنعرف كيف يعانى الشباب ، وكيف يعيش مغتربا فى مجتمعه ! لقد أصبح الزواج - وهو حق طبيعى وانسانى - معضلة ، بل مأساة يعيشها الشباب فى كل لحظة، حتى أصبح الزواج والحصول على شقة حلما ، ان لم يكن وهما !

«إن ظواهر العنف والتطرف أو التدين - شكلا - التى تسود هذه الفترة بشكل غير طبيعى ، هى ظواهر تعكس ظاهرة أعرق وأخطر على المجتمع ، هى شيوع الإغتراب بين شباب مصر .

«وحين يعانى الشباب من الإحساس بالإغتراب ، فإنه يبحث عن ملجأ أو وسيلة تعويضية ، تساعد على قهر شعوره بالاغتراب ، فلجأ

البعض إلى العنف ، ولجأ البعض الآخر إلى التطرف ، بينما لجأ البعض إلى الدين ، وكلها أشكال للتعبير عن رفض المجتمع والواقع وكل ما هو قائم ، ومحاولة تغييره بقوة العنف أو الإيمان ! وإبداله بمجتمع مثالي أو «يوتوبيا» دينية تقوم دعائمها على تكفير المجتمع وإرتداء الحجاب !

«إن أمر اللجوء إلى الدين في حالات الضعف والضياع والتخلف والرفض ، لهو شائع وحدث كثيرا ، وما زلنا نذكر تفسير البعض لهزيمة ١٩٦٧ بأنها لبعدنا عن الدين ! ، وانتصار ١٩٧٣ بأنه لإيماننا وقربنا من الله ا»

الخارجون من تحت السما *

كان أول درس تلقيته في الصوفية
على يد شيخ أكن له الاحترام والإجلال
يدعى محمد برعى العربى ، وقد توفى
منذ سنوات قليلة وعمره ستة وثمانون
عاماً ،

فقد سألتنى ، وأنا ما أزال فى
العشرين من عمرى ، عن حاصل جمع
واحد زائد واحد ؟ . فقلت باسم
مستخفاً : اثنان طبعاً . ضحك
ضحكة طويلة ، وربت على كتفى قائلاً .
هذا فى العلوم الرياضية ، أما فى
الحياة ، فإن الحاصل قد يكون اثنان ،
وقد يكون عشرة ! وقد يكون مليوناً !
وقد يكون ناقصاً خمسة ! وقد يكون
ناقصاً ألفاً ! وقد يكون ناقصاً عشرة
آلاف أو مليوناً . إلى آخره ، ثم تلا
هذا البيت من الشعر ، الذى اتخذته
فيما بعد نبراساً يضىء حياتى :

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجنى عليه اجتهاده !

* أكتوبر فى ٢٣ / ٦ / ١٩٨٥

وقد اهتززت اهتزازاً عنيفاً لدى سماعى هذا الكلام الخطير ،
وصرخت فى استنكار : «كيف يكون اجتهاد المرء هو أول ما يجنى عليه»؟
قال فى سرعة وهو يرفع أصبعه فى وجهى : «إذا لم يكن هناك عون من
الله له » !

أحسست باليأس لأول وهلة ، ثم شعرت بالتفاؤل اللانهائى ، ثم
أخذت الراحة تتسلل إلى نفسى ، وبدأت الطمأنينة تغزو قلبى ، وحل
الأمل محل اليأس ، وقلت لنفسى :

«بسيطة ! ، ما عليك إلا أن تتجه إلى الله فى عملك ، وتتوكل عليه لا
على غيره ، وتؤدى نصيبك وتترك له نصيبه ! ، وتعرف حجمك الحقيقى
وتعرف حجمه الحقيقى ! ، وتلتزم قدر الإمكان بالقواعد العامة التى يقوم
عليها الدين ، ولا تتدخل فى شأنه ، وألزم حدودك ! ، واجعله ملء سمعك
وبصرك وقلبك وعقلك ، ثم اجتهد بقدر ما أعطاك من قوة وعزم وتحمل ،
وأترك له وحده الأمر ، وتقبل قضاءه فى رضا تام أيا كان ، ولن يكون إلا
فى صالحك مهما كان» !

وهذا الذى قد كان ! . ولذلك فإنى أسخر ممن يتوهمون أن ما
يملكونه من مال هو حاصل جمع رياضى بطريقة واحد زائد واحد
يساوى اثنين ! ، فهم يتصورون أنهم إذا أضافوا ألفاً إلى ما لديهم من
ألف صار لديهم ألفان ! ، وإذا أضافوا مليوناً إلى المليون الذى لديهم
صار لديهم مليونان ! ، لأن الأمر يتوقف على نوع وقيمة الاجتهاد الذى
بذل فى هذا الجمع ، ويتوقف - أكثر من ذلك - على التقدير الإلهى لهذا
الاجتهاد - فقد يكون حاصل إضافة ألف إلى ثروة إنسان ضياع هذه
الثروة ! ، وقد يكون حاصل إضافة ألف إلى ألف ألفين ، وقد يكون
الحاصل مليوناً ! .. إلى آخره ! .

ولذلك فعلياً أن ندرك الفرق بين معاملاتنا المالية فى البنوك
الأرضية، ومعاملاتنا المالية فى البنك الإلهى ! فهذه المعاملات فى البنوك
الأرضية حين تصب فى البنك الإلهى تتحول إلى شىء مختلف تماماً ! ،

فكثير من الملايين تتحول إلى أصفار ! ، وكثير من الألوف تتحول إلى ملايين ! ، وكثير من الزوائد تتحول إلى نواقص ! ، وكثير من الأثرياء يتحولون إلى مفلسين ! .

وكما يحصل المرء من البنك الأرضى على كشف بحسابه فى حياته ، فكذلك يحصل من البنك الإلهى على كشف بحسابه ! وهذا الكشف الأخير يتمثل فيما يعانيه من شقاء أو يحس به من سعادة وهناء ! ، فعناصر الحياة ليست ممثلة فقط فى المال ، وإنما تتكون من صحة ، وأولاد ، وحياة زوجية ، وحياة اجتماعية ، وشهرة ، ومجد ، وعلم ، وفن ، وغير ذلك ! . ومن هنا فإن كل ما يضاف إلى حساب البنك الأرضى من عرق الكادحين ظلماً ، يخضم فى البنك الإلهى من حساب الصحة أو راحة البال أو غير ذلك من عناصر الحياة .

وقد يستطيع المرء خداع مديرى البنوك الأرضية ويحتال عليهم ويسرق الملايين - كما تقرأ كثيراً فى الصحف فى هذه الأيام - ولكنه لا يستطيع أن يخدع مدير البنك الإلهى ! ، فما يضاف إلى حسابته فى البنك الأرضى بغير وجه حق يخضم من رصيده فى البنك الإلهى حسب تقدير العزيز العليم ! ، فقد يخضم من بند الأولاد بالوفاة أو المرض ! ، أو يخضم من بند الحياة الاجتماعية ، فيمنى بفضيحة تحدث بذكرها الركبان ! ، وقد يخضم من بند راحة الضمير ، فلا يغمض له جفن من الهم والأرق والكدر ! .

وعلى ذلك فإن بعض الأذكىاء فى عالم المال ، الذين يسرقون قوت شعبنا لتتضخم حساباتهم فى البنوك الأرضية ، والذين ينهبون ما تكسبه جماهيرنا الكادحة بعرقها الشريف عن طريق تخزين البضائع وإخفائها ، أو عن طريق رفع أسعار السلع رفعاً تعسفياً ، وأولئك الذين جعلوا الحياة اليومية بالنسبة لجماهيرنا عذاباً متصلاً لا يحتمل ، والذين حرموا الطفل الفقير من ثمرة فاكهة لا يستطيع أبوه شراءها ، أو شريحة بطيخ يستحيل التفكير فى شرائها - هؤلاء يخضم من رصيدهم فى البنك

الإلهى بمقدار ما يضيفونه إلى رصيدهم الأرضى ! ، ويخسرون بأفدح مما يكسبون ! ، ودورهم فى الحياة هو دور البعير ، فهم يحملون مالا ، يمنعهم العدل الإلهى بالضرورة من الاستمتاع به كما كانوا يشتهون ! .

لذلك فقد عرفت فى حياتى كثيراً من الناس أعماهم حبهم لأبنائهم ، ورغبتهم فى تأمين معاشهم عن طريق الخير والحق والعدل ، فكونوا الثروات بالمال الحرام والعمل غير الشريف ، وداسوا على رءوس العباد ، ثم تركوا المال لأولادهم بعد وفاتهم ، فشققوا به بدلاً من أن يسعدوا به ، وفسدوا به بدلاً من أن ينصلحوا به ! ، وكان كل قرش كسبوه من حرام ناراً تحرق ما تلمسه ومن تلمسه ! ، وبالتالي فلم ينفعهم مال ولا بنون ! .

هى - إذن - مسألة أولويات فى حياة المرء ، فإما أن يضيف إلى حسابه فى البنك الأرضى ، أو يضيف إلى حسابه فى البنك الإلهى ! . وهو يستطيع أن يضيف إلى حسابه فى البنكين إذا فهم العملية الحسابية التى علمنى إياها ذلك الصوفى ، أى أن حصيلة جمع واحد زائد واحد قد تكون ناقصاً مليوناً ! ، وقد تكون زائداً مليوناً ! ، وقد تكون اثنين ! ، وقد تكون ألفاً ! ، وقد تكون أى رقم يتخيله الإنسان ولا يستطيع تقديره بعلمه المجرد ، لأنه تقدير العزيز العليم ! .

وهذا هو معنى قوله تعالى : «من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون» . وأنا أعتقد أن هذا القرض لا يتمثل فقط فى الإنفاق فى الخير ، وإنما هو أيضاً فى الترفع والتعفف عن اغتصاب مال الغير بالغش والخداع والسرقة والربح الحرام والإحتيال وغير ذلك من صور الاغتصاب . فكل منا سنحت له الفرصة مرة أو مرات ليحصل على مال سهل بدون وجه حق ، فإذا هو ترفع ، وإذا هو تعفف ولم يمد يده ، فسوف يضاف هذا المال إلى حسابه فى البنك الإلهى ، ويكون له الحق فى الفوائد العالية السعر والجوائز التى يقدرها العزيز العليم على هذا المال ! .

مسألة المال - إذن - مسألة معقدة جداً ، وليست مسألة سهلة كما يمارسها على نجم ، محافظ البنك المركزى ، أو كما يتصورها كبار وصغار اللصوص ! وكبار وصغار أصحاب العمارات التى تسقط بعد بنائها ! ، أو كبار وصغار أصحاب العمارات الذين يتقاضون خلو الرجل من شبابنا الذين ضيعوا حياتهم فى الخارج لكسبه ! ، أو الذين يفرضون خلو رجل يتجاوز إمكانيات شبابنا المكافح فى أرض الوطن ! ، أو الذين يعملون عمداً على رفع مستوى المعيشة إلى درجة تفوق احتمال الملايين من أبناء شعبنا ! ، أو الذين يغالون من الحرفيين فى تقدير أتعابهم ! ، أو الذين يضاعفون سعر السلعة من التجار بحجة أن التجارة شطارة ! ، أو المرتشون من ذوى الضمائر الميثة - فهى ليست مسألة جمع حسابى ، وإنما هى مسألة حساب سماوى ، ويجب أن تفهم على هذا الأساس ! .

وهذا الكلام قد يظنه بعض القراء «دروشة» مفاجئة من صاحب هذا القلم ! ، أصيب بها فى شهر رمضان ! ، ولكنه كلام علمى دقيق . فإذا كان هناك تسليم بوجود إله فى الكون ، فكيف يتصور العقل أن يتركه سداح فى مداح ! ، وكيف يتصور العقل أن يفقد الله سيطرته على هذا الكون ويتركه فى يد اللصوص والمغتصبين والنهابين - كما تفعل حكومتنا العزيزة ؟ .

نعم كيف يصدق الإنسان بوجود إله فى الكون ، ثم يتصور أنه يمكن أن يساوى بين الصالحين والطالحين ، أو بين الخيرين والمجرمين ، أو بين من يكسبون رزقهم من حلال ومن يجنون هذا الرزق بالظلم والاعتصاب والاعتداء .

فهل هناك من يشك فى أن كل مخطئ سوف يدفع ثمن خطئه فى يوم من الأيام ؟ وأن كل مجرم سوف يدفع ثمن جريمته إن أجلاً أو عاجلاً ! ، وأن كل معتد على حقوق الناس أو حرينهم سوف يدفع الثمن فى لحظة يظن فيها أنه قد غفلت عنه عين الله ؟ . وإذا كان هناك من يشك

فإنه لا يقرأ الصحف ، ولم يعرف كيف أصابت الفضيحة والعار كل مز
أجرم فى حق هذا الشعب ، ولا كيف تمتلىء السجون بالمنحرفين
والمجرمين ، ولا كيف سقطت بحبل المشنقة رؤوس المعتدين على الأموال
والأعراض ، أو كيف سقط الحكام الذين أذاقوا شعوبهم النكال والهوان !.

وإذا كان هناك أيضاً من يشك ، فإنى أدعوه لأن يسأل كل سارق
لأموال الشعب : هل يستطيع أن ينام كما ينام الناس بدون أن تثقل عليا
سرقاته كالكابوس ؟ . وهل أفادت أمواله أولاده كما كان يطمع ؟ ، وهل
يتمتع بصحته ووقته على نحو يتناسب مع ما حصله من مال ؟ .

عين الله - إذن - ساهرة لاتنام . وليس صحيحاً ما يقوله بعض
المفكرين - تعليقا على قصة الخلق فى الآية الكريمة : «الله الذى خلق
السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش» - من أن الله
تعالى قد أرسى فى هذه الأيام الستة كل القوانين التى تسير الكون ، بما
يكفل له الحركة المستمرة إلى يوم القيامة - دون تدخل إلهى ! .

فالتدخل الإلهى حقيقة قائمة فى الكون ، بدليل الدعاء ! . ففى الآية
التالية مباشرة لآية الخلق فى سورة الأعراف يقول تعالى : «أدعوا ربكم
تضرعاً وخفية ، إنه لا يحب المعتدين» ! . فصحيح أن هناك سننا وقوانين
وضعتها الله للكون ، ولكنه طالب الناس بالدعاء إذا تضرروا من هذه
القوانين فى ظروف معينة ! ، لكى يخفف عنهم وطأتهم . ولذلك قال تعالى :
«إن الله لا يحب المعتدين» - أى الذين يتجاوزون حدود الضرورة فيطلبون
مالاً يناسبهم ! .

وهنا نصل إلى النقطة الثانية من مقالنا ، وهى الاجتهاد وقيمه .
وتجربتي الشخصية أن الاجتهاد دون إيمان هو أشبه بشيك دون تصديق
من ذوى الاختصاص ! ، وبالتالي فإذا اعتقد إنسان أن اجتهاده وحده
هو الذى يحقق له النجاح ، فهو واهم ! لأنه يبقى من الضرورى تصديق
المولى على هذا الاجتهاد ليصبح حقيقة واقعة وأمرأً مفعولاً !

وهذه النقطة هامة جداً ، لأنها هى التى توضح للإنسان قدر نفسه فلا يتجاوزها ، وتفسر له ما يغمض من أمور الحياة ، وتساعد على تقبل ما لا يمكن تغييره بصبر واستسلام .

أذكر أن الصديق الدكتور محمد سيد محمد ، الأستاذ بكلية الإعلام، كان يتحدث معى منذ بضع سنوات عن أحد الزملاء بإحدى الجامعات ، الذى فشل فى تحقيق أمنيته بأن تكون ابنته معيدة بالكلية لكى تكون أستاذة مثله ، رغم اجتهاده الدائم لتحقيق هذا الغرض . وكان مما قاله إن هذا الصديق قد ظن ، حين قام مكتب التنسيق بتوزيع ابنته على هذه الكلية ، أنه قد قارب تحقيق أمنيته ! .

وقد رددت بقولى إن صديقنا معذور ، لأنه لا يعلم أنه يوجد ، فوق مكتب التنسيق هذا ، «مكتب تنسيق إلهى» ، يوزع الأفراد وفقاً لمعايير وتقديرات أخرى غير التى يعتمد عليها مكتب التنسيق الأرضى ! . وليس فى وسع أحد أن يعترض على مكتب التنسيق الإلهى ، وإنما عليه أن يجتهد فقط ، ويترك الأمر لله يصرفه بعلمه وحكمته كما يشاء .

نعم ، لامجال للنوم والكسل أو التواكل ، وفى الوقت نفسه لامجال للمبالغة فى تقدير الذات وتوهم أن الإنسان يستطيع أن يتحكم فى الأمور كما يشاء ! .

فإذا توهم طالب أنه يستطيع أن يحرز النجاح بمجرد الاستذكار طول العام ، فإن مرضاً بسيطاً يصيبه فى ليلة الامتحان ، أو التأخر فى النوم، يمكن أن يحرمه من هذا الاجتهاد ! ، وإنما على الطالب أن يستذكر دروسه طول العام بكل جد واجتهاد ، ثم يطلب إلى الله أن يبارك جهده لكى يحصل على النجاح ، ويدع الأمر له يصرفه كما يشاء ، ويقبل بنفس راضية ما يقضى به .

وأحمد الله أننى لم يخالجنى فى حياتى أى وهم بإمكانى تحقيق أى انجاز دون تصديق سماوى ! . وقد تعودت حين انتهى من أى عمل علمى

أن أستغفر المولى قائلاً : إن هذا كان قصارى جهدى ، وإننى لم أدخر وسعاً فى أداء واجبى العلمى ، وأطلب منه الصفح عما يكون قد بدر منى خطأ ، وأدعوه - تعالى - أن يبارك فى هذا العمل وينفع به الناس ! .

ومن هنا يصبح العمل فى حد ذاته عبادة ، لأنه إذا كان الإنسان يبتغى به وجه الحق ، ولا يخدع فيه أو يخالف الأمانة العلمية ، وإذا كان يعرف حدوده وقدر نفسه ، ويعرف - أكثر من ذلك - أن هذا العمل إذا لم يلق القبول من الله فإنه يمكن أن ينقلب على صاحبه ، ويكون وبالاً عليه - فإن الإنسان بذلك يكون قد جنب نفسه التهلكة ، ووقى نفسه من الغرور والدمار ! .

وربما كانت النتيجة المترتبة على الأخذ بهذا المنهج فى الحياة هى تقبل ما يقضى به الله على الإنسان ، وما قد يقابله من صروف ، بالصبر والرضا ، مهما بلغ من وطأتها وشدتها ، إذا كانت مما لا يمكن تغييره - وإلا لوجب عليه التعامل معها والعمل على تغييرها بكل الطرق المتاحة .

وأذكر أننى حين علمت فى لندن منذ بضع سنوات بمرض صديقى المرحوم نصر عبد الغفور مرضاً خبيثاً ، أخذت أعده نفسياً للقاء ربه بطريق غير مباشر . فقلت له فى ثنايا أحد أحاديثنا الطويلة متفلسفاً .

هل رأيت خروفاً وهو يساق إلى الذبح ؟ ، رأيت استسلامه المطلق وهو مسوق إلى حتفه ؟ ، إنه يعلم أن المقاومة لن تجديه نفعا لأنه مذبوح مذبوح ! . ولذلك فهو يوفر جهده ويستسلم لقضاء الله وقدره ! . ومن هنا فإذا قدر لأحد منا فى يوم من الأيام أن يساق إلى مذبحه ، فعليه أن يستسلم استسلام الخروف ! . إننى أسميه الاستسلام الثورى ! .

ضحك رحمة الله عليه ، وقال متسائلاً : " ولماذا تدعو الناس إلى استسلام الخروف ، ولا تدعوهم إلى استسلام إسماعيل للذبح ؟ أليس استسلام إسماعيل أكرم للبشر ؟ .

قلت : قد تكون محقاً ، ولكن استسلام إسماعيل للذبح كان استسلام نبى يعرف حكمة الذبح ، أما استسلام الخروف فهو استسلام أعمى لايعرف حكمة الذبح ! . وليس مطلوباً من الناس أن يكونوا أنبياء يعرفون حكمة الذبح ، وإنما عليهم فقط الإيمان وعدم التدخل فى حكمة الله ، وبذلك يستطيعون مواجهة زائر الموت إذا حل بهم أو بأحد أعزائهم!.

واستطردت قائلاً : يا صديقى ، إن عيادات أطباء الأمراض النفسية فى بلادنا وفى جميع أنحاء العالم مملوءة بهذا النوع من الناس الذى لا يعرف هذا الاستسلام ، إنهم لم يسمعوا بعد بهذا الحديث القدسى الذى معناه : «من لم يرض بقضائى فليخرج من تحت سمائى» ! - إنهم الخارجون من تحت السماء ! .

الفصل الثانى
الدين فى خدمة
توظيف الأموال

,

من توظيف الدين إلى توظيف الأموال ! *

حين يكتب تاريخ ظاهرة شركات
توظيف الأموال في مجتمعنا المعاصر ،
سوف - يثبت اقتران نشأتها بالردة
الحضارية التي يعاني منها مجتمعنا ،
والمتمثلة في ظهور الفكر الاسلامي
المتخلف ، والجماعات الدينية المتطرفة ،
واطلاق اللحي السياسية ، وانتشار
الحجاب والنقاب في الكليات الجامعية
لأول مرة في تاريخ مصر ، وظهور ما
يعرف باسم البنوك الاسلامية بناء على
الزعم بأن الفائدة في البنوك حرام -
ففي هذا المناخ ظهرت شركات توظيف
الأموال .

والمذهل حقا أنك في مصر تحس
في كثير من الأحيان بأن المجتمع يدور
في حلقة مفرغة !. فقد كان النقاب
موجودا حتى منتصف العشرينيات ، ثم
انتشر السفور تدريجيا مع انتشار
تعليم المرأة واقبالها على العمل ، ثم
عاد الحال إلى ماكان عليه في هذه

* اكتوبر في ١٠/٧/١٩٨٨

الأيام - أو على الأقل ظهرت بواده ومقدماته ! . كذلك كان الجلباب سائدا قبل ظهور التعليم العلماني في المدارس العليا والمعاهد والكليات ، ثم اختفى مع ظهور هذا النوع من التعليم وحل محله الملابس الحديثة ، ثم أخذ يعود مرة أخرى بين طلبة الجامعات ! .

كذلك كان من أكبر المعوقات في الأخذ بالنظم الاقتصادية الحديثة ، التي تقوم على البنوك الوطنية ، الاعتقاد السائد بأن الفائدة على الأموال التي تودع في البنوك حرام لأنها ربا ، ثم ظهرت الفتاوى الدينية التي تفرق بين الفائدة والربا ، وقام بنك مصر الذي قاد النهضة الاقتصادية الحديثة في البلاد ، وأقبل المصريون على ايداع مدخراتهم في البنوك ، حتى جاءت الردة الحضارية الأخيرة لتعيدنا إلى ما بدأنا منه ! .

والطريف أن الرأسمالية المصرية القديمة كانت واعية تماما لهذه النقطة ، وقد حاربت طويلا لتفنيدها حتى تمكنت من التغلب عليها . ثم جاءت الرأسمالية المصرية الجديدة لتبنى نشاطها الاقتصادي على نفس الزعم القديم ، وتثبت في أدمغة الجماهير المصرية ان الفائدة ربا ، وتسحب منهم مئات الملايين من الجنيهات ، وتنشئ البنوك الاسلامية وشركات توظيف الأموال ، وتعيدنا إلى الوراء مائة عام بالتمام والكمال ! .

فقد ظهرت أول محاولة في تاريخ مصر الحديث لإنشاء بنك مصري ثناء الثورة العربية (وليس في ظروف ثورة ١٩١٩ كما هو شائع خطأ^١) حين اكتشفت الرأسمالية المصرية أن الأمل في استخلاص مصر من الديون التي كبلها بها الأوروبيون النصابون انما ينعقد بإنشاء بنك وطني تكون مهمته - حسب قولهم - «استرداد المصالح العزيزة» من يد الأجانب. وقد اجتمع لهذا الغرض مجموعة منهم على رأسها محمد سلطان باشا وعمر لطفى باشا ، واستقر رأيهم على فتح باب الاشتراك في انشاء «البنك الوطني المصري» ، ودعوة «أمرء القطر ووجهائه وأغنيائه وكل من يهمهم شأنه» للانضمام اليهم في هذا العمل ، وأصدروا منشورا تاريخيا يعد من أخطر الوثائق في تاريخ الرأسمالية المصرية ،

لأنه يوضح درجة تفتح تلك الرأسمالية بالمقارنة بانغلاق الرأسمالية الجديدة !، ويوضح - أكثر من ذلك - أن تلك الرأسمالية المصرية لم تكن قد أصيبت بعد بالآفات والأمراض التي أصيبت بها الرأسمالية الحديثة من طبقة شركات توظيف الأموال ، وغيرها من أصحاب الشطارة والفهلوة والثلاث ورقات الذين خدعوا الجماهير واستولوا على مدخراتها بتلك الطرق .

ومن قراءة هذا المنشور التاريخي - الذى ننشر فى هذا المقال مقتطفات هامة منه - يتضح فارق هام بين الرأسمالية القديمة ورأسمالية شركات توظيف الأموال . فبينما كان هدف الرأسمالية القديمة بناء الاقتصاد المصرى ، وانقاذ مصر من الدين ، وتكريس عمل البنك فى العمل الوطنى والاقتصاد الوطنى - فان هدف الرأسمالية الجديدة طفيلى يستهدف خدمة نفسها على حساب الاقتصاد المصرى ، بتجميع مدخرات المصريين ، والمضاربة بها فى الأسواق الخارجية ، وذر الرماد فى العيون ببعض المشروعات الصناعية والاستثمارية البسيطة (لم يتجاوز رأس مالها فى شركة الريان ٨٣٩ مليون جنيه من جملة ايداعات المواطنين التى بلغت ٨ مليارات من الجنيهات !، وفى شركة السعد بلغت ٤ ملايين جنيه فقط من اجمالى الأيداعات البالغ ٣٧ مليار) - وبمعنى آخر أن الرأسمالية القديمة قامت لبناء مصر ، والرأسمالية الجديدة قامت لبناء نفسها ! .

لقد بدأ المنشور التاريخي ، المعنون بعنوان «انماء المال» - أى تنمية الأموال - بشرح فكرة البنوك للناس ، وتوضيح فلسفتها وأهدافها ، فى أسلوب مبسط يفهمه العامة فى ذلك العصر دون عناء ، فقال :

ان «الناس فى هذه الأرض - على اختلاف أنسابهم وأنماطهم - متكافئون متضامنون ، مأمورون جميعا بالعمل والتعاون فيما يعملون ، يمد الثرى منهم الفقير بماله ، وصاحب الأرض يستخدم المعدم فى زراعته . وقد خص الله الشرق بأخصب تربة وأنفس معدن ، وفيه كثير

من الأغنياء أصحاب الرزق الواسع والنقود الوفرة ، ولكن أهله لم يهتدوا الى أقوم السبل لاستثمار ثروة بلادهم وانمائها، فتراهم مقتصرين من المتاجر على ماتعاطاه أجدادهم الأقدمون ، منفردين فى أعمالهم كأنهم يخشون أن تطير البركة فى الشركة !، مع مآظهر لهم من بركات الاشتراك فى الأعمال عند أهل الغرب، الذين دوخوا المسكونة، وفتحوا الأقاليم الواسعة بشركاتهم التجارية، وقد تفننوا فى انشائها وتفريغها أيما تفنن ، فجعلوا منها الشركات التجارية ، والشركات الصناعية، والشركات المالية - أى البنوك - وهى المراد فى هذا الكلام .

ثم قال المنشور : « ان البنوك (البنوك) هى الصلة بين سائر أنواع الشركات والمتاجر والمصانع، وهى الوسيط الذى لا بد منه بين المال ومنفعته، وبدونها يهمل جزء كبير من ثروة العالم بلا استثمار. ففيها تُستثمر الأموال المدخرة، ومنها يُقترض صاحب الحاجة ليسدد على آجال توافق مصلحته . فانشاء البنوك كان رحمة للناس، وسببا كبيرا لتسهيل أشغالهم» .

ثم استعرض المنشور حال الدول الأوروبية ، فأوضح أن أسعد تلك الممالك ، وأوسعها تجارة ، وأنجحها صناعة ، وأنفذها كلمة ، وأقدرها سلطانا ، هى أشدها استقلالا بينوكها ، لأن المال أساس الأعمال . وانتقل إلى حال مصر فقال : « لو كان فى يدنا مالية ذاتية ، لأمكننا أن نسترد بها مصالح عزيزة لدينا ، يحزننا أن تبقى مضعضة بيد الأجانب ، مع أننا لو تأزرنا لكان نوال المراد رهين ارادتنا .

وتساءل المنشور : « مالذى يقعدنا عن السعى ؟ وانقاذ أرضنا لا يكلفنا إلا الاجتماع والتعاون لانشاء شركات مالية (بنوك) تفى بما لايسطيعه الأفراد ؟ . أنتظر ومعظم أطيانتا مرهون عند الأجانب إلى حين بيعها منهم بأبخس الأثمان ؟ .

ثم تناول المنشور - فى ذكاء - « ماقد يتوهمه البعض من مخالفة انشاء مثل هذا البنك للشريعة المطهرة ، بدعوى أنه لا بد من دخول الربا

فى معاملاتہ « - فبین المنشور أن » الشريعة المطهرة انما حرمت الربا المحض ، وليس ذلك من لوازم البنك التى لايقوم بدونها ، بل بنكنا متنزہ عنه ، لأنه انما قُصد من انشائه خدمة المصالح الوطنية بالصدق والأمانة. ثم ان القرض بالمرابحة بطريقة المعاملة جاز منذ القدم ، وذكره مستفاض فى كتب الفقه (استشهد المنشور « بالخصاف » ، ومحمد بن سلمى امام بلخ ، وشمس الأمة الحلوانى ، ومفتى الروم ابن السعود) .

ثم قال المنشور : « لا يخفى أننا فى مقام أعمال مادية محضة لايفيد فيها الا درهم اللعين . وان لم ينفق الدرهم فى هذا السبيل فما الفائدة من ادخاره ؟ . إن رأس مال البنك يتجربه ، ويجر المنفعة لأصحابه ، ويعود على البلاد بمنافع عمومية لاتذكر المنافع الشخصية فى جانبها بشئ ؟؟ . . إلى آخره .

هذه المقتطفات من منشور «انماء المال» ، الذى صدر منذ أكثر من قرن كامل من الزمان - وبالدقة منذ ١١٠ سنوات : - توضح إلى حد يدور مجتمعنا فى حلقة مفرغة ، لأنه لو صدر هذا المنشور الآن فى عام ١٩٨٨ لجاء فى وقته وأوانه ! ، حيث سيجد الوضع الاجتماعى - من هذه الزاوية بالذات - لم يتقدم كثيرا ، ان لم يكن قد تراجع إلى الوراء! .

ففى ذلك الحين - أى منذ قرن من الزمان - لم يكن قد ظهر ما نطلق عليه اسم « الاسلام السياسى » بعد ، ونقصد به قيام جماعات ملتحية تستغل اسم الاسلام فى العمل السياسى ، وتحتكر لنفسها الدين وتفسيره والحكم به ، وتجرد منه الآخرين ، وعلى رأسهم الدولة ذاتها ! . ولم تكن هذه الجماعات قد نجحت فى نشر فكرها ، والتأثير على المجتمع إلى حد ظهور ما يعرف باسم البنوك الاسلامية وشركات توظيف الأموال. لقد كانت مصر وقتذاك واقعة تحت السيادة العثمانية ، وتخضع لحكم الخليفة العثمانى الذى هو أمير المؤمنين ، وكان من المفروض أنها تحكم بقواعد الشريعة الاسلامية ، ولم يكن هناك من يجرؤ على المزايدة على الخليفة العثمانى فى المسائل الاسلامية .

لهذا السبب حين نجحت الرأسمالية المصرية فى انشاء بنك مصر فى عام ١٩٢٠ لم تجد فى مواجهتها مثل هذه الجماعات التى طفحت على سطح المجتمع المصرى فى نصف القرن الأخير ، ولم تجد - بالتالى - من يعوق مهمتها فى بناء الاقتصاد المصرى ، ولم نسمع أن الأزهر وقف يعارض بنك مصر ويحرض الناس على الامتناع عن ايداع أموالهم فيه بحجة أن الفائدة التى يجنونها حرام لأنها ربا .!

لذلك ارتفع رأس مال بنك مصر من ٨٠ ألف جنيه فى عام ١٩٢٠ إلى نصف مليون جنيه فى يناير ١٩٢٥ ، ثم بلغ فى ديسمبر ١٩٢٧ مليونا كاملا ، وارتفع عدد المساهمين من ١٢٦ مساهما فى عام ١٩٢٠ إلى ٩٣٥٦ مساهما فى نهاية عام ١٩٣٤ ، أما الودائع فارتفعت من مائتى ألف جنيه فى سنة ١٩٢٠ لتصبح أكثر من خمسة ملايين ونصف مليون من الجنيهات بعد سبع سنوات فقط - أى فى عام ١٩٢٧ ، ثم زادت إلى ٤٥ مليونا فى نهاية عام ١٩٤٧ .

ومن هنا ، فاذا جاءت شركة توظيف أموال فى الأيام الأخيرة (الريان) تنشر اعلانا بحجم صفحة كاملة ، تزعم فيه أن الفائدة فى البنوك ربا ، وتذهب فى ذلك إلى حد تلفيق نص اسلامى خطير ومثير يقول : «لأن يزنى الرجل بأمه فى حجر الكعبة أهون من ربا البنوك» ! - فان هذا يبين حجم النصب واستغلال الدين استغلالا شائنا من قبل هذه الشركات !، لأن مثل هذا النص لم ينطق به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولم ينزل به جبريل ، لسبب بسيط هو أن البنوك لم تكن قد نشأت بعد !. وحتى اذا قال به فقيه من فقهاء المسلمين فانه لا يكزم المسلمين إلزاما شرعيا إلى حد ترك البنوك وإيداع أموالهم فى شركات توظيف الأموال !. ولكن إلى هذا الحد تستغل هذه الشركات تلك الأكذوبة لتجميع مدخرات المصريين والمضاربة بها فى الأسواق .

ومن حسن الحظ أن هناك من رجال القانون المصريين من يتوافرون على دراسة الفرق بين الفائدة والربا ، ويصدرون الأحكام وفقا للنتائج

التي تسفر عنها هذه الدراسات ، وليس على أساس النصوص الملفقة التي تسىء إلى الاسلام ، والتي تهون من زنا الرجل بأمه فى حجر الكعبة لتضخيم جرم ايداع المواطنين مدخراتهم فى البنوك !.

فوفقا لما كتبه المستشار محمد سعيد العشماوى فى كتابه القيم : «الربا والفائدة فى الاسلام» ، فى الفصل الخاص بالایداعات ، فان الفحص العلمى لهذه المسألة قد أثبت أن القرآن الكريم لم يتضمن أية آية أو حكم فى مسألة الايداعات !، كما أن السنة النبوية لم تتضمن أى حديث عن ذلك ! - أى أنه لا توجد قاعدة شرعية أو أى حكم شرعى مباشر عن الايداعات !.

والفقهاء المسلمون - قبل القرن الحالى - لم يبحثوا مسألة الايداع أبدا ، لأنها لم تكن موجودة من قبل ، وانما استحدثتها ظروف الحياة الاقتصادية المعاصرة التي تقوم على التعامل بالنقد ، والتي تؤدي إلى تراكم بعض الأموال مع بعض الناس كمدخرات من ايراداتهم ، أو وفورات من دخولهم . ومن ثم نشأت فكرة ايداع هذه الوفورات وتلك المدخرات بالمؤسسات المالية ، فى صور متعددة من الايداعات ، فيحقق المودع الأمن لنفسه حين يضمن أن أمواله لن تكون فريسة لسارق أو غنيمة لناهب ، كما يحقق لنفسه ربحا من ذلك .

فان قيل إن الفائدة - أو الربح أو الربح أو العائد أو أى اسم آخر تتخذه الفائدة - هو من قبيل الربا المحظور شرعا ، فانه يرد على ذلك بأن الربا المحظور شرعا هو ربا الجاهلية ، الذى كان يجرى عن طريق المقايضة فى الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح ، وكان ينتهى باسترقاق المدين الذى يعجز عن الوفاء بدينه .

أما القول بأن الفائدة التي تؤخذ من المؤسسات المالية - تحت أى اسم تكون - هي استغلال أو تتضمن شبهة استغلال ، فإن هذا القول مردود بأنه من غير المعقول أن يستغل فرد مودع مؤسسة مالية !، كما أن هذه المؤسسات تأخذ بالأساليب الحديثة فى الادارة والتنظيم ، وتستثمر

أموالها فى أنشطة محققة الكسب ، كامتلاك العقارات وشراء السندات الحكومية والأوراق المالية الوطنية والأجنبية والأسهم فى مشروعات تجارية وصناعية مختلفة ، وغير ذلك من الأنشطة المحققة الكسب .

أما ثبات نسبة الفائدة فلا يعد بحال دليلا على الربا المحظور ، وأنه ليس المربحة المشروعة التى يدعى البعض أنها هى وحدها الحلال وماعداها حرام . ذلك أن عمل المصارف (البنوك) فى جوهره واحد ، وسواء سمت بعض المصارف ما تعطيه عن الايداعات فوائد أو أرباحا ! فتغيير الاسم لا يغير من حقيقة الحال الا على أسلوب الحيل والخدع ، فهناك بنوك تسمى الأشياء بأسمائها وتقول انها تعطى فوائد ، وبنوك تدعى أنها تصرف أرباحا . وثبات سعر الفائدة يعود فى حقيقته إلى أسلوب عمل النظام المصرفى وحرصه على الاستقرار المالى والتوازن الاقتصادى .

وقد رد المستشار محمد سعيد العشماوى ردا بليغا على استشهاد البعض بالآية الكريمة : «وأحل الله البيع وحرم الربا» ، فقال إنه ، فضلا عما سلف التدليل عليه من أن الفائدة على الايداعات لا تعد ربا ، لانتفاء الاستغلال عنها ، ولأنها لا تؤدى إلى الاسترقاق الذى يؤدى اليه الربا - فان هذه الآية مجملة ، ولا يعرف الحلال من الحرام منها ! ، بدليل أنه على الرغم من الآية تفيد حل البيع على اطلاقه ، الا أن الفقهاء لم يطلقوا هذا البيع ! ، بل حرموا أنواعا منه ، مثل بيع العينة (أى المخاطرة) وبيع المزبنة (أى بيع الشئ الجزاف) وبيع المحاقلة (أى بيع الزرع قبل بدو صلاحه) وبيع المزارعة (وهو بيع الزرع على نصيب معلوم بالثلث أو الربع أو ما شابهه) - وهذا كله يوضع عمومية الآية ، وضرورة الرجوع فى معرفة الحال والحرام منها إلى بيان الرسول الكريم (يراجع التفسير الكبير للامام الفخر الرازى ، الجزء السابع ص ٩٢، ٩٣)

. ثم قال المستشار محمد سعيد العشماوى انه اذا كان لا يوجد حكم شرعى يحرم الربح على الايداعات ، فانه حتى لو ظهر فقهاء يرون

التحريم ، فان الضرورة تبيح المحظور . واذا كانت تبيح المحظورات الشرعية ، فمن باب أولى أن تبيح المحظورات الفقهية – بمعنى أنه إذا كان الفقهاء يبيحون اقتراف المحظور بنص فى القرآن أو حديث النبى ، عندما تنشأ الحاجة لذلك ، فمن الأولى اباحة مخالفة رأى الفقهى الذى هو رأى بشر ، اذا دعت حاجة أو قامت ضرورة . هذا فضلا عن أن اتباع آراء فقهية صدرت فى الماضى نتيجة ظروفها وانعكاسا لبيئتها ، والاصرار عليها دونما تجديد يواكب ظروف العصر ويلئم احتياجات الناس المتطورة – يحبس الانسان فى الماضى ويجمد النشاط البشرى ويحصر الجهد الانسانى كله فى شكلية وهامشيات ، أو يدفعه دفعا إلى الاحتيال والخداع – كما تفعل بعض البنوك التى تتحدث عن المراجعة والمضاربة وغيرها .

هذا – اذن – هو قول العلم فى مواجهة قول الجهل والتخلف ، ولن يشاء ممن يريد الاستزادة من الأدلة والبراهين الرجوع إلى كتاب «الربا والفائدة فى الاسلام» . ولكن أليس من الغريب حقا أن يصدر هذا الكتاب بعد ١١٠ سنوات من صدور منشور «انماء المال» ، ليثبت أن مجتمعنا ما يزال يلوك هذه القضية دون ملل على مدى قرن من الزمان ؟ .

فمتى نخرج من هذه الدائرة المفرغة الخبيثة التى يسعى البعض إلى ابقائها فيها على الدوام ؟ ، أم أن علينا ان نتنظر مائة عام أخرى ؟ .

لا.. إرهاب الفتى ! *

الارهاب الذى يتعرض له فضيلة
الدكتور سيد طنطاوى ، مفتى
الجمهورية ، من الصحف التى تنطق
بلسان شركات توظيف الأموال ، لمنع
من إصدار فتوى لصالح الاقتصاد
المصرى ، ولصالح حماية مدخرات
الأهالى وضد تبديد هذا الأموال ،
واتفاقاً مع الدين الحنيف الذى شرعه
الله ، وضد التحريفات الدينية التى
أطلقتها شركات توظيف الأموال - هو
أمر شائن حقاً ، كما أنه أمر مخجل
للغاية !

هذه الصحف التى تتحدث بلسان
شركات توظيف الأموال خدعت
ال جماهير ، وروجت لها بتحريفات تعلم
هى قبل غيرها أنها لا تتفق مع الدين
الحنيف ، ودفعت الجماهير دفعاً إلى
إيداع مدخراتها فى شركات توظيف
الأموال بدلاً من إيداعها فى وعائها
القومى الممثل فى بنوك الدولة وسببت

* اكتوبر فى ١٩٨٨/٩/٣

لهم كارثة لم يسبق لها مثيل ، وسببت للاقتصاد المصرى كارثة أخرى بحرمانه من ألاف الملايين من الجنيهات كانت كفيلة بإنعاشه وإنهاضه من كبوته ، ثم أخذت بعد ذلك تدافع عن شركات توظيف الأموال حين امتنعت عن الدفع ، وتلقى اللوم على حكومة الدكتور عاطف صدقى لأنها هبت لحماية أموال المودعين ، بل أخذت تطالبها بجرأة وقحة بأن تسدد للمودعين الأموال التى سرقتها شركات توظيف الأموال !.

وها هى ذى الآن تكمل رسالتها فى خدمة شركات توظيف الأموال ، فتوجه حملة إرهاب لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الحديث إلى فضيلة الدكتور المفتى لمنعه من إصدار فتوى فى هذا الشأن تتفق مع الدين الحنيف وأحكامه !.

فأى جريمة ترتكب أمامنا ، وأى مؤامرة تحاك ضدنا ، وأى خديعة أخرى تريد تلك الصحف أن نقع ضحيتها مرة أخرى ؟.

إن شعبنا يعرف جيداً أن المدخل لقيام شركات توظيف الأموال كان تلك الحملة المغرضة التى ساققتها أقلام تدعى الإسلام وتزعم أن الفوائد والأرباح ربا ، وتدعو الناس إلى الامتناع عن إيداع مدخراتهم فى البنوك حتى لا يقعوا فى ارتكاب الحرام . وقد تلا ذلك قيام هذه الشركات تحت شعارات الإسلام ، وأطلق أصحابها اللحن المستطيلة خداعاً وتضليلاً للجماهير ، وأرسلوا الجاليلب إلى كعوب أحذيتهم ، وتظاهروا بالتقوى والإيمان ، وأجزلوا - فى الوقت نفسه - العطاء لمن يدفع ، وانهالت الأموال بالألاف أولاً ، ثم بالملايين ثم بالمليارات ، وباع الكثيرون ممتلكاتهم لوضع قيمتها فى شركات توظيف الأموال ، وبعض أصحاب المحلات الصغيرة باعوا محلاتهم وأودعوا ثمنها فى تلك الشركات طمعا فى العائد الكبير الذى لم يسبق له مثيل .

وكادت البلاد تسير إلى كارثة محققة ، لولا أن تنبّهت الحكومة متأخرة وأخذت فى تولى الأمر ، وانكشفت فضائح مخزية أزاحت قناع الدين والتقوى عن أصحاب شركات توظيف الأموال ، وشاهد الناس من

يتعاطى المخدرات منهم ، ومن تطلقه زوجته للزواج من شاب يصغرها ،
وتقيم حفلة الزفاف في أحد الفنادق الكبرى ، وعرف الناس أنهم كانوا
ضحايا لعصابة ابتزت أموالهم وخربت بيوتهم ، ومات الكثيرون غما
وحسرة على مدخرات العمر.

وبينما كان كل ذلك ينكشف ، كان أحد أصحاب شركات توظيف
الأموال ، وهو الريان ، ينشر إعلاناً بمساحة صفحة في الصحف ،
يعزف على النغمة الفاسدة التي ترددها الصحف الناطقة باسمهم حالياً ،
ويختلق على رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً يقول «لأن يزنى
الرجل بأمه في حجر الكعبة أفضل من ربا البنوك» !.

فإذا جاءت هذه الصحف الناطقة بلسان شركات توظيف الأموال اليوم
تمارس حملة إرهاب ضد فضيلة الدكتور مفتي الجمهورية ، لا ستدامة
خداع شركات توظيف الأموال للجماهير ، ولتردد مزاعمها القديمة
ومفترياتها السابقة على الإسلام ، التي تدعى فيها أن أرباح البنوك ربا
وأنها حرام ، فإنها تلعب لعبة خطيرة، أقل ما يقال فيها أنها تعرض
اقتصاد البلاد للخطر .

فالكاتب عادل حسين ، الذي كان من أقطاب الشيوعية في مصر ، والذي
ألف كتاباً هاماً عن الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية ،
استخدم فيه المنهج الجدلي ، نراه قد تحول فجأة إلى فقيه إسلامي يناطح
فضيلة المفتي الرأس ويقارعه الحجة بالحجة ، ولكنه يتفادى الفقه
الإسلامي الصحيح في تحديد علة تحريم الربا ، ويستند إلى ما أسماه
«بالفقه الإسلامي المعاصر» ! - أي فقه شركات توظيف الأموال - فيقول :
«في حدود ما قرأت ، أظن أن أغلب الفقه الإسلامي المعاصر يتجه الآن
(كذا !) إلى أن العلة في تحريم الربا تكمن أساساً في إعلاء الله لدور
العمل البشري بأشكاله المختلفة في تحقيق العمران عموماً ، وفي تحقيق
التنمية الاقتصادية بالتالي» !

ولم يسأل عادل حسين نفسه : «هل تتحقق التنمية الاقتصادية بايداع المدخرات فى شركات توظيف الأموال ؟ وهل تحققت التنمية الاقتصادية فى العالم الغربى ، فى قسمه الرأسمالى وقسمه الاشتراكى بايداع الأموال فى مثل شركات توظيف الأموال الحالية ، أو أنها تحققت عن طريق البنوك ؟ وهل كانت هذه البنوك - التى سببت نهضة وتقدم الغرب - تماثل تلك البنوك الوهمية التى يقترحها تحت اسم بنوك غدا ربوية ، والتى يعترف بنفسه بأن انشاءها يعتبر «أمراً بالغ الصعوبة».

وإذا كانت بنوكنا ربوية ، وانشاء البنوك غير الربوية يعد أمراً بالصعوبة ، ويتطلب - كما يقول - «صنفاً جديداً من البشر المؤمنين المقدامين الصابرين فى طاعة الله واجتناب نواهيه ، واجراء تغييرا جذرية فى السياسات العامة والسياسات الاقتصادية - فهل بقى أم المدخرين غير شركات توظيف الاموال يودعون فيها مدخراتهم ، كبدا لوضعها تحت البلاطة ، حتى يتربى هذا الصنف الجديد من البشر الذى ينشئ اقتصاداً غير ربوى ؟

نحن - اذن - بفضل هذا النوع من الكتابات - ندور فى حلقة مفردة منذ أكثر من مائة عام ، بل اننا نتقهقر إلى الوراء فلقد سبق لنا ان ذكرنا أنه عندما ظهرت فكرة انشاء أول بنك وطنى فى مصر إبان أحداث الثورة العربية ، وبالذات فى عام ١٨٧٩ - أى قبل مائة وعشرة أعوام كان تفكير أجدادنا يتجه إلى انشاء بنك على النمط الغربى ، وليس ه ذلك النوع الوهمى الذى يطلق عليه اسم «بنوك اسلامية» !- اذ لم يذ أجدادنا يتصورون أن البنوك الغربية بنوك ربوية ، ولأنهم لم يكونوا يخدمون شركات توظيف أموال تخرب الاقتصاد القومى وتخرب بيو المواطنين !

فقد قدم أجدادنا البنوك الغربية للجمهور المصرى على اعتبار أن «الصلة بين سائر الشركات والمتاجر والمصانع ، وهى الوسيط الذى لا منه بين المال ومنفعته ، وبدونها يهمل جزء كبير من ثروة العالم ؛

استثمار ، ففيها تستثمر الأموال المدخرة ، ومنها يقترض صاحب الحاج ليسدد على آجال توافق مصلحته ، فانشاء البنوك كان رحمة للناس وسببا كبيرا لتسهيل أشغالهم» .

هذا - بالضبط - هو الوصف الذى قدمه أجدادنا للبنوك فى المنشور المشهور الذى صدر تحت عنوان : «انماء المال» ، ودعوا فيه «أمراء القطر ووجهاءه وكل من يهمهم شأنه» للإنضمام اليهم فى تمويل انشائه .

وقد كان أجدادنا حريصين على ازالة شبهة الربوية عن مثل هذا البنك ، فتناولوا «ماقد يتوهمه البعض من مخالفة انشاء مثل هذا البنك للشريعة المطهرة بدعوى أنه لابد من دخول الربا فى معاملاته» ، وبينوا أن «القرض بالمربحة بطريق المعاملة جاز منذ القدم ، وذكره مستفاض فى كتب الفقه . واستشهدوا بالخصاف ، ومحمد بن سلمى امام بلخ ، وشمس الأمة الحلوانى ، ومفتى الروم ابن السعود» ! .

كان هذا قبل أن يظهر فقه شركات توظيف الأموال ، الذى يطلق عليه عادل حسين اسم : «الفقه الاسلامى المعاصر» ! - والذى حول بقدرة قادر البنوك من بنوك تخدم الاقتصاد القومى إلى بنوك ربوية يحرم التعامل معها إسلامياً ! .

وسوف نتجاوز عن هذا العبث بعقل الجماهير المصرية ، وهذه الاستهانة بمصلحتها الاقتصادية ، وهذا الاستخدام التحريفى للدين الاسلامى الحنيف تحت اسم «الفقه الاسلامى المعاصر» المزعوم - ونقدم للقارئ رأى كبار فقهاء الاسلام فى الربا الذى ورد تحريمه فى القرآن ، والفرق بينه وبين أرباح وفوائد البنوك .

فوفقا لعبد الله بن عباس وبعض الصحابة فان الربا المحرم هو ربا الجاهلية الذى ذكره رسول الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، حيث قال : «ألا وان ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب» .

ومن المعروف أن ربا الجاهلية - باتفاق العلماء - هو الربا الذي نزل فيه القرآن الكريم . وخصيصة هي أن يقول صاحب الدين للمدين عند حلول أجل الدين ، إما أن تقضى ، وإما أن تربى - فإن لم يقض زاد الدين . وزاد الدائن الأجل . وهذا الرأي - وهو قصر الربا على الربا الذي كان معروفا في الجاهلية ونزل فيه القرآن - هو رأى منطقي ويستند إلى القرآن

أما حكمة تحريم الربا ، فتُعرف من آيات القرآن الكريم التي نزلت في الربا . وليست من ، الفقه الاسلامي المعاصر » المزعوم ! فقد قال الله تعالى : وما تبتغون من ربا ليروا في أموال الناس ، فلا يربوا عند الله . وما تبتغون من ربا تريدون وجه الله ، فأولئك هم المضعفون (الروم ٣٩) . وقال تعالى : يحق الله الربا ، ويربى الصدقات » (البقرة ٢٧٦) . وقال تعالى : وإن تبتغوا فلكم رعب أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم » (البقرة ٢٧٩ - ٢٨٠) .

ويتضح من هذه الآيات أن الحكمة في التحريم ليست هي التي وردت في الفقه الاسلامي المعاصر لأصحاب شركات توظيف الأموال ، وإنما الحكمة هي أن اخذ الربا هو مجرد تنمية أموال الدائن في أموال المدينين ، واستغلال حاجاتهم من غير تجارة ينتفع بها الطرفان ، وأن الدائن ينفرد وحده بالمنفعة من الربا ، ويستغل أبشع استغلال ظروف ذلك المحتاج للصدقة . ومن هنا جاء تحريم الربا لمنع الظلم بنص القرآن الكريم ، حيث يقول تعالى : «إن تبتغوا فلكم رعب أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون» .

ومن هنا ، وكما يقول الشيخ محمد عبده ، فإن المعاملة التي تخلو من الظلم وينتفع بها المعطى والآخذ ، والتي لولاها لفاتتهما المنفعة - لا تدخل في هذا التعليل ، لا تظلمون ولا تظلمون » ، ويضيف الشيخ رشيد رضا في الصفحة ١٥٣٣ من الجزء الرابع من «المنار» شرحا لذلك يقول :

«وليس فى أخذ الربح من صندوق التوفير والمصارف ظلم لأحد ولا قسوة على محتاج» .

يضاف إلى ذلك أن البنوك كمؤسسات تجارية حديثة لم تكن معروفة فى عهد نزول أحكام الربا فى الشريعة الإسلامية . ولذلك تخضع لأحكام الشريعة على طريق القياس ، فإذا كان الشبه كاملاً ، من غير أى فارق بينها وبين ما قد حرّمته الشريعة من الربا القطعى ، فهى محرمة أيضاً قطعاً ، أما إذا اختلفت البنوك عن الربا القطعى ، ولو فى بعض الوجوه ، فليست محرمة تحريماً قطعياً ، وإنما يجب النظر فيها على أساس مصالح الناس فى معاشهم ، فإن كان معاشهم لا يتم إلا بها ، فهى جائزة من غير ريب دفعا للخرج الواجب دفعه عملاً بنص القرآن الكريم .

فإذا درسنا طبيعة عمل البنوك ، لمعرفة ما إذا كان عملها يدخل ضمن الأعمال الربوية التى ورد تحريمها فى القرآن الكريم تحريماً قطعياً ، نكتشف على الفور التضليل الذى تمارسه صحف شركات توظيف رؤوس الأموال باسم الدين لصرف الناس عن البنوك .

ففى معاملات البنوك يكون الدائن الذى يودع مدخراته فى البنك مالكاً صغيراً بينما يكون المدين - وهو البنك - مالكاً كبيراً - أى على عكس الحال فى الربا ، حيث يكون الدائن هو المالك الكبير ، ويكون المدين معدوماً أو شبه معدوم . وفى الوقت نفسه فإن منفعة الدائن والمدين - أى منفعة المودع والبنك هى منفعة متبادلة ، وليست منفعة مقصورة على الدائن كما هو الحال فى الربا الذى حذر منه القرآن الكريم . كما أنه لا يوجد استغلال من جانب الدائن للمدين ، لأن الدائن هنا هو مودع صغير لا يستطيع أن يفرض استغلاله على المدين الذى هو البنك ، وبالتالي لا يمكن تشبيه هذا المودع بالمرابى ، واتهامه بأنه مراب ، ومطالبته بالابتعاد بأمواله عن البنوك ، لكى يضعها فى شركات توظيف الأموال أو غيرها ممن يتاجر باسم الدين !.

يضاف إلى ذلك أن حاجة كل من المودع والبنك إلى التعامل هي حاجة ماسة ، ومصلحة كل منهما في التعامل مصلحة محققة ، وفائدة كل منها من التعامل فائدة متساوية . فالبنك يحتاج إلى سيولة مالية يحقق بها مشروعاته ، والمودع ليس في حاجة إلى ما في يده من سيولة مالية ادخرها ، وتحريم التعامل بينهما يلحق الخسارة بكل من البنك والمودع ، فهو يحرم البنك من الفائدة التي يجنيها لنفسه وللاقتصاد القومي من مشروعاته ، ويحرم المودع من ربح يمكن أن يحققه من مدخراته ، وقد يعرضها للخطر إذا احتفظ بها بيته .

وفضلا عن ذلك فإن البنك في حالة القروض يقدم نوعين من القروض : قرض استهلاكي وقرض انتاجي . وقرض الانتاج ماهو إلا أخذ مبلغ من المال من البنك للاستثمار والتنمية عن طريق النشاط التجاري أو الصناعي أو كليهما معا . ويلتقى هذا التصرف مع نظيره في المعاملات الاسلامية أقره الرسول صلى الله عليه وسلم ، يعرف باسم المضاربة أو القراض .

والمضاربة ، كما وردت في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة في الجزء الثالث صفحة ٤٣- هي عقد بين اثنين يتضمن أن يدفع أحدهما للآخر مالا ليتجربه ، بجزء شائع معلوم من الربح كالنصف أو الثلث أو نحوهما . لذلك أفتى الشيخ محمد عبده بجواز تحديد الربح في المضاربة، وأفتى بأن ذلك لا يكون من الربا ، فقال : « ولا يدخل فيه أيضا (يقصد الربا) من يعطى آخر مالا ويجعل له من كسبه حظا معيناً ، لأن مخالفة قواعد الفقهاء في جعل الحظ معيناً قل الربح أو كثر ، لا يدخل في ذلك الربا الجلى المخرب للبيوت ، لأن هذه المعاملة نافعة للعامل ولصاحب المال معا ، وذلك الربا الضار بواحد بلا ذنب غير الاضرار ، ونافع لآخر بلا عمل سوى القسوة والطمع ، فلا يمكن أن يكون حكمهما في عدل الله واحدا ،

بل لا يقول عادل ولا عاقل من البشر إن النافع يقاس على الضار ويكون حكمهما واحدا ! (المنار، المجلد التاسع ، الجزء الخامس صفحة ٣٥٥).
وقد نسي الشيخ محمد عبده أن العدل والعقل شيء ، ومصلحة أصحاب شركات توظيف الأموال في سحب مدخرات المواطنين وحرمان البنوك منها شيء آخر ! .

وقد اتفق الأستاذ عبد الوهاب خلاف مع رأى الشيخ محمد عبده بلا تردد ، فقال : « إن هذا صحيح شرعا ، واشتراط الفقهاء - لصحة هذا العقد - ألا يكون لأحدهما نصيب معين من الربح ، اشتراط لا دليل له». ثم قال : « ان هذا تعامل صحيح ، فيه نفع لرب المال الذى لا خبرة له علي استثمار ماله بنفسه ، وفيه نفع للتاجر الماهر أو المقاول الناجح على أن يكون له رأس مال يعمل به ويربح . فهو تعامل نافع للجانبين ، وليس فيه إضرار ولا ظلم لأحد من الناس ، بل إن سد هذا الباب من أبواب التعاون فيه اضرار ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار» (مجلة لواء الاسلام ، السنة الرابعة العدد ١٣ ص ٩٠٨ شعبان ١٣٧٠).

وفى فتوى أخرى لفضيلة الأستاذ ، ردا على أحد الموظفين : « هل يجوز لى أخذ الربح الذى أخذه من صندوق التوفير ؟» - ذكر فيها قول الشيخ محمد عبده السابق ، وانتهى إلى القول بأن الايداع فى صندوق التوفير هو من قبيل المضاربة ، والمضاربة عقد بين طرفين على أن يكون المال من جانب والعمل من جانب ، والربح بينهما . وهذا صحيح شرعا .

ومن هذه المقارنة بين الربا ، الذى ورد تحريمه فى القرآن الكريم ، ومعاملات البنوك ، يتضح أن معاملات البنوك تختلف تماما عن الأعمال الربوية التى حذر منها القرآن الكريم . بل إنها - كما انتهى الدكتور ابراهيم بن عبد الله الناصر ، المستشار القانونى بالمملكة العربية السعودية ، فى بحثه الممتاز الذى استندنا إليه فى هذا المقال - تعد حاجة من حاجات العباد لا تتم مصالح معاشهم إلا بها ، وحظرها يهدد كيان

الدولة والأمة الإسلامية ، ويقضى نهائياً على مصالحهم الاقتصادية ، ويجعلهم تحت رحمة أعدائهم وأعداء دينهم الذين يتحكمون فى ثرواتهم ، بل يستخدمونها لزيادة قوتهم ضد أمة الاسلام .

واعجب معى أيها القارئ - بعد كل هذا - من أقلام تستخدم اسم الاسلام لطعن المسلمين والقضاد على مصالحهم الاقتصادية وتخريب اقتصاد الدولة ، واعجب معى أكثر لهذه الأقلام وهى تستخدم اسم الاسلام فى ارهاب مفتى الجمهورية الدكتور سيد طنطاوى وتهديده ، لمنعه من اصدار فتوى شرعية تتفق مع أحكام الدين الحنيف والفقه الاسلامى الأصيل ، ولا تجد ما تستخدمه فى ذلك سوى ذلك السلاح المغلول الذى تسميه « الفقه الاسلامى المعاصر » ! - أى فقه شركات توظيف الأموال !.

مرة أخرى : لا للهجوم على المفتي!

* أكتوبر فى ٢٤/٩/١٩٨٩

المستشار الأستاذ طارق البشرى
كتب مقالا فى جريدة الوفد يوم ١٥
سبتمبر ١٩٨٩ ، تحت عنوان : « قراءة
فقهية فى بيان المفتى حول شهادات
الاستثمار » ، انتهى فيه إلى أن « المفتى
لم يجتهد ، ولم يصدر فتوى ، ولم يحسم
قولا ، ولم يعزز رأيا » ! ، وانه « تنازل
عن مهمة الإفتاء لغيره ، سواء كان هذا
الغير هو البنك ، أو بعض أعضاء لجنة
فرعية لمجمع البحوث » ، وأن بيانه « قد
التوى بالبيان الدليل ، وأفتقد البرهان »!
وقد توصل الصديق الأستاذ طارق
البشرى إلى هذا الحكم عبر حيثيات لم
أكد أنتهى من قراءتها حتى افتقدت فى
الصديق العزيز ما تعودت ، وتعود
قراؤه ، عليه من سلامة حجج وسداد
براهين وصواب استشهاد ،

ولما كانت هذه القضية تعد من
أخطر ما مر بتاريخ بلادنا الاقتصادية
والاجتماعية من قضايا ، وقد شغلت

بال شعبنا منذ أيام الثورة العراقية حتى الآن ، وصدرت فيها اجتهادات وفتاوى تصعب على الحصر، وكانت من الأسباب التي ألحقت كوارث اقتصادية بفريق كبير من شعبنا ، وسلاحا فى يد مستغليه ، وفوتت على الاقتصاد الوطنى فرصا كبيرة للنهوض فى خدمة هذا الشعب وهذا الوطن - فقد أصبح السكوت عن مناقشتها كالسكوت عن الحق ، ولم يعد مفر من التصدى للحجج التى ساقها الصديق المستشار طارق البشرى فى مقاله .

فلعل أكثر ما استلقت انتباهى من ملاحظات الصديق العزيز طعنه على المفتى لؤاله البنك الأهلى عن «شهادات الاستثمار» ، «هل تعتبر قرضا أو هى وديعة أذن صاحبها باستثمار قيمتها»؟ فقد علق على ذلك قائلا : إن القاضى إذا فوض الخصم فى تحديد الوصف القانونى الذى يتحدد به الحكم الواجب إعماله فى هذه الحالة ، وإذا فوض القاضى الخصم فى تحديد الوصف القانونى والفقهى لنوع التعامل محل النزاع ، أو للواقعة موضع الدراسة ، يكون قد تخطى عن صميم وظيفته لهذا الخصم ، ويكون قد فوض هذا الخصم فى اختيار الحكم الواجب التطبيق ، لذلك راعنى - والكلام ما يزال للمستشار البشرى - أن يسأل فضيلة المفتى البنك عن الوصف الفقهى لشهادات الاستثمار ، وهل هى قرض أو وديعة ؟ رأيت قاضيا يفوض المتهم فى حسم ما اذا كان المال المسروق مملوكا له أم للمجنى عليه ، أو يفوض الخصم فى تحديد ما إذا كان العقد بيعا أو ايجارا ؟ لقد أفتى البنك بأن شهادات الاستثمار ودائع، وبهذه الفتوى أصدر المفتى أصدر المفتى بيانه !

ذلك أن السؤال الذى يطرح نفسه : كيف يعتبر المستشار طارق البشرى البنك الأهلى خصما فى هذه القضية ، ويلجأ إلى تشبيهه بالمتهم السارق الذى يفوض فى حسم ما إذا كان المال المسروق مملوكا له أم للمجنى عليه ؟ . هل يرى أن هذا التكييف للقضية على هذا النحو يعد تكييفا صحيحا ؟ وهل يعد تكييفا قانونيا ؟ .

وكيف يقلب الصديق طارق البشرى للقضية على هذا النحو المذهل ،
فيصبح البنك - الذى يمثل الدولة واقتصادها - سارقا ، بدلا من أن يكون
خصوم البنك - الذى سرقوا أموال شعبنا واستولوا على مدخراته من
خلال تطويل لحاهم فى شركات توظيف الأموال ،ومن خلال استغلال
الفتاوى التى تحرم المعاملات المصرفية - هم السارقون ؟

اننى أسأل الأستاذ طارق البشرى : هل سبق للبنك الأهلى أو لأى
بنك من بنوك الدولة أن سرق مدخرات مواطن مصرى مسلم كما سرقتها
أصحاب اللعى الطويلة ؟

سوف أروى لك قصة عايشتها : منذ عشر سنوات ماتت ابنة قريب
لى يعمل فى بلد عربى ، وتركت تسعة آلاف جنيه ، فوزعها زوجها على
بناتها الثلاث القصر ، واشترى لكل منهن شهادات استثمار بثلاثة آلاف
جنيه . وفى هذا العام - بعد عشر سنوات - جاء الوالد من البلد العربى
ليتسلم شهادات استثمار بناته ، فتسلم نحو ثلاثين ألف جنيه ، أى بواقع
نحو عشرة آلاف جنيه لكل بنت !

فأين السرقة التى ارتكبها البنك فى هذه القصة ؟ لقد تسلم تسعة
آلاف جنيه ، فسلم ثلاثين ألف جنيه ! ثم أين الحلال والحرام فى هذه
القصة ؟ هل الحلال أن تتسلم البنات الثلاث القصر تسعة آلاف جنيه
بعد عشر سنوات ، أو يتسلمن ثلاثين ألف جنيه ؟

هل يمكن لأى أحد فى هذا البلد ، حتى ولو كان نصابا ، أن يزعم أن
البنات الثلاث القصر قد ارتكبن بعملهن هذا خطيئة الربا المحرم الذى
توعده الله تعالى مرتكبيه بمحاربتهم ؟ وهل يمكن القول بأنهن أكلن مال
البنك الأهلى المصرى بالباطل ، لأنهن لا يستطعن التجارة واستثمار
أموالهن بأنفسهن ؟

وما الطريق الأكثر أمنا لأولئك البنات القصر ؟ هل يدفعن بأموالهن إلى
شركة توظيف أموال أو لأحد التجار لكى يستثمر لهن أموالهن ، أو الأمن
لهن أن يودعن أموالهن فى البنك الأهلى المصرى ؟ وإذا كان لدى أى

مواطن مدخرات لا يستطيع استثمارها بنفسه ، ويخشى من المغامرين
فما هو الطريق الأمثل لاستثمار أمواله؟.

ولقد أودع والد البنات القصر الثلاثين ألف جنيه مرة أخرى فى
البنك الأهلى ، ليتسلمها أكثر من مائة ألف بعد عشر سنوات ، بواقع
٣٥-٤٠ ألف جنيه لكل فتاة ، بما يمكنها من بناء حياتها . فهل كان
الحلال أن يتسلمن ثلاثة آلاف جنيه فقط كما تركت والدتهن ، أو يغامرن
بالمبلغ كما فعل الذين أودعوا أموالهم فى الريان؟ وأى نوع من الاستغلال
ارتكبته البنات الثلاث للبنك الأهلى حتى يستحقن غضب الله وحربه
وحرب رسوله ، كما يقول النصابون الذين لا يخافون الله ورسوله ،
ويتاجرون بالدين والحساب شركات توظيف الأموال؟ ألم يستفد البنك
الأهلى من أموالهن فى مشروعاته الاستثمارية ، واستفاد اقتصاد البلد ،
واستفدن هن من أموالهن؟

وأين هذا النوع من المعاملات المصرفية من ربا الجاهلية ، الذى نزل
فيه القرآن ؟ هل هناك أى وجه شبه بين النوعين ؟ إن ربا الجاهلية يقوم
على الاستغلال البشع من جانب من يملكون حاجة من لا يملكون فلا
يكاد المقترض يعجز عن الدفع حتى يفرض عليه الدائن الزيادة (الربا)
ويقول له : إما أن تقضى وأما أن تربى - فيضطر هذا إلى أن يربى ، ثم
يعود فيربى ، ويربى ويربى حتى يبيع نفسه ! لذلك اتخذ الاسلام موقفا
متشددا من هؤلاء المستغلين ، وأوصى بالصدقة والزكاة بدلا من مضاعفة
المال على المدينين ، فقال تعالى: (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس
فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم
المضعفون) (الروم ٣٩) ، وقال تعالى: (يمحى الله الربا ويربى
الصدقات) (البقرة ٢٧٦) ، وقال تعالى : (وان كان ذو عسرة فنظرة إلى
ميسرة وأن تصدقوا خير لكم) وقال تعالى: «يأيتها الذين آمنوا اتقوا الله
وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأنذونا بحرب من
الله ورسوله) (البقرة ٢٧٨-٢٧٩) وعندما تذرع المستغلون بأن ما

يرتكبونه من استغلال وما يكسبونه من الربا هو أشبه بالربح الذى يأتى عن طريق البيع ، فرق الله تعالى بين الربا والبيع وتوعدهم بالعذاب يوم القيامة لهذا الخداع فقال : (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا) ، وقال . (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) .

مفهوم الربا فى القرآن اذن هو بعيد بعد السماء عن الأرض عن المعاملات المصرفية الحالية ، ومن هنا جاء التحريم ، لقد جاء التحريم لأن الدائن ينفرد وحده بالمنفعة من الربا ، بينما ينفرد المدين بالضرر والاستغلال الشائن ، وقد جاء التحريم لأن أخذ الربا هو مجرد تنمية أموال الدائن فى أموال المدينين واستغلال حاجاتهم من غير تجارة ينتفع بها الطرفان ، ولذلك ندد الله تعالى بهذه التنمية الظالمة فقال تعالى :

(وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) . وقد جاء التحريم لأن الدائن يستغل حاجة المدين ، ويضاعف الربا عليه كلما حل الأجل وعجز عن الوفاء ، وقد جاء التحريم لأن المدين العاجز عن الدفع هو أولى بالصدقة بدلا من مضاعفة الدين عليه .

فأين هذا المفهوم من المعاملات المصرفية التى جرت فى حالة البنات القاصرات المذكورة ؟ إن البنات الثلاث طوال السنوات العشر السابقة كن دائنات للبنك ، فهل كن يشبهن المرابى فى الجاهلية بأى وجه من وجه الشبه ؟ ثم وهل يمكن تصوير البنك الأهلى المصرى فى صورة المدين المحتاج للصدقة الذى يعجز عن الدفع فتقول له البنات الثلاث : إما أن تقضى وإما أن تربى ؟ وهل انفردت الدائنات الثلاث الصغيرات بالمنفعة دون البنك ، حتى يشفق أدياء الدين والمتاجرين به على البنك الأهلى المسكين الذى يستحق الصدقة ؟!

وإذا كان البنك الأهلى سعيدا بهذه المعاملة ، ويعلم أنه ينتفع بها كما تنتفع الدائنات الثلاث الصغيرات فما الذى يغضب المتاجرين بالدين ؟ وإذا

كان البنك قد قبل أن يدفع للبنات الثلاث الدائيات أموالهن بربح محدد مسبقا بدلا من ربح متغير ، فهل تبلغ الغفلة بالبعض أن يرتكن إلى ذلك فيصور المعاملة في صورة ربا كريا الجاهلية الذي نزل فيه القرآن ؟ هل يريد أولئك الناس أن نلغى عقولنا كما ألغوا عقولهم ؟

إننى لا أوجه هذا الكلام للصديق العزيز الأستاذ طارق التشرى لسبب بسيط هو أنه لم يحدد لنفسه موقفا من فتوى المفتى ، فلم يقل إنه ضد الفتوى ، ولم يقل إنه مع الفتوى ! - أى أنه فعل نفس ما عابه على المفتى ، الذى اتهمه بأنه « لم يصدر فتوى ، ولم يحسم قولا ولم يعزز رأيا » .

وكنا نود لو اجتهد الأستاذ طارق التشرى وقدم لنا نتيجة اجتهاده ولكن قراءة مقاله تعطينا الحق في أن نقول إنه ضد الفتوى ومع رأى الآخر ، فهو يقتصر فى مناقشة المفتى على ذكر الفتاوى التقليدية المختلفة السابقة التى اعتبرت معاملات البنوك ربا ، ويورد قائمة طويلة بها ، ويصفها بأنها « أكثر حسما وأوضح معنى » ! وأنها صدرت من دار الافتاء التى يتولاها المفتى حاليا .

والغريب أنه بعد ذلك يتهم المفتى بأنه فيما عرضه « كان تابعا ومقلدا محضا » ، وينسى أنه لو كان تابعا ومقلدا محضا ، لاعتمد الفتاوى القديمة بدلا من الاجتهاد لتقديم فتوى جديدة !- وكل ذلك مما يدعونا إلى القول بأن الأستاذ طارق البشرى لم يكن عادلا مع المفتى كما عودنا فى مواقفه .

فهو يورد فتوى سلف المفتى السابق وشيخ الأزهر حاليا فى ١٤ مارس ١٩٧٩ ، التى يحرم فيها « أذون الخزانة وسندات التنمية التى تصدرها الدولة بمعدل ثابت ، على أساس أنها من باب القرض بفائدة ، وأن الشريعة قد حرمت القروض ذات الفائدة المحددة أيا كان المقرض أو المقرض لأنها من باب الربا المحرم شرعا بالكتاب والسنة والاجماع » .

كما أورد الفتوى الصادرة فى ٩ ديسمبر ١٩٧٩ التى تحرم شهادات الاستثمار وفوائد التوفير والإيداع ، على أساس أنها قرض بفائدة ، وبالتالي تدخل فوائدها فى نطاق ربا الزيادة لا يحل للمسلم الانتفاع بها ! ثم أورد الفتوى الصادرة فى ١٠ يناير ١٩٨٠ التى حرمت فوائد دفاتر التوفير وشهادات الاستثمار فيما عدا الشهادات ذات الجوائز ، لنفس السبب وهو أنها من باب الربا المحرم شرعا ! وأورد كذلك الفتوى المؤرخة فى ١٢ و ٢٢ يناير ١٩٨٠ التى تقول بأنه لا فرق فى حرمة التعامل بالربا بين الأفراد والجماعات أو بين الأفراد والدولة ! ثم الفتوى المؤرخة فى ٢ أغسطس ١٩٨٠ التى ذكرت أن شهادات الاستثمار ذات الفائدة المحددة مقدما من قبيل القرض بفائدة ، وكل قرض بفائدة محددة ربا محرم ! ثم أورد أيضا الفتوى الصادرة فى ٢ فبراير ١٩٨١ .

كل هذه الفتاوى التى تحرم شهادات الاستثمار والتوفير وغيرها ، أوردها المستشار طارق البشرى بدقة شديدة ، وهاجم المفتى لأنه لم يشر إليها ، ولكنه - وهو القاضى الذى يزن الأدلة - لم يشر أية إشارة إلى الفتاوى الأخرى التى أحلت هذه الفوائد لعلماء أفذاذ ، ومجدين اسلاميين كبار ، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده - ليعترك للقارئ الحكم بنفسه - إذا شاء هو ألا يدلى برأيه فى هذا الموضوع - بدلا من ان يقول إن بيان المفتى « لا أجده مبرئا لدمتى إن اتبعته فيما انتهى اليه » .

نعم لم يورد المستشار طارق البشرى فتوى واحدة من الفتاوى التى أحلت هذه الفوائد ، رغم أنها استندت إلى الأساس الوحيد الذى يجب أن يستند اليه كل عالم يحترم نفسه وعلمه ، وهو فلسفة التحريم والتحليل - أو حكمة التحليل والتحريم .

فلم يحرم المولى تعالى شيئا ، أو يحرمه على المسلمين اعتباطا ، وإنما لعل تتصل بمصلحة المسلمين أنفسهم ، لأن الله غنى عن العالمين . وقد كان المفكرون والمجددون الاسلاميون على مدى التاريخ يستندون إلى هذه العلة فى فهم النص وتفسيره ، بينما كان المقلدون الخاملون

يتجاهلون هذه العلة لأنهم لا يستطيعون إدراكها ، فنكبوا أمتهم وأورثوها
التخلف حتى وصلت إلى الحال التي هي عليها الآن .

وعلى سبيل المثال فإن الفتاوى التي حرمت الفوائد لم تستند إلى
حكمة تحريم الربا ، وهي منع الاستغلال والظلم الذي يلحقه المالكون
بالمعدمين ، أو يلحقه القادرون بالعاجزين ، وإنما استندت إلى حجة
ساذجة هي أن الفائدة محددة مسبقا ! - أى أن هذه الفتاوى تحلل الفوائد
إذا لم تكن محددة مقدما ، فهل هناك سطحية أكثر من ذلك ؟ هل لهذا
السبب حرم الله الربا وتوعد المرابين بحرب من الله ورسوله ؟ أم لأن
المرابين يستغلون حاجة غير القادرين ويمارسون عليهم ظلمهم ،
ويثقلونهم بدينهم ؟

ومن أعجب ما تضمنه مقال الصديق طارق البشرى هو أنه يعيب
على بيان المفتى أنه «لم يتضمن ذكر نص واحد من نصوص القرآن أو
السنة التي تعرضت لهذا الأمر » ! فهل تعرض نص في القرآن أو السنة
لمعاملات البنوك ؟ إن النصوص التي وردت في القرآن أو السنة تعرضت
لشيء واحد هو ربا الجاهلية ، وليس معاملات البنوك ، ومن الضروري
عند الحكم على ما إذا كانت معاملات البنوك محللة أو محرمة - مطابقتها
على ربا الجاهلية ، فإذا تطابقت وجب تحريمها على اعتبار أنها ربا ،
وإذا لم تنطبق وجب تحليلها .

وقد كان عبد الله بن عباس ، ومعه طائفة من صحابة رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، يقصرون الربا على الذي كان معروفا في
الجاهلية، ونزل فيه القرآن ، وعندما ظهر تيار يوسع دائرته حتى طغت
على كثير من ضروب التعامل ، قال عمر بن الخطاب ، : « إنا والله ما
ندري لعلنا نأمركم بأمور لا تصلح لكم ، ولعلنا ننهاكم عن أمور تصلح
لكم ، وإنه كان من آخر القرآن الكريم نزولا آيات الربا ، فتوفى رسول الله
صلى الله عليه وسلم قبل أن يبينه لنا ، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا
يريبكم » ، ثم يقول : « لقد خفت أن نكون قد زدنا في الربا عشرة أضعافه
بمخافته » أو يقول : « تركنا تسعة أعشار الحلال مخافة الربا » !.

على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - فى الحقيقة - لم يترك الأمر ! فقد حدد المقصود بالربا فى حجة الوداع - وهى آخر مرة خاطب فيها الرسول أمته - بأنه ربا الجاهلية ، حيث يقول : « ألا وإن ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب » .

الأمر - اذن - محدد بالقرآن والحديث النبوى الشريف ، وهو ربا الجاهلية . وربي الجاهلية - باتفاق العلماء - هو الربا الذى نزل فيه القرآن ، وخصيسته هى أن يقول صاحب الدين للمدين عند حلول أجل الدين : إما أن تقضى وإما أن تربى . فإن لم يقض زاد المدين المال وزاد الدائن الأجل .

ومن هنا - أى من حكمة التحريم - أفتى الشيخ محمد عبده بجواز تحديد الربح قائلًا : « ولا يدخل فيه أيضا » يقصد الربا « من يعطى آخر مالا ويجعل من كسبه حظا معينًا ، لأن مخالفة قواعد الفقهاء فى جعل الحظ معينًا قل الربح أو كثر ، لا يدخل فى ذلك الربا المخرب للبيوت ، لأن هذه المعاملة نافعة للعامل ولصاحب المال معا . وذلك الربا - الضار بواحد بلائذنب غير الاضرار ، ونافع لآخر بلا عمل سوى القسوة والطمع - لا يمكن أن يكون حكمهما فى عدل الله واحدا ، بل لا يقول عادل ولا عاقل من البشر إن النافع يقاس على الضار ويكون حكمهما واحدا .

وقد اتفق الأستاذ عبد الوهاب خلاف مع الشيخ محمد عبده ، وقال : إن « هذا صحيح شرعا ، وإن اشتراط الفقهاء لصحة هذا العقد ألا يكون لأحدهما نصيب معين من الربح اشتراط لا دليل له » . ثم قال : إن هذا تعامل صحيح ، فيه نفع لرب المال الذى لا خبرة له على استثمار ماله بنفسه ، وفيه نفع للتاجر الماهر والمقاول الناجح على أن يكون له رأس مال يعمل به ويربح فهو - تعامل نافع للجانبين ، وليس فيه اضرار ولا ظلم لأى أحد من الناس ، وسد هذا الباب من التعاون فيه اضرار ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » .

وقد انتهى فضيلة الأستاذ عبد الوهاب خلاف إلي القول بأن الايداع في صندوق التوفير هو من قبيل المضاربة ، وهى عقد شركة بين طرفين ، على أن يكون المال من جانب والعمل من جانب ، والربح بينهما - وهو صحيح شرعا - وإن اشتراط الفقهاء لصحة العقد ألا يكون لأحدهما من الربح نصيب معين ، اشتراط لا دليل عليه ، وكما يصح أن يكون بالنسبة، يصح أن يكون حظا معنيا .

والخلاصة فى هذا الرد - الذى أعتمد فيه على الطبعة الثانية من البحث الذى أعده المستشار القانونى بالسعودية ، الدكتور ابراهيم بن عبد الله الناصر - أن اقتصاد مصر ومصلحة شعب مصر يقتضيان من كل صاحب فكر تقديم أن يقف ضد أصحاب الفكر الدينى المتخلف ، بعد أن قال عمر بن الخطاب : « لقد خفت أن نكون قد زدنا فى الربا عشرة أضعافه بمخافته » ، أو قوله : « تركنا تسعة أعشار الحلال مخافة الربا » .

كذلك فإن مصلحة شعب مصر واقتصاد مصر تتطلب منا جميعا أن نقف مع المجددين الذين يتحملون عناء شديدا فى ظل هذا المناخ المتخلف المخيم على المجتمع المصرى .

وإذا كان مفكر تقدمى كثل الأستاذ طارق البشرى يهاجم المجددين لحساب المتخلفين ، أفليس من حقنا أن نتشائم كثيرا ؟ ففى الوقت الذى يتجاوز فيه القمر الصناعى الأمريكى « الرحلة ٢ » الكوكب نبتون الذى يقع على بعد ٧٢٠٠ مليون كيلومتر تقريبا من الأرض ، مازلنا مكبلين بقضايا ترجع إلى القرن الأول الهجرى !

ولا نكاد نعثر على اسلامى مجدد بعد قرن من الزمان ، حتى نفاجأ بالتقدميين أنفسهم يقذفونه بالحجارة ! ويحب علينا ألا ننتظر معجزة ، فقد انتهى عصر المعجزات ، وقد حدد المولى تعالى القضية فى هذا الشكل : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » !

الفصل الثالث
عن الديمقراطية
والحياة الحزبية
في مصر

حول مصادرة جريدة الأهالى *

لست أعتقد أن سلطاتنا كانت
موفقة في مصادرة جريدة «الأهالى»
يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٨٧، أى عشية
انتخاب الرئيس مبارك من قبل الشعب
رئيسا للجمهورية لمدة ثانية* . فلقد
تعود الرؤساء أن يمهّدوا لمدة انتخابهم
الثانية بعمل يقربهم إلى قلوب الشعب
ويشعره بالثقة والأمن والطمأنينة، ولكن
هذا العمل ألقى الرعب فى قلب كل
صاحب قلم، لأنه أعاد إلى الذهن
ذكريات مريرة، كادت تمحى بفعل ست
سنوات من حكم الرئيس لم يصادر
فيها صحيفة ولم يحجر على حرية قلم.

ومن المعروف أن الرئيس السادات
بدأ رده عن الديمقراطية التى أعلنها -
رغم شدة تواضعها - بمصادرة جريدة
«الأهالى» ، وظل يصادرها بغرض

* جرت عملية انتخاب الرئيس مبارك لفترة رئاسة
ثانية يوم ٥ أكتوبر ١٩٨٧ وتم أنتخابه بأغلبية
٩٧١٢ / مقابل ٢٨٢ من الأصوات

الوفد فى ١٩ / ١٠ / ١٩٨٧

تركيعها مستعينا بأسوأ ما رأت مصر من الأحكام القضائية المفبركة فى فابريكة السادات القضائية، حتى أفلح فى اقناع الصحيفة بالتوقف عن الصدور لمدة خمسة أسابيع، احتجاجا على القانون المشبوه الذى أصدره تحت اسم «قانون حماية الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعى» . وقرر حزب التجمع وقف نشاطه خارج مقاره، وحصره فى داخل هذه المقار ، والاكتفاء بنشر داخلية باسم «التقدم» .

ومن هنا فان مصادرة صحيفة «الأهالى» عشية انتخاب الرئيس مبارك لمدة رئاسة ثانية كان بكل المعايير عملا أسود وغير مسئول، ليس فقط لأنه استهلاك سىء لمدة رئاسة يستبشر بها الشعب، وليس فقط لأنه اجراء غير قانونى ولم يصدر به قرار نيابة، وهو بالتالى عودة إلى مصادرة الصحف اداريا بغير مقتضى من القانون – وانما لأنه اجراء يتناقض مع فلسفة الرئيس مبارك السياسية التى أعرفها جيدا كما سمعتها منه، وهى أن يدع الشعب هو الحكم بينه وبين الصحف المعارضة، ويترك له مسئولية التعامل معها بما يشاء .

وأعتقد أن الشعب قد حكم بالفعل بين الرئيس مبارك وجريدة «الأهالى» فهذه الجريدة، التى ارتفع توزيعها فى يوم من الأيام إلى أكثر من مائة وخمسين ألف نسخة، انخفض توزيعها إلى أقل من الثلث، ولولا توزيعها فى بعض البلاد العربية المجاورة التى تتربص بمصر وتناصبها العداء ، لتعرضت لأزمات مالية قد تجبرها على التوقف .

فاذا جاءت الادارة اليوم لتصادر جريدة «الأهالى» دون سبب قانونى مشروع، فانها تعمل على ترويج الجريدة التى كاد ينساها الناس، وأكثر من ذلك أنها تثير عطف الجماهير عليها وانتباههم إلى أفكارها . وليس فى ذلك ما ينفع السلطة فى قليل أو كثير .

ثم إن ذلك كله يتم بدون أن يحقق أية نتيجة لصالح الحكومة!، لأن الرئيس مبارك لا يملك جهازا يفبرك له الأحكام القضائية كما كان يملك

السادات !، ولا يقتنى « سحالى » ولا ثعابين تفتك بصحف المعارضة، كما فتكت « السحالى » والثعابين بصحيفة « الأهالى » عن طريق الأحكام القضائية فى عهد السادات !. ومن هنا أفرجت الادارة عن الصحيفة المصادرة فى اليوم التالى مباشرة، وكانت بين يدى القراء بعد أقل من أربع وعشرين ساعة ! .

ومعنى ذلك أن قرار المصادرة والتحفظ الادارى لم يحقق من غرض الا زيادة توزيع الجريدة !، لأن الممنوع مرغوب، ومن حق الجريدة أن تستفيد من حمق خصومها السياسيين فى الادارة المصرية فى تعويض خسائرها التى نجمت عن المصادرة والتحفظ . وفى الوقت نفسه اذا كانت الادارة قد أرادت من قرار التحفظ على الجريدة تعطيل القراء عن قراءة ما تفيض به أبواب الجريدة من هجوم على الرئيس مبارك، فانها لا تكون بهذا القرار الا قد قدمت إلى القراء دعوة مفتوحة وعاجلة وملحة لقراءة هذا الهجوم !.

والأمر المثير، والذي يفضح بالفعل غرض الادارة من التحفظ على الأهالى، هو التحفظ على العدد ١٦ من كتاب الأهالى : «لماذا نعارض مبارك»، والذي يحتوى على كل افتتاحيات الأهالى والمقالات التى اعترضت على قرارات أو مواقف أو كلمات للرئيس مبارك فى الفترة من ١٩ مايو ١٩٨٢ حتى منتصف سبتمبر ١٩٨٧، وتبلغ نحو مائة افتتاحية ومقال وملحق .

فلقد تحفظت الادارة على هذا الكتاب حتى مضت الانتخابات بسلام، ثم أفرجت عنه !. وهو اجراء يثير الضحك أكثر مما يثير الأسف، لأن الادارة بذلك تثبت أنها تسيء الظن بشعبية الرئيس مبارك بقدر ما تحسن الظن بتأثير كتاب الأهالى !. فقد توهمت أنه لا يكاد يصدر كتاب الأهالى حتى تقبل جماهير المصريين على قراءته قراءة متمعنة، وتعقد حلقات المناقشات حوله، ثم تتأثر بما ورد فيه، فتدلى بصوتها ضد اعادة انتخاب الرئيس مبارك لمدة رئاسة ثانية !.

مع أن قليلا من حسن الادراك والفهم لطبيعة الشعب المصرى

وتصرفاته السياسية، يبين أن الشعب المصرى لا يتخذ قراراته، بالتأييد أو المعارضة، بناء على عمليات حسابية من الجمع والطرح، وانما يتخذ قراراته بناء على عمليات كيميائية غامضة، تؤدى به إلى حب هذا الزعيم أو كرهه، إلى تأييده أو معارضته !.

فلقد وضع عبد الناصر الشعب المصرى تحت وصاية سياسية استمرت طوال حياته، صفى فيها جميع القوى السياسية المعارضة له، وفتح لها أبواب المعتقلات والسجون، ومنيت فيها مصر بأشنع هزيمة عسكرية فى تاريخها، وخاض بها حرب استنزاف أكلت الحرث والنسل، ووجه موارد البلاد الرئيسية للمعارك والصراعات على مساحة العالم العربى كله وليس فقط الصراع العربى الاسرائيلى . ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن ينكر أن الرئيس عبد الناصر ظل يتمتع بتأييد، بل وبحب الشعب المصرى، حتى توفاه الله !.

وكل ذلك لأسباب خفية مدفونة فى ضمير الشعب المصرى، قد يكون أحدها أن عبد الناصر كان يمثل فكرة الاستقلال الوطنى المتخلص من أية تبعية للقوى الكبرى، وقد يكون ثانيها أن عبد الناصر كان يمثل فكرة النضال الوطنى ضد الاستعمار والامبريالية، وقد يكون ثالثها أو رابعها أو خامسها أسباب أخرى، ولكن حسابات الشعب المصرى الكيميائية أدت به إلى تأييد هذا الزعيم وحببه، رغم ما ذاق على يده من وصاية وهزائم عسكرية !. ولا يستطيع أحد أن يسأل الشعب المصرى عن ذلك، لأن الشعب المصرى - كما أثبت تاريخه - على حق دائما !.

وبالنسبة للرئيس مبارك فقد يكون كل ما ورد فى كتاب الأهالى صحيحا، ولكن حسابات الشعب المصرى قد تدفع به إلى المقارنة بين ممارسة مبارك الديموقراطية وممارسة حزب التجمع الديموقراطية . ففى ممارسة الرئيس مبارك لم يضطهد خصما سياسيا، رغم ما فى يده من

سلطات هائلة وقانون يستخدمه للطوارئ، وترك لمن يشاء من أحزاب المعارضة أن يقول «لا» - علانية وصراحة - لمدة رئاسة ثانية له !.

ولكن ممارسة حزب التجمع للديموقراطية ممارسة حافلة بارهاب الخصوم السياسيين فكريا، والبذاءة ضدهم، واحتكار الديموقراطية والحرية لنفسه فى تلويث سمعة مخالفيه فى الرأى، ومنع نشر دفاعهم عن أنفسهم فى جريدته، مع أنه أبسط حق للإنسان فى مجتمع متحضر- فهى اذن ديمقراطية زائفة تعرف الجماهير زيفها، وتعرف أن الحزب يطلق شعاراتها للمتاجرة بها وليس من منطلق الايمان بها !.

ومن هنا ديمقراطية الرئيس مبارك، التى تطلق الحرية للمخالفين للابداء برأيهم دون خوف أو قلق، رغم أن هذه الديمقراطية - فى جوهرها- لا تتجاوز حرية التعبير إلى حرية الحكم، ولا تفسح الفرصة لنقل السلطة من يد الحزب الوطنى إلى أى حزب معارض آخر - وهى الحرية التى أطلقت عليها فى احدى مقالاتى اسم «حرية الصراخ» !.

تلا مـدة حمزة البـيـونى لن يـفـيدوا نظام مبارك*

لست أظن أننى ممن يتعاطفون
كثيرا مع الجماعات التى تسعى إلى
تغيير نظام الدولة والمجتمع باستعمال
القوة والعنف ! فأنا لا أومن بالعنف
الفردى، ولا أعطى أية جماعة الحق فى
أن تفرض على الشعب ما تشاء من
أفكار ومعتقدات ونظم بالقوة، وإن كنت
أومن بحقها فى أن تعرض على الشعب
المصرى أفكارها، وتدعه يقرر لنفسه ما
يشاء .

ولعل أسوأ مثل تاريخى للعنف
الفردى فى بلدنا، هو مصرع السردار
لى ستاك . لقد اجتمعت مجموعة من
الشباب المصرى فى أعقاب فشل
مفاوضات سعد زغلول - مكدونالد،
وأسندت إلى نفسها مهمة الدفاع عن
مصالح الشعب المصرى، ووكّلت نفسها
فى الدفاع عن كرامته، وقررت اغتيال
السردار لى ستاك، باعتباره يجمع بين
منصب حاكم عام السودان، ومنصب

القائد العام للجيش المصرى، الذى أعلن سعد زغلول، رئيس الحكومة المصرية فى ذلك الوقت، أن وجوده على رأس الجيش المصرى لا يتفق مع كرامة الشعب المصرى . ثم نفذت حكم الاغتيال بالفعل .

وقد أثبت اغتيال السردار لى ستاك أنه كان كارثة على الحركة الوطنية المصرية، فقد أطاح بأكبر حكومة وطنية ديمقراطية شهدتها مصر منذ عهد الثورة العربية، وأطاح بالسودان، وأطاح بالحركة الوطنية ذاتها التى بلغت ذروتها فى عهد حكومة الشعب، فانتكست هذه الحركة مع الاطاحة بحكومة الشعب، وأصبح الاعتدال طابع الحركة الوطنية حتى إبرام معاهدة ١٩٣٦ .

ومن هنا فاذا كنت أعطى لوزارة الداخلية الحق فى حماية مصر وحماية الشعب المصرى من العنف الفردى، ومن جماعات تريد أن تفرض فكرها ونظامها على الشعب المصرى بالقوة فانى لا أعطيها الحق فى أن تمارس التعذيب مع أفراد هذه الجماعات، لأن هذا عمل من أعمال الهمجية التى أن الأوان لأن تتخلص مصر منه، ولأن هذا التعذيب لا يردع أحدا، وإنما الرادع هو القانون، وهو المحاكمات وأحكام القضاء .

لذلك أثارتنى كثيرا الاخبار التى حملتها صحف المعارضة عن التعذيب الذى تعرض له المتهمون فى قضية التنظيم الشيوعى داخل سجن أبو زعبل، وخصوصا ما تعرض له الدكتور محمد السيد سعيد الخبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، من اعتداء وتعذيب .

ومن سوء حظ النظام أنه لم يتخلص بعد من تراث عهد عبد الناصر فى تعذيب المعتقلين السياسيين ، وأنه ما زال يحتفظ بين رجال الأمن ببقايا ذلك الفريق السادى النزعة، الذى يتصور أنه يدافع عن النظام ويحميه أكثر كلما استخدم العنف والاعتداء مع المتهمين - أى أنه يحتفظ بتلامذة حمزة البسيونى وصلاح نصر الذين لوثوا عهد عبد الناصر بالعار .

ومن هنا يبدو هذا التناقض الغريب بين ما أفسحه النظام فى مصر من حرية الرأى، وما أطلقه من حريات، وبين استخدام نفس أساليب عهد عبد الناصر مع المعتقلين السياسيين، وينسى أن أكبرها ما لوث عبد الناصر وضع مكاسب نظامه البالغة الأهمية، امتهانه لحقوق الانسان، ومعاملته اللاانسانية للمعتقلين السياسيين، وعدم تفرقة بين مفكر ومهرب مخدرات، أو بين أستاذ جامعى وقواد !

وهذا هو ما يدعونى إلى دعوة الرئيس محمد حسنى مبارك إلى الاهتمام بهذه القضية بنفسه، وإلى الدفاع عن سمعة نظامه بنفسه، كما أدعو وزير الداخلية السيد زكى بدر إلى التخلص من هذه العناصر، التى يتحمل هو فى النهاية مسئولية نزعتها السادية بحكم موقعه على رأس جهاز الداخلية والأمن .

وفى الحق أنه من سوء حظ هذا البلد أنه يدور فى حلقة مفرغة لا يخرج منها أبدا، مهما تغيرت عليه النظم السياسية، ومهما تبدلت ! فمن المثير حقا بالنسبة لمؤرخ مثلى، أرخ للحركة اليسارية فى الحركة الوطنية منذ ثورة ١٩١٩، أن يقرأ فى الصحف على مدى الخمسين عاما الماضية أخبار القبض على التنظيمات الشيوعية بنفس النغمة ونفس القالب ونفس الأسلوب ! - حتى ليخيل إلى أحيانا أن مصر لم يحكمها سوى نظام واحد عبر كل تلك السنين !

ولا فما هو الفرق فى هذا الصدد بين أخبار القبض على التنظيم الشيوعى فى عهد فاروق أو فى عهد عبد الناصر أو فى عهد السادات أو فى عهد مبارك ؟ - إنها نفس «الاستمبة» التى تتحدث عن خطورة التنظيم على المجتمع وعلى النظام وعلى الأمن وعلى العالم، وتعبىء المواطنين «الضحايا» وراء جهاز الداخلية فى تنكيله بالمعتقلين الخطرين. فاذا أنت بحثت المسألة جيدا لم تجد أمامك سوى قلة لا تذكر من المعتقلين، المنعزلين عن مجتمعهم المحافظ، الذى يزداد تمسكه بشكل الدين دون جوهره، وأن هذه القلة من الصغر والضعف بحيث لا تستطيع أن تحرك طوبة ، ناهيك عن تحريك المجتمع للثورة على النظام وقلبه بالقوة !

ومن هنا فان القبض على أعضاء ما يسمى بالتنظيم الجديد، فى أعقاب احداث شركة الحديد والصلب، ومحاولة الربط بين هذا التنظيم وهذه الأحداث، أو القول بانهم استغلوا الأحداث لترويج أفكارهم - هو أمر مؤسف للغاية، فالحكومة تعلم جيدا أن تأثير هذا النشاط حتى لو تحقق حدوثه - منعدم، ومحصور فى اطار ضيق جدا ، ولم يكن له أى صدى فى رأى العام المصرى، ولا يشكل أى خطر على النظام ! فلم يخرج الشعب المصرى فى مظاهرات عارمة تنادى بالافراج عن عمال الصلب المعتقلين، ولم يتحرك حتى خمسة أنصار ينادون بقلب نظام الحكم لما فعلته الحكومة مع عمال الصلب !

وفى الوقت نفسه تعلم الحكومة جيدا أن الجماعات الدينية تسيطر على العمال بأكثر من سيطرة من تسميهم بالشيوعيين ! وأن العمال فى مصر هم أكثر طبقات الشعب تدينا، وأنهم أكثر استعصاء على المذهب الشيوعى من أية طبقة عمالية أخرى فى العالم .

ومن هنا فربما كانت مصلحة النظام فى بلدنا تتمثل أكثر فى عدم المبالغة فى تأثير هذه الجماعات التى يعلم هو قبل غيره مدى ضعف أو انعدام تأثيرها - ناهيك عن الذهاب فى المبالغة إلى حد معاملة المعتقلين بالعنف والقوة واخضاعهم للتعذيب ، لأنه يسىء بذلك إلى نفسه أكثر مما يحسن . فمن المحقق أن مالحق سمعة النظام من اعتقال هذا التنظيم الشيوعى الذى أطلق عليه اسم «حزب العمال الشيوعى المصرى» ، ومن تعذيب الدكتور محمد السيد سعيد وزميليه، يفوق فى الضرر بكثير ما كان يلحقه لو ترك هذا التنظيم المزعوم يمارس نشاطه الهزيل فى المجتمع المصرى!

وربما كانت انجلترا ، الدولة الرأسمالية التى لا تدعى الاشتراكية ولا تزعم الحماس للتأميم والقطاع العام !، أكثر فهما لهذه القضية منا فى مصر . فكثيرا ما كنت أتسلم فى لندن المنشورات الشيوعية عند أبواب محطات مترو الانفاق، من فتیان وفتيات تحت حراسة البوليس الانجليزى!

ويتسلمها كثيرون غيرى، لأن الحكومة الانجليزية تعلم جيدا أن هذه المنشورات الشيوعية لا تمثل أى خطر على النظام، وأن السماح بها أكثر أمنا وحماية للنظام من حظرها !

فهل تكون حكومتنا أكثر خشية على نظامها الاشتراكى من المبادئ الشيوعية - من الحكومات الرأسمالية ذاتها ؟ أو أن القضية فى شكلها النهائى هى قضية استنارة وعدم استنارة - أى قضية حكومة مستنيرة تعرف قوتها وقوة الآخرين، وحكومة غير مستنيرة تبالغ فى التقليل من حجم قوتها، وتبالغ فى تضخيم حجم قوة خصومها !

وأخيرا أكرر ما قلته عنوانا لهذا المقال، وهو أن تلامذة حمزة البسيونى لن ينفعوا نظام مبارك فى قليل أو كثير !

لتكن حادثة أبو زعبل آخر ما يشهده عهد مبارك ! *

هل يتصور القارئ أن أحد الأسباب الرئيسية في تشويه صورة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ونظام حكمه، هو بعض الشاويشية وصغار الضباط الذين انتشروا في سجون مصر ومعتقلاتها وحولوا حياة المعتقلين فيها إلى جحيم وأذاقوهم مر العذاب ؟ ان مصادرة حرية المرء شئ، واهانتة وتعذيبه شئ آخر . فالمرء يستطيع أن يتحمل مصادرة الحرية - على قسوتها وفظاعتها - ولكنه لا يستطيع أن يتحمل الإهانة والعذاب .

وما بثه نظام عبد الناصر في السجون والمعتقلات من شاويشية وضباط كان نوعا فريدا من البشر، هو الذى اصطلح على تسميته بـ «الساديين» ، أى الذين يتلذذون بالتعذيب، وقد ذكر بعض علماء النفس فى تحليلهم أنهم «أنصاف رجال» - بمعنى أنهم يعانون من النقص فى

اكتوبر فى ١٧ / ٩ / ١٩٨٩

رجولتهم، ولهذا يتصورون أنهم يستكملون هذه الرجولة عن طريق القسوة مع الغير والمبالغة فى اىذاء الغير .

وقد كان انصاف الرجال هؤلاء هم الذين لوثوا انجازات عبد الناصر العظيمة فى المجال الاجتماعى والوطنى والاقتصادى بالعار، وهم على استعداد لتلويت أى عهد بالعار .

لقد كان يكفى جدا مصادرة حرية هؤلاء الكتاب والمفكرين دون تعذيب ودون اهانات ، ولكن النظام أبى الآن يضيف اليه تلك المجموعة الشاذة من الشاويشية والضباط الصغار، لأسباب سوف يقف عندها التاريخ كثيرا : هل يرجع ذلك إلى أن الذين قاموا بتعيينهم كانوا من النوع الشاذ ، الذين يرون أن مصادرة الحرية لا تكفى ، وإنما يلزم استكمالها بالاهانات والتعذيب ؟ أو يرجع إلى أن هذا النوع من الشاويشية وصغار الضباط الذين يعملون فى السجون ، يكونون عادة فى وضع يرى النفس البشرية فى منتهى ضعفها وانهارها وذلك وبؤسها لما فقدت من أغلى شىء فى الحياة وهو الحرية ، ولما تشعر به من عجز حيال السلطة ، فيحرك هذا الضعف والذل شهوة الجبروت والشر فى نفوسهم السادية ، ويدفعهم إلى ممارسة لعبة الاضطهاد والتعذيب ؟

والمهم أن عهدا مليئا بالانجازات الوطنية والاجتماعية التى لم يسبق لها مثيل ، مثل عهد عبد الناصر ، ردمته تلك الأوجال التى أهالها عليه الساديون من الشاويشية والضباط الصغار ، فلم يعد يذكر الناس من هذا العهد الاالرهاب التى تخلخل النفوس ، والاتك السجون والمعتقلات وزوار الفجر والساديين !

هذه الحقيقة التاريخية من شأنها أن تدفع كل حاكم إلى أن يحمى نظامه بنفسه ، وأن يدفع عنه هذه الوصمة . فلعلى أستبعد على المسئولين الكبار فى عهد عبد الناصر الأمر بتعذيب المعتقلين على نحو ماجرى ،

وانما يتحملون المسؤولية عن الصمت عما كان يبلغهم من حدوث هذا التعذيب . وهذه المسؤولية يتحملها عبد الناصر نفسه بقدر ما يتحملها كبار المسئولين، فلا يتصور أن يأمر عبد الناصر بالضرب والتعذيب ، ولكنه كان يبلغه حتما ما كان يحدث فى معتقلاته من ضرب واهانات وتعذيب، ولم يكن يحرك ساكنا للدفاع عن نظامه .

وهذا لا ينفى أن بعضا من كبار المسئولين فى عهد عبد الناصر كانوا مسئولين مباشرة عن هذا التعذيب الذى كان يحدث تحت أبصارهم وبأمر مباشر منهم . ويحفظ ذلك التاريخ الأسود أسماء حمزة البسيونى وصالح نصر وشمس بدران رئيسا للمخابرات، والثالث كان مديرا لمكتب المشير عبد الحكيم عامر ثم أصبح وزيرا للحربية .

وبالنسبة لحمزة البسيونى فقد ألقى بمسئولية التعذيب على شمس بدران . ففى اعترافات حسنين مختار أمام محكمة الثورة فى قضية مؤامرة قلب نظام الحكم، التى حوكم فيها شمس بدران و ٥٤ متهما آخرين من الضباط السابقين والعاملين وصف الضباط، قال :

« لما لقيت حمزة البسيونى فى بيت المشير، تضايقت لأنى كنت أعرف أنه قائد السجن الحربى، وقد كلمته عن التعذيب الذى حصل للاخوان المسلمين وغير الاخوان، فقال لى : « والله يا حسين، أنا مالىش دخل باللى حصل . الوزير شمس كان بيأمر، واحنا ننفذ » !

أما صالح نصر فقد دمغته محكمة جنايات القاهرة يوم ٢٦ يونيو ١٩٧٦ فى احدى قضايا التعذيب ، وحكمت عليه بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات . وقد كتبت فى ذلك الحين فى جريدة الجمهورية» (٦ / ٧ / ١٩٧٩) معلقا على هذا الحكم قائلا :

« على يد عتاوله الارهاب والتعذيب الوحشى تعرض الوطنيون الأحرار من اخوان مسلمين واشتراكيين وشيوعيين وليبرالين، بل من أبناء الثورة ذاتها، لأشنع ما توصم به ثورة من الثورات، وذلك لحساب

أوليغاركية (أقلية) نعمت طويلا فى الحكم، ثم لاقت مصير الطغاة المحتوم. ان حكم محكمة جنايات القاهرة بإدانة صلاح نصر فى قضية التعذيب، لا يمكن أن يكون مجرد ادانة فرد، وإنما هو إدانة لنظام حكم، نظام الحكم الذى يختفى منه القانون وتسود فيه شريعة الغاب» !

من هنا فان ، حدث للدكتور محمد السيد سعيد وزملائه من ضرب واهانات فى معتقل أبو زعبل فى الأيام الماضية يمثل مفارقة «غير مبلوعة»! لأنه يتناقض تماما مع نظام حكم مبارك الذى أطلق الحريات، وأطلق للمعارضة حرية الكلام بلا حدود، وأصبحت فيه كلمة القانون هى العليا، وتوافرت فيه حرية الرأى بما لم يسبق له مثيل - وبالتالي لا يمكن أن يكون انعكاسا لنظام الحكم .

كذلك لا يمثل هذا الحادث المؤسف سياسة وزارة الداخلية التى يرأسها الوزير زكى بدر، فلعلى أخالف كثيرا من الكتاب والمفكرين الذين يشنون حملات شعواء على الوزير زكى بدر دون تدبر، ناسين أنه يتحمل مسئولية حماية مجتمعنا من الجماعات المتطرفة التى تمثل الخطر الحقيقى على مسيرته الديموقراطية لما تحمل من فكر ارهابى انقلابى عدوانى يكفر المجتمع ويريد أن يفرض عليه نظامه بالحديد والنار .

وقد نجح الوزير زكى بدر فى ذلك لحد كبير، فتقلص نشاط هذه الجماعات إلى أدنى حد فى عهده، بعد أن تم رصد حركاتها ومصادرة نشاطها العدوانى . كما أنه نجح فى الكشف عن ، واعتقال تلك الجماعات الارهابية الأخرى التى روعت أمن بلدنا، وأطلقت الرصاص فى شوارعها ، وكادت تهدد السياحة فى بلدنا التى هى مصدر أساسى من مصادر دخلها ، تحت اسم «ثورة مصر» وقد نجح الوزير زكى بدر فى حماية المجتمع على حساب سمعته الشخصية ودون أن يبالى بما يلحقه بعد خروجه من الحكم، ومع معرفته بأنه غير مخلص فى الحكم، الأمر الذى يحسب له لا عليه .

وانما المشكلة هى فى أن السيد زكى بدر لم يعين رجال الأمن والسجون عندما تولى مهام وظيفته، وانما هو قد ورث هذا الجهاز كاملا من عهود سبقت، وهو جهاز يحتوى داخله على كافة العناصر البشرية، ففيه الصالحون ، وفيه الرجال و أنصاف الرجال، وفيه من يفهم مهمة الأمن على مستواها السامى، ومن يفهمها على أنها وسيلة لإعلاء الذات وتحقيق السيطرة والقوة على حساب الضعفاء . ولكن المحقق أن الغالبية الساحقة هى أغلبية صالحة، يقابلها المرء فى كل مكان، وأن الأقلية النادرة هى الأقلية المريضة المتأثرة بمدرسة حمزة البسيونى ، والتي ورثت من عهد عبد الناصر تراث الترويع والضرب والاهانات والتعذيب .

وهذه الأقلية لا تنفرد بها مصر، وانما نراها فى كل بلد مهما بلغ من تحضره وتمدنه، وقد عالجت السينما الأمريكية كثيرا من هذه الحالات فى أفلام مشهورة ، كنوع من ممارسة الرقابة على أجهزة الأمن وكشفها وافهامها أنها محل رقابة شعبية مستمرة .

ولكن الفرق هو أنه فى البلاد التى يسود القانون، لا يفلت أحد من هؤلاء الساديين من العقاب، وأن المحاسبة تتم من داخل جهاز الأمن نفسه عندما يكتشف المخالفة، لتبرئة ساحة تلك الأجهزة وحتى لا تتحمل مسئولية اجراءات غير قانونية واعتداءات لا يبيحها القانون، وأكثر من ذلك حتى لا يتحمل النظام نفسه تلك المسئولية .

وفى رأى أن ماحدث فى معتقل أبو زعبل قد أساء إلى وزارة الداخلية وأساء إلى النظام ، وأكد الحاجة إلى تبعية السجون والمعتقلات إلى وزارة العدل بدلا من وزارة الداخلية . فمهمة وزارة الداخلية تنتهى بالكشف عن المتهمين والقبض عليهم ، لتبدأ مسئولية وزارة العدل فى محاكمتهم . فما هو معنى تحميل وزارة الداخلية مسئولية سجن المتهمين أيضا وكل مايجرى لهم داخل السجن من اعتداءات أو غيرها ، أليس الأقرب إلى العدل والمنطق أن تتحمل وزارة العدل تلك المسئولية ؟

بل أليست فلسفة العقاب فى المجتمعات المتحضرة تتطلب ذلك ؟ .
فالمذنب حين إدانته يستحق العقاب دون شك ، وهذا العقاب يتم وفقا
لقوانين متحضرة تستهدف اصلاح الفرد المذنب ، واعداده لحياة جديدة
بعد خروجه من السجن يتوافق فيها مع المجتمع ويكون عضوا نافعا فيه ،
لأن الأحكام بالسجن تكون أحكاما محددة بمدة زمنية معينة ، وحتى
الأحكام المؤبدة هى أحكام محددة يخرج بعدها السجن إلى الحياة من
جديد . فكيف تستطيع الداخلية أن تقوم بهذه المهمة ، الغربية عن طبيعتها؟
وكيف تتحمل مسئولية البحث عن المذنب واعتقاله وتقديمه للمحاكمة،
وتتحمل فى الوقت نفسه مهمة سجنه واصلاحه واعداده لحياة جديدة ،
مع تناقض الهدف المتهمين ؟

أليس جعل السجن تابعة لوزارة العدل هو أقصر طريق للقضاء
على تلامذة حمزة البسيونى، وهى الوسيلة الوحيدة لتغيير عقلية
شاويشية وضباط السجن من عقلية انتقامية تعذيبية إلى عقلية عقابية
اصلاحية ؟ وأليس هو الطريق الوحيد لانقاذ سمعة نظام مبارك من
الساديين وأنصاف الرجال الذين لوثوا سمعة نظام عبد الناصر بالعار ؟ .

وهل يمكن أن يستمر هذا إلى الأبد : أن يتواصل هذا التعذيب
للمعتقلين من أيام الملك فاروق إلى أيام عبد الناصر إلى أيام مبارك - دون
أن يقطع هذه السلسلة عهد من العهود ؟ . ألا تدعو هذه الحقيقة التاريخية
إلى وقفة للتأمل والبحث عن مخرج يحفظ للإنسان المصرى كرامته .

وأليس من المخجل أن يتمتع تجار المخدرات فى السجن بمعاملة
كريمة لأنهم يدفعوه، ويلقى أصحاب الرأى الضرب والاهانة والتعذيب
لأنهم لا يملكون ما يدفعوه ؟ وأليس من العار أن يتمتع أصحاب شركات
توظيف الأموال ممن ارتكبوا أكبر عملية نصب واحتيال فى تاريخ مصر
وخربوا اقتصاد مصر، بالعيشة الهنية فى السجن، ويضرب ويسحل
العلماء والكتاب والمفكرون ؟

ثم أليس مما يثير السخرية أن تظل الشيوعية مصدرا لانزعاج جميع نظم الحكم التى مرت بمصر، كأنما هى خطر حقيقى يهدد نظام الحكم ! وأن يتم القبض على الشيوعيين بنفس الأسلوب فى عهد سعد زغلول، وعهد اسماعيل صدقى وابراهيم عبد الهادى ، وعهد عبد الناصر، وعهد السادات ، وعهد مبارك - مع معرفة الجميع بعدم نضج المجتمع المصرى للشيوعية ، وأن الخطر الحقيقى ينبع من التطرف الدينى ؟

وأليس من المثير أن البلاد الرأسمالية المتقدمة التى هى أكثر نضجا للشيوعية تفهم المسألة بطريقة مختلفة ، فقد سبق لى أن رويت كيف أننى كثيرا ما كنت أتسلم فى لندن المنشورات الشيوعية عند أبواب محطات مترو الأنفاق، من فتيان وفتيات تحت حراسة البوليس الانجليزى، ويتسلمها كثيرون غيرى، لأن الحكومة الانجليزية تعلم جيدا أن هذه المنشورات لا تمثل أى خطر على النظام، وأن السماح بها أكثر أمنا وحماية للنظام من حظرها ؟

فهل تكون حكومتنا أكثر خشية من المبادئ الشيوعية على نظامها الاشتراكى من الحكومات الرأسمالية العريقة ذاتها ؟ أم أن القضية فى شكلها النهائى هى قضية استنارة وعدم استنارة، أى قضية حكومة مستنيرة تعرف قوتها وقوة الآخرين، وحكومة غير مستنيرة تبالغ فى التقليل من حجم قوتها، وتبالغ فى تضخيم حجم قوة خصومها ؟

والمحزن أن واقعة الضرب والاهانات والتعذيب قد ضيعت على الحكومة قضيتها الأساسية، وهى قضية حماية وسائل الانتاج - أى المصانع وغيرها - من الاضرابات العمالية، كما حدث فى شركة الحديد والصلب ! كما أن تصويرها قضية التحريض على الاضرابات فى شكل قضية تنظيم شيوعى قد نقلها من قضية حماية الانتاج إلى قضية حرية الفكر !

وأحب فى هذه النقطة أن أحدد موقفى من ثلاث قضايا : أولها ، أننى على وجه التحقيق مع قضية الدفاع عن المتهمين فى اضراب شركة

الحديد والصلب، حتى يقول القضاء كلمته فى تحديد طبيعة الاضراب، وهل كان المقصود به اضرابا سلميا أم كانت هناك عناصر تدبر للتخريب؟ ثم يأخذ القانون مجراه .

ولكنى ، فى الوقت نفسه ، لست بحال من الأحوال مع اعتبار هذا الاضراب، كما وصفه بعض المتهمين «بداية نهوض عمالى عفوى يمتد إلى المواقع العمالية» ، ومعاملته على هذا الأساس ! فليس هذا الاضراب - على وجه التحقيق - بداية نهوض عمالى، وانما هو بداية كارثة اقتصادية تصيب شعبنا اذا انتقلت عدوى هذا الاضراب إلى بقية مراكز الانتاج التى يملكها القطاع العام !

فمن المعروف أن هذا القطاع العام يسوده التسيب والفساد الادارى، ولا يدار ادارة انتاجية سليمة، فاذا أضيف إليه تحريض الطبقة العمالية على الاضراب ، فاننا نكون بسبيلنا إلى مواجهة كارثة، لأنه اذا كان القطاع العام لا ينتج ما يجب عليه أن ينتج لمواجهة احتياجات شعبنا واقتصادنا بدون اضراب ، فكيف يكون الأمر اذا سادت روح الاضراب مواقعه، وتوقف عن الانتاج؟.

تلك - اذن - نظرية عتيقة تتصور أن القطاع العام يخضع لسيطرة الرأسمالين، وأن العلاقة الانتاجية فيه هى العلاقة بين البروليتاريا والرأسمالية - أى علاقة تناقض - مع أن العلاقة مختلفة كلية، فلا توجد علاقة استغلال وانما يوجد سوء ادارة، ويمكن للنظام اعداد الطرق المشروعة التى تكفل حل الخلافات بين العمال والادارة بشكل سلمى .

ومن هنا حين حول نظامنا السياسى قضية حماية وسائل الانتاج إلى قضية محاربة حرية الفكر، أضر بقضيته، واستخدم العصا والإرهاب فى مقاومة الفكر بدلا من استغلال فرصة حرية الرأى التى أتاحها، لمناقشة هذا الفكر بواسطة المفكرين الآخرين، وتوضيح مدى خطورة تفشى الاضراب فى القطاع العام على بلدنا ومصالح شعبنا .

اننى - اذن - مع الدفاع عن المتهمين فى قضية اضراب شركة الحديد والصلب، حتى يقول القضاء كلمته، ولكنى لست مع حق الاضراب فى ظروفنا الراهنة، لأن الاضراب معناه خراب البلد . ولا يتذرع أحد بما يحدث أحيانا فى الدول الشيوعية، فتلك بلاد كونت اقتصادها وانتقلت من المرحلة شبه الرأسمالية وشبه الاقطاعية إلى المرحلة الاشتراكية ، تحت حماية صارمة من منع الاضراب ، حتى وصلت إلى المرحلة التى تستطيع فيها تحمل منح هذا الحق .

أما القضية الثالثة التى أريد أن أحدد موقفى منها، فهى قضية الفكر الشيوعى الذى يزعج النظام فى بلدنا . ففى تصورى أن الحظر الذى فرضه النظام على هذا الفكر، قد أبقاه فى حالة متخلفة للغاية، لا تأخذ فى الاعتبار ما طرأ عليه من تطور فى العقدين الأخيرين من هذا القرن .

وهذا الطراز المتخلف من الشيوعيين لا يحارب بالاعتقال والضرب والسحل فى السجون، وإنما يحارب بالفكر الحر على صفحات جرائد الرأى فى مصر، خصوصا وصحافتنا تتمتع بحرية لا يختلف عليها أحد، كما أن هناك جرائد اسلامية وأقلاما اسلامية تمارس تأثيرا علم الجماهير لا يقارن إلى جواره تأثير الفكر الشيوعى، بل ان بعض هـ الجرائد الاسلامية تروج علانية لفكر التكفير والحاكمية الذى يهدد المجتمع تهديدا حقيقيا، دون أن يتصدى لها النظام بما يتصدى به لتلك التنظيمات الشيوعية الهزيلة .

والقضية - كما قلت - هى فى نهاية الأمر قضية استنارة، أى قضية حكومة مستنيرة وحكومة غير مستنيرة، فاللهم ألهم حكومتنا الاشتراكية استنارة الحكومات الرأسمالية فى الغرب، حتى يكون هذا التعذيب الذى حدث فى سجن أبو زعبل آخر تعذيب يحدث فى عهد مبارك !

جسيم الديموقراطية!*

فى دفاع مكرم عبيد عن مصطفى
النحاس وويصا واصف أمام مجلس
تأديب المحامين حول مؤامرة قضية
سيف الدين، وصف السياسة فى مصر
بأنها «لاضمير لها، ولا عقل أيضا» !.

وكان خصوم الوفد - بتدبير
القصر - قد دبروا لمصطفى النحاس
مؤامرة سيف الدين لاعطاء الملك فؤاد
الذريعة لأقالته من منصبه، رغم أنه
يتمتع بثقة الأغلبية الشعبية، وأخذت
صحفهم - فى حماية القصر - توجه
لمصطفى النحاس - وهو رئيس
الحكومة - أقذر الالهانات وأحط السباب،
حتى وصفت شرف النحاس وكرامته
وأمانته بأنها «شرف النعال وكرامة
الأوحال وأمانة المحتال» !، وأضافت
مخاطبة النحاس - رئيس الحكومة ! -
«ألا تخشى أن يتلطف معك صاحب
الجلالة ويسألك : أين استقالتك ؟ .
فبماذا تجيب أيها النتن القنز ؟»

اكتوبر فى ٢٦ / ١ / ١٩٨٦

وقد أورد مكرم عبيد نماذج من هذه البذائع ضد رئيس الحكومة القائمة وزعيم أكبر هيئة سياسية فى البلاد ، وقال مخاطبا القضاء : «أنظروا كم كان الدستور نعمة على خصومه قبل أصدقائه ؟» .

لماذا أورد هذه القصة ؟ ، اننى أورها كأنموذج للعبة السياسية القذرة التى لعبتها بعض الأحزاب فى مصر قبل الثورة ، باستغلال المناخ الديموقراطى الذى كانت تهيئه حكومات الوفد ، وبسوء استخدامها للضمانات التى يهيؤها الدستور . وقد انتهت هذه اللعبة القذرة بتقويض أركان الديموقراطية فى مصر وقيام ثورة يوليو ، واهدار كل الحريات وتمزيق كل الضمانات ، وسقوط البلاد تحت دكتاتورية عسكرية ثقيلة استمرت لأكثر من ربع قرن ! .

وهذا الدرس كان كفيلا بتعليم كل من الحكومة والمعارضة فى بلدنا القواعد السليمة لممارسة الديمقراطية ، حرصا على مصالح هذا الوطن ، وحماية تقدمه ، وهو ما أثبتت الأحداث الأخيرة عدم صحته - الأمر الذى عرض بلادنا إلى ممارسة ديمقراطية من أسوأ ما مر بها فى تاريخها الدستورى .

فالأمر المحقق أن القضايا التى احتدم حولها الخلاف بين المعارضة والحكومة فى الأيام الأخيرة ، هى من أتفه ما مر بها فى المرحلة الأخيرة، وأبعدها عن جوهر القضايا الوطنية الحقيقة التى تختلف حولها الشعوب. بل ان ما شغل بال جماهيرنا فى الفترة الأخيرة لأمر سوف يبعث الخجل فى الأجيال القادمة من هذا الجيل . مثل بطولة المرحوم سليمان خاطر ، وعودة كاتب كبير مثل هيكى إلى الكتابة !.

لقد كانت القضايا التى شغلت بال الشعب المصرى على طوال الأجيال السابقة هى أعظم القضايا فى تاريخه . لقد كانت هذه القضايا هى قضايا التحرر والاستقلال ورفع وصمة الاحتلال البريطانى، وكانت قضايا التحرر الاجتماعى من الاستغلال الوطنى والأجنبى ، وكانت

قضايا الصراع العربى الاسرائيلى الذى كلفنا أربع حروب دامية ، وكانت قضايا الوحدة والقومية العربية ، وكانت قضايا التحرر من نير الدكتاتورية العسكرية التى فرضتها ثورة ٢٣ يوليو على أبناء هذا الوطن .

وفى كل هذه القضايا لم يبخل شعبنا بروح أو مال ، وظهرت فى خلال ذلك بطولات - بطولات حقيقية ! - تصدت للخطر والبغى والعدوان الأجنبى والوطنى على السواء . وفى ثورة ١٩١٩ خرج الشعب المصرى أعزل من السلاح يواجه أكبر دولة على ظهر الأرض وهى خارجة منتصرة من أكبر حرب عالمية شهدتها التاريخ . وتحدى السلطة الانجليزية أبطال سطر التاريخ أسماءهم وهم يرفعون علم العصيان فى مدنها ، مثل يوسف الجندى ، الذى استقل بزفتى ، وأمثاله فى أسبوط والمنيا ، وألوف من الجنود المجهولين الذين أريق دمائهم برصاص الانجليز فى كل بقعة من أرض مصر الطيبة .

وفى أثناء المعارك الانتخابية التى أدارها القصر الملكى قبل الثورة ، دفع الكثير من أبناء وطننا حياتهم وحریتهم وهم مصممون على الادلاء بأصواتهم لإعلاء الدستور ! . وامتنع طباح توفيق دوس باشا عن اعطاء صوته إلى مخدمه ، وأعطاه لمرشح الوفد ! . وكان الفلاح المصرى يذهب إلى مفر لجنة الانتخاب وهو مريض ، وبصر على انتخاب سعد زغلول ، حتى بعد أن مات سعد زغلول بوقت طويل ! - ايماننا بما كان يمثلته سعد زغلول من فكرة الاستقلال والحرية والوطنية المصرية .

وفى أثناء النضال ضد الاستغلال الاجتماعى دفع الكثيرون من الاشتراكيين المصريين حریتهم وحياتهم ، وهم يحاربون من أجل تحرير الطبقات الجماهيرية من قيود علاقات الانتاج الاقطاعية والرأسمالية . ولم يثنهم عن ذلك بطش القصر قبل الثورة ، أو وحشية النظام الناصرى بعد الثورة ، ودفع شهدى عطية الشافعى حياته ضحيا حتى الموت فى أحد سجون عبد الناصر .

وفى معاركنا العسكرية مع اسرائيل سقط الألوف من الشهداء ، وشهدت سيناء بطولات لا حصر لها برزت من بين أبناء العمال والفلاحين والكادحين . بل لقد بُنى حائط الصواريخ قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وتحت كل موقع منه مئات الجثث من شهدائنا دفنت بفعل قذائف الطائرات الاسرائيلية . وفى أثناء العبور فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ كان من عبروا أبطالا بلا منازع اكتسبوا احترام التاريخ ، لأنهم عرضوا صدورهم للنار وقدموا حياتهم رخيصة فداء لكرامة هذا الوطن .

هذه هى نماذج البطولات الحقيقية التى ألهمت شبابنا معنى الفداء والبطولة على مدى تاريخه . فاذا جاءت بعض أحزاب المعارضة فى بلادنا تقدم بديلا لهذه البطولات ولهذا المعنى من معانى الفداء والبطولة ، ولتلتقط قصة جندى مصرى عاثر الحظ ، أطلق النار - دون وعى حسب قوله - على عدد من الأجانب الذين لا يعلم جنسياتهم من المدنيين ، وقتل سبعة منهم - وجعلت من هذا العمل بطولة ! فانها تكون قد امتهنت معنى البطولة الواعية والفداء الحقيقى .

واذا هى عمدت إلى تهيج الطلبة وال جماهير باسم هذا البطل الذى صنعته بدون بطولة ، فانها تكون قد رسمت لشبابنا أنموذجا جديدا للبطولة لم يعرفه نضالنا الشعبى على مدى تاريخه !

لقد كان من حق هذه الأحزاب المعارضة أن تنازع الحكومة - التى أخطأت بالتعتيم الاعلامى - الحق فى تقديم الجندى إلى محكمة عسكرية، اذا رأت فى ذلك ما يحقق مزيدا من العدل - ولكن لم يكن من حقها صنع بطولة لا وجود لها ، واثارة الطلبة وال جماهير باسم هذه البطولة تزييفا للشعور الوطنى الحقيقى .

نعم كان على هذه الأحزاب المعارضة أن تعلم أن تهيج الجماهير فى وقت تعاني فيه من المتاعب الاقتصادية هو عمل خطر يمكن أن يؤدى إلى نكسات عرفتتها مصر من قبل ، وكان آخرها ما أعقب أحداث ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٠ المشهورة ! .

ولو كان هناك بديل مطروح للنظام الحالى تقدمه هذه الأحزاب المعارضة ، لأمكن فهم موقفها ، أما والبديل لا يعدو فاشية عسكرية تتمكن من الحكم باسم حماية الأمن والنظام ، أو نظام شيوعى تقوده عناصر متخلفة فكريا عن كل ما حدث من تطوير فى الفكر الاشتراكى العلمى ، تفرض نفسها حاليا فى الساحة السياسية ، وهى مسئولة عن انقسام قوى اليسار وتطاحنه وانعزاله - فان هذا يوضح مدى الخطأ الذى وقعت فيه هذه القوى المعارضة . فالأمر المحقق أن القوى الشيوعية ليست جاهزة ، ولكن الفاشية العسكرية جاهزة على الدوام فى كل بلاد العالم ! .

وليس معنى ذلك وقوفى ضد حق الجماهير فى التعبير عن نفسها ، فمن حق الجماهير على الدوام الدفاع عن نفسها ضد ما تتعرض له من ظلم أو طغيان أو استبداد ، ومن واجبها أن تدفع الثمن ، ولكن ليس من حق أحد تحريك الجماهير بقضايا مزيفة ومصطنعة ، فيهدر طاقتها ويبدد تضحياتها هباء ، ويقذف بها فى هوة ليس لها قرار ! .

كذلك ليس من حق المعارضة استفزاز الحكومة فى علاقاتها مع اسرائيل . فمثل هذه المسائل التى تتعلق بالمصلحة القومية العليا ، لا يجب أن تكون محل مزايده ، الا اذا كانت المعارضة تملك البديل الايجابى والقابل للتنفيذ الذى تفرض به ما تنادى به . نعم لا ضرورة للمزايده على وطنية النظام ، حتى ولو كان من حق الدول العربية الأخرى هذه المزايده لاختفاء عجزها وعارها ، وتبرير مقاطعة مصر سياسيا حتى الآن !

فمن حق النظام الليبى دفعنا إلى حرب مع اسرائيل ، لأنه - رغم ما يملك من عدة وسلاح - لا يحارب اسرائيل ، ولم يحاربها ، وانما يحارب فى تشاد ! . ومن حق احدى الدول العربية الأخرى دفعنا إلى مواجهة مع اسرائيل ، لأنها - رغم الأسلحة التى اشترتها فى الشهور الأخيرة بألف مليون دولار - لا تنوى توجيهها ضد اسرائيل ، وانما تشتريها لأسباب لا يعملها الا الله ! و من حق النظام السورى دفعنا إلى مواجهة مع

اسرائيل، لأنه يعتمد علينا فى هذه المواجهة ، ولا يقوم بها نفسه رغم الغزو الاسرائيلى للبنان فى أثناء وجوده العسكرى ورغم احتلال اسرائيل الجولان !. ومن حق دول أخرى المزايدة على وطنية النظام المصرى لأنها مشغولة بحروبها مع غيرها ، أو فيما بينها ، عن مواجهة اسرائيل .

ولكن ليس من حق المعارضة المصرية المزايدة على وطنية النظام ، ومحاولة تجريحه ، وهى تعلم جيدا أنها لو كانت مكانه فى الحكم لما استطاعت تجاهل الظروف السياسية العالمية التى يتحرك فى اطارها ، والا عرضت بلادنا لأخطار ماحقة تعود بها إلى الوراء ! .

فلم يكن عبد الناصر أقل وطنية وهو يقبل - بعد العدوان الثلاثى - فتح البحر الاحمر أمام الملاحه الاسرائيلية - لأول مرة منذ بداية الصراع العربى الاسرائيلى - والسماح لقوة طوارئ دولية بالتواجد فى منطقة شرم الشيخ لتمر أمامها السفن الاسرائيلية بدلا من أن تمر أمام القوات المصرية . ولو تجاهل عبد الناصر الظروف الدولية لفقد وطنيته ، لأن الوطنية ليست هى الرعونة والتهور والقفز فى الظلام !.

ولم يكن عبد الناصر أقل قومية لأنه رفع - بعد هزيمة يونية ١٩٦٧ - شعار «ازالة آثار العدوان» على حساب القضية الفلسطينية ، لأن استمرار العدوان ، كان يجعل القضية الفلسطينية قضية مضاعفة ، اذ يضيف اليها الأراضى التى احتلتها اسرائيل فى أثناء حرب يونية .

ولم يكن عبد الناصر أقل وطنية حين دعا الاتحاد السوفيتى إلى التواجد العسكرى فى مصر ، وسمح للطائرات السوفيتية بحماية أجوائها ، وللقوات السوفيتية بتشغيل قواعد الصواريخ - لأنه لو ترك الطائرات الاسرائيلية تمرح فى سماء مصر وأجوائها ، وتقصف ما تشاء من مصانع ومدارس ، لا نتقص ذلك من وطنيته على وجه التحقيق .

ولم يكن عبد الناصر أقل وطنية لأنه دعا الملك حسين فى أعقاب نكسة يونيو للتفاهم مع الولايات المتحدة لاستخلاص الضفة الغربية من

يدها ، أو وجه نداءه المشهور إلى الرئيس الأمريكى نيكسون فى أول مايو ١٩٧٠ للتفاهم ، وقبوله فيما بعد مبادرة روجرز - رغم مزايده النظم العربية واتهامها له بتصفية القضية الفلسطينية ، ودخول المقاومة الفلسطينية نفسها فى هذه المزايدة .

وأخيرا لم يكن السادات أقل وطنية وهو يقوم بمبادرة القدس ، أو وهو يعقد اتفاقات كامب ديفيد ، أو وهو يبرم المعاهدة المصرية الاسرائيلية . لأنه لم يجبن من قبل عن استخدام السلاح ، وخاض أشرف حرب فى تاريخ مصر الحديث ، وهى حرب أكتوبر . ولم يكن ذنبه أن الظروف الدولية وعلاقات القوى بين القوتين الأعظم لم تسمح له بتحقيق نصر حاسم .

ولم يكن السادات أقل وطنية لأنه استخلص سيناء بالشروط المقيدة التى تضمنتها المعاهدة المصرية الاسرائيلية . فلم يكن مصطفى النحاس أقل وطنية وهو يبرم معاهدة ١٩٣٦ بكل قيودها ، ولم يكن عبد الناصر أقل وطنية وهو يبرم معاهدة الجلاء التى لا تفضل معاهدة ١٩٣٦ كثيرا . فالسياسى يتحرك فى حدود الممكن وليس فى حدود المستحيل ! .

وبالتالى فلا ضرورة للمزايدة على الحكومة المصرية وهى تتحرك فى اطار الظروف الدولية التى لا تملك الخروج عنها ، فلا يوجد بين المزايدى من يرشحه تاريخه النضالى لتحدى الظروف العالمية وموازين القوى بين مصر وغيرها من الدول المحيطة بها .

على أنى - فى الوقت نفسه - أقول للرئيس مبارك - من موقعى كمؤرخ وليس كاتباً سياسياً فحسب - إن صموده أمام كل هذه المزايدات والممارسات الخاطئة من جانب بعض القوى المعارضة ، هو أعظم ما يدخل به التاريخ ! ، وفى الوقت نفسه هو أعظم ما يقدم به مصر للعالم الخارجى الذى يدرك معنى الحرية والديموقراطية ! ، كما أنه فى الوقت نفسه أيضا أهم ما يضمن الاستقرار لمصر الذى هو ضرورى لها لتتغلب على مشاكلها الداخلية والخارجية ، وتتقدم إلى الأمام .

ولا يضير أى نظام حكم أن تحدث فيه ممارسات ديموقراطية خاطئة،
وانما يضره ألا تكون فيه ممارسات ديموقراطية أصلا . لقد قدم عبد
الناصر الكثير من الانجازات لوطنه ، ولكن غياب الممارسة الديموقراطية
فى عهده أدانه أمام التاريخ ، فلم يبق منه سوى الحاكم الذى كان يملك
أغلبية قل أن يحظى بها حاكم مصرى فى التاريخ ، ولكنه أثر أن يحكم
بأسلوب القمع والسجون والمعتقلات واضطهاد المعارضين .

ان الجرائم التى ترتكب فى حق الديموقراطية تنتقم من مرتكبيها ،
سواء كانوا فى الحكم أو المعارضة .. وفى كثير من الأحيان يدفع ثمنها
الجميع ! وعلى أصحاب القلوب الوطنية الكبيرة التى ارتضت
الديموقراطية مذهباً وأسلوباً للحكم ، أن تعرف أن الوصول إلى
الديموقراطية الحقيقية ، مثل الجنة ، يمر بالجحيم ! .

الصحافة بين حرية الرأى وحرية التشهير!*

فى لقاء الرئيس محمد حسنى مبارك برجال الفكر والاعلام بمبنى التلفزيون يوم ٥ أكتوبر ١٩٨٦ ، وكان لى شرف حضوره ، كنت واحدا من اثنين دافعا عن صحف المعارضة فى هذا الاجتماع ، وكان الأول هو الأستاذ أحمد بهاء الدين ، وقد تبعته على الفور، وقلت إنه اذا كانت هناك تجاوزات من صحف المعارضة فهناك تجاوزات من الصحف القومية ، و اننى شتُمت فى الصحف القومية بأقذع مما شتُمت فى صحف المعارضة !.

وقد استفز هذا القول صديقى الأستاذ موسى صبرى ، الذى ذكرنى بشتائم جريدة «الأهالى» المقذعة لى ! و كان محقا ! ولكنى ذكرته بشتائم مجلة «المصور» وجريدة «الجمهورية» لى التى لا تعد شتائم جريدة «الأهالى» إلى جوارها شيئا !.

أكتوبر فى ٢١ / ١٢ / ١٩٨٦

وتدخل الرئيس مبارك ، بطيبته وسماحته المعروفة ، ضاحكا لفض الاشتباك بين الأصدقاء ، وانتهى الأمر إلى اعتبار صحف المعارضة فى مصر ظاهرة صحية مهما كانت التجاوزات .

ومع ذلك ، ففى لقاء آخر تشرفت فيه بمقابلة الرئيس فى بيته ، تلا ذلك بأيام ، طالبت الرئيس بتكوين لجنة من مـحامى الحزب الوطنى للتصدى للتشهير الذى يتعرض له بعض الكتاب والمفكرين والسياسيين المصريين على يد بعض صحف المعارضة ، التى لا تتورع عن تلويثهم ونشر الأخبار الكاذبة عنهم .

وكانت وجهة نظرى التى أوضحتها للرئيس أن الكثيرين من هؤلاء الكتاب والمفكرين يمتنعون عن مقاضاة هذه الصحف ، لما تتكلفه هذه المقاضاة من نفقات باهظة يعجز معظمهم عنها ، ولأسباب أخرى - الأمر الذى يشجع هذه الصحف على الانطلاق فى خطة التشهير قدما ، بل ومضاعفتها دون خوف أو خجل . وبذلك تتحول الحرية التى تتمتع بها هذه الصحف فى النشر من حرية للصالح العام إلى حرية لتصفية الحسابات ، وهو ما يشوه وجه الديمقراطية التى نستظل بها .

وقد كان هذا الذى طلبته من رئيس الجمهورية هو أضعف الإيمان - وهو أن يكون القانون درعا لحماية الحرية والديموقراطية ، ولا يكون تدخل الإدارة والإجراءات الاستثنائية على نحو ما يحدث فى البلاد التى تحكم حكما دكتاتوريا . وأن تكون جهة القضاء هى الفيصل فى الاتهام ولا تكون الحكومة أو الحاكم . أما أن يمضى هذا الوضع الشاذ الذى نعيش فيه ، فلا حكومة تحاسب ، ولا قضاء يحاسب ، فمعنى ذلك تمريغ سمعة الكتاب والمفكرين والسياسيين فى التراب على أيدي بعض صحف المعارضة التى تسىء استخدام الحرية التى تتمتع بها ، مما يقلب الغرض ماما من الديمقراطية ، ويفقد الناس الإيمان بها والثقة بها .

ولست أدري - حتى الآن - مصير الاقتراح الذى عرضته على الرئيس محمد حسنى مبارك ، باعتباره رئيس الحزب الوطنى ، وهل نسيه

فى غمرة مسئولياته الجسيمة وانشغاله بمصالح البلاد ، أو أنه ما يزال يذكره ؟ ، وهل يرى جدواه أو يرى أنه لن يُصلح شيئاً من تلك الانحرافات! - وان كنت أنتهز هذه الفرصة لأعيد عرضه على الرئيس ، وألح فى الاستجابة له ، وأطمئن سيادته - وأنا أعرف كما يعرف غيرى - مدى حرصه على حرية الصحافة - إن تنفيذ هذا الاقتراح لن يعد بحال من الأحوال اجراء ضد حرية الصحافة ، وإنما هو اجراء لحماية حرية الصحافة من عبث العابثين والمستهترين ! .

ويكفى أن أستشهد بسعد زغلول - وهو رئيس أكبر حزب ليبرالى شهدته البلاد - الذى لم يجد من وسيلة للرد على المفتريين من خصومه السياسيين سوى التقاضى !. على الرغم من أنه كان ذلك الحين رئيس أول حكومة دستورية فى البلاد ، وهى الحكومة التى عرفت باسم «حكومة الشعب» .

ففى ذلك الحين كانت تعارض سعد زغلول جريدة السياسة ، لسان حال حزب الأحرار الدستوريين ، وجريدة الأخبار ، لسان حال الحزب الوطنى القديم ، وكانت تعارضه كذلك - على صورة هزلية - صحيفتا الكشكول والصاعقة . وقد بلغت معارضة هذه الصحف لسعد حدا من العنف والبذاءة لم يجد سعد زغلول معه بدا من الالتجاء إلى القضاء ، فكان يلجأ إلى النيابة طالبا منها التحقيق فيما يصدر ضده من مقالات حافلة بالكذب والطعن !.

ومع ذلك فقد شاءت بجاحة خصومه إلا أن يعتبروا التجاهل إلى القضاء تنكيلا بهم وانتقاما ! . وقد سمع سعد زغلول بنفسه هذا الاتهام حين منعت النيابة سفر الدكتور محمد حسين هيكل إلى الخارج بسبب اتهامه فى خمس قضايا ، فطلب عبد الرحمن رضا باشا ، وهو صهر الدكتور هيكل ، مقابلة سعد زغلول للتوسط فى الأمر ، وكان مما قاله لسعد : «وما ضرورة هذا الانتقام ؟» . وقد رد سعد زغلول غاضبا :

انتقام يا عبد الرحمن ؟ . لقد لجأت إلى النيابة كما يلجأ إليها أضعف الناس رجالا ونساء ، وتسمى هذا انتقاما ؟ .

وقد ساق الدكتور هيكل هذه الرواية فى مذكراته للتدليل بها على طغيان سعد زغلول ! فكأنه أراد أن يحرمه - وهو رئيس وزراء - مما يتمتع به أى فرد من أفراد الشعب .

والغريب أنه بعد أن أدليت للرئيس مبارك بهذا الاقتراح ، اضطر ثلاثة من كبار الصحفيين فى مصر ، وهم : محسن محمد ، وصبرى أبو المجد ، وموسى صبرى ، إلى مقاضاة جريدة «الأحرار» لتعرضها لهم بحملة رأوا أنها قد احتوت على مفتريات تمس سمعتهم ، ورأوا تحكيم القضاء للفصل فى هذا النزاع . وسوف يتحمل الزملاء الثلاثة نفقات التقاضى لأنهم يقدرون عليها ، ولكن هناك عشرات من الكتاب غيرهم لا يقدرون على ذلك ، وبالتالي تبقى الأكاذيب التى وجهت ضدهم باقية طالما شاعت ذلك الجريدة المعارضة !

فهل بقيت لدى حجة أخرى أعزز بها للرئيس محمد حسنى مبارك الاقتراح الذى تقدمت به اليه بتكوين لجنة من محامى الحزب الوطنى تحت عنوان : «لجنة التصدى للتشهير» ؟. ترى هل تستطيع جريدة معارضة أن تستمر طويلا فى قذف الشرفاء من الكتاب والمفكرين والسياسيين اذا وجدت نفسها أمام عشرات القضايا المرفوعة ضدها ممن شهرت بهم ، واذا كان عليها أن تدفع لهم مئات الألوف من الجنيحات تعويضا عن المفتريات التى ساققتها ضدهم ؟. اللهم الا اذا كانت تتلقى عما خارجيا يمكنها من التمادى فى غيرها ؟.

وَألا يُعد تكوين هذه اللجنة وقيامها بمسئولياتها ، كشفا لا دعاء بعض صحف المعارضة بالدفاع عن حقوق الانسان العربى ، بينما هى تحلد مخالفيها فى الرأى بالأكاذيب والمفتريات ؟ وألا يعد فضحا للذين

يتهمون نظام الحكم فى مصر بالدكتاتورية بينما هم فى قرارة نفوسهم
ألد أعداء الديموقراطية !

اننى يمكن أن أغتفر لجريدة ما نشر مفتريات وأكاذيب اذا هى وقعت
تحت خداع أو تضليل محرر بها ، ولكنى لا أغتفر لها أبدا اذا هى عرفت
الحقيقة ، ورفضت نشر التكذيب أو قامت بتحريفه لاستبقاء مفترياتها
وأكاذيبها !.

ومن حسن الحظ أننى شاهد على التاريخ فى هذه الواقعة التى
أروىها للقارىء ، وأملك بياناتها ومستنداتها ، وتتعلق بجريدة كنت أحد
كتابها فى يوم من الأيام ، وهى جريدة «الشعب» لسان حال حزب العمل .
فمنذ أوائل صيف هذا العام ، وفى شهر مايو ١٩٨٦ ، قامت
الجريدة بحملة تشهير واسعة النطاق ضد عدد من الكتاب والمفكرين
والعلماء المصريين تحت عنوان «القائمة السوداء» ، طالبت فيها الشعب
بمقاطعتهم ، بحجة صلتهم بإسرائيل !.

ووصل تطاول الجريدة وجراتها إلى كلية الاعلام بجامعة القاهرة !
لأن مجلس كليتها - كما قالت - وافق على اجراء دراسة ميدانية للمقارنة
بين التلفزيون الاسرائيلى والتلفزيون المصرى ! كما أتهمت الدكتورة
الفاضلة سهام نصار بالاتصال بالمركز الأكاديمى الاسرائيلى لاعداد
دراساتها عن الصحف اليهودية فى مصر ، كما طالبت بمقاطعة عالم من
أكبر علماء مصر وهو الدكتور نبيل يونس ، أستاذ أمراض النساء ،
وافتتحت هذه الحملة البديئة باسمى ، حيث طلبت إلى الشعب مقاطعتى
لما زعمته من دفعى المعידين بكلية تربية جامعة المنوفية إلى الزهاب فى
بعثات إلى اسرائيل - وهو خبر كاذب وافتراء !.

وقد استمرت الحملة ، التى كان واضحا أن الهدف منها هو تخريب
العقل المصرى ، تحت ستار مقاومة تخريب العقل المصرى ! ، وافقاد
الشعب المصرى ثقته بنفسه وبعلمائه ومفكره ومؤسساته العلمية . وهى

حملة كانت قد بدأت منذ فترة ، وصدرت فيها كتب صفراء طبعت على حساب أصحابها ، المدفوع لهم من دولة عربية مجاورة معروفة تكيد لمصر.

وقد رأيت تجاهل هذه الحملة في البداية احتقارا لشأنها ، ولأننى أعرف القائمين عليها ، لولا أن الجريدة استمرت - فى نفس الباب» أخبار ممنوعة « فى نشر عدد آخر من الأكاذيب عنى . وعندئذ فكرت فى الكتابة إلى الجريدة لتصحيح ما نشرته عنى من مفتريات ، فاذا نشرته برهنت على حسن ظنها ، وعلى أنها خدعت فيما نشرت ، واذا تجاهلته أثبتت سوء نيتها ، وتكون بذلك قد ارتكبت فى حق الديموقراطية جريمة لا تغتفر.

نعم ، ففى ذلك الوقت كانت جريدة «الشعب» تظهر نفسها فى مظهر حامى حمى الديموقراطية فى مصر ، وتنشر أعظم المقالات التى تتهم عهد وحكومة مبارك بالدكتاتورية والاعتداء على الحريات ! ، وكان يدبج هذه المقالات كاتب أجله وأحترمه وهو الأستاذ الدكتور محمد حلمى مراد ، ومناضل قديم هو الأستاذ فتحى رضوان ، يتزعم منذ ١٩٨٢ منظمة أسمت نفسها المنظمة العربية لحقوق الانسان» ! . وكان على الجريدة أن تثبت للقراء أنها لا تتاجر بشعارات الديموقراطية ، وانما تؤمن بها كما يؤمن فولتير ، أو حتى أحمد حسين ! .

وقد رأيت قبل ارسال التصحيح أن أتصل برئيس تحريرها عادل حسين ، المناضل الماركسى القديم ، الذى طالما عانى فى أيام عهد الناصر من المحاكمات والاضطهاد . وقد سررت كثيرا حين أبدى لى ترحيبه بنشر التصحيح ، حتى أخذت أعيد حساباتى ، وألوم نفسى لما تبادر إلى ذهنى من سوء الظن . وسافرت إلى لندن فى أواخر يوليو بعد أن أرسلت بردى إليه بالبريد المسجل .

على أنى فوجئت بأن الرد الذى أرسلته إلى عادل حسين لم ينشر طوال اقامتى بالخارج ، وحتى عودتى فى شهر سبتمبر ، الأمر الذى

دعانى إلى الاتصال التليفونى به لأستوضح منه السبب ، وإذا به يخبرنى بأن الرد (المرسل بالبريد المسجل) لم يصله ! وهنا عرضت عليه توصيل الرد بنفسى إلى منزله القريب منى فى مصر الجديدة - وهو ما تم بالفعل .

وأخيرا فى يوم ٣٠ سبتمبر نشرت جريدة « الشعب » ، ردى الذى كان صدمة لى ، فقد أجرت له عملية تزييف وبتر وتشويه تبين مدى ايمان الجريدة بالديموقراطية وحقوق الانسان التى تتشدد فى كل عدد بالدفاع عنها ، ويكفى فى ذلك أن أنشر على القارى كلا من النص الذى نشرته الجريدة الديموقراطية الأمينة ، وتعليقها عليه ، والنص الذى أرسلته اليها مرتين ، واحتاج إلى شهرين كاملين لنشره على صفحاتها مشوها مبتورا .

لقد كتبت الجريدة تحت عنوان : «رد د. عبد العظيم رمضان وتعليق من الشعب » تقول :

«تلقت الشعب من الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان ردا على ما نشر عنه . فقد نفى الدكتور خبر تجنيده لبعض الباحثين فى مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر للعمل فى مركز الأبحاث الأمريكى التابع الجامعة الأمريكية ، وأضاف أنه لا علاقة له بهذا المركز ، « ولو كان لى تعاون علمى مع الجامعات الأمريكية لما أخفيته ، فلست أكثر وطنية من الجامعات المصرية التى توجد بينها وبين الجامعات الأمريكية اتفاقيات لأحصرها » . ونفى كذلك الدكتور رمضان ما نشر عن رسالة الدكتوراه لسهام نصار ، حيث ذكرت الشعب أن الباحثة كشفت عدم صحة ما ذكره فى أحد مؤلفاته عن احراق ثورة يوليو للدوريات اليهودية (هكذا ورد فى الجريدة حرفيا !) وأكد الدكتور عدم صحة ذلك ، وقال كذلك انه لا علاقة له بتشجيع المصريين أو اعاققتهم فى موضوع الذهاب إلى اسرائيل فى بعثات » .

هذا هو التشويه الذى نشرته الجريدة لردى ، والذى أتاح لها أن
تعلق عليه التعليق الآتى :

«والشعب تؤكد أنها لا تقصد الاساءة إلى من تختلف معهم سياسيا،
ونحن نختلف مع الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان فى أغلب مواقفه
السياسية الأخيرة ، ونقول إن مواقفه تعتبر فى حد ذاتها تشجيعا لشباب
المعيدين على اعتبار أن الذهاب فى بعثات إلى اسرائيل لا يتنافى مع
الموقف الوطنى . ومن خلافاتنا معه أيضا أنه لا يعتبر «العلاقات
الخاصة» مع المراكز الأجنبية مما يثير التحفظ ، ونحن نؤكد للدكتور أن
الفارق كبير جدا بين اقامة علاقات مع الجامعات الأمريكية من خلال
الدولة المصرية ومؤسساتها وجامعاتها ، وبين اقامة علاقات خاصة
لبعض الأساتذة الأفراد مع الجهات الأجنبية ، ويحسن فى هذه الأمور
اتقاء مواضع الشبهات » !.

ويتضح من هذا التعليق أن الجريدة الأمينة قد استبقت الأكاذيب
التي نشرتها عنى - والتي كان ردى عليها كفيلا بتبديدها لو نشرته
بأمانة - فقد استبقت أكذوبة تشجيعى للمعيدين على الذهاب إلى
اسرائيل ، واستبقت أكذوبة وجود «علاقات خاصة» بينى وبين جهات
أجنبية بعيدا عن مؤسسات الدولة وجامعاتها ، واستبقت أكذوبة أن
الباحثة سهام نصار نقلت عن كتبى احراق ثورة يوليو للدوريات اليهودية،
حيث اكتفت بنشر انكارى مجردا ، ولم تنشر أسانيدى المسجلة فى ردى.
وسأنشر فى العدد القادم نص الرد الذى أرسلته للجريدة كاملا ،
كما أناقش الخلافات السياسية التى لمحت إليها الجريدة ، ليرى القارئ
أى المواقف السياسية أكثر استقامة لمصلحة مصر .

حسرية الصحافة وقانون الغاب ! *

أود أن أقول في بداية هذا المقال ،
الذي أستأنف به الرد على الافتريات
التي تنشرها بعض صحف
بالمعارضة عن خصومها في الرأي ،
والتي خصتني جريدة «الشعب»
ينصيب منها - أنني لا أقصد مما
أكتبه إلا الدفاع عن الديمقراطية ، التي
تحترم الرأي المعارض ، ولا تكتفى
باطلاق الشعارات التي تؤكد
ممارساتها أنها لا تؤمن بها .

ذلك أنني أومن بأن التجربة
الديموقراطية الحالية في عهد مبارك -
حتى في الحدود التي تتفق مع علاقات
الانتاج - هي الفرصة الأخيرة لكافة
القوى السياسية في مصر ، لنقل بلادنا
إلى حكم ديموقراطي صحيح ، بعد
سنوات طويلة من الحكم العسكري
الصبيغة الذي استمتعت به بلادنا ! منذ
يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - أو بتعبير أكثر
دقة - منذ حادث المنصة القديم في يوم

أكتوبر في ٢٨ / ١٢ / ١٩٨٦

٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ الذى فشل فيه التيار الدينى ، ممثلا فى الاخوان المسلمين ، فى اغتيال عبد الناصر - إلى حادث المنصة الجديد فى يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، الذى نجح فيه التيار الدينى ، ممثلا فى تنظيم الجهاد ، فى اغتيال السادات !.

ذلك أن نجاح هذه التجربة الديمقراطية لا يقع عبئه على عاتق الحزب الوطنى وحده ، الذى ورث الاتحاد الاشتراكى ، الذى ورث بدوره الاتحاد القومى ، الذى ورث بدوره هيئة التحرير ! - وانما يقع هذا العبء بدرجة متساوية على أحزاب المعارضة ، التى عليها أن تقدم لشعبنا الأنموذج الأمثل للمعارضة الواعية التى تؤمن بالديموقراطية حقيقة لا شعارا ، والتى تفهم دورها التاريخى فى هذه الحقبة من الزمن فهما واعيا ، والتى تعلمت درس التاريخ ، فتخلصت من ممارساتها السياسية الخاطئة التى ارتكبتها فى عهد ما قبل الثورة ، اذا كانت جذورها الفكرية تمتد إلى هذا العهد .

ومن المعروف أن أحزاب المعارضة الرئيسية الحالية فى بلادنا ، وهى أحزاب : الوفد ، والتجمع ، والعمل ، ترجع جذورها إلى ما قبل الثورة ، وكانت تمثل أهم التيارات الفكرية التى وفدت على بلادنا ، وهى : التيار الليبرالى ، والتيار الماركسى ، والتيار الفاشى . وكان الوفد يمثل التيار الليبرالى ، بينما كانت المنظمات الشيوعية القديمة ، وأهمها : حدتو ، وطليلة العمال ، والحزب الشيوعى المصرى - تمثل التيار الماركسى ، بينما كانت جماعة مصر الفتاة لأحمد حسين ، تمثل التيار الفاشى ، وهى أصل حزب العمل الحالى ولسان حاله جريدة الشعب .

وفيما عدا التيار الليبرالى الذى يمثل الوفد ، والذى يدين بالديموقراطية ، فإن التيارين الآخرين لا يؤمنان بالديموقراطية الا كشعار يوصل إلى الحكم ، وبعدها يتم فرض الدكتاتورية : إما دكتاتورية البروليتاريا فى النظام الماركسى ، أو دكتاتورية الطبقة البورجوازية (الراسمالية) فى النظام الفاشى . وهو ما حدث فى روسيا أثناء الحرب

العالمية الأولى ، وفى ألمانيا فيما بين الحربين العالميتين . فقد قادت ديموقراطية حكومة كيرنسكى فى روسيا إلى الثورة السوفيتية الشهيرة - ثورة أكتوبر ١٩١٧ - وقادت ديموقراطية جمهورية فايمار فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، إلى استيلاء هتلر على الحكم وفرض الحكم النازى الفاشى .

ومع أن ظروف العمل السياسى فى مصر كانت مختلفة بالنسبة للتيار الماركسى والتيار الفاشى ، كما أن دورهما التاريخى اختلف بالضرورة ، فلم يستطيعا الوصول إلى الحكم أثناء الاحتلال البريطانى ، الا أنهما لعبا دورهما المعادى للديموقراطية بعد قيام ثورة يوليو ! .

لقد سيطر الفكر الفاشى ، المعادى للأحزاب والحياة الديموقراطية ، بعد قيام الثورة مباشرة ، على يد رجل «مصر الفتاة» القديم ، السيد فتحى رضوان ، الذى نجح بمساعدة سليمان حافظ ، وكيل مجلس الدولة، فى سد الطريق تماما أمام عودة انعقاد البرلمان الوفدى المنحل ، وإدارة عجلة الديموقراطية الليبرالية . وأفلح فى تحويل مسار الثورة إلى الحكم الدكتاتورى ، والاشتراك فى أول وزارة تشكلت بعد اقالة على ماهر ، بعد أن رشح لها سبعة من زملائه ! وتولى الوزارة لمدة ست سنوات متصلة - هى السنوات التى صفيت فيها الحريات تماما ، وزُج بجميع القوى الديموقراطية والتقدمية فى السجون ، وتعرض فيها الاخوان المسلمون لأكبر محنة فى تاريخهم ، ولم يبق فى الساحة السياسية سوى ثوار يوليو البواسل ، تعاونهم القوى السياسية القديمة ، التى لم تؤمن أبدا بالديموقراطية الليبرالية !

أما الفكر الماركسى - فى أكثر الصور تشويها ! - فقد سيطر بعد التأميم ، وعلى يد ضباط يوليو وليس على يد الماركسين الذين كانوا فى السجون ! ، وكانت نتيجته اختراع الاتحاد الاشتراكى ، الذى كان يمثل اتحاد القوى المنتفعة بالثورة ، ويطبق اشتراكية لم تعرفها كتب النظريات

السياسية والاقتصادية ، و يقيم دكتاتورية لم تعرفها التجارب الاشتراكية،
هى دكتاتورية الضباط وليست دكتاتورية البرليتاريا !

وهذا يوضح أزمة الديمقراطية الحالية ، أو أزمة التجربة
الديموقراطية فى عهد مبارك ! ففيما عدا الوفد ، لا يوجد حزب معارض
له تاريخ نضالى فى سبيل الديمقراطية ، أو حتى يؤمن بها !

وأكثر الأصوات فى الساحة السياسية التى تجلجل باسم
الديموقراطية هى أصوات ذات تاريخ أسود فى التآمر على الحريات
واضطهاد الرأي الآخر ، أو السكوت المخزى على الجرائم التى ارتكبت
تحت بصرها فى حق الديمقراطية .

إنها أصوات تحاول أن تصنع لنفسها تاريخا جديدا ، عن الطريق
التظاهر بالتطرف فى الديمقراطية والدفاع عن الحريات ، والمزايدة على
ديموقراطية مبارك التى تصفها بأنها دكتاتورية ! مع أن تاريخها يؤكد
أنها لو وصلت إلى الحكم فسوف تطفىء المصابيح الحالية ، وستفرض
رأيها على الرأي الآخر بالقوة والارهاب .

وهذا ما تثبته ممارساتها الديمقراطية مع مخالفيها فى الرأي ،
والتي يغلبها عليها تاريخها ، الذى يكره الرأي الآخر كراهية التحريم،
وتسبىء فيه استخدام الحرية التى تتمتع بها ، فتحولها من حرية رأى إلى
حرية تشهير !.

ولقد رويت للقارىء فى المقال السابق كيف نشرت عنى جريدة
«الشعب» ، لسان حال حزب العمل ، عدة أكاذيب فى الباب الذى أنشأته
لمحاربة مخالفيها فى الرأي ، والذى أطلقت عليه اسم «أخبار ممنوعة» !
وعمدت فيه إلى تلويث عدد من علماء مصر ومفكرىها وكتابها وغيرهم ،
تحت تهمة التعامل مع اسرائيل ، بل طالبت فيه بمقاطعة كلية الاعلام
بجامعة القاهرة لاجرائها دراسة علمية ميدانية للمقارنة بين التلفزيون
الاسرائيلى والتلفزيون المصرى ! كما اتهمت بالباطل الدكتور سها

نصار بالاتصال بالمركز الأكاديمي الاسرائيلي ! واتهمنى بتحريض المعيدين بكلية تربية جامعة المنوفية على الذهاب إلى اسرائيل فى بعثات ، كما اتهمتنى بالاتصال بجهات أجنبية بعيدا عن مؤسسات الدولة وجامعاتها ، ونسبت إلى أننى قلت فى مؤلفاتى إن ثورة يوليو أحرقت الدوريات اليهودية ، ونسبت إلى الدكتور سهاى نصار أنها فندت هذا الكلام فى رسالتها عن «صحافة اليهود الفرنسية فى مصر ! - وكان هذا كله كذب فى كذب ، وافتراءات فى افتراءات !

ولما أرسلت إلى الجريدة بكتاب تكذيب أدلل فيه على عدم صحة ما نشرته ، نشرت الخطاب مشوها ومختصرا إلى حد الإخلال ، وانتهت منه إلى تعليق تثبت على فيه جميع الأكاذيب التى اختلقتها ، والتى كان خطابى كفيلا بتبديدها لو نشرته بأمانة - فاستبقت أكذوبة تشجيعي للمعيدى على الذهاب إلى اسرائيل ، واستبقت أكذوبة وجود علاقات خاصة بينى وبين جهات أجنبية بعيدا عن مؤسسات الدولة وجامعاتها ، واستبقت أكذوبة قولى فى مؤلفاتى إن ثورة يوليو أحرقت الدوريات اليهودية وأن الدكتور سهاى نصار كشفت عدم صحة هذا القول !

وقد أثبتت الجريدة بهذا المؤلف أنها تستخدم الحرية التى تتمتع بها فى تصفية الحسابات مع مخالفيها فى الرأى ، وفى التشهير بهم . وهو ما يتضح من نص الخطاب الذى أرسلته إلى رئيس التحرير ، والذى أنشره هنا كاملا على النحو الآتى :

الأخ الفاضل الأستاذ عادل حسين

تحية طيبة وبعد

أعتقد أنكم ضحية بعض الأخبار المدسوسة الكاذبة التى نشرتموها عنى فى باب «أخبار ممنوعة» ، وفى صفحة ٩ فى عدد ١٥ يوليو ١٩٨٦ ، وفى عدد سابق . وكنت قد قررت تجاهل مثل هذه الأخبار الكاذبة ، اكتفاء بحديثى التليفونى معكم بخصوص تكذيب ما نشر فى عدد ١٣

مايو ١٩٨٦ ، خصوصا بعد أن قرأت لجريدتكم عدة اعتذارات متوالية فى نفس الباب عما نشر من قبل من أخبار حول بعض الشخصيات ، ثبت لكم عدم صحتها ، وكان آخر اعتذار هو ما اختتمتوه بعبارة : «ما يقع الا...» - (أى ما يقع الا الشاطر !)

«على أن عودة الباب إلى نشر مثل هذه الاخبار الكاذبة عنى فى عدد ١٥ يوليو ، وحرصا على مستوى جريدة كان لى حظ الكتابة فيها ، كما كان لى شرف الدفاع عنها ، وبما لى من حق الرد وفقا للقانون ، فانى أود أن أبلغكم أن الخبرين اللذين نشرنا فى العدد الأخير بخصوص تجنيدى الباحثين فى مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر للعمل فى مركز الأبحاث الأمريكى التابع للجامعة الأمريكية ، هو كذب محض . فلم يسبق لى شرف التعامل مع الجامعة الأمريكية ، التى أكن لها ولأساتذتها الاحترام .

«ويبدو أن الكاذب ، الذى دس هذا الخبر عليكم ، لا يعرف الفرق بين مركز أبحاث تابع لجامعة علمية ، ومركز أبحاث تابع للمخابرات الأمريكية! . ولو كان لى تعاون علمى مع الجامعات الأمريكية لما أخفيته ، فلست أكثر وطنية من الجامعات المصرية التى توجد بينها وبين الجامعات الأمريكية اتفاقات ثقافية لا حصر لها تنفذ سنويا . ولست أعتقد أن جريدة الشعب أكثر وطنية من علماء مصر فى جامعاتنا المصرية . ومن هنا فان ما بناه المحرر من تجنيدى لبعض الباحثين فى مركز الوثائق للعمل فى مركز الأبحاث الأمريكى ، لا أساس له من الصحة ، لأن ما بنى على باطل فهو باطل .

«أما بخصوص الخبر الكاذب الآخر الذى نشر فى الصفحة التاسعة ن جريدة الشعب ، فهو ما يتصل برسالة تلميذتى سهام نصار ، التى حصلت بها على درجة الدكتوراه فى الصحافة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى عن «صحافة اليهود الفرنسية فى مصر» - فقد أورد المحرر أن الباحثة كشفت عدم صحة ما ذكرته فى مؤلفاتى من أن ثورة

يوليو أحرقت الدوريات اليهودية وهو خبر كاذب لسببين : أولهما أنه ليست لى مؤلفات قلت فيها مثل هذا الكلام الفارغ العارى عن الصحة ، وكان من واجب المحرر أن يورد اسم هذا الكتاب .

«أما السبب الثانى ، وهو ما لا يعلمه المحرر ، فهو أننى أشرفت - بتكليف من صديقى الدكتور خليل صابات - على الجزء التاريخى من رسالة تلميذتى سهام نصار ، وكلفتها بإعادة كتابته مرات ومرات ، ولم أقبل هذا التكليف من صديقى الدكتور خليل صابات الا لايمانى بكفاءة الباحثة العلمية ، كما قبلت هذا التكليف حبا وصداقة للدكتور خليل صابات . ومن هنا فان رسالة سهام نصار لا يمكن أن تنسب الى ما لم أقله !.

«أما بخصوص ما ورد فى عدد ١٣ مايو ١٩٨٦ ، بخصوص دفعى المعيدى بكلية تربية جامعة المنوفية إلى الذهاب فى بعثات إلى اسرائيل ، فهو لا يقل كذبا عن الخبرين السابقين ، وقد ضحك عليه كل موظفى قسم الداسات العليا والبعثات فى الكلية ، الذين تعجبوا لعدم اهتمامى بالرد على هذه الأكذوبة عند نشرها ، أو حتى تحرى منهم أصلها !

وفهمت منهم - استناد إلى الوثائق - أنه عندما شرعت الحكومة المصرية فى تطبيع العلاقات مع اسرائيل ، وصلت إلى الكلية قائمة بالبعثات لترشيح المعيدى والمدرسين المساعدين ، وكانت تتضمن بعثة إلى اسرائيل ، وقد رأت احدى المعيدات ، المتخصصة فى اللغة العبرية ، ترشيح نفسها فى هذه البعثة ، ثم عدلت عن ذلك عندما نبهها بعض زملاءها إلى ما قد يسبب لها ذلك من متاعب ، فسحبت ترشيحها .

«ولم يكن لى صلة بهذه القضية كلها - لا بالترشيح ، ولا بالعدول - فلست رئيسا لقسم اللغة العربية ، حيث تنتمى الباحثة ، وانما أنا رئيس لقسم التاريخ . والوحيد الذى كان له صلة هو المشرف على قسم اللغة العربية . ولست أظن - شخصيا - أنه ممن يتحمسون لترشيح معيدة فى بعثة لاسرائيل !.

«وأخيرا فانى أعتقد أنه مع خلافاتنا السياسية فى الرأى ، والتى تزداد حدة ، الا أن شرف العمل السياسى والصحفى يقتضى زيادة

تحرى الدقة ، خصوصا مع الخصوم السياسيين ، حرصا على التجربة الديمقراطية التي يعتمد مستقبل شعبنا السياسى كله على نجاحها ، والتي يهددها بدرجة خطيرة تدنى العمل السياسى إلى مستوى التشهير الكاذب ، الذى لا يرمى دينا ولا ذمة ولا يحفظ عهدا .

انتهى الخطاب الذى أرسلته إلى جريدة الشعب . وقد تركت لها الباب مفتوحا للاعتذار عما نشرته من مفتريات ، حين ذكرت فى بدايته اعتقادى بأنها «ضحية بعض الأخبار المدسوسة الكاذبة» التى نشرتها - أى أننى برأتها مقدما من تبعات هذه الأكاذيب ، شريطة أن تنشر خطابى الذى يبين الحقيقة . ولكنها عمدت - بدلا من ذلك - إلى تحمل المسؤولية كاملة ، وازهار نيتها المبيتة فى التشهير والافتراء ، حين شوهد خطابى فى عدة سطور ، وانتهت منه إلى اثبات الافتراءات .

فهل هذه هى الديمقراطية التى تعدنا بها جريدة الشعب حين يصل حزب العمل إلى الحكم ؟.. ديمقراطية التشهير ؟. وهل هذه هى الحرية التى تعدنا بها ، حريتها فى تلوين سمعة مخالفيها فى الرأى ، وحرمانهم من الدفاع عن أنفسهم ؟. وفيما كل تلك المقالات البليغة التى تطفح بها الجريدة فى كل عدد أسبوعى دفاعا عن الحريات وحقوق الانسان ؟. وهى لا تعترف بأبسط حق يتمتع به مواطن ، وهو حق الدفاع عن النفس ضد ما تنشره هى نفسها ضده من أكاذيب ؟.

إن من حق جريدة الشعب - دون سبب - أن تهاجم مخالفيها فى الرأى بكل شراسة ، لأن هذه هى الحياة الديمقراطية ، التى تقوم على صراع الآراء وتناقض المصالح والكشف عن سلبيات الرأى المضاد لإثبات صحة الرأى الآخر . ولكن كل هذا يجب أن يقوم على أساس شريف ، أى على أساس حقائق ثابتة محققة ، وليس على أساس أباطيل وأكاذيب وترهات ، ولا تحولت الحياة الديمقراطية إلى غابة يأكل فيها القوى الضعيف .

وإذا كانت جريدة الشعب قد اغترت بقوة الحرية التى تتمتع بها ، وأرادت أن تستخدمها فى التشهير بمخالفها فى الرأى دون حق ، فإنها تلجأ إلى قانون الغاب !، وحينئذ فلتتذكر أنها ليست أقوى الوحوش!

انقلاب الأهالى ! *

بعد تخريب فى صفوف اليسار
المصرى استمر على مدى السنوات
الست السابقة ، مارسته قيادة جريدة
«الأهالى» لسان حال حزب التجمع ،
بنشاط وحماس كبيرين ، بل وبإخلاص
نادر لم يسبق له مثيل! - سقط المخربون
المخلصون فى انقلاب مدو قامت به
الغالبية التى عيل صبرها بقيادة زعيم
الحزب خالد محيى الدين ، وانتهت
صفحة محزنة من صفحات تاريخ
اليسار فى مصر سوف ينظر اليها
التاريخ دائما باستنكار وغضب .

فلأول مرة فى تاريخ اليسار فى
مصر ، الذى يمتد حتى الآن قرابة كامل
من الزمان ، حدثت هذه الظاهرة ، وهى
أن تتخصص جريدة الحزب اليسارى
الناطق بلسانه ، فى طعن اليساريين
المختلفين معها فى رأى حول قضايا
الوطن ، وتكرس جهودها فى تحطيم
رموز اليسار الذين أمضوا حياتهم فى

* أكتوبر فى ٢٩/٦/١٩٨٨

خدمة فكره والنضال من أجل غلبة مبادئه ، ولا تتردد هذه الجريدة فى استخدام الفحش من القذف والبذاءة من القول فى وصف اليساريين الشرفاء ، وهو ما لم تفعله فى تعرضها لأشد اليمينيين الرجعيين !

بل إن جريدة يمينية من الجرائد المصرية لم تخصص فى مهاجمة اليساريين الشرفاء بقدرما تخصصت جريدة «الأهالى» ! ولم تنزل إلى ما نزلت إليه فى طعنها على هؤلاء اليساريين - (ربما لأن جريدة الأهالى قد أغنتها عن ذلك !)

وأذكر أننى ومناضل يسارى كبير، فارق الحياة هو المرحوم عبد الرحمن الشرقاوى ، تساءلنا فى وقت من الأوقات : ترى هل كانت أجهزة المخابرات الأمريكية تفلح فى شق صفوف اليسار وتفتيته والنيل من رموزه بأفضل مما أفلحت جريدة الأهالى ؟. وهل كان يمكن لأشد أجهزة الفاشية والنازية ضراوة أن توقع بين صفوف اليسار تلك الفتنة التى أوقعتها جريدة «الأهالى» ؟. وقد تساءلنا فى ذلك الحين عما اذا كان ذلك الذى يحدث أمرا مدبرا ومخططا له عمدا ؟، أم أنه نوع من النوايا الطيبة التى تفرش الطريق إلى جهنم ؟.

عندما شرعت مجموعة من كبار رجال الفكر اليساريين فى تأليف حزب التجمع - أو «منبر اليسار» كما كان يطلق عليه فى ذلك الحين - فى أواخر عام ١٩٧٥ ، فى بيت حسين فهمى بالجيزة - وكنت أحد هؤلاء اليساريين - طُرحت فكرة تكوين حزب اشتراكى خالص ، كما طُرحت فكرة تكوين «تجمع» يضم صفوف اليساريين بمختلف اتجاهاتهم الفكرية، وكان رأى الشخصى تكوين حزب اشتراكى خالص ، بينما اتجهت الأغلبية إلى تكوين «تجمع» للقوى التقدمية فى مصر . وهو ما استقر الأمر عليه ، وأشهر الحزب بوصفه «تجمعا» ، وانضمت إليه أغلبية ساحقة غير ماركسية ، كما انضمت إليه عناصر إسلامية تقدمية عديدة، وانضم إليه أيضا فريق كبير من الناصريين

على أن المجموعة التي تولت مسئولية الأهالي في السنوات الست السابقة ، نسيت هذه الحقيقة الهامة - التي تحدد سياسة حزب التجمع وتعين اتجاهاته - ربما لأنها لم تحضر اجتماعات التأسيس ، ولم تكن موجودة في الساحة وقتذاك ، وربما لأنها مجموعة ماركسية بحتة ، وربما لأنها مجموعة مغامرة بطبيعتها !. فلم تكد تقفز إلى رئاسة وإدارة تحرير جريدة «الأهالي» حتى نسيت تماما أنها ترأس تحرير جريدة «تجمع تقدمي» ، وتصورت أنها ترأس تحرير جريدة «حزب شيوعي» ! - بل انها بحكم عقلية «الخلية» التي تتحكم فيها تصورت أنها ترأس تحرير نشرة سرية ، وليس جريدة جماهيرية !.

وهذا هو السبب في أنها نزلت بتوزيع الجريدة الجماهيرية - التي وصل توزيعها في وقت من الأوقات ، وفقا لبعض الأقوال ، إلى مائة وخمسين ألفا - إلى توزيع نشرة سرية !. وهو السبب في أنها حولت حرابها من صدور القوى الرجعية ، التي قام حزب التجمع لمواجهتها وكشف مؤامراتها وشدّ الجماهير المصرية منها ، إلى صدور القوى اليسارية التي تختلف معها في الرأي سواء داخل حزب التجمع أو خارجه ! - رغم أن مهمتها الأساسية ليست فقط تجميع هذه القوى اليسارية بل وتجميع كل القوى التقدمية الأخرى معها !.

وهكذا حق القول بأن اليسار المتطرف يقف في جبهة واحدة مع اليمين المتطرف ! فمنذ أن تألف حزب التجمع لم تكن لليمين المتطرف من مهمة سوى تصوير هذا الحزب في عين الجماهير في صورة حزب ماركسي خالص يتلفح بعباءة التجمع ! واختيار «الماركسية» مركزا للهجوم على الحزب سببه معروف ، وهو مخاطبة الدين لدى الغالبية الجماهيرية الساحقة .

وقد ناضلنا لتفنيد هذه الفرية في ذلك الحين ، ودافعنا عن حزب التجمع في مقالاتنا التي نشرناها في مجلتي «روز اليوسف» و«صباح الخير» (أنظر في ذلك الفصل الخامس من كتابي : «مصر في عصر السادات»)

حتى قفزت تلك المجموعة الماركسية المغامرة إلى رئاسة وإدارة تحرير جريدة الأهالي ، لتثبت تلك التهمة التي حاول اليمين المتطرف إلصاقها بالحزب ! وأخذت توجه هجومها إلى كل من تشك في إخلاصهم للمبادئ الماركسية الأممية ، ومن تشتم منهم رائحة الوطنية في تقديرهم لمصلحة بلدهم . ثم زبطت نفسها ربطا محكما بالشيوعية الأممية ، رغم ما طرأ على الفكر الماركسي الأممي من تطورات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على حساب الفكرة ولحساب الفكرة الأممية لوطنية ، كما تمثل في انقسام المعسكر الشيوعي بين الاتحاد السوفيتي والصين على يد الفكرة الوطنية .

وعلى مدى السنوات الست السابقة كانت قيادة جريدة الأهالي ترتكب الأخطاء بل الخطايا الآتية في حق اليسار المصري :

أولا - احتكار الرأي الصحيح ، ونسبة الخطأ - بل والخيانة أحيانا! - إلى مخالفينهم في الرأي ! وهذا الاحتكار منبعث من عقلية الخلية - كما قلت ، لأن العقلية الحزبية تسمح بالخلاف في الرأي ، وتفسح المجال للمناقشة الحرة على نفس المنبر ، وتشرك معها الجمهور في هذه المناقشة لانضاج وعيه السياسي والاجتماعي .

وأذكر - في هذا الصدد - أنني حين اختلفت مع الأهالي حول سياستها الخارجية وحول مبادرة القدس ، نشرت الأهالي اسمي على رأس قائمة من كبار رجال الفكر في مصر تحت عنوان : « قاطعوا هؤلاء »! مع أنني كنت ما أزال عضوا في الحزب ! وكان في وسع الأهالي أن تدعوني لشرح وجهة نظري على صفحاتها أو عقد ندوة في الحزب لسماع رأيي ومناقشتي ، ، أو حتى محاكمتي ! .

وأغرب من ذلك أنني حين كتبت إلى الأهالي بوجهة نظري ، رفضت نشرها ! رغم تأكيد رئيس تحرير الجريدة لي بالنشر ! . ثم أخذت تكيل لي البذاءات في أسفاف منقطع النظير .

وحين تساءلت : إذا كان مؤسس من مؤسسي الحزب يعامل على هذا النحو ، فكيف يعامل خصوم اليسار ؟ - رد علي واحد من الذين

قفزوا إلى إدارة تحرير الجريدة ، ينكر بجرأة أنني كنت أحد مؤسسي الحزب ! ولم يخجل من الكذب والافتراء أمام مؤسسي الحزب الذين يعرفون كذبه وافتراءه . وقد التمسنت له العذر لأنه ركب مركب الحزب بعد أن تأسس بالفعل وأصبحت له جريدة تنطق باسمه ! ولم يكتب حرفاً في الدفاع عنه يوم كان السادات يكيل له الضربات .

أما الخطيئة الثانية التي ارتكبتها قيادة الأهالي المطرودة ، فهي تعبيرها عن وجهة النظر الماركسية ، دون أى اعتبار لحقيقة أن الحزب ليس حزباً ماركسياً في نشأته ، وإنما هو تجمع تقدمي يضم جميع التقدميين ! ونظراً لأن الماركسيين في بلدنا لا يشكلون الأغلبية ، ولأن غالبيتهم إما أنها مختلفة مع تلك القيادة الماركسية أو رافضة أساساً لحزب التجمع - فلذلك لم تعد «الأهالي» تعبر عن رأى ذلك القطاع العريض من التقدميين في بلدنا ، وإنما أصبحت تعبيراً عن رأى ذلك الفريق المنعزل من محاربيها ، مما انعكس على توزيعها من جانب ، وانعكس على جماهيرية الحزب من جانب آخر .

ومما يدخل في إطار هذه الخطيئة أن تلك المجموعة التي تولت مسئولية الأهالي كانت تحصر نفسها في إطار فكر كلاسيكي لم يتأثر أيما تأثير بما طرأ على الفكر الماركسي من تطورات ، كما ربطت مصلحة مصر بالأممية رغم سقوطها منذ انقسام المعسكر الشيوعي - الأمر الذي أدى إلى انقسام اليسار في مصر إلى ما أطلقت عليه اسم «يسار أممي» و «يسار وطني» ، وأطلق عليه البعض الآخر اسم «يسار مغامر» و «يسار وطني» .

أما الخطيئة الثالثة التي ارتكبتها قيادة الأهالي السابقة فهي سوء تقديرها المحزن لقوة اليسار في مصر . لقد تصورت تلك القيادة أن الجماهير المصرية قد تحولت إلى جماهير ماركسية ! فأحسست بقوة لا تملك مقوماتها ، وأخذت تناصب العداء كما من يخالفها في الرأي بشكل

استفزازى ومنفر ، حتى أخذت الجماهير تتساءل . اذا كان الجريدة توزع بذاءاتها على خصومها على هذا النحو ، وهى خارج الحكم ، فماذا يكون من أمرها اذا وصل الحزب إلى الحكم ؟ هل تنصب محاكم تفتيش؟. ومن هنا فقد عبأت الجريدة نحوها ونحو الحزب شعورا عدائيا مريرا كان له تأثيره فى الانتخابات الأخيرة !.

أما الخطيئة الرابعة لقيادة «الأهالى» فهى تحالفها مع قوى الرفض ، وخاصة مع النظامين الليبى والسورى ، وترويجها لهما رغم بغض الشعب المصرى لهما ، وذهابها فى ذلك إلى حد وصف القذافى بأنه «صقر العرب» و « نبي الصحراء » !، رغم تأييده ايران ضد العراق ومدها بالصواريخ التى تضرب بها العرب العراقيين فى بغداد . وبطبيعة الحال فقد فهمت الجماهير المصرية أن لكل وصف ثمنه !، فسقطت الأهالى فى عيون القراء .

أما الخطيئة الخامسة لقيادة الأهالى المطرودة ، فهى توزيعها الاتهامات الجزافية ضد خصومها فى الراى من اليساريين دون أية رقابة موضوعية أو مبدئية – حسب تعبير الصديق عبد الستار الطويلة . فذاك مرتد ، وهذا عميل ومرتزق ، وهذا ساداتى وأخدام للنظام – إلى آخر هذه الأوصاف التى تعكس الأسلوب القديم الذى كان سائدا بين الحلقات الماركسية التى تعمل تحت الأرض ، والقائم على الشك فى انتماء المخالفين فى الراى إلى أجهزة المباحث أوتخليهم عن مبادئهم . وهذه الأوصاف كملت كلها لكل مخالف ، وعلى نحو نفّر الغالبية من الحزب ومن الجريدة ،

أما الخطيئة السادسة ، فهى استخدام القيادة السابقة للأهالى لغة سباب لم يعرفها الأدب الماركسى طوال تاريخه ١ . وقد وصل الأمر إلى تخصيص باب للشتم فى الجريدة باسم « الالهبارية » ، نزل فى لغة الحوار إلى درك لم تصل إليه جريدة حزبية فى تاريخ الصحافة المصرية!.

وعلى سبيل المثال فحين نشرت مجلة «أكتوبر» فى أحد أعدادها اننى انضمت إلى الحزب الوطنى ، لم تفكر قيادة الاهالى فى التحقق من الخبر، وانما كتب مدير تحريرها صلاح عيسى مقالا مليئا بالسباب تحت عنوان : « الدكتور عبد العظيم ومضان ذو القفة » ! وقد كال لى هذا السباب رغم اننى كنت فى ذلك الحين ما زلت أحتفظ بعضوينى فى حزب التجمع !. وهذا ما جعلنى أشعر بأن وجودى فى حزب تمارس جريدته هذه البلطجة الفكرية يسىء الى اساءة بالغة ، فقدمت استقالتي من الحزب فى خطاب مفتوح إلى الصديق خالد محيى الدين، تساءلت فيه قائلا :

« ترى لو أنى أردت أن أعامل صفحة الاهبارية بالمثل ، وبادلتها هذه الدعايات الثقيلة ، وأطلقت على الاستاذ صلاح عيسى اسم « صلاح عيسى أبو طشت » ، وعلى الاستاذ حسين عبد الرازق اسم « حسين عبد الرازق أبو مقطف » .. إلى آخره ، ألا نكون قد ألحقنا جميعا بالحوار السياسى اساءة لا تغتفر ، ولو ثنا جميعا هذه الصفحة من صفحات الديموقراطية التي حصلنا عليها بجهد جهيد بالعار ؟ ، وأليس من حق الجمهور المصرى أن يبصق علينا ، ويشيح بوجهه قائلا : دعنى بالله عليك من هذا اليسار البذىء الارهابى ! ، بل ألا نعيب طبقات الشعب ضدنا وعلى رأسها الطبقة العاملة ؟ . ثم قلت :

« نعم ان تلك الصفحة فى جريدتكم التى تطلقون عليها « إهبارية » هى صفحة عار فى تاريخ الصحافة اليسارية الشريفة ، التى لم تعرف أبدا هذا النمط من الارهاب الفكرى والبلطجة والاسفاف . إن هذا ليس معناه أن اليسار المصرى لا يستطيع أن يسخر ، وانما يسخر على مستواه الرفيع ، يسخر كما كان يسخر جوجول أو عبدالله النديم ، ولكن لا يسف ويستخدم فى محاوره خصومه اساليب فتوات ملاهى الدرجة الثالثة » .

اما الخطيئة السادسة لقيادة الاهالى المطرودة ، فهى خطيئة فى نفسها ! لقد توهمت أنها تستطيع عن طريق التسلط والعدوانية والبذاءة

التي توجهها ضد خصومها فى الرأى ، داخل وخارج الحزب ، أن تحفظ مراكزها إلى الابد ، وتجبر مخالفيها فى الرأى على الخروج وترك الساحة لها تفعل ماتشاء ، ونسيت أن لكل شىء نهاية ، وقد جاءت النهاية حين فاض الكيل بالأستاذ محمد سيد أحمد ، وهو مناضل قديم ومثقف ومفكر جاد ، ففجر الموقف باستقالته ، ووجد من الشرفاء فى الحزب من يساندونه ، وعلى رأسهم رئيس الحزب خالد محيى الدين ، فكان الانقلاب الذى أطاح بالمتسلطين ، وهو أول انقلاب حزبى يتم بطريق ديموقراطى ، أى تمارسه الأغلبية المغلوبة على أمرها ضد الأقلية المتسلطة المسيطرة .

والآن وقد أصبح فى قيادة الجريدة كل من الأساتذة لطفى واكد والأستاذ محمود المراغى ، فإن الفرصة لضم صفوف اليسار وتجميع قواه تكون قد سنحت . ولكن هذا متوقف على ادراك القيادة الجديدة لهذه الحقيقة التاريخية ، وهى أن الحزب لم ينشأ بوصفه حزبا ماركسيا ، وإنما نشأ بوصفه تجمعا للقوى التقدمية بمختلف اتجاهاتها الفكرية ، وأن جريدة الأهالى - بالتالى - يجب أن تعكس هذه الفلسفة دون زيادة أو نقصان ، فتتفادى أخطاء القيادة السابقة ، وتجعل من صفحاتها ميدانا حرا للحوار الفكرى البناء بين فرق اليسار المصرى ، لأن هذا الحوار - وحده - هو الذى يمكن أن يستعيد للجريدة جماهيرها التى فرقتهارعونة القيادة السابقة ومغامراتها على حساب مصلحة الحزب ومصلحة البلاد .

لقاء الرئيس الفكرى: وحسيناتنا الحزبية في الميزان ! *

التغطية الإعلامية للقاء السيد
رئيس الجمهورية بالكتاب والمفكرين
والإعلاميين في عيد الإعلاميين يوم
الخميس ٣١ مايو ، كانت من الرداءة
والسطحية بحيث أخفت إيجابيات
الحوار الرفيع المستوى بين هذا الرئيس
الرائع ، الذي سبق كل النظم العربية -
دون استثناء - وكل النظم الشمولية في
شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي ، إلى
توفير حرية الكلمة ، وارساء مناخ
حرية الكلمة في مصر ، بشكل لم يسبق
له مثيل في طول التاريخ المصري
وعرضه .

نعم ، فلم يسبق تاريخ مصر كله
أن أتيح لكتابها ومفكرها الحوار مع
حاكم البلاد - سواء كان واليا أو
سلطانا أو خليفة أو خديويا أو ملكا أو
رئيس جمهورية - بمثل تلك الحرية
 المطلقة التي تميزت بها حوارات الكتاب
والمفكرين مع الرئيس مبارك ، أو التمتع

* أكتوبر في ١٧/٦/١٩٩٠

بمثل سماحة صدر وصبر الرئيس ، وقدرته الفائقة على تحمل لجاجات بعض الصغار ، أو ثرثرة بعض السيدات - دون أن يهتز له عصب ، أو يبدو عليه أى انفعال ، بينما هو واقف أمام منصة الخطابة بالساعات الطوال ، دون أن يتملل !

فكانها مباراة فريدة فى قوة التحمل والأعصاب ، ينتصر فيها الرئيس - الواقف على قدميه - دائما ، وينهزم الجالسون فى مقاعدهم الوثيرة ، الذين تصرخ بطونهم من الجوع ، وتضيق صدورهم بكثير من الأسئلة التافهة أحيانا ، والغبية أحيانا أخرى ، والمطوطة أحيانا ثالثة، بدرجة تثير الأعصاب . والتي يلقيها البعض على الرئيس !

إنه مشهد تاريخى حقا لم يسبق له نظير ! ولولا أن الإنسان عايشه لما صدقه ، وقد كان فى حاجة إلى ريشة فنان لكى يسجله ، وليس إلى قلم متعجل ليشوّهه ، أو عدسة تلفزيون عمياء تفتقر إلى الرؤية التاريخية والحاسة الفنية !.

إن مثل هذا اللقاء لو عقد فى الغرب ، لخرج منه التلفزيون بلوحة تاريخية مليئة بالحركة والحياة ، تشد إليها أبصار المشاهدين واهتماماتهم ، وتكون مثار الأحاديث الطويلة بين المشاهدين ، بدلا من تلك التغطية السطحية التى عرضت فى التلفزيون المصرى ، والتي كانت خالية من أى فن ، وبطيئة ومملة ! بل إنها أسكتت صوت الرئيس ، وتركت للمذيع أن يحل صوته مكانه طول الوقت ، مع أنه يمكن الجمع بين صوت المذيع فى التلخيص وصوت الرئيس فى العبارات القوية التى تحتاج إلى توصيل للمشاهدين بقوة تأثير أكبر .

ولست أدري لم لا يستعان بمخرجين كبار ، يملكون الموهبة الفنية التى تحول الفسيخ إلى شربات - كما يقولون - بدلا من أن تحول الشربات إلى فسيخ ! مخرجين يطورون أساليبهم وفق مناخ الحرية التى يعيشونها ، بدلا من أن يتمسكوا بأساليب العهد الشمولية البالية ، أو

يتوقعوا داخل الخوف القديم فى النفوس ! مخرجين صادقى الرؤية
يملكون القدرة على النقل الأمين لما يجرى إلى المشاهدين بالطرق الفنية
الشائقة ، وليس إخفاء الشائق منها عن الجمهور !

وربما تصور هذه القصة التى وقعت لى إحساس الجمهور بأمثال
تلك التغطية التلفزيونية القاصرة . فقد سألنى صديق شاهد فى التلفزيون
لقاء الرئيس قائلاً : لقد قرأت أن اللقاء دام خمس ساعات ، فكيف
استطعتم تحمل خمس ساعات فى هذا الجو الممل ؟ قلت : مرت خمس
دقائق ! فقد كانت حافلة بالإثارة ! وكانت مداعبات الرئيس للكتاب
والمفكرين ، وتواضعه وصراحته وأمانته ، من أكبر عناصر التشويق .
وقلت : إنه من سوء الحظ أن أحدا لا يستطيع أن ينقل جو الحوار إلى
الجمهور بلقطات حية بدلا من تلك اللقطات الميتة التى تمر ببطيئا على
وجوه الحاضرين !

والمهم هو أنه كان من بين ما أسىء عرضه فى التغطية الصحفية
لهذا اللقاء التاريخى ، الحوار الذى جرى بينى وبين السيد الرئيس حول
السماح بتأليف حزب للاخوان المسلمين . وهو ما يحتاج إلى توضيح
حتى لا يساء فهمه ، لأن القضية تحتاج إلى عرض مدعوم فكريا
وتاريخيا ، لمصلحة البلاد ، ولا فائدة لحرية الرأى إذا لم تضرب فى صلب
المسائل فى موضوعية وحرية وجرأة .

لقد كان السؤال الذى وجهته إلى السيد الرئيس هو أنى لاحظت أن
القوى السياسية الحقيقية فى البلاد تعمل وتمارس نشاطها السياسى من
الباطن ! أى من باطن أحزاب أخرى - ولا تعمل بأسمائها الحقيقية !

وكنت أعنى بذلك الإخوان المسلمين الذين يعملون من باطن حزب
العمل ، والناصرين الذين يعملون من باطن حزب التجمع . وتساءلت :
لماذا لا تعمل هذه القوى السياسية بأسمائها الحقيقية ، بدلا من أن تعمل
بأسماء أحزاب أخرى ؟ .

وعندما طرحت هذا السؤال لم أكن ناصريا ولم أكن من الإخوان المسلمين ، فبينى وبين الناصريين معارك تفوق الحصر ، وهو يقولون فى ما قال مالك فى الخمر ! وبينى وبين الإخوان المسلمين دراستى عن الإخوان المسلمين والتنظيم السرى ، التى أدنت فيها العنف ، وأثبت علميا مسئوليتهم عن حادث المنشية ومحاولة اغتيال عبد الناصر فى أكتوبر ١٩٥٤ .

ومن هنا لم أكن ناطقا بلسان فريق من هذين الفريقين ، كما أننى لم أكن ناطقا بلسان الفريقين معا ، لأن العداء بينهما يجعل من المستحيل على أحد النطق بلسانهما معا ، ولكنى كنت أنطق بلسان الواقع .

أما هذا الواقع فهو أن الإخوان المسلمين لهم نواب فى مجلس الشعب بالفعل ، انتخبهم الشعب باعتبارهم اخوانا مسلمين وليسوا حزبا آخر ، كما أن دعايتهم الانتخابية قامت على أساس أنهم اخوان مسلمون وليسوا حزبا آخر ، وعندما تحالفوا مع حزبى العمل والأحرار تحالفوا معهما بوصفهم اخوانا مسلمين وليسوا حزبا آخر . وعندما تحالفوا قبل ذلك مع الوفد تحالفوا معه بوصفهم اخوانا مسلمين وليسوا حزبا آخر ، وعندما تحالفوا مع الحزب الوطنى قبل ذلك - كأفراد - لم يتخل هؤلاء الأفراد عن هويتهم الاخوانية ، بل كانوا معروفين كاخوان مسلمين وليسوا حزبا آخر . وعندما كان المستشار المأمون الهضيبي يتحدث فى مجلس الشعب ، أو يتحدث غيره من النواب الإخوان - ولهم بالمناسبة ٣٦ مقعدا - كانوا يتحدثون بوصفهم اخوانا مسلمين وليسوا حزبا آخر . وحين يطالبون بتطبيق الشريعة الاسلامية يطالبون ذلك بوصفهم اخوانا مسلمين وليسوا حزبا آخر !

واذا كان الأمر كذلك فما هى الحكمة فى عدم الاعتراف لهم بحزب شرعى يحمل لافتتهم ، ويتحملون مسئولية اسمه أمام الشعب ، ويمارسون تحت هذا الاسم نشاطهم - الذى يمارسونه حاليا بالفعل ! ولكن تحت اسم آخر هو اسم حزب العمل أو التحالف ؟

ان الحكمة من منع قيام حزب دينى هى منع قيام نشاط سياسى يعمل باسم الدين ، وليس منع الاسم ذاته ، واذا كان النظام يسمح بهذا النشاط بالفعل ، ويسمح بوجوده تحت قبة البرلمان ، فماذا بقى غير شرعية الاسم ؟!

ان هذه القصة تذكرنى بموقف بعض الدول العربية ، التى طبقت قرار المقاطعة ضدى وضد نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وأنيس منصور . فقد كانت الصحف المصرية التى أكتب فيها تكتفى برفع اسمى من النسخ التى توزع فى هذه البلاد العربية ! وكانت شعوب هذه الدول تقرأ مقالاتى كما لو كانت تحمل اسمى تماما ، لأن كل قارئ يعرف أسلوب الكاتب الذى يقرأ له ! وكنت أعجب فى نفسى وأقول : ترى لو أن الفكر الماركسى وصل إلى الشعوب بدون أن يحمل اسم ماركس ، هل كان ينقص هذا من قدر هذا الفكر ؟ وهل كان تأثر الشعوب بالفكر الماركسى يقل ؟

على ان الأمر فى حالة الاخوان المسلمين أوضح من ذلك بكثير ، فالإخوان المسلمون لم يكونوا فى حاجة أبدا لحذف إسمهم وهم يتحالفون مع حزبى العمل والأحرار ، أو وهم يطبعون منشوراتهم الانتخابية وعلى رأسها شعار «الاسلام هو الحل» ، أو وهم يتقدمون للناخبين المصريين ويدلون بالتصريحات للصحف ، أو يمارسون نشاطهم النيابى تحت قبة البرلمان . فماذا تبقى اذن ؟

بقيت الفوضى الحزبية التى ليس لها نظير ، حيث تختفى قوة حزبية كبيرة تحت اسمى حزبين سياسيين ضعيفين ! ولن أتحدث عن حزب الأحرار وشعبيته المنعدمة فى الشارع المصرى ، بعد أن أخذت جريدته تتحول من يمين إلى يسار ثم إلى وسط ، ثم تعود مرة أخرى إلى يمين فيسار فوسط مع كل تغيير يحدث فى رئيس تحريرها !

نعم لن أتحدث عن حزب الأحرار ، الذى قدم فى بداية نشاطه برنامجا كان يعد ليبراليا بالنسبة للحزب الوطنى (حزب مصر الاشتراكى

وقتذاك) ثم أصبح الحزب الوطنى تحت مبارك أكثر ليبرالية من حزب الأحرار ! ولم يعد ينقصه سوى انتخابات حرة فلا يفترق فى شىء عن أى حزب ليبرالى فى العالم الغربى .

أما حزب العمل ، فقد كان له رصيد شعبى يرتبط باسم ابراهيم شكرى وجماعة مصر الفتاة ، وباسم هذا الرصيد كسب عددا من المقاعد فى أول انتخابات خاضها تتفق مع حجمه ، ثم فقد هذا الرصيد كلية مع تحول وجهه من اليسار إلى اليمين ، ومن اللمانية إلى الدينية ، ثم انقسامه إلى قسمين بسبب تحالفه مع الإخوان المسلمين ، وسيطرة الآخرين عليه ، وتحول جريدته من جريدة تقدمية إلى جريدة تقف فى أقصى اليمين ! وفى النهاية استيلاء الإخوان المسلمين عليه كلية !

ترى لو جرت انتخابات حرة جديدة ، ودخلها تحالف حزب العمل والاحرار والإخوان المسلمين ، هل يوجد فى مصر من أقصاها إلى أقصاها من ينتخب حزب العمل أو الاحرار ، وقد كفوا من جهة الفعل والواقع عن أن يمثلوا فلسفتهم السياسية التى نشئوا عليها ، وعرفهم الناس من خلالها ؟ و اذا كان الأمر كذلك أفلا تكون جميع الأصوات تقريبا قد ذهبت إلى جيب الإخوان المسلمين ، مع سيطرة هؤلاء على حزب العمل ، وتحول جريدته من جريدة تقدمية إلى جريدة تقف فى أقصى اليمين ! و استيلاء الإخوان المسلمين - مهما كانت مسمياتهم أو اللافتات التى دخلوا الانتخابات تحتها - عليه ؟ وما هى أهمية أن يكون اسمهم الإخوان المسلمين أو حزب العمل أو الاحرار ، ما دام الناخبون يعرفون أنهم الإخوان المسلمون ؟

بقيت نقطة على جانب كبير من الأهمية لست أعتقد أن نظامنا السياسى يدركها جيدا ، وهى أن الإخوان المسلمين اليوم ليسوا هم الإخوان المسلمين الذين عرفهم تاريخ الحركة الوطنية ، فلم يعودوا هم اخوان التنظيم السرى لحسن البنا أو الهضيبى ، ولم يعودوا هم اخوان كتاب «معالم فى الطريق» لسيد قطب ، وانما هم جماعة برلمانية تؤمن بالأساليب البرلمانية فى الوصول إلى أهدافها .

وفى هذا الصدد علينا أن نفرق بين الاخوان المسلمين والجماعات الاسلامية الأخرى - أى جماعات التكفير - ابتداء من جماعة التكفير والهجرة لمصطفى شكري ، ومرورا بجماعة الجهاد التى اغتالت السادات، وانتهاء بجماعة الناجون من النار ، أو الجماعة الاسلامية التى يقودها الدكتور عمر عبد الرحمن - وهى الجماعات التى لا تعترف بالطرق البرلمانية ، بل تدين هذه الطرق ادانة دامغة ، وتدين الإخوان المسلمين أيضا لتحويلهم البرلمانى . وفى الوقت نفسه يدين الإخوان المسلمون هذه الجماعات أيضا ، ويدينون فكر التكفير ، ولهم كتبهم فى ادانة هذا الفكر ، وعلى رأس هذه الكتب : «دعاة لا قضاة» للمرحوم المستشار حسن الهضيبي ، المرشد العام السابق للإخوان المسلمين ..

ان هذا الكلام الذى أسوقه هو كلام علمى وليس كلاما سياسيا ، فأنا هنا أسوق حقائق ولا أسوق دفاعا سياسيا عن حق الإخوان المسلمين فى الوجود داخل حزب سياسى شرعى ، ولعلنى آخر من يسوق مثل هذا الدفاع ! ليس فقط لأننى أنزه الدين الاسلامى عن الزج به فى السياسة ، ولا لأننى لا أومن بما يطلق عليها اسم حكومة اسلامية ، لأن هذه الحكومات على مدى التاريخ كانت أبعد ما تكون فى تطبيقاتها عن الاسلام الصحيح - وانما لأننى أعرف أن الشريعة الاسلامية مطبقة بالفعل فى القانون المدنى ، ولأن الحاكم من حقه استبدال التعازير بالحدود . وهذا الكلام ليس كلامى ، وانما كلام المرشد العام الهضيبي نفسه كما قلت مرارا .

ولكن هذا شئ ووجود قاعدة جماهيرية واسعة للإخوان المسلمين شئ آخر - وهو أمر لا خلاف عليه - فهذه القاعدة عندما لا تجد المظلة الشرعية ، تذهب بالضرورة إلى جيب جماعات التكفير ، وأهمها «الجماعة الاسلامية» للشيخ عمر عبد الرحمن . ومن المصلحة - فى رأى المتواضع - تحويل اعتراف الدولة «الفعلى» بالإخوان المسلمين إلى اعتراف «رسمى» أو «شرعى» ، حتى يتسنى للإخوان المسلمين التصدى لخطر جماعات التكفير من أرضية شرعية .

هذا - على كل حال - فيما يتصل بالاخوان المسلمين وضرورة السماح لهم بحزب شرعى - وقد أبرأت ساحتى أمام ربى بهذا الكلام - أما ما يتصل بالناصرين ، فإن ضرورة السماح لهم بحزب شرعى ، يمارسون تحت لافتته نشاطهم السياسى جهارا ، لا تقل عن ضرورة السماح بذلك للاخوان المسلمين . ولنفس الأسباب تقريبا .

فكما أن الدولة تسمح للاخوان المسلمين بالنشاط السياسى ولا تمنعه ، وانما من الباطن ، فكذلك تفعل مع الناصريين . فهم يمارسون نشاطهم كناصرين بالفعل ، ولكن من باطن حزب التجمع ! وهذا هو أصل نشأة حزب التجمع ، فلم ينشأ هذا الحزب بوصفه حزبا شيوعيا ، وانما نشأ بوصفه تجمعا لليسر - أى للشيعيين والناصرين وأية قوى أخرى تسير مع التقدم .

فقد سبق لى أن كتبت أننا حين كنا نقوم بتكوين حزب التجمع - أو منبر اليسار كما كان يدعى فى ذلك الوقت - فى بيت حسين فهمى بالجيزة ، كنا حريصين على أن يكون المنبر منبرا لليسر كله ، بما فيه اليسار الاسلامى واليسار الناصرى ، ولا يكون منبرا للماركسين . وقد حاول الناصريون تكوين منبر خاص لهم ، ولكنهم كانوا منقسمين ، وجرى تكوين ما يعرف باسم الحزب الناصرى تحت التأسيس ، الذى يمارس حاليا نشاطه بهذا الاسم ، وينشر البيانات والتصريحات بلا قيود ، وكانت جريدة «صوت العرب» تنطق باسمه حتى أغلقت . وفى الانتخابات العامة يعمل الناصريون من بطن حزب التجمع ، وتحت لافتة حزب التجمع ، ومعنى ذلك أن نشاطهم السياسى غير ممنوع ، بشرط أن يتم من الباطن !

وهذا من شأنه تزييف الحياة الحزبية التى نعيشها بدون أى مبرر ، ويجعل الانتخابات أشبه بحفل تنكرى ، يأتى فيه من يلبس ملابس ريتشارد قلب الأسد ، بينما هو فى الحقيقة صلاح الدين ! أو يأتى من يلبس ملابس شرلمان بينما هو فى الحقيقة هارون الرشيد ! ويترتب على

ذلك أن ينجح الصديق مصطفى كامل مراد بينما هو فى الحقيقة
المستشار مأمون الهضيبي ! أو ينجح عادل حسين فى الانتخابات بينما
هو فى الحقيقة حسنى عبد الباقي أو مصطفى مشهور .

ومعالجة الرئيس مبارك لهذه القضية تقضى على هذه المفارقة ، وهى
أن الأحزاب الحالية التى سوف تخوض الانتخابات ، فيما عدا الحزب
الوطنى وحزب الوفد ، هى أحزاب كرنفالية ليس لها قواعد جماهيرية ،
وأعنى بذلك أحزاب الأحرار والعمل والأمة ! كما أنها أحزاب منقسمة
أيضا - اللهم فيما عدا حزب الأمة الذى لا يقبل الانقسام ، لأنه مكون من
فرد واحد هو الأستاذ العزيز الصباحى ! وقد أضافت الدولة إليها حزبين
آخرين هما : أولا - حزب الخضر ، وهو - مع احترامى لرئيسه الدكتور
حسن رجب - حزب «اجتماعى» لا سياسى، مهمته الحفاظ على البيئة
الطبيعية وليس له صلة بالبيئة السياسية ! وحزب مصر الفتاة ، الذى ما
زال يعيش فى وهم الثلاثينيات ، وينسى أن أحمد حسين نفسه قد تولى
عن هذا الاسم عدة مرات ! فقد استبدل به اسم الحزب الإسلامى مرة ،
ثم الحزب الاشتراكى مرة أخرى . وقد نسيت حزبا ثالثا هو الاتحاد
الديموقراطى ، وكلها أحزاب لا تعرف الجماهير عنها شيئا !

ويمكن أن يضيف إليها الحزب الوطنى مليون أو «ديشليون» حزب
آخر ! ولكن يبقى أن القوى السياسية الحقيقية فى مصر بعيدة كل البعد
عن هذه الأحزاب ، ومن المصلحة - فيما أرى - أن تصل إلى الجماهير
من الباب وليس من الشباك !.

المعارضة وقانون الطوارئ *

الثورة العارمة التي فجرها مد
قانون الطوارئ في مصر ثلاث سنوات،
في صفوف المعارضة ، أفادت كلا من
الحكومة والمعارضة فائدة لا تقدر
بثمن!.

فمن ناحية الحكومة ، فقد
استطاعت أن تثبت قدرتها على تحمل
الرأي المعارض إلى أقصى مدى ، وهو
ما لا تقبله أية حكومة في المنطقة
العربية دون أن تعاقب المعارضة عليه
عقاباً صارماً!.. فقد أفسحت الفرصة
للمعارضة للتعبير عن معارضتها بكل
وسائل التعبير ، وسواء عن طريق
الاضراب عن اصدار الصحف
المعارضة لمدة أسبوع! أو عن طريق
اصدار بيانات الادانة الشديدة للهجة ،
أو عن طريق عقد مؤتمر صحفى كبير
شاهده مندوبو وكالات الأنباء العالمية
ومراسلو الصحف المحلية والعربية
والأجنبية ، لا تستطيعه أية معارضة في

* اكتوبر فى ١٠/٤/١٩٨٦

بلد عربى آخر . وبذلك ظهرت الحكومة أمام الرأى العام العالمى فى شكل حكومة تفسح المجال للرأى المعارض لكى يأخذ فرصته فى التعبير ، دون قمع أو ارهاب أو اعتداء !.

وفى الوقت نفسه فان الحكومة قد أحسنت تقديم العذر أمام الرأى العام العالمى فى مد قانون الطوارئ ، وهو التلويح بخطر الجماعات الدينية المتطرفة والارهابية ، حين أوضح وزير الداخلية أمام مجلس الشعب أنه تم ضبط ٢٢٧ قضية للنشاط المتطرف خلال العامين الماضيين، اشتملت المضبوطات فيها على قنابل ومدافع رشاشة وديناميت وأسلحة مختلفة !.

ذلك أن خطر الجماعات الدينية المتطرفة يعتبر من الأخطار التى يعمل لها المجتمع الدولى كل حساب ، ولا يرى فى حماية النظام المصرى نفسه منها عن طريق مد قانون الطوارئ تجاوزاً كبيراً للحرية ، طالما اقتصر استخدام القانون على هذا الخطر ، ولم يتجاوزه إلى الخصوم السياسيين والمعارضين .

أما العذر الاضافى الذى قدمته الحكومة ، وكان للاستهلاك المحلى، فهو وهو ضرورة قانون الطوارئ لمواجهة مهربي المخدرات ومخربي الاقتصاد والأشقياء الخطرين وبطبيعة الحال فلم يصدق أحد من أفراد الشعب هذا العذر !، لأن الجميع يعلمون أن المخدرات فى بلدنا أصبحت أيسر من رغيف العيش !، وأن ما يكسبه الحرفيون ، على حساب الطبقات الكادحة والشرفاء ! يذهب كله - أو معظمه - لجيوب تجار المخدرات ، الذين ينافسون تجار العمارات فى امتصاص ثروة شعبنا !.

كذلك يعرف الجميع أنه لم يحدث فى تاريخ الشعب المصرى أن انتشرت المخدرات بين تلامذة المدارس وطلبة الجامعات كما انتشرت فى هذه الأيام ! والسبب أن مصروف الجيب التقليدى الذى كان لا يتجاوز «تعريفة» !- أى خمسة مليمات - يومياً ، قد ترتفع إلى قرشين لمواجهة

مصاريف المواصلات !- هذا المصروف التقليدي أصبح بالنسبة لابن حرفى من الحرفيين أو ابن أحد أصحاب الدخول غير الشرعية ، يتجاوز مرتبى كأستاذ جامعى فى كثير من الحالات !ويصرف كله تقريباً فى المخدرات !.

ومعنى ذلك أنه لوكان مهربو المخدرات أحد الأعذار الحقيقية فى مد قانون الطوارئ ، لما أصبح لهذا العذر من أساس يقوم عليه ! لأن مهربى المخدرات - بحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ! - ينعمون بالأمن والطمأنينة ورغد العيش فى ظل هذا القانون ، كما ينعمون بها فى ظل الغائى سواء بسواء !.

أما مواجهة الأشقياء الخطرين على الأمن ، فان هذا العذر يمكن قبوله فقط فى حالة ما اذا كانت القوانين العادية غير كافية لحماية الأمن من هؤلاء . ولا يخفى على أحد أنه لم يحدث أن اتخذت الحكومة فى ظل قانون الطوارئ ما لم يكن فى وسعها اتخاذها فى حالة عدم وجوده ، لمواجهة أمثال هؤلاء الخطرين !. بل لعلى كتبت مرة تحت عنوان : «بين الأمن السياسى والأمن الجنائى» ، «أشيد» ! بانتشار السرقات فى جميع الأحياء تقريباً ، وعلى قدم المساواة ! ، و «أشيد» بمسألة جهات الأمن للصوص وحرصها على عدم ازعاجهم بأى مصدر من مصادر الازعاج .

ومعنى هذا الكلام أن حجج الحكومة لا قناع الرأى العام العالمى ، والتى تمثلت فى الجماعات الدينية المتطرفة التى تسعى إلى فرض رأياها بالقوة المسلحة والارهاب ، وتسعى لعودة بلادنا إلى عصر الناقة والجلباب والنقاب - كانت أكثر اقناعاً من حجج الحكومة لا قناع الرأى العام المصرى الداخلى بمواجهة مهربى المخدرات والأشقياء !.

والمهم أنه كما أن الرأى العام العالمى لم يهتم بقانون الطوارئ ، بعد أثبتت الحكومة أنه لا تطبقه على الخصوم السياسيين ، وافساحها السبيل للمعارضة للتعبير عن رأياها بكل طرق التعبير - فكذلك لم يهتم

الشعب المصرى كثيراً ، كما تمثل فى ردود فعله المتواضعة فى مواجهة مد قانون الطوارئ ثلاث سنوات كاملة ، رغم كل ما أثارته المعارضة من ضجة وجلبة وضوضاء .

ويرجع ذلك إلى عدة أسباب :

السبب الأول ، أن تأثير قانون الطوارئ لا يمس حياة المواطن العادى بشكل مباشر . فهو لا يمس حياة الحرفى ، ولا يمس حياة الموظف ، ولا يمس حياة عامل المصنع ، ولا يمس حياة صاحب المصنع . أقول : لا يمس بشكل مباشر ، لأنه لا يفرض على المواطن العادى شيئاً ، ولا يمنعه من شيء ، كما أنه لا يجبره على اعتناق فكر ، ولا يحرمه من اعتناق فكر ، ولا يتدخل فى أى نشاط اقتصادى شرعى بحظر أو عرقلة .

وفى ظل مناخ حرية الرأى التى تمارسها الصحافة ، ووجود الأحزاب السياسية المعارضة التى تكيل للحكومة أشد الضربات ، بل وفى ظل حرية تبيح لأى فرد من أفراد الشعب أن يقف فى أى ميدان من ميادين العاصمة لينقد رئيس الجمهورية نفسه بما يشاء من ألوان النقد - فمن هنا لم يبد مد قانون الطوارئ فى عين الرجل العادى فى شكل خطر يهب لدفعه بكل ما يملك من قوة ! ومن هنا أيضاً لم ير الشعب بأساً من أن يتظاهر بقبول حجج الحكومة فى المد ، وهو يعلم أنها حجج لا أهمية لها فى الواقع !.

فلم يمنع قانون الطوارئ وقوع أحداث الأمن المركزى ، التى تعد أخطر ما هدد النظام !، ولم يمنع اغتيال السادات ، وهو أول فرعون يُغتال فى تاريخ مصر !، ولم يمنع ظهور الجماعات الدينية المتطرفة وممارستها أساليبها الارهابية فى الجامعات ، أو ارتكابها حوادث الاعتداء على حياة السياسيين والكتاب ، ولم يمنع ظهور عصابة «ثورة مصر» ، وقتلها الدبلوماسيين الاسرائيليين والأمريكيين لاحراج النظام .

قانون الطوارئ - اذن - هو نمر من ورق ! حسب التعبير الصينى المعروف ! - والسبب فى أنه نمر من ورق هو أن الرئيس مبارك لا يستخدمه ضد المعارضة الشرعية الدستورية . فلم يستخدمه الرئيس مبارك بعد أحداث اغتيال السادات ، رغم ما هددت به النظام من خطر ، بل فعل العكس تماما ، فقد أفرج عن المعتقلين السياسيين ، واستقبلهم فى مقره لأول مرة فى تاريخ مصر ، وترك لهم الحرية الكاملة فى التعبير عن آرائهم السياسية كما يشاءون - من خلال الأحزاب ، أو خارج الأحزاب .

وحتى عندما ظهرت أنياب المعارضة بشكل حاد ، فانه لم ينتهز فرصة أحداث الأمن المركزى ، للعصف بالمعارضة والحريات السياسية ، مع أن كثيرين من الحكام « يفتعلون » مثل أحداث الأمن المركزى ، للانقلاب على المعارضين بالتصفيات الجسدية والأدبية ! .

وعندما أساءت بعض القوى المعارضة استخدام حريتها اساءة بالغة فى حادث سليمان خاطر ، وجعلت منه بطلا ، وأخذت فى تأليب الجماهير فى الشوارع والمساجد والجامعات ، وهددت الأمن تهديدا خطيرا - لم يستخدم الرئيس مبارك قانون الطوارئ لوقف هذا التهريج السياسى والعبث بمقدرات حياتنا السياسية ، بل ترك للأقلام الأمينة الواعية توعية الجماهير بحقيقة الأمور ! بل انه عندما اتخذت تلك الدوائر المعارضة من حادث انتحار الجندى المسكين فرصة لا أحداث ثورة ضد النظام ، لم يلجأ الرئيس مبارك لقانون الطوارئ ضد هذا التهديد .

هذا هو السبب فى قولنا ان قانون الطوارئ لم يمنع ما تزعم الحكومة أنه سبب مد العمل به ثلاث سنوات أخرى ! ، بدليل أن العمل به لم يوفر لها الأمن والطمأنينة ، فى حين أنه وفر للنظام الناصرى الأمن والطمأنينة على طول مدة حكمه تقريبا ! .

وعلى سبيل المثال فقد وفر للنظام الناصرى الأمن فى الفترة من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٥ ، لأن الإخوان المسلمين كانوا فى السجون والمعتقلات! .

وعندما خفف عبدالناصر اجراءات الطوارئ ، وسمح للاخوان بالخروج من السجن ، بدأ التهديد من جديد ! . وقد ثار الخطر فى عهد السادات ، عندما سمح للجماعات المتطرفة بالعمل ، حتى استفحل خطرها ولم يعد يجدى معها احتواء أو غيره ، فتألفت جماعة الجهاد التي قضت عليه ! .

ولو أن مبارك حول قانون الطوارئ من « نمر من ورق » إلى نمر حقيقى ، لأصبحت الجماعات المتطرفة كلها فى السجن ! . ولما سمح بالنشاط السياسى لمعارضى كامب ديفيد ! ، ولما سنحت الفرصة لظهور عصاة « ثورة مصر »! ، وفرض الرقابة على رأى بحجة حماية الجبهة الداخلية ! ، ولحل كل حزب معارض يعرض بسياسته الأمن والنظام فى البلد للاضطراب والاهتزاز ، وعاشت البلاد فى ظل قانون طوارئ حقيقى - أى قانون كذلك الذى طبقه عبد الناصر وعاشت البلاد فى ظله حتى مات ! .

هذا - على كل حال - السبب الأول فى ردود الفعل المتواضعة من جانب الشعب المصرى ضد قانون الطوارئ . أما السبب الثانى ، فيتصل بأحزاب المعارضة ، التي قامت ثورتها ضد العمل بقانون الطوارئ .

ففيما عدا حزب الوفد - الذى يرشحه تاريخه الليبرالى العريق للدفاع عن الحريات ، ويبرر غضبه لا استمرار قانون الطوارئ - فإن الأحزاب المعارضة الأخرى لا تستطيع اقناع شعبنا بحبها للديمقراطية وحرصها عليها ! ولا تستطيع اثبات أنه - فى تاريخها أو ممارستها على طوال السنوات السابقة ، قد احترمت رأى المعارض ، أو أتاحت له التعبير على صفحات جرائدها ، بل ان الديمقراطية عندها لا تعدو أن تكون لعبة سياسية تمارسها ولا تطبقها ! .

ولى شخصيا تجربتان مع كل من جريدة « الأهالى » و« الشعب » ، اللتين لم تترددا فى حرمانى من حق الدفاع عن نفسى ضد ما كانت تسوقانه ضدي من أكاذيب ، فرفضتا نشر ما أرسلته اليها من ردود ! .

رغم أنى لم أكن فى حاجة لارسال هذه الردود إلى الصحيفتين ، اذ عندى من المنابر الصحفية ما ينشر هذه الردود ، ولكنى كنت أتعمد ارسال الردود لا اختبار مدى احترام الجريدتين لحق الدفاع عن النفس ، واحترام النشر - ناهيك عن احترام الرأى الآخر !، لأن المسألة كانت مسألة خطأ وصواب ، حق وباطل . ولكن الجريدتين أثرتا تضليل قرائهما بضلالاتها ضدى ، وأغفلتا نشر ردودى التى تصوب الخطأ وتصحح الضلال . ومعنى ذلك أن الحرية عند الجريدتين اللتين تتشدقان بالحرية هى حريتهما فى التشهير بمخالفيهما فى الرأى ، وليست الحرية التى تكلمت عنها النظريات السياسية الليبرالية !.

كذلك فان شعبنا يطلب ممن يعارضون باسمه أن يحترموا القانون والنظام والشرعية ، ولا يعارضون على حساب هذه المبادئ لمجرد احراج الحكومة .

ولقد كان موقف معظم أحزاب المعارضة من عصاة «ثورة مصر» اختبارا لمدى احترام هذه الأحزاب لهذه المبادئ . فقد مجدت قتل الدبلوماسيين ، واعتبرت هذا القتل بطولة ، وجعلت من القتلة نجوما وكواكب ، مع أن هذا القتل لو وقع ضد بعثاتنا الدبلوماسية فى الخارج - سواء فى اسرائيل أو الولايات المتحدة - لاستنكرت جميعها هذا العمل ، لأنه ضد القانون والتحضر . ولوكان الدبلوماسيون يمثلون دول احتلال كان الأمر مفهوما ، ولكنهم كانوا يمثلون دولاً تربط مصر بها معاهدات ، ولا تحتل قوات أى منهما أرضاً مصرية .

وكيف يصدق الشعب غضب الناصريين - الذين يرون فى النظام الناصرى الذى طبق فى بلادنا المثل الأعلى للديمقراطية - لمد العمل بقانون الطوارئ ، ولم ينقطع العمل بهذا القانون طوال حكمهم ، وقد مارسوا فى ظل هذا القانون كل قمع نزل بخصوم الرأى ، وفتحوا بفضله المعتقلات لكل صاحب فكر حر ، ونكلوا بالشرفاء !.

من هنا لم يستطع شعبنا تصديق مظاهرات الاحتجاج ضد قانون الطوارئ ، سواء من جانب الشيوعيين أو الجماعات الدينية المتطرفة أو الفاشيين أو الناصريين ، لأنه يعلم أن هذا القانون هو القانون المفضل للحكم لدى هذه الفرق ، التي لا يؤهلها تاريخها ولا ممارستها السياسية حق الدفاع عن الديمقراطية !. ولم يحزن شعبنا كثيراً لاحتجاب صحف يعلم أنها تتاجر باسم الديمقراطية ولا تؤمن بها ، وأنها تلعب بها ولا تطبقها !.

وهذا يوضح هذه الحقيقة التي يبدو أن الجميع قد غفلوا عنها حتى الآن ، وهي أن الأزمة السياسية الحالية لا تكمن في حزب الحكومة ، بل تكمن في أحزاب المعارضة ! - وهو ما يضيق مجال الاختيار أمام جماهيرنا اذا سنحت لها الفرصة لممارسة انتخابية حرة . فليس لأحد أن يطمع في حكم ديمقراطي حقيقي يوفره له «التحالف الاسلامي» اذا وصل إلى الحكم ! وهذه الفرصة تنعدم تماماً مع حزب مثل حزب التجمع !. أما حزب الوفد - وهو الحزب الليبرالي الحقيقي في مصر - فلم يستعد بعد قوته السابقة على ثورة يوليو

وبقى الحزب الوطني !. وقد سبق لنا أن كتبنا مراراً بأن الذين ينتظرون من هذا الحزب حكماً ليبرالياً خالصاً كذلك الذي يميز أحزاب الغرب الليبرالية ، فإنهم يظلمون أنفسهم !، لأن مثل هذا النوع من الأحزاب لا يتوافر الا في النظم الرأسمالية الخالصة ، وليس في النظم الذي تسيطر على الهياكل الرئيسية لوسائل الانتاج . ذلك ان كل سيطرة على وسائل الانتاج تترجم في البناء الفوقي السياسي في شكل سيطرة على الحكم ، فاذا زادت السيطرة على وسائل الانتاج زادت السيطرة على الحكم ، والعكس بالعكس !.

هذا قانون تاريخي لا يملك أحد تحديه !. وربما كان في مد العمل بقانون الطوارئ ثلاث سنوات الدليل الدامغ على هذا القول . فعلى الرغم

من كل صخب المعارضة على مدى السنوات السابقة ، الا أنها وقفت عاجزة تماما عن منع الحكومة من استصدار القانون !. ولعلنا نلاحظ ان هذا هو نفس العجز الذى واجهت به أحزاب المعارضة أى تدخل سابق جرى فى الانتخابات العامة لاحراز الضرورية الأغلبية الدستورية الساحقة فى مجلس الشعب ، لتمرير أية قوانين يريد الحزب الوطنى تمريرها .

إنه لا يوجد على مدى التاريخ حزب تصدق بالديمقراطية على الشعب ، أو تبرع بها لخصومه السياسيين ! كما أنه لا توجد ديمقراطية كل الشعب ، وانما توجد ديمقراطية الحزب الذى يسيطر على وسائل الانتاج - أى الديموقراطية التى يتمتع بها هذا الحزب وحده ويحرم منها الآخرين !. والحزب الوطنى يسيطر على وسائل الانتاج ، ومن هنا فهو يسيطر على الحكم ، بكل الأدوات والطرق التى يملكها ! ويظل يسيطر على الحكم حتى تنتهى سيطرته على وسائل الانتاج .

ومن هنا ، وعلى الرغم من ايماننا بعدم جدوى قانون الطوارئ ، لأن سيطرة النظام على وسائل الانتاج هى أساس السيطرة على الحكم ، وعلى الرغم من ايماننا بأن قانون الطوارئ - فى يد أخرى - يمكن أن يجهض كل حرية فى البلاد - الا أن القضية تبدو لنا أكبر من ذلك بكثير، إنها قضية نوع الديموقراطية الذى يمكن أن يفرزها نظام يسيطر على وسائل الانتاج مثل نظامنا ، وهل يمكن أن تكون أفضل من ديموقراطيتنا، بحيث تتجاوز حق المعارضة فى التعبير إلى حقها فى الوصول إلى الحكم؟.

هل هناك تجارب تاريخية فى أمم أخرى يمكننا أن نحتذى بها؟.

بدون دمة نذرفها على مقاطعة المعارضة للانتخاب!*

* اكتوبر فى ١١/٤ / ١٩٩٠

بعد أن شغلت البلاد على مدى
ثلاثة أشهر تقريباً باجتياح النظام
العراقى للكويت ، ثم الحادث الاجرامى
المتمثل فى اغتيال المرحوم الدكتور
رفعت المحجوب ، انتقلت إلى الاهتمام
بانتخابات مجلس الشعب القادمة . وهو
أمر طبيعى فى عالم يتغير فيه كل شىء
بين لحظة وأخرى ، وينتقل أحياناً من
نقيض إلى نقيض

ولعل قضية الانتخابات كانت
جديرة بأن تمر دون اهتمام كبير من
الشعب ، الذى فقد كل ايمان بأية
انتخابات يجريها نظام يوليو - الذى
يعد نظام مبارك امتداداً له من بعض
الوجوه - لولا الزوبعة التى أثارتها
أحزاب المعارضة بقرار مقاطعة
الانتخابات ، والانقسام الذى وقع فيما
بينها حول هذا القرار بعد أن قرر حزب
التجمع خوض الانتخابات ، واستقالت
بعض القيادات الحزبية من بعض
الأحزاب لخوض الانتخابات .

والزوبعة التي أثارها قرار مقاطعة الانتخابات هي زوبعة في فنجان ، ولولا أن الوفد - للأسف الشديد - اشترك في هذه المقاطعة ، لما كانت زوبعة بحال من الأحوال ، بل ربما كانت نسمة رقيقة في حياتنا الحزبية الهشة التي لا تدانيها حياة حزبية في الضعف والهزال ، لأنها تجنب شعبنا مضار اشتراك ما يسمى بالتحالف الإسلامي في اقرار السياسة العامة للدولة والرقابة ! والتشريع ، بعد ما ظهر من ابتعاد ممارساته السياسية عن المصلحة العامة للبلاد .

وفى الواقع أنه لا أحد في شعبنا يحمل هذه الحياة الحزبية على محمل الجد ، فلا يوجد أى وجه شبه بينها وبين الحياة الحزبية في البلاد الديموقراطية الأصلية في الغرب ، فهي ثمرة أنتجتها تربة مريضة أصابتها الأمراض والآفات منذ يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى الآن ، عندما قضت الثورة على القوى الوطنية السياسية التي كانت موجودة قبل الثورة، وقذفت بها وراء أسوار المعتقلات ، وأعدمت البعض الآخر ، وظلت تحكم البلاد بتنظيم سياسى واحد ضم بين جنباته أكثر القوى السياسية انتهازية ووصولية وبعدا عن الديموقراطية . وقد تغير اسم هذا التنظيم السياسى الواحد من «هيئة التحرير» ، التي كانت أيديولوجيتها هي الاتحاد والنظام والعمل ! إلى الاتحاد القومى ، الذى كان فكره مشتقاً من النظم الفاشية التي لا تعترف برأى غير رأى النظام الحاكم ، ثم إلى الاتحاد الاشتراكى الذى حارت البرية فيه ! والذى قام فى الوقت الذى كانت الثورة تضع القوى الاشتراكية الحقيقية فى السجون منذ عام ١٩٢٠ ، ولم يسمح لها أبداً بالاشتراك فى صنع السياسة ، وظل معتمداً نفس العناصر تقريباً التي كونت هيئة التحرير فالإتحاد القومى ، العناصر العسكرية التي لا تؤمن بديموقراطية ، والمدنية التي لوثت بما بدماء الديموقراطية .

هذه التربة هي التي أفرزت حياتنا الحزبية الحالية . لقد عاد الوفد إلى الحياة السياسية بعد أن فقد الكثير من دمائه وكوادره ، ليعمل فى ظل قوانين تسمح بشكل الديموقراطية دون جوهرها .

وعاد الاخوان المسلمون ليعملوا من الباطن بعد أن حرموا من حزب يحمل اسمهم ويدخلون الانتخابات تحت لوائه ، وفى ظل عداء يحيط بهم سواء من جانب جماعات التكفير أو من جانب النظام .

وأما حزب التجمع ، فقد أثقل بصفوف الناصريين الذين لا يجمعهم فكر ، وإنما تجمعهم تجربة مدانة لاعتدائها على الحريات ولهزائمها العسكرية وتزييفها للانتخابات والحياة السياسية .

كما أن هذه التربة هى التى أفرزت حزب العمل ، الذى نشأ فى البداية ليمثل تطويراً لحزب العمال البريطانى يتفق مع تأمين وسائل الانتاج فى مصر ، ثم ضل طريقه، ففقد قياداته التى انشقت عليه، وفقد جماهيره التى انفضت عنه ، ولم يتردد فى الانتقال من اليسار إلى اليمين بتحالفه مع الاخوان المسلمين ، وتبنيه أكثر الاتجاهات رجعية فى الحياة الساسية والفكرية ، وأصبح يمثل مسخاً مشوهاً فى السياسة المصرية ، فلا هو يعبر عن اتجاه اسلامى خالص ، ولا هو يعبر عن اتجاه يسارى خالص ، ولا هو يعبر عن سياسة مصرية خالصة ، ولا هو يعبر عن سياسة عربية خالصة ، ولا هو يعبر عن سياسة ايرانية خالصة ، ولا هو يعبر عن سياسة عراقية خالصة ، ولا هو يعبر عن سياسة ليبية خالصة . وان كانت السياسة الثابتة الوحيدة التى ينتهجها هى ، مخالفة اتجاهات الشعب المصرى السياسية!

كذلك نجد حزبين آخرين لا يمثلان أحدا ، وهما حزب الأحرار الذى ضل طريقه ، وحزب الأمة الصورى .

هذه الحياة الهزيلة ازدادت هزالا بانضمام حزبين جديدين ليس لهما أى رصيد شعبى ، ولا يعبران عن فكر من أى نوع ، وهما حزب الخضر الذى ليس له صلة بالسياسة من قريب أو من بعيد ، وحزب مصر الفتاة السادر فى وهم الثلاثينيات ، والمتمسك ببريق اسم لم يكن له أية شعبية الا بين الجماهير الفاشية المخدوعة بمظاهر القوة دون أى اهتمام بمصادرها – رغم أن أحمد حسين نفسه تولى عن هذا الاسم كما ذكرنا

فى مقال سابق ، فقد استبدل به مرة اسم : « الحزب الاسلامى » ، ثم استبدل به اسم « الحزب الاشتراكى » !

ومعنى هذا الكلام أنه من العسير - ان لم يكن من المستحيل - الاعتماد على هذه الحياة الحزبية فى تأسيس حياة ديموقراطية سليمة تماثل ما هو موجود فى الغرب الرأسمالى . ففى الغرب الرأسمالى يوجد عادة حزبان كبيران يستقطبان الجماهير ، ويمكن لأى منهما أن يحكم البلاد بما له من كوادرسياسية متمرسة بشئون الحكم ، أوحتى فى أسوأ الظروف يمكنه أن يحكم بتألفه مع حزب أو حزبين آخرين ، ولكن فى مصر من يستطيع أن يزعم أنه يوجد حزب يملك كوادرس يمكنه من أن يحكم بمفرده أو مع غيره اذا هو نجح فى الانتخابات ؟

إن حزب الوفد هو أكثر الأحزاب جماهيرية كما أنه أكثرها استقامة من ناحية الفكر والسياسة والأسلوب ، ولكنه فى ظل الممارسة الديموقراطية الحالية لم يعد يمثل حزبا يمكنه أن يفوز وحده فى الانتخابات اذا أجريت حرة ، لسبب بسيط هو أن كوادره الأولى التى كانت تعتمد على جماهير شعبية عريضة وبناء اقتصادى معين لم تعد موجودة ، كما أن تسلط كوادرس الحزب الوطنى على الدوائر الانتخابية لسنوات طويلة ، وتمرسها بالألعاب الانتخابية ، وما أرسسته لنفسها من مصالح خاصة ، يمكنها من منافسة كوادرس حزب الوفد البعيدة عن هذه الممارسات والمصالح لحد كبير وقصارى ما يمكن أن يطمع فيه حزب الوفد - اذن - هو عدد يعتد به من النواب فى مجلس الشعب يحد من تسلط نواب الحزب الوطنى ، ويطرح رأى الآخر ، ويجبر الحكومة على التدقيق والتروى فيما تقوم به من أعمال أو تقدمه من مشروعات .

وهذا الغرض كان يمكن تحقيقه بسهولة لو دخل الوفد الانتخابات ، حتى لو تعرض لبعض المضايقات الادارية ، خصوصا بعد أن وقف فى خط واحد وجبهة واحدة مع الحزب الحاكم ، فى أزمة الخليج الخطيرة التى تمثل نقطة تحول فى تاريخ هذه المنطقة ، وقدم له بالتالى مساعدة

قيمة جديرة بالتقدير ، وأثبت إلتزامه بالخط الوطنى الأصيل وإدراكه الواضح للمصالح المصرية . فضلا عن أن هذا الموقف من أزمة الخليج كان من أسباب تقدير الجماهير له ، وإحترامها له ولسياساته .

ومن هنا خطأ قرار الوفد بمقاطعة الانتخابات . لقد كان الوفد فى الماضى يقاطع الانتخابات لأنه كان حزب الأغلبية الشعبية التى ترى من حقها الحكم ، وكان تزويد القصر للانتخابات يضيع منه الحكم ، أما اليوم فان فرصة الانفراد بالحكم وانتزاعه من يد الحزب الوطنى - حتى فى انتخابات حرة - هى فرصة منعدمة تقريبا ، وتصبح القضية فى هذا الضوء هى قضية زيادة أو نقص عدد النواب الوفديين الذين يدخلون البرلمان ، وليست قضية الانفراد بالحكم .

هذا فيما يتصل بحزب الوفد وامكانيات انفراده بالحكم ، فاذا انتقلنا إلى حزب التجمع ، فان فرصة نجاح أحد من مرشحيه فى انتخابات مجلس الشعب ، ناهيك عن الحصول على أغلبية تمكنه من الحكم هى فرصة مشكوك فيها ، كما أثبتت انتخابات ١٩٨٤ ، ١٩٨٧ ، خصوصا بعد موقف الحزب المتذبذب من أزمة الخليج ، الذى أفقده كثيرا من مصداقيته كحزب يرفع شعار القومية العربية ، ويتظاهريبالدفاع عن حقوق الانسان وحق الشعوب فى تقرير مصيرها . بل لم يتردد الحزب فى اتخاذ موقف مناهض لموقف الاتحاد السوفيتى لخدمة النظام العراقى، فبينما أيد الاتحاد السوفيتى التدخل الأجنبى لانهاء الاحتلال العراقى للكويت ، اذا بحزب التجمع يدين هذا التدخل ليصرف به الانظار عن وجود القوات العراقية فى الكويت . ومن الطبيعى أن الجماهير المصرية التى غضبت كما لم تغضب من قبل لاستيلاء النظام العراقى على الكويت ، قد غضبت أيضا للموقف «التجمع» السالف الذكر ، وسوف يكون لذلك أثره فى الانتخابات التى قرر التجمع دخولها.

أما الاخوان المسلمون فلم يشهد تاريخهم أسوأ من الموقف الذى اتخذوه من احتلال النظام العراقى للكويت . فلم يؤرق ضميرهم

الاسلامى اجتياح بلاد اسلامى لبلد مسلم صغير ، لم يرفع عليه سيفاً ، ولم يطلق عليه رصاصة واحدة ، وانما ساعده فى محنته بمئات الملايين من الدولارات ! ولم تهتز شعرة واحدة فى جسدهم الاسلامى لوقوع شعب مسلم تحت أقدام غزاة مسلمين ، والسطو على أملاكهم وأموالهم والاعتداء على أعراضهم ، ولم يتذكروا للحظة واحدة قول الله الكريم : «وان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله» .

وانما كان أكبر ما أرق جفونهم الشريفة هو الخوف على أسلحة النظام العراقى الكيماوية من أن تتدمر - كما طالب المجتمع الدولى وكما طلب الرئيس المصرى محمد حسنى مبارك ! لقد كان أكبر ما أقلقهم هو تدمير الأسلحة التدميرية الكيماوية التى يمتلكها العراق ، والتى استخدمها بدون رحمة فى قتل شعب إيران المسلم وقتل الشعب الكردى المسلم ، والتى يهدد باستخدامها فى قتل الشعب السعودى المسلم ، والكويتى المسلم ، وشعوب الخليج المسلمة ! لقد كان لب المشكلة فى ذهنهم هو امتلاك اسرائيل أسلحة كيماوية وذرية ، وليس وجود الشعب الكويتى المسلم تحت أقدام الاحتلال العراقى الذى سلبه اسمه وهويته وممتلكاته وأمواله وعرضه وشرفه ! .

هذا الموقف غير المسئول للاخوان المسلمين أزمة الخليج ، هو نفسه الموقف الذى اتخذه حزب العمل - شريك الاخوان المسلمين فى التحالف الاسلامى - من أزمة الخليج ، والذى لم يكن يتوقعه أحد !

فعلى طول الحرب العراقية الايرانية كان حزب العمل يتخذ جانب إيران بحجة أنه شعب مسلم ، حتى لقد ظن الكثيرون أن حزب العمل يعتبر الشعب العراقى شعباً غير مسلم ! ولكن حزب العمل لم يلبث أن غير مواقفه بعد اجتياح النظام العراقى للكويت ، وبعد مقابلة زعمائه مع السفير العراقى فى مصر . ففيما يبدو أن السفير العراقى استطاع اقناع زعماء حزب العمل بأن الشعب العراقى قد أصبح شعباً مسلماً ،

وأن الشعب الكويتي هو الذي ارتد عن الاسلام وأصبح شعباً كافراً ! لأن حزب العمل بعدها أصبح نصيراً متحمساً للنظام العراقي الذي كان يناصبه العداء على مدى ثماني سنوات ، وأسقط من حسابه تماماً قضية احتلال النظام العراقي للكويت ، رغم أن هذا الاحتلال ضد كل مبادئ الاسلام والمسيحية واليهودية والبوذية وجميع الأديان السماوية . ولم يعد يؤرق حزب العمل سوى التدخل الأجنبي في الخليج ، الذي نسي تماماً أنه جاء لحماية السعودية من مصير الكويت ، ولتحرير الكويت من الاحتلال العراقي .

وسرعان ما أخذ حزب العمل يلعب لعبة حماية النظام العراقي لحساب استمرار احتلاله للكويت عن طريق ما أسماه بالوساطة ! فقد ظن الناس أن حزب العمل يتوسط لكي يسحب النظام العراقي جيوشه من الكويت ، ويعيد اليها حكومتها الشرعية ، ويعيد إلى شعبها المسلم سيادته على أرضه ، ولكننا نفاجئ بأن موضوع الاحتلال العراقي للكويت كان أبعد ما يكون عن وفد الوساطة !

ففي سؤال «المصور» لإبراهيم شكرى: هل قلتم لصدام صراحة إن غزو العراق للكويت هو الذي تسبب في وجود القوات الأجنبية ؟ وهل قلتم له انه يجب أن ينسحب حتى تنتفى الأسباب التي ترتبت على الغزو؟.

ويرد السيد إبراهيم شكرى قائلاً : هو - أى صدام - يعترف بداية أن هناك دولة اسمها الكويت !

وعندما يسأله المصور : هل تلقيتم رداً محدداً من صدام على فكرة الانسحاب من الكويت ؟ يرد قائلاً : الذي استشعرته منه أنه يربط هذه القضية بقضايا أخرى !

وعندما يسأله المصور . ما ذنب الكويت في أن تظل رهينة حتى تتم تسوية كل هذه القضايا ؟ يرد رئيس حزب العمل قائلاً : هذا ليس ذنبها ، ولكنه قدرها ! ثم يبرر هذه التسوية بقوله : «هم الكويتيين على رأسهم ريشة ؟».

هذا الموقف المدان من جانب حزب العمل ، بالاضافة إلى موقف الاخوان المسلمين ، الموجودين معه فى التحالف الاسلامى ، كان من شأنه أن يجعل فرصة الطرفين فى الحصول على مقاعد فى مجلس الشعب فرصة مشكوك فيها تماما . ومن هنا كان قرارهم بمقاطعة الانتخابات ، ليجنبوا أنفسهم فشلا ذريعا وهزيمة قاسية على يد الجماهير الشعبية ، التي وقفت بكل قلبها إلى جانب الرئيس مبارك فى تصديه للغزو العراقى للكويت .

وقرار المقاطعة هذا علينا أن نرحب به على كل حال ، لأن وجود هذين الحزبين فى حياتنا النيابية لا يفيد حياتنا الديمقراطية والدستورية بشئ ، ذلك أن ممارساتهما السياسية فى السنوات الأخيرة قد أثبتت خطرهما على الديموقراطية الحقيقة .

فقد وقفنا إلى جانب الارهاب والعنف الفردى ، فساندا الجماعات الارهابية فى كل ما قامت به من اعتداءات على الجماهير والسلطة ، وجعلا من سليمان خاطر بطلا لأنه قتل بدون عمد سبعاً من الاسرائيليين عزلا من السلاح .

وكانا على الدوام يقفان فى الصف المضاد لاتجاهات رأى العام ، فحين كان رأى العام يؤيد العراق فى حربه مع ايران ، كانا يؤيدان ايران ضد العراق ! وحين كان رأى العام فى مواجهة مع النظامين الليبى والسورى ، كانا فى حالة مصالحة مع هذين النظامين ! وعندما وقف النظام السورى فى مواجهة مع النظام العراقى بسبب غزوه للكويت، انتقلا من مصالحة النظام السورى إلى مصالحة النظام العراقى !

وعندما أفتى الدكتور سيد طنطاوى بأن أرباح البنوك ليست ربا ، وقفنا ضد هذا رأى ، ونشراً فتاوى مشايخ شركات توظيف الأموال بأن أرباح البنوك هى ربا ، مع ما فى تلك الدعوة من خطر أكيد على الاقتصاد القومى .

وأخيراً عندما وقف الشعب بأسره فى مواجهة مع النظام العراقى بسبب غزوه للكويت ، وقفاً فى مواجهة مع الشعب لصالح النظام العراقى ! ولم يأتها لوجود قواتنا المسلحة على خط المواجهة لحماية المملكة العربية السعودية من أى خطر يأتى من جانب النظام العراقى . وبذلك أثبت التحالف على مدى السنوات السابقة أنه كان تحالفاً ضد الشعب وليس لمصلحة الشعب .

ومن هنا ترحيبنا الشديد بقرار التحالف مقاطعة انتخابات مجلس الشعب ، اذ كان يخشى أن يتمكن الحزبان - فى مناخ السلبية العام من جانب الشعب للانتخابات العامة ، ويفضل التنظيم الدقيق والتعبئة المدربة للأنصار - من القفز إلى بعض مقاعد مجلس الشعب ليمارسا فيه التخريب الذى يمارسونه فى رأى العام من خلال جريدة «الشعب» ، لسان حال الحزبين .

وبالنسبة للحزب الوطنى ، فصحيح أنه لا يعد حزبا بقدر ما هو تجمع للمصالح والمغانم ، وصحيح أن الشعب لا يغفل عن أخطائه الجسيمة فى تحكمه فى الخدمات والأرزاق ، كما أنه لا يمكن القول بأنه يمثل حزبا جماهيرياً على نحو ما كان عليه الوفد قبل الثورة ، ولكن الشعب - عند توجهه لصناديق الانتخابات - يخلط بينه وبين نظام الحكم الذى يرأسه الرئيس محمد حسنى مبارك ، مع أن نظام الحكم شئ والحزب الوطنى شئ آخر .

فالحزب الوطنى هو حزب من الأحزاب السياسية فى مصر ، وصعود حزب آخر للحكم لا يعنى أن نظام الحكم قد تغير ، لأن رئيس الدولة فى نظامنا السياسى لا يُختار بوصفه رئيساً لحزب معين - كما هو الحال فى الولايات المتحدة ، وإنما يختار مستقلاً عن الأحزاب تماماً . صحيح أن ترشيح رئيس الجمهورية يأتى عن طريق مجلس الشعب بناءً على ترشيح ثلثى أعضائه على الأقل ، ولكن هذا الترشيح لا يجعله رئيساً

للجمهورية بشكل ميكانيكى ، وانما يصبح رئيساً للجمهورية باختيار الشعب له من خلال استفتاء شعبى عام .

على أن الشعب عند توجهه لصناديق الانتخابات ، يربط - كما ذكرت - بين الحزب الوطنى والرئيس مبارك بشكل خاطئ ، فيتصور أن نجاح الحزب الوطنى هو نجاح لمبارك وضمان لا ستمرارته فى الحكم ، مع أن الضمان الوحيد لاستمرار مبارك فى الحكم هو الشعب نفسه وليس الحزب الوطنى ، ولا يمكن أن يصعد أى رئيس جمهورية إلى الحكم إلا بإرادة الشعب . وشعبية الرئيس مبارك فوق كل شك ، سواء كان مجلس الشعب مكوناً من أغلبية من الحزب الوطنى أو من حزب الوفد أو من أية أحزاب أخرى ، فلا يوجد نائب وطنى يستطيع أن يرشح رئيساً للجمهورية أفضل من رئيس الجمهورية الحالى ، الذى أثبت على مدى تسع سنوات من الحكم كفاءة منقطعة النظر لا تضعه أبداً فى موضع المقارنة مع أى مرشح آخر مهما كان .

ولعل حياتنا الحزبية لوكانت أخصب ، وكان لدينا البدائل الصحيحة، لتخلى الرئيس مبارك عن رئاسة الحزب الوطنى ، ولرحب بصعود حزب آخر إلى الحكم ، ولكن حياتنا الحزبية - على نحو ما أوضحت - حياة هشة ضعيفة ومليئة بالأمراض ، واطلاق الحرية فى مثل هذه الحالة قد يؤدى إلى الفوضى ، والفوضى هى أقصر الطرق المؤدية إلى خراب البلاد ! .

مجلس القطط السمان ! *

لست أظن أنني قد تفاعلت بحكم
المحكمة الدستورية ببطلان مجلس
الشعب كما تفاعل غيرى ، وان كنت قد
سعدت لما هو متوقع من حل المجلس !
فمن المصلحة دائماً فى نظم سياسية
كنظامنا تقصير مدة المجلس النيابى
إلى سنتين أو ثلاث على الأكثر ، لأن
فى هذا التقصير تقصيرا لمدة استغلال
النواب لنيابتهم عن الشعب فى تحقيق
الثروات .

فلقد تحول مجلس الشعب من
مهمة تحقيق مصالح الشعب إلى
مجلس مهمته تحقيق مصالح أعضائه !
وتحول اهتمام أعضائه من المسائل
القومية إلى المسائل الشخصية ، ولم
تستفد البلاد من هذا المجلس شيئاً ،
فلا هى حققت ديموقراطية أكبر ، ولا
الحياة الدستورية استفادت أكثر ! ولم
يفترق عمل المجلس عن عمل المنابر
الحر ، اذ يستطيع فيه كل نائب أن

* الوفد فى ٤/٦/١٩٩٠

يعبر عن رأيه بمنتهى الحرية ، ولكنه لا يستطيع أن يمارس ما يمارسه النائب الحقيقى فى النظم الليبرالية الغربية ، فهو فى نهاية الأمر خاضع للسلطة التنفيذية وليس مراقباً لها ، وما تريده السلطة التنفيذية لا يملك معارضته ، ويستطيع نواب المعارضة أن يمارسوا معارضتهم كما يشاءون ، ولكن السلطة التنفيذية تملك الأغلبية فى المجلس ، وتقرر من خلالها ما تشاء!.

أما لماذا لا يستطيع نواب الحزب الوطنى ممارسة الخروج على إرادة السلطة التنفيذية ، فلأنهم معينون من قبل هذه السلطة التنفيذية ، ولأنهم منتخبون بفضل مساعدة السلطة التنفيذية ، ولأنهم يدينون للسلطة التنفيذية بمراكزهم التى يمارسون من خلالها استغلالهم لمراكزهم فى الاثراء وتكديس الأموال .

وكم وددت لو تكمن أحد الباحثين من تتبع أصول هؤلاء النواب إلى ما قبل نيابتهم ، وتسجيل ما انتهوا اليه بعد نيابتهم وحل مجلسهم ! اذن لتكشفت صفحة من التغيير الاجتماعى الذى طرأ على مجتمعنا فى السنوات الأخيرة ! .

فلست أظن أن كثيرين من أعضاء هذا المجلس يشبهون فى قليل أو كثير نواب ما قبل الثورة ، الذين استندوا إلى ثراء عائلى يتمثل فى ملكية زراعية أو صناعية أو تجارية ، وإلى وعى بالمشاركة فى الحكم لصيانة وحماية مصالحهم الطبقية .

إن هذا الوعى يعد مفقودا بالنسبة للغالبية من أعضاء مجلس الشعب الحالى ، الذين يمثل المجلس بالنسبة لهم مصدرا للكسب والثراء ، والاستناد إلى نفوذ سياسى يحقق لهم ممارسة أطماعهم الخاصة فى الارتفاع من الطبقة الدنيا التى نشئوا فيها إلى الطبقة الوسطى والعليا .

فمن تحليل للبنية الاجتماعية لبرلمان ما قبل ثورة يوليو ، أعدته الباحثة عزة وهب ، بلغت نسبة كبار الملاك فى مجلس النواب ٣٥٧٤ ،

ونسبة متوسطى الملاك الزراعيين ٢٦٩٦ر ، ونسبة الرأسماليين الصناعيين ١٤١١ر ، ونسبة الرأسماليين التجاريين ٩٦ر٥ ، والمهنيين ٢٠٦٩ر ، والموظفين الحكوميين ٢٠٥ر ، وغير محددى الهوية ٤٣٩ر .

ولو أمكن تحليل البنية الاجتماعية لمجلس الشعب الباطل ، وأوغلت الباحثة - أو الباحث - فى الأصول الاجتماعية للنواب ، لكانت نسبة ٩٥ فى المائة منهم ممن ينطبق عليهم وصف «غير محددى الهوية» ! وهذا فى حد ذاته ليس عيباً ، ولكن العيب أن يصبح «غير محدد الهوية» «محدد الهوية» ، ويملك المارسيديس والشقق الفاخرة والحسابات فى البنوك ، بفضل نيابته عن الأمة ، وليس بفضل نشاط اقتصادى مما تعرفه الأنشطة الاقتصادية المعروفة !.

ولقد سبق لرئيس مجلس الشعب الحالى ، الدكتور رفعت المحجوب ، أن أطلق على الرأسماليه الطفيلية الجديدة ، التى ينتمى اليها معظم أعضاء مجلس الشعب ، اسم «القطط السمان» ! وكلفه هذا الوصف منصبه كأمين عام للاتحاد الاشتراكى ، عندما شعر الرئيس السادات أن هذا الوصف قد أصبح علماً على الطبقة الجديدة . ولعل هذا الإدراك من قبل الدكتور رفعت المحجوب لحقيقة القطط السمان فى مجلسه هو الذى يقف وراء اساءة معاملته لهم على النحو المعروف ! كما أن إدراك القطط السمان لحقيقتهم هو الذى يدفعهم إلى تقبل هذه المعاملة ! .

ومن هنا فلسنا أعتقد أن المجلس الجديد يمكن أن يأتى بنوعية أفضل ، اللهم الا اذا زاد عدد نواب المعارضة فى المجلس بدرجة تحدث التوازن ، وفى الوقت نفسه اذا طهر الحزب الوطنى نفسه من النواب الذين اساءوا إلى سمعته - وهم معروفون ، وامكانية معرفتهم متوفرة بلا شك .

وعندئذ فقط يمكن أن ينتقل المجلس الجديد إلى ممارسة الدور الذى تقوم به المجالس النيابية الحقيقية ، وهو أن يكون سلطة تشريعية رقابية

على السلطة التنفيذية ، يعبر عن إرادة الشعب وليس عن إرادة السلطة التنفيذية ، ويمكن - بذلك - أن يتحقق الغرض من الحياة الدستورية ، وهو التعبير عن إرادة الشعب ، وليس التعبير عن مصالح النواب أو الحكام ، ويصبح مجلس الشعب مكسباً للديموقراطية بدلا من أن يكون مكسباً للحكومة . ويتعذر في هذه الحالة تمرير أخطر القوانين التي تمس مصالح الشعب وتؤثر على مستوى معيشته وحياته ، بالعشرات في جلسة واحدة كما حدث مراراً !.

وعندما يتحقق ذلك بالفعل ، يحق لنا أن نحزن اذا جرى حل مثل هذا المجلس ! لأننا نحزن عندئذ على خسارة حقيقية ، أما الآن فمن يحزن للتخلص من مجلس اللقطط السمان كان يجثم على صدر البلاد ؟

الفصل الرابع

نظام مبارك

ثورة يوليو وشرعية الحكم الحالى

لست أدري اذا كان إصرار النظام السياسى فى مصر على أنه يستمد شرعيته من ثورة يوليو يمكن أن يفيد شياً؟ فالأمر المحقق أن اعتداءات ثورة يوليو على الحريات فى مصر قد حجت - لحد كبير - انجازاتها ، وأثرت على صورتها فى ذهن الجماهير . وأكثر من ذلك أن الحكم الدكتاتورى الذى مارسته قد سلب مضمون الكثير من هذه الانجازات ، وأبقى منها الشكل الذى نعانى سلبياته فى حياتنا الاقتصادية حتى الآن ، فضلاً عن ذلك فإنه لا يستطيع أحد أن يزعم أن ثوار يوليو الذين حققوا انجازاتها هم ممن ينطبق عليهم مصطلح «الثوار» بالمعنى الأيديولوجى ، فقد تخلصت الثورة فى السنوات الأولى ممن يمكن أن يطلق عليهم اسم ثوار بالمعنى السالف الذكر - تخلصت من خالد محيى الدين ، ويوسف صديق ، وتخلصت ممن هم

الوفد فى ١٥/٨/١٩٨٨

أقل أهمية أيديولوجية مثل جمال سالم الذى تولى الاصلاح الزراعى وتخلصت من عبد اللطيف البغدادى وثروت عكاشة وغيرهما من العناصر الأكثر كفاءة . بل انها تخلصت من القيادات السياسية المدنية التى تخدم فكرها ، فقد زجت بالاشتراكيين فى السجون ، وقادت الثورة المسماة بالثورة الاشتراكية بعناصر يمينية !

وفى رأينا أن ثورة يوليو تقترب بعبد الناصر ، وقد انتهت بموته وما جاء بعد عبد الناصر من نظام سياسى هو انقلاب عليه ، وليس امتدادا له - انقلاب فى البناء التحتى والبناء الفوقى معا . وهذا الانقلاب من شأنه أن ينهى صفحة ثورة يوليو ولا يمتد بها !

وللدقة التاريخية فان الفترة من وفاة عبد الناصر حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ تعتبر امتدادا لعهد عبد الناصر من جوانب كثيرة ، منشؤه الاحتلال الاسرائيلى لسيناء ومتطلبات تحريرها . ويمكن - من جانب آخر - أن نسمى هذه الفترة فترة انتقال ! ، فقد استمر فيها الوجود السوفيتى فى مصر حتى انقطع بانتهاء خدمة القوات الصديقة ، وفى الوقت نفسه استمر السادات على ولائه للنظام الاجتماعى الذى أرساه عبد الناصر ، كما استمر على عداوته للمعسكر الامبريالى .

وقد انقلب هذا كله بعد حرب أكتوبر وما أسفرت عنه من نتائج ، وعلى نحو يمكن معه أن نقول إن السادات أصبح نقيض عبد الناصر ، وأر عهده أصبح انقلابا على ثورة يوليو . وقد كان السادات يعرف أن عبد الناصر هو ثورة يوليو ، فأراد أن يصنع لنفسه ثورته ، وهى التى أسماها بثورة التصحيح ، وقد خلع بها كل طاقم عبد الناصر ، الذين أطلق عليهم اسم « مراكز القوى » ، وأوجد لنفسه طاقمه الخاص ، فانتهى عهد عبد الناصر ، وانتهت بالتالى ثورة يوليو .

وفى الواقع أن أى متتبع لتاريخ ثورة يوليو يعرف تماما أن هذه الثورة استقرت فى يد عبد الناصر منذ أزمة مارس ١٩٥٤ ، بعد أن أخ

دوره فى قيادة سياستها يبرز من خلال عمليتين رئيسيتين اقترنتا باسمه شخصيا ، وهما صفقة الأسلحة الروسية ، وتأميم قناة السويس . وعندما فشل العدوان الثلاثى على مصر، كان اسم عبد الناصر قد أصبح قرينا باسم ثورة يوليو ، وأخذ يتخلص من زملائه القدامى الأقوياء - فيما عدا عبد الحكيم عامر الذى قبل لنفسه أن يكون حاكم مصر «الأول مكر» ! - وبفضل سيطرة عبد الناصر أمكن نقل « ثورته » من مرحلتها البورجوازية إلى المرحلة الاشتراكية (مع الاعتذار للمصطلحات). وقد جاءت مناسبة نكسة يونيو ليخلص الحكم فى يد عبد الناصر لا شريك له فيه . وفى الفترة التالية حتى وفاته كانت علاقات مصر بالاتحاد السوفيتى قد وصلت إلى مرحلة الوجود السوفيتى فى مصر ، وإلى مرحلة التناقض التام مع الامبريالية الأمريكية .

فأين كل ذلك من مرحلة السادات ؟ . انه لم تكد تنتهى الفترة الانتقالية بانتهاء حرب أكتوبر ، حتى أحدث السادات انقلابه الدبلوماسى المشهور الذى نقل به وجه مصر فى السياسة الخارجية من الشرق إلى الغرب .

ثم أحدث انقلابه فى البناء التحتى بورقة أكتوبر وسياسة الانفتاح ، فتغير كل ما هو فوق هذا البناء من قوانين وقيم اجتماعية وفكر سياسى وثقافة وغيرها .

ثم أحدث انقلابه المشهور فى الصراع العربى الاسرائيلى الذى كان أحد محاور العهد الناصرى ، بزيارة القدس المشهورة التى نقلت مصر من حالة الحرب مع اسرائيل إلى مرحلة السلام والمعاهدة .

وأكثر من ذلك أنه قلب تربة المجتمع المصرى فجعل عاليها أسفلها وأسفلها عاليها حتى ان مجتمع السادات أصبح يختلف اختلافا كليا عن مجتمع عبد الناصر .

فعلى أى مقياس أو معيار نظرى أو عملى يمكن القول إن عهد السادات هو امتداد لعهد عبد الناصر ، وبمعنى آخر كيف يمكن القول إن عهد السادات هو امتداد لثورة يوليو ؟

فاذا انتقلنا إلى عهد الرئيس مبارك ، فكما سبق لى أن كتبت فى احدى المقالات ، فانه يمثل ما يمكن أن نطلق عليه اسم « المرحلة التأليفية » فى علم الديكاليكتيك (الجدل) - بمعنى أنه عهد يحاول أن يجمع بين مميزات عهدي عبد الناصر والسادات ، ويترك مساوئهما .

فقد استبقى القطاع العام من انجازات الناصرية ، وأخذ فى تجديد معداته ودفعه إلى الأمام ، وفى الوقت نفسه استبقى القطاع الخاص وأطلق له الحرية الاقتصادية .

وقد استبقى المعاهدة المصرية الاسرائيلية وسياسة كامب ديفيد ، ولكنه تقرب من الدول العربية إلى الحد الذى أقنعها باعادة علاقتها الدبلوماسية مع مصر .

كذلك فقد احتفظ بالعلاقة الخاصة بين مصر والولايات المتحدة ، ولكنه تقرب من الاتحاد السوفيتى إلى الحد الذى أقنعه بتحسين علاقاته بمصر .

وقد استبقى من عهد السادات التعددية الحزبية ، وأطلق لحرية الرأى العنان ، ولكنه استبقى من عهد الناصرية التلاعب فى الانتخابات ، والاحتفاظ بأغلبية ساحقة فى مجلس الشعب تنقل التعددية الحزبية من الناحية الفعلية إلى الحكم الشمولى ، وتضع مقاليد البلاد فى يد الحزب الوطنى .

وبعبارة وجيزة ، فان نظام مبارك اذا جاز أن يكون امتدادا لنظام السادات ، فانه لا يكون امتدادا لنظام عبد الناصر ، لأنه نقيض له بأشد من نظام السادات . ومن ناحية الشرعية فان نظام مبارك يستمد شرعيته من الاستفتاء على رياسته ، ولا يستمد من ثورة يوليو على النظام الملكى ، ويؤكد ذلك أن مبارك لا ينتمى إلى ضباط ثورة يوليو ، وهو بالتالى لا يتحمل مسئولية سلبيات هؤلاء الثوار أو ايجابيتهم .

واذا كان الأمر كذلك ، فما هو تفسير تمسك نظام مبارك بثورة يوليو وزعمه بأنه يستمد شرعيته من تلك الثورة ، رغم أن هذه الثورة قد فقدت مصداقيتها بل فقدت سمعتها لدى الجماهير ؟ .

فى الواقع أن شىئاً واحداً هو الذى يجذب نظام الحكم إلى ثورة يوليو، ويدعوه إلى التمسك بها ، وهو الصيغة التى اخترعتها ثورة يوليو لتحل محل الديمقراطية البرالية قبل الثورة - وهى الصيغة التى تصنع الحكم والسلطة باستمرار فى يد النظام ، ولا تسمح بانتقالها إلى أى حزب معارض . فمن المعروف أن هذه الصيغة لا نجد لها نظيراً فى النظام الرأسمالى ، كما أننا لا نجد لها نظيراً فى النظام الاشتراكى ، كما أننا أيضاً لا نجد نظيراً لها فى النظام الفاشى ، وأكثر من ذلك أنه لا يوجد نظير لها فى النظام الإسلامى ! - وفى كلمة موجزة أن هذه الصيغة هى اختراع ناصرى مائة فى المائة ، ومن هنا يتمسك نظام الحكم بأنه يستمد شرعيته من ثورة يوليو ، لأن ثورة يوليو - بالفعل - هى أصل هذه الصيغة التى لم تعرفها النظم السياسية أو الفكر السياسية القديم والوسيط والحديث للديموقراطية !

الملاح ! وأحداث الأمن المركزي

إذا كان من الصحيح أنه لا يمكن إصدار حكم تاريخي على حدث من الأحداث بعد أسبوع من وقوعه ، فإن العدد القليل من الحقائق التي برزت من بين مظاهر التخريب والتدمير ، التي سببتها الفتنة المجنونة التي مرت بمصر في يوم ٢٥ فبراير ١٩٨٦ ، سوف تصمد - أغلب الظن - على مر الزمن كحقائق غير قابلة للنقد أو التجريح .

وأولى هذه الحقائق هي استقرار نظام الحكم في مصر ، بعد سلسلة من العواصف التي ظلت تجتاحه منذ ثورة ٢٣ يوليو ، سواء في شكل حروب أو في شكل حركات وهبات شعبية هزت نظام الحكم .

لقد كانت أزمة مارس ١٩٥٤ أول أزمة هزت نظام الحكم وكادت تقتلع جذوره ، وقد قمعتها الثورة بالحديد والنار . وتلتها أزمة اغتيال عبد الناصر في ميدان المنشية في ٢٦ أكتوبر

أكتوبر ١٦ / ٣ / ١٩٨٦

١٩٥٤ ، وقد عالجتها الثورة باعتقال الاخوان المسلمين فى جميع أنحاء القطر ووضعهم فى المعتقلات والسجون وانزال أفظع ألوان العذاب بهم . وجاء العدوان الثلاثى فى أكتوبر ١٩٥٦ يحاول اقتلاع حكم عبد الناصر بالطائرات والدبابات ، ولكن بسالة الشعب المصرى ردت ، العدوان ، وأنقذت الثورة من مصير محتوم . وبعد عشر سنين نشبت حرب يونية ١٩٦٧ ، التى انتهت بكارثة ، وبدلا من أن يجبر الشعب المصرى عبد الناصر على ملاقة نفس المصير الذى لاقاه كل الحكام المهزومين على مدى التاريخ ، تمسك به بحركة عبقرية من حركات هذا الشعب ، التى يثبت بها دائما تحديه للقوى المعادية فى وجه كل الظروف المواتية وغير المواتية .

ولكن هذا الشعب سارع إلى الانتفاض فى فبراير ١٩٦٨ ، احتجاجا على أحكام قضية الطيران ، وكان عبد الناصر أضعف من مواجهته بالحديد والنار كما فعل فى الأزمات السابقة التى جرت فى عام ١٩٥٤ ، فأشعل حرب الاستنزاف فى سبتمبر من نفس العام ، ليشد أبصار الجماهير إلى الحدود . وقد تحمل الشعب كل نتائج حرب الاستنزاف بصبر وجلد ، ولم تهزه الغارات الاسرائيلية على مصنع أبى زعبل ومدرسة بحر البقر ، رغم ما كانت اسرائيل تقصد بها من اسقاط نظام عبد الناصر ، ولذلك بدلا من أن تضعف هذه الغارات النظام المصرى ، قوته .

وفى عهد السادات أخذ نظامه يتعرض للهزات حين بدا للشعب المصرى أنه يهوش بالحرب واسترداد الأراضى السليبة ولكنه عاجز عن ذلك ، فلما خاض حرب أكتوبر المجيدة فى أكتوبر ١٩٧٣ ، اصطف الشعب المصرى، حوله صفا واحدا ، وأعطاه كل ما يطمح اليه من التأييد . ولكن حين زادت المعاناة الشعبية بسبب زحف الرأسمالية الجديدة الشرهة ، انفجرت أحداث ١٧ و ١٨ يناير ١٩٧٧ ، التى هزت نظام السادات فى عنف ، وكادت تقضى عليه قضاء مبرما . ولكن الشعب التف

حول السادات من جديد حين قام بمبادرة القدس ، التى رأى فيها سياسة واقعية جديرة بإعطائها الفرصة للاختبار ، وداس على كل المعارضين ، كما داس على محاولة الدول العربية عزل مصر بقطع علاقاتها الدبلوماسية معها ، ولم يأبه بالحرب الاقتصادية التى شنتها عليها ، لأنه أدرك أن هذه الدول العربية لا تحارب إلا بالكلام والشعارات. ولكن حين أقدم السادات على خطوته السوداء فى تاريخ مصر باعتقال كل معارضيه فى ٣ - ٥ سبتمبر ١٩٨١ ووضعهم فى السجون ، سحب الشعب ثقته من السادات ، فأنكشف صدره للرصاص الذى انهمر عليه فى السادس من أكتوبر ١٩٨١ ! .

ومنذ وصول مبارك إلى الحكم فى أعقاب رحيل السادات ، أخذ يهيئ لنظام الحكم أسباب الاستقرار بالوسيلة الوحيدة التى تعرفها الأمم المتقدمة ، وهى الديمقراطية ! . وقد ساعد على ذلك اختلاف عقلية الرجل عن العقلية المغامرة لكل من عبد الناصر والسادات ، والتى دفعت بكل منهما إلى تدبير المؤامرات والثورات .

فعقلية مبارك هى عقلية الطيار المقاتل ، الذى يدرك - من ناحية - الأهمية الوطنية للمهمة الجسيمة التى يقوم بها ، ويدرك - من ناحية أخرى - ضرورة حساب كل خطوة يتخذها حساباً بالغ الدقة ، لأن أى خطأ يرتكبه هو خطأ قاتل ومميت ، ويدرك - من ناحية ثالثة - أهمية الاحتفاظ بأعصابه قوية وهادئة وسط كل الأخطار التى تحيط به ، لأن فقد الأعصاب بالنسبة للطيار هو فقد التحكم فى القيادة وضياح كل شى فى لحظة واحدة ! - يساعد على ذلك لياقة صحية ندعو الله أن يديمها للرئيس .

هذه العقلية الحاسبة بدقة الحاسبات الالكترونية ، وهذه الأعصاب الحديدية ، وهذا الإدراك البالغ لأهمية العمل الوطنى الذى يقوده ، تبدى فى معالجة رئيس الجمهورية للأزمة الأخيرة ، التى كانت تقدم كل المغريات لعقلية مغامرة أخرى لاحداث انقلاب فى نظام الحكم ، كذلك

الذى أحدثه الرئيس الراحل السادات فى أعقاب أحداث ١٧ و ١٨ يناير ١٩٧٧ ، وانقلب به على الديموقراطية التى أراد إرساءها .

وأعترف أننى مع وصولى منذ زمن طويل إلى التقييم الذى ذكرته لعقلية الرئيس مبارك ، إلا أن الفزع تملكنى وأنا أستمع لعبارته مساء يوم الأربعاء ٢٥ فبراير عن التحقيق فى « مناخ الإثارة » الذى سبق أحداث ذلك اليوم الرهيب ، وتصورت أن التاريخ سوف يعيد نفسه ، وسوف نعود نلف فى تلك الدائرة السوداء البشعة التى أرستها ثورة ٢٣ يوليو - دائرة الدكتاتورية - بعد أن ظننا أننا تجاوزناها بفضل ممارسات الرئيس.

ولكن لقاء الرئيس بزعماء المعارضة فى اليوم التالى ، أعاد الاطمئنان إلى قلبى على مستقبل الديموقراطية فى مصر ، وهذا الاطمئنان هو الذى حملته معى وأنا أسافر - فى نفس اليوم - إلى نيودلهى لحضور مؤتمر علمى .

فى هذا الضوء أستطيع القول إن ممارسة الرئيس محمد حسنى مبارك الديموقراطية فى أثناء الأحداث القائمة الأخيرة ، قد أعطت لنظام الحكم من الاستقرار ما كانت تعجز عنه ممارسة عشرين عاما قادمة ! يظل الشعب يسائل نفسه فيها عن احتمالات ردود فعل الرئيس لو تعرض لمثل هذه الأحداث الجسيمة ! خصوصا أن هذه الممارسة من جانب الرئيس قد حدثت وفى يده سلطات استثنائية كبيرة لم يفكر فى إساءة استخدامها - كما جرت العادة من جانب الرؤساء السابقين ! .

وهذا يثير قضية استمرار هذه السلطات الاستثنائية بعد الآن فمن الواضح أن هذه السلطات تعطى المعارضة مبررا للهجوم على الحكومة رغم عدم إساءة استخدامها ! الأمر الذى يجعلها مبعث ضعف للنظام لا قوة له . فهلبقى مبرر واحد لا بقائها ؟ . ان الرئيس مبارك هو الذى حكم بنفسه بعدم وجود مبرر لها ، بعد أن امتنع عن استخدامها فى أسوأ ظروف مرت بها مصر منذ حريق القاهرة فى عام ١٩٥١ . ثم إنه يمكن الرجوع إليها اذا دعت الحاجة لا قدر الله . ومن المعروف أن حكومة الوفد الديموقراطية أعلنت الأحكام العرفية فى أعقاب حريق القاهرة - أى عندما دعت الحاجة إلى ذلك .

وإذا كان الرئيس مبارك قد حكم بنفسه بعدم وجود مبرر لهذه السلطات الاستثنائية ، فإن الشعب أيضا قد حكم بعدم وجوب مبرر لها ، حين حافظ بنفسه على الأمن بعد انهيار جهاز الأمن انهياراً كلياً ، بل إنه دافع عن نفسه ضد جهاز الأمن عندما خان هذا مهمته ووطنه وصوب الطعنة إلى ظهر مصر .

وهذا يثير الحقيقة الثانية التي برزت من بين الأحداث ، وهي أن هذه الحركة ليست حركة شعبية ، ولا تدرج فى إطار الحركة الوطنية . وأكثر من ذلك أنها حركة معادية للحركة الوطنية لمعاداتها للشعب من جانب ، ومعاداتها للديموقراطية من جانب آخر .

وفى ذلك فإننى أؤيد تماماً تقييم خالد محيى الدين ، الذى اعتبره تقييماً تاريخياً صحيحاً سوف يصمد على مر الزمن ، وذلك فى قوله «إن من قام بهذه الأحداث قوى مغامرة ، مندفعة ومتآمرة ، وهذا ليس أسلوب أى قوى سياسية . إن ما حدث ليس ثورة شعبية ولا تحركاً سياسياً شعبياً ، إنه عمل تخريبى تآمري . وأستبعد أن تكون هناك قوى سياسية لها تقدير سياسى تقوم بهذا العمل . ويكفى أن الأعمال التى حدثت لم تكتسب تأييداً من أحد ، بل رفضت بشكل عام من كل القوى السياسية ، لأن القوى التى وراء هذه الأحداث قوى متخلفة معادية للشعب ، بينما هدف القوى السياسية كسب الجماهير ، وبينما التدمير لا يكون سبباً وراء كسب شعبى » .

وهذا التقييم نفسه ، الذى يستبعد القوى السياسية فى مصر ، التى لا ترى أى مصلحة فى التدمير - يوجه - فى رأى الخاص - أصعب الاتهام إلى القوى السياسية الخارجية التى تتربص بمصر ، ولا تكف عن التآمر عليها ، وهى قوى عربية معروفة فضحت موقفها التآمري فى أسلوب الابتهاج والتحريض أثناء الحوادث الأخيرة . ولست أدري هل ستفلت هذه القوى كما أفلتت القوى التى أحرقت القاهرة فى يناير ١٩٥١ وارتكبت أحداث ١٧ و ١٨ يناير ١٩٧٧ .

ففى أعقاب أحداث يناير ١٩٧٧ كتبت مقالا فى مجلة « صباح الخير » بعنوان : « حتى لا يفلت الجانى مرتين » - تنبأت فيه بأن الاتهام سوف يوجه إلى الشيوعيين ، كما وجه إليهم فى أحداث حريق القاهرة ظلما وعدوانا ، وكل ذلك لتبرير الانقضاخ على الديموقراطية . وبالفعل استغل السادات الأحداث للانقضاخ على اليسار ، وتلفيق الاتهام له ، والانقلاب على الخط الديموقراطى الذى بدأ به . وعندما برأت المحكمة اليسار ، كان الجانى الحقيقى قد أفلت من العقاب ! ، ولم يعرف أحد للآن من ارتكب حوادث التدمير فى أحداث ١٧ و ١٨ يناير ١٩٧٧ !

ومن حُسن الحظ أن هذا الموقف التلفيقى ضد اليسار لم يتكرر فى الأحداث الأخيرة ، بسبب نزاهة موقف الرئيس مبارك وممارسته الديموقراطية المسئولة . وبالتالي فإن الإنسان يأمل أن تؤدى التحقيقات التى تجرى حاليا إلى الكشف عن الجانى الحقيقى . ومن هنا أهمية اقتراح فؤاد سراج الدين ، رئيس الوفد ، ضرورة تشكيل لجنة تحقيق على مستوى عال لدراسة الظروف والأسباب التى أدت إلى تمرد وعصيان جنود الأمن المركزى ، وكشف الغموض الذى أحاط بهذه الأحداث الأخيرة . فمن حق الشعب أن يرى الجانى الحقيقى معلقا على أعواد المشانق فى هذه المرة ، بعد أن أفلت من قبل مرتين !

أما الحقيقة الثالثة التى تبرز من بين الأحداث الأخيرة ، فهى فساد رؤية من يطلق عليهم اسم « المتشددىن » ، فى هذا الوطن وفى البلاد العربية الأخرى ، لموقف الشعب المصرى من سياسة كامب ديفيد . فهذا البعض يخذع نفسه على الدوام بتصوير مؤداه أن الشعب المصرى يعارض سياسة كامب ديفيد ، وقد خرج البعض يعزو الأحداث الأخيرة إلى معارضة الشعب لكامب ديفيد !

إن غياب تأثير كامب ديفيد فى الأحداث الأخيرة هو صفة لكل هذه القوى بدون استثناء ، فلو كانت سياسة كامب ديفيد تشغل فى ذهن الشعب المصرى ما تشغله من حيز فى تلك العقول السقيمة الواهمة

لا تنتهز الفرصة للتخلص من النظام ، وتحقق أمل العقيد القذافي من وقوع هذه الأحداث . ولكن الشعب المصرى يعرف أن أعداء كامب ديفيد يحاربون بالكلمات والشعارات فقط ، ويعرف أن سياسة كامب ديفيد قد حررت سيناء ، بينما سياسة الذين يعارضون كامب ديفيد قد أبقّت إلي الآن الجولان تحت الاحتلال الإسرائيلى ، كما أبقّت الضفة الغربية وغزة!

كما يعرف الشعب المصرى أن الذين يغضبون لأن مصر عقدت سلاما رسميا مع اسرائيل بعد أن أنهت احتلالها لسيناء ، قد عقدوا سلاما غير رسمى مع اسرائيل وهى تحتل الجولان والضفة الغربية وغزة! وانصرفوا إلى محاربة بعضهم البعض والاعتداء على الأراضى العربية أو المغامرة فى غيرها ! فهل يقنع هذا الموقف من جانب الشعب المصرى تلك القوى السياسية بالكف عن التآمر على مصر استنادا إلى وهم معارضة المصريين لكامب ديفيد ؟ .

أما الحقيقة الرابعة فى الأحداث ، فهى عنصر التآمر . انه من التفرير بالعقول من جانب بعض الصحف العربية أن تنسب هذه القتنة الدامية إلى الظروف السيئة التى كانت تعيشها تلك العناصر التى ارتكبت الأحداث وانطلقت تعيث فى الأرض فسادا . فكل من عرف التفكير العلمى يدرك أن الظروف السيئة لا تكفى وحدها لتحريك أية مجموعة بشرية ، بل لا بد من الوعى بهذه الظروف ! . وهذا هو دور الفكر فى تغيير البناء التحتى ، فمع أن الفكر نتاج البناء التحتى ، فمع أن الفكر نتاج للبناء التحتى، إلا أنه يعود فيؤثر فى هذا البناء بما يؤدى إلى تغييره. ومعنى ذلك أنه يستحيل قيام ثورة أو فتنة أو حركة منظمة بدون توعية ؟ . وما حدث لم يكن عشوائيا وإنما كان منظما ومرتبيا ومدبرا .

فمن الذى قام بالتوعية ؟ هذا ما يجب أن يتجه إليه البحث ! .. وما هى منطلقات هذه التوعية من الناحية الأيديولوجية ؟ - وذلك لتحديد ما إذا كانت هناك قوى سياسية داخلية دبرت الحركة . فإذا كانت هذه

المنطلقات غير مصطبغة بصبغة أيديولوجية ، تحددت الجهة الخارجية التي قامت بها .

ذلك أن ما حدث كان تدميرا للتدمير ، ولا شيء آخر غير التدمير - إنها وحشية أطلقت من عقالها لغير هدف سوى التخريب - وهو هدف لا تنطلق منه أية قوة سياسية داخلية ، مهما اختلفت انتماءاتها الفكرية ، لما حدده خالد محيي الدين بذكاء من أن هدف أية قوة سياسية هو كسب الجماهير ، والتدمير ليس هو الطريق الذي يؤدي إلى كسب الجماهير ! .

ومهما كان الذي حدث محزنا ومشينا ومخزيا بسبب وحشيته وبشاعته ووضاعته إلا أنه صهر شعب مصر في وجه الخطر ، وأنضج وعيه السياسي ، فارتفع إلى مستوى الأحداث وأدرك حجم الخطر الذي يمكن أن يحقق بأمته وتقدمه في المستقبل من مثل هذه الفتن ، فلا يمتنع فقط عن الاشتراك فيها ، بل يهب لمقاومتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وفي الوقت نفسه ، تأكدت ثقة الشعب في قيادة مبارك لمسيرته ، بعد أن أثبت أنه كان الملاح الماهر الذي لم تهتز أعصابه وقت الخطر ، وأنه ارتفع بنفسه فوق الأحداث ، فلم ينسق إلى مغريات الحكم الاستبدادي التي انساق إليها من قبله كل من عبد الناصر والسادات في الظروف المثيلة .

وهكذا كان ارتفاع الشعب والحاكم فوق الأحداث وقت الخطر هو المكسب الوحيد في وسط هذا الدمار ، وهو الذي أكسب مصر احترام العالم المتحضر .

عن المؤسسة العسكرية (١)

مهما جرت من محاولات بعض
الأقلام والتصريحات لتبسيط التغيير
الذى حدث فى المؤسسة العسكرية يوم
١٥ ابريل ، بنقل المشير عبد الحليم أبو
غزالة من موقعه كوزير للدفاع والانتاج
الحربى والقائد العام للقوات المسلحة ،
وتعيينه مساعدا لرئيس الجمهورية ،
ونقل السيد يوسف صبرى أبو طالب
من موقعه كمحافظ للقاهرة ، واستدعائه
إلى خدمة القوات المسلحة ، وترقيته إلى
رتبة فريق أول وتعيينه وزيرا للدفاع
والانتاج الحربى وقائدا عاما للقوات
المسلحة - فان هذا التبسيط لن يستطيع
أن يخفى هذه الحقيقة التاريخية ، وهى
أن هذا التغيير يعد أخطر حدث فى
حياة مصر السياسية منذ قيام ثورة
يوليو ، وأنه نقطة تحول فى تاريخ
النظام السياسى فى مصر ، وأكبر
انجاز حققه الرئيس مبارك فى ميدان
نقل نظام الحكم فى مصر من النظام
العسكرى إلى النظام المدنى .

أكتوبر فى ٣٠ / ٤ / ١٩٨٩

وكل ذلك لا شأن له بشخص المشير عبد الحليم أبو غزالة ، الذى اكتسب - عن جدارة - احترام الشعب المصرى ، والذى قدم لوطنه خدمات عظيمة سوف يذكرها له التاريخ ، ووضع الجيش المصرى على مستوى الهيبة والاحترام من كافة النظم المجاورة وغير المجاورة ، واستحق - بالتالى - تقدير رئيس الجمهورية الذى عبر عنه بمنحه قلادة الجمهورية .

نعم ، لا شأن لذلك بشخص المشير عبد الحليم أبو غزالة ، وانما بذلك المنصب الذى كان يشغله ، والذى لعب فى حياة مصر السياسية . أخطر الأدوار على مدى السنوات السبع والثلاثين السابقة - أى منذ قيام حركة الجيش فى يوليو ١٩٥٢ .

ويكفى للتدليل على ذلك أنه على مدى السنوات الطويلة السالفة الذكر لم يخرج قائد عام للقوات المسلحة المصرية من منصبه إلا مقتولا أو مقلوبا ! (أى عن طريق انقلاب) - فيما عدا استثناءات قليلة - ثم إنه بعد أن يخرج تطوى صفحته من التاريخ ، ولا يعود يتحدث عنه أحد !

لقد كان قائد عام القوات المسلحة المصرية عند قيام ثورة يوليو هو الفريق محمد حيدر باشا ، وقد أسقطته حركة الجيش ، وعينت اللواء محمد نجيب قائدا عاما مكانه على رأس الجيش . ولكنه لم يشغل منصب وزير الحربية فى أول وزارة تألفت فى عهد الثورة ، اذ لم يكن هذا التقليد معمولاً به ، وانما تولى هذا المنصب رئيس الوزراء ، وهو على ماهر باشا ، الذى جمع أيضا فى يديه منصبى وزير الداخلية ووزير الخارجية .

على أنه عندما ألف محمد نجيب وزارته الأولى فى ٨ سبتمبر ١٩٥٢ ، احتفظ لنفسه بوزارة الحربية والبحرية ، إلى جانب رئاسته للوزراء والقيادة العامة للقوات المسلحة ، فكانت تلك هى المرة الأولى الذى تجتمع فيها قيادة الجيش مع وزارة الحربية فى يد واحدة .

ولذلك حين دب النزاع بين اللواء محمد نجيب ومجلس قيادة الثورة ، فقد المنصبين معا ! ولكن محمد نجيب فى ذلك الحين لم يفقد حياته أو

يطرد من الحياة السياسية كلية ، لأنه كان الوجه المعبر عن الثورة فى ذلك الحين ، ولذلك فقد عرض عليه الضباط تعيينه رئيسا للجمهورية ، وتعيين عبد الحكيم عامر قائدا عاما . وقد اعترض محمد نجيب اعتراضا شديدا على ترقية عبد الحكيم عامر أربع رتب مرة واحدة لكى يتولى هذا المنصب ، لأنه أدرك أن إبعاده عن الجيش سوف يحرمه من القوة التى تمكنه من تنفيذ ارادته على الضباط .

ولم يخف ذلك فى مذكراته ، فقال : « لم يغرنى ما عرضوه من تعيينى رئيسا للجمهورية وعبد الحكيم قائدا عاما للقوات المسلحة . فقد كنت أؤثر أن يظل عامر فى موقعه مديرا لمكتبى لشئون القوات المسلحة . وأشهد أنى قبلت تحت ضغط والحاح استمر ثلاثة أسابيع بعد أن فكرت كثيرا فى الاستقالة . وأعترف الآن أن هذا كان خطئى الكبير الذى وقعت فيه . فقد شعرت بعد قليل أننى فى مركز أقل قوة بعد أن تركت قيادة الجيش » .

وقد كانت تلك نقطة تحول كبيرة فى النظام السياسى ، لأن مركز رئيس الجمهورية أصبح منذ ذلك الحين أقل قوة من مركز قائد عام القوات المسلحة . وأصبح فى وسع قائد عام الجيش أن يخلع رئيس الجمهورية فى أى وقت يشاء اذا تطور الموقف بحيث لا يحتمل بقاء الاثنين! وهوما حدث تماما . لقد عُين عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة فى يوم ١٨ يونية ١٩٥٣ ، وتم الفصل بين قيادة الجيش ووزارة الحربية ، اذ عين عبد اللطيف البغدادى وزيرا للحربية ، ولكن ذلك لم يؤثر على قوة عبد الحكيم عامر ، لأن منصب القائد العام منصب عسكرى ، ومنصب وزير الحربية منصب سياسى ، ولا تأثير له الا اذا اجتمع مع منصب القائد العام فى يد واحدة .

وبالفعل ، فقد اعترض عبد اللطيف البغدادى على تعيين عبد الحكيم عامر قائدا عاما للجيش ، ولكن اعتراضه لم يكن له أى أثر . لقد أدرك منذ البداية أن جمال عبد الناصر لم يرشح عبد الحكيم عامر لتولى قيادة الجيش إلا لغرض سياسى ، هو أن تصبح له السيطرة السياسية دون

بأقى أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وذلك عن طريق مساندة الجيش له ، وأن الذى يضمن له ذلك هو تعيين عبد الحكيم عامر قائدا عاما للجيش ، معتمدا على قوة الصداقة والتفاهم بينهما .

وفى الوقت نفسه خشى عبد اللطيف البغدادى - كما يقول - أنه اذا تولى عبد الحكيم عامر أمر الجيش ، يصبح الجيش فى المستقبل أداة تدخل فى السياسة العامة ، بكل ما يترتب على ذلك من تأثير خطير على مستقبل البلاد . وأنه من الأفضل أن يتولى أمر الجيش ضباط محترفون للتفرغ له والابتعاد عن السياسة ، لأنه اذا تدخل الجيش فى السياسة ، فسد الجيش وفسدت السياسة !

على أن عبد الناصر أصر على موقفه ، لأن المخطط كان يقوم على أن يصبح الجيش هو القوة المؤثرة الذى يستند اليها نظام الحكم ، وليست أية قوة شعبية ، ولذلك لم يكذب عبد الحكيم عامر يتولى منصبه حتى أخذ - بالاتفاق مع عبد الناصر - يبعد باقى أعضاء مجلس قيادة الثورة عن وحداتهم العسكرية تدريجيا ، بحجة ضرورة ترك الحرية لعبد الحكيم للعمل . وقد لعب ضباط مكتب عبد الحكيم عامر دورا رئيسا فى ذلك ، عن طريق تهديد غير المرغوب فيهم ، وتقريب الآخرين بخدمات تقدم لهم ، «حتى أصبح لاهم للكثيرين من الضباط الا التقرب من عبد الحكيم عامر وجمال عبد الناصر ، أو إلى من هم قريبين منهم ، طمعا فى منصب أفضل أو خدمة تؤدى لهم . وأصبح الجيش بذلك - مع مرور الوقت - أداة قوة فى يد جمال وعبد الحكيم ، وانعزلنا نحن نهائيا عنه» - كما يقول البغدادى .

والمهم أن منصب رئيس الدولة - أى رئيس الجمهورية - فقد قوته وتأثيره فى سياسة البلاد منذ ذلك الحين - كما ذكرنا - وتمثل ذلك حين استحال التعاون بين محمد نجيب وعبد الناصر ، اذ كان كل ما فعله اللواء محمد نجيب هو تقديم استقالته لمجلس قيادة الثورة - وليس اقالة عبد الحكيم عامر من قيادة القوات المسلحة و استعادة السيطرة عليها !

وهنا تقدمت القوى الشعبية لمساندة محمد نجيب ، مما أسفر عنه أحداث أزمة مارس ١٩٥٤ المشهورة ، التي انتهت بهزيمة القوى الشعبية، وانتصار الجيش ، واستمر اللواء محمد نجيب رئيسا للجمهورية بدون سلطات فعلية . حتى اذا كان يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ ، وحين توجه إلى مكتبه بقصر الجمهورية ، وجد بعض ضباط البوليس الحربي على باب القصر ، وتبعه اثنان منهم إلى المكتب ، فنهرهما ، فقالا - حسب رواية محمد نجيب - ان عندهما تصريحاً بالدخول من كبير الياوران بالنيابة ، الأميرالاي حسن كامل . وبعد قليل وصل عبد الحكيم عامر ومعه حسن ابراهيم ، ليخبرا رئيس الجمهورية بأن مجلس قيادة الثورة قرر اعفاءه من منصبه !

ولم يملك رئيس الجمهورية المخلوع سوى الازعان ، « وركبت مع حسن ابراهيم عربية اتجهت بى إلى المرج ، إلى منزل كانت قد أعدته السيدة حرم مصطفى النحاس ليكون لها استراحة ريفية . وقال لى عامر وهو يودعني إن اقامتى بالمرج لن تزيد عن بضعة أيام ! واستمرت اقامتى بالمرج حوالى ١٨ عاما ! .

ومنذ ذلك الحين إنقسمت السلطة فى البلاد بين رئيس الجمهورية وقائد عام الجيش بموجب اتفاق صامت بين الاثنين ، وبحكم الأوضاع التى صنعها الاثنان وأصبح الجيش بمقتضاها هو القوة المسيطرة فى البلاد ، وتحولت البلاد إلى ضيعة يتولى السلطة المدنية فيها عبد الناصر، ويتولى السلطة العسكرية فيها عبد الحكيم عامر !

وكان من الطبيعى أن يتخذ ذلك شكلا دستوريا ، فلم يكد ينتخب عبد الناصر رئيسا للجمهورية ، ويؤلف وزارته الثالثة فى ٢٨ يونية ١٩٥٦ ، حتى أسند إلى عبد الحكيم عامر وزارة الحربية إلى جانب قيادة القوات المسلحة .

وفى ٧ مارس ١٩٥٨ ، وفى أول تشكيل وزارى بعد الوحدة مع سوريا ، رفع عبد الناصر عبد الحكيم عامر إلى منصب نائب رئيس

الجمهورية ، بالاضافة إلى منصب وزير الحربية وقيادة القوات المسلحة . واستمر هذا فى التشكيل الوزارى الثانى أثناء الوحدة فى ١٨ أكتوبر ١٩٥٨ ، كما استمر فى تشكيل ١٦ أغسطس ١٩٦١ ، كما استمر بعد الانفصال فى وزارة عبد الناصر الرابعة فى ١٨ أكتوبر ١٩٦١ .

ونلاحظ أنه فى تلك الأثناء ، كانت قد وقعت أحداث أكدت لعبد الناصر عجز المشير عبد الحكيم عامر عن القيام بواجبه على الوجه الاكمل ، وفرضت عليه اعفائه من منصبه ، ولكنه كان أضعف من أن يقوم بذلك .

فقد ثبت عجز عبد الحكيم عامر عن ادارة حرب ١٩٥٦ ضد قوات العدوان الثلاثى ، وكان يريد ايقاف القتال ، حتى استحق نقد عبد الناصرالذى أخذ فى يوم ١٠ نوفمبر يتحدث بكلمات جارحة عن الجيش ، ويشرح ما يأخذه على الجيش وعلى عبد الحكيم ، وروح الاستسلام التى انتابتهم ، والشلل الذى حدث لهم بعد دخول الانجليز والفرنسين المعركة، وعدم اطاعة الجيش لأوامره ! وفى الوقت نفسه أخذ ضباط القوات المسلحة يتحدثون عن فقد ثقتهم فى قياداتهم نتيجة للأخطاء التى حدثت . ومع ذلك فلم ينتهز عبد الناصر فرصة انتهاء الحرب ليتخلص من عبد الحكيم عامر ، بل أبقاه - كما ذكرنا - فى قيادة الجيش ، بل انه رفعه فى أول تشكيل وزارى بعد الوحدة مع سوريا إلى منصب نائب رئيس الجمهورية ، بالاضافة إلى منصب وزير الحربية وقائد عام القوات المسلحة ! .

ثم جاءت مناسبة الانفصال ، وما تبين من مسئولية عبد الحكيم عامر عنه بسياسته الاستفزازية فى سوريا ، وعجزه عن اكتشاف الموقف أومعالجته ، وبدلاً من أن يعزل عبد الناصر عبد الحكيم عامر ، ويحملة مسئولية تمزيق الجمهورية العربية المتحدة ، فانه احتفظ له بمناصبه الثلاثة فى أول وزارة ألفها بعد الانفصال فى ١٨ أكتوبر ١٩٦١ ! .

ثم جاءت الفرصة لاختبار القوى بين الرجلين - أى بين رئيس الجمهورية وقائد عام الجيش - عندما أراد عبد الناصر فى خريف عام

١٩٦٢ ، أن يواجه تسلط المشير عامر على الجيش والحكم ، « بمجلس رئاسة » أراد به سلب اختصاصات المشير وإبعاده عن الجيش .

ولكن المشير واجه هذه المحاولة بتقديم استقالته فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٢ ، بينما كان يتضامن معه فى الاستقالة قادة القوات البرية والبحرية والجوية وبعض كبار القواد الآخرين ! ولم يملك رئيس الجمهورية الا الاذعان أمام هذا الانقلاب الصامت ، وعاد المشير عامر إلى مركزه من السلطة .

وجاءت حرب اليمن لتضيف إلى قوته، ففي ٢٥ مارس ١٩٦٤ عينه عبد الناصر نائبا أول لرئيس الجمهورية ، بالإضافة إلى القيادة العامة للجيش، وفى نفس العام أصدر قراره رقم ١١٧ لسنة ١٩٦٤ الذى نص على أن تفصل ميزانية الجيش عن ميزانية وزارة الحربية ، وتضم إلى ميزانية القوات المسلحة . وبذلك انفصلت القوات المسلحة عن وزارة الحربية الأم بفصل الميزانية .

وفى عام ١٩٦٦ أصدر عبد الناصر القرار رقم ١٩٥٦ لسنة ١٩٦٦ بتبعية وزير الحربية (شمس بدران) إلى نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة - أى المشير عامر بوصفه نائبا لرئيس الجمهورية الذى هو القائد الأعلى للقوات المسلحة ، وبحيث يكون مسئولا أمامه عما يفوضه فيه من شئون القوات المسلحة من الناحيتين الادارية والعسكرية !

وقد كانت تلك هى قيادة الجيش التى خاضت حرب يونيو ١٩٦٧ - أى المشير عبد الحكيم عامر وتابعه شمس بدران - مما يوضح تماما لماذا وقعت النكسة وهزمت القوات المسلحة . يقول عبد اللطيف البغدادى فى مذكراته ، وكان يتابع المعركة من القيادة وشاهد المهازل التى وقعت فيها : « كنت دائم القول لحسن ابراهيم وكمال الدين حسين : تصورا أن شمس هذا هو المسئول عندنا والمقابل لموشى ديان عند اليهود ! . كنت أذكر هذا كلما ذهبنا إلى مكتب عبد الحكيم . وكان شمس طوال أيام

المعركة موجودا مع عبد الحكيم بالمكتب ،وينام معه فى سرير واحد فى الغرفة الملحقه بمكتبه . وكان واضحا لنا جهله بإدارة العمليات الحربية ، ويظهر أنه يعلم هذا عن نفسه ، ولذلك لم يكن يعمل شيئا طوال هذه الأزمة الا تقديم بعض الأوراق لعبد الحكيم الواردة إلى مكتبه - هذا كل ما كان يعملهُ وزير الحربية « !

والمهم أن هزيمة يونية ١٩٦٧ كانت هى الفاصلة فى قضية ازدواجية السلطة بين رئيس الجمهورية وقائد عام القوات المسلحة ، والغريب أن عبد الناصر لم يكن حتى فى تلك الظروف الموالية يملك الشجاعة على عزل المشير وتحميله مسئولية الهزيمة باعتباره قائد عام الجيش ! لقد اتفق معه على أن يستقيل كلاهما ، وحين أعاده الشعب إلى موقعه بمظاهرات ٩ و ١٠ يونية ١٩٦٧ ، أراد أن يعين المشير عبد الحكيم عامر نائبا لرئيس الجمهورية ! ولكن المشير رفض الا أن يجمع بين المنصبين ! كما لو كان شيئا لم يحدث !

وقد اعترف عبد الناصر بذلك فى جلسة اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى يوم ٣ أغسطس ١٩٦٧ ، فقال إنه قابل عبد الحكيم عامر ، « وحاولت اقناعه دون جدوى بأنه ليس منطقيا أن يبقى بعد الهزيمة العسكرية قائدا عاما ، ويكتفى بأن يكون نائبا لرئيس الجمهورية. وقد رفض كلامى رفضا باتا « !

ومعنى ذلك أن عبد الناصر - بحكم العادة - لم يستطع تصور النظام السياسى بدون وجود عبد الحكيم عامر فيه ، بل وفى منصب رفيع مثل نائب رئيس الجمهورية ! ومعنى ذلك - أيضا - أن عبد الحكيم عامر لم يستطع تصور النظام السياسى بدون أن يحتل هو فيه منصب القائد العام للقوات المسلحة ، وبدون سيطرته على الجيش !

والغريب - أكثر من ذلك - أن القوات المسلحة ، رغم ما لحقها على يد المشير عامر من خزي وعار وخسائر ودمار ، كانت بحكم وجود المشير

على رأسها لمدة أربعة عشر عاما متوالية ، قد اعتادت على وجوده، حتى لم يتصور الكثيرون تولى قيادة آخر للجيش ، فضل تربية خصبة لمؤامرات ضباط المشير وأنصاره ، فى الوقت الذى كان الاسرائليون يرابطون على شاطئ القنال الشرقى ، ويسبحون يوميا فى مياهها !

وعندما بات واضحا أن وجود المشير عبد الحكيم حيا سوف يعطل عملية بناء القوات المسلحة ، بل إنها أصبحت تهدد بالتحرك لفرضه على رئيس الجمهورية ، لم يعد ثمة بديل للتخلص من المشير عامرسوى قتله ، وهو ما تم فى يوم ١٤ سبتمبر ١٩٦٧ .

عن المؤسسة العسكرية (٢)

فى مقالنا السابق عن « المؤسسة العسكرية » فى مصر منذ ثورة يوليو ، رأينا كيف تولى قيادة الجيش ثلاثة قواد خرجوا جميعهم إما على يد انقلاب أو اغتيال . فقد خرج الفريق محمد حيدر على يد انقلاب يوليو ١٩٥٢ ، وخرج اللواء محمد نجيب على يد انقلاب أيضا ، ولكنه صامت انتقلت به السيطرة على القوات المسلحة من يد الضباط الكبار إلى يد الضباط الصغار ، واحتاج الأمر لترقية عبد الحكيم عامر أربع رتب مرة واحدة لى يتولى هذا المنصب . ثم خرج عبد الحكيم عامر مقتولا . فصحيح أنه قدم استقالته مع عبد الناصر يوم ٩ يونية ، ولكن عودة الأخير بمظاهرات ١٠ و ٩ يونية الصاخبة ، جعلته يتحلل من استقالته ، ويرى من حقه العودة كذلك إلى قيادة القوات المسلحة ، خصوصا وكان الجيش ما يزال متعلقا به ،

أكتوبر فى ٧ / ٥ / ١٩٨٩

ويضغط لعودته ، ويحمل أنصاره عبد الناصر مسئولية الهزيمة برفضه القاطع أن تبدأ مصر بالضربة الجوية الأولى .

ولم يكن حظ الفريق محمد فوزى ، الذى خلف المشير عبد الحكيم عامر ، بأفضل من سابقه ، لقد تولى القيادة العامة للقوات المسلحة فى أصعب ظروف تولى فيها قائد مصرى هذه القيادة . فقد تولاهما بينما كانت أعداد هائلة من الضباط تجتمع فى مبنى القيادة العامة فى انتظار حضور المشير عبد الحكيم عامر ليتولاها ، بعد أن أعلن فى الليلة السابقة أنه عدل عن استقالته . وكان الفريق فوزى هو نفسه الذى أعلن للضباط عدول المشير عن استقالته . وعندما عرف بنبأ تعيينه قائدا عاما للقوات المسلحة ، وعاد ليعلن للضباط أن المشير عدل عن العدول ! - كاد يُضرب ! وعلى حد تعبير الفريق مرتجى : « حدث هرج ومرج وتوتر ، وخروج على اللياقة العسكرية ، وترديد عبارات قاسية وسباب لرئيس أركان الحرب (محمد فوزى) ومحاولات تكتل » !

وعلى الرغم من اذاعة نبأ تعيين الفريق فوزى قائدا عاما للقوات المسلحة فى اذاعة الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر يوم ١١ يونيو ، إلا أن الضباط سارعوا إلى كتابة عريضة لعبد الناصر تطالب « بضرورة عودة المشير » !

وتولى شمس بدران الاتصال بعبد الناصر ليطلب منه تحديد موعد لمقابلة وفد من الضباط لهذا الغرض ، على أساس أن « الجيش كله مستاء » من تنحى المشير وتعيين الفريق محمد فوزى بدلا منه !

ويقول الفريق مرتجى إنه « لو كان المشير عامر يريد فى تلك الظروف أن يقلب نظام الحكم ، أو يعود للسلطة بالقوة ، لما وقف أمامه حائل . فجميع الضباط كانوا على أتم استعداد لتنفيذ أى رغبة له مهما كان مداها ، سواء كان عن اقتناع أو عن يأس » . ولكن فكرة العودة إلى السلطة بالقوة لم تكن قد تمكنت بعد من عقل المشير وقتذاك .

والمهم أن الفريق محمد فوزى استمر فى منصبه وسط أوضاع مهتزة ، حتى قتل المشير عامر فاستقرت الأمور فى يده ، ولكن أوضاع ازدواجية السلطة كانت قد انتهت أيضا ، فقد أصبح عبد الناصر يجمع فى يده السلطتين المدنية والعسكرية حتى مات فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

على أن هذا لم يعن بحال من الأحوال أن الحكم فى مصر قد أصبح مدنيا . فقد استمر حكما عسكريا ، بل انه ازداد عسكرية بسبب حرب الاستنزاف ، ومتطلبات معركة التحرير . كما ظل نظاما شموليا فى شكله ومضمونه

واستمر الفريق محمد فوزى فى منصبه العسكرى حتى ٢٠ مارس ١٩٦٨ ، حين أضاف اليه عبد الناصر منصب وزير الحربية الذى كان يشغله المهندس محمد عبد الوهاب البشرى مع الانتاج الحربى - وبذلك بقى مع المهندس البشرى وزارة الانتاج الحربى فقط ، ولكنه استقال من منصبه بعد عام ، أى فى ٢٢ ابريل ١٩٦٩ ، وظل الفريق محمد فوزى يشغل كلا من منصب القائد العام ومنصب وزير الحربية على طول ثلاث وزارات هى : وزارة عبد الناصر الأخيرة فى ٢٠ مارس ١٩٦٨ ، ووزارة الدكتور محمود فوزى الأولى فى ٢٠ أكتوبر ١٩٧٠ فى عهد السادات ، ووزارة الدكتور محمود فوزى الثانية فى نوفمبر ١٩٧٠

على أن سوء تقديره للأوضاع السياسية وعلاقات القوى جعله يشترك فى حركة مايو ١٩٧١ بقيادة على صبرى ، فقدم استقالته مع المستقلين ! وقد سعد السادات كثيرا بهذه الحركة الحمقاء التى تخلى فيها أصحابها عن مناصبهم وسلطتهم ونفوذهم قبل أن يقوموا بالانقلاب! ولم يدركوا أنهم سلموا أنفسهم غنيمة سائغة للسادات . وكان هذا من حسن حظ مصر ، لأن الفريق محمد فوزى كان يعد فى ذلك الحين لهزيمة أثقل من هزيمة يونية - كما أثبتنا فى كتابنا تحطيم الآلهة !

وقد عين السادات الفريق محمد صادق مكانه فى منصبى قائد عام القوات المسلحة ووزير الحربية فى وزارة الدكتور محمود فوزى الثالثة فى ١٤ مايو ١٩٧١ ووزارته الرابعة فى ١٩ سبتمبر ١٩٧١ ، وقبض على

مجموعة حركة مايو ١٩٧١ وقدمهم للمحاكمة . وفى ١٧ يناير ١٩٧٢ رفع السادات الفريق محمد صادق ، فى وزارة الدكتور عزيز صدقى ، إلى منصب نائب رئيس الوزراء ، بالإضافة إلى وزارتى الحربية والانتاج الحربى ، وبالإضافة أيضا إلى القيادة العامة للقوات المسلحة .

على أن الخلاف الذى دب بين الفريق صادق والرئيس السادات حول خطة تحرير سيناء ، لم يلبث أن دفع بالفريق صادق إلى مصير الفريق محمد فوزى !

لقد قامت خطة الفريق صادق فى تحرير سيناء على ضرورة تدمير جميع قوات العدو فى سيناء والتقدم السريع لتحريرها ، هى وقطاع غزة فى عملية مستمرة لا تتوقف ، وكان متأثرا فى هذه الخطة بالخطة ٢٠٠ التى وضعت فى عهد الفريق محمد فوزى ، وكان الفريق صادق وقتها يشغل منصب رئيس الأركان العامة .

على أن أوضاع القوات المسلحة فى ذلك الحين لم تكن تسمح بتنفيذ هذه الخطة فى وقت قريب ، فكما شرح اللواء سعد الدين الشاذلى رئيس الأركان فى ذلك الوقت ، كانت الامكانيات الفعلية للقوات المسلحة ، مع تحسين تنظيمها وتجهيزها ، لا يسمح بأكثر من القيام بعملية هجومية محدودة ، تهدف إلى عبور قناة السويس وتدمير خط بارليف واحتلاله ، واتخاذ أوضاع دفاعية بمسافة تتراوح بين ١٠ و ١٢ كيلو مترا شرق القناة واستنزاف طيران العدو بحائط الصواريخ حتى يطلب وقف إطلاق النار، أو تتدخل القوى العظمى بما يفرض ازالة آثار العدوان .

ولما كانت خطة الفريق محمد صادق ، القائمة على ربط المعركة بأعداد القوات الجوية المصرية ، تتطلب تأجيل المعركة سنوات أخرى لا يعلم أحد مداها ، فى الوقت الذى كان الأمل منعما فى تضيق الفجوة بين القوات الجوية الاسرائيلية والقوات الجوية المصرية ، بل انها كانت زبد اتساعا فى ذلك الحين - فلذلك وقف السادات إلى جانب الخطة الهجومية المحدودة ، وطلب تنفيذها ، وعندما أبدى الفريق محمد صادق اعتراضه ، على أساس أن دفع القوات المسلحة إلى معركة لم تستكمل

لها كل استعداداتها ، يمكن أن يؤدي إلى تدميرها - رأى السادات خطورة اسناد قيادة المعركة وتنفيذ الخطة لمن لا يؤمن بها ، فاتخذ قراره باقالة الفريق محمد صادق وكل من الفريق عبد القادر حسن واللواء على عبد الخبير واللواء محمود فهمي قائد البحرية ، واللواء محرز مدير المخابرات الحربية ، وقام بتعيين اللواء أحمد اسماعيل وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة في أكتوبر ١٩٧٢ .

على أن مجموعة الفريق محمد صادق لم تستسلم ، اذ حاولت ، بقيادة اللواء على عبد الخبير ، القيام بانقلابات على الرئيس السادات ، ولكن تم القبض على المتآمرين ، كما قبض على اللواء على عبد الخبير في ليلة ١٥ / ١٦ نوفمبر ١٩٧٢ ، واعترف بالمؤامرة التي كانت تقضى بالتنفيذ في ليلة عقد قران ابنة الفريق سعد الدين الشاذلي ، حيث تهاجم وحدة مكان عقد القران فتعتقل الموجودين كلهم ، الذين لا بد أن يكون من بينهم رئيس الجمهورية ١ .

والمهم أنه بالتخلص من الفريق محمد فوزي والفريق محمد صادق يكون الرئيس السابق السادات قد سيطر تماما على الدولة بجهازها المدني وجهازها العسكري ، ولم يعد ثمة ما يهدده من جانب المؤسسة العسكرية . وهو ما لم يكن يستمتع به في عهد الفريق محمد فوزي ، بسبب انتمائه للفريق المناهض للسادات ، ولا في عهد الفريق محمد صادق حيث أنه كان يدين له بالفضل في اجهاض محاولة انقلاب مايو ١٩٧١ . ولم يكن الفريق أحمد اسماعيل ذا تطلعات سياسية ، بل كان قائدا عسكريا ملتزما ، وقد خاض الجيش تحت قيادته حرب أكتوبر ، واستمر يجمع بين منصب القائد العام للقوات المسلحة ووزير الحربية في وزارة السادات الاولى في ٢٧ مارس ١٩٧٣ ، ووزارته الثانية في ابريل ١٩٧٤ ، ووزارة الدكتور عبد العزيز حجازي الاولى في ٢٥ سبتمبر ١٩٧٤ ، حتى توفي في ٢٥ ديسمبر ١٩٧٤ .

وهنا عين الرئيس السادات الفريق محمد عبد الغني الجمسي قائدا عاما للقوات المسلحة ووزيرا للحربية في نفس اليوم وفي وزارة ممدوح

سالم الأولى فى ١٦ ابريل ١٩٧٥ ارتقى إلى منصب نائب رئيس الوزراء ،
بالإضافة إلى منصبه كقائد عام القوات المسلحة ووزير الحربية ،
واستمر كذلك فى وزارة ممدوح سالم الثانية فى ١٩ مارس سنة ١٩٧٦ ،
ثم فى وزارته الثالثة فى ٩ نوفمبر ١٩٧٦ . وفى وزارته الرابعة فى ٢٦
أكتوبر ١٩٧٧ أضيفت إليه وزارة الانتاج الحربى ، واستمر يجمع بين كل
هذه المناصب الأربعة فى وزارته الخامسة فى ٩ مايو ١٩٧٨ .

على أنه قبل أن تنتضى خمسة أشهر فقط ، أى فى ٥ أكتوبر ١٩٧٨ ،
كان السادات يسند رئاسة الوزارة إلى الدكتور مصطفى خليل ، ويعين
فيها كمال حسن على وزيرا للدفاع والانتاج الحربى ، بدلا من الفريق
محمد الجمسى . وكان تغيير اسم وزارة الحربية إلى وزارة الدفاع
مرتبطا بمبادرة السلام وما أعلنه السادات من أن حرب أكتوبر هى آخر
الحروب .

ولم يستمر الفريق كمال حسن على فى منصبه أكثر من عام
ونصف . لقد شغل نفس منصبه فى وزارة الدكتور مصطفى خليل الثانية
التي تآلفت فى ١٩ يونيو ١٩٧٩ ، ولكن فى ١٤ مايو ١٩٨٠ كان الرئيس
السادات يقوم بنفسه بتشكيل وزارته الثالثة ، التي عين فيها الفريق
محمد حسنى مبارك نائبا لرئيس الجمهورية ، وأسند وزارة الدفاع
والانتاج الحربى إلى الفريق أحمد بدوى ، بينما أسند وزارة الخارجية
إلى كمال حسن على فضلا عن نيابة رئيس مجلس الوزراء .

وباعتقال السادات فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، وتولى الرئيس محمد
حسنى مبارك رئاسة الجمهورية ، بدأت مرحلة جديدة تميزت باستقرار
منصب قائد عام القوات المسلحة ووزار الدفاع فى يد المشير عبد الحليم
أبو غزالة حتى يوم ١٥ ابريل ١٩٨٩ ، وهى فترة لم يسبقه إليها أحد
سوى المشير عبد الحكيم عامر ، الذى استمر فى منصبه على طوال
أربعة عشر عام ، بينما لم تتجاوز مدة بقاء أى قائد عام ممن جاءوا بعده
فى عهد السادات أكثر من أربع سنوات ، وهما الفريق محمد فوزى

والفريق الجمسى ، وكانت مدة الفريق كمال حسن على سنة ونصف فقط.

ولا شك أنه كانت هناك أسباب ساعدت على بقاء المشير عبد الحليم أبو غزالة فى منصبه هذه المدة الطويلة ، أولها ظروف الاضطراب التى أحدثتها اغتيال رئيس الدولة وسط عرينه ، واعتلاء رئيس جديد للجمهورية ، وهى ظروف تتطلب استقرار الوضع فى القوات المسلحة خاصة ، وأن يكون الزمام فى يد أمينة ومخلصة . وقد كانت هذه اليد هى يد المشير عبد الحليم أبو غزالة ، الذى تربطه بالرئيس محمد حسنى مبارك رفقة سلاح قربت بينهما ، ودعت الرئيس مبارك - عندما كان نائبا- أن يرشحه للرئيس السادات فى منصب وزير الدفاع . وكان من الطبيعى أن يستمر فى منصبه بعد أن نجح فى السيطرة على الأمور فى أعقاب اغتيال السادات ، وقدم ولاءه للرئيس مبارك بعد انتخابه رئيسا للجمهورية ، وأخذ يبدى من الاقتدار فى النهوض بالجيش وصناعة السلاح ما جعل الاستغناء عن خدماته خسارة محققة لمصر .

على أن طول مدة بقاء المشير أبو غزالة فى منصبه ، فى الوقت الذى تغير رؤساء الأركان ثلاث مرات - اذ تتابع فى هذا المنصب كل من الفريق عبد رب النبى حافظ ، والفريق ابراهيم العربى ، والفريق صفى الدين أبو شناف - كان من الطبيعى أن يفرس فى أذهان الناس أنه أصبح سمة من سمات النظام ، وأن يتوهم الكثيرون أن الحكم فى مصر هو شركة بين الرئيس مبارك والمشير أبو غزالة ، على نحو ما كان الحال فى عهد عبد الناصر مع المشير عامر .

ولم يفد فى تخفيف هذا الاعتقاد الفروق الكبيرة التى كانت ظاهرة للعيان بين الحالتين . فالجيش تحت قيادة عبد الحكيم عامر ، كان قد استولى على خيوط السلطة فى البلاد بالفعل ، وأصبح المصدر الرئيسى لتعيين الوزراء والمحافظين ورؤساء مجالس الادارات ووكلاء الوزارات والسفراء ، وأصبحت مناصب السلطة العليا تشغيل بضيباط المخبرات

العامّة أو الحزبية ، وتحولت الدولة إلى دولة بوليسية ، للمباحث الجنائية العسكرية اليد العليا فيها .

وعلى العكس من ذلك تماما ، فإن الجيش تحت قيادة المشير عبد الحليم أبو غزالة ، كان جيشا محترفا لا شأن له بالسياسة أو جهاز الحكم ، كما أن الانضباط والالتزام كانا يسودانه ، وكان يعرف حدوده ودوره في خدمة الدفاع عن أرض الوطن .

ويرجع الفضل في ذلك - دون شك - إلى استقرار الحكم في عهد الرئيس محمد حسنى مبارك ، ومناخ حرية التعبير الذى لم يسبق له نظير ، وانتقال البلاد من نظام الحكم الشمولى الذى كان سائدا في عهد عبد الناصر ، والنظام شبه الشمولى الذى كان سائدا في عهد السادات ، إلى نظام التعددية الحزبية التى يفسح الحرية المطلقة للنشاط الحزبى المعارض وظهور الدور الشعبى فى الحياة السياسية - فكل ذلك كان من شأنه أن يلزم الجيش بدوره العسكرى ، ويدع للمؤسسات الأخرى دورها الذى تلعبه فى خدمة الوطن .

ومن الثابت أن الحكم الدكتاتورى أساسا هو الذى يتيح للمؤسسات العسكرية فى العالم الثالث التدخل فى شئون الحكم ، والانصراف عن مهامها الأساسية إلى العمل السياسى . كما أن الفراغ الشعبى هو الذى يحفز المؤسسات العسكرية على محاولة ملئه . وهذا هو السبب فى الانقلابات العسكرية التى يشهدها العالم الثالث من وقت لآخر .

والمهم هو ما بدا بالفعل من تناقض فى نظام الحكم فى مصر ، الذى تحول من نظام عسكرى يعتمد على الجيش فى دعمه واستقراره ، إلى نظام مدنى يعتمد على الشعب فى دعمه واستقراره ، فإن استمرار قائد عام الجيش وزير الدفاع فى منصبه أكثر من ثمانى سنوات ، كان يوحى باعتماد النظام السياسى عليه وعلى المؤسسة العسكرية فى حمايته ، أو يوحى - حتى - بعجز النظام عن تغييره واستبدال غيره به . ورسخ فى اعتقاد الكثيرين أن المشير عبد الحليم أبو غزالة هو الرجل الثانى فى الدولة ، حتى اضطر الرجل إلى نفي ذلك مرارا !

وفى الوقت نفسه كان من الواضح أن النظم السياسية الديمقراطية فى العالم لا تبيح استمرار وزير الدفاع وقائد عام الجيش فى منصبه أكثر من ثمانى سنوات ، لخطورة ذلك على ولاء المؤسسة العسكرية لحاكم البلاد الشرعى والدستورى ، ولأن هذا الوضع لا يوجد الا فى النظم الشمولية فى العالم الثالث التى تعتمد على الجيش فى استمرار بقائها واستمرارها .

ومن هنا فقد بدا أن وجود المشير عبد الحليم أبو غزالة فى منصبه أكثر من ذلك قد فقد أى مبرر دستورى معقول ، على الرغم من اعتراف الجميع بمقدرته وكفاءته وإخلاصه للوطن ، وأصبح من الضرورى، لصالح الاستقرار السياسى والشرعية الدستورية ، وإصلاح اتمام تحول النظام السياسى من النظام العسكرى الذى أرسته ثورة يوليو إلى نظام مدنى خالص تكون الكلمة الأولى فيه لمجموع الشعب - وهو ما نجح فيه الرئيس مبارك وسجله له التاريخ - وأيضا لصالح ازالة أية شبهة فى ولاء المؤسسة العسكرية للحاكم الدستورى للبلاد - اجراء هذا التغيير . وهو ما جرى يوم ١٥ ابريل ١٩٨٩ |

الديموقراطية فى مصر .. والبدائل المريرة !

فرضت قضية الديموقراطية نفسها مع أحداث أوروبا الشرقية، بعد أن ثبت للعالم أن حرية الشعوب الداخلية تتقدم على كل ما عداها من انجازات يحققها أى نظام ، وإن الشعوب قد تغفر لأى حاكم كل شئ ، ولكنها لا تغفر له العبث بحريتها ، وفرضه العيون والأرصاد على تحركاتها ، وتنكيله بالمخالفين فى رأى ، وإهداره حقها فى الكلام والخطابة والاجتماع والصحافة والتفكير ، وغير ذلك من الحريات الأساسية .

وهذه القضية فى مصر تحتاج إلى معالجة خاصة حتى لا تقع تحت أوهام تبعد عن الواقع الذى يتمثل فى علاقات الانتاج . فليس من الصحيح أن هناك ديموقراطية مطلقة ، وإنما هناك ديموقراطيات مختلفة ، وكل من هذه الديموقراطيات لا تستطيع أن تنفصل عن البناء التحتى الذى أرسيت فوقه ، والتي نشأت انعكاسا له وليس لأى بناء آخر .

أكتوبر فى ٢١/١/١٩٩٠

وعلى سبيل المثال فلا يستطيع البناء التحتى الإقطاعى أن يفرز ديموقراطية رأسمالية ، ولا يستطيع البناء التحتى الرأسمالى أن يفرز ديموقراطية اقطاعية . وكذلك لا يستطيع البناء التحتى الاشتراكى أن يفرز ديموقراطية رأسمالية .

ومن هنا يخطئ الكثيرون الذين يظنون أن التغييرات التى حدثت فى أوروبا الشرقية سوف تأتى بديموقراطية تماثل ديموقراطية العالم الرأسمالى الغربى ، لسبب بسيط هو أن ديموقراطية العالم الرأسمالى الغربى ، سواء فى أوروبا أو فى الولايات المتحدة ، هى نتاج الطبقة الرأسمالية التى تملك فى يدها جميع وسائل الانتاج من مصانع ومزارع ومناجم وغيرها ، وهى التى أقامت النظم السياسية والدساتير والقوانين والآداب والفنون التى تتفق مع مصالحها . ومثل هذه الطبقة الرأسمالية لا توجد على الاطلاق فى أوروبا الشرقية أو فى الاتحاد السوفيتى أو فى الصين أو فى أى بلد تسوده علاقات الانتاج الاشتراكية ، وانما توجد طبقة واحدة هى الطبقة العاملة ، سواء فى الصناعة أو الزراعة .

هذه الطبقة العاملة تملك أيضا وسائل الانتاج كما تملكها الطبقة الرأسمالية فى العالم الغربى ، ولكن ملكيتها لوسائل الانتاج هى ملكية نظرية ، بينما لا تملك من الناحية الفعلية سوى مرتباتها التى تتفاوت بدرجات متقاربة ، وبالتالي فقوتها الاقتصادية لا تستطيع أن تتجاوز حدود هذه المرتبات ، وقوتها السياسية - وبالتالي - لا تستطيع أن تتجاوز حجم قوتها الاقتصادية . ومن هنا كان التجاؤها إلى العنف للتغيير ، إذ لا تملك قوة اقتصادية بديلة .

أما الطبقة الرأسمالية فى العالم الرأسمالى الغربى فإنها تملك وسائل الانتاج من الناحيتين النظرية والفعلية ، بمعنى أن من يملك مليونا من الجنيهات يملكها بالفعل ، وهو يستمد قوته السياسية من قوة هذا المليون من الجنيهات ومن قدرته على التأثير الاقتصادى والاجتماعى والسياسى .

ومن هنا فان الديمقراطية التى ستأتى بها التغييرات الجديدة التى حدثت فى أوروبا الشرقية لن تتجاوز بحال من الأحوال علاقات الانتاج الاشتراكية التى تتمثل فى ملكية الطبقة العاملة وسائل الانتاج من الناحية النظرية ، والتى تختفى فيها الطبقة الرأسمالية بالشكل الموجود فى الغرب الرأسمالى . وستظل الدولة فى شرق أوروبا باستمرار أقوى من الأفراد .

وقد تغيرت الديمقراطية فى مصر مع تغير علاقات الانتاج ، فحين كانت علاقات الانتاج فى مصر علاقات رأسمالية ، كانت الديمقراطية التى يطالب بها المفكرون والسياسون المصريون هى الديمقراطية الليبرالية السائدة فى العالم الغربى الرأسمالى . وقدم أحمد لطفى السيد عرضه لهذا الفكر ، الذى سماه « مذهب الحرية » ، فى جريدة « الجريدة » ، وفيه طالب بالأ تكون للحكومة سلطات إلا على ما دلتها الضرورة اياه ، وهو ثلاث ولايات : ولاية البوليس ، وولاية القضاء ، وولاية الدفاع عن الوطن . وفيما عدا ذلك من المرافق والمنافع ، فالولاية فيه للأفراد والجماعات الحرة .

وفى هذه المقالات أنكر على الحكومة أن تبسط سلطتها على التعليم ، بحجة أن التعليم بهذا الشكل سوف يصطبغ بسياسة الحكومة ، لأن الأستاذ فى النظم الاستبدادية يضع همه فى تكوين انسان يألف الظلم اذا وقع منه على غيره ، ويرضاه اذا وقع من غيره عليه .

ولو ان مفكرينا المعاصرين أو احزابنا الحالية طالبت بما طالب به أحمد لطفى السيد ، فسوف يكون ذلك من دواعى سبرور حكومة الدكتور عاطف صدقى ، فتتنفض يدها من كل شىء ، وتحصر همها فى وزارة الداخلية ووزارة الدفاع ووزارة العدل ، ولا شىء غير ذلك ، وتترك للأفراد ما عدا ذلك من شئون البلاد ! .

وعندما أصدرت ثورة يوليو قانون الاصلاح الزراعى وقوانين التأمين، اختفى هذا النوع من الديمقراطية بالضرورة ، ولم يعد مطروحا المطالبة به ، فباننتقال وسائل الانتاج إلى يد الدولة وقع على عاتقها كل شىء - أى

وقع على عاتقها التعليم والصناعة والزراعة والاقتصاد والمالية والمرافق العامة والثقافة والاعلام والبحث العلمى والمواصلات والنقل ، ولم يعد يفلت من قبضتها شىء .

وكان من الطبيعى أن ينعكس ذلك على طبيعة السلطة وحدودها واختصاصاتها . فلكى تستطيع السلطة أن تتحمل هذه الأعباء كان من الضرورى أن تستحوذ على صلاحيات واختصاصات وسلطات واسعة النطاق ، وفقا للقاعدة الادارية السليمة ، وهى ضرورة تعادل السلطة مع المسئولية .

وهذا هو السبب فى أن سلطة رئيس الجمهورية فى مصر هى أوسع مدى من سلطة رئيس الجمهورية فى الولايات المتحدة الأمريكية ! وهى - بالضرورة - أوسع من سلطة الملك فؤاد أو الملك فاروق .

ذلك أن سلطة رئيس الولايات المتحدة ، أو سلطة الملك فؤاد أو الملك فاروق ، لم تكن تتجاوز حكومته ، وفيما عداها فإن مسئوليتها تقع على الأفراد والشركات الخاصة . أما رئيس الجمهورية فى مصر فهو الذى يعين الحكومة ، ويعين رؤساء مجالس إدارات الشركات الصناعية والتجارية ، كما يعين رؤساء مجالس إدارات الصحف ، ورؤساء الجامعات وغيرها ، ويسيطر بالتالى على الاقتصاد والاعلام والتعليم والثقافة وكل شىء .

ومن هذه السيطرة على وسائل الانتاج تأتى سيطرته على الحكم ، وتأتى سيطرته على التشريع أيضا . كما تأتى سيطرته على الجهاز السياسى وعلى التنظيم الشعبى . وكل ذلك من شأنه أن يخلق نظاما شموليا من الناحية الفعلية ، مهما تعددت فيه الأحزاب وتنوعت الآراء ! وفى عهد عبد الناصر كان هذا النظام شموليا صريحا لا يسمح فيه بالعمل السياسى لغير حزب واحد هو الاتحاد الاشتراكى . وفى عهد السادات تغير النظام قليلا ، فقد تفكك الاتحاد الاشتراكى إلى أحزاب

سياسية هي حزب اليسار وحزب الوسط وحزب اليمين ، وهي التي اتخذت الآن شكل حزب التجمع والحزب الوطنى الديموقراطى وحزب الأحرار ، بالاضافة إلى حزب الوفد . وكان هذا هو كل التغيير الذى جرى، لأن أسس النظام بقيت كما كانت عليه !

وقد استمرت هذه الأسس على ما هى عليه فى عهد الرئيس محمد حسنى مبارك ، مع توسعة قاعدة العمل الحزبى ، بما يناسب عصر الانفتاح ، فلم تعد الأحزاب فى عهد مبارك أحزابا مقيدة الحرية ، بل أصبحت أحزابا مطلقة الحرية فى العمل ، ولم تعد حرية الرأى فى عهد مبارك حرية مقيدة ، بل أصبحت حرية مطلقة من كل قيد ، ولم تعد السلطة تتربص بالديموقراطية المتاحة وتحاول الانقضاض عليها والزجوع فيها ، بل عملت على تثبيتها ودعمها وتوسيع قاعدتها !

ومن هنا نشأ هذا النظام الذى يمكن تسميته بالجمهورية المستنيرة ، بالمقارنة بالجمهورية المستبدة فى عهد عبد الناصر ، والجمهورية شبه المستبدة فى عهد السادات . وفى كل من هذه الجمهوريات الثلاث يسود نظام يعكس سيطرة الدولة على وسائل الانتاج ممثلة فى القطاع العام ، وإلى جانبه قطاع خاص تختلف أهميته من جمهورية إلى أخرى - فهو فى الجمهورية الساداتية متوسط الأهمية ، وفى الجمهورية المباركية متعاظم الأهمية .

وهذه الأهمية المتفاوتة من جمهورية لأخرى ، تعكس أهمية متفاوتة للدور السياسى الذى يلعبه القطاع الخاص ، ففى حين يختلف هذا الدور السياسى فى عهد عبد الناصر ، يبرز هذا الدور فى عهد السادات ويفرض نفسه فى التعددية الحزبية التى تظهر لأول مرة منذ قيام ثورة يوليو ، ثم يتعاظم هذا الدور فى عهد مبارك ويفرض نفسه فى اتساع حرية العمل الحزبى واطلاق حرية الرأى بلا حدود والتأثير على صانعى القرار .

هذه العلاقة بين علاقات الانتاج ونظام الحكم يجب أن تكون فى ذهن كل كاتب وهو يدعو إلى الديموقراطية ، حتى يحدد بدقة ما يمكن أن تسمح به علاقات الانتاج من ديموقراطية .

فمما يثير الدهشة حقا أن يطالب حزب بتشديد قبضة الدولة علي وسائل الانتاج ، ويطالب في الوقت نفسه بمزيد من الديمقراطية . دون أن يعي أن تشديد قبضة الدولة علي وسائل الانتاج ، يعنى - على الصعيد السياسى - تشديد قبضتها على الحكم ! والعكس بالعكس ، فكلما خفت قبضة الدولة على وسائل الانتاج، انعكس ذلك بالضرورة على نظام الحكم ، فتزيد رقعة الديمقراطية .

وهذا هو الخيار الذى يجب علي كل حزب ، وعلى كل فرد أن يحدد موقفه ازاءه ، فلم تعد السياسة ومسائل الحكم تجري اعتباطا ، وانما تفرضها قوانين وأوضاع اقتصادية لا يمكن الفكك منها .

وفى ظل علاقات الانتاج الحالية فى مصر ، حيث لا توجد طبقة رأسمالية قوية تقود الاقتصاد علي نحو ما تفعل فى العالم الرأسمالى الغربى ، أو على نحو ما كانت تفعل رأسمالية بنك مصر قبل الثورة ، وانما تتأمر على المجتمع قوى رجعية تتلفع بعباءة الدين ، وتسرق عرق الجماهير ، كما هو الحال فى شركات توظيف الأموال ، وحيث يسيطر القطاع العام على هياكل الانتاج الرئيسية ، ويقود عجلة التقدم فى البلاد، فان الخيار لا يكون بين وجود رئيس جمهورية يتولى سلطته لمدة ست سنوات ورئيس جمهورية يتولى سلطته مدى الحياة ، لأن هذا الخيار لا طرحه علاقات الانتاج بشكلها الراهن ، وانما الخيار يكون بين رئيس جمهورية مستنير ، يوسع قاعدة الحرية يوما بعد يوم ، ورئيس جمهورية يتربص بالحرية وينتهز الفرصة للانقضاض عليها !

ولعله قد سبق لى أن قلت بصراحة تامة ان القوانين التى يحكمنا بها الرئيس محمد حسنى مبارك ، هي نفسها القوانين التى حكمنا بها الرئيس السابق السادات ، ونفذ بها حركة اعتقالات ٣ - ٥ سبتمبر ١٩٨١ ، والفرق الوحيد يتمثل فى التغيير الذى طرأ على شخص رئيس الجمهورية ، والذى تحول به من رئيس يتربص بالحرية إلى رئيس يوسع قاعدة الحرية . وفى ذلك المقال طالبت بتقنين الأمر بالفعل ، بانتخاب

رئيس الجمهورية مدى الحياة ، بدلا من تجديد انتخابه فى كل مرة .
فليس رئيس جمهورية مصر هو رئيس جمهورية الولايات المتحدة ،
وعلاقات الانتاج فى مصر تختلف اختلافا جذريا عن علاقات الانتاج فى
الولايات المتحدة ، فهى فى الولايات المتحدة علاقات انتاج رأسمالية ،
السيطرة فيها للأفراد ، وفى مصر علاقات انتاج شبه اشتراكية وشبه
رأسمالية ، أو هى رأسمالية الدولة - والسيطرة فيها للدولة .

وقد قلت ذلك حتى نتفادى مسرحية اجراء الانتخابات بين أكثر من
مرشح لرئاسة الجمهورية ، وهى التى أثارت الاستهزاء أكثر مما أثارت
الاحترام ، حيث دخل فى منافسة رئيس الجمهورية أفراد لا يستندون إلى
أية قواعد جماهيرية !

فصحيح أن مصر غنية بالرجال الذين يصلحون لرئاسة الجمهورية، ولكن
المشكلة لا تتمثل فى الرجال وانما تتمثل فى علاقات الانتاج ، وحتى فى
الولايات المتحدة الأمريكية فان المسألة ليست مسألة رجال يصلحون
لرئاسة الجمهورية أو لا يصلحون ، وانما هى مسألة أحزاب حقيقية
تعتمد على قواعد شعبية ومصالح رأسمالية واحتكارات وكراتيلات !
والأمريكيون لا ينتخبون أشخاصا وانما ينتخبون أحزابا .

ومن هنا فحين يرشح فرد نفسه لرياسة الجمهورية فى مواجهة
محمد حسنى مبارك ، كما حدث فى انتخابات الرئاسة السابقة ، دون أن
تكون وراءه مصالح أو قواعد شعبية يمثلها ، فإنه لا يمكن أن يكون
جادا ! وهو يعرض نفسه للسخرية ، لأنه لا يمثل سوى نفسه ، بينما
جميع النظم الرأسمالية والاشتراكية تفترض فيمن يرشح نفسه أنه يمثل
حزبا أو طبقة . ولم يكن أحد ممن رشح نفسه أمام رئيس الجمهورية
رئيسا لحزب من الأحزاب الحالية ، وانما كانوا مجرد أفراد مجردين من
أية قاعدة شعبية ، وهذا هو الهزل فى موضع الجد !

ومن هنا أيضا فاذا تعدل الدستور لى يمنع انتخاب رئيس
الجمهورية أكثر من مرتين ، - كما يطالب البعض - فإما أن يأتى رئيس

الجمهورية الذى يخلفه من نفس الحزب الوطنى ، وإما أن يأتى من حزب آخر . ولما كان الحزب الوطنى يسيطر على وسائل الانتاج ، بالوراثة عن ثورة يوليو المجيدة ، فاذا خلف رئيس آخر الرئيس محمد حسنى مبارك ، فسوف يكون من نفس الحزب الوطنى أيضا ، ولا نكون قد ترحلنا نحو الديمقراطية قيد شعره ، ان لم تكن قد تراجعنا عنها شعرات وخطوات ! لأنه إذا كانت القوات التى يحكمنا بها مبارك هى نفسها القوانين التى حكمنا بها السادات ونفذ بها حركة اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ ، فان هذه القوانين يمكن أن تكون أداة فى يد رئيس جمهورية آخر لا يملك استنارة مبارك ويستغلها أسوأ استغلال .

وهذا ما دفع البعض إلى المطالبة بتغيير القوانين نفسها لتصبح قوانين ليبرالية ، وأن يحل مجلس الشعب ، وتجرى انتخابات جمعية وطنية تضع دستورا جديدا يناسب عصر الحرية ، وتكون الانتخابات نزيهة ، ويلغى قانون الطوارئ ، كما يلغى تأميم الصحافة ، وتطبق الحريات التى يتمتع بها المجتمع الغربى الرأسمالى .

وقد نسى هذا البعض أن القوانين الحالية لم تنشأ من فراغ ، وانما أنشأتها سيطرة الدولة على وسائل الانتاج فى عهد ثورة يوليو بقوانين اصلاح الزراعى وقوانين التأميم التى أنشأت القطاع العام ، وأنه قبل ثورة يوليو كان دستور ١٩٢٣ ينص على أن السلطات مصدرها الأمة ، ورئيس الدولة غير مسئول . كما يكفل الحرية الشخصية وحرية الاعتقاد وحرية الصحافة وحرية الاجتماع وتكوين الجمعيات ، لأن الدولة لم تكن تسيطر على شىء . ولكن عندما سيطرت الدولة على كل شىء تقوضت هذه الحريات ، وسقطت مع دستور ١٩٢٣ ، وحلت محلها سيطرة الجيش ، وقوانين الطوارئ ، والمحاكم الاستثنائية ، ومحاكم أمن الدولة ، ومحاكم العيب ، ومحاكم الثورة ، ومحاكم الشعب ، والمحاكم العسكرية ، وأممت الصحف ، وغير ذلك . كما ينسى ان الغاء هذه القوانين لا يأتى بجرة قلم ، وإنما يأتى بتغيير علاقات الانتاج التى أفرزتها ، وانشاء علاقات انتاج جديدة .

وهكذا نصل إلى جوهر مشكلة الديمقراطية في مصر ، وهي تغيير وظيفة الدولة من دولة لا تملك سوى ولايات ثلاث ، هي : ولاية البوليس وولاية القضاء وولاية الدفاع عن الوطن ، إلى دولة تملك كل الولايات ، وتسيطر على وسائل الانتاج ، وتأخذ على عاتقها كل شىء ، وتنعكس هذه السيطرة على سلطتها بالضرورة .

كذلك نصل إلى هذا الخيار المثير الذى نجد أنفسنا أمامه : وهو الخيار بين تضائل سلطة الدولة مع تعاظم القوى الرجعية التى تتربص بالمجتمع ، مثل جماعات التكفير التى تحكم بتكفير الحاكم والمجتمع - وهي جماعات جاهزة لتسلم الحكم - وبين تعاظم سلطة الدولة وتضائل قوة هذه الجماعات !

ولا شك أن هذا الخيار تحدده الإجابة عن هذا السؤال : من أشد خطرا على المجتمع ، سلطة الدولة أم سلطة جماعات التكفير ؟

بل نصل أيضا إلى هذا الخيار بين الاستقرار الحالى والتغيير المستقبلى ، الذى يشير التحليل السابق إلى أنه قد يكون خطوتين إلى الخلف بدلا من أن يكون خطوة إلى الأمام .

قبل أن نطالب بفتح حساب جديد!

الصديق العزيز والمفكر الكبير
الأستاذ عبد الستار الطويلة ، فهم خطأ
من مقالى عن « الديمقراطية فى مصر
والبدائل المريعة » أننى ضد توسيع
رقعة الديمقراطية فى مصر ! وبنى
على ذلك أننى « أنتمى إلى فكر نظرى
قديم أثبتت الأحداث أنه لم يعد يتفق مع
ظروف عالم اليوم ، وهو تطبيق
ميكانيكى لتلك الفكرة القديمة التى
كانت تقول إن الديمقراطية هي
ديموقراطية الطبقة التى تملك وسائل
الانتاج » !

أما أننى ضد توسيع رقعة
الديموقراطية فى مصر ، فينفيه أن
معظم كتاباتى هى دفاع لا ينقطع عن
الحرية والديموقراطية ، وهجوم مستمر
على الدكتاتوريات والطغيان ، وهي
كتابات ترجع إلى عهد الرئيس الراحل
السادات ، قبل أن تنفسح حرية التعبير
بلا حدود فى عهد الرئيس مبارك ،

أكتوبر فى ٢٥ / ٢ / ١٩٩٠

وفيهما كُلت أعنف الضربات للحزب الحاكم ، وكشفت نوع الديموقراطية التي يريد إرساءها فى البلاد ، والحرية التي أراد اتاحتها لشعبنا ، وهى التي وصفتها بأنها « حرية الصراخ » ! ، ودافعت فيها عن الصحفيين المصريين فى الخارج ، وأردجتهم فى سلك الحركة الوطنية ، كما دافعت دفاعا شرسا عن حزب التجمع ، وحزب العمل ، وحزب الوفد الجديد - ويمكن الرجوع إلى هذه المقالات فى كتابي: « مصر فى عصر السادات » - الجزء الأول .

ولعل الصديق الأستاذ عبد الستار الطويلة يعرف ذلك أكثر من أى فرد آخر ، فقد كان معى على نفس الطريق فى تلك الحقبة الزمنية الحرجة ، وكان يدلى بنفس الدلو بشجاعته المعروفة ، مما عرضه لمتاعب سياسية جمة . فقد كان منبرنا واحداً ، وهو مجلة « روز اليوسف » فى عهد المرحوم عبد الرحمن الشرقاوى والصديقين صلاح حافظ وفتحي غانم ، وقد دفع الجميع ثمن المواقف الشجاعة إلى جانب الحق والعدل .

على أنى كنت على الدوام أعرف أنه لا توجد ديموقراطية مطلقة ، وإنما توجد ديموقراطية مقيدة بعلاقات الانتاج - أى ديموقراطية الطبقة التي تملك وسائل الانتاج ، والتي يخطئ الصديق عبد الستار الطويلة فيصفها بأنها فكرة قديمة ، بينما هى فكرة دائمة وقانون من قوانين الحركة التاريخية أثبته التاريخ فى كل مراحله بلا استثناء .

ولعل ما دفعه إلى هذا الظن هو ما حدث فى أوروبا الشرقية فى الأيام الأخيرة من تغييرات تاريخية مذهلة ، أوجت بتحطيم هذه النظرية فى ذهن كثيرين من المفكرين اليساريين ، ولكنها لم تحطمها فى ذهني ، لسبب بسيط ، هو أنى كنت أعرف منذ البداية أن طبقة البروليتاريا لا تحكم فى شرق أوروبا ، وإنما الذى يحكم هو الحزب الشيوعى الذى انفصل عن الطبقة وأصبح يكون بذاته طبقة جديدة حلت محل الرأسمالية القديمة !

وأرجو أن أذكر الصديق عبد الستار الطويلة بمقالين لى فى جريدة الوفد عالجت فيهما هذه النقطة بالذات ، وفيهما تجرأت على ما اعتبرته اضافة أو تعديلا طفيفا للنظرية الماركسية ، انطلقت من نظرية ماركس المعروفة فى أن الذين يملكون يحكمون والذين لا يملكون لا يحكمون . فقد توصلت إلى ما أسميته بالملكية الفعلية والملكية النظرية ! وقلت إن ملكية طبقة السادة فى مجتمع الرق ، وطبقة الاقطاعيين فى المجتمع الاقطاعى ، وطبقة الرأسماليين فى المجتمع الرأسمالى - كانت ملكية فعلية ، فمن يملك اقطاعا واسعا يملكه بالفعل ، ومن يملك مليونا من الجنيهات يملكه بالفعل ، ويمارس بفضل هذه الملكية التأثير على البناء الفوقى - أى الحياة السياسية والقانونية والفكرية والفنية وغيرها .

أما ملكية الطبقة العاملة لوسائل الانتاج فى المجتمع الاشتراكى فهى ملكية نظرية ، ولكن من الناحية الفعلية فإن العامل لا يملك سوى مرتبه الذى يكسبه من عمله ، وهو يستمد من قوة هذا المرتب الضئيل قوته السياسية ، التى لابد أن تكون قوة سياسية ضئيلة بالضرورة ! أما القوة السياسية الحقيقية ، أو السلطة ، فقد تركزت فى يد الحزب الشيوعى ، الذى حل محل الطبقة الرأسمالية فى مراكز الحكم والهيمنة ، وتكونت منه طبقة اجتماعية حاكمة تفتقر إلى فضائل الطبقة الرأسمالية وتتمتع بمساوئها .

وهذه الطبقة الاجتماعية الجديدة ، التى حلت محل الطبقة الرأسمالية فى المجتمعات الاشتراكية - وهى طبقة الحزب الشيوعى - تستمد قوتها وهيمنتها ونفوذها من سيطرتها الفعلية على وسائل الانتاج . فالحزب الشيوعى هو الذى يسيطر على المصانع والمتاجر والمزارع ، وعلى الجيش والبوليس ، وعلى القضاء والفنون والآداب ، وعلى الصحافة والاعلام والجامعات ، وعلى كل مظاهر الحياة .

والمهم هو أنه لم يكن فى وسع الحزب الشيوعى أن يشكل طبقة اجتماعية على هذا النحو لو كانت وسائل الانتاج فى يد رأس المال الخاص ، أى لو كان النظام الاقتصادى نظاما رأسمالياً أساسه الفرد

وليس الدولة ، لأنه فى هذه الحالة لن يزيد نفوذه السياسى على نفوذ أى حزب فى العالم الرأسمالى من أقصاه إلى أقصاه ، سواء داخل الحكم أو خارجه !

ومعنى ذلك - بلا جدال - أن النظرية التى سقناها فى مقالنا : «الديموقراطية فى مصر والبدائل المريرة » هى نظرية صحيحة مائة فى المائة . فكلما زادت سيطرة الدولة على وسائل الانتاج ، زادت سيطرة الحزب الذى يسيطر على وسائل الانتاج - سواء اسميناها «الحزب الشيوعى » أو « الحزب الوطنى الديموقراطى » !!

ومن هنا فإذا جاء كتاب أو مفكرون مصريون يطالبون بتطبيق الديموقراطية الليبرالية الموجودة فى المجتمعات الرأسمالية الخالصة على مصر ، فإن مطالبتهم تفتقر إلى المنهج العلمى للتحليل السياسى ، لأنه لا توجد فى التاريخ ديموقراطية منفصلة عن أساسها المتمثل فى علاقات الانتاج ، وانما هى انعكاس وإفراز أمين لعلاقات الانتاج ،

فإذا كانت هذه العلاقات اقطاعية كانت الديموقراطية ديموقراطية اقطاعية - أى ديموقراطية الطبقة الاقطاعية التى تتمتع بها وحدها دون غيرها من الطبقات - وإذا كانت هذه العلاقات هى علاقات الرق كانت الديموقراطية هى ديموقراطية السادة وحدهم دون غيرهم من الطبقات - والمثل الصارخ على ذلك المجتمع الأثينى الذى يُضرب به المثل فى الديموقراطية ، ولكنه كان مجتمعنا ينقسم إلى سادة وعبيد ! وكانت الديموقراطية للسادة وحدهم ، وليس للعبيد منها نصيب !

ومن هنا أيضا اذا جاء اليسار المصرى ليطالب بتشديد قبضة الدولة على وسائل الانتاج ، ويطالب فى الوقت نفسه بالحريات الليبرالية ، فانه يهزل ولا يقول جدا ! إذ كيف تتحقق حريات ليبرالية بدون اقتصاد ليبرالى ؟

وحتى نضرب المثل بمصر ، فان الحريات التى توافرت فى عهد الرئيس الراحل السادات ، واتسعت فى عهد الرئيس مبارك ، كان من

المستحيل أن تتوافر على هذا النحو لولا أن الاقتصاد المصرى الذى كان سائدا فى عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر منذ يوليو ١٩٦١ ، قد تغير بسياسة الانفتاح ! فقد أفرز هذا الانفتاح طبقة رأسمالية جديدة كان لابد أن تلعب دورا فى الحياة السياسية يتفق مع قوتها الاقتصادية !

وليس من الصدفة أن أقوى حزب معارض فى مصر هو الحزب الذى يمثل الرأسمالية الجديدة ، وهو حزب الوفد ، بينما يمثل أضعف الأحزاب المعارضة حزب التجمع الذى يمثل الطبقة العاملة .

وبالنسبة لحزب الوفد ، فصحيح أن رصيده الوطنى لدى الجماهير المصرية قد فتح له صدرها ، ولكن تمثيله لشريحة الرأسمالية الوطنية أتاح له الاستمرار. أما حزب العمل ، فإن ادعاءه تمثيل الطبقة العاملة فى البداية قد جعله حزبا هشا ، وقد نكل به السادات ذات مرة تنكيلا شديدا. ولكن بعد أن ضم إليه الرأسمالية الإسلامية الجديدة ، وأصبح يعبر عن شركات توظيف الأموال بكل ما تملك من مليارات الجنيهات ، قفز من المؤخرة إلى المقدمة ، وأصبح زعيم المعارضة فى مجلس الشعب!

ارتباط الديمقراطية بالبناء التحتى - اذن - هو ارتباط وثيق ولا فكاك منه ، وعلى كل حزب ، وعلى كل سياسى ، وعلى كل مفكر ، أن يضع ذلك فى اعتباره وهو يطالب بتوسيع قاعدة الديمقراطية . فإذا طالب بتوسيع قاعدة الديمقراطية على نحو يتفق مع علاقات الانتاج فى مصر ، فإنه يكون عاقلا رشيدا ، وإذا طالب بتوسيع هذه القاعدة كما هو مطبق فى الغرب ، فإنه يكون هازلا - رغم أنه - أى سواء كان يعى ذلك أو لا يعيه ! فالمسألة ليست الزائدة على المطالب الديمقراطية ، وإنما مسألة الممكن تطبيقه منها وغير الممكن ، فالسياسة فن الممكن وليست فن المستحيل !

على أن الصديق عبد الستار يضرب المثل بما حدث فى شرق أوروبا ، حين سمح النظام أخيرا بحرية الانتخابات والترشيح لها ، وبحرية الصحافة ، وبحرية الاجتماع والتظاهر ، بل والإضراب بواسطة مئات الألوف بل الملايين ، وترك القوميات التى تنادى بحق الانفصال عن

اتحاد الجمهوريات السوفيتية تعبر عن نفسها ومطالبها بأساليب سلمية ،
وأصبحت التعددية الحزبية فى شرق أوروبا حقيقة .. إلى آخره ؟

وما حدث فى أوروبا الشرقية شئ لا يمكن مقارنته بما حدث هنا !
لأنعدام المقارنة بسبب اختلاف الظروف الاجتماعية فى أوروبا الشرقية
عنها فى مصر اختلافا جذريا .

فلا يوجد فى أوروبا الشرقية غير طبقة واحدة هى طبقة البروليتاريا ،
بعد أن صفيت الطبقة الرأسمالية على مدى نصف القرن الماضى تصفية
تامة ، وهذه الطبقة البروليتارية تريد تحويل ملكيتها النظرية لوسائل
المتاج إلى ملكية فعلية ، فتريد الاستمتاع بحريتها السياسية كما
استمتعت بحريتها الاقتصادية بعد أن تخلصت من ربة علاقات الانتاج
الرأسمالية . ولما كان الحزب الشيوعى هو الذى يحول بينها وبين
ممارستها حريتها السياسية فهى توجه عداها لهذا الحزب وتدعو إلى
التعددية الحزبية .

ومعنى هذا الكلام هو أنه لا توجد أخطار تهدد هذه البروليتاريا ، فى
شرق أوروبا غير تلك الآتية من الحزب الشيوعى ، بتركيز السلطة فى يده
وعدم التنازل عنها للبروليتاريا .

ولكن الأمر فى مصر يختلف تماماً ، حيث تواجه الجماهير الشعبية
أعداء كثيرين ، يهددون مكاسبها التى تحققت بقوانين يوليو ١٩٦١ وما
بعدها .

فصحيح أن هذه القوانين لا يمكن تسميتها بالقوانين الاشتراكية ،
بسبب البون الشاسع بينها وبين الاشتراكية الحقيقية ، ولكنها أعطت
الطبقة العاملة حقوقا وضمانات ظلت تزيد على نحو مضطرد . وهؤلاء
الأعداء لا يهددون مكاسب الجماهير فقط ، بل يهددون تقدمها أيضا ،
بمحاولتهم فرض فكر عليها يعود بها إلى الوراء بدلا من أن يدفعها إلى
الأمام - وهو فكر التكفير الذى يكفر الحاكم والمجتمع ، ويضلل الجماهير

بالحكومة الاسلامية التي يرسمها فى صورة براءة لا تتوافر الا فى عهد الخلفاء الراشدين ، ويستخدم العنف فى تحقيق أغراضه .

وأزعم أن هذا الفكر وجماعته كاد يكتسح الانتخابات الأخيرة لمجلس الشعب ، بتأييده ومساندته الفعلية للتحالف ، على الرغم من معارضته الظاهرية . ففى كل لجنة انتخابية كان يوجد عشرة من هذه الجماعات على الأقل يلعبون على عقول الجماهير باسم الدين القاهر ، ويرفعون شعار « الاسلام هو الحل » - دون أن يحددوا كيف يحل الاسلام مشكلة الديون التى تتجاوز الأربعين مليارا ، أو المشكلة الاقتصادية المعقدة التى تثقل على كاهل الجماهير ، وغيرها من المشاكل ، أو كيف يتعامل مع قضية الوحدة الوطنية مع مطالبته بأن يدفع الأقباط الجزية مقابل اعفائهم من الجهاد ! إلى آخر هذه الحلول التى يقدمها هذا الفكر مما يؤخر المجتمع ولا يقدمه .

كذلك لا يواجه المجتمع فى أوروبا الشرقية طبقة رأسمالية من طراز أصحاب شركات توظيف الأموال الذين سرقوا مدخرات شعبنا بمئات الملايين ، بل بالمليارات ، وأضاعوا على مصر فرصة اصلاح هيكل نظامها القتصادى ، واشتروا الأقلام ، وضاعفوا مشكلة مصر الاقتصادية بدلا من حلها . أى على العكس تماما كما تفعل الرأسمالية فى العالم الرأسمالى . ومن هنا فمجال المقارنة منعدم !

ولو كانت الأحزاب السياسية فى مصر بمثل القوة التى كانت عليه قبل الثورة ، لتكفلت الديمقراطية الليبرالية بالقضاء على هذا الخطر ، ولكن يجب أن يلاحظ أنه لا يوجد فى مصر حزب أغلبية جماهيرية مثل حزب الوفد قبل الثورة .

لقد كان وجود حزب الوفد ، بأغلبيته الجماهيرية الكاسحة قبل الثورة ، من الأسباب التى أضعفت من خطر الجماعات المتطرفة الاسلامية وقتها ، مثل جماعة الإخوان المسلمين ، أو الفاشية ، مثل مصر

الفتاة ، وأتاحت أحسن الفرص للحكم الليبرالى الصحيح . وفى عهد الوفد استطاع مصطفى النحاس أن يطلق شعار « الدين لله والوطن للجميع » ، فيجد الغالبية من جماهير الشعب المصرى تؤيده .

ولكن مع غياب حزب جماهيرى فى الساحة السياسية حالياً ، بما فيها الحزب الوطنى ، ومع اختيار الشعب للاشتراكية المزيفة التى طبقتها ثورة يوليو ، والهجوم الكاسح من الحزب الوطنى على الوفد الجديد - حليفه الوحيد فى ميدان العلمانية والليبرالية - ومع ضعف حزب التجمع وتراجع شعبيته بين الجماهير ، وصورية حزب الأمة وحزب الأحرار - فان الحل الاسلامى المزعوم بقى هو الحل الوحيد الذى لم يجرب ، والذى طرحه هذه الجماعات بالحاح ، بجنائزها ومديها مرة ، وبمظاهراتها فى الجامعات والمدن مرة أخرى ، وباعتداءاتها على حياة الكتاب والمفكرين مرة ثالثة !

يضاف إلى ذلك أن المجتمعات فى شرق أوروبا هى مجتمعات صناعية مائة فى المائة ، تسود فيها قيم المجتمعات الصناعية التى تغيب منها روح الاستسلام والتواكل ، ويسود التعليم الذى يشمل الكبير والصغير ، وحضارتها جزء لا يتجزأ من الحضارة الأوربية ، كما أنها تتمتع بعلاقات انتاجية أكثر تقدماً ، والمقارنة بينها وبين مجتمعنا فيه ظلم للمجتمعين معا ، واحتمالات ارتدادها إلى العصور الوسطى احتمالات غير واردة ، بينما هذه الاحتمالات فى مجتمعنا واردة مع أفكار من مثل دفع الأقباط الجزية ، ومع المظاهر الحالية فى مجتمعنا من حجاب وجلاليب وذقون ، وغيرها مما تخلصت منه مصر على طوال الأربعينات والخمسينيات والستينيات ، ولكنه عاد مرة أخرى !

ومن هنا فإذا عالجنا قضية الديمقراطية فى إطار المفهوم الرأسمالى الليبرالى ، فإننا نكون قد قطعنا ما بيننا وبين الأسباب التى تفرز عادة الديمقراطية ، والتى تشكلها وتحددها وترسم إطارها ! وإنما

علينا - باستمرار - أن نضع في اعتبارنا هذه الأسباب ، وعلينا - فوق ذلك - أن نضع في اعتبارنا هوية الأحزاب السياسية في الساحة المصرية. ففيما عدا حزب الوفد ، الذي لا يشك أحد في هويته الليبرالية ، فإن الأحزاب الأخرى تتوسل بالديموقراطية للوصول إلى الحكم ، بينما هي لا تؤمن بها ولا تستطيع تنفيذها إذا وصلت إلى الحكم^١ لأنها أحزاب شمولية بالضرورة ، وأقصد بها حزب التجمع وحزب العمل - وهما الحزبان الشموليان الحقيقيان في الديكور الديموقراطي الحالي !

بل يجب أن نضع في اعتبارنا أن أكثر من ثلث قرن من الممارسة غير الديموقراطية لثورة يوليو - وبتعبير أدق : من الممارسة الدكتاتورية ! - قد طرحت أحزابا تغيب منها الكوادر الحزبية القادرة على قيادة العمل الحزبي بعد زعمائها الحاليين ، ويمكنها شد الجماهير في أية انتخابات حرة^١

فلا تسمع عن أسماء لامعة يمكن أن تخلف هؤلاء الزعماء كما كان الحال مع أحزاب ما قبل الثورة ، لأن قصر مدة التجربة الحزبية - التي ترتبط من ناحية الواقع بعهد مبارك - لم يتح الفرصة لنمو زعامات جديدة ، وهذه مشكلة حقيقية تهدد المسيرة الديموقراطية الحالية تهديدا خطيرا .

ولا يعنى ذلك ألا نطالب بمزيد من الديموقراطية ، وإنما يعنى أن نحسن الاستفادة من القدر الحالي من الديموقراطية الذى نتمتع به - والذى سبقنا فيه بالفعل أوروبا الشرقية - قبل المطالبة بالمزيد ! وذلك بأن نلزم حكومة الحزب الوطنى باحترام الحريات ، ونلزم الأحزاب بالألتى استخدام هذه الحريات فى التصليل السياسى الذى يفقد الجماهير الثقة فى الديموقراطية وعوائدها !

وهذا ما يفعله الكتاب والمفكرون الذين يحترمون أقلامهم . فقد وقفنا ضد كل تجاوز من جانب السلطة على الحريات ، كما وقفنا ضد الاعتداء

الذى كان يقع على المعتقلين السياسيين - وآخره ما وقع على الدكتور محمد السعيد ورفاقه . ولكننا أيضا ضد التضليل السياسى ، كما تمثل فى حادثة الجندى سليمان خاطر ، الذى أقام منه حزب العمل بطلا يناطح سعد زغلول ومصطفى النحاس وعبد الناصر ! وكاد بذلك يحدث فتنة خطيرة فى البلاد .

ومن هنا فلم يكن ما عنيته من مقالى هو أن نعيش فى حيز محدود من الديموقراطية إلى الأبد - كما يتهمنى الصديق العزيز عبد الستار الطويلة - وإنما ما عنيته أن نوسع هذا الحيز توسيعا واعيا فى حدود علاقات الانتاج ، وفى اطار الأخطار الحقيقية التى تحيط بالتجربة الديموقراطية ، لأن الديموقراطية تحكمها قوانين اقتصادية واجتماعية يجب مراعاتها ، وليست شعارات ومزايدات يطلقها كل فرد ويظن أنه يحقق بها صالح أمته !

وما عنيته أيضا أن الديموقراطية ممارسة قبل أن تكون نصوصا مكتوبة ، فالدستور الحالى يحتوى على نصوص بليغة تتغنى بسيادة الشعب ، ومع ذلك فقد وقعت فى ظله اعتقالات ٣ - ٥ سبتمبر ١٩٨١ !

فعلى كل شعب أن يستخدم رصيده المتاح له من الديموقراطية استخدماً أمثل ، قبل المطالبة بفتح حساب جديد !

هل كان اختيار وزير الثقافة خطأ فادحا !

لست أدري اذا كان يحق لى
التدخل في خلافات بين أعضاء الحزب
الوطنى ولست عضوا فيه ؟ ، وان كنت
أعتقد أن ما كتبه الصديق العزيز
الأستاذ إبراهيم سعده فى عدد أخبار
اليوم الصادر يوم ٣٠ ابريل ١٩٨٨ ،
يتجاوز نطاق الحزب الوطنى إلى نطاق
مصر بأسرها ، لأنه لا يتعلق بمصالح
أو اهتمامات خاصة بالحزب الوطنى،
وانما يتعلق بحكومة مصر ، ويتعلق
أكثر من ذلك بنظام الحكم .

ويكفى أن أنقل إلى القارئ
احساسى بعد قراءة هذا المقال . فقد
تساءلت : هل يساوى منصب الوزارة
فى مصر كل هذا الهوان ؟ وما هى
بالضبط طبيعة المنصب الوزارى فى
مصر : هل هو منصب سياسى أو هو
منصب فنى ؟ واذا كان الوزير فى مصر
يتعرض للاهانات على يد المعارضة
صباح مساء ، ثم يتعرض لنفس
الاهانات واللعنات على يد صحف حزبه

اكتوبر فى ٨ / ٥ / ١٩٨٥

(التى يطلق عليها اسم الصحف القومية) - ترى بالله إلى متى سوف يتيسر لرئيس الجمهورية فى المستقبل العثور على وزراء ؟ وإلى متى سوف يستطيع تأليف وزارات ؟

وحتى أكون واضحا ومحددا منذ البداية ، فانى - وبكل تأكيد - مع نقد كل وزير يخطئ ، وضد كل تصفيق « عمال على بطل » لأى وزير ، فالوزارة مسئولية ، والحكم مسئولية ، وكل منهما يخضع لرقابة الشعب ممثلا فى مجلسه النيابى ، ولا مسئول فى البلد يعلو فوق النقد ، والا عدنا إلى دكتاتورية الفرد من جديد ، وفقدنا القدر من الديموقراطية المتاح لنا حاليا .

وانما المشكلة - فى حالتنا هذه - هى أننا أمام وزير هوجم منذ اليوم الأول لتوليّه منصبه ، بل وحتى من قبل أن يحلف اليمين ، وقبل أن يقوم بأى عمل ! وبالتالي قبل أن يخطئ أو يصيب !

وقد هوجم بشراسة وضراوة ، وهوجم هجوما قدرا للغاية ، تجهلت فيه مبادئ الدين والأخلاق والتقاليد المصرية العفة الكريمة ، وسيقت فى الهجوم عليه ذرائع وحجج لم تعرفها الحياة السياسية فى بلدنا منذ قيام أول وزارة مسئولة فى مصر فى عام ١٨٧٨ حتى الآن !

ثم استطاع الرجل أن يصمد أمام العاصفة ، وأن يحتويها ، وأن يستدير سريعا - وبكفاءة ملحوظة - لمواجهة مسئولياته ، وأخذ يتعامل معها بحزم وبدون ضعف ، مع أن الصدمة التى تلقاها قبل أن يتولى أعمال وزارته كانت كفيلة بخلخلة قلب أى انسان غيره .

فلم يتعامل بطريقة « اللى على رأسه بطحة » ! ، لأنه كان يعرف أنه ليست على رأسه أية بطحة غير البطحة الطائشة التى أراد خصومه وغيرهم من الطامعين توجيهها إلى رأسه . ثم قام بعمل خطة عامة لوزارته ، استشار فيها عددا كبيرا من رجال الفكر والقلم ، وأخذ - بحماسة الشباب - فى تنفيذها ، وهكذا انتهت الضجة التى أثارت عند اعلان اسمه فى الوزارة الجديدة ، واختفت آثارها ، ولم يعد أحد يذكرها .

نعم لم يعد أحد يذكر تلك الضجة التي أثارت حول اسم الوزير فاروق حسنى ، حتى كتب الصديق إبراهيم سعدده مقاله - أقول حتى كتب الأستاذ إبراهيم سعدده مقاله ، وليس حين أدلى الدكتور عاطف صدقى بتصريحاته ! ، لأن هذه التصريحات لم تلفت نظر أحد سوى جريدة الشعب المعارضة ، التي أرادت أن تصيد فى الماء العكر ، فكتبت خبرا فى الصفحة الأخيرة تحت عنوان مثير : « أنا برىء » ، الرئيس هو الذى اختار فاروق حسنى ! .

وقد أسقط كل من قرأ الجريدة هذا الخبر من حسابه تماما ، لأن مضمونه شئ وعنوانه شئ آخر ! ، ولم يبد لأى قارئ أن رئيس الوزراء يتبرأ بالفعل من اختياره لفاروق حسنى ، لأن الجريدة لم تملك الا أن تنشر نص كلام رئيس الوزراء ، وفيه قوله : « عندما استقر رأى على أننا نريد وزيرا جديدا للثقافة فكرت فى فاروق حسنى ، وقد رشحت للرئيس خمسة أسماء ، كان فاروق حسنى من بينهم ، وقلت للرئيس : إنه يتعامل معى منذ عام ١٩٧٣ ، وصفاته كذا وكذا ، فاختره الرئيس » . وهذا الكلام يؤكد ترشيح السيد عاطف صدقى للسيد فاروق حسنى ولا ينكره ، ولكن الجريدة تلاعبت فى الخبر ، مستغلة جهل الكثيرين بالفرق بين كلمة « ترشيح » وكلمة « اختيار » ، وكذبت فى العنوان ، فأضافت كلمة « أنا برىء » - التى لم يقلها السيد عاطف صدقى ! ، ثم تلت هذه العبارة الكاذبة بعبارة : « الرئيس هو الذى اختار فاروق حسنى » !

وقد نسيت الجريدة أن « الترشيح » هو حق السيد عاطف صدقى ، وأن « الاختيار » هو حق رئيس الجمهورية ، وأنه ليس من حق السيد عاطف صدقى أن يختار ، وإنما أن يرشح فقط !

فدستورنا رياسى ، ورئيس الجمهورية هو الذى يتولى السلطة التنفيذية وفقا للدستور ، كما يمارسها ، ويضع بالاشتراك مع مجلس الوزراء السياسة العامة للدولة ويشرفان على تنفيذها ، وهو الذى يغير رئيس مجلس الوزراء ونوابه والوزراء ونوابهم ، ويعفيهم من مناصبهم .

وفى هذا الضوء فاذا قال السيد عاطف صدقى أن رئيس الجمهورية اختار السيد فاروق ، وإنه هو الذى رشحه ، فإنه يكون قد تكلم كلاما دستوريا صحيحا ، أما اذا قال إنه هو الذى اختار السيد فاروق حسنى فإنه يكون قد تجاوز قدره واختصاصه ، ويكون معناه أنه أرغم رئيس الجمهورية على تعيين السيد فاروق حسنى ! .

أما مسألة ترتيب السيد فاروق حسنى فى نهاية القائمة ، فليس لذلك أى معنى سوى أن الأربعة السابقين هم أقدم منه فى تولى المسئوليات من أى نوع ، وهذا الأمر ليس له قيمة فى تعيين الوزراء ، وإنما له قيمة فقط فى تعيين رئيس مصلحة البريد أو رئيس أى مصلحة حكومية أخرى ! .

وهذا ينقلنا إلى معالجة النقطة التى بدأنا بها الكلام ، فمنصب الوزير هو منصب سياسى وليس منصبا اداريا . وقد كان سعد زغلول هو الذى أرسى هذه القاعدة لأول مرة بعد صدور دستور ١٩٢٣ ، حين عين نجيب الغرابلى أفندى وزيرا للعدل !

فعندما رشحه ، اعترض الملك فؤاد على اختيار « أفندى » وزيرا وتذرع بضعف مكانته وضخامة المنصب الوزارى على مثله ! . ولكن سعدا لم يقتنع ، وفرض تعيينه على الملك ، لأن تلك كانت مسئوليته بالفعل فى نظام دستورى الملك فيه غير مسئول : « ذاته مصونة لا تمس » ، وحطم بتعيينه القيم المظهيرية التى كانت للباشوات ! .

فاذا اختار الرئيس مبارك السيد فاروق حسنى وزيرا للثقافة ، وهو أصغر سنا وأقل شهرة ، فليس فى ذلك ما يعتذر أحد عنه ، لأن هو حق رئيس الجمهورية !

كما أنه ليس فى ذلك ما يستوجب من أحد الدفاع عنه ، لأن من حق رئيس الجمهورية أن يجرب دما شابا جديدا فى الوزارة ، خصوصا بعد أن دافع عن هذا الترشيح السيد عاطف صدقى، ويعد أن قدم - كما كتب الصديق إبراهيم سعده - وصفا تفصيليا رائعا لتاريخ فاروق حسنى الفنى والثقافى والابداعى ، وكيف أن اختياره لمنصب وزير الثقافة يطبق القاعدة المطلوبة التى تنادى بالرجل المناسب فى المكان المناسب .

ومعنى هذا الكلام أن ما قيل عن تبرؤ الدكتور عاطف صدقى من وزير الثقافة غير صحيح بالمرّة ، لأن هذا التبرؤ يكون فقط فى حالة ما اذا أنكر ترشيحه لاسم الوزير ، ولم يفعل ذلك رئيس الوزراء بل أكدّه ، بل دافع عنه وقال - حسب تصريحاته - إنه طاقة كبيرة ، وأنه حين كان مستشارا ثقافيا فى باريس حول المركز الثقافى من لا شىء إلى كل شىء! . أما اختيار الوزير فهو حق رئيس الجمهورية وفقا للدستور .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما هي المشكلة إذن ؟ هذا هو السؤال المحير حقا ، لأن الصديق إبراهيم سعده فى كلامه عن السيد فاروق حسنى لم يهاجم اطلاقا أعمال الوزير فى وزارته منذ توليه مسئولياتها ، وابل انصب على أمرين :

الأمر الأول ، الضجة التى ثارت عند اختيار الوزير،

والأمر الثانى ، الحجج التى أثّرت فى أثناء قيام تلك الضجة .

وكان من رأى الصديق إبراهيم سعده أن الضجة المذكورة لم تنته ، وإنما فقط - حسب تعبيره - « هدأت إلى حد ما » ! . وهو أمر غير صحيح ، لأن الضجة انتهت ولم يعد لها وجود ، وحل محلها الضجة التى ثارت عند إقالة الدكتور أحمد قدرى ، وسلسلة الضجات الأخرى حول نقابة الفنانين وغيرها ، واستلام دار الأوبرا الجديدة ، ودوامه العمل فى وزارة الثقافة .

أما الحجج التى أثّرت فى أثناء قيام تلك الضجة ، فقد رأى الصديق إبراهيم سعده أن تلك الحجج لم يفلح فى ازالتها أحد ! ، فعلى قوله : « فشل المدافعون والمتطوعون فى تحسين صورته (الوزير) وانقاده من الطعنات التى تحاصره من كل جانب » ! .

ولم يكن هذا صحيحا أيضا ، فقد اعتذر المرحوم عبد الرحمن الشرقاوى عما ساقه من اتهامات للوزير ، وكان تصدى الصديق أحمد بهاء الدين لتلك الاتهامات - بمنطقه القوى وحججه السديدة - مما

مضى نهائيا على تلك الحجج السقيمة ، ونسيها الناس ولم يعد يذكرها أحد

على أنه - فيما يبدو - فان الصديق إبراهيم سعده له رأى مخالف ، فهو ما زال يرى أن اختيار السيد فاروق حسنى كان « خطأ » ، ومن واجب عاطف صدقى أن يعترف بالخطأ الفادح الذى وقع فيه عندما جاء « مجهول » ! لا تعرفه الغالبية العظمى من كل من له علاقة بالثقافة المصرية، فيسارع ويطلب من فاروق حسنى أن يتقدم باستقالته من المنصب الذى لم يكن يحلم به فى يوم من الأيام ، بدلا من أن يفاجأ ماقالته بكل ما يحمله هذا القرار من اساءة » .

ثم يعود الصديق إبراهيم سعده فيتحدث مرة أخرى عن « الخطأ الهائل » - بعد « الخطأ الفادح » الذى وقع فيه رئيس الوزراء .

وفى الوقت نفسه يصف الصديق ترشيح فاروق حسنى لوزارة الثقافة بأنه كان : « رغم أنف ٩٩ فى المائة من المثقفين والأدباء والفنانين الحقيقيين » ! .

وبالنسبة للرأى الأول ، فمن حق الصديق إبراهيم سعده أن يرى فى السيد فاروق حسنى ما يراه ، وأن يحسن أو يسيء به الظن كما يشاء ، ولكن ليس من حقه أن يسحب هذا الرأى ليشمل الغالبية العظمى من كل من له علاقة بالثقافة المصرية » ! .

كذلك من حق الصديق إبراهيم سعده أن يرى أن السيد عاطف صدقى قد أخطأ «خطأ فادحا » أو « خطأ هائلا » بترشيح السيد فاروق حسنى ، ولكن ليس من حقه أن يدفع رئيس الوزراء إلى الاعتراف بهذا الخطأ الموهوم ، تحت افتراض أن رئيس الوزراء قد تنصل من مسئولية اختيار فاروق حسنى ، مع أن رئيس الوزراء لم يفعل أكثر من أنه حدد عباراته تحديدا دستوريا ، فنسب لنفسه الترشيح ، وهو صحيح ، ونسب الى رئيس الجمهورية الاختيار ، وهو صحيح ، ولو قال رئيس الوزراء

كلاما غير هذا ، لجانب الصواب ، ولانتحل لنفسه حقا لا يملكه بحكم الدستور .

أما ما أورده الصديق إبراهيم سعدة من أن ترشيح فاروق حسنى لوزارة الثقافة كان « رغم أنف ٩٩ فى المائة من المثقفين والأدباء والفنانين الحقيقيين » ، فقد ظننت لأول وهلة أن الصديق إبراهيم سعدة يمزح ! إذ منذ متى كان رئيس الجمهورية - سواء فى عهد عبد الناصر أو السادات أو مبارك - يأخذ رأى ٩٩ فى المائة من المثقفين والأدباء والفنانين الحقيقيين - أو غير الحقيقيين ! - فى تعيين وزير الثقافة ؟ .

اننى أسأل الصديق إبراهيم سعدة ، وهو أحد المثقفين الحقيقيين دون جدال ! هل أخذ رئيس الجمهورية رأيه فى تعيين أى وزير ثقافة فى أى وقت من الأوقات ؟

نعم ، منذ متى كانت أسماء المرشحين لتولى منصب الوزارة تطرح على أصحاب الاختصاص ، سواء كانوا قضاة بالنسبة لوزير العدل ، أو رؤساء جامعات وأساتذة بالنسبة لوزير التعليم العالى ، أو أطباء وصيادلة بالنسبة لوزير الصحة ، أو قادة جيش بالنسبة لوزير الحربية ، أو ضباط داخلية بالنسبة لوزير الداخلية .. إلى آخره ؟

نعم منذ متى ؟ وفى أى بلد من البلاد يحدث ذلك و حتى نقتنع بكلام الصديق إبراهيم سعدة ؟ .

ومنذ متى كان اختيار الوزير - منذ قيام ثورة يوليو المجيدة ! - يخضع لمثل تلك الحسابات ؟ . وفى أى دستور فى مصر منذ قيام ثورة يوليو عين الوزراء وفقا لهذه القاعدة الطريفة ؟ .

بل فى أى دستور فى إنجلترا أو فرنسا أو الولايات المتحدة كانت أسماء الوزراء - سواء كانوا وزراء ثقافة أو غيرهم - تطرح على الرأى العام قبل الاختيار ؟ .

ثم إن الصديق إبراهيم سعدة يتصور وزير الثقافة رئيسا للمثقفين ، مع أنه لا يوجد فى مصر من أقصاها إلى أقصاها من يمكن أن يطلق

عليه اسم رئيس المثقفين أو حتى شيخ المثقفين ! أو من يحظى باجماع يرشحه لمنصب وزير الثقافة لو كان التعيين في هذا المنصب بالانتخاب لا باختيار رئيس الجمهورية وفقا للدستور ؟

فالمثقفون في مصر ينتمون إلى تيارات فكرية عديدة تمتد من اليمين إلى اليسار . ترى لو اختير الدكتور فؤاد مرسى لوزارة الثقافة هل يقبل به الاخوان المسلمون أو الجماعات الاسلامية ؟ ولو اختير الشيخ الشعراوي لوزارة الثقافة هل يقبل الشيوعيون في حزب التجمع ؟ .

ان الثقافة لا يصنعها وزير الثقافة ، وانما يصنعها المثقفون ، ووزير الثقافة ليس رئيسا للمثقفين ، وانما هو وزير يضع كل طاقات وزارته ، وكل ما يملك من كفاءة وقدرة في خدمة الثقافة والمثقفين ، وهذا ما يجب أن يكون المفهوم الصحيح .

فاذا أضفنا إلى ذلك أن مهمة الوزير مهمة سياسية وليست مهمة فنية ، فان كل اعتراض على فاروق حسنى ، لو كان لأحد حق الاعتراض - وليس لأحد حق الاعتراض ! - بحجة أنه « فنان تشكلى » ، وأنه « مجهول لا تعرفه الغالبية العظمى من كل من له علاقة بالثقافة المصرية » - يسقط فوراً -

ذلك أن هذا الوزير « المجهول » ، لم يتأخر عن الاتصال بالمفكرين والكتاب والمثقفين ، بأكثر مما اتصل أى وزير آخر ولى وزارة الثقافة في تلك الفترة القصيرة . وحتى حين وضع سياسة عامة للوزارة ، لم يستأثر بالبت فيها ، بل أثر اشراك المثقفين فيها ، فعرضها عليهم لابداء رأيهم فيها ، وهو ما لم يفعله أى وزير ثقافة من قبل - في حدود علمى كمثقف . وليس عيباً أن يبدأ الانسان مجهولاً ، وانما العيب أن يظل مجهولاً ، وقد أنهى فاروق حسنى « مجهوليته » ! من المثقفين بسرعة فائقة ، وأصبح معروفاً بينهم ، ويحظى باحترام الكثيرين منهم .

أقول ذلك ، ولم يسبق لى أن عرفت السيد فاروق حسنى ، بل لعلنى كنت شديد الأسف لترك السيد الدكتور أحمد هيكى وزارة الثقافة ، وقد

اتصلت به تليفونيا بعد تركه منصبه ، وأبلغته برأى وهو أنه لم يخسر شيئا بترك المنصب ، وإنما المنصب هو الذى خسره . ولكنى ، بحكم كونى مؤرخا مفروضا فيه التروى فى الأحكام ، ادخرت رأى فى السيد فاروق حسنى حتى أتبين سياسته فى وزارته ، وقد وجدت فيه الجدية والحماس والأمانة والرغبة فى العطاء ، كما وجدت فيه التواضع والثقافة العالية ، فكونت رأى فيه على هذا الأساس .

ومن هنا حزنت لمقال الصديق إبراهيم سعدة ، لما وجهه من اهانات بالغة لوزير الثقافة ، لم أجد ما يبررها أو يسندها من سياسة ضارة ، أو أعمال لا تتفق مع الصالح العام ، ارتكبتها الوزير - وإنما كل ما تستند إليه ضجة ظالمة قامت عند توليه منصبه ، واستقبال ظالم لم يستقبل به وزير من قبل ، وحجج لم يشهد تاريخ تأليف الوزارات أسخف منها أثرت عند اعلان اسمه ، وبذاءات أهيلت عليه لم ترع خلقا ولا مبدءا . وقد كان هذا مقبولا من البعض عند حدوثه ، ولكن بعد أن أثبت الرجل بعمله أنه أكبر من تلك الحملة المدبرة ، وأنه يعمل لمصلحة بلده بتفان ، فلم يعد مبرر واحد لاستمرارها ، خصوصا على صفحات جريدة قومية من المفروض فيها أن تتروى قبل أن تفتح النار على وزير فى الحكومة ، أو قبل ان تفتح النار على رئيس الوزراء نفسه ! .

وكما ذكرت فى بداية المقال : هل يساوى منصب الوزارة فى مصر كل هذا الهوان ؟ هوان من صحف المعارضة ، وهوان من صحف الحكومة ، وهوان يصيب الوزير ، وهوان يصيب رئيس الوزارة ، وكل ذلك بدون أساس سليم وبدون أى مبرر !

إننى أكتب هذا الكلام ولست عضوا فى الحزب الوطنى ، ولست طرفا فى معركة ، ولكن يبدو أن هذه نعمة لم أكن أشعر بها من قبل ! فشكرا للصديق إبراهيم سعدة ، والحمد لله مسبق النعم !

الفصل الخامس
لعبة معارضة كامب
ديفيد في مصر

المعارضة وعيد تحرير سيناء*

هل يتصور القارئ العزيز أن يمر
عيد قومي ببلد من البلاد - حتى ولو
فى المريخ!- يحتفل فيه الشعب بتحرير
جزء عزيز من وطنه ، فلا يشارك فى
فرحته بتحرير هذا الجزء من الوطن
سوى حزب واحد من أحزاب المعارضة،
بينما يتجاهله ثلاثة أحزاب ، ويهاجمه
الحزب الرابع هجوماً ضارباً ؟ .

و حين يحدث ذلك فى بلد من البلد،
فماذا يكون رأى الشعب فى وطنية تلك
الأحزاب ، ومدى انتمائها لأرضها
وشعبها؟ ، ومقدار مصداقيتها فى
ادعاء التعبير عن مصالح الشعب ؟ بل
درجة فهمها لمعنى المعارضة فى نظام
ديموقراطى يسمح بحرية التعبير عن
الرأى الآخر ؟ .

ولكن هذا هو ما حدث تماماً فى
العيد السادس لتحرير سيناء ، إذ لم
يشارك الشعب فى فرحته بتحرير
أرضه سوى الحزب الحاكم ، وحزب

* اكتوبر فى ١٣/٥/١٩٨٤

معارض واحد ، بحكم تاريخه الطويل فى الوطنية وتأصيل معنى الديمقراطية ، وهو حزب الوفد ، أما أحزاب المعارضة الأخرى فقد بدا لها أن التحرير كان تحريراً لأراضى شعب آخر غير الشعب المصرى ! ، أو أن سيناء كانت جزءاً من الصين وليست من مصر ! ، أو أن قضايا التحرير لا تعنيها ولا تشغل نفسها أو برامجها بها ، وإنما تشغل نفسها بما هو أخطر من ذلك بكثير ، وهو المطالبة باقالة السيد زكى بدر وزير الداخلية ، أو السيد الدكتور محمد راغب دويدار ، وزير الصحة ، أو وزير البترول السيد عبد الهادى قنديل ، أو مهاجمة شركات توظيف الأموال لمجرد الابتزاز ثم الدعاية لها على نفس صفحات الصحف التى تصدرها ، أو اطلاق صيحات التحذير والويل والثبور وعظائم الأمور كلما ظهر انحراف هنا أو هناك ، رغم أن صحف الحكومة هى التى تسارع عادة باظهار هذا الانحراف ، ورغم أن الحكومة ذاتها هى التى تسارع باتخاذ الاجراءات لتصحيح هذا الانحراف ! .

هذا هو المستوى المنحدر للمعارضة فى مصر ، الذى وصلنا اليه فى هذا العصر العجيب ، بعد ثلاثين عاماً من الحكم الشمولى أنسى الناس معنى المعارضة الديمقراطية الحقيقية ، بعد أن كان معناها لمن يرتكبها زوار الفجر والسجن الحربى أو معتقلات التغذية .

وهذه هى الجريمة التى ارتكبها نظام حكم جثم على أنفاس الشعب المصرى لمدة ربع قرن باسم الثورة ، وأدخل الشرفاء السجون ، وارتكب أشنع الهزائم العسكرية ، وأسلم اسرائيل مفتاح البحر الأحمر عند مضائق تيران ، ثم أسلمها ٦٠ ألف كيلومترا الأراضى المصرية ، وهى سيناء ! .

وقصارى مايمكن قوله فى هذه المحنة التى سقطت فيها المعارضة ، أنه من حق الذين سكتوا وتخاذلوا ورقصوا عند احتلال اسرائيل سيناء أن يتجاهلوا الاحتفال بعيد خروج القوات الاسرائيلية من سيناء ! ، بل إنهم حتى لو شقوا الجيوب حزناً لمرور ست سنوات على خروج هذه

القوات من سيناء ، فسوف نفهم دوافعهم «الوطنية العميقة ، وسوف نحترم حزنهم ، فمن يفرط في أرضه بالتهاون العسكرى والتخاذل والتبرير ، من حقه أن يحزن في مناسبة انتهاء آثار هذا التفريط والتهاون، خصوصاً إذا جاء ذلك على يد غيره !.

بل يمكننا أيضاً - فى هذا الضوء - أن نفهم لماذا أصرروا على بطولة عبد الناصر بعد احتلال إسرائيل سيناء فى عهده ؟ ولماذا وصفوا محمد أنور السادات بالخيانة لأنه سعى لتحرير أرضه ؟ - لأن معانى البطولة فى أذهانهم مقترنة بالتفريط والاحتلال ، ومعانى الخيانة مقترنة بالتحرير والجلاء !.

بل نستطيع أيضاً أن نفهم لماذا غمضت وخرست ألسنتهم عندما سلم المناضل عبد الناصر سيناء لإسرائيل بعد حرب مهزلية لم يعرفها تاريخ الحروب الوطنية ، عندما وافق على انسحاب القوات المصرية من كامل سيناء فى اليوم التالى لحرب يونيو ١٩٦٧ ، رغم أن الخطة الاسرائيلية كانت تقوم على الوقوف عند المضائق !

وكيف جحظت أعينهم وفغرت أفواههم عندما حرر «الخائن»! السادات ستين ألف كيلو متر من سيناء ، وعجز عن تحرير كيلو مترا واحدا هو مساحة طابا ، فأحيلت اللجنة تحكيم !.

هذه الوطنية المقلوبة ، هى مشكلة تلك الأحزاب المعارضة الأولى ، بل هى أزمة هذه الأحزاب المعارضة ، وهى التى تشكك الشعب فيها وتجعله يشتبها فى بواعثها .

فمن قبل ، وقفت تلك الأحزاب موقفها المخزى من المبادرة ومن الجهود المستميتة لتحرير سيناء ، وكانت معارضتها لتحرير سيناء لا تقل حرارة عن معارضة إسرائيل والولايات المتحدة ! بل كانت تزيد تطرفاً عن معارضة بيجن والليكود !

وكانت حجتها المتهرئة المضحكة هي أن سيناء لا يجب أن تتحرر قبل الجولان والضفة الغربية وغزة !. وقد ضحك الشعب المصري من هذا الهراء ، وأدرك أن كمية الزيف في هذه الحجة لا تقل عن كمية التضليل، لأنه كان يعرف أن مصر لا تحكم الجولان أو الضفة الغربية وغزة ، ولم يسبق أن انتحلت لنفسها مسئولية تحريرها !

بل كان الشعب المصري يعرف أنه لو انتحلت مصر هذه المسئولية فسوف يهب في وجهها حافظ الأسد باسم حقوق سيادة سوريا على أراضيها ، ولقامت في وجهها منظمة التحرير الفلسطينية ، الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، تذكرها بشروطها لتحرير الضفة الغربية التي تتلخص في ألا يكون ذلك على حساب القضية الفلسطينية ، بمعنى ألا يكون الثمن القبول بحق إسرائيل في الوجود .

وقد أعلن أحمد الشقيري رفضه لدفع هذا الثمن علانية في مؤتمر الخرطوم حين سأل الرؤساء : «هل نحن مستعدون لدفع هذا الثمن الغالي في مقابل الضفة الغربية ؟ أنا كمواطن عربي وكرئيس (للمنظمة) أرفض دفع هذا الثمن وأعلن الآن أنني غير موافق» ! .

بل إن الشقيري رفض أن يكون للملك حسين (الذي كان قد ضم الضفة الغربية إلى الأردن بعد حرب ١٩٤٨ ، وكان مسئولا - بالتالي - عن تحريرها) أي حق في هذا التحرير يخالف شروط منظمة التحرير ، وقال بصوت مدو أمام الرؤساء :

«قبل أن أغادر هذه القاعة أقرر لكم بشكل قاطع ، باسم منظمة تحرير فلسطين ، أنه لا يوجد ملك أو رئيس دولة لديه تفويض بحل القضية الفلسطينية ، وإذا وجد مثل هذا الشخص فسيعتبر هذا تحولا خطيرا في قضية قومية لا تهم الجيل الحالي فقط ، لكنها مسئولية الأجيال المقبلة أيضاً» !.

لم تكن مصر - اذن - مسئولة عن تحرير الجولان والضفة الغربية وغزة ، بل لم تكن تملك حتى ابداء المشورة لحافظ الأسد وياسر عرفات!

أو حتى تستطيع التصرف فى قضية سيناء ذاتها دون أن تتلقى سيلا من السباب والبذاءة ! ،

بل انه حين قامت مصر بمباحثات الكيلو ١٠١ لتأمين الامدادات غير العسكرية إلى الجيش المصرى الثالث المحاصر على الضفة الغربية للقناة بالاضافة إلى مدينة السويس ، تلقت السخيرية من المزايدين، اذ كانوا يفضلون استمرار حصار الجيش الثالث ومدينة السويس لأى عدد من السنين على المفاوضات مع اسرائيل ! وهذا هو نفس منطق رفض تحرير سيناء قبل تحرير الجولان والضفة الغربية وغزة، الذى استمر بعد ذلك !.

ولو كان هناك موقف عربى موحد عند قيام السادات بالمبادرة ، أو خطة عسكرية موحدة للتحرير تضم مصر وسوريا ومنظمة التحرير وبقية البلاد العربية ، لتحرير الأرض المحتلة مرة واحدة : أى سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة - لأمكن القول بأن مصر خرجت على الاجماع ، وانسحبت من الخطة العسكرية الموحدة ، وانفردت بتحرير سيناء تاركة بقية الأراضى العربية المحتلة فى يد العدو ، ولكن المذهل أنه لم يكن ثمة شئ من ذلك !

فلم تكن ثمة خطة عسكرية موحدة ، ولم يكن هناك مجهود عربى موحد على مستوى قومى تموله البلاد العربية ! بل انه على الرغم من أن حرب أكتوبر قفزت بدخول الدول العربية البترولية إلى آفاق فلكية ، الا أن مصر كانت تتضور جوعاً ، وكان الموقف العربى متهزئاً وميئوساً منه ، ولم يحدث أن استشار زعيم عربى مصر قبل اتخاذ خطوة مصيرية تؤثر على الصراع العربى الاسرائيلى ،

وعلى سبيل المثال ، فلم يستشر حافظ الأسد محمد أنور السادات حين قادته أطماعه إلى غزو لبنان ، وأخرج جيشه من الصراع العربى الاسرائيلى ليدخل حلبة الصراع اللبنانى الفلسطينى السورى ، الذى مهد الطريق للغزو الاسرائيلى للبنان بعد ذلك .

فإذا جاء النصابون فى مناسبة تحرير سيناء يتجاهلون المناسبة، ويمتنعون عن مشاركة الشعب فى احتفالاته بتحرير الأرض ، التى أسلموها لقمة سائغة للعدو الاسرائيلى فى حرب مخزية هى حرب يونية ، فألا يحق لنا أن نسألهم :

ترى لو خضع السادات لمنطقكم المريض ، وعدل عن المبادرة ، وبقيت سيناء - كما هو الحال بالنسبة للجولان - تحت الاحتلال الاسرائيلى إلى الآن - هل كنتم تكونون أكثر سعادة ، أو تنتظرون إلى يونيو لتقوموا باحتفالات الهزيمة - وتسوقوا التبريرات وتقدموا الأعذار ، وتؤكدوا على زعامة عبد الناصر وخيانة السادات ؟.

وإذا صدرت جريدة «الأهالى» تتساءل : هل «حققت الاتفاقات التى جرى بمقتضاها الانسحاب الاسرائيلى الأهداف التى برر بها السادات توقيعها على هذه الاتفاقات ؟. فاننا نسألها بدورنا:

ألا يعتبر تحرير سيناء المصرية هدفاً كافياً لأى مفاوض مصرى يبرر توقيعها ؟.

وهل يحتاج هدف تحرير الأرض إلى أهداف جانبية تبرر الاتفاق عليه ؟.

وإذا كانت مصر بعد تحرير سيناء لم تحقق الأمن والاستقرار وحرية القرار ، فهل يعتبر تحرير الأرض هو السبب فى عدم تحقيق هذه الأهداف ؟

ولو كانت سيناء ما تزال تحت أقدام الاحتلال الاسرائيلى ، هل كان يتحقق لمصر الأمن والاستقرار وحرية القرار ؟ .

بل نذهب إلى أبعد من ذلك فنسأل :

هل كانت حرية القرار تتوفر لمصر بشكل أفضل لو كانت سيناء تحت الاسرائيلى حتى الآن ؟

، حرية القرار لمصر فى عهد عبد الناصر وسيناء تحت
رائلى؟ هل استطاع أن يمنع ضرب مصنع أبى زعبل أو
لبقر؟ وهل استطاع أن يحمى سماء مصر الا بقوات
ط فى مصر ، وطائرات سوفيتية يقودها طيارون سوفيت
صر؟

لسوفيتيت تقديم هذه المعونة ، ورفضوا تقديم الصواريخ
ية لبناء حائط الصواريخ ، أين كانت تذهب حرية القرار
عبد الناصر؟ وهل يكون أمامه طريق آخر غير التسليم
يل لسيناء ، أو الاستسلام للأمريكان لاجبار اسرائيل على
وتراه كان سيعتمد على حافظ الأسد (الذى ترك عبد
حرب الاستنزاف وحده ولم يشرك سوريا فيها) لكى يحرر
يسلم هذه المهمة لمنظمة التحرير الوطنى الفلسطينية؟.

، دولة على ظهر الأرض تجثم على أرضها قوات احتلال
رية القرار بأكثر مما تملكه دولة لا تقبى على أرضها قوات
أين هى حرية القرار المطلقة لأى دولة من دول العالم الثالث
سبريالية والاستقطاب؟ . هل تملك العراق أو ايران حرية
حرب بينهما ، بعد أن تحولت هذه الحرب إلى لعبة فى يد
، تتحكم فيها بواسطة تجارة السلاح؟ .

بفضل حزب التجمع : مصر التى مازالت سيناؤها تحت
برائلى سواء بأوضاع عهد عبد الناصر أو بأوضاع عهد
م مصر التى تحررت سيناؤهم حتى ولو تحقق الأمن
.

ت مصر الأمن والاستقرار منذ حرب يونية ١٩٦٧ حتى
من الخداع والتضليل نسبة هذا الوضع إلى تحرير سيناء ،
ذا التحرير بحجة أنه لم يحقق الأمن والاستقرار؟ ان الأمن

والاستقرار مرتبطان بالأوضاع والاقتصادية والاجتماعية ، ولم تكن هذه الأوضاع في عهد عبد الناصر ، ومصر تنفق عشرة آلاف مليون دولار على المجهود الحربي ، بأفضل منها ومصر محررة ، تصنع السلاح وتساعد به العراق ودول الخليج في وجه الخطر الإيراني .

ومن ناحية أخرى: أي دور كان يمكن لمصر أن تلعبه وسينائها تحت الاحتلال الاسرائيلي ؟ هل يرى عباقرة الرفض من ثوار الكلام أن مصر قبل استرداد سيناء أقوى أو مصر بعد استرداد سيناء ؟ .

وإذا كانت مصر بعد استرداد سيناء أقوى - وهو ما لا يستطيع مكابر أن يجادل فيه - فهل من الوطنية مهاجمة وضع مصر الأقوى ، وتضليل الجماهير بالقول بأن تحرير سيناء لم يحقق لمصر فائدة ؟ .

واليس من التناقضات في موقف «الأهالي» أن تهاجم تحرير سيناء بينما تبدى في نفس الوقت أسفها المصطنع لأن سيناء عادت منزوعة السلاح منقوصة السيادة ؟ .

فهل كان على المصريين رفض خروج القوات الاسرائيلية من سيناء الا بشرط عودة سيناء إلى أوضاع ما قبل هزيمة يونيو؟- كما يفعل بعض المعتوهين في العالم العربي الذين يؤثرن أوضاع الاحتلال الاسرائيلي الجولان والضفة الغربية وغزة على تحريرها مقابل تنازلات؟.

ترى هل تعتمد «الأهالي» على العقيد القذافي لتحرير سيناء ، كما يعتمد عليه النصابون الآخرون في تحرير مصر من حكم الحزب الوطني؟ تمهيداً لتحرير الجولان والضفة الغربية وغزة !.

والأ يعد من التضليل تحميل مصر المسؤولية عن عدم تحقيق شعب فلسطين حقوقه المشروعة في تقرير المصير وانشاء دولته فوق ترابه الوطني ، وقد رفضت منظمة التحرير الفلسطينية مبادرة السلام ، ورفضت مقاعدها في فندق مينا هاوس ، وخرجت تتهم السادات بالخيانة والسعي إلى حل منفرد مع اسرائيل ، ووصف ياسر عرفات بمبادرة

القدس بأنها «خيانة عظمى للأمة العربية والقضية الفلسطينية» ، وأن السادات «وجه ضربة قاتلة للفلسطينيين تعادل اقامة دولة اسرائيل عام ١٩٤٨» .!

ترى ماذا كان فى وسع السادات غير استخلاص سيناء من يد العدو الاسرائيلى ، ثم يترك للمنظمة استخلاص الضفة الغربية وغزة بطريقتها الخاصة - أى بدون تقديم تنازلات !.

بالله أيها السادة ، لكم أن تحزنوا لتحرير سيناء كما تشاءون ، ولكن أن تذرفوا دموع التماسيح على سيادتها المنقوصة ! ولا تطلبوا من شعبنا أن يصدقكم فى ادعاءاتكم ، لأنه يعلم أنه لو كان الأمر فى أيديكم - كما كان فى أيديكم فى حرب يونية ١٩٦٧ ! - ولو لم يرزق الله مصر بالسادات لبدأ مسيرة التحرير بحرب أكتوبر المظفرة ، ويكملها بالمبادرة المجيدة ، ثم يأتى بعده محمد حسنى مبارك لينجز مهمة التحرير ، ويستخلص سيناء تماماً من يد العدو - لما تحررت سيناء إلى اليوم ، ولبقى احتلالها رمزاً دائماً لافلاس ثورتكم وعجزها المخزى فى مجال التحرير !.

الوطنية والعمالة بين عهدى عبد الناصر ومبارك *

فى خطاب الرئيس الراحل جمال
عبد الناصر ، فى مناسبة الاحتفال ببدء
تنفيذ السد العالى ، يوم ٢٦ نوفمبر
١٩٥٩ ، شرح للشعب الأسباب التى
دفعته إلى عدم السماح بتعدد الأحزاب
وإلى فرض ديكتاتورية ثورة يوليو ،
فقال:

إن نظام تعدد الأحزاب إنما هو نظام
«كانت تستغله الدول التى تريد أن
تضعنا فى داخل مناطق نفوذها» ، «ولم
تكن له إلا نتيجة واحدة ، وهى تسهيل
النفوذ الأجنبى» . وإِنَّه إذا سمح بتعدد
الأحزاب ، «فإن الأحزاب الرجعية
ستعمل على الانحياز للغرب ، ولا مانع
عندها من أن تستعين بأى قوى أجنبية
لتقوى من قدرتها على الوصول إلى
الحكم لتحكم مصالحها» ، وأما
الأحزاب الشيوعية ، التى تنادى
بالانحياز إلى الشرق ، فستعمل بكل
وسيلة على الوصول إلى الحكم لتقيم

* أكتوبر فى ٢٥/٥/١٩٨٦

ديكتاتوريتها ، ثم تتعامل مع الشيوعية الدولية ، «وهذا طبعاً» - كما قال -
«يدخلنا ضمن مناطق النفوذ ، وتضيع العناصر الوطنية» .

ومعنى هذا الكلام أن الزعيم الوطنى الكبير لم يتصور إمكانيات وجود قوى معارضة شريفة فى مصر ! وإنما فقط قوى عميلة تستعين بالقوى الأجنبية للوصول إلى الحكم وحماية مصالحها . مما يؤدي إلى ضياع العناصر الوطنية ، ومن هنا أثر حماية العناصر الوطنية عن طريق عدم إتاحة الفرصة للقوى العميلة للوجود .

فى ذلك الحين كان الصراع فى المنطقة العربية يبدو صراعاً بسيطاً يفرز القوى الوطنية من القوى الاستعمارية ، وفى جانب كانت توجد القوى الاستعمارية ، وفى جانب آخر كانت توجد القوى المكافحة للاستعمار ، ولم تكن القوى المكافحة للاستعمار قد انقسمت بعد ، وكونت أحلافاً وتكتلات متصارعة متحاربة ، يسعى كل منها إلى اجتذاب الأنصار والمؤيدين فى المعسكر الآخر بالإقناع ، أو شرائه - عند اللزوم - بالمال !.

نعم لم تكن القوى المكافحة للاستعمار قد انقسمت إلى الكتل الحالية فى العالم العربى ، كتلة يتزعمها العقيد القذافى والرئيس حافظ الأسد ، وكتلة تضم مصر والأردن والمنظمة ، وكتلة تضم المملكة العربية السعودية ودول شبه الجزيرة والخليج ، وإلى جانب هذه الكتل الرئيسية توجد دول تدور فى فلكها ، أو تحاول الاستقلال عنها !.

وإلى جانب هذه الكتل أيضاً توجد تقسيمات أخرى تشتمل على ، أو تقطع من الكتل الأخرى ! فهناك مجموعة الدول العربية التى قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع مصر ، ومجموعة الدول التى تساند إيران ضد العراق ، وتضم سوريا وليبيا ، ومجموعة الدول العربية التى تساند العراق !. وهناك مجموعة الدول التى تنتمى للمعسكر الغربى ، ومجموعة الدول التى تنتمى إلى المعسكر الشرقى !.

ومن هنا ، فلعل عبد الناصر لو كان حيا الآن ، لوجد الكثير من الأسباب التى تدعوه إلى التمسك برفض نظام تعدد الأحزاب ! خوفا على العناصر الوطنية من القوى المعارضة ، العميلة لهذه الكتلة أو غيرها! أو لهذه المجموعة أو غيرها ، فضلا عن الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى ، بكل إمكانياتهما على شراء الأنصار والعملاء !.

وسوف يحكم التاريخ على من كان منهما أكثر حصافة وفهما للعبة السياسية : عبد الناصر أم حسنى مبارك ؟ . فمنذ أيام قلائل تعرض الدكتور بطرس غالى لهجوم شرس وبذىء وصل إلى حد تذكيره بمصير قريبه الدكتور بطرس غالى ! الذى قتل على يد إبراهيم الوردانى يوم ٢٠ فبراير ١٩١٠ - بكل ما فى ذلك من إيحاء ! - بل وصل الأمر إلى حد المطالبة بمقاطعة الدكتور بطرس غالى مقاطعة شعبية !

ولم يكن السبب فى هذا الهجوم هو أن الدكتور بطرس غالى قد تجاوز حدود السياسة الخارجية التى ترسمها دولته ، أو لأنه خان المصالح القومية العليا التى رسمتها السلطة الشرعية المنتخبة بإرادة الشعب الحرة الطليقة ، أو لأنه خرج على الإجماع الشعبى الذى عبر عن نفسه بكل وسائل التعبير المتاحة ، أو لأنه كان عميلا لدولة أخرى ، أو كان ينفذ سياسة حاكم آخر ! وإنما وقع هذا الهجوم لأن الدكتور بطرس غالى - بوصفه وزير الدولة للشئون الخارجية فى الحكومة المصرية - كان يؤدى واجبات وظيفته تماما .

فقد كان ينفذ سياسة الحكومة التى هو عضو فيها ، ويعمل وفقا للمصالح القومية التى رسمها رئيس دولته ، وكان ينفذ مهمة كلف بها من قبل حكومته وليست أية حكومة أخرى ، وهى حضور حفل أقامه قسم العلاقات الدولية لحزب المابام الإسرائيلى الحاكم فى إسرائيل ، ثم عبر فى مجلس الشعب عن سياسة حكومته وموقفها تجاه العدوان الأمريكى على ليبيا وهى السياسة التى تعبر عنها هذه الحكومة علنا بالقول أو سرا بالفعل - وهى سياسة التأييد للشعب الليبى وسياسة العداء للنظام الليبى

وتمنى زواله ، إن لم تكن المساعدة على زواله بكل الوسائل ! ولأنه تحدث عن الإرهاب الليبى .

ولست أظننى نصير للسياسة الأمريكية الخارجية ، أو نصيرا للاعتداءات الأمريكية على بلاد العالم العربى أو العالم الثالث ، بل إننى نبهت مراراً وتكراراً ، وفى كل مجال ، إلى أن العدو الرئيسى للأمة العربية هو الولايات المتحدة زعيمة الإمبريالية العالمية - بحكم مصالحها التى تتناقض أساساً مع مصالحه ، وبحكم صناعة السلاح فيها التى تعمل على إبقاء النيران متقدة فى هذه المنطقة إلى الأبد .

وبالتالى ، فإن إسرائيل هى عدو فرعى ، يمكن تغيير موقفه عن طريق إيجاد وتنمية مصالح مستقلة فيه تربطه بالعالم العربى ، والاستفادة من قوى السلام المتنامية فيه التى مارست ضغوطها حالياً فى الانسحاب من سيناء ومن لبنان ، وتمارس ضغوطها فى حل مشكلة طابا وحل القضية الفلسطينية والأراضى العربية المحتلة .

ومن هنا ، فقد أعلنت تأييدى لسياسة الحكومة المصرية تجاه إسرائيل ، التى رأيت أنها سياسة تتفق تماماً مع مصالح الشعب المصرى ، فى ظروف التمزق وانحطاط الأوضاع العربية حالياً ، وعدم وجود بديل سوى تهويشات القذافى وغيره من الحكام العرب الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويحاربون بالتصريحات !.

وفى هذا الضوء ، والسياسة المصرية الخارجية تجاه إسرائيل تتفق مع مصالح الشعب المصرى ، وتلقى تأييده - لأنه يعرف أنها السياسة العملية التى تناسب هذه المرحلة من مراحل النضال العربى - وفى هذا الضوء أيضاً والعلاقات بين السياسة المصرية ومنظمة التحرير لفلسطينية بهذه الدرجة من القوة ، وهى الممثل الشرعى الوحيد لشعب فلسطين الذى يلقي عنقا وعداء من نظام القذافى ونظام حافظ الأسد ، وفى هذا الضوء أيضاً والدكتور بطرس غالى يمثل وينفذ السياسة المصرية التى ترسمها الحكومة المصرية ، أيا كان رأى بعض فرق

المعارضة فيها - فهل يمكن القول بأن أسلوب الهجوم الشرس الذى شنته هذه الفرق على الدكتور بطرس غالى ، يمثل ظاهرة صحية من صور الديمقراطية ؟

هل كانت تلك الفرق من فرق المعارضة تتوقع أن يتصرف الدكتور بطرس غالى كوزير للدولة للشئون الخارجية فى الجماهيرية الليبية؟ وإذا كان ينفذ سياسة مصر لا ليبيا ، فما هى الخيانة التى ارتكبها والتى يستحق عليها مقاطعة شعبية ؟

أليس هذا هو المأزق الديموقراطى الذى نعيشه الآن ؟ والذى كان عبد الناصر يتنبأ به : أن تنطق المعارضة بلسان قوى غير مصرية ، ويطلق صوتها على صوت النظام الذى يحكم ، فتقلب الأوضاع ، وتصبح هذه القوى التى تنتهج سياسة حاكم غير مصرى هى القوى الوطنية الشريفة!، وتصبح القوى التى تنتهج سياسة الحاكم المصرى قوى عميلة خائنة تستوجب المقاطعة الشعبية ، حتى ولو تمثلت فى شخص وزير الدولة للشئون الخارجية ؟ .

وأليس هذا هو التفكير الانقلابى بأجلى معانيه ؟ . ألا يساوى هذا ، القول تماما بأن هذا النظام السياسى الشرعى الذى يحكم البلد قد انفصل عن شعبه ، وأن هذا الشعب قد تحول بولائه إلى حاكم عربى آخر مجاور يعبر عن مصالح هذا الشعب بأكثر مما يعبر عنها النظام الذى يحكم مصر ؟

وأليس هذا هو الإرهاب الفكرى السافر ، أن يعامل المواطن ، ناهيك عن الوزير الذى يتصرف فى إطار سياسة حكومته الخارجية وعلاقتها السياسية مع الدول ، معاملة الخائن الذى يُطلب إلى الشعب مقاطعته ، بينما يعامل المواطن الذى يدين بولائه لسياسة حكومة غير حكومته معاملة الوطنى الشريف الغيور ؟ .

وإذا كان على وزراء مصر أن يتبرعوا من سياسة حكومتهم ويخجلوا منها تحت ضغط هذا الإرهاب الفكرى ، أفلا تكون تلك القوى المعارضة

قد أحدثت بالفعل انقلاباً صامتاً فى نظام الحكم لصالح دولة عربية مجاورة ؟ .

وإذا مس هذا الإرهاب الفكرى كاتباً سياسياً وصحفيّاً كبيراً مثل الأستاذ موسى صبرى ، الذى سارع إلى تبرئة نفسه من الالتقاء بالدبلوماسيين الاسرائيليين فى القاهرة كما اتهمته إحدى الصحف المعارضة ، رغم أن الصحيفة لم تتهمه بالالتقاء مع هؤلاء الدبلوماسيين للتأمر معهم على مصلحة البلاد ، وإنما فقط مجرد الالتقاء !، ورغم ما يعرفه من وجود علاقات دبلوماسية بين مصر وإسرائيل - أفلا تكون تلك القوى قد بلغت القمة فى الإرهاب الفكرى ، وهل يكون أمام أى فرد آخر سوى الإفلات بجلده من هذا التشهير ؟.

وإذا استقر أن المواطن الذى يتبع سياسة حكومته يُعد خائناً يُشهر به، وعليه تبرئة نفسه أمام رأى العام ، وأما المواطن الذى يتبع سياسة دولة عربية مجاورة فهو مواطن وطنى شريف ! ، فهل يلوم النظام الحاكم فى مصر نفسه إذا فقد الأرضية الشعبية التى يستند إليها فى سياسته الخارجية ؟ وأيضاً إذا تفرق من حوله الأنصار والمؤيدون بعد أن فقدوا الثقة به .

وفى أى بلد من البلاد العربية - غير مصر - يعد الانتماء للسياسة التى ترسمها السلطة الشرعية الدستورية خيانة تستوجب التشهير والقصاص ، ويعد الانتماء للسياسة التى ترسمها سلطة خارجية منتهى الوطنية والشرف والفداء ؟ .

وإذا كان الالتقاء بالدبلوماسيين الاسرائيليين أو التفاوض معهم خيانة تستوجب المقاطعة الشعبية ، فكيف يكون الالتقاء بالدبلوماسيين الأمريكين والتفاوض معهم عملاً شريفاً ، تزاوله المعارضة والحكومة على السواء ؟ .

أليس هذا هو قلب الأوضاع الغريب في حياتنا السياسية ، أن تكون العلاقة مع العدو الرئيسى مباحة ، وتكون العلاقة مع العدو الفرعى محظورة إلى درجة التحريم والتجريم ؟ . وأن تكون زيارة واشنطن عملاً مشروعاً ، بينما تكون زيارة تل أبيب عملاً ممنوعاً ؟ !.

ولقد سألت نفسى هذا السؤال . فقد زرت واشنطن ، عاصمة الامبريالية العالمية ، ورفضت أن أزور تل أبيب! لا لأنى غير مقتنع بزيارة دولة تربط دولتى بها علاقات دبلوماسية ، ولا لأنى أكثر وطنية ممن زاروا تل أبيب من سياسيين ومفكرين مصريين ، ولا لأنى مقتنع بالمقاطعة فى العمل السياسى ، ولا لأن السبب هو استمرار اعتداءات إسرائيل على الأراضى العربية - لأن اعتداءات الولايات المتحدة لم تتوقف على البلاد العربية ! - ولا لأن العداء التاريخى بين الشعوب لا يمنع لقاءها وتفاوضها ، كما أن العداء بين النظم الأيديولوجية لا يمنع اتصالاتها ومحاولة حل مشاكلها - وإنما لأنى لم أستطع نفسياً فحسب ! .

ولكنى لم أكف عن الاعتقاد بأن تعامل الدول العربية المقاطعة لمصر ، وتعامل القوى المعارضة فى مصر مع الولايات المتحدة ، وعدم تعاملها مع إسرائيل ، هو نفاق ، ومغالطة تاريخية ، وأنه لولا تعامل السادات مباشرة مع إسرائيل ، لكانت سيناء ما تزال فى إنتظار قوات التحرير ، فى أسوأ الظروف بالنسبة للإمكانيات العسكرية ، لأن السلاح الأمريكى هو آخر سلاح يحرر سيناء ، بعد أن فقدت مصر مصدر السلاح السوفيتى بعد حرب أكتوبر !.

سياسة بعض القوى المعارضة - إذن - التى تخون من يتبع سياسة السلطة الشرعية الدستورية ، وتشن ضده أشنع الهجوم - حتى ولو كان وزير الخارجية نفسه ! - وتعالى فى الوقت نفسه من شأن الخارجين على السياسة الخارجية للدولة ، والذين يتبعون سياسة دولة عربية مجاورة - هى سياسة مغالطة خطيرة ، تفسد ضمير الأمة ، وتميع المفاهيم والقيم فى ذهن الشباب ، وتخلط معايير الوطنية والخيانة ، والولاء والعمالة !.

فالأمر الذى يجب أن تفهمه هذه القوى هو أنها لا تقدم بديلاً لشعبنا عن السياسة الواقعية التى تخطها حكومتها ، غير ما يخطه العقيد القذافى من سياسة تجاه الصراع العربى الإسرائيلى ، وهذه السياسة لم تحرر أرضاً ، ولم تفعل شيئاً أكثر من العداء لمنظمة التحرير الفلسطينية ومحاولة ضربها وتصفيتها ، أو العداء للعراق العربى فى صراعه مع العدو الإيرانى ، أو الاعتداء على الدول العربية المجاورة التى لا تشاطره سياسته ، أو متابعة الخصوم السياسيين بالإرهاب ، أو صرف النظر عن القضايا الأساسية التى تهم الأمة العربية ، وشغلها بالقضايا الفرعية ، أو استفزاز الامبريالية العالمية فى أسوأ الظروف التى تمر بها الأمة العربية ، وإطلاقها من عقالها ، بعد أن كبحتها زمناً ما حركات التحرير الوطنى فى العالم الثالث ، مما أدى إلى تعرض الشعب الليبى الشقيق لاعتداء منكر دفعت الأمة العربية كلها ثمنه خزيًا وعاراً ، لأنها لم تستطع له دفعا ، رغم ما تملك من سلاح ومال !.

أما إذا وصلت هذه القوى المعارضة إلى حد احتكار الشرف والوطنية ، واتهام القوى الوطنية التى تساند سياسة السلطة الشرعية الدستورية بالخيانة والتفريط ، فإنها تكون قد قادت إلى تلك المفارقة التى تحدث عنها عبد الناصر ، عندما تحدث عن حماية العناصر الوطنية المساندة للسلطة الشرعية الدستورية من القوى المعارضة العميلة للقوى الخارجية ،

ولست أطالب الرئيس حسنى مبارك باتباع سياسة عبد الناصر - الزعيم المعبود لتلك القوى - فى حظر تعدد الأحزاب ، فقد تغير النظام الاقتصادى الذى كان يتيح هذا الحظر ، وإنما فقط أردت أن أنبه ، وأن أرصد هذه الظاهرة الخطيرة ، والخطرة معا ، فى حياتنا السياسية ، ليس فقط من موقعى ككاتب سياسى ، وإنما أيضا من موقعى كمؤرخ .

اللعبة السياسية الردئية *

كلما قرأت بيانات حزب التجمع
التي تصدر كل عام فى ذكرى توقيع
اتفاقيات كامب ديفيد ، أتذكر على الفور
قصة الدجاجة والمقص !

وتتلخص فى أن أحد الحكام أراد
اختبار شخص سمع بأنه خرج عن
صوابه ، فسأله عما اذا كانت الدجاجة
تذبح بالسكين أم بالمقص ؟ . فأجاب بأنه
بالمقص ! وحتى يرد اليه صوابه أمره
بأن يغرق نفسه فى النيل اذا لم يعدل
عن رأيه . وظن الناس أنه سوف يعدل
عن هذا الرأى حين يشعر ببرودة الماء
تلمس جسده ، واذا بهم يرونه تحت
الماء يرفع يده فوق السطح ، ويحرك
أصبعيه السبابة والوسطى بحركة
المقص ، اعلانا بتمسكه برأيه حتى وهو
يغرق !.

وحين قرأت بيان حزب التجمع عن
كامب ديفيد منذ أيام (الأهالى فى ١٤
سبتمبر ١٩٨٨) شعرت بأن الحزب

* اكتوبر فى ١٩٨٨/١٠/٢

يفعل ما فعله ذلك الرجل تماماً ، وأن برودة العزلة عن الجماهير وهو يغوص في النسيان ، لم تقنعه بالعدول عن رأى اتخذه فى وقت ما حين كانت الرؤية أمامه غائمة ، ولكنه - عناداً منه - يتمسك به بعد أن اتضحت الرؤية ولم يعد له عذر واحد فى هذا التمسك .

فها هو التجمع بعد أن غيرت كافة القوى السياسية المحلية والعربية والعالمية رأيها من مبادرة السلام ، فأعادت الدول العربية علاقتها الدبلوماسية مع مصر ، وأعاد الاتحاد السوفيتى علاقاته الطبيعية مع مصر ، وأعادت منظمة التحرير علاقاتها مع مصر ، بل بعد أن أسقطت منظمة التحرير - وهى الممثل الشرعى الوحيد للفلسطينيين - صيغة المقاطعة الفاشلة التى أسقطت القضية الفلسطينية فى هوة ليس لها قرار، وأعلنت استعدادها للاعتراف بإسرائيل ، والتفاوض معها ، والاقرار بحقها فى الحصول ضمانات أمنية فى حال قيام الدولة الفلسطينية ، بل بعد أن أعرب ياسر عرفات فى ختام مؤتمره الصحفى الذى عقده بمدينة ستراسبورج يوم ١٤ سبتمبر ١٩٨٨ عن أطيب تمنياته للإسرائيليين بمناسبة العام العبرى الجديد! - هاهو التجمع يرفع يده من تحت الماء ويحرك أصبعيه حركة المقص تمسكا برأيه القديم !

وهكذا يقف التجمع فى نفس الخندق مع حاكم عربى واحد لا يحسن العالم العربى أو العالم الخارجى الظن كثيراً به ، وهو العقيد القذافى . فحتى الامبراطور المشرقى حافظ الأسد يعقد الاتفاقات السرية مع اسرائيل لاختضاع الشعب اللبنانى خارج حدوده ، واختضاع الشعب السورى داخل حدوده ، وتأمين نظام حكمه الذى يفوق حكم أتتلا ملك الهون ظلاماً وظلاماً ووحشية .

وحزب التجمع حرق فى اتخاذ الموقف الذى يراه ، وفى التمسك بالرأى الذى سبق أن أبداه ، فليس هذا هو مجال المحاسبة ، وإنما المحاسبة عن المغالطات التاريخية التى حفل بها بيانه السالف الذكر ، والتى وردت فى بيان قاداته وزعمائه الذين أكن لهم الاحترام .

فمن حق التجمع أن يتحدث عن انقلاب السادات على ثورة يوليو ، أو اعادته سيطرة رأس المال على مصر ، لأن هذا أمر حقيقى ، ولأن إعادة سيطرة رأس المال هى خطيئة السادات الكبرى - ولكنه يغالط مغالطة مكشوفة ، تكلفه مابقى من مصداقيته لدى الجماهير المصرية ، حين يتحدث عن مقاومة الشعب المصرى لاتفاقيات كامب ديفيد ، ويدعى وجود «اجماع وطنى مصرى» على رفضها فى الماضى أو الحاضر !.

فهو فى ذلك يساير ادعاءات القذافى ، الذى يتصور أن الشعب المصرى برمته ضد اتفاقيات كامب ديفيد ، ويبنى على ذلك دعوته المتكررة له بالثورة عليها وعلى النظام ، وتكون النتيجة أن يضحك الشعب المصرى ويسخر من هذا الكلام !.

على أن هذا الكلام المغلوط - وهو ما يهمنى - يشكل فى الوقت نفسه ادانة غير مباشرة للشعب المصرى ! لأن الجميع يعرفون أن الشعب المصرى قد أيد مبادرة السلام ، وأيد اتفاقيات كامب ديفيد ، وأيد المعاهدة المصرية الاسرائيلية ، وأنه ما زال على موقفه هذا الذى لم يتغير. ومثل هذه الادانة مرفوضة تماما ، لأن الشعب المصرى لم يرتكب بهذا التأييد ذنبا ، وانما حرر أرضا ، حرر أرضه وترابه المقدس ، حرر سيناء، ورفع وصمة الاحتلال الاسرائيلى عن ٦٠ ألف كيلو متر مربع من سيناء كان يمرح فوقها الحذاء الاسرائيلى جيئة وذهاباً !

وهذا الحذاء الاسرائيلى لم يجلبه السادات ، وانما جلبته هزيمة عسكرية فادحة المسئول عنها ثورة يوليو . ومن المفروض ، والمطلوب أيضاً ، أن تعاقب عليها أمام التاريخ ، حتى لا يفلت الجناة فى المستقبل . مما يلحقونه بالوطن من كوارث ونكبات ونكسات .

ومن هنا ، حين يحاول البعض الزعم بأن الشعب المصرى كان ضد كامب ديفيد ، فانه يخدم أوهامه فقط ، ولكنه لا يخدم الشعب المصرى . وهو يحاول تبرئة نفسه باثبات صحة موقفه الخاطئ ، ولا يسعى لتبرئة الشعب المصرى الذى كان موقفه صحيحاً منذ البداية .

وهذا ما يجب أن يتوقف فوراً ، فليس من حق أحد يزيّف التاريخ المصرى ، ويزعم - كذباً - أن الشعب المصرى وقف موقف المقاومة ضد مبادرة السلام وضد اتفاقيات كامب ديفيد وضد المعاهدة الاسرائيلية ، ليصل إلى غاية خبيثة هى ايهام الشعب المصرى بأن موقفه المؤيد للسلام والاتفاقيات والمعاهدة كان جريمة يجب اخفاؤها ، بينما الجريمة الحقيقية كانت فى موقف المعارضين ، لأنهم عارضوا فى تحرير سيناء بحجة أن تحرير كل الأراضى العربية يجب ان يتم فى وقت واحد، بينما كانوا يعلمون عن يقين أن الموقف العربى كان متهرئاً وممزقاً ، ولم يكن يسمح بمثل هذا التحرير الشامل المزعوم .

وهذا ما أدركه السادات بوضوح ، وأدركه الشعب المصرى بذكاء ، وهو ما أثبتته الأحداث أيضاً بعد ذلك . فلم تتحرر أى أرض عربية من الاحتلال الاسرائيلى - حتى لحظة كتابة هذه السطور - غير سيناء ، بينما بقيت الجولان وغزة والضفة الغربية محتلة ، ولم نر أى اجماع عربى على خوض معركة ضد اسرائيل لتحرير هذه الأراضى ، بل رأينا القوات الاسرائيلية تغزو لبنان فى وجود القوات السورية دون أن تحرك ساكناً ضدها ، وفى الوقت الذى لم يفكر حافظ الأسد فى تحرير الجولان، فانه فكر فى احتلال لبنان؟ وفى الوقت - أيضاً - الذى لم يرفع فيه سلاحاً فى وجه أى جندى اسرائيلى ، فانه رفعه فقط فى وجه اللاجئين الفلسطينيين فى المخيمات .

ومن هنا كان يتأكد للشعب المصرى فى كل يوم صدق حدسه ، وصواب حكمه ، وسلامة وعيه السياسى ، لأنه استخلص سيناء بجهد الفردى دون حاجة لشريك ثقيل يقيد تحركه ، أو يحاول أن يفرض عليه وصايته ، أو يسعى لا حراجه.

وهو ما حدث فى أثناء حرب أكتوبر ، حين كانت مصلحة الجيش المصرى تكمن فى التزامه بخطة البقاء فى حماية مظلة حائط الصواريخ ، بينما كانت مصلحة الجيش السورى تكمن فى خروجه من تحت المظلة،

والاندفاع إلى المضايق في العراق تحت القصف الاسرائيلي . وكانت نتيجة هذا الاحراج هجوم يوم ١٤ أكتوبر المشؤوم الذى فقد فيه الجيش المصرى مائتين وخمسين دبابة فى يوم واحد !.

نعم أثبتت الأيام سلامة موقف الشعب المصرى ، وانضم اليه فى موقفه بعض الذين عارضوه فى البداية ، فيما عدا حزب التجمع الذى يزعم العكس تماما ، فيزعم أن بعض الذين أيدوا اتفاقيات كامب ديفيد فى البداية انضموا إلى ما اسماءه - زوراً - بـ «الاجماع» على رفضها ! وهو يقصد بعض القوى السياسية التى لم تفعل ذلك حباً فى مصر ، وانما حباً فى القذافى الذى تحج اليه فى كل مناسبة لتلقى بركاته ! ثم تعود فتشيد بزعامته للعرب وانجازاته ، وهى قوى سياسية معزولة عن الجماهير بأكثر من عزلة حزب التجمع .

على أنه كان على حزب التجمع أن يخفى مغالطته التاريخية عن الشعب المصرى بمغالطات أخرى لا تقل بعدا عن الحقيقة التاريخية . فقد زعم فى بيانه أن كامب ديفيد «أطلقت يد اسرائيل فى المنطقة ، فعربدت فيها ، وخططت لفرض نفوذها عليها فى حمى الهيمنة الأمريكية : دمرت المفاعل الذرى العراقى ، وقامت بغزو لبنان ، واحتلت بيروت وأقامت كياناً خاضعاً لها فى جنوب لبنان ، وفرضت العملاء على الشعب اللبنانى ، وأخرجت المقاومة الفلسطينية من بيروت ، ونفذت مذابح صابرا وشاتيلا ضد الفلسطينيين العزل ، وقصفت مقر منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس بمساعدة من الأسطول السادس الأمريكى ، وسمحت لأمريكا باعادة غزو لبنان حتى أجبرتها المقاومة الوطنية اللبنانية على الانسحاب ، واحتفظت لنفسها بتفوق عسكرى على كافة القوات المسلحة للدول العربية المجاورة لها بما فيها مصر ، وذلك بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية ولم تكن حرب أكتوبر كما زعموا هى آخر الحروب وانما سادت الحروب والنزاعات المسلحة كافة أرجاء الوطن العربى .» إلى آخره .

هكذا ينسب التجمع إلى كامب ديفيد كل هذه النتائج والآثار ! الأمر الذى يكفى لتفنيده أن نسأله هذا السؤال : ترى لو كانت سيناء مازالت محتلة بالقوات الاسرائيلية ، ولم تعقد مصر اتفاقيات كامب ديفيد ، هل كانت اسرائيل تكف عن عريبتها فى المنطقة؟ وترتدع عن تدمير المفاعل النووى الأمريكى العراقى؟ وتفكر مرتين قبل غزوها لبنان؟ أو تخاف من احتلال بيروت واقامة كيان خاضع لها فى جنوب لبنان؟ وتخشى من قصف مقر منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس؟ أو تتخلى عن سياسة الاحتفاظ لنفسها بتفوق عسكرى على كافة القوات المسلحة للدول العربية المجاورة لها بما فيها مصر؟.

نعم هل كان احتلال اسرائيل لسيناء يجعلها فى موقف أقوى أو فى موقف أضعف ؟ وهل كان وضع مصر تحت الاحتلال الاسرائيلى مما يجعل اسرائيل تهابها وتخشاها فلا تقدم على عريبتها فى المنطقة ، أو أن هذا الوضع كان يضمن لها التحرك بسهولة فى أى اتجاه ، فى أمان تام ، وسيناء مرهونة تحت يدها ؟.

أليست هذه هى المغالطة التى لا تليق من حزب سياسى ، من المفروض فى قاداته وزعمائه أنهم يمثلون قمة الفكر السياسى ، لأنهم يدينون «بالمادية التاريخية» التى هى أعظم أداة للتحليل السياسى أفرزه الفكر البشرى حتى الآن ؟.

أليس من المغالطة ، ومما يسىء إلى تاريخنا وماضيها ومستقبلنا ، تجريد اتفاقيات كامب ديفيد من صفتها التحريرية – باعتبارها اتفاقيات عقدت لتحرير سيناء واجلاء القوات الاسرائيلية عنها – وتصويرها فى صورة عدوانية تخلت بمقتضاها مصر ، التى لا ترزح فوق أرضها قوات أجنبية!، عن شقيقاتها العربية ، وأسلمتها لقمة سائغة لاسرائيل تعربد فيها كما تشاء ؟

وأليس من المغالطة التاريخية ، ومما يزيغ تاريخنا ، أن ننسب إلى اتفاقيات كامب ديفيد تفوق القوة العسكرية الاسرائيلية على القوة

العربية، وعريضة اسرائيل فى المنطقة ؟ بينما التاريخ يقول إن هزيمة النظام الناصرى فى حرب يونية ١٩٦٧ كانت هى أساس تفوق القوة العسكرية لاسرائيل ، وهى أساس عريضة اسرائيل فى المنطقة ؟ .

نعم ، هل كانت اتفاقيات كامب ديفيد هى التى أسفر عنها احتلال اسرائيل أراضى ثلاث بلاد عربية هى : مصر وسوريا والأردن، وانتقال القضية الفلسطينية إلى الرف بعد أن حلت محلها قضية «إزالة آثار العدوان»؟ بكل ما ترتب على ذلك من بدء الهيمنة الاسرائيلية - أم أن هزيمة النظام الناصرى فى حرب يونية كانت هى الأساس؟ .

و حين يصدر بيان حزب عقائدى كحزب التجمع ، ليقول إن السادات «أجهض حرب أكتوبر المجيدة ، وبدد بطولات وتضحيات المصريين عسكريين ومدنيين» ! - مع أنه صانع قرار حرب أكتوبر ، وهو الذى حقق الجيش المصرى تحت قيادته أكبر نصر عسكري فى تاريخ الحروب الاسرائيلية ، وهو الذى أنقذ الجيش المصرى من الأخطاء العسكرية التى جرت فى معركة الثغرة ، وتمسك - فى شجاعة - ببقاء فرق الجيش المصرى فى الضفة الشرقية للقناة فى وجه دعوة بعض القادة العسكريين بانسحاب هذه القوات إلى الضفة الغربية - وهى الدعوة التى كانت كفيلة باحداث زعر فى القوات المسلحة لا يماثله الا زعر الانسحاب من سيناء فى حرب يونية ! .

نعم حين يكتب بيان حزب التجمع مثل هذا الكلام ، فألا يهين نفسه ، وألا يستخف بعقل الجماهير المصرية وذكائها ، وألا يثبت أمام التاريخ قصور رؤيته التاريخية ، وعجزه عن التمييز بين الحاكم الذى يصنع نصراً والحاكم الذى يصنع هزيمة ! فيجعل من الحاكم المنتصر خائناً ، ويجعل من الحاكم المنهزم بطلاً !

وألا يفقد بذلك بقية مصداقيته - بل جديته - فى عين الجماهير المصرية التى تدرك جيداً أن السادات وهب حياته لقضية تحرير سيناء ، فحارب أشرف حرب فى تاريخ مصر العسكري ، وفاوض عندما انتهى

دور السلاح ، ولم يترك المعركة حتى استخلص سيناء لمصر من أنياب الاحتلال الاسرائيلى .

بل أليس من الظلم أن تُعقد - حتى - هذه المقارنة بين حاكم أمضى وقت المعركة فى ميدان القتال على المستوى العسكرى والسياسى ، وكان يتابع كل خطوات الحرب من غرفة العمليات ، وكان له رأى الأخير فى نتيجة الحرب - وبين حاكم أمضى وقت المعركة فى غرفة النوم! - باعتراف محمود الجيار - دون أن يدري شيئاً عن ميدان المعركة - كما حدث فى حرب يونية ؟ .

ومن يسمح بتشويه تاريخ مصر على هذا النحو ؟ وكيف يستطيع أحد أن يسلب من السادات انجازه التاريخى العظيم فى حرب أكتوبر؟ ومن يصدق افتراءات خصومه السياسيين وادعاءاتهم المضحكة التى سوف يلقيها الشعب المصرى فى سفيحة زبالة التاريخ ؟

وهل يستطيع أحد أن يثق فى سلامة حكم مفكرين ينددون باتفاقيات فض الاشتباك الأولى والثانية ، دون أن يقرءوا - حتى اذا لم يكونوا قد علموا من معايشة المعركة ! - أن الحرب كانت قد انتهت بحصار العدو لقوات الجيش الثالث شرق القناة ، وعزلها عن مركز قيادة الجيش الثالث التى كانت فى غرب القناة ، وحصار العدو لمدينة السويس؟ وأن كل هذه القوة كانت خارج حماية حائط الصواريخ المصرى الذى دمر معظمه ، وفقد فاعليته بتطويق العدو له من الخلف بعد الثغرة ، وتحت قصف التفوق الجوى الاسرائيلى ، الذى دمر يوم ٢٤ أكتوبر جميع وسائل العبور على القناة من كبارى ومعديات ، وأن مدينة السويس ظلت تحت القصف الاسرائيلى طوال أيام ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ أكتوبر حتى وصلت قوات الأمم المتحدة إليها فى صباح يوم ٢٨ أكتوبر ؟ .

أليست القراءة فى التاريخ أفضل من تزويره ؟ وأليس الادلاء بالحقائق أفضل من التضليل ؟ وأليس بناء الأحكام على الحقائق التاريخية المجردة أفضل من بنائها على الأوهام والضلالات ؟

وهل كان مطلوباً من السادات ترك أوضاع الجيش المصرى فى الضفة الشرقية على هذا النحو - دون فض اشتباك أو يحزنون - وانتظار معونة حاكم مثل القذافى ، أو مساعدة حافظ الأسد ، الذى ظل عاجزاً عن تحرير الجولان بالقوة المسلحة حتى كتابة هذه السطور! أو انتظار إعادة بناء جيش تحرير فى الضفة الغربية للقناة وخوض حرب جديدة ضد القوات الاسرائيلية ، التى كان معظمها وقتذاك وراء الجيشين الثانى والثالث فى الضفة الغربية للقناة ، وفى ظل تفوق جوى اسرائيلى محقق بعد أن فقدت مصر حائط الصواريخ ؟ .

ولكن أحدا لا يعنى نفسه بمثل هذه الأسئلة ، والتفكير فيها ، ومحاولة الاجابة عنها ، لأن القضية هى قضية تسجيل مواقف ، وقضية لعبة سياسية تؤدى أداء رديئاً للغاية ، وقضية الافتقار إلى شجاعة الاعتراف بالخطأ! - أم تراها وهو الأسوأ - قضية الافتقار إلى القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب ؟ .

1

20.

اللعبة السياسية الرديئة والمؤتمر العجيب !*

عندما كتبت فى عدد أكتوبر
الصادر يوم ٢ أكتوبر ١٩٨٨ ، تحت
عنوان : «اللعبة السياسية الرديئة»
أهاجم افتراءات بيان حزب التجمع على
السادات بمناسبة الذكرى العاشرة
لاتفاقيات كامب ديفيد - كنت فى نفس
الوقت أدعو كل حزب سياسى إلى أن
يحترم عقل الجماهير ويحترم الحقيقة
التاريخية ويحترم تاريخ هذا البلد ، فلا
يغلب أهواءه الحزبية ، ولا يفترى على
زعماء حاربوا من أجل هذا الوطن ،
ونجحوا بالفعل فى تحرير ترابه من
الاحتلال الاسرائيلى ، لحساب زعماء
فرطوا فى هذا القرب ، وسلموه غنيمة
سهلة للأعداء بدون قتال تقريبا .

كذلك كنت أدعو كل حزب سياسى
إلى احترام العمل السياسى ، فلا
يوظف تاريخ هذا البلد لخدمة مآرب
حزبية ضيقة الأفق ، وينسب نتائج
هزيمة مخزية كهزيمة يونية ١٩٦٧ -

* اكتوبر فى ٢٣/١٠/١٩٨٨

التي أسفر عنها احتلال اسرائيل لأراضى ثلاث بلاد عربية ،وخر
بأسطورة اسرائيل التي لا تقهر - إلى اتفاقيات كامب ديفيد التحرر
التي أسفر عنها تحرير كامل سيناء، وعودة طابا ، ورفع وصمة الا.
الاسرائيلي عن جبين كل المصريين . لأن مثل هذه المغالطة تعتب
للعقل المصرى وللعمل الحزبى، ووصمة فى جبين الديمقراطية .

ولم تكذ تمضى أيام قلائل على هذا المقال حتى كانت عود
بحكم محكمة التحكيم الدولية ، وكنتيجة لا اتفاقيات كامب ديفيد والم
المصرية الاسرائيلية ، تفقأعين كل مكابر وتقطع لسان كل مجادل .

فها هى سيناء قد عادت كاملة غير منقوصة ، بفضل مبادرة ال
وبفضل الاتفاقيات والمعاهدات التي ترتبت عليها ، وترتيبات حل ال
التي رسمتها - وهى الأرض الوحيدة التي تحررت من بين الأ
العربية التي احتلتها اسرائيل فى حرب يونية ١٩٦٧ ، فى الوقت
مازالت فيه أراضى الرافضين أصحاب زعم الصمود والتصدى
أقدام الاحتلال الاسرائيلي .

وبدلا من الاعتراف بخطأ التحليل السياسى لمبادرة السا
جانب حزب التجمع ، والعدول عن الحكم الجائر الذى أصدر
اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية الاسرائيلية ، اذا
بالعجب العجاب فى احتفال «الحزب الاشتراكى الناصرى
التأسيس» بمناسبة الذكرى الثامنة عشر لرحيل الزعيم عبد النا
الذي اشترك فيه التجمع ١

فقد أخذ الجميع يرددون المزامم القديمة . كأنهم لا يقرءون الصحف
يتابعون الأحداث ، ولا يدرون بما يجرى فى الكون !.

بل لقد بدا الأمر فى شكل كوميدى - كما يحدث فى التمن
المصرية التي تمتلىء بالفكاهة المصرية - حين وقف الأستاذ ،
عاشور، سكرتير نقابة المحامين ، يدعو إلى اعادة طابا بالقوة !! مع

كان يقرأ الصحف لعرف أن طابا قد عادت بحكم محكمة التحكيم ، ولم يصدر تصريح واحد من مسئول اسرائيلي يبدى فيه عزم اسرائيل على عدم تنفيذ الحكم .

وبالتالى فلم تكن ثمة حاجة بالأستاذ سامح عاشور لى يركب دبابته ويتوجه إلى طابا لتحريرها بالقوة ! .

ولو أنه ، كان أيضا يقرأ التاريخ المعاصر لعرف أن طابا كانت أصلا محررة ، ولكن القوات الاسرائيلية احتلتها فى عهد زعيمه عبد الناصر ، وقد مات الزعيم عبد الناصر وطابا تحت الاحتلال الاسرائيلي .

ولو أنه مضى فى قراءة التاريخ المعاصر قليلا ، لعرف أن السادات خلف عبد الناصر ، وخاض الجيش المصرى تحت قيادته أشرف وأعظم حرب ، وحرر جزءا من سيناء ، ثم قام بمبادرة السلام لتحرير بقية سيناء ، وأبرم اتفاقيات كامب ديفيد والمعاهدة المصرية الاسرائيلية ، وبفضل هذه الاتفاقيات والمعاهدات تمكن الرئيس مبارك من استرداد بقية سيناء ، ثم استرد طابا بالتحكيم .

هذا هو التسلسل الزمنى للأحداث وهى : أولا ، احتلال طابا فى عهد الزعيم عبد الناصر ، وثانيا ، استعادتها فى عهد الرئيس السادات والرئيس مبارك بالتتابع الآتى :

حرب أكتوبر ، فمبادرة السلام ، فاتفاقيات كامب ديفيد ، فالمعاهدة المصرية الاسرائيلية ، فحكم محكمة التحكيم .

ولكن الأستاذ سامح عاشور يخرج علينا بدعوته الكوميدية إلى تحرير طابا بالقوة ! فى الوقت الذى تتعالى الهتافات من الجماهير الناصرية والتجمعية بشعار ظريف أورده جريدة « الاهالى » يقول « : هيه الكامب جابت ايه ؟ الطباقى* والكبارية!»

* المقصود بالطباقى الرغيف الطباقى الذى أعلن وقتذاك أن سعره سيرتفع إلى ٥ قروش^١

وقد نسيت هذه الجماهير المضلّله سيناء فيما أتت به اتفاقيات كامب !
لأن الجميع يعيشون تحت وهم أن سيناء مازالت تحت الاحتلال
الاسرائيلى ، وأن القوة وحدها هى التى سوف تعيدها ! .

وهذا هو سر ذلك اللغز الذى طرحه صديق أحترمه حقا وهو الدكتور
حسام عيسى ، فى ذلك المؤتمر العجيب ، حين قال - وفقا لما أوردته
جريدة الأهالى عدد ٥ أكتوبر ١٩٨٨ - إن « طابا عادت ولكن سيناء لم
تعد » !

فلم يسأل أحد نفسه فى هذا المؤتمر ممن يعرفون الجغرافيا : هل
انقلب وضع سيناء فأصبحت طابا تقع فى بدايتها وليس فى نهايتها ؟
واذا كانت سيناء لم تعد حتى الآن ، فمتى نحررها ؟ : هل ننتظر
الأستاذ سامح عاشور لكى يحررها بالقوة كما دعا إلى تحرير طابا
بالقوة ؟

وكيف يتفق قول الدكتور حسام عيسى بأن طابا عادت بينما لا يزال
الأستاذ سامح عاشور مصرا على أنها لم تعد ؟ ودعوته - وبالتالى - إلى
تحريرها بالقوة؟.

نعم لم يسأل أحد نفسه مثل تلك الأسئلة ، لأن الجميع مغيبون وعيا،
يعيشون تحت أوهام أن اتفاقيات كامب ديفيد لم تأت بغير الرغيف
الطباقي والكباريه ! ، وأن سيناء وطابا مازالت فى انتظار تحريرهما على
يد جحافل الناصريين تحت قيادة الزعيم الملهم وصقر العرب العقيد
القذافى ، الذى لم ينس المؤتمر - بالمناسبة - تحيته على لسان ممثل حزب
التجمع حسين عبد الرازق ، بأن نسب إلى المعاهدة المصرية الاسرائيلية
أنها «فتحت الباب للأفاقين والمغامرين للتواطؤ على ضرب ليبيا» (هكذا !)

أى أن العقيد الدموى الذى يحكم شعبه بالحديد والنار ، والذى تعقب
خصومه من الليبيين فى عواصم أوروبا وغيرها بالقتل والتصفية ، ولم
يتوقف عن مخططاته الدموية للتخريب والاغتيال فى مصر ، هو - كما

يصوره خطباء المؤتمر - أحد الأبرياء الشهداء الذين جنت عليهم المعاهدة!.

والشعب المصرى - بعد ذلك - أن يسأل نفسه هذه الأسئلة : هل يعيش مثل هؤلاء الناس بين - ظهرائه حقا ، أو انهم انعزلوا عنه كلية ؟ ،
وهل يتابعون الأحداث فى الصحف المصرية أو أنهم يكتفون فقط بقراءة الصحف الليبية ؟

وهل يشاركون الشعب حقا فرحته بتحرير سيناء وطابا من الاحتلال الاسرائيلى الذى جلبه النظام الناصرى ، أو أنهم يؤثرون اسقاط هذه الحقائق من ذاكرتهم لتأييد أوهامهم التى يرددونها عن «الكامب» اللعين! لأنه حرر سيناء ؟

وكيف يطمع هؤلاء الناس فى الحصول على ثقة الشعب فى أية انتخابات قادمة اذا هم أكدوا له أن سيناء لم تعد ، وأن طابا فى انتظار تحريرها بالقوة ! بينما هو يعرف أن سيناء قد تحررت وطابا عادت ، وبينما يعرف العالم كله - فيما عدا العقيد القذافى - أن مصر استعادت سيناء وطابا؟.

ولكنها اللعبة السياسية الرديئة التى تستهين بذكاء الشعب المصرى، وتسعى عبثا إلى تزييف تاريخه ، فتقلب الحقائق رأساً على عقب ، وتجعل من الحاكم المحرر خائناً ، ومن المفرط بطلا ! وتعمل على خداعه ، فتصور له أن مصر لم تستعد بعد سيناء أو طابا بسبب اتفاقيات كامب ديفيد والمعاهدة المصرية الاسرائيلية ، بينما يعرف الشعب المصرى ، من الاسكندرية إلى أسوان ، ومن الحدود المصرية الاسرائيلية إلى الحدود المصرية الليبية ، أن سيناء وطابا قد تحررتا بفضل هذه الاتفاقيات والمعاهدة ، وأنه لولا الاتفاقيات والمعاهدة لكانت سيناء وطابا فى نفس الوضع الذى عليه الآن الجولان والضفة الغربية وغزة !.

نعم ، هى اللعبة السياسية الرديئة التى تصور اتفاقيات كامب ديفيد فى شكل استسلام للامبريالية والصهيونية ، وتنسى أن تسليم سيناء كان

فى يونية ١٩٦٧ وليس فى عام ١٩٧٨ ! وأن تحرير الأرض والسلام يجوز فيهما كل شئ - يجوز معاهدة «برست ليتوفسك» التى عقدها لينين مع ألمانيا ، ويجوز اتفاقيات كامب ديفيد أو غيرها ، لأنه لا شئ يفوق قيمة استرداد الأرض وتحقيق السلام .

وهى أيضا اللعبة السياسية الرديئة التى تنعزل كلية عن المتغيرات الفكرية العالمية ، فتدين التفاوض ولا ترى فيه الا أنه منهج حل الخلاف بين البورجوازية المصرية والرأسمالية العالمية ! وتنسى أنه أيضا منهج حل الخلاف بعد حرب ضروس بين العراق وايران ! وهو أيضا منهج حل الخلاف لتسوية القضية الفلسطينية فى المؤتمر الدولى الذى يدعو الجميع لعقده - وأن البديل هو الحرب ، أو النصب ! .. النصب باسم الصمود والتصدى .

وهنا نصل إلى ثالثة الأثافي فى ذلك المؤتمر العجيب ، وهى التى تتصل بالسياسة الداخلية فقد اتضح أن موقف هذا التحالف الناصرى التجمعى لا يقل سوءا عن موقفه فى السياسة الخارجية !

فقد أعلن حسين عبد الرازق ، ممثل التجمع ، فى وضوح تام ، أن مافعله عمال المحلة ، « هو الطريق الوحيد للنضال فى الشارع ، واستعادة قوى التقدم والديموقراطية لزاما المبادرة » ! كما أعلن الاصرار على حق الاضراب ، كحق من حقوق الانسان ! ودعا إلى نبذ أحاديث الصالونات والاحتفاء بما فعله عمال المحلة ! .

وقد تلاه أحمد شرف ، كممثل للماركسيين ، فطالب بالافراج الفورى عن عمال المحلة ، بينما تلا الدكتور حسام عيسى - « فى لفطة عطر وطنى » - حسب تعبير الأهالى - برقية من عمال المحلة المعتقلين فى سجن طنطا ، يعبرون فيها عن تضامنهم مع أعضاء « ثورة مصر » المحبوسين فى طرة !

وفى الوقت نفسه اعتبر الأستاذ فريد عبد الكريم ظهور جماعة « ثورة مصر » أحد الظواهر الايجابية فى المرحلة الراهنة ! ومضى إلى

حد أن ربط بينها وبين « ثورة الحجارة » الفلسطينية ! وطالب حسين عبد الرازق باسقاط التهم الموجهة لأعداء « ثورة مصر » ! وأعلن الدكتور حسام عيسى عن تأليف ١٢ لجنة محلية بالمحافظات لتحية ثورة مصر ! فى الوقت الذى احتلت الشعارات لتحية « ثورة مصر » ونور الدين وأطفال الحجارة حيزا كبيرا من وقت الندوة .

وبطبيعة الحال فمن حق التحالف الناصرى الماركسى التجمعى أن يدعو إلى السياسة الداخلية التى يؤمن بها ، ومن حقه علينا أن نحترم اختياره ، ولكن من حق الجماهير الشعبية علينا أن نكشف خطر هذه السياسة ، التى أقل ما يقال فيها إنها تقف مع الارهاب ضد النظام ، ومع التخريب ضد البناء . والأسوأ من ذلك أنها سياسة مليئة بالتغريب والخداع ، لأنها تنادى بمبادئ رفضتها ثورة يوليو رفضا باتا طوال تاريخها ، بل رفضتها النظم الشيوعية أيضا منذ قيامها ! .

وبالنسبة لثورة يوليو فلم يسبق لها أن أباحت حق الاضراب ، سواء فى مرحلتها الأولى (مرحلة الثورة البورجوازية الديمقراطية ١٩٥٢ - ١٩٦١) أو فى مرحلتها الثانية (مرحلة الثورة الاشتراكية ١٩٦١ - ١٩٧٠). وقد كان الاضراب الوحيد الذى حدث فى عهد الثورة هو اضراب عمال كفر الدوار فى أواخر الأسبوع الثانى من شهر أغسطس سنة ١٩٥٢ - أى بعد مرور ثلاثة أسابيع على قيام الثورة ، وقد أعدمته فيه مصطفى خميس ومحمد البقرى^١.

ولابأس هنا من كشف موقف أكبر تنظيم شيوعى فى ذلك الوقت ، وهو تنظيم «حدثو» . فقد رأى هذا التنظيم أنه وان كانت شركة عمال مصانع كفر الدوار هى حركة مطالب شرعية ، الا أن استخدام سلاح الاضراب فى ذلك الوقت قد استفادت منه الرجعية فى تحويل الاضراب إلى حركة تخريب! واجتمعت الهيئة التأسيسية لاتحاد نقابات عمال القطر المصرى - وسكرتيرها أحمد طه - وأصدرت بيانا استنكرت فيه بشدة

الأعمال التخريبية التي حدثت ، وأهابت بولاة الأمور أن يأخذوا المارقين والمندسين فى صفوف العمال بالشدة الكفيلة بوقف دسائسهم !.

فى ذلك الحين كانت جميع الظواهر تقود إلى براءة مصطفى خميس ومحمد البقرى من التهم الملتصقة بهما ، حتى إن موسى صبرى - التى تولى الدفاع منهما - لم يجد فى ظروف القضية ما يدفعه إلى التماس الشفقة من المحكمة ، بل التماس العدل ! وقال ان العمال لم يمسوا مصانعهم بأى أذى ، وانما وقع الاعتداء على بعض السيارات وبعض الحجرات فى الفناء الخارجى ، وأن جريمة القتل وقعت فى مظاهرة غير التى كان فيها المتهم ، على بعد كيلومتر ونصف كيلو منها ، بل إنه قبض على المتهم قبل اطلاق النار على الجنديين اللذين قتلوا فى الحادث!.

ومع ذلك فان المحكمة العسكرية التى شكلتها ثورة يوليو المباركة! برياسة عبد المنعم أمين ، ضربت بكل ذلك الدفاع عرض الحائط ، وأصدرت حكمها باعدام مصطفى خميس ومحمد البقرى ، لأن القضية عندها لم تكن قضية عدل أو ظلم ، وانما كانت قضية استثمار أو عدم استثمار ، وكانت القضية أيضاً قضية طمأننة الرأسمالية المصرية إلى أن مثل تلك الحوادث والاضرابات لن تتكرر طالما كانت فى الحكم ، وأن حكم الاعدام سوف يضمن عدم تكرار ذلك الاضراب بأى حال من الأحوال .

وبالفعل ، انتهت تماماً الاضرابات العمالية التى كانت تحدث فى مصر على مدى السنوات الخمسين السابقة على ثورة يوليو المجيدة! لأن دماء خميس والبقرى كانت كفيلة بمنع فكرة الاضراب من الاقتراب من ذهن أى نقابى!.

حدث هذا فى المرحلة الرأسمالية من ثورة يوليو - أى قبل التأميم ، وقبل تكوين القطاع العام - أى حين كان الاضراب هو السلاح الوحيد فى يد الطبقة العاملة للنضال من أجل حقوقها ، ولم يرتفع صوت واحد لهذه البغاءات التى كانت تزعم المؤتمر العجيب يطالب بحق الاضراب كما

يطالب به حالياً مع وجود القطاع العام ومع وجود الحقوق التي كفلتها ثورة يوليو للطبقة العاملة ، ومع إدراك أن إباحة حق الاضراب فى نظام تسيطر فيه الدولة على وسائل الانتاج ، وتعانى من ديون فادحة تثقل كاهلها بسبب نقص الانتاج - يدفع بها فى هوة ليس لها قرارا

ذلك أن قضية خراب مصر لا تشغل بال تلك الأصوات الناعقة بقدر ما يشغلها تملق الطبقة العاملة والتغريب بها وخداعها ، حتى اذا وصلت إلى الحكم اكتفت باعدام خميس وبقرى آخرين ! وكفلت لنفسها راحة البال عدة عشرات من السنين!.

على أن اللعبة الخطيرة حقا هى ربط حركة اضراب عمال المحلة بحركة تنظيم «ثورة مصر» ، عن طريق «البرقية» المزعومة السالف ذكرها! فمع أنى لم أدخل السجن طوال حياتى الا أنى لا أتصور أن السجن المصرى قد تحول إلى فندق سياحى ، يرسل منه المسجونون برقيات التأييد التى تتساند مع تنظيم ارهابى كتنظيم «ثورة مصر» !. وحتى لو تحول السجن المصرى إلى فندق سياحى بالفعل ، لفكر العمال المحبوسون على ذمة قضية الاضراب - مائة مرة على الأقل !- قبل أن يرسلوا برقية تربط حركتهم بحركة ارهابية ممولة من الخارج .

ومن هنا فتلك البرقية لا تمثل «لفتة عطر وطنى» - حسب تعبير «الأهالى» ، وانما هى تفوح برائحة كراهية تريد أن تشوه حركة اضراب عمال المحلة لحساب تنظيم ارهابى ، بكل ما يمكن أن يترتب على ذلك من دفع السلطة إلى إعادة النظر فى الاضراب الذى حدث ، فى ضوء الصلة بينه وبين «ثورة مصر» ، والاشتباه فى وجود يد أجنبية لا تحب مصر دفعت إليه!.

وهذا يوضح رداءة هذه اللعبة السياسية ، وأنها لا تتورع عن شىء فى اظهار المساندة الشعبية المزعومة لتنظيم «ثورة مصر» ، حتى ولو أدى ذلك إلى تجريد حركة عمال المحلة من دوافعها الداخلية المحلية ، ووصمها بوصمة سياسية ارهابية هى بريئة منها وبعيدة عنها.

وفى نفس الخط أيضا ، محاولة ربط حركة تنظيم «ثورة مصر» ، بـ «ثورة الحجارة» التى هى حركة تحرر وطنى شعبية اشترك فيها كل الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية وغزة ! مع أن أى محلل سياسى ، مهما بلغت ضئالة شأنه ، يستطيع بسهولة أن يدرك هذا الفرق ، ويعرف أنه لا وجه للشبه بين الحركتين .

نعم لا وجه للشبه بين حركة تنظيم ارهابى يقتل الدبلوماسيين فوق أرض مستقلة حرة ، وبين حركة تحرر وطنى من الطراز الأول تناضل لطرد احتلال غاشم يجثم على صدرها ! ولا وجه للشبه بين حركة تصوب مدافعها للعزل ، وحركة تتصدى بصدرها الأعزل وبالحجارة لأحدث المدافع والأسلحة! ولا وجه للشبه بين حركة تحارب المدنيين وحركة تحارب العسكريين !.

ولكن المؤتمر العجيب يتجاهل كل ذلك ، لأن اللعبة السياسية التى يلعبها منظموه تخضع لحسابات أخرى لا تدخل فى حسابان أية أحزاب فى النظم الديموقراطية فى العالم - فليس بينها أحزاب تبنى حساباتها وسياستها على التفريز والخداع فى السياسة الخارجية ، وعلى التخريب والارهاب فى السياسة الداخلية !

حول اللعبة السياسية الردئية *

عندما تناولت بالنقد فى مقالى المنشور بأكتوبر يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٨٨ ، ذلك المؤتمر العجيب الذى أقامه مايسمى نفسه «الحزب الاشتراكى الناصرى تحت التأسيس» ، بمناسبة الذكرى الثامنة عشرة لرحيل عبد الناصر ، لم يكن هدفى تجريح أشخاص ، وإنما كان هدفى تجريح أفعال وأقوال ظهرت فى هذا المؤتمر تستحق التجريح بالفعل ، لأنها تستغل فرصة حرية التعبير الواسعة المدى التى يتيحها نظام الحكم الحالى للتغريض بالجماهير المصرية وخداعها فيما يتصل بسياسة مصر الخارجية ، ولأنها تحرض الجماهير على الارهاب والاضراب عن العمل ، باظهار تنظيم «ثورة مصر» فى شكل حركة تحرر وطنى، رغم أن مصر لا تقبع على أرضها قوات أجنبية ، ولا تخضع ارادتها لارادة أجنبية ، وباعتبارها ما

* اكتوبر فى ١٩٨٨/١١/٢٠

فعله عمال المحلة من اضراب هو الطريق الوحيد للنضال فى الشارع رغم أن وسائل الانتاج الرئيسية فى مصر هى وسائل مؤممة وليست فى يد رأسمالية مستغلة ، وبالتالي ، فان أى تعطيل أو تخريب للانتاج يلحق بوسائل الانتاج أضراراً فادحة تعود بالضرر على مجموع الأمة ، وتؤخر البلاد بدلاً من أن تدفع بها إلى الأمام .

وقد نددنا فى هذا المقال بتلك اللعبة الخطيرة التى أقدم عليها ذلك المؤتمر الغريب ، وهى ربط حركة اضراب عمال المحلة بحركة تنظيم «ثورة مصر» والاساءة بذلك إلى الحركة العمالية اساءة بالغة ، ووصمها بوصمة سياسة ارهابية هى بريئة منها وبعيدة عنها .

وكان مما أثبتنا به خداع ذلك المؤتمر للجماهير المصرية - وهو المؤتمر الذى عقد تحت شعار الناصرية ، وباسم المبادئ الناصرية - هو أن المبادئ الناصرية لم يسبق لها أن أباحت حق الاضراب ، سواء فى مرحلتها الرأسمالية أو مرحلتها الاشتراكية ، كما لم يسبق لها أن أباحت الارهاب وقتل الدبلوماسيين على أرض مصر باسم التحرر الوطنى ! .

وفى الوقت نفسه أثبتنا مغالطة ذلك المؤتمر ومحاولته تزييف تاريخ مصر ، حين نسب نتائج هزيمة مخزية كهزيمة يونية ١٩٦٧ ، التى أسفر عنها احتلال اسرائيل لأراضى ثلاث بلاد عربية ، إلى اتفاقيات كامب ديفيد ، التى أسفر عنها تحرير كامل سيناء ، واسترداد طابا ، ورفع وصمة الاحتلال الاسرائيلى لأرض مصر عن جبين كل المصريين ! وقلنا أن هذه المغالطة تعتبر اهانة للعقل المصرى وللعمل الحزبى ، ووصمة فى جبين الديموقراطية

وقد كان من الطبيعى أن أتناول تلك القصة الطريفة التى تزعم عدم تحرير سيناء أو طابا حتى الآن ! بما تستحق من دعاة ، وذلك حين دعا سامح عاشور ، عضو مجلس نقابة المحامين ، إلى إعادة طابا بالقوة ، - مع أنه لو قرأ الصحف المصرية لعرف أن طابا عادت إلى مصر بحكم محكمة التحكيم - أو حين خرج الصديق الدكتور حسام عيسى برأئته

المثيرة التى أعلن فيها أن طابا عادت وسيناء لم تعد ! ، ونسى أن طابا تقع فى نهاية سيناء وليست فى بدايتها ، وأن منطق الجغرافيا يقضى باستحالة عودة طابا دون أن تكون قد عادت قبلها .

فقد اعتبرت كل هذا الكلام الذى يؤكد أن كلا من سيناء وطابا لم تعد ، من قبيل المزاح ، الذى يجب أن يقابل بمثله، فقلت إنه لا حاجة بالسيد سامح عاشور لكى يركب دبابته ويتوجه إلى طابا لتحريرها بالقوة، لأنها عادت بحكم محكمة التحكيم .

على أن السيد سامح عاشور - فيما يبدو - يحب أن يمزح بمثل تلك الأقوال ، ولا يحب لأحد أن يبادل المزاح ! ، لأنه كتب رسالة غاضبة اعتبر فيها ما كتبه عنه تعديا يُخرج كاتبه عن أحكام القانون - حسب قوله - وتفضل - بالمناسبة - فأخذ يكيل لى من التجريح الشخصى ما يخضعه لأحكام القانون ! وطلب نشره فى نفس المكان وبنفس الحروف التى نشر بها المقال المطلوب تصحيحه ! .

ولما كنت قد تناولت السيد سامح عاشور فى سطور قليلة لا تتجاوز رأيه فى عودة طابا بالقوة ، فإن من حقى أن أحصر نشر رده فى حدود تلك السطور ، ولكنى سوف أكون كريما معه فأنشر تجريحه الشخصى لى كاملا ، كما أنشر كل رده ، حتى أتيح لنفسى الفرصة للرد عليه رداً علمياً يضع الحوار فى شكله الكريم الذى يجب أن يرتفع اليه كل من يعمل بالعمل السياسى فى هذا البلد، لكى ندعم حرية الرأى التى نمارسها ، والتى يتيحها لنا النظام السياسى ، ولا نعمل على اجهاضها قبل أن تؤتى ثمراتها .

أما جانب التجريح الشخصى فى رسالة السيد سامح عاشور فيقول فيه :

«لا نزن أحدا يمتهن تاريخ مصر ويزدرية مثل كاتب التاريخ د. عبد العظيم رمضان - ولا نقول المؤرخ - ولا نزن أن من بين هؤلاء الكتاب من

وزع كتبه ودراساته - بالعدل - بين ثلاثة عهود وثلاثة زعماء مثل الكاتب د. عبد العظيم رمضان .

«فقد كانت كتبه الأولى تمهيدا وتعظيما لثورة يوليو وقائدها العظيم عبد الناصر . فقد كتب تاريخا كاملا للحركة الوطنية من عدة زوايا لكي يثبت في النهاية أن ثورة يوليو كانت ثورة محتومة ، لأن قيادة الحركة الوطنية في ذلك الوقت ، ممثلة في حزب الوفد ، قد فشلت وعجزت ، وأن التنظيم الوحيد الذي كان مؤهلا للقيام بتلك الثورة وقيادتها هو الجيش .

«وقد ظل الدكتور عبد العظيم رمضان» - كما يقول السيد سامح عاشور - «على ولائه ووفائه المفرط لثورة يوليو وزعيمها حتى انقلاب مايو ١٩٧١ ، حينما تغيرت الأحوال وتبدلت ، واستولت الثورة المضادة على السلطة ، وفتحت الحناجر المحمومة لأنصاف المثقفين والمؤرخين والكتاب ، على ثورة يوليو وقيادتها ، وهب الدكتور لكي يتصدر الحناجر والأقلام مؤرخا للمرحلة الجديدة وناقدا وناقما ورافضا لما قبل الانقلاب ، ثم سخر قلمه مبررا ومؤرخا لذلك الانقلاب ، وهب كل جهوده ومواهبه خادما لتلك الحقيقة ، مرورا بكامب ديفيد وحتى توفى السادات في أكتوبر ١٩٨١ .!

ثم يقول السيد سامح عاشور: «انتهت حقبة السادات - الحقبة الثانية بالنسبة للكاتب - وتحول جاهدا إلى الوفد . ولكن في هذه المرحلة وزع وفاءه وولائه (في الأصل «وفائه وولائه» - وهو خطأ نحوي ماكان يجب أن يقع فيه الاستاذ سامح عاشور!) لنظام الرئيس مبارك وللوفد المعارض . ولم يفسر لنا أحد (في الأصل : «أحدا»!) حتى الآن : كيف يمكن الجمع بين ولاء لرئيس يحكم وزعيم يعارض ؟ ولكن الدكتور عبد العظيم استطاع أن يجمع بين الحسنيين : معارضة الوفد ، الذي يعتبر ثورة يوليو بكل مراحلها نكبة على مصر ، وحكم مبارك الذي يعتبر نفسه امتدادا طبيعيا (في الأصل : امتداد طبيعي!) لثورة يوليو .

واختتم الأستاذ سامح عاشور هذا الجزء من رسالته بقوله : « هذه مقدمة لازمة للتعرف على شخصية الكاتب قبل تناول مقاله : « اللعب السياسية الرديئة والمؤتمر العجيب » ، والذي نشر بالعدد رقم ٦٢٦ الصادر بتاريخ ١٩٨٨/١٠/٢٣ » .

وأعترف بأننى صدمت حين قرأت هذه المرافعة من جانب السيد سامح عاشور الذى هو محامى لدى القضاء العالى ، وعضو مجلس نقابة المحامين ، ومقرر لجنة الدفاع عن الحريات . فقد كنت أتوهم أن محاميا يصل إلى مرتبة المرافعة أمام القضاء العالى ، يقرأ أولا أوراق القضية قبل أن ينطق بحرف فيها ، أما أن يبنى مرافعته على أساطير وأوهام ، فهذا أمر لا يغتفر .

فليس من الصحيح (أولا) ما أورده الكاتب عن الحقبة الأولى فى حياتى ، وهو أن كتبى الأولى كانت تمهيداً وتعظيماً لثورة يوليو وقائدها عبد الناصر ، أو أنى أثبت فيها أن قيادة الحركة الوطنية ممثلة فى حزب الوفد فشلت وعجزت ، وأصبحت ثورة يوليو محتومة .

ولو تناول سيادته قائمة بكتبى (وتبلغ العشرين كتاباً فى التاريخ حتى الآن) ، لوجد على رأسها كتابى: «تطور الحركة الوطنية فى مصر من ثورة ١٩١٩ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية» ، ويقع فى ثلاثة مجلدات ، تصل صفحاتها إلى نحو ١٥٦٠ صفحة ، ولن يجد فى صفحة واحدة منها ما يثبت كلامه ، بل انه سوف يجد العكس تماما ، وهو اثبات صلابة الوفد فى الدفاع عن الاستقلال والدستور ، ونجاحه فى قيادة الحركة الوطنية ،

وتعتبر المجلدات الثلاثة دليلا علميا دامغا على كذب ثورة يوليو فى اتهاماتها للوفد بالتهاون والفشل .

وأخشى أن يصاب الأستاذ سامح عاشور بالكمد اذا عرف أننى كتبت هذه المجلدات الثلاث فى عهد عبد الناصر ! فقد حصلت بالمجلد الأول على درجة الماجستير فى الآداب بتقدير «ممتاز مع التوصية بطبع

الرسالة على نفقة الجامعة» فى عام ١٩٦٤ ، ونلت بالمجلدين الآخرين درجة الدكتوراه فى الآداب بمرتبة «الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة» فى مايو ١٩٧٠ - وكان عبد الناصر لا يزال حيا يرزق !

ولم أنافق فيهما ثورة يوليو باثبات افتراءاتها على الوفد ، بل أثبت كذب هذه الافتراءات باثبات صلابة الوفد وعدم تهاونه .

وحتى وفاة عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ فانى لم أكتب حرفا واحدا عنه ، لا بالقدح ولا بالمدح ، ناهيك عن التعظيم لثورة يوليو وقائدها العظيم عبد الناصر ! حسب تعبير السيد سامح عاشور ، لسبب بسيط هو أنى كنت مشغولا بالعمل فى رسالتى الماجستير والدكتوراه ، ولم يكن لدى من الوقت ما أشارك به فى العمل السياسى بالكتابة فى الصحف .

وحتى حين أتيح لى بعض الوقت لكتابة أول مقال لى فى جريدة الجمهورية فى يوم ٢٠ مارس ١٩٦٩ ، لم يكن هذا المقال عن ثورة يوليو وإنما كان عن ثورة ١٩١٩ ! وبالذات عن عيد الجهاد الوطنى فى يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، وكان عنوان المقال : «يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، هل كان يوم مطالبة بالاستقلال التام أو كان يوما للمطالبة بالحكم الذاتى» ؟ ، وقد أثبت فيه أن ذلك اليوم كان يوم مطالبة بالاستقلال التام ، ووصفته بالحرف الواحد بأنه «اليوم الذى تمخض عن قيام أكبر تنظيم سياسى شهدته تاريخ مصر الحديث» .

وإذا كانت هذه هى الحقيقة التاريخية فيما يتصل بالمرحلة الأولى من حياتى ، وهى لا تقوم على التأريخ لثورة يوليو أو عبد الناصر ، وإنما تقوم على التأريخ للحركة الوطنية ، والتأريخ للوفد. فهل يليق من محام كبير مثل سامح عاشور أن يقلب هذه الحقيقة رأسا على عقب ، ويزعم أنى بدأت حياتى معظما لثورة يوليو وقائدها العظيم عبد الناصر ؟ وأما كان أولى به أن يقرأ أوراق القضية أولا قبل أن يترافع فيها ؟

وكيف يصور أعمالى العلمية التى أبرزت نضال الوفد بشكل علمى لم يحدث من قبل ، وحفظت اسم الوفد فى ذهن الشعب المصرى بحروف من نور ، بل تعتبر التمهيد الحقيقى لبعث الوفد من القبر الذى أرادت ثورة يوليو أن تنه فيه ، وظهوره من جديد فى شكل حزب الوفد الحالى - فى صورة أعمال أثبتت فشل قيادة الوفد ومهدت وعظمت ثورة يوليو وعبد الناصر ؟.

وهنا نصل إلى الحقبة الثانية من حياتى - وفقا لتقسيم سامح عاشور - والتي تبدأ منذ انقلاب مايو ١٩٧١ ، واستيلاء الثورة المضادة على السلطة . فقد زعم - بجرأة - أننى «تصدرت الحناجر والأقلام» التي هاجمت ثورة يوليو وقيادتها ، ووهبت كل جهودى ومواهبى خادما لتلك الحقبة التى استمرت حتى وفاة السادات فى أكتوبر ١٩٨١ .

ويؤسفنى أن الخطأ الذى ارتكبه فى تقييم الحقبة الأولى ، قد ارتكب أشنع منه فى تقييم الحقبة الثانية ! ، ولو عرف موقعى - كيسارى - فى تلك الحقبة لما وقع فى هذا الخطأ .

فقد كان موقعى فى مجلة «روزاليوسف» التى كانت تتصدى - بشراسة - لهذا التيار اليمينى الرجعى الكاسح . وبالتالي فلم أكن أتصدر الحناجر والأقلام التى كانت تهاجم ثورة يوليو وقادتها ، وإنما كنت أتصدر الحناجر والأقلام التى كانت تدافع عن ثورة يوليو وقيادتها! - أى على العكس تماما مماذهب إليه سامح عاشور !

فقد كتبت فى هذه الحقبة مقالى : «عبد الناصر كان عدوا شديدا المراس للرجعية» فى مجلة صباح الخير يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٧٦ ، ومقالى فى صحيفة الجمهورية بعنوان : «ثورة يوليو بين التجريب وحركة التاريخ» فى أول أغسطس ١٩٧٦ ، و«معركة الرجعية الأخيرة» فى روز اليوسف فى ٢٤ مايو ١٩٧٦ ، و«نيران الثورة ورياح الرجعية» فى الجمهورية فى ٢٩ سبتمبر ١٩٧٦ . وهاجمت الرجعية الدينية فى مقالى المشهور : «حكومة مصر وحكومة المشايخ» فى روز اليوسف فى ٣١ مايو ١٩٧٦ ، و«جمعية

المنتفعين بتطبيق الشريعة الاسلامية» فى روزاليوسف فى ٢٨ يونية ١٩٧٦.

بل اننى فى هذه الحقبة ، التى يذكر فيها السيد سامح عاشور أننى تصدرت الحناجر والأقلام التى هاجمت ثورة يوليو ، اشتركت فى تأليف منبر اليسار ! وكست قلمى للدفاع عن اليسار كله - التجمع والناصرين ، وهاجمت بضراوة حزب مصر الاشتراكى الحاكم ، لدوره فى انتخابات نوفمبر ١٩٧٦ ، فى مقال بعنوان : «هزيمة اليسار فى الانتخابات لأن الوسط خان نفسه» فى روز اليوسف يوم ١٥ نوفمبر ١٩٧٦ ، وحذرت من حل حزب اليسار فى العدد التالى تحت عنوان : «حل حزب اليسار» ، وتعرضت لهجوم جريدة مصر فى كثير من المقالات، منها مقال بعنوان : «استاذ التاريخ يطمس معالمه» .

وفى هذه الحقبة صدر كتابى : «الصراع الاجتماعى والسياسى فى مصر» فى عام ١٩٧٥ ، الذى تعاطفت فيه مع ثورة يوليو ، وتحدثت فى «مقدمته» عن التحولات السياسية والاجتماعية الثورية العظيمة التى تمت على يد عبد الناصر : كسر احتكار السلاح ، تأميم قناة السويس ، ثورة القومية العربية ، تطوير الاصلاح الزراعى ، قرارات يولية ١٩٦١ الاشتراكية والقرارات المكملتها .. إلى آخره . واتخذت فى دراستى لأزمة مارس موقف التعاطف مع الثورة على الرغم من تعاطفى مع القوى الليبرالية ، وبررت هذا التعاطف مع الثورة بأنه «نابع من ايمان عميق بحركة التاريخ واتجاهها المحتوم إلى الأمام» . (سأشرح فيما بعد أسباب تغير موقفى) .

ومن هنا فاذا جاء سامح عاشور ليقلب هذه الحقيقة التاريخية رأسا على عقب ، وليزعم أنى «تصدرت الحناجر والأقلام التى هاجمت ثورة يوليو وقيادتها فى هذه الفترة ، فانه لا يكون قد أثبت الاشياء واحدا ، هو أنه ، كما أنه لم يقرأ الصحف التى نشرت خبر عودة طابا بحكم التحكيم، وأخذ - بناء على ذلك - يدعو إلى تحريرها بالقوة - فانه لم يقرأ شيئا من

مقالاتى أو كتبى قبل أن يبنى دفاعاته وتحليلاته لمواقفى السياسية - أى أنه لم يقرأ أوراق القضية التى ترافع فيها !

ولقد كان فى وسعى أن أكتفى بهذا القدر فى تنفيذ دفاعه الواهى ، لولا أن الخطأ الذى ارتكبه فى تقييم الحقبة الثالثة من حياتى، التى بدأت - حسب تقسيمه - بعد وفاة السادات ، أشد فداحة من الخطئين السابقين، اذ يقول :اننى وزعت فيها وفائى وولائى لنظام الرئيس مبارك وللوفد المعارض ، واننى جمعت بين ولاء لرئيس يحكم وزعيم يعارض !.

ولو تابع سيادته مقالاتى منذ عام ١٩٦٨ حتى الآن ، لعرف أننى لم أكف أبدا عن ابداء الوفاء للوفد ، والاشادة به ، والدفاع عنه ، سواء فى المرحلة الأولى أو الثانية أو الثالثة .

ففى المرحلة الأولى كتبت تاريخ نضال الوفد ، وكان أول مقال لى عن عيد الجهاد الوطنى - كما ذكرت - وفى المرحلة الثانية ، حين كنت أدافع عن عبد الناصر بمقالى : «عبد الناصر كان عدوا شديداً للمراس للرجعية» كتبت فى مجلة «الكاتب» فى عدد سبتمبر ١٩٧٤ مقال : «مصطفى النحاس الزعيم الذى تأمر عليه المؤرخون» ، و «ربع قرن من زعامة النحاس» فى الجمهورية فى ٢٦ أغسطس ١٩٧٥ ، و «مصطفى النحاس بين الحقيقة والتزييف» فى الجمهورية فى ١٥ سبتمبر ١٩٧٧ ، و «متى تعترف الثورة بالنحاس؟» فى الجمهورية فى ٢٤ أغسطس ١٩٧٦ ، و «نظرة جديدة إلى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢» فى الجمهورية يوم ١٦ فبراير ١٩٧٧ .

وفى الوقت نفسه الذى كنت أدافع عن حزب التجمع ، بحكم عضويتي فيه ، كنت أدافع عن حزب الوفد الجديد ، وقد كتبت فى ذلك مقالى : «مطلوب من حزب الوسط» فى صباح الخير فى ١٥ سبتمبر ١٩٧٧ ، «وحزب الوسط وقضية الديمقراطية» فى صباح الخير فى ١٣ أكتوبر ١٩٧٧ ، و «الوفد الجديد ، رؤية مستقبلية» فى صباح الخير يوم ١٦ فبراير ١٩٧٨ - وهذا كله فى عهد السادات!

كما دافعت - فى هذا العهد أيضاً - عن حزب العمل حين تمرد ع
إرادة السادات وخرج على الدور المرسوم له . ودافعت عن الصحفي
المصريين الذين هاجروا إلى الخارج ، رغم أن السادات وقتها كان يدين
باعتبارهم يهاجمون مصر ولا يهاجمون سياسته!.

فإذا دافعت عن الوفد الآن فى عهد الرئيس مبارك ، فإنما أست
بذلك فى خط ثابت لم يتغير فى عهود كل من الرئيس عبد الناص
والسادات ومبارك ، وهو خط استمدته من الدراسة التاريخية لتار
نضال الوفد ، ولم أستمدته من افتراءات ثورة يولية عليه !

وكما أن دفاعى عن الوفد فى عهد كل من عبد الناصر والسادات
يمثل تناقضاً مع ولائى لكل منهما ، فإن القول بأنه يمثل تناقضاً
ولائى للرئيس مبارك ، لا يكون له من قيمة الا نفس قيمة القول بأن
لم تعد ولا بد من تحريرها بالقوة ، رغم أنها عادت بحكم محكمة التحك
أو أن طابا عادت ولم تعد سيئاً ، رغم أن سيئاً تحررت قبل طابا -
لا قيمة له على الاطلاق ،

ولعلى لست فى حاجة لأن أعلم محامياً لدى القضاء العالى
«الولاء» يكون للحاكم وليس للمحكوم ! وأنه لا تناقض بين الولاء للح
وتأييد زعيم حزب معارض . فتأييد أعضاء حزب التجمع لخالد مد
الدين ليس معناه أنهم سحبوا ولاءهم للرئيس مبارك، كما أن تأييد أعد
حزب الوفد لفؤاد سراج الدين ليس معناه أنهم لا يدينون بالولاء لمبارك

ولكن السيد سامح عاشور معذور فهو - كناصرى - يحكم
الأمر بمعايير الحكم فى عهد عبد الناصر ، حين كانت المعارضة لا
تساوى عدم الولاء والخيانة ، وكان يزج بمرتكبيها فى المعتق
والسجون ، ولعله يتصور أن فؤاد سراج الدين هو حاكم أجنبى
العقيد القذافى !، وبالتالي فلا يجوز الجمع بين الولاءين!.

هذا الطفح السياسي ! *

أثرت في مقالى السابق أن أنشر
من رد السيد سامح عاشور على
مقالى: «اللعبة السياسية» ذلك الجانب
الذى يتناولنى فيه بالتجريح الشخصى
والسب العلنى، ويتهمنى بالتلون
والتقلب بين ثلاثة عهود وثلاثة زعماء -
لأنه أنموذج لكتابات الكتاب الناصريين
عندما تعوزهم الحجة وينكشف أمرهم
وينفضح عجزهم عن تبرير مواقفهم
السياسية الرديئة ، فلا يجدون سوى
التجريح الشخصى وسيلة للتمويه
والإخفاء وتحويل الأنظار .

وقد أثبت فى ردى على هذا
التجريح الشخصى فساد زعمه بأنى
بدأت بتعظيم ثورة يوليو وقائدها
العظيم! بعد أن برهنت على أنى لم
أكتب حرفا واحدا عن ثورة يوليو أو عن
قائدها طوال حياة عبد الناصر . كذلك
زعم أننى انقلبت على ثورة يوليو مع
الثورة المضادة فى عهد السادات ،

أكتوبر ٢٧ / ١١ / ١٩٨٨

وأثبت فساد هذا الزعم ، وأنى - على العكس من ذلك - بدأت دفاعى عن ثورة يوليو فى هذا العهد بالذات فى مواجهة رياح الرجعية السياسية والدينية العاتية . وقد زعم أنى فى عهد مبارك تناقضت بين ولائى لمبارك وولائى لزعيم الحزب المعارض له ، وهو الوفد ! وقد أثبت أن الولاء يكون للحاكم وليس للمحكوم ، وأن السيد سامح عاشور يتصور أن فؤاد سراج الدين هو حاكم أجنبى مثل القذافى ، فلا يجوز الجمع بين الولاين .

ولعل النموذج الذى طرأ بباله فى ذلك الوقت هو أنموذج زهاب خالد عبد الناصر إلى القذافى بينما كان هذا الحاكم يكيل أقذع السباب لرئيس الدولة لدرجة استفزت مشاعر كل أحزاب المعارضة - حتى المتعاطفة معه - فانبورت للاحتجاج وادانة هذا السباب .

اذن فليس فى حياتى السياسية تقلب أو تلون - كما حاول السيد سامح عاشور تجريحي - وإنما فى حياتى السياسية خط ثابت هو الوقوف إلى جانب الديمقراطية فى وجه الدكتاتورية والأوتوقراطية ، والوقوف فى صف القوى التقدمية فى وجه القوى الرجعية السياسية والدينية ، والوقوف مع الجماهير الشعبية الكادحة فى وجه القوى المستغلة ، وولائى للوطنية المصرية وتراب هذا الوطن لدرجة وقوفى إلى جانب مبادرة القدس وتحرير سيناء ، لأن تحرير أية أرض عربية هو مكسب أكيد للأمة العربية .

ومن هذا الموقف الثابت نفسه ، فقد أدنت بشدة ذلك الطفح السياسى الجديد الذى ظهر على وجه حياتنا السياسية ، الذى يتظاهر بالتطرف فى الوطنية والقومية والتقدمية ، ثم يدين بالولاء لهذا الحاكم العربى أو ذاك ممن يحاربون مصر فى كل محفل دولى ، تحت اسم القومية العربية ! ويستخدم نفسه أداة لتنفيذ سياسة هذا الحاكم العربى أو ذاك تحت شعار المصلحة القومية !

فلم يستطع عقلى أن يستوعب أن وطنيا مصرياً حقيقياً ، ينتمى لهذه التربة العريقة ، يرى فى كل سياسة مبارك أو السادات خطأ وتفريطاً ، ويرى فى كل سياسة القذافى صواباً وصموداً ! أو يستوعب أن يظهر تنظيم مصرى ، علنى أو سرى ، يتنادى بشعارات سياسية يصوغها القذافى أو غيره من الحكام الذين يزعمون الصمود والتصدى ، فما صمدوا ولا تصدوا ، وانما جبنوا وتخاذلوا أو يهتضم أن يقلل حزب سياسى مصرى وطنى من أهمية تحرير سيناء بحجة عفنة للغاية هى أن بقية الأراضى العربية لم تتحرر بعد ، مع أن مسئولية تحرير هذه الأراضى لاتقع على عاتق مصر ، وانما تقع على عاتق حكامها الأثاوس !.

هذا الطفح السياسى الجديد الذى يتظاهر بالتطرف فى الوطنية والقومية ، لم يشهد نظيره تاريخنا كله : قديمه ووسيطه وحديثه ، ولم يظهر فى عهد ما قبل ثورة يوليو ، كما لم يظهر فى عهد عبد الناصر ، لسبب بسيط هو أنه لم يكن هناك من يموله .

فلم تكن قد نشبت بعد حرب أكتوبر التى قفزت بثروات بعض الدول العربية إلى أرقام فلكية ، ولم تكن الدول التى أسمت نفسها دول الصمود والتصدى قد اصطدمت بعد مع السادات حول مبادرة القدس ، وأخذت تعمل على إسقاطه وإسقاط نظامه تحت شعار إسقاط سياسة كامب ديفيد ، وتنفق بسخاء على هذا الغرض !

حتى ظهر هذا الطفح السياسى فى مظهر أكثر ألوان الوطنية والقومية تطرفاً ، وأخذ ينشر البلبلة والارهاب فى البلاد ، ويسعى لخلخلة الثقة بين الحاكم وشعبه ، مستغلاً مناخ حرية التعبير الذى لم يسبق له مثيل ، والأزمة الاقتصادية التى صنعها الانفاق الهائل على المجهود الحربى فى خلال السنوات الثلاثين السابقة ، والانفتاح السائب الذى جلب إلى مصر أكبر النهابين فى تاريخ مصر الحديث ، وهم : تجار العملة ، وشركات توظيف الأموال ، وتجار المخدرات ، وأصحاب العمارات .

ومن حسن حظ هذا الشعب أن ذلك الطفح السياسى الجديد ، الذى يتظاهر بالتطرف فى الوطنية والقومية ، لم يقدم للجماهير الشعبية فكرا تلتف حوله ، وانما هو يردد الشعارات المستوردة من خارج الحدود المصرية ، التى تدرك الجماهير الشعبية أخطارها على أمنها واستقرارها واقتصادها وترباها الوطنى . ولذلك بقى منعزلا فى البلاد ، وطاشت سهامه فى الهواء .

وقد كان من الطبيعى أن انحاز بموقفى السياسى إلى جانب الوطنية ضد هذا الطفح السياسى ، وفى الوقت نفسه ، فان انحيازى للديموقراطية ضد الدكتاتورية قد نقلنى من موقف التعاطف مع ثورة يوليو- التى يختبئ ذلك الطفح السياسى تحت عباؤها - إلى موقف الناقد لها ، بعد أن قادتنى دراستى لحرب يونية ١٩٦٧ فى كتابى : «تخطيط الآلهة» إلى أن كل مابنى على دكتاتورية فهو ساقط لامحالة ، وأن مآخذ الديموقراطية أهون بكثير من أخطار الدكتاتورية ، فالأولى يمكن علاجها بالمشاركة الشعبية ، ولكن الثانية قاضية بالضرورة على المصلحة الوطنية والقومية .

ومن هنا اكتسبتُ خصومة حملة القميص ورهبان الناصرية وعشاق القذافى ممن يحجون إلى وكره فى كل مناسبة التماسا لبركاته ، وخلفائهم فى حزب التجمع - بالاضافة إلى خصومة دعاة التكفير والهجرة والحاكمية ، وتجار المخدرات والعملية وتوظيف الأموال ، بالاضافة إلى ذلك الطفح السياسى .

وحين فضحت مادار فى ذلك المؤتمر العجيب الذى عقده ما يسمى بـ «الحزب الاشتراكى الناصرى تحت التأسيس» ، لم أقصد مهاجمة شخص بعينه، ولم ألجأ إلى التجريح الشخصى لأحد ، وانما كنت فقط أهاجم أفكارا مريضة ترددت فى ذلك المؤتمر . ولم أتناول السيد سامح عاشور بأى لفظ ناب .

ولكنى حين وجدت أنه يدعو إلى تحرير طابا بالقوة ، رغم أن قرار التحكيم قد صدر بعودتها إلى مصر ، لم أريه حاجة لأن « يركب دبابته وبتوجه إلى طابا لتحريرها بالقوة ، لأنها عادت بحكم محكمة التحكيم»!

ولكنه اعتبر ذلك «تناولا يُخرج كاتبه عن أحكام القانون» - وهو يقصد بالطبع « يُخضع صاحبه لأحكام القانون» ! ولكن الأمر اختلط عليه! ثم كتب رسالته التى تفيض بالتجريح والظعن ، مما نشرته فى المقال الماضى. وها أنذا أنشربقية رسالته التى أرجو ألا ينزعج القارىء لما تحفل به أيضا من تجريح ، وسوف أرد عليها ردا تفصيليا فيما بعد .

فقد استعرض - على مدى صفحة وأكثر- ما كتبتة فى مقالى عن المؤتمر العجيب ، مما لاحاجة للقارىء بتكراره - واختتمه بقوله : «هذا هو جانب من مقال الدكتور عبد العظيم ، كاتب التاريخ ، حامل الدكتوراه والذى يدعى أنه مؤرخ ، وهو ليس كذلك أبدا (١) ثم يقول :

«والحقيقة أننى فوجئت بأسلوب الدكتور عبدالعظيم كاتب المقال ، والذى لايعرفنى ولا أعرفه عن قرب - وهو أمر أحمد الله عليه كثيرا(١) - فقد أراد أن يتقمص شخصية الكاتب الساخر، وهى شخصية بعيدة عنه تماما ، فأول شروط الكاتب الساخر أن يكون خفيف الظل ، ولا يختلق المواقف ويركبها تركيبا مفتعلا ذلك ، ولأنى كنت أستبعد عنه بذاءة القول فى سب الناس وتجريمهم بعبارات غثة رخيصة (هكذا !)

«ولكنه أكد لى أننى كنت أحسن الظن به كثيرا . فقد خالف الكاتب أصول التحليل والمناقشة التى تتطلب (أولا) التأكد من صحة المعلومة التى يناقشها ويحللها ، فسقط منه صلب الحديث حين قال : فقد وقف سامح عاشور سكرتير نقابة المحامين يدعو إلى إعادة طابا بالقوة ، مع أنه لو قرأ الصحف لعرف أن طابا قد عادت بحكم محكمة التحكيم» .

« والرواية بهذا التصوير لا تحتل الا أمرين : إما أن يكون الكاتب قد حضر المؤتمر فعلا ، وشاهدنى وأنا واقف ، وسمعنى وأنا أتكلم -

وهذا ما أقطع بعدم حدوثه ، اذ أنه شخصية معروفة ، ولو حضر لعلمت ،
وخصوصا وأن المؤتمر فى نقابة المحامين .

« والأمر الثانى - وهو أقرب إلى التصديق - أن يكون الكاتب قد
استقى تلك الرواية التصويرية من تقارير المباحث العامة (هكذا !) وهى
فى العادة تصدر على ذلك النحو المبثور وذلك التصوير السطحى (!)

« والسؤال الملح الآن : كيف اتصل علم الكاتب بتلك التقارير ؟ . ولو
كان الدكتور الكاتب حريصا (فى الأصل : حريص ، وهو خطأ نحوى)
على الحوار الموضوعى ، لطلب تفريغا لما دار من القائمين على المؤتمر .
ولو راجع المتحدثين ليستوثق منهم مما قالوه ، لما سقط الكاتب فى فخ
المباحث العامة وتقاريرها ، وأفقد موضوعها أعز أركانها .

ولكى يطمئن الدكتور رمضان ويستريح فؤاده ، فاننى يا سيدى قد
علمت بنبأ صدور حكم محكمة التحكيم قبل بداية المؤتمر بدقائق (الساعة
السابعة مساء الخميس ٢٩ سبتمبر) ، وسمعت أيضا - وأنت كذلك حتى
وان أنكرت (!) - أن اذاعة العدو الاسرائيلى قد علقت بتصريح منسوب
لمستول بأن حكم محكمة التحكيم لم يمه كافة المنازعات المتعلقة بكافة نقاط
النزاع على الحدود - وقد نشرت الصحف القومية بعد ذلك ما ورد من
محاولات لاستبعاد شريط ساحلى من بضعة أمتار حاولت اسرائيل أن
تجعله مسمار جحا فى المنطقة . وكان حديثى فى المؤتمر هو ردى على
ذلك التعليق الذى يذهب العقل ويقطع كل ذرائع الصبر التى تتمسك بها
فى مواجهة الصلف الصهيونى ، وقد قلت بالحرف الواحد : «اننا لا
نستمد حقنا فى طابا من حكم محكمة التحكيم ، فان حقنا فى طابا ثابت
بغير هذا الحكم وقبله ، فنحن ملاك طابا وأصحابها ، ولو لم تُعد
اسرائيل طابا رضاء (فى الاصل : رضاء - وهو خطأ املائى)
فسنستعيدها بالقوة ، ان لم يكن اليوم فغدا » .

«هذا ما قلته أيها الكاتب ، فهل فى ذلك ما يورقك أو يزعجك أنت

وأصدقاءك (فى الأصل :وأصدقائك - وهو خطأ نحوى) الاسرائيليين ؟
فان ضايق ذلك الحديث صهيونى فلماذا يضايقك أنت ؟.

«هذا مع العلم ياسيدى بأننى كنت من أشد المعارضين لعرض طابا
على تحكيم دولى . ذلك أن التحكيم يعنى قبول الحكم ، سواء لك أو
عليك، فماذا كنت فاعلا (فى الأصل : فاعل - وهو خطأ نحوى) لو قدر
الله وحكم ضدنا فى ذلك التحكيم ؟ هل كنت تقبل أن تخسر أرضك
وشرفك وعرضك بحجة أن السلام يدعونا لذلك ، وأن تقبل الحكم ما دمتا
قد قبلنا مبدأ التحكيم ؟. لو وجهت هذا السؤال لأى مواطن مصرى
لأجابك على الفور بلا ، ولو اقتضى الأمر أن يركب شباب مصر كلها
دباباتهم - وأنا من بينهم - ليحرروها من ذلك العدو الغادر (!)

«وأقسم لك يا سيدى أننى قد قرأت التاريخ ، وأعرف أن طابا كانت
أصلا محررة ، وأن اسرائيل قد احتلتها فى عهد عبد الناصر ، ولكن
يبدو أنك تقرأ من التاريخ ما يعجبك وتترك ما لا تطيق النطق به ، فأنت
تعلم أن عبد الناصر قد رفض وهو مهزوم ما قبله السادات وهو منتصر ،
لأنه رفض أن يخون رفاقه وشركاءه (فى الأصل : وشركائه - وهو خطأ
نحوى) فى المعركة وفى المصير ، ولأنه يعرف قدر مصر ، فان خرجت
مصر عزلت الأمة وشلت قوتها .

«كذلك رفض عبد الناصر أن يتسلم سيناء منزوعة السلاح ليس فيها
جندى أو قطعة سلاح الا على مشارف ضفتى القناة - رفض عبد الناصر
أن يحمى سيناء جنود الأمن المركزى وأن يقف على حدودنا رجال
الشرطة ، فالذى لا يملك امكانية توزيع قواته المسلحة على أرضه لا يملك
السيادة عليها ، وأنت تعلم ذلك ، ومع ذلك لاتستحى (هكذا !) واسمح لى
أن أسألك : ماذا لو غضب شامير وقرر أن يستعيد احتلاله لسيناء ؟ فما
هى القوة التى سوف تمنعه : هل هى قوات الانذار المبكر ، أم قوات الأمن
المركزى ؟.

«وبالرغم من أن اتفاقيات كامب ديفيد قد أصبحت حبرا على ورق - كما صرح الرئيس مبارك - فانك ما زلت تدافع عن أوراق داسنها الصهاينة بأقدامهم» فعلام (فى الأصل : فعلا ما !) تدافع ، ولحساب من؟ ياسيدى كامب ديفيد ليست قيذا على ذلك الجيل لحساب اسرائيل فقط ، بل هى قيد (فى الأصل : قيذا !) على كل الأجيال المقبلة التى ان أرادت أن تتحرر من أسر تلك الاتفاقيات لعجزت . لقد نجح السادات فى أن يمكن الصهاينة منا وإلى أجل لا يعلمه الا الله .

«وبفضل كامب ديفيد ما زالت طابا تحت السيادة الاسرائيلية رغم حكم التحكيم (هكذا !) وما زلنا فى انتظار فرج الانتخابات الاسرائيلية . بفضل كامب ديفيد تشئت الوطن العربى أشلاء ، واحتلت اسرائيل جنوب لبنان . بفضل كامب ديفيد دكت اسرائيل المفاعل النووى العراقى بعد ساعات من لقاء بيجين - السادات . بفضل كامب ديفيد تنتهك اسرائيل يوميا حرمتنا وتبقر بطون النساء وتبطش بالشباب وتحتل الأقصى وكنيسة القيامة . بفضل كامب ديفيد نستمع إلى شروط الصندوق الدولى واهاناته ولا نستطيع أن نخلص من نفقات فوائد الدين (ديون السلام) . بفضل كامب ديفيد أنت تكتب فى الصحف والمجلات وتظهر على شاشات التلفزيون وتزعجنا بصوتك فى برامج الراديو . فهل فى كل ذلك ما يضحك ؟ فان كنت قد ضحكت فقد ضحكت على نفسك وعلى شعبك الذى تنتمى اليه ، ولعنة الله على اللعبة السياسية الرديئة فى ذلك الزمن الردىء» .

انتهى الخطاب المذهب للسيد سامح عاشور ، الذى أبدى فيه من فرط أدبه وعفيف قلمه ما يرسم صورة صادقة له تغنى عن الوصف ! وبطبيعة الحال فسوف أغض الطرف عن الاسفاف الذى يتصل بشخصى فلست مستعدا للانحدار بمستوى الحوار إلى هذا الدرك ، وانما يكفى أن أوضح ما فى هذا الرد من افتراء على وعلى تاريخ هذا الوطن .

فمن الغريب حقا أن يتساءل سامح عاشور عن مصدر معلوماتي فيما قاله في ذلك المؤتمر العجيب ، وينتهى إلى نسبته إلى تقارير المباحث العامة ! مع أنه لو قرأ المقال بأكمله ، لعرف أنني أوضحت جليا فيه أنني استقيت كلامه مما نشرته جريدة الأهالي في عدد ٥ أكتوبر ١٩٨٨ ! وما كنت لأغفل - وأنا مؤرخ - ذكر المصدر !

فهل خرج ما أوردته على لسانه - بالاستناد إلى جريدة الأهالي - عما قاله بالفعل في المؤتمر ؟ حتى يفترض أن تكون الزيادة من تقارير المباحث العامة ؟ أو أنها العقلية المباحثية تلك التي تتصور أن كل معلومة لا تستقى الا من المباحث العامة ؟

أو أنه يخشى أن يتهم جريدة الأهالي بأنها نشرت كلامه مبتورا ، وأنها المسئولة عن «ذلك التصوير السطحي» الذي هو سمة تقارير المباحث العامة ؟

أو أنه يريد أن يقول - تلميحا - أن ما تكتبه جريدة الأهالي لا يخرج في سطحيته عما تكتبه المباحث العامة ؟

وهل يليق من محام لدى القضاء العالي أن يبني مرافعته على تكهنات بينما الحقيقة تحت ناظريه لاتحتاج منه لأكثر من قراءة المقال بأكمله في ربع ساعة أو أقل ؟ .

وإلا تفترض مهنة المحاماة أن يقرأ المحامى أوراق القضية كلها بدقة بالغة قبل أن ينطق بحرف واحد ، أم أن هذا التقليد قد سقط فيما سقط من تقاليد أخرى تحفل بها صفحات الصحف هذه الأيام ؟

هذه المرطقة الوطنية ! *

بعد أن نشرت رد السيد سامح عاشور كاملا في العدد الماضي ، بكل ما تضمنه من اهانات وتجريح لشخصي ، كنت قد شرعت في مناقشته موضوعية ، متجاوزا عما يتصل بشخصي من عبارات صغيرة - مثل : «أنت لاتستحي» أو «حامل الدكتوراه الذي يدعى أنه مؤرخ وهو ليس كذلك أبدا» - لأن القضية (أولا) ليست قضية خلاف شخصي ، وإنما هي قضية خلاف سياسي حول قضايا هذا الوطن ، كما أنها (ثانيا) ليست قضية السيد سامح عاشور - وإلا لتجاهلت تماما ما قاله في ذلك المؤتمر العجيب - وإنما هي قضية أن هناك طفحا سياسيا رديئا ظهر علي جسد حياتنا السياسية ، يتظاهر بالتطرف في الوطنية والقومية - قد تأثر السيد سامح عاشور بشعاراته المستوردة من خارج الحدود المصرية ، التي تشكل

أكتوبر في ٤ / ١٢ / ١٩٨٨

خطرا على أمن مصر واستقرارها واقتصادها وترابها الوطنى - وهذا الطفح السياسى الردىء هو الذى أتصدى له بالرد فى هذه المقالات .

فقد برر السيد سامح عاشور دعوته الكوميديية إلى تحرير طابا بالقوة فى نفس يوم صدور حكم محكمة التحكيم ! بأنه استمع قبل بداية المؤتمر بدقائق إلى تعليق لمسئول اسرائيلى يقول فيه - حسب قوله - إن حكم محكمة التحكيم لم يزنه كافة المنازعات المتعلقة بكافة نقاط النزاع على الحدود . ويقول إن هذا التعليق ، الذى «يذهب العقل ، ويقطع كل ذرائع الصبر التى نستمسك بها فى مواجهة الصلف الصهيونى - كان وراء هذه الدعوة» !

وختم هذا الدفاع بمخاطبتي قائلا : «هذا ماقلته أيها الكاتب ، فهل فى ذلك مايؤرقك أو يزعجك أنت وأصدقائك الاسرائيليين ؟ »

وأرد عليه قائلا : نعم أزعجنى ، لأنه كلام ظاهر فيه الافتعال الذى لايليق من محام لدى القضاء العالى ! وليس لأنه يحمل أية قيمة تدعو إلى الانزعاج ! ولأنه كلام يغرر بالجماهير المضللة المخدوعة التى حضرت ذلك المؤتمر العجيب ، التى كانت ترفع عقيرتها بشعارات من صنع ليبيا ، مثل : «هى الكامب جابت ايه ؟ الطباقى والكباريه»! بعد أن أنساها الأفيون القذافى أن الكامب أعادت سيناء التى ضاعت على يد عبد الناصر !

فقد كنت أحسن الظن بالسيد سامح عاشور ، وأتصور أنه قال هذا الكلام وهو يعرف جيدا أن مبادئ القانون الدولى العام ، وخصوصا إتفاقيات لاهى سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٧ - تجعل من هذا الحكم الذى صدر بشأن طابا ، حكما ملزما ، وأن المادة ٨١ من اتفاقية سنة ١٩٠٧ تقول إن قرار محكمة التحكيم يكون «نهائيا ولايجوز الطعن فيه» ، وإنه قرار ملزم للدول التى هى أطراف النزاع دون سواها .

فإذا جاء سيادته ليخطب فى اجتماع عام ، ويتحدث عن إعادة طابا بالقوة ، بدلا من أن يهنئ مصر والشعب المصرى بهذا الحكم النهائى

والمُلزم — فانه يكون كلاما مفتعلا الغرض منه التهييج ، والتقليل من شأن حكم يعرف هو — قبل غيره — قيمته الكبرى لمصر ، ويكون من حقي أن أنبه الجماهير المصرية ، التي عرفت هذا الكلام عن طريق نشره في جريدة «الأهالي» ، إلى مافيه من تغرير وافتعال .

ومن سوء حظ السيد سامح عاشور أنه اعترف في رده — الذي نشرته في المقال الماضي — بأنه لم يكن يجهل حين قال هذا الكلام ، أن حكم محكمة التحكيم كان قد صدر! وأكثر من ذلك يعترف بأنه كان يعرف جيدا أن هذا الحكم ملزم ونهائي !

ففي أثناء مباحثاته بأنه «كان من أشد المعارضين لعرض طابا على تحكيم دولي» ، يعترف بأن السبب في اعتراضه هو أن التحكيم — حسب قوله — «يعنى قبول الحكم سواء لك أو عليك» وأنه خشى أن يصدر الحكم ضد مصر فلا يكون عليها الاقبوله !

وكانت عبارته بالنص : «فماذا كنت فاعلا لو قدر الله وحكم ضدنا في ذلك التحكيم ؟ هل كنت تقبل أن تخسر أرضك وشرفك وعرضك ، بحجة أن السلام يدعونا لذلك ، أن تقبل الحكم مادمنا قد قبلنا مبدأ التحكيم ؟»

وإذا كان الأمر كذلك ، فأين — إذن — محل الكلام عن إعادة طابا بالقوة بعد صدور حكم محكمة التحكيم ؟ اللهم الا إذا كان الغرض منه التغرير؟

أليس من العجيب حقا ان الذي تغلب على مشاعر السيد سامح عاشور، في أعقاب سماعه بخبر حكم محكمة التحكيم برد طابا إلى مصر، لم تكن مشاعر الفرحة التي غمرت قلب كل وطني مصري على أرض هذا الوطن ، وانما تغلب على مشاعره ذلك التصريح المجهول للمسئول الاسرائيلي المجهول . رغم أنه يخلو تماما من القول بأن اسرائيل لن تنفذ حكم طابا !

هذا هو مادعانا إلى أن نصف دعوة السيد سامح عاشور بأنها دعوة كوميدية ! لأنه لا أساس لها ، وأن نضحك على هذه الدعوة التي ألقيت أمام مؤتمر يمتلئ بالمخدوعين الذين يعتقدون أن سيئاء لم تعد بعد ! أو أن طابا لم تعد ! أو أن طابا عادت ولكن سيئاء لم تعد ! أو أن سيئاء عادت ولكن طابا لن تعود إلا بالقوة ! - إلى آخر هذا التهريج السياسى الذى لم يشهده بلد فى العالم !

بل ان هذا هو مادعانا إلى مهاجمة الهدف من مثل هذه الادعاءات المضحكة المضللة ، وهو الغاء أثر انتصار سياسة كامب ديفيد فى استرجاع سيئاء وطابا ، وإعادة تشغيل الاسطوانة المشروخة التى تزعم ان سياسة كامب ديفيد هى المسئولة عن كل المصائب التى ابتلى بها العالم العربى وعلى رأسه مصر - وهى الاسطوانة التى جرت تعبئتها فى ليبيا ، والتي يرددها القذافى فى كل خطبه الممجوجة ضد مصر باسم القومية ، بينما هو يطعن القومية العربية بتزويد ايران بالصواريخ التى تقتل بها العراقيين فى بغداد !

فواضح من رسالة السيد سامح عاشور تأثره بهذه الاسطوانة المشروخة الرديئة ، لأنه أخذ يرددها على الفور فى هذه الرسالة بما يدل على أنه استذكرها جيدا .

فهو ينسب إلى كامب ديفيد - بجرأة - كل النتائج التى ترتبت على هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، فيقول :

«بفضل كامب ديفيد تنتهك اسرائيل يوميا حرماننا ، وتبقر بطون النساء ، وتبطل بالشباب ، وتحتل الأقصى وكنيسة القيامة (هكذا !) ويقول إنه بفضل كامب ديفيد «احتلت اسرائيل جنوب لبنان ، وبفضل كامب ديفيد دكت اسرائيل المفاعل النووى العراقى» ، وبفضل كامب ديفيد «مازالت طابا تحت السيادة الاسرائيلية رغم حكم محكمة التحكيم» - إلى آخر هذه الادعاءات التى يرددها القذافى فى ادعاءاته وخطبه التى يفحش فيها القول عن مصر ورئيسها وشعبها .

وواضح أن السيد سامح عاشور المحامي لا يقرأ التاريخ ، والا لعرف أن اسرائيل تحتل الأقصى وكنيسة القيامة منذ هزيمة يونيو ، وليس بعد كامب ديفيد ! وأن هزيمة يونيو لم تضعها فقط في الموضع الذي يمكنها من احتلال جنوب لبنان ودك المفاعل النووي العراقي ، وانما وضعتها في الموضع الذي استطاعت أن تهاجم منه العمق المصري نفسه دون أن تستطيع مصر في عهد عبد الناصر أن تمنعها منه أو تردّها عنه! فلم يستطع عبد الناصر أن يمنعها من قصف مصنع أبي زعبل ومدرسة بحر البقر ، أو أن تمرح طائراتها في السماء المصرية كما تشاء! بل أن تنزل إحدى وحداتها في رأس غارب على شاطئ البحر الأحمر ، في ليلة ٢٧ ديسمبر ١٩٦٩ وتهاجم الموقع المصري ، وتقوم بفك محطة الرادار الجديدة السوفيتية الصنع ، وتقوم بتحميلها على إحدى طائرات الهليكوبتر بأكملها ، وتنقلها إلى اسرائيل . ولم تكن هناك كامب ديفيد في ذلك الوقت!

بل انه بعد نجاح اسرائيل في أكتوبر في عملية الثغرة ، هاجمت مدينة السويس وكادت تحتلها لولا تصدى سكانها البواسل .

وفي سوريا أعادت اسرائيل القوات السورية إلى مواقعها الأولى ، ثم ردتها عنها أيضا واتجهت إلى دمشق . ولم تكن ثمة كامب ديفيد ! وقد اضطرت كل من مصر وسوريا إلى عقد اتفاقية فك الاشتباك الأول ثم اتفاقية فك الاشتباك الأول ، قبل أن تكون هناك كامب ديفيد! .

ولكن ذكاء السيد سامح عاشور يقوده إلى تصديق أن مصر قبل كامب ديفيد ، وقبل أن تسترد سيناء ، كانت تستطيع أن تمنع اسرائيل من احتلال جنوب لبنان ، ومن قصف المفاعل النووي العراقي ، أو أن اسرائيل كانت تهاب مصر وتخشاها أكثر بينما تحتل سيناءها ، فلاتجروا على ارتكاب هذه الأعمال ، وتمتنع عن انتهاك الحرمات وبقر بطون النساء وغير ذلك مما ترده الأسطوانة المشروخة المعبأة في ليبيا ! .

عن أن المؤسف حقا هو أن السيد سامح عاشور ، وهو المحامى لدى القضاء العالى ، لم يقرأ وثائق كامب ديفيد أو المعاهدة ! فهو يتصور أن سيناء لا يحميها سوى جنود الأمن المركزى ! ويتباهى بالجهل بهذا الوضع فيسألنى قائلا :

«ماذا لو غضب شامير وقرر أن يستعيد احتلاله لسيناء ، فماهى القوة التى سوف تمنعه ؟ هل هى قوات الانذار المبكر ، أو قوات الأمن المركزى ؟ .

وحتى أرد على هذه الفرية المضحكة ، أقول له إن سيناء كانت تعج بالسلح فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ، فماذا فعل هذا السلح ؟ وماذا فعل عبد الناصر حتى يمنع اسرائيل من احتلالها ؟ . لقد ضاع كل هذا السلح فوق رمال سيناء دون استخدام تقريبا ! وكانت خطة الاسرائيليين الأساسية تقوم على الوقوف عند المضائق ، فجاءت هزيمة الجيش المصرى الساحقة لتقدم لهم كامل سيناء غنيمة سائغة !

وفى المقابل ، فإن الجيش الاسرائيلى فى حرب أكتوبر كان يتحصن فى أكثر الخطوط الحربية مناعة فى التاريخ ، حتى كان اعتقاد موشيه ديان أن هذا الخط سوف يستعصى على أية قوة عسكرية مصرية ، حتى لو استعانت بسلحى المهندسين السوفيتى والأمريكى معا ، ومع ذلك سقط هذا الخط فى ست ساعات يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، وكان ذلك فى عهد السادات !

ومعنى ذلك أنه لا عبرة بما تقررر القيادة الاسرائيلية أو بما تقررر القيادة المصرية ، لأن الكفاءة العسكرية لأى طرف من الطرفين هى التى تحدد نتيجة المعركة .

ولوكان السيد سامح عاشور يعرف بوضع سيناء الحالى — كما قررته المعاهدة المصرية الاسرائيلية — لما وقع فى حبال تلك الأكذوبة القذافية التى تقول إنه لا يحميها سوى جنود الأمن المركزى!

ولوأنه درس بامعان نصوص المعاهدة ، لأدرك أن القوات التى تقرر بقاؤها فى سيناء وفقا للمعاهدة هى أكبر بكثير من القوات التى كانت مصر تضعها فيها بصفة دائمة فى عبد الناصر قبل حرب ١٩٦٧ ! لقد كانت مهمة الدفاع عن سيناء كلها – فى ظل السلام قبل حرب ١٩٤٨ – مسندة لقوات الحدود ، التى لم يتجاوز عددها عدد القوات الموجودة فى المنطقة الوسطى فقط !

وواضح أن خط الدفاع الرئيسى الوحيد فى سيناء هو المضائق ، على بعد حوالى ٦٠ كيلومترا من القناة ، وهذه المنطقة بهذا العمق يوجد فيها – بنص المعاهدة – ٢٢ ألف رجل ضمن فرقة مشاة ميكانيكية تتكون من ٤ لواءات ، ٣ لواءات مشاة ميكانيكى ، ولواء مدرع ، وسبع كتائب مدفعية ميدان ، وسبع كتائب مدفعية مضادة للطائرات !

ولكن وطنية السيد سامح عاشور وحياءه يسمحان له بأن يهتم السادات ، الذى حقق نصر العبور ، وحقق تحرير سيناء، ورفع وصمة الاحتلال الاسرائيلى عن شرفه وعن شرفنا جميعا – أى شرف المصريين وشرف العرب – بأنه قبل وهو منتصر مارفضه عبد الناصر وهو مهزوم ؟

وللقارىء أن يعجب : كيف تنقلب الحقائق على يد محام لدى القضاء العالى على هذا النحو المثير ؟ لقد قبل عبد الناصر وهو مهزوم تسليم سيناء للاحتلال الاسرائيلى ، ووافق على سحب القوات المصرية منها عندما طلب المشير عامر هذه الموافقة ، ولكن السادات رفض بقاء سيناء تحت الاحتلال الاسرائيلى .

وعندما عجزت الوسائل الدبلوماسية ، حارب الجيش المصرى – تحت قيادته – أشرف حرب ، وألحق بالجيش الاسرائيلى أكبر هزيمة فى تاريخه ، وحطم خط بارليف فى ست ساعات ، وأدخل الفرع فى قلوب الاسرائيلين لأول مرة منذ قيام دولة اسرائيل .

وعندما قصرت الجهود الحربية عن تحرير كامل سيناء بسبب التدخل

الامريكي ، واصل السادات المعركة بالوسائل السياسية ، ولم يمت الا بعد أن وضع أساس تحرير بقية سيناء لخلفه الرئيس الحالى محمد حسنى مبارك ، فقام بذلك على أكمل وجه - فكيف خرج علينا السيد سامح عاشور بهذه الملحة السخيفة حقا؟

نعم ، كيف يخرج علينا بمثل هذا القول الغريب ، وهو أن عبد الناصر رفض ان يتسلم سيناء منزوعة السلاح ؟ بينما نعلم جميعا أنه هو الذى سلم سيناء منزوعة السلاح للعدو الإسرائيلى بموافقته على سحب القوات المصرية منها فى حرب يونية ١٩٦٧؟

واليس من المذهل أن يصدق السيد سامح عاشور نفسه إلى حد أن يفترض فى - كمؤرخ - أن أعرف ادعاءه الغريب الذى يقلب فيه الحقائق التاريخية رأسا على عقب ، ويخاطبنى بحرارة قائلا : «أنت تعلم ذلك ومع ذلك لاتستحي!»

أقول له - وأنا خجل لأجله - :«لاياسيدى لأعرف ذلك ، ولم أقرأ ذلك فى أى وثيقة، بل لم أقرأه فى الجرائد المصرية أو العالمية ، ولربما كانت صحف القذافى قد نشرته بطريقتها الخاصة ، ولكنى أستقى معلوماتى من الوثائق وليس من صحف القذافى!

على أن جعبة السيد سامح عاشور لاتنفد من أمثال هذه الطرائف، فهو يذكر أن عبد الناصر رفض وهو مهزوم أن يخون رفاقه وشركاءه فى المعركة وفى المصير ، وأن السادات قبل ذلك وهو منتصر!

ولست أدري تماما ماهو الوصف اللائق لخدلان عبد الناصر رفاقه وشركاءه فى المعركة وفى المصير ، الذين اعتمدوا على ادعاءاته القوة العسكرية وامتلاك صواريخ الظافر والقاهر ! وانخدعوا باستعراضات القوة فى سيناء فى الأيام السابقة على حرب يونية ، حتى إن الملك حسين - الذى كان يلقي الأمرين على يد عبد الناصر ولسانه - قدم إلى مصر ، مدفوعا بمظاهر هذه القوة، ليعقد مع عبد الناصر اتفاقية الدفاع المشترك

فى يوم ٣٠ مايو ١٩٦٧ - أى قبل الحرب بأقل من أسبوع واحد ، ثم ليفاجأ بالجيش المصرى ينهار فى اليوم الأول للحرب ، ويتخذ قائده المشير عامر قراره بالانسحاب من سيناء فى اليوم التالى لنشوب الحرب! نعم ماهو الوصف اللائق لهذا الخذلان؟

ومن هنا حين يقول السيد سامح عاشور إن السادات خان رفاقه وشركاءه فى المعركة وفى المصير ، فلا نحتاج إلى أكثر من سؤاله : من كانوا هؤلاء الرفاق والشركاء؟

وحتى لانتقل عليه بهذا السؤال العويص ، فإننا نجيب نيابة عنه ، ونقول : إن مصر أخفت قرار الحرب عن كل الرؤساء العرب - فيها عدا حافظ الأسد الذى خاض المعركة كشريك !

وقد انتصر حافظ الأسد فى اليومين الأولين من الحرب ، ثم انهزم فى بقية الأيام بدون استثناء ! وعندما هددت القوات الإسرائيلية دمشق ، غلب السادات الداعى القومى على الداعى الوطنى ، وأنقذ دمشق بهجوم ١٤ أكتوبر المشئوم الذى خسر فيه الجيش المصرى أكثر من مائتى دبابة وانتهى بمعركة الثغرة المشئومة التى كانت نقطة التحول فى الحرب .

ولكن حين أراد حافظ الأسد ، وهو مهزوم ، المزايدة على الجيش المصرى ، والمخاطرة بتدمير الفرق الخمس فى الضفة الشرقية، رفض السادات هذه المزايدة، وكتب إلى حافظ الأسد يقول : «إنى لن أسمح بأن تدمر قواتى المسلحة مرة أخرى ، أو أن يدمر شعبنا ومنشأته» !

ولكن البعض يسمى ذلك خيانة من السادات لرفاقه وشركائه فى المعركة وفى المصير ! وللأسف الشديد أن هؤلاء البعض مصريون ، ولدوا على أرض مصر ، ويحملون الجنسية المصرية! وهم ذلك الطفح السياسى الرديء الذى يتظاهر بالتطرف فى الوطنية والقومية ، ويردد الشعارات المصنوعة فى ليبيا على يد القذافى !

نعم القذافى ! ذلك الذى خرج ،عقب نصر العبور ، يصف حرب أكتوبر - فى مقابلة صحفية مع جريدة «اللوموند» الفرنسية - بأنها

«حرب تمثيلية» ويقول إنه «يعارض الأهداف التي أعلنت عنها مصر وسورية» ! ويضيف قائلاً:

«بالنسبة لى، ليس المهم أن تستعيد مصر وسورية الأراضى التى احتلتها عام ١٩٦٧ ، بل أن تحرر جميع الفلسطينيين من النير الصهيونى! ولن أشارك فى حرب مالم يكن هدفها طرد المغتصبين (هكذا!) .

بل إنه عندما ترددت أنباء عن اشتراك سرب لىبى فى المعارك الليبية على الجبهة المصرية ، كان القذافى حريصا على التبرؤ من هذه التهمة ، فخرج مصدر لىبى فى باريس يوم ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ ! يعلن أن ليبيا لم ترسل أيا من طائراتها إلى الجبهة المصرية أو السورية !

هذا القذافى هو الذى يثأثر فريق من المصريين بادعاءاته وافتراءاته ، ويتبنون أكاذيبه عن كامب ديفيد ، فيلصقون بها كل نتائج هزيمة يونية ! ويسحبون منها تحرير سيناء وطابا! ويدعون أنها لم تأت بغير الرغيف الطباقى والكباريه !

ثم يخربون الضمير الوطنى ، فيمجدون الارهاب وقتل الدبلوماسيين على أرض مصر باسم التحرر الوطنى ، رغم أن أرض مصر محررة ولا تقب عليها أية قوة أجنبية !

ويخدعون الجماهير فيصورون كامب ديفيد فى صورة قيد على هذا الجيل وكل الأجيال المقبلة، ويزعمون أن مصر لو أرادت أن تتحرر من أسر تلك الاتفاقيات لعجزت ! ثم يأتى قرار مصر بالاعتراف بالدولة الفلسطينية ليصفع وجوههم ويفل فريتهم !

ويدعون إلى اضراب عمال مصانع القطاع العام بكل ما يتضمنه ذلك من تخريب للاقتصاد الوطنى - بحجة أن هذا الاضراب «هو الطريق الوحيد للنضال فى الشارع» ويسينون إلى الحركة العمالية اساءة بالغة عن طريق ربطها بالتنظيمات الارهابية - إلى آخر هذه الهرطقة الوطنية ، التى تساوى الهرطقة الدينية سواء بسواء !

المفـالطون ولفز طابا! *

كنت فى مقالى الذى نشرته
«أكتوبر» فى يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٨٨ ، قد
تناولت السيد سامح عاشور فى سطور
قليلة لا تتجاوز رأيه فى عودة طابا
بالقوة - فى معرض تعليقى على مؤتمر
ما عرف باسم : الحزب الاشتراكى
الناصرى تحت التأسيس» بمناسبة
الذكرى الثامنة عشرة لرحيل عبد
الناصر . ولكنه كتب لى ردا مطولا
يحفل بالطعن والتجريح الشخصى ،
وكان فى وسعى أن أنشر من هذا الرد
ما يتعلق به وحده ودفاعة عن نفسه ،
ولكنى أثرت نشره كاملا والتعليق عليه
فى ثلاث مقالات كاملة ، لأنى رأيت أن
القضية ليست قضيته وحده ، وإنما هى
قضية تيار بأكمله - هو التيار الناصرى
- يستغل فرصة حرية التعبير الواسعة
التي يتيحها نظام الحكم الحالى ، فى
خداع الجماهير المصرية وتحريضها
على الارهاب والاضراب عن العمل ،

أكتوبر فى ٢٩ / ١ / ١٩٨٩

واظهار تنظيم «ثورة مصر» فى شكل حركة تحرر وطنى ، رغم أن لا تقبع على أرضها قوات أجنبية ولا تخضع ارادتها لارادة أجنبية على أن سامح عاشور لم يكتف بأن رأى رسالته منشورة على ثلاث مقالات ، فأثر أن يرسل لى رسالة أخرى مطولة تحتاج إلى أخرى ! بحجة أن ذلك «اعمالا لحق التصحيح والتعقيب الوارد با من القانون ١٤٨ لسنة ١٩٨٠» - كما يقول !

وكان يسرنا نشر هذه الرسالة كاملة بالفعل ، لو أنها اقتصرت «التصحيح والتعقيب» الذى يبيحه القانون ، ولكنها خرجت - فى صفحاتها - عن ذلك إلى السباب والتجريح الشخصى مرة أذ بصورة أقذع مما ورد فى رسالته الأولى فى عدد ٢٠ نوفمبر ١ وتكرار اتهامات سبق أن رددت عليها من واقع الوثائق فى نفس ا مما يدل على أن السيد المذكور لم يقرأ شيئا من هذا الرد ! أو أ إعادة الاسطوانة من جديد ، فأنشر الاتهامات ثم الرد ، ثم يعيد بحجة حق «التصحيح والتعقيب» ، وأعيد الكرة بدورى ، وهكذا وقت القراء فى محاوره عقيمة تخرج بالكلمة الشريفة الأمانة عن م الصحيح الذى يخدم المصلحة الوطنية إلى مسار آخر لا يفيد الق قليل أو كثير .

لذلك فقد نشرت من رسالة سامح عاشور ما ينطبق على «التصحيح والتعقيب» - أى الجزء الذى يتعلق به وحده ، ويدافع ا نفسه ، واحتراما لهذا الحق وهو ما يراه القارئ منشورا إلى هذا المكان . أما ما يتعلق بتجريحه الشخصى فيمكنه أن ينشره صحيفة أخرى ، حتى يتيح لى الفرصة لمقاضاته ومقاضاة الصحيا ينشر فيها وفقا لأحكام القانون أيضا ! .

وملاحظاتى على تعقيب السيد المذكور (الوارد مع المقال فى خاص ، والذى أدعو القارئ إلى قراءته أولا) هو أننى عرضت

الأول من تعقيبه ، الخاص بالخلاف حول تعبير الخضوع لأحكام القانون، وتعبير «الخروج عن أحكام القانون» - على بعض كبار المستشارين وفقهائهم ، وكانت اجاباتهم أن عبارة « يخضع صاحبه لأحكام القانون» أدق من عبارة «يخرج كاتبه عن أحكام القانون» ، ولا يوجد تعبير: «يخرج عن أحكام القانون» ، وإنما يوجد تعبير «يخرج على القانون» ، والخارج على القانون بالانجليزية هو outlaw.

أما الملاحظة الثانية - وهى حول القوات المصرية فى سيناء - فقد دهشت لزعم الكاتب أننى احتسبت فرقة المشاة الميكانيكية فى سيناء ثمانية ألوية ! ولكن هذا الزعم ليس غريبا عليه مع طريقته الفريدة فى القراءة ! فقد قرأ تفصيلى للألوية الأربعة ، وهو ٣ لواءات مشاة ميكانيكى، ولواء مدرع ، على أساس أنه جمع لا تفصيل ! مع أنه كان يكفيه لفهم هذه المسألة البسيطة أن يلاحظ أننى لم أكتب واو العطف ، ولم أحدد صفة الألوية الأربعة كما حددت صفة ألوية المشاة الثلاث واللواء المدرع .

ثم يقع فى خطأ فادح ، فيتصور أن الأربع عشرة كتيبة هى قوة الألوية الأربعة ! رغم أن الكتائب الأربع عشرة قد وردت فى المادة الثانية باعتبارها من عناصر الفرقة (العنصران ج ، د) وليست عناصر الألوية الأربعة ! .

ثم تصل المأساة ذروتها حين يتصور أن البروتوكول ، الذى أورده بالانسحاب الاسرائيلى وترتيبات الأمن ، هو بروتوكول خاص باتفاقيات كامب ديفيد ! مع أنه بروتوكول خاص بمعاهدة السلام !

وفرق كبير بين الاثنين فاتفاقيات كامب ديفيد لا يوجد فيها بروتوكولات ، وإنما فيها اطاران : الأول ، اطار السلام فى الشرق الأوسط ، ويختص بحل المشكلة الفلسطينية بالدرجة الأولى ، والاطار الثانى هو «اطار الاتفاق لمعاهدة سلام بين مصر واسرائيل» .

ومن المؤسف حقا أن الكاتب يتصور أن الكتاب الذى طبعته وزارة الخارجية المصرية فى المطابع الأميرية . خاص بنصوص اتفاقات كامب ديفيد ، مع أن عنوان : الكتاب : «معاهدة السلام بين مصر واسرائيل وملحقاتها ، والاتفاق التكميلى الخاص باقامة الحكم الذاتى الكامل فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، الموقعان فى واشنطن فى ٢٦ مارس ١٩٧٩» . ولو أنه تصفح الكتاب ، لعرف أن ما نقله من صفحة ٥١ وما بعدها تحت عنوان «ملحق ١» كان من معاهدة السلام وليس من وثائق كامب ديفيد !

وقد كنت أتوقع أن يعتذر الكاتب عن الخطأ الجسيم الذى وقع فيه قى خطابه الأول ، حين زعم أن سيناء لا يحميها سوى جنود الأمن المركزى - خصوصا بعد أن تحقق من قراءته للبروتوكول عدم صحة هذا الزعم ، وبعد أن تحقق أيضا من صحة ما رددت به عليه ، ولكن المذهل أنه يكابر ، ويصر على خطئه حتى بعد أن عرف أن هناك فرقة مشاة ميكانيكية - بالتفصيل الذى أورد ذكره - أى بها ٢٢ ألف رجل ، ٢٣٠ دبابة ، ٤٨٠ مركبة قتال مدرعة ، ١٢٦ قطعة مدفعية ميدان ، ١٢٦ مدفعية مضادة للطائرات من عيار ٣٧ مم فأكثر . ولم يسمع أحد أن جنود الأمن المركزى يعملون على هذه الأسلحة !

ثم يذهب إلى محاولة أخرى فيقول إن هذه الفرقة لايمكنها التواجد فى منطقة الممرات . وهنا سوف أترك الكلام لرجل عسكري مختص هو الفريق أول كمال حسن على ، الذى كنت أتمنى لو قرأ سامح عاشور كتابه : «محاربون ومفاوضون» فقد رد على هذه النقطة التى يثيرها المغالطون قائلا :

«لقد قيل إن المعاهدة لم تعط مصر السيادة الكاملة على سيناء ، وإن المنطقة الوسطى منها بها ٤٠٠٠ رجل فقط ، وإن خط الدفاع قد انتقل من الحدود الدولية إلى قناة السويس !

« وواضح هنا أن القائلين بذلك إما أنهم تنقصهم الخبرة العسكرية ، أو أنهم لم يقرأوا المعاهدة جيدا !

«فالقوات التى تقرر بقاؤها فى سيناء بمقتضى المعاهدة ، أكبر بكثير من القوات التى كانت مصر تضعها فيها بصفة دائمة قبل سنة ١٩٦٧ ، وأنه فى ظل السلام قبل حرب ١٩٤٨ كانت مهمة الدفاع عن سيناء كلها معطاة لقوات الحدود ، التى لايتجاوز عددها عدد القوات الموجودة فى المنطقة الوسطى فقط ! وواضح أن خط الدفاع الرئيسى الوحيد فى سيناء هو المضائق ، على بعد حوالى ٦٠ كيلومترا من الفتاة . وهذه المنطقة – بهذا العمق – يوجد فيها – بنص المعاهدة – ٢٢ ألف رجل ضمن فرقة مشاة ميكانيكية تتكون من ٤لواءات ، ٣ لواءات مشاة ميكانيكى ، لواء مدرع ، وسبع كتائب مدفعية ميدان وسبع كتائب مدفعية مضادة للطائرات .

« والعسكريون يعلمون عن الأوضاع الدفاعية فى سيناء أنه لاتوجد خطوط دفاع استراتيجية أمام خط المضائق فى سيناء ، وأن أى قوات كانت توضع قبل فى الأمام ، هى قوات استطلاع وصد وقوات تعطيلية . وهذا يعد من قبيل الدفاع المتحرك الذى يسمح فيه بالاختراق حتى المضائق ، وهنا يكون الدفاع الرئيسى .

« وأحب أن أذكر هنا أن الامكانيات الحالية ، ووجود نفق الشهيد أحمد حمدي ، يمكّن من حشد أى عدد من القوات فى سيناء عند الضرورة ، وفى أقل وقت ممكن . . وأن المسافة من المضائق إلى خط الحدود الدولية يمكننا اجتيازها أو اجتياحها فى ساعات قليلة . بينما لوحدث العكس ، فسيكون الاصطدام فى النهاية بخط المضائق ، وهو خط دفاعى طبيعى ، من قوات مهاجمة من العراق . وهو كاف جدالدفاع ناجح يمكن تطويره ليصبح هجوما ناجحا »

هذا الكلام من قائد عسكري ورئيس وفد التفاوض مع إسرائيل والولايات المتحدة ، وهو الفريق أول كمال حسن على ، فيه الكفاية للرد على أوهام الناصريين التى تملأ رأس سامح عاشور ، والتى تصور لهم أن عصاة مثل عصاة « ثورة مصر » التى يمجدها الناصريون هى حركة

تحرر وطنى ! ويعلقون عليها الأمل فى تحرير سيناء وطابا - المحررتين بالفعل !

فمن المثير حقا أن السيد سامح عاشور ما يزال - حتى الآن - يعتقد بأن طابا «حتى هذه اللحظة» - أى بعد حكم المحكمة الدولية وتصحيح وضع علامات الحدود - ما زالت تحت السيادة الإسرائيلية ! ويتساءل : إذا كان هناك عذر للفنانة شادية لأن تعتقد أن سيناء «رجعت لنا» ، فما عذر الدكتور المؤرخ فى هذا الاعتقاد؟ . وليس لى من رد على هذا الكلام إلا أن أدعو الله أن يلهم سامح عاشور الصواب ، قبل أن يركب دبابته ليحرر طابا من السيادة الإسرائيلية !

بقيت مسألة رأى سامح عاشور فى أخطائه اللغوية ، التى يرى أن إثارتها من جانبى «سفسطة فى غير موضعها» ! وهو رأى طريف ترددت كثيرا فى نشره ، خوفا من أن يتكئ عليه المذيعون والمذيعات ، وطلاب الدراسات العليا الذين تحفل رسائلهم العلمية بالأخطاء اللغوية - ناهيك عن طلبة الجامعات الذين لم يتخرجوا بعد من مرحلتى الليسانس والبكالوريوس !

ولكن سامح عاشور يعبر عن جيله ، وإن كنت أعرف من جيله بعض المستشارين الذين لا يتسامحون فى الأخطاء اللغوية ، مثل المستشار محمد عبدالعزيز الشناوى ، والمستشار محمد مرشدى بركات. بل إن هذه الأخطاء بالنسبة لمستشار مثل محمد سعيد العشماوى لا تغتفر ، وهى بالنسبة لمستشار قديم مثل المستشار عبد الحميد يونس ، تعتبر جريمة من الجرائم ، إذ أراه فى مجلة «أكتوبر فى كل أسبوع عاكفا على مراجعة مقاله الأسبوعى كما لو كان يراجع حكما قضائيا فى قضية وطنية كبرى - رغم وجود جيش من المصححين فى المجلة ! كما أننى أراجع مقالى مرتين على الأقل أسبوعيا - إلا إذا كنت فى مؤتمر خارج القطر . وعموما أترك للسيد سامح عاشور أن يرتكب من الأخطاء اللغوية ما يشاء ، إذ هذا حقه كمحام لدى القضاء العالى !

وعلى كل حال فقد دهشت لما دافع به سامح عاشور عن نفسه ضد عبارات التشكيك والاتهام بالعمالة ، التي زعم أنني استخدمتها ضده تلميحا وتصريحا ! ولكنها طريقته الفريدة في القراءة — طريقة القفز بين السطور والفقرات — ولذلك لا أجد بدا من أن أدعوه إلى قراءة الفقرة الثالثة قبل الأخيرة من مقالى : «هذا الطفح السياسى » المنشور فى عدد أكتوبر ٢٧ نوفمبر ١٩٨٨ ، وفيها قلت بالحرف الواحد : «لست أعتبر السيد سامح عاشور طرفا فى الخصومة ، وانما الخصومة مع ذلك الطفح السياسى ، الذى أعتقد — شخصيا — أنه بعيد عنه ، ولكنه تأثر بمزاعمه وشعاراته »

إذن فلا تشكيك أو اتهام له بالعمالة تلميحا أو تصريحا . ومن هنا فانى أرحب برأيه فى القذافى ترحيبا كبيرا ، وإن كنت أتساءل : إذا كان هذا هو رأى سامح عاشور الحقيقى فى القذافى ، فلماذا زج بنفسه فى مؤتمرات الحزب الاشتراكى الناصرى ، الذى يتبنى شعارات القذافى بلا موارد ، ويعتبره من زعماء الصمود والتصدى ، بل زعيما أوحدا للعرب ، ويحج إليه فى كل مناسبة لتلقى بركاته ، كما فعل السيد خالد عبد الناصر مؤخرا بعد بذاءات القذافى ضد الرئيس مبارك ؟

ولماذا يصر على ادعاءات القذافى الكوميدية التى تتصور أن سيناء لم تتحرر بعد ، وطابا مازالت تحت السيادة الإسرائيلية ؟

ولماذا يرى فى اعتداءات تنظيم ثورة مصر على الدبلوماسيين الإسرائيليين والأمريكيين على أرض مصر عملا وطنيا وحركة تحرر وطنى ، رغم أن أرض مصر لاتقع على أرضها قوات احتلال إسرائيلية أو أمريكية ؟

ثم لماذا يتبنى رأى القذافى ومن يلونبه فى السادات ، فىرى — وهو مصرى — فيما فعله السادات من تحرير سيناء من الاحتلال الاسرائيلى عملا خيانيا ، بدلا من أن يعتبره عملا بطوليا وتحريريا — كما يرى كل الوطنيين المصريين الذين سعدوا للتخلص من الاحتلال الاسرائيلى — بل يذهب فى ذلك إلى حد تزيف التاريخ وحقائق العصر فىرى أن سيناء لم

تتحرر بعد ، وطابا مازالت تحت السيادة الاسرائيلية - ضد كل منطق وعقل وتاريخ .

اذن فانا نرحب برأى السيد سامح عاشور في القذافي ، ولكننا لا نرحب بتبنيه آراء القذافي وشعاراته وسياساته . ونحن نوافق على ادانة كل من يؤجرون أو يوظفون وطنيتهم للعقيد القذافي ، أو من يفعل ذلك أيضا لحساب اسرائيل أو المخابرات المركزية الامريكية ، ونعتبر ذلك عملا خيانيا من الدرجة الأولى ضد هذا البلد العريق وشعبه ، يستحق من يرتكبه - عدلا وانصافا - عقوبة الاعدام ولعنة الشعب المصرى إلى أبد الأبد .

تعقيب سامح عاشور

*

عقب السيد سامح عاشور على ملاحظاتي على رسالته التي وردت بالعدد ٦٣٠ و ٦٣١ من أكتوبر والتي أبرزت فيها أخطاءه اللغوية ، فقال ان الدكتور عبد العظيم رمضان يريد أن يصرفنا عن جوهر الموضوع ، وكان من الأجدر به أن يترك المقال لمصححي المجلة ، ليتولوا عنه هذه المهمة، على الأقل أسوة بما يفعله الكاتب ذاته ، فهو لا يستطيع أن ينكر أن ما يكتبه لا بد أن يمر تحت عين المصحح ثم المراجع ، وخصوصا اذا كانت الكتابة لمجلة أسبوعية . وكفى أنه لم يفرق بين الخطأ اللغوي والخطأ المطبعي للكاتب على الآلة الكاتبة ، ورغم كل ذلك فامكانية الخطأ واردة ، والتمسك بالأخطاء اللغوية سفسطة في غير موضعها .

«ولقد نشر عبارتي : « يخرج كاتبه عن أحكام القانون» وقال إن صحتها «يخضع صاحبه لأحكام القانون» مع

* نشر التعقيب مع مقالتي :

«المغالطون ولغز طابا» المنشور في

أكتوبر ٢٩ / ١ / ١٩٨٩

أن عبارتي أكثر دقة في الدلالة على أن الخروج على أحكام القانون تعني
- بالضرورة - خضوع صاحبه لأحكام القانون .

ومن السهل أن يقول د . عبد العظيم نفس ما تغنت به الفنانة شادية
أن سيناء رجعت كاملة لينا ، وإن مصر اليوم في عيد - بالرغم من أن طابا
حتى اللحظة مازالت تحت السيادة الاسرائيلية . وقد يكون لدى شادية
عذر في معرفتها بهذه المعلومة ، ولكن ما هو عذر الكاتب الدكتور ؟

والمثير للدهشة حقا ألا يعجب الدكتور ما قلته من أن السادات قبل
سيناء منزوعة السلاح ، الا على مشارف القناة ، أما ما عدا ذلك فلا
يحمي سيناء الا قوات الأمن المركزي و الانذار الأمريكى المبكر ثم يقول ان
القوات التى تقرر بقاءها فى سيناء وفقا للمعاهدة أكبر بكثير من القوات
التي كانت مصر تضعها فيها فى عهد عبد الناصر قبل حرب ١٩٦٧ .
وواضح أن خط الدفاع الرئيسى الوحيد فى سيناء هو المضايق على
بعد ٦٠ كيلو مترا من القناة . وهذه المنطقة يوجد فيها بنص المعاهدة
٢٢ ألف رجل ضمن فرقة مشاة ميكانيكية تتكون من ٤ لواءات ، ٣ لواءات
مشاة ميكانيكى ، ولواء مدرع ، ٧ كتائب مدفعية ميدان ، و ٧ كتائب
مدفعية مضادة للطائرات - ولكن لسوء حظ الدكتور أن وزارة الخارجية
المصرية قد طبعت فى المطابع الأميرية نصوص اتفاقات كامب ديفيد
كاملة، وفى صفحة ٥١ منها تحت عنوان ملحق (١) البروتوكول الخاص
بالانسحاب الاسرائيلى وترتيبات الأمن ، حددت المادة الأولى أسس
الانسحاب ، وجاءت المادة الثانية لتحديد الخطوط النهائية والمناطق . وقد
قسمت تلك المادة سيناء إلى ثلاث مناطق طولية : منطقة أ ، ومنطقة ب ،
ومنطقة ج ، وهذا التقسيم تقسيم رأسى ، إلى ثلاثة أجزاء : الثلث الأول،
وهو المنطقة (أ) وهى المتاخمة لقناة السويس ، وقد حدد البروتوكول
التواجد العسكرى فيها بفرقة مشاة ميكانيكية واحدة وتتكون عناصر تلك
الفرقة من الآتى : أ - ثلاثة ألوية ميكانيكية . ب - لواء مدرع واحد . ج -
سبع كتائب مدفعية حتى ١٢٦ قطعة . د - سبع كتائب مدفعية مضادة

للطائرات تتضمن صواريخ فردية أرض جو وحتى ١٢٦ مدفع مضاد للطائرات عيار ٣٧ مم . هـ - حتى ٢٣٠ دبابة . و - حتى ٨٤٠ مركبة أفراد مدرعة من كافة الأنواع . ز - اجمالى حتى ٢٢ ألف فرد .

«هذا هو نص البروتوكول بغير تصرف . والملاحظة الأولى أن الدكتور عبد العظيم احتسب الفرقة ثمانية ألوية وهذا غير صحيح ، فعدد الألوية أربعة فقط : ثلاثة مشاة ولواء واحد مدرع . ولم يكتف بهذا فقط بل حاول أن يجمع عدد الكتائب بجوار عدد الألوية ، فى حين أن الأربعة عشر كتيبة هى قوة الألوية الأربعة . فضلا عن ذلك فإن البروتوكول قد حدد نوعية التسليح وحجمه . والملاحظة الثانية أن تلك الفرقة لا يمكنها التواجد فى منطقة الممرات - كما ادعى عبد العظيم رمضان - إذ أن منطقة الممرات تقع فى المنطقة الثانية (ب) . والملاحظة الثالثة أنه ليس بحجم الفرقة ولا تسليحها فى الثلث الأول من سيناء ، يمكن أن تتحقق السيادة الكاملة على سيناء ، مادامنا لا نستطيع أن نحرك لواء واحدا فى باقى سيناء ، إنى أعتقد أن ذلك سلب لسيادة مصر على أراضيها .

«لقد بدأ عبد العظيم رمضان ، أثناء تناوله لردى عليه ، فى نشر صور للعقيد القذافى ، ثم تحول بعد ذلك إلى القاء عبارات التشكيك والالتهام بالعمالة ، الى آخر العبارات التي استخدمها ضدى تلميحا وتصريحا . ولكن الجميع يعرف موقفى العلن والصريح من القذافى وغيره من الحكام العرب ، فالحمائم معا والصقور يتحملون سويا مسئولية الهوان الذى تعيشه الأمة العربية . فلا حملة غصون السلام منهم ، ولا دعاة الصمود والتصدى استطاعوا أن يوقفوا زحف الهيمنة الصهيونية على المنطقة . أيضا لم تفلح سياسة الحرب الكلامية وصواريخ الميكروفونات التي تنطق من الشرق والغرب فى أن تواجه الآلة العسكرية الاسرائيلية . فلم نسمع عن فرقة عربية تنتمى لأى دولة حاربت اسرائيل ، بخلاف فصائل المقاومة الوطنية اللبنانية والفلسطينية .

«هذه عقيدتى التي أعلنتها مرارا ، ولكن اسمح لى ياسيادة الدكتور أن ندين سويا ، ليس فقط من يؤجرون أو يوظفون وطنيتهم للعقيد القذافى ، وانما من يفعل ذلك أيضا لحساب اسرائيل أو المخابرات المركزية الامريكية »

انتهى تعقيب السيد سامح عاشور ،

وأدعو القارئ إلى إعادة قراءة مقالى السابق تحت عنوان :
«المغالطون ولغز طايا» ففيه الرد الوافى عليه .

نقابة الأطباء تعيش في المرسخ ! *

عندما قرأت في الصفحة الأولى
من جريدة الوفد الخبر الذى يقول إن
نقابة الأطباء قد حذرت أطباء مصر من
الاشتراك فى المؤتمر العالمى للصحة
النفسية ، المنعقد بالقاهرة ، وهددت
باحالة من يخالفون هذا القرار إلى
الهيئة التأديبية ! - تصورت للوهلة
الأولى أننى أقرأ عددا قديما من أعداد
الوفد ! ، ووجدت عينى ترتفعان إلى
رأس الصفحة للتحقق من أننى أقرأ
جريدة الخميس ٢٢ أكتوبر ١٩٨٧ ! ،
وبذلك تحققت من أن الخبر حديث
تماما ، وأن نقابة الأطباء تعيش فى
أكتوبر ١٩٨٧ بعقلية أكتوبر ١٩٦٧ .

وفى الحقيقة أننى حاولت أن
أعرف الحكمة من هذا القرار الذى
أصدرته الجمعية العمومية للأطباء ،
والبواعث التى دعت إليه ، وفشلت
تماما ! .

فقد بدأت بالعمل الوطنى ، وهو
أقرب العوامل تبادرا إلى الذهن ،

أكتوبر فى ١ / ١١ / ١٩٨٧

واكتشفت أن هذا العامل يمكن أن يكون معقولا فى حالة واحدة فقط ،
وهى اذا كانت مصر لا تزال فى حالة حرب مع اسرائيل ، ولم تكن قد
أبرمت معاهدة سلام معها فى ٢٦ مارس ١٩٧٩ - أى منذ ثمانى
سنوات، وبمقتضى هذه المعاهدة أصبحت لاسرائيل سفارة فى القاهرة -
أى صار لها تمثيل دبلوماسى فى القاهرة ، وصار لها ممثلون
دبلوماسيون ، يتخاطبون جهارا ونهارا مع وزارة الخارجية المصرية ومع
المسؤولين المصريين .

وإذا كان الأمر كذلك فهل يكون قرار نقابة الأطباء الا نسيانا لهذه
الحقيقة السياسية الصارخة ، التى يعرفها العالم ولا تعرفها بعد نقابة
الأطباء ؟ .

ثم فكرت فى أن الباعث على القرار ربما يكون زيادة فى الشعور
الوطنى ، بسبب طول مدة الصراع بين مصر واسرائيل منذ عام ١٩٤٨
حتى عام ١٩٧٩ ، وأنه لهذا السبب لا تريد نقابة الأطباء لأطبائها الجلوس
مع مشتركين اسرائيلين ! .

ثم تذكرت أن نقابة الأطباء لا يمكن أن تزايد فى الوطنية على السلطة
الوطنية التى تحكم البلاد . فمن حق كل منا أن يختلف مع الحزب الوطنى
ورئيسه ، ونحن بالفعل نختلف معه فى كثير من جوانب السياسات ،
ولكن هناك اعترافا واجماعا على أن هذه السلطة وطنية مائة فى المائة ،
وأن ما تفعله وما تبرمه انما تستهدف به وجه مصر وحدها ، وليس وجه
أية دولة أخرى . وما فعلته السلطة المصرية من ابرام المعاهدة المصرية
الاسرائيلية يماثل تماما ابرام الوفد معاهدة ١٩٣٦ مع دولة الاحتلال ،
لأن السياسة هى فن الممكن وليس فن المستحيل ، ولا يعيب أى قيادة
وطنية أن تحقق الممكن وأن تعجز عن تحقيق المستحيل ! .

وفى هذه الحالة فانه يكون أمرا يبعث السخرية حقا أن يقابل رئيس
الدولة المصرية رئيس الحكومة الاسرائيلية فى القاهرة ، ويقابل رئيس

الحكومة ووزير الخارجية المصرى السفير الاسرائيلى فى القاهرة ، بينما تمنع نقابة الأطباء أطباءها من مقابلة مشتركين اسرائيليين فى مؤتمر علمى ، أو حتى سياسى ، ينعقد فى القاهرة، وتهددهم بالاحالة إلى الهيئة التأديبية اذا خالفوا قرارها ؟.

ذلك أنه سوف يكون من حق أى مخالف أن يخاطب من يحققون معه قائلًا، كيف تمنعنى من فعل شئ، يفعله رئيس البلاد ورئيس حكومتها ووزير خارجيتها ؟، وأكثر من ذلك كيف تمنعنى من حضور مؤتمر يعقد فى القاهرة بموافقة السلطة الحاكمة فيها ، ويحضره اسرائيليون حصلوا مسبقا على تأشيرة دخول من السلطة المصرية ؟.

وأين الحق والضلال فى هذا الموقف؟ : هل هو حق السلطة الحاكمة وضلال نقابة الأطباء ، أو ضلال السلطة الحاكمة وحق نقابة الأطباء ؟

وقد يكون لنقابة الأطباء الحق فى اتخاذ هذا الموقف لو أن السلطة التى تحكم البلاد سلطة مغتصبة وليست سلطة شرعية منتخبة ، أو لو أنها سلطة أجنبية محتلة فى مواجهة السلطة الوطنية ، ولكن السلطة التى تحكم البلاد ، والتى أبرمت معاهدة السلام مع اسرائيل ، والتى تقوم بتنفيذ هذه المعاهدة حاليا ، هى سلطة وطنية شرعية على وجه التحقيق ، وقد أبرمت المعاهدة ، وهى تنفذ المعاهدة ، لما تراه من أن مصلحة الوطن العليا قد اقتضت ذلك ، وقد ساند الشعب هذه السلطة فيما فعلته وأبرمته - وهذا مما لا جدال فيه - وما زال الشعب المصرى ملتزما بهذه المعاهدة ، ولم يرتفع صوته وطنى يطالب بالغائها وإعادة حالة الحرب بين مصر واسرائيل ! .

ثم إن الشعب المصرى قد خاض معركة ضارية مع البلاد العربية بسبب هذه المعاهدة . حين ظهر على المسرح السياسى ما عرف باسم جبهة الصمود والتصدى ، التى أثبت تاريخها أنها جبهة الخزى والتردى، واستطاعت هذه الجبهة المشبوهة أن تجر وراءها الغالبية

العظمى من البلاد العربية ، فجروئت على قطع علاقاتها السياسية مع مصر ، وسحب مقر جامعة الدول العربية من القاهرة إلى تونس . ثم انقسمت جبهة الصمود والتصدي في الحرب العراقية الايرانية ، فانحازت كل من ليبيا وسوريا إلى ايران الفارسية ضد العراق العربية .

ولم يفد الدول العربية انقلابها على مصر شيئاً ، فقد تردت أوضاعها سياسيا بما لم يسبق له مثيل في التاريخ الحديث ، وأصبحت «ملطشة» لاسرائيل والولايات المتحدة وايران ، فذراع اسرائيل الطويل يضرب المفاعل الذرى في العراق ، ثم يضرب مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس ، والولايات المتحدة تضرب طرابلس ، وايران تضرب الكويت ! .

والعرب في خلال ذلك يضربون بعضهم البعض في لبنان !، بل ان منظمة التحرير الفلسطينية تدخل في حرب أهلية وتكاد تصفى عرفات بواسطة القوات الفلسطينية الموالية لسوريا ! .

وفى خلال ذلك كله كان يتضح صواب موقف مصر وسياستها لكل من العرب والفلسطينيين على السواء ، وكانت تزحف على استحياء مقتربة من الموقف المصرى . وقبل أن يقابل مبارك بيريز فى القاهرة كان الملك الحسن يقابله فى المغرب ! وكانت البلاد العربية تقبل فكرة المؤتمر الدولى ، الذى لا يعدو أن يكون مظلة تجرى تحتها المفاوضات المباشرة - التى أجرتها مصر بدون أية مظلة !.

ولم يبق متخذاً الموقف - الذى تتخذه نقابة الأطباء - سوى القذافى الذى لم يطلق طلقة واحدة ضد اسرائيل ، والذى لا يحارب الاالتشاديين!، وحافظ الأسد ، الذى غزت القوات الاسرائيلية لبنان فى ظل أعلامه وحرابه ، والذى لم يحارب اسرائيليين منذ انتهاء حرب أكتوبر ، وانما كان دائماً يحارب لبنانيين وفلسطينيين ! . فأى شرف لنقابة الأطباء فى تبني موقف الحاكمين اللذين يحكما شعبيهما بالحديد والنار؟ .

لقد حضرت مؤتمرا علميا فى جامعة لندن منذ بضعة سنوات ، حضره علماء من ليبيا واسرائيل ، وكل فعله العلماء الليبيون أن انسحبوا من قاعة المؤتمر عندما صعدت عالمة اسرائيلية لتلقى بحثها! . وكان بجوار عالم تونسى ، ونظر إلى متأسفا وهو يقول : هل هذا سلوك حضارى ؟ ألم يكن الأجدى تواجد هؤلاء العلماء فى القاعة ، ليناقشوا عالمة الاسرائيلية الحساب ، ويصححوا لها ما قد تدلى به من أخطاء ، بدلا من ترك الساحة لها خالية تقول فيها ما تشاء ؟.

ولكن نقابة الأطباء تذهب إلى مدى أبعد ، فهى لا تفعل كما فعلت ليبيا - أى تسمح لأطبائها بحضور المؤتمر فى القاهرة ، وتطلب منهم الانسحاب من القاعة عند صعود أحد من الاسرائيليين المشتركين إلى المنصة ، وانما تمنعهم أصلا بحجة وجود مشتركين اسرائيليين ! فهل أفهم من ذلك أن نقابة الأطباء تمثل دولة أخرى أكثر تشددا من ليبيا ؟.

ولقد تبادر إلى ذهنى أن الموقف الذى اتخذته نقابة الأطباء انما كان الباعث عليه الحماس للقضية الفلسطينية ، والرغبة فى التنسيق مع مواقف منظمة التحرير الفلسطينية . ولو كان ذلك صحيحا فان نقابة الأطباء تكون منعزلة تماما عما يجرى من تطورات على الساحة الفلسطينية ، وهى عزلة محزنة للغاية ، لأنها لا تعرف أن منظمة الفلسطينية قد تخلت عن تلك السياسة العقيمة القديمة بعدم لقاء اسرائيليين ، وأنها أصبحت تبارك أى لقاء يكون فيه أى تقدم فى القضية الفلسطينية . ومع أن مثل هذه اللقاءات كانت تجرى على الدوام حتى فى أشد أوقات المقاطعة ، الا أن ياسر عرفات بنفسه قد جلس علانية مع اسرائيليين منذ بضعة سنوات من أجل صالح بلاده ، وحطم بذلك الحاجز الأحمق القديم ، الذى ساعد اسرائيل على الاحتفاظ حتى الآن بالأراضى التى احتلتها فى يونية ١٩٦٧ ، وأضر بالقضية الفلسطينية كل الاضرار .

ولو كانت نقابة الأطباء تقرأ الصحف اليومية لقرأت الكثير من مثل هذه اللقاءات بين فلسطينيين واسرائيليين ! . ولست أعتقد للحظة واحدة

أن نقابة الأطباء تريد المزايدة على ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية ، لأنها تثير بذلك السخرية أكثر مما تثير التقدير ! .

وإذا كان الأمر كذلك ، وإذا كانت نقابة الأطباء لا تستطيع أن تزعم أنها أكثر وطنية من السلطة الحاكمة في بلادنا ، كما أنها لا تستطيع أن تزعم أنها أكثر فلسطينية من منظمة التحرير الفلسطينية ، وهي لا تستطيع أيضا أن تزعم أنها أكثر تشددا من النظام الليبي ، الذي لم يعترض على حضور العلماء الليبيين مؤتمرا في جامعة لندن حضره اسرائيليون - فهل أفهم من ذلك أن نقابة الأطباء تعيش في المريخ ؟ .

اننى لا أقصد بهذا المقال الا تنتبه نقابة الأطباء إلى حقائق العصر السياسية التي تريد أن تتجاهلها ، وسوف أعفيها مؤقتا من حقائق السياسة العالمية التي تمثلت في التغيير الذي طرأ على سياسة الاتحاد السوفيتى مؤخرا ، حتى لا نزيد جرعة الحقائق المرة .

مع احترامى لكل أعضاء النقابة وجمعيتها العمومية ، الأمناء على صحة الأمة المصرية البدنية والعقلية ! .

نقابة الأطباء بين أرض الواقع وأرض المريخ ! *

عندما كتبت مقالى فى عدد أول
نوفمبر ١٩٨٧ من «أكتوبر» بعنوان :
«نقابة الأطباء تعيش فى المريخ» ، كنت
أعلم أنه سوف يحدث شعورا غير مريح
لأعضاء النقابة ولنقيبيها ، لأنى أعترض
على قرار اتخذه الجمعية العمومية
يتجاهل حقائق العصر وواقع الصراع
العربى الاسرائيلى ، ولكن لم يكن لى
حيلة غير مواجهة النقابة بما غاب عنها
عند اتخاذ قرارها بمنع الأطباء من
حضور مؤتمر الصحة النفسية الذى
عقد بالقاهرة فى الشهر الماضى ،
بحجة اشتراك اسرائيليين فيه ! ، وأكثر
من ذلك تهديدهم بالمحاكمة التأديبية !.

وقد صح ظنى ، لأنى تسلمت
رسالة من الأستاذ الدكتور سالم نجم ،
الأمين العام لنقابة الأطباء ، يرد فيها
على ما ورد فى مقالى ، ويقدم مبررات
قرار النقابة ، وهو رد يفسح الفرصة
مرة أخرى لكى أمضى بمناقشة

أكتوبر فى ٦ / ١٢ / ١٩٨٧

القضية التي أثرتها إلى أبعاد أخرى ، توضح أمام جماهيرنا المزيد من جوانب الصورة .

وتمضى رسالة الدكتور سالم نجم على النحو الآتى :

«كتب الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان فى مجلة أكتوبر عدد أول نوفمبر ١٩٨٧ مقالا بعنوان : «نقابة الأطباء تعيش فى المريخ» ، وفيه يفند موقف النقابة العامة للأطباء ، مستنكرا رفضها اشتراك اسرائيليين المؤتمر العالمى النفسى الذى عقد فى القاهرة فى النصف الثانى من شهر أكتوبر ١٩٨٧ .

«ولقد وصف الدكتور رمضان النقابة بصفات كثيرة ، منها : المزايدة الوطنية المصرية ، ومخالفاتها لقرارات الحكومة الوطنية وممارستها الرسمية مع اسرائيل ، وكذلك التهافت المجهل لتملق المشاعر الوطنية لرجل الشارع المصرى . كما وصفها بالاضلال والاضلال ، وأقحم سيادته الحزب الوطنى الحاكم ورئيسه ودستورية الحكومة وشرعيتها بصورة لا تمت إلى موضوع المؤتمر بأية صلة ، اللهم الا اذا كان هدفه استعداد السلطات ضد النقابة .

«ثم تحدث باسم الشعب المصرى ، رافضا موقف نقابة الأطباء المثير للسخرية - على حد قوله - ومن أطرف ما أتى به الدكتور عبد العظيم رمضان أن صنف نقابة الأطباء فى جبهة الصمود والتصدى ، أو بمعنى آخر جبهة الخزى والتردى بزعماء العقيد معمر القذافى والرئيس حافظ الأسد . وهنا موضوع الدهشة ! أيقصد حقا ما يقول أن النقابة العامة للأطباء عميلة القوى الأجنبية وتعمل بوحى أو توجيه من هذا الجهات المشبوهة ؟ .

«ويصف الدكتور رمضان موقف نقابة الأطباء بالتشدد فى قضية فلسطين أكثر من رئيسها السيد ياسر عرفات أو منظمة التحرير الفلسطينية . وأخيرا يتهم النقابة بمعاداتها للعلم والعلماء ، ويصفها بالجهل والغربة عن العصر وعما يجرى فى العالم أو يجرى فى مصر . وتلك ثلاثة الأتافى كما يقول المثل الشائع .

«والآن ليسمح لى الدكتور رمضان بتنفيذ ما قاله عن اسرائيل وعلماء اسرائيل وعن موقف النقابة المزرى والمثير للشفقة والسخرية لمعارضتها اشتراك اسرائيل فى المؤتمر النفسى الذى عقد بالقاهرة الشهر الماضى . أولا- ماهو الهدف من مقال الدكتور رمضان ؟

(١) ليؤكد أن السلطة وطنية ١٠٠٪ ، ونحن لانشك فى ذلك لحظة واحدة ، ولكن لماذا يعتبر بعض الكتاب معارضة الحكومة خيانة وطنية ؟ ، وأن الذى يخرج عن الحكومة لابد وأن يتبع القذافى والأسد؟ ، أو يتهم بأنه متخلف يعيش فى المريخ ؟ . أليس ذلك نوع من الارهاب المرفوض ؟ .

(٢) هل يريد أن يعلمنا أن السياسة هى فن الممكن وليس المستحيل؟، أن قيادتنا حققت الممكن بعد أن عجزت عن تحقيق المستحيل؟، أو بمعنى آخر أن الممكن هو تطبيع العلاقات مع اسرائيل ؟ . ويدل على ذلك بتخلى منظمة التحرير الفلسطينية عن سياستها العقيمة القديمة وأصبحت تبارك اللقاء بالاسرائيليين ؟ ، ويضيف بأن موقف نقابة الأطباء مثير للسخرية حيث تزعم أنها أكثر فلسطينية من الفلسطينيين أنفسهم ؟ .

«وبداية نود أن نشير إلى أن هذا ليس موقف نقابة الأطباء وحدها ، ولكن يشترك معها فيه الكثير من الأحزاب والنقابات . فعلى سبيل المثال نقابة المحامين والمهندسين .. الخ .

«أما عن الممكن الذى حققته القيادة الوطنية ، وهو معاهدة ٢٦ مارس ١٩٧٩ ، والتي مر عليها أكثر من ثمانى سنوات ، أو الخطوة الأولى على طريق تطبيع العلاقات مع اسرائيل - فهو فى تقديرى لم يتعد التمثيل الدبلوماسى المجمل ! .

«أما عن القول بأن نقابة الأطباء تزعم أنها أكثر فلسطينية من الفلسطينيين أنفسهم ، فقول مردود عليه فى نفس المقال حيث يقول د . عبد العظيم رمضان بأن الدول العربية أصبحت ملطشة لاسرائيل ، فذراع اسرائيل الطويلة تضرب المفاعل النووى فى العراق ومقر منظمة التحرير فى تونس وتقيم المجازر للفلسطينيين والمذابح للبنانيين فى لبنان وفلسطين المحتلة .

«ان عجز القيادات العربية الحالية عن طريق مقاومة هذا الجسم الغريب الذى تم زرعه فى الأرض العربية لتحقيق هذا التفسخ وهذا الانهيار فى الأمة العربية ، لا يعطينا الحق فى مصادرة جهاد الأجيال القادمة لتحقيق ما عجزنا نحن عنه . ولهذا واجبنا الأول هو أن نبقى جذوة الجهاد ضد هذا العدو المغتصب متقدة فى نفوس أبنائنا برفض التعايش مع هذا العدو أو التطبيع أو كسر الحاجز النفسى بيننا وبينهم .

«ولا ننسى إن نسينا أن كان هنا دويلات وممالك صليبية تم انشاؤها من قبل على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، واستمرت مائتى عام حتى تم طردها وتحرير بيت المقدس على يد البطل الكردي المسلم صلاح الدين الأيوبي . وان شاء الله لن تعقم الأمة العربية فى انجاب مثل هذا المجاهد العظيم .

«والحقيقة أننا لم نجد من بين الغالبية العظمى من الكتاب وأهل الفكر والرأى والوطنية من أبناء مصر من يرحب بالوجود الاسرائيلى مثل ترحيب د . رمضان . فهل معنى ذلك أن الجميع يعيشون فى المريخ ؟

«وأخيرا أهمس بكلمة عن حقيقة موقف الأطباء من العلم والعلماء . وأقول للدكتور عبد العظيم إن مهنة الطب تحتم على الأطباء أن يواكبوا التطور والتقدم العلمى على المستوى العالمى ، ولذا تجدهم أكثر المهنيين اقامة للمؤتمرات العلمية على المستوى المحلى والاقليمى والعالمى ، كما أنهم أكثر الفئات تعمقا فى تخصصاتهم ودراساتهم العليا وثقافتهم المتنوعة . ولا أقول ذلك من باب الفخر أو التعالى - حاشا لله - ولكن طبيعة المهنة الطبية تحتم عليهم ذلك . لذلك فلا يحق لانسان أن يصف ممثلى الأطباء بأنهم يعيشون فى ظلمات الجهالة والجهل وأنهم أعداء العلم والعلماء . وأختتم ردى هذا بالتأكيد على أن قرار مجلس نقابة الأطباء ينبع من قرار الجمعية العمومية للأطباء بتجريم مشاركة اسرائيل لأى نشاط مهنى وعلمى على أرض مصر » .

انتهى كلام الدكتور سالم نجم ، وواضح لمن قرأ مقالى السابق أن الدكتور سالم نجم يرد على ما تصور أننى أعنيه من مقالى ، وليس على ما كتبه بالفعل ! .

فقد نسب إلى الدكتور سالم نجم أننى وصفت نقابة الأطباء بالتهاتف المجهل لتملق المشاعر الوطنية لرجل الشارع المصرى ، ولم يصدر منى ذلك ، لسبب بسيط هو أننى لا أرى فيما قررته نقابة الأطباء ما يتملق مشاعر رجل الشارع المصرى الوطنية فى قليل أو كثير . فقد ارتضى رجل الشارع المصرى السلام فى الاطار الذى حددته معاهدة المصرية الاسرائيلية ، ولم يطالب حزب واحد فى مصر بإلغاء هذه المعاهدة والعودة إلى حالة الحرب ، ولوطالب حزب بذلك لما أعاره الشعب المصرى أى اهتمام . وبالتالي فإن أية قرارات - من مثل ما أصدرته نقابات الأطباء - لا يمكن أن تخاطب المشاعر الوطنية للشعب المصرى من قريب أو من بعيد ، وهى تصدر وتموت دون أن يهتم بها أحد من أفراد الشعب!.

كذلك نسب إلى الدكتور سالم نجم أننى اتهمت نقابة الأطباء بمعادة العلم والعلماء ، ولم يصدر عنى ذلك ، وقد أقحم الدكتور سالم نجم هذه التهمة ليدلل على مواكبة الأطباء للتطور والتقدم العلمى. وهى بديهية لا تحتاج إلى تدليل ، لأن معاداة الأطباء للعلم والعلماء تعني تخلفهم العلمى، ولم أتهم نقابة الأطباء بالتخلف العلمى ، وإنما اتهمتها بالتخلف السياسى!، لأنه إذا كان على الأطباء متابعة أحدث الاكتشافات العلمية ، فإن عليهم أيضا أن يتابعوا أحدث التطورات السياسية ، خصوصا إذا كانت تختص بوطنهم وبقضية الحرب والسلام .

ولقد سعدت حين فرأت للدكتور سالم نجم أن نقابة الأطباء لا تشك لحظة واحدة فى وطنية السلطة الحاكمة ، ومعنى ذلك أنها لا تشك فى وطنية القرارات والاتفاقات التى تبرمها هذه السلطة بخصوص الحرب والسلام . وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا تتبنى نقابة الأطباء مواقف وسياسة حكومات أجنبية معادية لمصر ومتآمرة عليها تتهم السلطة المصرية بأنها سلطة خائنة لأنها أبرمت المعاهدة المصرية الاسرائيلية ؟ ،

وإذا كانت هذه الحكومات تتمثل فى حكومتى القذافى وحافظ الأسد بالدرجة الأولى ، فما هى الوطنية فى قرارات نقابة الأطباء ، أو فى مواقف غيرها من النقابات ، وهى تقف فى جبهة الصمود والتصدى المزعومة ؟ .

على أن الدكتور سالم نجم يتهمنى بأنى أستعدي السلطات ضد النقابة ، وهو يعلم جيدا أن هذا الاستعداد إذا جاز مع حكومة عبد الناصر أو السادات على سبيل المثال - فلا يجوز مع حكومة محمد حسنى مبارك ، لأن نظام مبارك يترك الحرية للنقابة ولغيرها أن تتخذ من المواقف ما تشاء ، وأن توافق أو لا توافق على المعاهدة المصرية الإسرائيلية ، دون أن يترتب على ذلك أى ضرر يلحق الرفض للمعاهدة . فما هو جدوى الاستعداد إذن ؟ .

وقد برر الدكتور سالم نجم قرارات نقابة الأطباء بأن الكثير من الأحزاب والنقابات يشتركون معها فيه ، وضرب المثل بنقابة المحامين والمهندسين . ولست أعلم أن نقابة من النقابات المهنية هددت أعضائها باجالتهم إلى المحاكمة التأديبية إذا هم حضروا مؤتمرات علمية يحضرها اسرايليون ! .

ولو كان هناك مثل تلك القرارات فانها لا تثير أكثر من الرثاء مهما كانت صفة من اتخذوها ، لأن الاسرائيليين يحضرون معظم المؤتمرات العالمية ، بحكم اعتراف دول العالم فى غالبيتها الساحقة باسرائيل ، ومعنى مثل هذه القرارات حرمان هؤلاء الأعضاء من حضور المؤتمرات العالمية بتلك الحجة السخيفة ، وعزلهم عن التيارات الفكرية والتطورات العلمية ، والمستفيد الوحيد من ذلك هو اسرائيل وحدها ! .

ثم ان مثل هذه القرارات تطفح بالنفاق ، لأنها تقتصر على اسرائيل ولا تمتد إلى الولايات المتحدة ، التى يعلم الجميع صلتها باسرائيل ودورها فى زرعها وتثبيتها فى المنطقة العربية . ولو كان أصحاب هذه القرارات مخلصين فى دوافعهم الوطنية لعاملوا الولايات المتحدة بالمثل ! ،

ولكن الملاحظ أنهم يتهافتون على الولايات المتحدة وعلى زيارتها وحضور مؤتمراتها والتعاون مع علمائها ، كأنها عدوة اسرائيل الأول ، وليست صديقتها وحاميتها الأولى ! .

ولعل الدكتور سالم نجم يتفق معى فى أن الوطنية لا تتجزأ ، فلسبت أفهم كيف يقول إنه « واجبنا الأول هو أن نبقى جذوة الجهاد ضد العدو المغتصب متقدة فى نفوس أبنائنا برفض التعايش مع هذا العدو أو التطبيع أو كسر الحاجز النفسى بيننا وبينهم » - بينما يقبل اخمادجذوة الجهاد ضد الامبريالية التى تشعل المنطقة العربية نارا ، وتبسط سيطرتها على العالم العربى ، والتى تدعم اسرائيل بالسلاح الذى تغلب به كفتها على العرب ؟ .

وكيف يرفض التطبيع وكسر الحاجز النفسى مع العدو الفرعى ، بينما يرحب بهذا التطبيع مع العدو الأساسى كأنه صديق حميم ؟ .
لقد سقط خط بارليف فى ست ساعات ، ولكن الجسر الجوى الأمريكى ، ومساعدات الولايات المتحدة الفنية لا اسرائيل فى تنفيذ عملية الثغرة ، قلبت دفة الحرب ، وحولت اسرائيل من عدو مهزوم إلى عدو يتقدم فى الضفة الغربية ، ويهدد السويس ، ويحاصر الجيش الثالث غرب القناة ! .

فهل نحن نخفى رؤوسنا فى الرمال ، وهل نخدع أنفسنا إلى حد النضال بمثل هذه الوسائل العقيمة المضحكة التى تترد إلى صدورنا بالدرجة الأولى ، وهي الامتناع عن حضور المؤتمرات التى يحضرها اسرائيليون ! ، ونسمى ذلك نضالا ، ونزايد بذلك على القوى الوطنية الحقيقية التى حررت سيناء وخلعت الحذاء الاسرائيلي من أرض الوطن ؟ ،
والطريف حقا استشهاد الدكتور سالم نجم بالبطل الكردي المسلم صلاح الدين الأيوبي الذى يذكر أنه طرد الديويلات والممالك الصليبية التى تم انشاؤها من قبل على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وحرر بيت القدس .

ولو علم الدكتور سالم نجم أن بطله الكردي هذا هو صاحب مدرس الاتصال بالعدو والذهاب إلى العدو في عقر داره ، لما استشهد به ! ، ولا علم أن السادات ، وهو يذهب إلى القدس ، إنما كان يقتدى بسلفه صلاح الدين ! ، لما اختاره لمساندة قضيته .

فلم يكن صلاح الدين يتردد في الاتصال بأعدائه الصليبيين ويجرى المفاوضات معهم لتحسين وضعه ، وكان يذهب في ذلك إلى ح تبادل المجاملات معهم ! . فحين مرض ريتشارد قلب الأسد ، قائد الحما الصليبية الثالثة ، أثناء حصاره عكا الذي استمر لمدة عامين حتى عا ١١٩١ - وكان في حاجة إلى الدواء والفواكه والثلج ، أرسل إليه صلاح الدين ما يريد ، ومكن رسله من زيارة الأسواق الإسلامية .

وبعد نصر الصليبيين في عكا اتصلت صداقة ريتشارد بالعاذل أخى صلاح الدين ، حتى برز مشروع زواج بين الملك العاذل والمدة جوانا الصقلية أخت ريتشارد ! .

والحقيقة التاريخية الأخرى التى لا يعلمها الدكتور سالم نجم ، ه أن صلاح الدين هو صاحب مدرسة الواقعية التى سار السادات عا هديها . فالسياسة هى فن الممكن وليست فن المستحيل ، وعظم السياسى تتمثل فى تمييزه بين الممكن والمستحيل ، ثم اقدمه بشجاء للحصول على الممكن قبل أن تتغير الظروف ويتحول إلى مستحيل ! .

لذلك سوف يدهش الدكتور سالم نجم اذا عرف أن صلاح الدين بعد أن فتح مدينة بيت المقدس فى ٢ أكتوبر ١١٨٧ ، اضطر ، بعد سقو عكا ويافا فى يد الصليبيين ، إلى ابرام صلح الرملة فى سبتمبر ١١٩٢ الذى أعطى الصليبيين المدن الساحلية التى تمتد من عكا شمالا إلى يافا جنوبا ، ومنح الحجاج المسيحيين الحق فى زيارة بيت المقدس ! .

ومن هنا فلم يكن فتح صلاح الدين لبيت المقدس هو خاتمة الحرو الصليبية ، وإنما تبعته انتكاسات وانتصارات استمرت مائة عام أخرى وانتهت بخروج الصليبيين من الشام .

ولو أن صلاح الدين خاصم الصليبين كما يخاصم العرب
الاسرائيليين الآن ، واكتفى باصدار القرارات بعدم الجلوس معهم في
الندوات العلمية أو غيرها كما تفعل نقابة الأطباء حاليا ، لسعد
الصليبيون بهذا الخصام ، ولبقوا في المشرق العربي حتى يومنا هذا ! .
ولكن من حسن حظ العالم العربي أن صلاح الدين لم يكن يملك حكمة
نقابة الأطباء ! .

الأمية السياسية في المركز القومي للسينما! *

تابعت بشغف كبير المعركة التي دارت بين المركز القومي للسينما ولجنته النقابية وبين السيدة منى جمال الدين المخرجة بالمركز القومي للسينما ، بسبب اشتراك السيدة المخرجة فى مهرجان بالقدس المحتلة ، وادلائها بأحاديث للاذاعة الاسرائيلية ، وانتهت بحالة السيدة للنيابة الادارية للتحقيق معها ، واجتماع اللجنة النقابية بالمركز بتاريخ ١٩ / ٧ / ١٩٨٩ - أى قبل انتهاء التحقيق ! - واتخاذها قرارا - بالاجماع - بشطب عضويتها من اللجنة النقابية للعاملين ! ثم اصدار التسجيلين بالمركز - بمختلف تخصصاتهم الفنية - بتاريخ ٢٤ / ٧ / ١٩٨٩ ، قرارا بعدم التعاون مع المخرجة المذكورة ، وأخيرا تجميد النشاط الفنى الذى كانت تمارسه المخرجة المذكورة بالمركز لحين تكامل عناصر المخالفات الموجهة اليها بمعرفة جهات التحقيق !

أكتوبر فى ٢٠ / ٨ / ١٩٨٩

وقد أدركت أنني أمام احدى كوميديات عادل أمام أو فؤاد المهندس وعبد المنعم مدبولى وشويكار الرائعة ، التى تعتمد على المفارقات ، فتفترض جهل أبطالها بالحقيقة ، وتصرفهم على أساس هذا الجهل ، بينما يعرف المشاهد الحقيقية ويضحك لهذا الجهل !

نعم أغرقت فى الضحك ، لأن أبطال الكوميديا التى قام بها المركز القومى للسينما ولجنته النقابية قد تصرفوا على أساس أن مصر تعيش فى عام ١٩٧٢ ، حين كانت سيناؤها محتلة بالقوات الاسرائيلية ، وكانت مصر فى حالة حرب مع اسرائيل ، وكان الاتصال باسرائيل فى ذلك الوقت يعد من أعمال الخيانة والمروق من الوطنية .

ومسحوا من تاريخ مصر - أقصد من ذاكراتهم - حرب أكتوبر ومعركة العبور ومفاوضات الكيلو ١٠١ واتفاقيات فض الاشتباك ، ومبادرات السلام التى قام بها السادات ، وزيارة القدس ، والمفاوضات المصرية الاسرائيلية ، واتفاقيتى كامب ديفيد ، والمعاهدة المصرية الاسرائيلية ، وانسحاب القوات الاسرائيلية من سيناء ، ثم المفاوضات حول مشكلة طابا ، وحكم محكمة العدل الدولية ، وانسحاب اسرائيل من طابا ، وتسليمها للقوات المصرية، وتحرير كامل الأرض المصرية ، وانتهاء الخصومة المصرية الاسرائيلية .

نعم ضحكت لأن أبطال الكوميديا فى المركز القومى للسينما قد قاموا بأدوارهم على أساس الجهل بكل هذه الحقائق التاريخية بينما يعرف المشاهدون - وهم كل شعب مصر - هذه الحقائق !

وضحكت أكثر فأكثر حين تذكرت أن الدكتور بطرس بطرس غالى كان يزور اسرائيل قبل شهر أو أكثر ، وبالتحديد فى ١١ يونيو ١٩٨٩ ، وقبله بعامين تقريبا كان الدكتور عصمت عبد المجيد يزور اسرائيل ! وتصورت أن كلا منهما كان معرضا لشطب عضويته وتجميد نشاطه وعدم التعاون معه ، لو كان يعمل بالاعراج فى المركز القومى للسينما ،

ولكن حسن حظهما قادهما ليصبحا وزيرى خارجية ، ويضعهما فى موقع صنع القرار السياسى فى مصلحة هذا الوطن ولصالح هذا الشعب .

ومن حق البعض أن يقوم بهذا التهريج فى هذا البلد ، بين الفينة والفينة ، لاضحاك شعبنا والتخفيف من همومه الاقتصادية ، ولكن بشرط أن يعمل لحسابه الخاص ، وليس باسم مركز يحمل اسم المركز القومى ! كما أن من حق البعض أن يزايد على وطنية نظامنا الوطنى الذى أبرم المعاهدة المصرية الاسرائيلية ، وحرر سيناء فى وجه معارضة امتدت من الخليج إلى المحيط ، ووصلت إلى بعض المخدوعين فى بلدنا - فيقوم بتجريم عمل يقوم به أكبر مسئولين فى الدولة عن سياستها الخارجية ، وينكل بمن يقوم به ، فيحيله إلى النيابة الادارية ، ويشطب عضويته ، ويقرر عدم التعاون معه - ولكن بشرط أن يتبع مؤسسة أهلية وليس مؤسسة رسمية ، وبشرط أن يقوم به بمبادرة شخصية بحتة ، ولا يشرك معه الجميع .

وعلى سبيل المثال ، فقبل عامين قامت نقابة الأطباء بدور كوميدى مثير ، فأرعدت وأبرقت ، وحذرت أطباء مصر من الاشتراك فى المؤتمر العالمى للصحة النفسية المنعقد بالقاهرة ، وهددت باحالة من يخالفون هذا القرار إلى الهيئة التأديبية بحجة اشتراك أطباء اسرائيلين فيه ! ولكن نقابة الأطباء هيئة أهلية وليست مؤسسة رسمية، ومن حق القائمين عليها أن يجهلوا تاريخ مصر المعاصر ، ويجهلوا الأحداث المعاصرة ، ويجهلوا التطورات التى طرأت على العلاقات المصرية الاسرائيلية ، ويتصوروا أن مصر ما زالت تعيش فى حالة حرب مع اسرائيل ، ويتخذوا مواقف عنترية من أمثال ذلك الموقف الذى اتخذته المركز القومى للسينما - ولكن ليس من حق المركز القومى للسينما اتخاذ هذا الموقف ، لأنه مفروض فيه أنه جزء من أجهزة الدولة ، ومن المفترض أن يلتزم بسياستها ،

ومع ذلك فقد كنت خليقا بأن أتمس له العذر لو كانت السياسة التى تتبعها الدولة سياسة غير وطنية ، ولو كان النظام فى بلدنا نظاما غير

وطنى، ولو كان رئيس الدولة الذى يرسم سياستها وصل إلى الحكم عن طريق انقلاب عسكري ولم يصل باستفتاء شعبي ، أو لو كان قد فقد ثقة الشعب به وسياسة وظهر ذلك فى تحركات القوى الوطنية .

ولكن النظام السياسى فى بلدنا نظام وطنى باعتراف الأعداء قبل الأصدقاء ، وأكثر من ذلك أنه يلقى الثقة من الشعب ، وسياسته التى قامت على المصالحة مع اسرائيل قد لقيت تأييد الشعب من أول لحظة - أى منذ أعلن المرحوم السادات عن مبادرة السلام وعزمه على زيارة القدس ، وقد ساند الشعب هذه السياسة مساندة صلبة وثابتة على مدى اثنى عشر عاما كاملة دون وهن أو ضعف ، وبفضل هذه المساندة العبقريّة تحررت سيناء وتحررت طابا ، فكانت أول أرض عربية تتحرر من بين الأراضى التى احتلت فى يونية ١٩٦٧ .

وقد اعترفت الشعوب العربية بحق مصر فى تحرير أرضها عن هذا الطريق - طريق المصالحة مع اسرائيل - وأنهت مقاطعتها لمصر ، وأعادت علاقاتها ، وعادت مصر إلى موقعها فى جامعة الدول العربية .

فإذا جاء المركز القومى للسينما ، يزايد على السلطة الوطنية ، ويحيل مخرجة فيه إلى النيابية الادارية ، ويشطب اسمها من اللجنة النقابية ويقرر عدم التعاون معها ، لأنها قامت بما يقوم به كبار رجال الدولة والحكم فى مصر ، وبما قام به وزير خارجيتها ، وبما قام به كثير من الكتاب والمفكرين الوطنيين ، مثل مكرم محمد أحمد وعبد الستار الطويلة ، فان من حقنا أن نعلن اعتراضنا على هذه المزايدة غير المعقولة ، أو نضحك على هذه الأمية السياسية المتفشية فى المركز ، والتى عزلته عن كل التطورات السياسية التى طرأت على العلاقات المصرية الاسرائيلية منذ عبورنا القناة وتحطيمنا خط بارليف ، حتى تحرير كامل سيناء ، ومرورا بمبادرة السلام واتفاقيتى كامب ديفيد والمعاهدة المصرية الاسرائيلية !

بل نضحك لأن المركز القومى للسينما لا يعلم عدد السائحير
الاسرائيليين الذين يفدون إلى مصر ، والترحاب الذى يقابلون به من
الشعب المصرى فى أى مكان يتجهون اليه .

وهذا يثبت أن الشعب المصرى هو المعلم حقا ، وأنه سبق كثيرين من
المثقفين فى وعيه السياسى وحنكته السياسية ، وأنه أكثر منهم فهما
لمصالحه الحقيقة ، وأنه ليس فى حاجة لمثل تلك المظاهرات التى تقوم بها
تلك المراكز والنقابات وغيرها ، والتى لا يعلم أحد حقا من تمثل ؟ هل
تمثل موقفا للشعب المصرى وهذا موقفه المعلن ؟ أو تمثل مصالح خاصة
لأصحابها ؟ أو أنه مجرد تخطيط سياسى لا معنى له ولا منطلق له الا تلك
الأمية السياسية التى تحجب الحقائق السياسية عن أصحابها ، وتعزلهم
عن مجموع الشعب وعن سياسات النظام السياسى الوطنى ، الذى يعبر
عن مصالح الشعب بأكثر مما تعبر عنها أوهامهم ! .

اننى أعلم أن هناك من سوف يتعلل فى المركز القومى للسينما
بالقضية الفلسطينية ، ويرد بأن التصرف الطائش الذى قام به ، والاعتداء
الذى قام به على المخرجة المذكورة ، انما قام به مساندة للانتفاضة
الفلسطينية ! وأرجو أن يسبق ذكاء هذا البعض هذا القول فلا يردده ،
لأنه يكون بمثابة عذر أقبح من ذنب ، فهو مزايده على وطنية الشعب
المصرى ونظامه السياسى !

فالشعب المصرى عندما أيد مبادرة السلام التى قام بها السادات ،
وعندما أيد اتفاقيتى كامب ديفيد ، ووافق على المعاهدة المصرية
الاسرائيلية ، كان يعلم أنه يحرر أرضه وحده بينما لازالت الضفة الغربية
وغزة والجولان تحت الاحتلال الاسرائيلى ، ولكنه اعتبر تحرير سيناء
عملا ايجابيا لأن تحرير أية أرض عربية هو على وجه التحقيق خطوة إلى
الأمام .

وعندما قام الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية وغزة بانتفاضته

الرأفة ، لم يتردد الشعب المصرى فى تأييد هذه الانتفاضة بكل قواه ، وسارع النظام السياسى الوطنى فى بلدنا بمساندتها بكل امكانياته ، على نحو استحق عليه الاشادة من الشعب الفلسطينى وممثليه الحقيقيين وهم منظمة التحرير الفلسطينية ،

ولكن هذه المساندة من جانب الشعب المصرى لم تتخذ شكل دعوة إلى الانتفاض على الاتفاقية الدولية المبرمة مع اسرائيل ، ولم تتضمن دعوة إلى قطع العلاقات السياسية معها .

وفى الوقت نفسه ، فان النظام السياسى استفاد من علاقاته السياسية مع اسرائيل فى تقريب وجهات النظر بين حكومتها و المنظمة ، ومحاولة خدمة مصالح الشعب الفلسطينى . ولكن ذلك لم يتخذ شكل خطوات رعناء مثل قطع العلاقات أو الاتصال أو منع زيارة المسئولين المصريين لاسرائيل ، أو زيارة المسئولين الاسرائيليين لمصر .

ومن هنا فلا يمكن أن يكون المركز القومى للسينما أكثر حرصا على مصالح الشعب الفلسطينى من الشعب المصرى أو من النظام السياسى الوطنى فى بلدنا ، حتى يبيح لنفسه باسم هذا الحرص الاعتداء على مخرجة من مخرجيه لزيارتها اسرائيل والاشتراك فى مهرجان عقد بالقدس المحتلة .

كذلك لا يمكن أن يزايد المركز القومى للسينما على ممثلى الشعب الفلسطينى ، وهم منظمة التحرير الفلسطينية ، بعد أن تخلت المنظمة عن سياسة العزلة القديمة التى كانت تدين بمقتضاها كل من يقابل اسرائيليين أو يزور اسرائيل ، وأصبحت اللقاءات بين ممثلى المنظمة والاسرائيليين تنشر فى الصحف كل يوم ، وبعد أن كانت اللقاءات تقتصر فى البداية على قوى السلام الاسرائيلية أصبحت تجرى الآن مع ممثلى الحكومة الاسرائيلية بل واسحق شامير نفسه ! وقد أسمت منظمة التحرير هذه السياسة اسم «هجوم السلام الفلسطينى» .

ومنذ نحو شهرين حضرت مؤتمرا فى لوزان بسويسرا حضره فيصل الحسينى وحنا سنيورا وعدد من الشخصيات الاسرائيلية ، ولم يكن هناك أية قيود تحول دون الاتصالات بين الطرفين ، بل كانت العلاقات بينهما قائمة .

ومن هنا فلست أعتقد أن التهريج الذى قام به المركز القومى للسينما قد خدم قضية من القضايا ، كما أنه لم يمثل فيه سوى نفسه ! وإذا ظن أنه قد أثبت لنفسه شيئا فانه لم يثبت الا عزلته عن التطورات السياسية التى تعرضت لها القضية الفلسطينية والعلاقات الفلسطينية الاسرائيلية والعلاقات المصرية الاسرائيلية والعلاقات العربية المصرية – وذلك ماأسميه الأمية السياسية .

والمذهل فى كل تلك القصة أن المخرجة المذكورة – باعتراف بيان المركز القومى للسينما نفسه – تصرفت «بمبادرة شخصية بحتة وتحملت شخصا مسئولية الاشتراك ، ولم تحمل المركز وزره – إذا كان ثمة أوزار فى هذا الاشتراك !

وإذا كان الأمر كذلك ، فما هى الجريمة التى ارتكبتها المخرجة فى حق المركز حتى يحاكمها؟ ، وماهى الجريمة التى ارتكبتها فى حق الوطن حتى يحاسبها ، وما هو الفرق بين زيارة المخرجة لاسرائيل وزيارتها للولايات المتحدة التى تدعم إسرائيل على سبيل المثال؟

وهل كان المركز يتخذ هذا الاجزاء ضد المخرجة لواشتريت فى مهرجان أقيم فى الولايات المتحدة ، أو أنه كان يشيد بهذا الاشتراك وتعلن عنه الصحف بمريد من الفخار؟

وما هو الفرق فى العلاقات بين مصر وإسرائيل وبين علاقتها بالولايات المتحدة التى تدعمها ؟ بل ماهو الفرق بين إسرائيل والولايات المتحدة وكلاهما عضوان فى جسد واحد هو الجسد الامبريالى؟

لكن الاجابة على هذه الأسئلة تتطلب حدا أدنى من الوعى السياسى،

والمعرفة بما يجرى من أحداث معاصرة على مستوى الوطن المصرى والوطن العربى والعالم أجمع . وهذا الوعي وتلك المعرفة مفقدان تماما فى حالة المركز القومى للسينما الذى يعيش بعقلية أهل الكهف ، لأنه لا يخرج من الكهف الاختيارى الذى وضع نفسه فيه .

وهذا أمر محزن ، فمن الضرورى أن تتغير العقلية القديمة التى حكمت تصرفاتنا أيام العهد الناصرى وطوال مراحل الصراع العربى الاسرائيلى ، ومن الضرورى أن تتغير نظرتنا إلى إسرائيل التى قادتنا إلى خوض أربعة حروب ، وخسارة الجولان والضفة الغربية وغزة - وسيناء حتى وقت قريب !

فإسرائيل ليست فقط حكومة الليكود ، وإنما هى الحكومة و الشعب الإسرائيلى الذى تتنامى فيه قوى السلام بشكل مضطرب ، وهذه القوى السلامية تحتاج إلى معرفة عائد السلام مع مصر ، حتى تضغط على حكومتها من أجل تعميم السلام مع الفلسطينيين وبقية الدول العربية .

وما فعله المركز القومى لاي دعم السلام ولايساعد على حل القضية الفلسطينية ، بل يعرقلها ، وهو سلاح فى يد قوى التشدد والتطرف فى إسرائيل ، ترفعه فى وجه القوى السلامية كلما تحدثت عن مزايا السلام . فالسلام بين مصر وإسرائيل هو الأنموذج الوحيد الذى ظهر حتى الآن فى حقل العلاقات العربية الإسرائيلية ، وصحيح أن ايجابياته حتى الآن أكثر من سلبياته ، ولكن ما فعله المركز القومى يعطى التطرف الإسرائيلى الذريعة للاستماتة فى التمسك بالأرض - لأنه ببساطة - يهدم شعار الانسحاب من الأرض العربية مقابل السلام ، فها هى ذى إسرائيل قد انسحبت من سيناء ، ولكنها لم تحصل على السلام الطبيعى بالمعنى الشامل الموجود بين الدول ، وها هى ذى قوى فى مصرتعامل من يزور إسرائيل معاملة من يزور دولة معادية لمصر فى حالة حرب معها .

وهذا ماتدركه القيادة الفلسطينية ، فلم تطلب من مصر قطع علاقاتها

من إسرائيل، أوتجميد علاقاتها معها ، ولم تطلب ذلك من أية دولة من الدول ، لأنها تدرك أن ذلك يزيد التعنت الاسرائيلي ، ولأن تأثيره منعدم أيضا ، ولأنه أسلوب عتيق فى النضال السياسى ثبت جذبه وعقمه.

ولوكان السادات قد تمسك به لكان وضع سيناء حاليا هو نفس وضع الجولان ! ولوكانت منظمة التحرير قد تمسكت به لما كسبت العطف العالمى الذى تحظى به حاليا، ولما أحدثت ذلك التغيير الهائل فى رأى العام الأمريكى والأوروبى .

وإنى أؤكد أن المخرجة المذكورة – ولأعرفها – قد خدمت قضية السلام بزيارتها لاسرائيل بأكثر من القوى التى تكتفى بإطلاق تلك المظاهرات ولا تدرك معناها بسبب أميتها السياسية، والتى أصدرت ذلك القرار الكوميدي بشطب اسم المخرجة من النقابة لأنها زارت اسرائيل كما لو كانت قد زارت دولة محاربة لمصر !

ومن المؤسف أننا فى مصر لا نجد تلك القوى الشجاعة التى تملك الادراك الصحيح للأمور كما نجدها بين الاسرائيلين – أى أننا لا نجد قوى تسبق النظام السياسى فى شجاعته فى تناول هذه الأمور على نحو ما هو موجود فى اسرائيل !

فبين يدي وأنا أكتب هذا المقال ، جريدة الأهرام يوم ٨ أغسطس ، وفيها حديث أجرته أميرة حسن فى القدس مع المراسل العسكرى لصحيفة « هآرييتس الاسرائيلية زائف شيف ، وهو صديق من قوى السلام ، وفيها يقول انه لم يكن عنده شك فى أن الانتفاضة ستحدث إن عاجلا أو آجلا ، « لأننى رأيت بأم عيني الضغوط التى تعرض لها الفلسطينيون ، وهى ضغوط اجتماعية واقتصادية ، كنا نحن اليهود السبب فيها . ثم يصف التصريحات الاسرائيلية التى تنادى بقمع الانتفاضة بأنها تصريحات « ساذجة » ! ويقول : إنه من الضرورى التفاوض مع المنظمة لأنها القيادة الفعلية للشعب الفلسطينى . ويصف الانتفاضة بأنها « انتفاضة شعبية لسكان موجودين تحت ضغوط الاحتلال وتحت ضغوط اقتصادية واجتماعية يحاولون تحديد هويتهم القومية

والحصول على حقهم فى تقرير المصير» ، وينفى عن الانتفاضة أنها تمثل ارهابا . ويقول إن الجنرالات يرفضون الحل السياسى ، ولكن ينبغى عليهم أن يفهموا أننا يجب فى مرحلة ما أن ندخل فى مفاوضات سياسية مع الطرف الفلسطينى . وعندما سئل عن رأيه فى تصريحات شارون عن اغتيال عرفات وقادة منظمة التحرير ، قال : « هذا تصريح لانسان بدائى يرى الأمور كلها من فوهة البندقية ! و ضرب المثل باغتيال أبى جهاد وقال ان اغتياله لم يمه الصراع ، وان المشكلة لن تحل بالاغتيالات .

هذه النوعية من التصريحات الشجاعة لاسرائيلين من قوى السلام ضد حكومتهم ، تخدم القضية الفلسطينية بأكثر من تلك النوعية من القرارات الغاشمة التى أصدرها المركز القوى للسينما ولجنته النقابية ! بل هى على النقيض منها تماما ، فقرارات المركز القوى تقدم دعما لشارون وجنرالاته المتشددين وتهديهم ذريعة قوية للاستمرار فى موقفهم الذى يرى الأمور كلها من فوهة البندقية !

نعم من المؤسف أن المثقفين المصريين الذين يملكون الرؤية الصحيحة لحل المشكلة كما تملكها قوى السلام الاسرائيلية ، قليلون ، فما زالت الأغلبية تؤثر السلامة ، وتخشى من الأقلية الصخابة من ثوار الكلام ومناضلى المصاطب أن تصيبها بشواظ من نارها .

وهذا أمر محزن ومخجل معا ، فقد كنا نظن أن شجاعة السادات قد دفنت مناضلى المصاطب هؤلاء وتخلصت منهم نهائيا ، وألهمت الكثيرين الشجاعة و النظر إلى الأمور فى ضوء الواقع الجديد ، ولكن مازال الكثيرون يخشون من تلك الأشباح ويتصرفون تلك التصرفات الحمقاء .

ومن حسن الحظ أن نظامنا السياسى يملك الرؤية الصحيحة ، ويملك الشجاعة فى اتخاذ القرار ، ولا يعيبه أن يتقدم كثيرا فى هذا المضمار عن معظم الكتاب والمفكرين والمثقفين المصريين ، وانما يعيب المتخلفين .

ليقنع حمدي غيث بالتمثيل !

السيد حمدي غيث عملاق من
عمالقة الفن في مصر ، وفوق ذلك فهو
مثقّف وطني له رؤية تقديمية ، ومن هنا
فما كتبه في عدد ٢٠ أغسطس من
الأهالي بعنوان : « كوميديا الدكتور عبد
العظيم رمضان » ردا على مقالتي في
أكتوبر يوم ٢٠ أغسطس بعنوان :
« الأمية السياسية في المركز القومي
للسينما » لا يجوز غض الطرف عنه أو
تجاهله ، وإنما تجب العناية به والرد
عليه .

ومن سوء حظ السيد حمدي غيث
أن مدخله إلى مناقشة ما كتبه هجوما
على المركز القومي للسينما ، كان مدخلا
خطأ ، والأساس الذي بنى عليه
مناقشته لي كان أساسا باطلا . فقد
ذكر أنني أناقش الموضوعات التي
أعالجها من « منظورين ثابتين لا
يتغيران أبدا - حسب تعبيره - وهما :
« عشقي العميق لإسرائيل ، وحرصي

* أكتوبر في ١٠ / ٩ / ١٩٨٩

المستमित على الدعوة إلى تطبيع علاقاتنا معها ، وأننى أتجاوز هذا إلى دعوتى «الرومانسية» - كما وصفها - إلى تبادل الحب والعشق والمودة الحميمة معها ! أما المنظور الثانى ، فهو كراهيتى لثورة يوليو ولزعيمها الخالد عبدالناصر !

وعلى الرغم من أنه لم يناقش المنظور الآخر الخاص بعبد الناصر ، اكتفاء بالمنظور الأول ، فإن مجرد إيرادى على هذا النحو يلزمنى بالرد عليه ، ولو فى عجالة قصيرة .

فليس من الصحيح أنى أكره الرئيس الراحل عبد الناصر، ولو أردت ذلك ما استطعت ، بل لقد كتبت فى إحدى المرات أقول إنى منجاز بعواطفى لعبد الناصر ومنجاز بعقلي للسادات ! كما كتبت فى كتابى «تحطيم الآلهة» أقول : «كان عبد الناصر أنقى وأطهر ما فى ثورة يوليو». وذكرى عبد الناصر تحرك جيشانا عاطفيا فى صدرى يرتبط بتحرير وسائل الانتاج من القبضة الأجنبية ، وتحدى الاستعمار الذى مرغ أنفنا فى الرغام ، والتحالف مع الحليف الطبيعى لحركات التحرر الوطنى ، وهو الاتحاد السوفيتى ، وتحقيق الاستقلال الوطنى الحقيقى الذى لا تشوبه شائبة تبعية .

ولكن هذه العاطفة ، التى تستند إلى حقائق تاريخية شىء ، وتزوير التاريخ لحساب ثورة يوليو ، كما يفعل الناصريون شىء آخر !

إن الناصريين يتصورون أننى سوف أصف الحكم الدكتاتورى لثورة يوليو بأنه ديموقراطية أو أصف هزيمة يونيو ١٩٦٧ بأنها هزيمة فى معركة وليس هزيمة فى حرب ، رغم أننا نعانى من آثارها ، ويعانى كل العرب ، حتى الآن ! أو أسمى رأسمالية الدولة التى أرسنها قوانين التأميم بأنها اشتراكية أو أصف ضباط يوليو بأنهم تقدميون واشتراكيون رغم أنهم وضعوا الاشتراكيين الحقيقيين فى السجون ! أو أضيف حرب أكتوبر لحساب عبد الناصر ، رغم أنها على وجه التحقيق لحساب السادات !

هذا ما يتصوره الناصريون ، فاذا سميت الحقائق التاريخية بأسمائها ، هالتهم الصورة ، ووجهوا إلى الاتهام بأنى أكره ثورة يوليو وزعيمها الخالد عبد الناصر — كما يفعل الأستاذ حمدى غيث !

هذا هو المنظور الأول ، أو الأساس الأول الذى تحدث عنه السيد حمدى غيث ، وهو أساس باطل ، كما رأينا .

أما المنظور الآخر ، وهو عشقى لإسرائيل ، فأنى أعتبره مزحة من الفنان الكبير ، خصوصا إذا بالغ فى وصف هذا العشيق، ووصفه «بالرومانسية» ، واتهمنى بأنى أدعو إلى تبادل الحب والعشيق ، والمودة الحميمة معها !

وفى البداية فلست أعتبر هذه المزحة ، حتى لو كان المقصود بها الجد لا الهزل ، اتهاما يحب على دفعه ، بعد أن انسحبت إسرائيل من سيناء وطابا وأصبحت علاقاتها مع مصر تحكمها مواد المعاهدة المصرية الإسرائيلية.

وعشقى لإسرائيل — حتى لو كان صحيحا — هو — على سبيل المثال — أقل بكثير من عشق أقطاب حزب التجمع للولايات المتحدة الأمريكية ، زعيمة الامبريالية العالمية ، والسند الأول لإسرائيل الذى يمدّها بالسلاح والمال ويدعم موقفها المتعنت فى وجه الانتفاضة الفلسطينية ، ويعوق إقامة الدولة الفلسطينية .

أقول إنه حتى لو كان عشقى لإسرائيل صحيحا ، فانه أقل بكثير من عشق أقطاب التجمع للولايات المتحدة الذى يدفعهم إلى زيارتها، والقاء المحاضرات فى جامعاتها وندواتها — لأننى حتى الآن لم أزر إسرائيل ولم أقبل أية دعوة لزيارتها أو حضور أى مؤتمر من مؤتمراتها حتى على المستوى العلمى ، مع ما هو معروف من أن العشيق يحب أن يزور معشوقته ! ويحب أن يوطد الصلات معها ويتعاون معها !

ولكنى — حتى الآن — لم يحدث أى تعاون علمى أو غيره بينى وبين إسرائيل !

ليكف — إذن — السيد حمدي غيث عن هذه النعمة الرديئة ، فهو أعلى مستوى من ذلك بكثير ، ولست ممن ترهبهم مثل هذه الاتهامات ، وإذا كنت قد ازدريتها وواجهتها بصلافة ابان عنفوان حملة التشويه العربى لموقف مصر ، واتهام السادات وكل من أيدوا مبادرته بالخيانة — فانى بعد تحرير سيناء ، وهى أول أرض عربية تتحرر من الأراضى التى احتلت فى هزيمة يونيو ١٩٦٧ . أشد فخرا بموقفى ، وأشد اعتزازا بصدق بصيرتى التى قادتنى وفريقا من الأصدقاء اليساريين إلى تأييد مبادرة القدس ، والمساهمة بأقلامنا فى تحرير سيناء .

ولعل التاريخ قد أثبت الآن أن موقفنا كان أكثر شرفا ووطنية من موقف الرافضين وثور الكلام ، بعد أن ثبتت صحة موقف السادات ، الذى لولا مبادرته ورؤيته التاريخية الثاقبة ، لكان وضع سيناء اليوم هو وضع الضفة الغربية وغزة والجولان !

ومن هنا ، فلعل القضية بينى وبين الأستاذ الكبير حمدي غيث قد أصبحت واضحة ، فهى ليست قضية عشق لاسرائيل قادنى إلى مهاجمة موقف المركز القومى للسينما ، وإنما هى قضية موقف وطنى ثابت من العلاقات المصرية الاسرائيلية يقول : إن هذه الصفحة من الحرب بيننا وبين اسرائيل قد انتهت ، وإن هناك علاقات تحددها معاهدة دولية علينا أن نستفيد بها فى خدمة شعبنا المصرى وأمتنا العربية والشعب الفلسطينى فى الأراضى المحتلة ، وإن تأييد الشعب الفلسطينى ومساعدته فى الحصول على دولته المستقلة شئ ومعاملة إسرائيل كدولة معادية وتحريم التعامل معها شئ آخر ، فالموقف الأول موقف صحيح والموقف الثانى موقف خاطئ ، وباطل تماما .

ومن هنا كان هجومى على المركز القومى للسينما لموقفه من المخرجة التى حضرت مهرجانا أقيم فى اسرائيل ، بعد أن قرأت البيان الذى أصدره ، لأنى أدركت أن القضية ليست قضية المخالفات التى

ارتكبتها المخرجة – حتى لو كانت مخالفات صحيحة – وإنما هي قضية حضور مهرجان أقيم في إسرائيل بالذات .

ولعلنى كنت فى ذلك على حق ، فانى أستحلف الأستاذ حمدى غيث بضميره الوطنى الذى لا أشك فى نقائه : هل كان المركز القومى للسينما يتخذ هذه الاجراءات ضد المخرجة ، لو كانت قد حضرت مهرجانا أقيم فى ليبيا أو سوريا أو حتى الولايات المتحدة الأمريكية ؟ وهل كانت اللجنة النقابية تسارع بفصلها بدلا من أن تهب للدفاع عنها ؟

هذه – إذن – ليست قضية ادارية ، وإنما هي قضية سياسية بالدرجة الأولى ، وهى قضية سياسية مرتبطة بزيارة مخرجة سينمائية لاسرائيل ، ولو كانت زارت دولة أخرى لما قامت القضية أصلا . ومن هنا فان الأستاذ حمدى غيث يقلب القضية ويسوقها فى شكل مغلوط حين يتهمنى بأنى أريد أن أعطى « للصديقة الحبيبة اسرائيل » (كذا !) معاملة خاصة متميزة ، ويقول : « هل نحاكم مخرجا يستولى على فيلم ليس ملكاله ، ويعرضه فى مهرجان بانجلترا مثلا ، دون اذن صاحب الحق ، فاذا عرضه فى اسرائيل فلا جناح عليه ؟ »

وأسأله بدورى : هل سبقت محاكمة مخرج مصرى يعرض فيلما فى مهرجان بانجلترا أو أية دولة أخرى على نحو ما فعلت المخرجة المذكورة؟

اذا كانت هناك حالات مثيلة من هذا النوع فانى على استعداد لتقبل هذه القضية على أنها قضية ادارية ، وأعلن بأعلى صوتى أننى لست بحال من الأحوال مع أية معاملة مميزة لاسرائيل ، وأسحب اتهامى للمركز القومى للسينما! فقلمى فى خدمة الحقيقة ، وليس فى خدمة أية مصالح خاصة .

على أن موقف اللجنة النقابية أو جماعة السينمائيين التسجيليين ونقابة السينمائيين يظل موقفا سياسيا ، لأنها لم تنتظر نتيجة تحقيق

النيابة الادارية عن المخالفات الادارية للمخرجة ، وبينته على مجرد زيارة اسرائيل الكافية فى نظرها للفصل وعدم التعاون !

وبقيت بعض النقاط التى وردت فى مقال الأستاذ حمدى غيث ،
والتي لست أدري اذا كان يعنيها أو لا يعنيها ؟ فقد نسب إلى أقوالا
وأراء لم ترد فى مقالى على الاطلاق ! وقد درجنا فى الجامعة على أن
نناقش أقوالا أو أراء ثبت صدورهما عن صاحبها أو أصحابها ، بل لعل
أول ما نفعله عادة. حين نناقش رواية ، أن نتحقق أولا من صحة نسبتها
إلى مصدرها ، والاتحولت مناقشتنا إلى عبث فى عبث !

وما فعله السيد حمدى غيث هو هذا العبث بعينه ! فهو يخاطبني
قائلاً: «إن دعوتك هذه يترتب عليها مثلاً ، أن يحمل أى موظف بالآثار أى
قطع أثرية نادرة ليعرضها فى اسرائيل ، وعلينا أن نصفق له ، لأنه -
طبقاً لرأيك - يعمق الصداقة والمحبة بين شعب مصر وشعب اسرائيل
(الشقيق) . فهل تراجع أفكارك ومواقفك التي تسارع إلى اتخاذها دون
تمحيص ، مدفوعاً بحبك (العظيم) لاسرائيل ولشعب اسرائيل» .

فالسؤال الذى يطرح نفسه بعد هذا النص : هل قرأ السيد حمدى
غيث لى ، سواء فى المقال الذى ناقشه أو فى أى مقال آخر ، دعوة
إلى «تعميق الصداقة والمحبة بين شعب مصر وشعب اسرائيل الشقيق» !
وإذا لم يكن قد قرأ مثل هذا الكلام ، فكيف سمح لنفسه بأن يكتب عبارة
«طبقاً لرأيك» - أى طبقاً لرأى ؟

ترى لو كنت قد افتريت عليه بمثل هذا الكلام ، ونسبت اليه ما لم يقله،
وقلت إنه «طبقاً لرأى حمدى غيث» - أفلا يعتبر ذلك هو التضليل بعينه ؟

كيف يكذب السيد حمدى غيث على القراء الذين لم يقرأوا مقالى ،
ويحاول ايهاهم بأننى وصفت الشعب الاسرائيلى «بالشعب الاسرائيلى
الشقيق» ؟ .

وإذا كان السيد حمدي غيث قد فهم رفضي تحريم التعامل مع إسرائيل علي أنه دعوة إلى «تعميق الصداقة والمحبة بين شعب مصر وشعب إسرائيل الشقيق» ، أفليس من حقي أن أشك في قدرته علي فهم مايقراً ، أو أشك في قدرته علي النقاش الموضوعي؟

وإذا كان قد تحدث عن «حبي العظيم لإسرائيل ولشعب إسرائيل» ولم يقرأ لي حرفاً واحداً دفاعاً عن إسرائيل أو عن شعب إسرائيل ، أفليس من حقي أن أعتبر ذلك دساً رخيصاً من جانبه ، أو أشك في أنه لم يقرأ لي حرفاً واحداً مما أكتب ؟

أغلب الظن أنه بنى عبارته علي الاشاعات التي يطلقها ثوار الكلام والمناضلون بالعملة الصعبة ، الذين تاجروا بعرض مصر وأرض مصر وشرف مصر ، وانضموا منذ اللحظة الأولى إلى الذين حاولوا تلويثها بالعار طوال معركة تحرير سيناء ، ثم عادوا دون حياء ليلوثوا الشرفاء ! لقد طالما قلت إن لعبة تلويث الوطنيين باسم إسرائيل قد بطلت بعد انسحاب إسرائيل من سيناء ، وثبتت صحة منهج السادات في تحرير أرضنا الغالية .

فلم يعد في وسع الناصريين اخفاء عار موقفهم المخزي من المبادرة ، وتخلفهم عن تحرير الأرض بالقاء الوحل علي من أيدوا المبادرة ، والزعم بعشقهم لا إسرائيل بدلاً من عشق مصر .

فالوحل عليهم هم أولاً وأخيراً ، فهم قد سلموا الأرض في يونية ١٩٦٧ ، وهم قد تخلفوا عن تحرير الأرض منذ نوفمبر ١٩٧٧ حتى خروج آخر جندي إسرائيل من طابا في عام ١٩٨٩ ، ولن يسوى التاريخ بين المفرطين والمحريين ، ولن يقلبوا الحق باطلاً والباطل حقاً ، فمعيار تحرير الأرض سوف يدمغهم ، وغطاء القضية الفلسطينية لن يخفى سوءاتهم .

فأرض مصر قبل كل أرض اذا كان لا مفر من ذلك ، ولن يفيد القضية الفلسطينية أن تكون سيناء محتلة بالقوات الاسرائيلية ، وانما يفيد القضية أن تكون سيناء محررة ، وهو ما يحدث حاليا .

ومن هنا كنت أمل أن يسبق ذكاء السيد حمدى غيث قلمه فلا يكتب مفرقا بين الموقف المصرى الرسمى من اسرائيل والموقف الشعبى ! فالموقفان متماثلان منذ أيد الشعب المصرى مبادرة القدس ، وأيد كامب ديفيد ، وأيد المعاهدة المصرية الاسرائيلية !

والموقفان متماثلان أيضا من تأييد القضية الفلسطينية ، ولم ينس السادات القضية الفلسطينية ، فلم ينس شعب مصر أبدا القضية الفلسطينية ، ولم ينس السادات القضية الفلسطينية، وموقف الرئيس مبارك من القضية الفلسطينية هو استمرار لسياسة ثابتة لكل من الموقف الشعبى والموقف الرسمى اللذين لم يفترقا أبدا .

فاذا أتت بعض «التنظيمات الجماهيرية» - كما يصفها السيد حمدى غيث تفخيما ! - لتزايد على الموقف الرسمى وعلى الموقف الشعبى ، فمن حقنا أن نسخر من هذه المزايدة المضحكة !

فحين ترى هذه التنظيمات أن الشعب المصرى جزء من الأمة العربية - كما يقول السيد حمدى غيث - فاننا نقول لها : وما هو الجديد فى ذلك؟ إن الشعب المصرى كله يرى أنه جزء من الأمة العربية !

وحين ترى هذه التنظيمات فيما ترتكبه إسرائيل فى لبنان والأرض المحتلة عملا من الأعمال الوحشية ، فاننا نرد بأن الشعب المصرى كله من أقصاه إلى أقصاه يرى فيما ترتكبه إسرائيل عملا من أعمال الوحشية ، بل هناك من الاسرائيليين أنفسهم من يرون فيما ترتكبه حكومتهم عملا من أعمال الوحشية .

ولكن حين تتخذ تلك التى يسميها حمدى غيث «تنظيمات جماهيرية»

ويقصد بها اللجنة النقابية وجماعة السينمائيين التسجيليين ونقابة السينمائيين ، قرارا بفصل مخرجة من النقابة ، وتتخذ تجاهها اجراءات انتقامية — من قبل أن تجرى النيابة الادارية تحقيقها مع المخرجة ، ومن قبل أن تظهر نتيجة التحقيق — فاننا لا نستطيع أن نرى فى ذلك «عملا شعبيا جماهيريا» مساندا للشعب الفلسطينى وحقوقه المشروعة ، وانما هو تهريج واهدار لأبسط حقوق الانسان ، وهو حقه فى أن يكون بريئا حتى تثبت ادانته ! ومن حقنا أن نشك فى هذه الاجراءات كلها وفى بواعث من حرضوا عليها ، بل نشك فى غيرتهم على الحقوق المشروعة للقضية الفلسطينية ، بينما هم يهدرون الحقوق المشروعة لمخرجة زميلة لهم .

ومن هنا فقد اعتبرناه تخبطا من السيد حمدى غيث حين أخذ يفرق فيما بين «الموقف الشعبى» و «الموقف الرسمى» و «السياسة الوطنية» ويقول : إن ما اتخذته تلك التنظيمات من قرارات ضد المخرجة (من قبل ظهور نتيجة التحقيق ا) ، هو «موقف شعبى» يعلن أنه لاتطبيع للعلاقات مع إسرائيل حتى يحصل الشعب الفلسطينى على حقوقه المشروعة كاملة، وأن هذا الموقف الشعبى هو — حسب كلامه — : «لاشأن له بالموقف الرسمى الذى تمليه ظروف عديدة متشابكة ومعقدة ، ولاشأن له بالسياسة الوطنية التى تنتهجها الدولة .»

فالسؤال الذى يطرح نفسه ، كيف يكون «الموقف الرسمى» للدولة متناقضا مع «السياسة الوطنية» التى تنتهجها ؟ أليس «الموقف الرسمى» لأية دولة هو تطبيقا «لسياستها» ؟ وكيف تتخذ سياسة وطنية موقفا رسميا غير وطنى ؟ وكيف يتصور حمدى غيث أن يكون «الموقف الشعبى» وطنيا ، و«السياسة» وطنية ، بينما الموقف الرسمى غير وطنى ؟ .

أليس هو التخبط بعينه ؟ أو هو الدفاع الكسيح عن مواقف متعسفة اتخذتها تلك التنظيمات التى يسميها السيد حمدى غيث «تنظيمات

جماهيرية» ، تريد أن تزايد بها على «الموقف الرسمي» الذى لا يمكن أن يكون الا موقفا وطنيا مادامت «السياسة» التى أملتة هى سياسة وطنية ؟ .

وكيف يمكن - فى مجال المواقف القومية - أن نقارن بين التهريج الذى اتخذته تلك التنظيمات الجماهيرية تحت اسم «الموقف الشعبى» ، وما يتخذه الموقف الرسمي - الذى يعتبره حمدى غيث مخالفا للسياسة الوطنية للدولة ؟

أليس هذا الموقف الرسمي هو الذى يدين اسرائيل فى كل ما تتخذه من اجراءات قمعية وحشية ضد الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة ؟ وهو الذى لا يترك فرصة لمساندة القضية الفلسطينية ، فى المحافل الدولية وفى لقاءات الرئيس بالرئيس الأمريكى ورؤساء الدول ، وفى منظمة دول عدم الانحياز ، وفى منظمة الوحدة الافريقية ، وفى كل صقع وواد ؟

إن السيد حمدى غيث يتذرع بأن بعض الدول تصطنع الرأى الشعبى اصطناعا ، لتناور به فى مواقفها السياسية التفاوضية - ويقصد بالرأى الشعبى ذلك الموقف التهريجى الذى اتخذته منظمات الجماهيرية المزعومة ضد المخرجة من قبل اجراء أو ظهور نتيجة التحقيق معها بواسطة النيابة الادارية - وينسى ان سياسة النظام الوطنية قد سبقت فى كثير من الاحيان ، وفى مجال تحرير الأرض ، الموقف الشعبى ! والمثال على ذلك مبادرة القدس التى قادت الشعب لتحرير سيناء . ومن ثم فلا مزايدة على النظام فى سياسته الوطنية القومية .

ويتبدى خلط الأوراق حين يدين السيد حمدى غيث ما يسميه دعوة منى «إلى أن نقف جميعا على خط واحد مع الموقف الرسمي للدولة» قائلا إن هذه الدعوة تمكن العدو من أن «يقضى علينا جميعا بضربة واحدة»!

فهل هذا كلام يقوله مثقف وطنى له وزن السيد حمدى غيث ؟ هل مساندة الموقف الشعبى للموقف الرسمي والوقوف معه على خط واحد،

يتيح للعدو أن يقضى علينا بضرية واحدة ، أو أن اختلافا الموقف الرسمي عن الموقف الشعبي هو الذي يتيح للعدو القضاء علينا بضرية واحدة؟

وماهى السياسة الرسمية الأقوى تأثيرا فى مواجهة الأعداء ؟ هل هى السياسة التى تقف فى خط واحد مع الموقف الشعبى ، أو هى السياسة التى تقف فى واد ويقف الشعب فى واد؟

ثم أليس مما يثير السخرية أن يضخم السيد حمدى غيث فى حجم منظماته الجماهيرية الثلاث : اللجنة النقابية وجماعة السينمائيين التسجيليين ونقابة السينمائيين – من المخرجة المذكورة ، فيسميه « موقفا شعبيا » ، ليحميها من النقد ، ويسبغ عليها حصانة ضد المحاسبة ؟

بقى تعليق أخير على كلمة السيد حمدى غيث الأخيرة ، التى يدعونى فيها إلى الكف عن ارهاب الذين يتخذون مواقف وطنية وقومية شريفة ، بأن مواقفهم معادية للسلطة ! أفلا يرى أن هذا الكلام يتناقض مع كلامه السابق الذى يعترف فيه بأن السياسة التى تنتهجها السلطة هى سياسة وطنية ؟

أوليس هو استمرار لكلام الناصريين السابق الذى يفرقون فيه بين مواقفهم ومواقف السلطة ، فيخونون السلطة ، ويصفون مواقفهم وحدها بأنها وطنية وقومية شريفة؟ وكيف أخوف من يتخذون مواقف وطنية وقومية شريفة من السلطة التى تتخذ أيضا مواقف وطنية وقومية شريفة؟

الحق ياسيدى لقد كنت ، فيما كتبته ، محاميا فاشلا ، فلماذا لاتقنع بالتمثيل؟

كامب ديفيد بين السادات وزراء خارجيته*

وبما كان أكبر تكريم لكامب ديفيد
واللسادات فى السنوات الأخيرة ، هو
الذى صدر من السيد ياسر عرفات ،
فى مقابلته الأخيرة لجيمى كارتر ،
والتي خاطبه فيها قائلاً : « إنك رجل
سلام ، وأنت صانع سلام بين أكبر
دولة عربية وإسرائيل ، وصانع كامب
ديفيد »!

وهذه العبارة ليست مجرد تكريم
لكامب ديفيد واللسادات ، وإنما هى
صفعة لكل المزايدى الذين ارتزقوا من
لعن كامب ديفيد ، وريحوا من لعن
كامب ديفيد ، وتاجروا بكامب ديفيد،
ولعنوا الشرفاء واتهموا السادات
بالخيانة ، هؤلاء المضللون الذين ضلوا
الشعب الفلسطينى وضلوا الشعب
العربى ، وحاولوا أن يضلوا الشعب
المصرى ويقنعوه بأن تحرير سيناء
خيانة، وأن بقاء القوات الإسرائيلية فى
سيناء حتى تتحرر جميع الأراضى
العربية منتهى الوطنية والقومية !

* أكتوبر فى ٢٢ / ٤ / ١٩٩٠

لم يشهد تاريخ منطقتنا العربية مغالطات وضلالات كتلك التي حيكت حول كامب ديفيد ، ولم يشهد سفالات وجهت للوطنيين الشرفاء كما شهد بسبب كامب ديفيد ، وكانت تهمة « عميل الكامب » أبسط الاتهامات التي يوجهها التجار باسم العروبة والقومية والاشتراكية والوحدة لكل مصرى يؤمن بهذه الأرض وخصوصيتها وعبقريتها .

ولم يقتصر ذلك على السباب ، بل امتد إلى مكتب مقاطعة إسرائيل المشبوه ، يصدر قرارات المقاطعة ضد صاحب هذا القلم وضد قمم فكرية مصرية شامخة ، مثل نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وأنيس منصور - دون حياء أو خجل. وأخطر من ذلك أن الإرهاب الفكرى وصل إلى أعماق القلوب المخلخلة الضعيفة ، فارتعدت ، وتملكها الجبن إلى حد مشين .

وقد كنت شاهدا على حالة جبن فريدة جديرة بالتسجيل ، لأنها تصور كيف استبد التجار بالنفوس ، وتملكوا العقول ، وسيطروا على حواس الجبناء .

فقد كنت فى لندن أستاذًا زائرا فى قسم الدراسات الاقتصادية والسياسية بمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية بجامعة لندن فى عام ١٩٨٠ / ١٩٨١ ، حين صدر قرار مكتب مقاطعة إسرائيل بادراج اسمى واسم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وأنيس منصور فى قوائم المقاطعة .

وقد علمت بذلك حين استيقظت صباحا فى بيتى على تليفون من أبو ظبى من الصديق العزيز الأستاذ جمال بدوى ، الذى كان مديرا لجريدة «الاتحاد» وكنت أمدّها ببعض المقالات ، وأخبرنى بقرار المقاطعة ، وطلب منى الاتصال بمكتب المقاطعة فى لندن لمراجعته فى هذا القرار .

كنت فى ذلك الحين أعبر عن عروبتى بمقالاتى فى جريدة «العرب» اللندنية ، والتي كان يصدرها صحفى شجاع هو رشاد الهونى ، ويعمل فيها الفنان والمفكر الكبير حسن فؤاد ، رئيس تحرير مجلة صباح الخير السابق ، وكنت أدعم العراق فى معركته الضاربة مع إيران بقلمي ،

وأوضح للجماهير العربية ، التى سحرتها الثورة الايرانية ، وتصورت أنها ثورة اسلامية ، مدى خطورة هذه الثورة على العالم العربى ، وأبين أن حرب العراق ضد ايران لم تكن حربا هجومية وانما كانت حربا دفاعية ، لأن العراق كان يتوقع ضربة من ايران .

وبالتالى فقد كنت أعرف أننى موجود فى الخندق العربى ، وأن تأييدى لمبادرة القدس كان تأييدا لتحرير أرض عربية هى سيناء ، وتحرير الأرض السورية والفلسطينية من الاحتلال الاسرائيلى كما عبر عن ذلك السادات فى خطابه فى الكنيست ، ولكن بطرق دبلوماسية بدلا من الحرب التى كانت امكاناتها تتجاوز واقع العالم العربى .

وحين اتخذت البلاد العربية موقفها التخوينى من المبادرة ، وفى الوقت نفسه رفضت المقاومة الفلسطينية المبادرة واتهمت السادات بالخيانة ، لم أجد فى ذلك ما يدعو السادات إلى التراجع ، لأن تحرير أية أرض عربية هو مكسب حقيقى فى قضية الصراع العربى الاسرائيلى ، ولأن تحرير الأرض المصرية بالذات يحريد مصر المغلولة بالاحتلال الاسرائيلى ، ويجعلها أقدر على خدمة أمتها العربية - وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك ، ويحدث حاليا فى عهد الرئيس مبارك .

ومن هنا كان قرار مكتب المقاطعة طعنة شديدة لى ، وقررت أن أسمع نصيحة الصديق جمال بدوى وأتصل بمكتب المقاطعة فى لندن لمراجعته فى هذا القرار . على أنى لما كنت لا أعرف رقم تليفونه ، فقد اتصلت بصحفى مصرى صديق فى بيته أسأله عن رقم تليفون مكتب المقاطعة فى لندن . وكانت المفاجأة !

كان هذا الصحفى - الذى لا أريد أن أذكر اسمه لأنى نسيته باختياري - أقرب صحفى مصرى الىّ فى لندن ، لقد كان يعيش فى لندن للعمل فى بعض الصحف التى تصدر باللغة العربية ، وكنا على اتصال شبه يومى ، فيتصل بى فى مكتبى بالجامعة مساء ، أو اتصل به فى

مكتبه أو بيته . ومن هنا فقد كان أقرب اسم أتذكره فى هذه المحنة ، لا لكى ينقذنى منها ، وانما ليمدنى فقط برقم تليفون مكتب المقاطعة !

على أنى حين اتصلت به ، وأعلمته بقرار المقاطعة ، وطلبت منه رقم تليفون مكتب المقاطعة ، فوجئت به يسألنى عما اذا كنت قد أخبرت أحدا بأنى سوف أتصل به ؟ ورددت - فى دهشة - بالنفى . واذا به يرجونى عدم الاتصال به ، ويقول لى بالحرف الواحد - كما تعيه ذاكرتى :- المسألة محسوبة . واحد زائد واحد يساوى اثنين ،إنها مسألة لقمة العيش ، لأن الاتصال يمكن أن يقطع عيشى فى لندن . احنا مش قد الناس دول ! المقاطعة مش معناها منع الدخول إلى البلاد العربية فقط ، بل ومنع دخول الفكر أيضا ، فلا مقالات ولا كتابات ولا غيرها . ومعنى ذلك قطع العيش !

وسألته فى همس عما اذا كان أحد معه فى الغرفة التى كان يكلمنى منها ، ودهشت حين قال لى إنه يجلس فى الغرفة بمفرده !

وهالنى جبن ذلك الصحفي ، وحزنت لحاله : إنه فى بيته ، وفى غرفته وحيدا ، ويخشى اتصالى به تليفونيا ، كما لو كانت حكومة انجلترا تفرض الرقابة التليفونات ! ولم يفكر فى مواساتى بكلمة ، أو تشجيعى بعبارة ، وانما كل ما فكر فيه أن اتصالى به يمكن أن يقطع عيشه ! ولعنت ذلك العيش الذى يورث الناس الجبن والذل إلى هذا الدرك الأسفل !

وأضيت يوما عصبيا ، تصورت فيه أن كل الناس سوف يملكهم الرعب منى كما تملك ذلك الرجل ، وتوجهت إلى مكتبى بالجامعة أكتب بيانا ردا على مكتب المقاطعة ، وأتصل تليفونيا برؤساء تحرير الصحف فى العالم العربى أطلب اليهم نشر البيان الذى سوف أرسله اليهم ، كما أرسلت البيان إلى الصحف المصرية وإلى حزب التجمع الذى كنت أنتمى اليه ، وإلى حزب العمل . وقد نشر البيان الصحف العربية التى أرسلته اليها ، ونشرته جريدة «الشعب» ، وأهمله المسئولون فى جريدة «الأهالى»

تطبيقا لقواعد الديمقراطية وحرية التعبير عن الرأي والرأى الآخر ! مع أنى كنت فى ذلك الحين ما أزال عضوا بحزب التجمع ، وكنت أحد مؤسسيه !

وفى المساء اتصلت تليفونيا بالصدیق حسن فؤاد ، وأنا أخشى أن يكون قد أصابه الرعب هو الآخر ! وإذا بى أمام عملاق كبير - رحمه الله رحمة واسعة - فقد دهش لاهتمامى بهذا الموقف ، وانزعاجى له ، وقال لى :

«كيف تأبه برأى هؤلاء التجار الذين يتاجرون بالقضية الفلسطينية ، ويصدرون قرار المقاطعة ضد الشرفاء ؟ أو كيف تأبه بالمكارثيين المتعصبين ؟» .

وعلا صوته وهو يقول : «ضع هذه القمامة تحت قدمك يادكتور ، وامض فى طريقك ، وصحف الشرفاء تحت تصرفك تكتب فيها ما تشاء» .

وقد رفعتنى كلام المرحوم حسن فؤاد إلى عذان السماء ، بقدر ماكادت تدفع بى كلمات الصحفى الجبان إلى هوة اليأس ، وخرجت من مكتبى فى جامعة لندن مساء وأنا أحس بأن قامتى تطاول السماء ! وتجسدت فى ذهنى هذه الحقيقة، وهى أن الرجال مواقف ، والمواقف وحدها هى التى تظهر معدن الرجال .

ولم أنس أبدا ذلك الموقف لحسن فؤاد الشجاع ولم أنس فضله . كما لم أنس فضل رشاد الهونى - أو أحمد الهونى بعده الذى فتح لى صفحات جريدته أوصل فيها رسالتى الفكرية فى خدمة قضايا أمتنا العربية ، وخصوصا مساندة موقف العراق العادل فى معركته المصيرية ضد ايران ، وفى خدمة تحرير الأرض العربية، وعلى رأسها سبئاء .

ولكن احدى المهام التى أليت على نفسى القيام بها بعد ذلك ، هى كشف زيف النصابين والمضللين والمرتزقة الذين تاجروا بالقضية الفلسطينية ، وكونوا الثروات على حساب الفلسطينيين فى الضفة الغربية

وغزة، وزعموا لقرائهم وشعوبهم أنهم أكثر وطنية وعروية ، وأن تحرير
سنياء خيانة لمصر والأمة العربية ، وبقاء الجولان والضفة الغربية وغزة
تحت الاحتلال الإسرائيلي هو منتهى الصمود!

ومن حسن الحظ أن الكتاب الشرفاء شاركوا في هذه المهمة ، ولم
يتربدوا في مهاجمة قرار المقاطعة ، وكان على رأس هؤلاء الكاتب الكبير
أحمد بهاء الدين - شفاه الله وحفظه لمصر - فقد كتب في جريدة «الشرق
الأوسط» التي تصدر بلندن مقالين هاجم فيها قرار المقاطعة ، وطالب في
أحدهما ، وهو المنشور في عدد ١٩٨١/٧/٢٠ ، بنشر حيثيات القرار
كاملة «حتى نناقشها» ، فليس عندي الاالشذرات التي نشرت في
الصحف، فعن نجيب محفوظ كان مانشر عاما مبهما لم أفهم منه سببا
معينا أو تحليلا معينا حتى أناقشه ، وعن الدكتور عبد العظيم ومضان
نشر أن السبب هو حضوره لمؤتمر اسرائيلي في واشنطن». وقال الأستاذ
بهاء إنه يسجل اعتراضه على هذا القرار «وان غموض الأسباب
والحيثيات قد ينقلب إلى العكس في صورة مكارثية جديدة تضيف إلى
الفكر العربي قيودا فوق قيوده» ، ونبه إلى الفرق بين المأجور وصاحب
الرأي ، فقد سجن إنجلترا برنارد شو وبرتtrand رسل خلال الحرب
العالمية الأولى ، سجننا خاصا سموه «سجناء الضمير» - أي الذين
عارضوا بلادهم وهي في حالة حرب عن قناعة وليس عن عمالة أوجبن ،
ثم عادت انجلترا إلى رشدتها ، وغمرت «برتtrand رسل» و«برنارد شو»
بما نعرف من تكريم» .. إلى آخره

والمهم أنه قد انقشعت اليوم كل الضلالات التي تاجر بها التجار ،
واتضح حجة الموقف المصري الذي أصبحت الأطراف الأخرى تلهث
للحاق به ، وأصبح ياسر عرفات يجاهر باتصالاته بالليكوود ورئيس
الحكومة الاسرائيلية اسحق شامير ، والأخير يتنصل من هذا الاتصال !
ثم يقابل جيمي كارتر ، صانع الكامب الذي ضلل به المضللون ، ويصفه
بأنه رجل سلام ، وأنه صنع السلام بين أكبر دولة عربية واسرائيلية !

ومن هنا لم يفت الرئيس مبارك - مع تحفظه عادة - ابراز هذا الحديث ،
وأن يعلق عليه قائلاً : وحسب معلوماتي فقد ضحك وهو يقول انهم
أهملوه فى كامب ديفيد !

ومن هنا ما ذكرته فى بداية هذا المقال ، وهو أن لقاء ياسر عرفات
بجيمى كارتر فيه رد اعتبار كبير لكامب ديفيد المفتري عليها ، وللسادات
العظيم ، وصفة لكل من ارتزقوا من الهجوم على كامب ديفيد .

وهذا ينقلنى إلى رأى وزراء خارجية مصر فى عهد السادات فى
كامب ديفيد ، الذى سجله الصديق محمود فوزى فى كتابه «كامب ديفيد
فى عقل وزراء خارجية مصر» .

فالمذهل أن كل هؤلاء الوزراء مازالوا يدينون كامب ديفيد ، دون أن
يعوا اللحظة واحدة أن كل ما تتمتع به مصر حالياً من حرية واستقلال
رأى ازاء الموقف الاسرائيلى ، انما تدين به لكامب ديفيد ! ودون أن يدركوا
أنه اذا كانت مصر قد استردت سيئاء كاملة ، وعادت طابا إلى السيادة
المصرية ، فانما يرجع الفضل فيه لكامب ديفيد !

وهو أمر غريب حقاً ، فلم تملك الشجاعة واحدا منهم لكى يعترف
بخطئه وسوء تقديره عندما عارض السادات فى حينه وحاول منعه من
ابرام كامب ديفيد !

بل نجد منهم بعض التصريحات المؤسفة التى تثير الغرابة والعجب ، مثل
السيد اسماعيل فهمى ، وزير الخارجية الذى عارض زيارة السادات
للقدس ، وكان من الشجاعة بحيث قدم استقالته من منصبه ثمسكا برأيه.
فقد ذكر أنه أحضر سيئاء بالكامل للرئيس السادات ، ووقع عليها
الرئيس الأمريكى ، ولكن السادات للأسف الشديد عمل تنازلات مخيفة
بعد ذلك من ناحية السلاح فى سيئاء ! ويقول :

" لقد أحضرت من الأمريكان - بعد مفاوضات عنيفة جداً - ورقة
عليها توقيع الرئيس كارتر : "سيئاء بالكامل" ! ليس بهذه الشروط

الموجودة الآن وإنما تسليم سيناء بالكامل ، وانسحاب اسرائيل ، وليس هناك مناطق منزوعة السلاح أو غيره" . ويضيف إن البعض تعجب وقتها: كيف استطاع اسماعيل فهمي أن يحصل على موافقة من الرئيس الأمريكى كارتر على انسحاب اسرائيل بالكامل من سيناء وبهذه الشروط؟

هذا ما قاله السيد اسماعيل فهمي لمحمود فوزي ، ولم يفسر لنا كيف تراجع كارتر عن الموافقة ؟ هل توسل اليه السادات أن تعود سيناء بالشروط الحالية ، وأن تكون بها مناطق منزوعة السلاح ؟ وما الذى منع كارتر من تنفيذ موافقته فى كامب ديفيد ، هل عدل موقفه تحت ضغط السادات أو تحت ضغط بيجين ؟ وما قيمة تلك الورقة التى حصل عليها السيد اسماعيل فهمي اذا كانت لا تساوى ثمن الحبر التى كتب بها ؟

وعندما يقول له محمود فوزي : «ولكن السادات أعاد أرض سيناء بالكامل وأزال خطر الحرب» ، يرد عليه قائلاً باصرار : لا ، لا ، أنا رجعت سيناء بالكامل من غير أية شروط بتوقيع كارتر وبدون شروط . ثم يصف كامب ديفيد بأنها «مخدر»!

أما السيد محمد ابراهيم كامل ، وزير خارجية مصر الذى خلف اسماعيل فهمي ، فقد كان من الشجاعة حقاً بحيث قدم استقالته من منصبه دفاعاً عن رأيه ، ولكن الشجاعة لم تملكه لكى يعترف حالياً بخطئه!

فقد بيأله محمود فوزي قائلاً : «بعد عشر سنوات على كامب ديفيد، ألم تقدم على تقديم استقالتك إلى الرئيس السادات ؟ ،

وقد رد عليه قائلاً : اطلاقاً ! من الجائز أن يخدع الانسان الناس كلها ويخدع غيره ، انما مستحيل أن يخدع نفسه ، لو فرض أننى وقعت كامب ديفيد ، فأننى لم أكن أجروء على أن أنظر فى المراة صباح كل يوم لأخلق ذنبي ، لأننى كنت سأجتقر نفسى »!

ونقول للسيد محمد إبراهيم كامل إنه كان من حسن حظ مصر أن السادات لم يسمع نصيحته ، ووقع كامب ديفيد ، والا لندم ندما بليغا على تقديم هذه النصيحة لو ظلت سيناء إلى اليوم تحت أقدام الاحتلال الاسرائيلي ، بينما يتدفق على اسرائيل ثلاثة ملايين يهودى سوفيتى ، دون أن يملك العالم العربى كله ازاء ذلك شيئا ، والاتحاد السوفيتى ينشغل بمشاكله الداخلية عن القيام بدوره التاريخى فى مساندة حركات التحرر الوطنى – اللهم الا إذا كان السيد محمد إبراهيم كامل يتوقع أن تكون الدول العربية ، فى الفترة الماضية ، قد نجحت فى خوض معركة تحرير قومية فاصلة حررت سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة، بينما الحرب العراقية الايرانية مشتغلة ، أوحى بعد انتهاء تلك الحرب !

أما الدكتور مراد غالب ، الذى كان وزيرا للخارجية ، ثم سفيراً لمصر فى بلجراد ، وقدم استقالته للسادات بسبب زيارته للقدس بحجة أن «ضمير الأمة العربية ووجدانها وحسها الصادق قد اهتز إلى الاعماق من فرط ما أصابه من صدمة مروعة!» – فقد سأله محمود فوزى عما هى اعتراضاته على كامب ديفيد ، وماهى العيوب الأساسية فى معاهدة كامب ديفيد ؟ . وقد رد بأنه ضد كامب ديفيد واعتراضه على كامب ديفيد منشؤه «أنهالم تمنحنا الحل ، ليس هناك حل على الاطلاق»! وأن السادات «كان يؤدى وقتها هدفا استراتيجيا هاما جدا ، وهو عزل مصر وأن تقبع مصر داخل حدودها» ! إلى آخر هذا الهذر !

ولعل القارى بعد هذا العرض لآراء وزراء خارجية مصر ، يدرك أهمية السادات التاريخية ، وبصيرته النافذة !

لقد كان يرى ما لا يراه الآخرون ، بل ولا يريدون أن يروه حتى بعد أن تحقق!

رحمه الله رحمة واسعة .

قــتــلة «ثورة مصر» مجرمون أم أبطال؟

أعرف أن هذا المقال سوف لايسعد
الكثيرين ، ولكن مصلحة وطننا فوق كل
شئ ، ومستقبل شبابنا أهم من كل
شئ ! .

فأمامى الآن ،على احدى صفحات
جريدة « الناصريين» الصادرة فى
٣/٤/١٩٨٨ ، آراء عدد من رجال الفكر
والقلم المصريين ، الذين أكن لهم جميعا
الاحترام ، فى قضية المتهمين بتشكيل
تنظيم « ثورة مصر» واغتيال عدد من
الدبلوماسيين الاسرائيليين والأمريكيين
— وكل هذه الآراء تجمع على أن هؤلاء
المتهمين «أبطال» ! كما تجمع على أسف
أصحابها لقرار الحكومة اتهام هؤلاء
المتهمين وتقديمهم للمحاكمة! .

لذلك ، وعلى الرغم من أننى كنت
أوثر أن أحتفظ برأى تفصيليا فى هذه
القضية حتى صدور الحكم فيها ، حتى
لايسبق حكمى حكم القضاء ، وحتى

* أكتوبر فى ١٧/٤/١٩٨٨

لايمارس أى تأثير فيه ، وإيماننا بأن المتهم برئء حتى تثبت ادانته - الآن الحكم الذى أصدرته جريدة الناصريين بالفعل ، من خلال مجموعة المفكرين المصريين السالفة الذكر، والذى يقرر أن الأعمال التى ارتكبتها هؤلاء المتهمين لا تنزل بهم إلى مرتبة الادانة ، وإنما ترتفع بهم إلى مرتبة البطولة ! - بكل ما يشكل ذلك من محاولة للتأثير فى حكم القضاء - قد أزال تحفظى .

فلم يعد ثمة مبرر لحجب رأى فى مواجهة الرأى الآخر ، ولم تعد ثمة ضرورة للاحتفاظ به حتى صدور الحكم فى القضية ، بعد أن وصلت الأمور إلى حد تمجيد العنف الفردي ، ليس فقط من جانب الحزب السياسى الذى ينتمى له المتهمون ، وهو حزب الناصريين ، وإنما من جانب معظم الأحزاب المعارضة الموجودة فى الساحة المصرية تقريبا ، ان لم يكن كلها ! .

وهذا هو الأمر الخطير حقا ، بل إنه أمر مخيف حقا ، لأنه لوحدث أن انضمت الدولة ، بنظامها السياسى ، وحكومتها ، وحزبها السياسى الحاكم ، وغالبيتها البرلمانية ، إلى هذا الرأى ، وتبنت فكرة أن هؤلاء المتهمين أبطال ؛ وإذا حدث أن تأثر شبابنا بهذا الرأى ، ورأى فى هؤلاء المتهمين القدوة والمثل الذى يحتذى ، وتطلع إلى مرتبة البطولة التى وصلوا اليها ، عن طريق التقليد والمحاكاة وقتل الدبلوماسيين الذين ينتمون إلى أقلام المخابرات - فأى نوع من الدول نكون نحن بين دول العالم فى هذا العصر ، وأى شعب من الشعوب تنظر اليه شعوب العالم؟

ان وجود دبلوماسيين ينتمون لمخابرات بلادهم فى كثير من الدول ليس أمرا جديدا ، بل تكتشفه حكومات تلك الدول من حين لآخر ، وتحمله الينا وكالات الأنباء العالمية ، ولكن حكومات تلك الدول لا تلجأ إلى قتل هؤلاء الدبلوماسيين للتخلص منهم ، وإنما تلجأ إلى أبسط الوسائل الدبلوماسية، وهى طرد هؤلاء الدبلوماسيين ! .

ولم يتطلب الأمر أبداً في دولة واحدة من هذه الدول تكوين التنظيمات السرية لقتل أولئك الدبلوماسيين ، الا اذا تجاوز الأمر التخلص من الدبلوماسيين إلى التخلص من الحكومات الوطنية ، أو احراج سياستها ! . وبمعنى آخر ، الا اذا كانت تلك الحكومات الوطنية هي الهدف وليس الدبلوماسيين ! .

ولقد كانت سياسة «كامب ديفيد» هي الهدف من أعمال الاغتيال التي ارتكبها أفراد ذلك التنظيم ! وقد كان النظام الوطنى السياسى فى بلدنا - الذى تصدت له أنظمة عربية عاجزة ومزايذة ومتآمرة باسم الصمود التصدى الكاذب لأنه رفع وصمة الاحتلال الاسرائيلى من سيناء - هو الهدف من أعمال الاغتيال ، وليس أشخاص أولئك الدبلوماسيين ، الذين كان يمكن التخلص منهم بالطرد وليس بالقتل ، لأن قتل هؤلاء لا يجتث المشكلة من جذورها - أى لا يجتث كل الدبلوماسيين الذين ينتمون لمخابرات بلادهم ، والذين هم موجودون فى كل البعثات الدبلوماسية دون استثناء كما هو معروف ، ليس فى مصر وحدها وانما فى جميع دول العالم .

الهدف - اذن - سياسى ، مستقى من سياسة أنظمة عربية مناوئة لمصر ، تكره تحرير سيناء بحجة أن سيناء لا يجب أن تتحرر قبل أن تتحرر بقية الأراضى العربية !

وليس هدفاً وطنياً يستهدف تحرير أرض مصرية ، لأن هذه الأرض المصرية تحررت بالفعل بسياسة كامب ديفيد ، التى يهاجمها النصابون والمزايدون الذين كانوا يطعنون النظام بضرارة بينما هو يحرر سيناء ، لأهداف بعيدة عن الوطنية المصرية ، والذين يتمسكون بموقفهم المخزى الذى ثبت خطؤه ، حتى بعد أن تخلت عنه الدول العربية التى ضللتها أباطيل وألاعيب القذافى وحافظ الأسد .

فاذا جاء اليوم من يصف ذلك الهدف السياسى للاغتيال الذى قامت به مجموعة تنظيم «ثورة مصر» ، بأنه هدف وطنى ، رغم أنه يتفق مع

سياسة أنظمة عربية مناوئة لمصر ، ولايتفق مع سياسة مصر ، ورغم أنه يتناقض مع مصلحة الشعب المصرى الذى أيد سياسة كامب ديفيد فى تحرير سيناء ، والذي أيد السلام مع اسرائيل ، فهو حر فى رأيه ، ولكن لايجب أبدا أن يزعم أن هذا الرأى يمثل الشعب المصرى ، الا اذا تجرأ على رفع شعار الحرب ضد اسرائيل ، ووجد من يؤيده من الشعب المصرى!.

وليست أظن أن أحدا ممن يزعمون أن الشعب المصرى ضد السلام مع اسرائيل يجرؤ على رفع شعار الحرب فى القاهرة الا اذا كان يستعد للذهاب لمصحة عقلية ! أو كان يريد أن يلحق بالقذافي فى مصحته العقلية فى ليبيا ! .

فاذا وصل الأمر ببعض المفكرين إلى حد وصف المتهمين فى قضية «تنظيم» «ثورة مصر» بأنهم أبطال ، لأنهم قتلوا الدبلوماسيين الاسرائيليين والأمريكيين بحجة أنهم من المخابرات ، فانهم يعطون نفس الحق للتنظيمات المتطرفة الارهابية فى كل من اسرائيل وامريكا لقتل دبلوماسيينا بحجة أنهم مخابرات أيضا ! وهم يرسمون لشبابنا أسوأ وأخطر الطرق للوصول إلى البطولة .

بل أليس من حق الجماعات الدينية المتطرفة فى مصر بعد ذلك ، وشبابها لا يقل عن المتهمين «الأبطال» ! فى قضية تنظيم «ثورة مصر» عداً لاسرائيل وأمريكا – الاقتداء بتلك النماذج للبطولة ، وقتل من ترى أنه ينتمى من الدبلوماسيين الاسرائيليين والأمريكيين إلى المخابرات . كما يصبح من حقها القيام بأعمال مثيلة اذا وقع فى يقينها أن تلك الأعمال هى أعمال وطنية ! .

واذا سرت عدوى «البطولة» إلى فرق شباب الأحزاب الأخرى ، وهو لا يقل وطنية بطبيعة الحال ، ثم انتقلت إلى طلبة الجامعات والمدارس الثانوية فتحول الجميع إلى قتلة للدبلوماسيين ، لكى يلحقوا بموكب الأبطال

الخالدين فى تنظيم «ثورة مصر» - فالمرء أن يتصور كيف يكون حال النظام والأمن فى بلدنا ، بعد أن يسودها العنف الفردى ؟

هذه هى القضية الخطيرة والمخيفة ، التى تطرحها تلك الآراء ، التى رأت فيما قام به تنظيم «ثورة مصر» عملا بطوليا ، ورفعت المتهمين من مرتبة الاجرام إلى مرتبة البطولة . لأنه اذا اختلطت معايير الاجرام والبطولة إلى هذا الحد فقل على بلدنا السلام ! تماما كما اختلطت معايير الخيانة والبطولة بين السادات وعبد الناصر ، فأصبح عبد الناصر بطلا ، وهو الذى هُزم هزيمة ساحقة فى يونيه ١٩٦٧ ، ومات وسيناء تحت الاحتلال الاسرائيلى ، وأصبح السادات خائنا وهو الذى انتصر انتصارا أسطوريا فى معركة العبور ، وحرر سيناء من الاحتلال الاسرائيلى !

ولأنى أحسن الظن كثيرا بالأصدقاء المفكرين ، الذين نشرت لهم جريدة الناصريين آراءهم فى بطولة المتهمين فى قضية «تنظيم ثورة مصر»، والذين أدانوا النظام السياسى فى بلدنا لأنه قدم المتهمين إلى المحاكمة ، فانى أكتفى بأن أسأل كل واحد منهم السؤال الآتى :

«ترى لو شغلت منصب رئيس الجمهورية ، أو رئيس حكومتها ، وارتكبت منظمة «ثورة مصر» فى عهدك ما ارتكبته من قتل للدبلوماسيين الاسرائيلين والأمريكيين بحجة أنهم ينتمون إلى مخابرات بلادهم ، هل تعتبر ما ارتكبوه بطولة ، وتطلق سراحهم ، وتسبغ عليهم ما تسبغه الحكومات على أبطالها من أوسمة ونياشين؟ . أو تتغاضى عن قتل الدبلوماسيين فى حكمك ، وتتستر على ما يرتكب فى عهدك ، وتترك هؤلاء «الأبطال» المزعومين يفاجئونك من حين لآخر بدبلوماسى يسقط قتيلا برصاص مدافعهم ، وتحمل مسئولية تقاعسك أمام رأى العام الداخلى والدولى؟ .

كذلك فانى أسأل رئيس كل حزب من الأحزاب التى مجدت قتلة «ثورة مصر» وأسماهم أبطالاً :

« ترى ماذا يكون موقفك لو أن الانتخابات القادمة أتت بك إلى الحكم، وفاجأتك أحداث من نوع الأحداث التي ارتكبتها من تسميهم أبطالاً في حق الدبلوماسيين الاسرائيليين والأمريكيين . هل تصر على تسميتهم أبطالاً أو تسارع إلى اعتقالهم وتسليمهم إلى زيانيتك لاستخلاص الاعترافات منهم ، وإبراء ساحتك أمام مواطنيك وأمام الدول الأجنبية التي أغتيل دبلوماسيوها ؟ » .

هذا هو الفرق بين المعارضة المسئولة والمعارضة غير المسئولة . إن المعارضة المسئولة هي التي تضع نفسها في موضع رئيس الدولة وفي موضع رئيس الحكومة ، وتقرر ما هي السياسة المثلى التي تتبع ، وما هو الموقف المثالي الذي يتخذ .

أما المعارضة غير المسئولة ، فهي التي تعزل نفسها عن عملية الحكم كلية ، فتبتدع ما لا يطبق حتى في المريخ ! ، أو ما لا تطبقه إلا الحكومات الهمجية في المجتمعات البدائية ، وتزايد على حكومتها به ، وهي تعلم استحالة تنفيذه ! .

نعم ، إن المعارضة المسئولة هي التي تعلم أنها جزء لا يتجزأ من نظام الحكم ، وأنها تحكم بالفعل بتأثيرها على القرار السياسي من خلال حزبها وبواسطة صحيفتها وقوة جماهيرها . فلا تلجأ إلى الأساليب الرخيصة الديماغوجية لكسب ثقة الجماهير ، بل تلجأ إلى السياسة الرشيدة المتعقلة الأكثر نضجاً التي تشد إليها الجماهير .

والا - بالله - ما فائدة هذه الحياة الديمقراطية التي نحياها ، إذا لم تقدم لنا البديل الأفضل ، وإذا لم تقدم لنا السياسة الأفضل من السياسة الحالية . وإذا لم تقدم لنا الرأي الأكثر نضجاً ، والرؤية المستقبلية الأكثر إشراقاً ، والفكر الأكثر رقياً وشموخاً ، والنقد البناء الذي يصحح مسيرتنا ؟ .

فاذا كانت الديموقراطية الحالية تمجد العنف الفردي ، وتمجد قتل الدبلوماسيين بحجة أنهم مخابرات ، وتدين الحكومة لأنها اعتقلت الجناة، وتحمل عليها لأنها قدمتهم إلى المحاكمة ، وتحيط الجناة بهالات الشرف، وترفعهم في عين شبابنا إلى مرتبة الأبطال - فهل تكون ديمقراطية مما تعرفه الدول الديموقراطية ، أو تكون مجرد لعبة سياسية لا تعرفها النظم السياسية ، ولم تخطر ببال مفكر من مفكرى الفكر الليبرالى ؟ .

فاذا قال لى قائل : إنه لو كان حزبه فى الحكم لرفض اعتقال قتلة «ثورة مصر» ، وتقديهم إلى المحاكمة ، ولترك لهم الحرية لممارسة «بطولاتهم» فإننى أقول له - بدون تردد - أنت كاذب يا سيدى ، بل أنت كاذب أشر !

بل انى أسأل زعماء الحزب الناصرى ، الذى ينتمى اليه القتلة : «ترى لو كان عبد الناصر فى الحكم ، وجرى قتل أحد الدبلوماسيين الأمريكين فى القاهرة : هل كان يترك القتلة مطلقى السراح؟ ويمتنع عن تقديمهم للمحاكمة ؟ ، وهل كان يعتبرهم أبطالاً كما تعتبرون قتلتم ؟ .

«واذا ظهر من المفكرين من يدين عبد الناصر لاعتقاله الجناة ، كما تدينون الحكومة الحالية ، ترى أى معتقل يجد نفسه فى اليوم التالى فيه؟، وأى سجان من زبانية التعذيب يخصص له لتلقيه واجب احترام الزعيم وتعليمه أدب احترام النظام ؟

كذلك فانى أسأل الأصدقاء التقدميين الذين أدانوا الحكومة لتقديم المتهمين للمحاكمة : لقد ناصبت الولايات المتحدة مصر العداء منذ حرب يونيه ١٩٦٧ مما ليس فى حاجة إلى برهان ، ومما ساعد اسرائيل على احتلال سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة، وتثبيت هذا الاحتلال ، ترى لو ظهر أبطال من أمثال أبطالكم فى تنظيم «ثورة مصر» ، وقتلوا أمريكيا فى شوارع القاهرة بحجة أنه ينتمى للمخابرات الامريكية ، وبحجة أن القضية يجب أن ينظر اليها فى اطار الصراع بيننا وبين الصهيونية العالمية ، وبحجة أن الصراع بيننا وبين الصهيونية العالمية

صراع أبدى إلى أن يستعيد الشعب العربى أرضه المسلوبة - ترى هل كان أحدكم يغامر بادانة عبد الناصر اذا اعتقل الجناة وقدمهم الى المحاكمة ؟ وهل كان يجاهر برأيه فى اعتبار هؤلاء الجناة أبطالاً ؟ .

وحتى لا يسارع الأصدقاء بالاجابة ، فمن واجبى أن أنبههم إلى أنهم عندما جاهروا برأيهم فى سياسة بلدنا بما لا يتفق تماما مع رأى الزعيم الراحل ، ولم يكن هذا الرأى مما يخرج بهم من صفوف الوطنية أو يدمغهم بالخيانة ، وجدوا أنفسهم فى السجون يتلقون الدروس الثمينة فى الوطنية على يد زبانية التعذيب ؟ .

صدقونى إنى فى حيرة : كيف يُجمع خصوم العنف الفردى من الماركسيين التقدميين على اعتبار أن ما قام به قتلة «ثورة مصر» بطولة وعلى اعتبارهم «أبطالاً» ؟ . وكيف يدينون اعتقال الحكومة لهم وتقديمهم إلى المحاكمة ؟ . مع أن كل واحد يبدأ حديثه بأنه ضد العنف الفردى ، ثم يسوق بعدها حديثه على العكس مما يؤمن به ! .

قالصديق الدكتور رفعت السعيد يبدأ حديثه بالقول بأنه « بغض النظر عن موقفنا المبدئى ازاء اللجوء الفردى إلى العنف ، واعتقادنا بعدم جدواه سواء على المستوى السياسى أو الجماهيرى ، الا أننا لا نخفى ولا نملك أن نخفى تعاطفنا مع المتهمين فى تنظيم «ثورة مصر» ! .

والدكتور عبد العظيم أنيس يقول إنه « لا يملك غير التعاطف مع هؤلاء الأبطال المتهمين ، حتى لو كان لا يؤمن بالاغتيالات الفردية » ! .

أفهم أن الاخوان المسلمين يقفون هذا الموقف ، فتاريخهم فى العنف الفردى تاريخ طويل ، كما أفهم أن تقف الجماعات الدينية المتطرفة هذا الموقف أيضا ، لتبرير التجائهم إلى العنف الفردى ، وأفهم أن تقف جماعة حزب العمل ذات الأصول الفاشية هذا الموقف كذلك ، فتراثهم فى العنف الفردى يفسر موقفهم ، ثم انهم هم الذين جعلوا من الجندى سليمان خاطر بطلا من أبطال التاريخ المصرى ! . ، كما أفهم أن يقف

الحزب الناصري موقف التأييد للمتهمين وذلك بسبب تورط خالد عبد الناصر - أما أن يتعاطف أعداء العنف الفردي الحقيقيون ، الذين لا يؤمنون الا بالعنف الجماهيري ، وهم الماركسيون ، مع قتلة «ثورة مصر» ، فهذا هو خلط الأوراق الذي سوف يقف التاريخ عنده طويلا ! .

ولقد جادل الأستاذ كامل زهيرى بأن هناك فرقا بين المواطن الاسرائيلى الذى ينتمى إلى أجهزة المخابرات الاسرائيلية ، وبين المواطن الاسرائيلى العادى الذى يقوم بزيارة مصر ، فأعمال تنظيم «ثورة مصر» اتجهت إلى رجال المخابرات ، ولكنها لم تصب حاخاما فى معبد ، ولم توجه لساخ أثناء اضطرابات فى الشارع ، ولم توجه لمكان دينى ، أو بطريقة ارهابية مثلما حدث فى ايرلندا أو فرنسا أو دول أوروبا الغربية! .

وهذا صحيح ، ولكن هل يفهم من ذلك أن الأستاذ كامل زهيرى يعطى الحق لأى فرد فى القاهرة أن يقتل كل عملاء الموساد الاسرائيلية والسى أى إيه الأمريكية ، بمبادرة فردية ؟ . وكيف يكون الحال فى نظام يعطى الأفراد لأنفسهم الحق فى قتل الدبلوماسيين الذين ينتمون إلى مخابرات بلادهم ؟ وماذا يكون موقف الأستاذ زهيرى اذا كان يرأس الحكومة فى هذا النظام ؟ .

وهذا ما يدعونا إلى عقد هذه المقارنة المحزنة بين سياسيين ومفكرين مصريين يمجدون العنف الفردي ، ويرفعون مرتكبيه إلى مصاف البطولة، وبين مفكرين إسرائيليين يدينون بكل قوة ممارسات جيش الاحتلال الاسرائيلى ضد الفلسطينيين ، ويتظاهرون إلى جانب الفلسطينيين ضد الجنود الاسرائيليين ، وينقدون حكومتهم بكل ما يملكون من قوة ، ويصفون أسلوبها فى القمع بأنه أسلوب غير انسانى ، ويفضحون ممارساتها علنا فى الصحف الاسرائيلية ، بل يشيدون بالمواطنين العرب فى اسرائيل لأنهم أثبتوا انتماءهم لشعبهم الفلسطينى!

وأنا أقرأ هذا من افتتاحية جريدة «عل همشمار» وجريدة «المرصاد»
- فضلا عما تنشره الصحف الأخرى العالمية نقلا عن الصحف
الاسرائيلية من نقد لحكومتها .

ترى اذا اعتمدنا العنف الفردي فى صراعنا السياسى ، فمن يمكنه
أن يفلت من آثاره ؟ ، واذا جعلنا مرتكبي العنف الفردي أبطالا ، أفلا نفتح
باب جهنم لمجتمعنا وشعبنا وحكومتنا ونظامنا السياسى ؟

واذا ساد العنف الفردي حياتنا ، بعد أن يعتنقه شبابنا ، أفلا نكون قد
سلمنا للنظام السياسى فى بلدنا الذريعة للانقضاض على حياتنا
الديمقراطية المتواضعة ، بحجة المحافظة على الأمن والنظام ؟

وعندئذ ، فمن من أبناء الشعب بالله سوف يقف إلى جانب أنصار العنف
الفردي ، ومن من أبناء الشعب سوف يقف إلى جانب الأمن والنظام ؟ .

بالله أيها السادة ، قليلا من الحكمة وقليلا من المسئولية ، ولا تستهينوا
أبدا بنظام يملك الهياكل الرئيسية للانتاج ، فنحن نفتقر إلى النظام
الرأسمالى السليم الذى هو دعامة أية ديموقراطية ليبرالية حقيقية.

ولا تنسوا أنه قبل سبعينيات ست فقط بطش بكم هذا النظام بين عشية
وضحاها ، ولم ينقذكم سوى الصدفة وحدها - صحيح أن الصدفة
اعتمدت على العنف الفردي ، ولكن من يضمن أن تتكرر التجربة ؟ .

دعونا - اذن - ندعو مع السيد المسيح هذا الدعاء : اللهم لا تدخلنا فى
تجربة ! .

وماذا بعد عودة طابا وانتهاء حرب أكتوبر؟ *

أعتقد أنه بانزال العلم الاسرائيلى
من فوق منطقة طابا ، ورفع العلم
المصرى مكانه ، تكون الخصومة بين
مصر واسرائيل قد انتهت ، وتكون
حرب أكتوبر قد انتهت من الناحية
الفعلية ، وانطوت صفحة الحرب بين
مصر واسرائيل ، التى بدأت باعلان
قيام دولة اسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ،
وتكون هذه الحرب - كما تنبأ السادات
- هى آخر الحروب .

ومما لا شك فيه أن قليلين فى هذا
الوطن وفى العالم العربى لن يسعدوا
كثيرا بنزول العلم الاسرائيل وانتهاء
الخصومة بين مصر واسرائيل ، لأن
وجود هذا العلم كان يمدهم على الدوام
بما يدعم قضيتهم الخاصة فى التظاهر
بالتشدد فى الوطنية والقومية ، ويبرر -
فى الوقت نفسه - العمل لحساب القوى
العربية التى تناصب مصر العداء ،
وتحاول أن ترمى النظام السياسى فيها

* أكتوبر فى ٢٦ / ٣ / ١٩٨٩

بالتفريط ، بعد أن اتهمته بخيانة المصالح المصرية والعربية ، وتجند الذين يقتلون الدبلوماسيين على أرض مصر المستقلة والحرّة باسم التحرير ! .

وهؤلاء هم الذين راهنوا منذ البداية على فشل الحل السلمي - دون أن يجندوا أية قوة للتحرير ! وأدانوا مبادرة القدس ، ووضعوا أسماء من أيدوها فى قوائم المقاطعة السوداء المشبوهة ، وعلى رأسهم نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وأنيس منصور وصاحب هذا القلم ، وهلّلوا لقرار الدول العربية قطع علاقاتها السياسية مع مصر ، ونقل مقر جامعة الدول العربية من القاهرة إلى تونس ، بل اعتبروه قرارا مخففا كان يجب أن يكون أكثر شدة ! . بل هربوا من مصر بأقلامهم ليضعوها فى خدمة أشد الدول العربية عداء لمصر ، وأصدروا المجلات بالأموال المشبوهة ، وسطروا المقالات التى تسخر وتدين وتندد بالنظام السياسى فى مصر ، وكونوا الثروات على حساب مصر ، بينما كان النظام السياسى يخوض أكثر المعارك السياسية شراسة من أجل تحرير سيناء .

وقد رأينا تعاسة هؤلاء لنزول العلم الاسرائيلى من فوق منطقة طابا ، حين أخذوا يهاجمون النظام غداة توقيع الاتفاق الأخير بشأن طابا ، ويرمون بالتفريط والتهاون ، لأنه قدم بعض التنازلات - التى لا تخلو منها عادة أمثال هذه الاتفاقات ، التى تقوم على التفاوض وليس على فرض الرأى على الخصم بالقوة المسلحة .

نعم ، رأينا من يرمى النظام بالتفريط لأنه سمح بالتعامل فى هذه المنطقة بالعملة الاسرائيلية ، وهى الشيكل ! . ونسى أن المصريين أنفسهم يتعاملون فى بلدهم بالدولار والجنيه الاسترلينى والفرنك الفرنسى والمارك الألمانى ! وأن هناك بعض شركات القطاع العام التى تشترط على المواطن المصرى الدفع بالدولار !

ولكنهم يفضلون بقاء العلم الاسرائيلى على منطقة طابا على هذا التنازل ! .

أو رأينا من يتهم النظام بالتفريط لأنه قدم بعض التسهيلات للسياح الاسرائيليين للدخول إلى هذه المنطقة لمدة أسبوعين في ظل العلم المصري، اذا كانوا يفضلون دخولهم في ظل العلم الاسرائيلي الذي كان يمد لهم بأدوات التهيج والاثارة اللازمة والظهور بمظهر الغيرة على أرض الوطن!

بل رأينا من يتفق مع المتطرفين الاسرائيليين في القول بأنه كان من المصلحة هدم فندق سونستا ! تحت الزعم بأن اسرائيل تتخذ منه موقعا للتجسس على مصر والمنطقة العربية ! - أى كما لو كان هذا الفندق قمرا صناعيا ، أو لم تكن ايلات تقع على بعد خطوات منه ، وهى أصلح منه للتجسس !

ومن حسن الحظ أن هؤلاء قلة لا وزن لها ولا تأثير على رأى العام المصري ، وبالتالي فلا يجب أن يعوقوا النظام السياسى فى بلدنا عن الدخول فورا فى علاقات بناءة مع اسرائيل ، تخدم مصالح هذا الوطن ، وتفيد فى خدمة القضية الفلسطينية ، واقامة سلام شامل ودائم فى هذه المنطقة المضطربة من العالم ، بعد أن تخلصت هذه العلاقات المصرية الاسرائيلية من الحساسيات التى كان يسببها وجود العلم الاسرائيلي فوق قطعة أرض مصرية هى طابا ، ولم يعد ثمة وطنى أصيل مخلص لمصر يملك حجة وطنية صحيحة يرفعها فى وجه النظام اذا هو طبع علاقاته مع اسرائيل تطبيعا تاما ، على نحو ما هو قائم مع غيرها من الدول الأخرى .

وهذا ما تفعله الدول عادة فى أعقاب الخصومات العادية ، بل والمزمنة . فقد كانت الخصومة بين انجلترا وفرنسا مزمنة قبل الحرب العالمية الأولى بسبب التنافس الاستعماري ، وكانت الحملة الفرنسية على مصر حلقة من حلقات هذا الصراع ، بل وكادت الدولتان تدخلان فى حرب فى فاشودة المصرية بسبب التنافس على جنوب السودان ، وقد لعبت الحركة الوطنية فى مصر قبل الحرب العالمية الأولى على حبل هذا

الصراع بين الدولتين ، خصوصا حركة مصطفى كامل . ولكن هذا انتهى الآن ، وأصبحت العلاقة بين الدولتين علاقة صداقة وتحالف .

وكذلك كان الحال بين ألمانيا وفرنسا ، وأبرز مظاهره حرب السبعين التي احتلت فيها ألمانيا (بروسيا بسمارك فى ذلك الوقت) فرنسا . ثم الحربان العالميتان الأولى والثانية اللتان احتلت فرنسا فيهما ألمانيا مع غيرها من الحلفاء . بل انتهى الصراع فى الحرب العالمية الثانية بتقسيم ألمانيا إلى غربية وشرقية . ولكن بعد انتهاء هذه الحرب العالمية الثانية تحول العداء المزمّن التاريخى إلى صداقة وتحالف !

وكذلك الحال مع اليابان والولايات المتحدة الأمريكية . فقد شهدت ساحة المحيط الهادى أعنف الحروب بين الدولتين وأشدّها وحشية ، واختتمت بضرب هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذرية ! ولكن بعد انتهاء الحرب بسنوات قلائل كانت العلاقة بين الدولتين قد تحولت إلى علاقة تحالف ، على الرغم من أن قوات الولايات المتحدة كانت تحتل اليابان ! بل لقد طلبت اليابان من الولايات المتحدة وقتها بقاء القوات الأمريكية فى أراضيها مؤقتا حتى تمتلك قوات تحميها .

بل إن العلاقات العدائية بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، والتي تكتسب صفة أيديولوجية تزيدها حدة ، وتجعل التناقض بينهما مما لا يمكن حله بغير طريق الصراع - قد دخلت فى مرحلة جديدة فى عهد جورباتشوف لم تكن تخطر ببال أشد الماركسيين مرونة واعتدالا ، بل انها تمس النظرية الماركسية التي تقوم على صراع الطبقات فى الصميم

وقد كفانا الأستاذ محمد سيد أحمد فى مقاله بالأهرام يوم ١٥ مارس ١٩٨٩ عرض المقال الخطير الذى كتبه المؤرخ السوفيتى الكبير نيكولاى بوبوف ، وهو خبير بمعهد أبحاث العلوم الاجتماعية بموسكو ، فى المجلة السوفيتية «ليتراتورنا جازيتا» ، والذى أعلن فيه أن ستالين يتحمل نصيبا هاما من المسؤولية فى اندلاع الحرب الباردة ، - مما

يتعارض مع المقولات السوفيتية السابقة بأن الاتحاد السوفيتي كان على الدوام يتبع سياسة سليمة ثابتة لم يحد عنها !

وأهم من هذا المقال التحليل الذي كتبه الأستاذ محمد سيد أحمد تعليقا عليه ، والذي يصور التغيير الذي يحمله المقال المذكور عن صورة العدو. فقد كانت الصورة القديمة للعدو - وهي الخاضعة لمنطق الصراع الطبقي - لا تعترف بالموقف «المحايد» بين الطبقات المتصارعة ، وتقوم على تصوير الذات بلا عيوب ، وتصوير العدو محملا بها ، مهما كانت المبالغة، الأمر الذي كان يؤدي إلى تقييد القدرة على الانتقال من حالة «المواجهة» إلى حالة «التعاون» ، ويعوق التوصل إلى التسويات .

ولكن الفكر السوفيتي الجديد ، الذي أطلقته «البريسترويكا» - كما يقول الصديق الأستاذ محمد سيد أحمد - غير هذه الصورة المخالفة للواقع ، التي تفترض في العدو أسوأ العيوب ، وتجرد الذات منها ، بل أصبحت تطالب بالتخلي عن كلمة و فكرة «العدو» ذاتها أصلا ! وليس معنى هذا إسقاط الحاجة إلى ضرورة مناهضة العدوان ، وكل خروج على القانون الدولي والشرعية الدولية ، ولكن كما أن المجرم لا يوصف بـ«العدو» في مجتمع ما داخل إطار سيادة دولة ما ، فإن «العدو» في المجتمع الدولي يتعين النظر إليه بصفته «مرتكب جريمة» واجبة التصحيح على نحو يلبي المصالح المشروعة لكافة الأطراف المعنية على اتساع هذا المجتمع الأشمل .

ومن الواضح أن ظروف العصر هي التي حتمت هذا التغيير في النظرة إلى العدو ، وأصبحت تحتم التعاون . لأن الخطر في العصر النووي لم يعد مقصورا على حالة نشوب حرب نووية ، بل إنه خطر قائم في ظل السلام أيضا بسبب الآثار التلويثية للتكنولوجيا العصرية . وقد انعقد منذ أيام مؤتمر دولي خطير للحيولة دون زيادة تبديد طبقة الأوزون بطبقات الجو العليا نتيجة بعض منتجات التكنولوجيا العصرية .

وفى كلمة موجزة - وكما يقول محمد سيد أحمد - فإن الأخطار التى تهدد البشرية ككل لم تعد هى التى ترمز لها هيروشيما وناجازاكي فحسب ، بل أيضا تشيرنوبيل ! .

ومعنى هذا الكلام كله ، أنه بعد أن احترمت اسرائيل توقيعاتها بالانسحاب من سيناء ومن طابا ، زالت كل الأسباب التى كانت تدعو مصر إلى التحفظ فى علاقاتها مع اسرائيل ، أو تحول دون تطبيع علاقاتها معها بالكامل ، والاستفادة من مزايا هذا التطبيع والتعاون فى كافة المجالات .

وسوف نجد على الدوام من تلك القلة الهزيلة التى تحارب لغير صالح هذا الوطن ، من يذكر بقضية فلسطين!

ويجب على هؤلاء ادراك أن مصر التى لها علاقة طيبة مع اسرائيل تستطيع أن تخدم القضية الفلسطينية بأكثر مما خدمتها مصر التى هى فى حالة حرب مع اسرائيل.

بل أنى أقول - مع الأسف الشديد - أن مصر المحاربة لاسرائيل قد أضرت بالقضية الفلسطينية ضررا بليغا من حيث تريد خدمتها ! والدليل على ذلك تأخر القضية الفلسطينية على طول مراحل الصراع العربى الاسرائيلى .

فقد تحولت من قضية تصفية اسرائيل إلى قضية تصفية آثار العدوان، إلى قضية الاعتراف باسرائيل مع اقامة دولة فلسطينية ! وكانت حرب ١٩٤٨ قد انتهت بضياع نصف فلسطين ، فانتهت حرب ١٩٦٧ بضياع بقية فلسطين ومعها سيناء والجولان وغزة ! ولم تسفر حرب أكتوبر - بكل ما حققنا فيها من نصر العبور الخالد والتاريخى - الا عن تحرير ١٥ كيلو مترا على طول الشاطئ الشرقى لقناة السويس ، بينما بقيت الجولان وغزة فى يد اسرائيل حتى الآن ! .

وأزعم أنه لولا الجهود السياسية الدبلوماسية التي بذلها كل من الرئيس السابق السادات والرئيس مبارك ، لكان وضع سيناء الآن هو نفس وضع الجولان والضفة الغربية وغزه ، التي تحتلها كلها القوات الاسرائيلية إلى الآن - حتى تنهياً الظروف لحرب أخرى يتفق عليها العرب مع مصر ، أو تخوضها مصر مع سوريا كما حدث في عام ١٩٧٣ ، وقد تنتهي - في أحسن الفروض - بنفس النتيجة التي أسفرت عنها الجهود السياسية الدبلوماسية ، وهي تحرير سيناء ! وقد لا تسفر عن ذلك .

وفي هذا الصدد لا يجب علينا أن ننسى أن حرب ثمانى سنوات بين العراق وايران لم تنته بهزيمة ساحقة لأى من الطرفين ، كما أنها لم تنته بنصر حاسم ، وما زالت ايران تشكل خطراً كامناً يجب الاستعداد له ، كما أنه لم تعقد حتى الآن معاهدة سلام بين البلدين*.

وهذا العجز عن تحقيق نصر حاسم فى أى حرب تخوضها دولتان فى هذا العصر - هو أبرز سمات هذا العصر . فحتى الاتحاد السوفيتى - وهو دولة عظمى - لم يستطع تحقيق نصر حاسم فى أفغانستان ! وقد عجزت الولايات المتحدة - قبله - عن تحقيق نصر فى فيتنام .

بل أزعم أن الدولة الوحيدة التى استطاعت تحقيق نصر حاسم فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية كانت هى اسرائيل فى حرب يونيه ١٩٦٧ ، ثم - بعد ذلك - عجزت عن تحقيق هذا النصر فى حرب أكتوبر ، بل عجزت عن تحقيق هذا النصر فى لبنان ، كما أنها لم تستطع أن تطفىء الانتفاضة الفلسطينية .

وربما كانت عظمة السادات الحقيقية تكمن فى أنه كان أسبق الحكام العرب إلى ادراك حقائق هذا العصر ، وكان يملك الشجاعة الكافية لكى

* لم يكن أحد يتنبأ فى ذلك الوقت بأن الخطر قادم من العراق !

يتصرف وفق قواعدها ، وقد أدرك الرئيس محمد حسنى مبارك هذه الحقائق أيضا ، وكان من الشجاعة بحيث أكد على الدوام تصميم مصر على المضى قدما فى سياسة السلام مع اسرائيل ، جنبا إلى جنب مع سياسة التضامن بين مصر والعرب التى وصل فيها إلى حد ابرام اتفاقية تأسيس مجلس التعاون العربى .

وحين عجز الآخرون عن فهم هذه الحقائق ، بقيت أراضيه تحت الاحتلال الاسرائيلى إلى الآن واضطرت منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات إلى تغيير تكتيكها واستراتيجيتها مؤخرا تحت ضغوط الانتفاضة الشعبية ، والا كان عليها أن تلقى مصير حكومة فلسطين البائدة !

ومن هنا فان على النظام السياسى فى مصر أن يرسم سياسة جديدة تستفيد من المتغيرات التى حدثت فى العلاقات المصرية الاسرائيلية بنزول العلم الاسرائيلى من فوق منطقة طابا .

فمن الثابت الآن أن اسرائيل على الرغم من ماطلاتها المعتادة – المقترنة بالشخصية اليهودية – حريصة على علاقاتها مع مصر ، وعلى اقامة هذه العلاقات على أساس من التكافؤ والإحترام المتبادل . كما أن مشاعر الشعب الإسرائيلى نحو مصر قد تغيرت ، ويتمثل ذلك فى ظهور حركة «السلام الآن» القوية المؤثرة ، وفى الأصوات العاقلة التى كانت ترتفع فى داخل إسرائيل تساند حق مصر فى كل الخلافات السابقة ، ويتمثل كذلك ، فى اقبال الإسرائيليين على السياحة فى مصر بأعداد متزايدة .

وقد تغيرت مشاعر الشعب المصرى ازاء إسرائيل كذلك ، كما تمثل فى مساندته مبادرة السلام ، وتأييده للمعاهدة المصرية الإسرائيلية ، ووقوفه وراء النظام السياسى فى مصر فى وجه العناصر المتاجرة بالقضية الفلسطينية ، التى تتظاهر بالتشدد والتطرف فى الوطنية والقومية .

ومما لاشك فيه أن لدى مصر ماتقدمه لاسرائيل ، ولدى اسرائيل ما تقدمه لمصر ، وصحيح أن التعاون – خصوصا فى مجال الزراعة –

يمضى منذ زمن فى الخفاء ، ولكن كل ألوان التعاون يجب أن تظهر فى العلن ، وأمامنا نموذج التعاون الأمريكى السوفيتى فى برامج الفضاء !

ويمكن أن تلعب وسائل الاعلام دورا هاما فى بناء الثقة بين البلدين ، فى عصر لم يعد فيه غالب ولا مغلوب ، ولا منتصر ولا مهزوم ، بل أصبحت الأخطار تهدد الجميع ، وصارت تتطلب تعاون الجميع . كما أنه يمكن تكوين لجان مصرية إسرائيلية مشتركة لبحث ميادين هذا التعاون.

وأعتقد أنه إذا تم ذلك فانه يمكن أن يرسم أمام الإسرائيليين أنموذجا يوضح لهم أهمية السلام بينهم وبين جميع العرب ، ويشجعهم على تسوية القضية الفلسطينية تسوية عادلة ، وإقامة علاقات طيبة مع الدول العربية تعيد إلى هذه المنطقة المضطربة والمتهبة من العالم هدوءها واستقرارها وأمنها من جديد .

الخطأ الذى وقع فيه كارل ماركس وأنيس منصور!

تميز المثقفون المصريون على مدى التاريخ بتمردهم الفكرى على مايرد إليهم من أفكار عبر الحدود المصرية ، فهم يعملون فكرهم باستمرار فى كل ما يصل إليهم من أيديولوجيات ، ويقبلون منها مايتفق مع تراثهم الحضارى ، وينبذون ما لا يتفق ، ويغيرون فيها ما يشاءون !. وينطبق هذا على العصور القديمة ، كما ينطبق على العصر الحديث . كما انه ينطبق على المثقفين من رجال الدين وعلى المثقفين من العلمانيين .

فعندما دخلت المسيحية مصر لم تدخل على يد السلطة الرومانية ، وإنما دخلت رغم ارادة هذه السلطة ، وانتشرت فى ظل اضطهادها ، حتى تمت للمدين الجديد الغلبة فى عصر قسطنطين الأول .

ولكن المصريين لم يقبلوا المسيحية كما وصلت إليهم ، وإنما أعملوا فكرهم

أكتوبر فى ١ / ١٢ / ١٩٩٠

فيها ، وخرجوا بتفسيرهم الخاص لطبيعة السيد المسيح الذى انقسم إلى مذهبين ، فقد رأى أريوس « أن » الآب هو الاله الحق فى مقابل الابن الذى ليس الها حقا ، فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق ، بينما رأى « أثناسيوس » العكس تماما ، وهما مساواة الابن للآب فى الجوهر .

وقد أثرت اجتهادات المصريين فى كل العالم المسيحى ، فاعتنقت بيزنطة والشرق كله آراء أريوس واعتنقت غالبية المصريين آراء أثناسيوس ، الذى اتخذت حركته شكل جهاد دينى يصطبغ بصبغ مصرية ضد الامبراطور الأريوسى . وكان على يد المصريين أن نشأت الرهبة فى الدين المسيحى، ولم تكن به أصلا ، عندما انتشر رجال الدير المسيحيين المصريين فيما بين صحراء وادى النظرون إلى مابعد طيبة هربا من الاضطهادات الدينية التى أنزلها الأباطرة الوثنيين بساحل المصريين ، ثم وضع أثناسيوس نفسه على رأس هذه الحركة فى صراع ضد الأريوسية.

وهذا الذى حدث فى العصور القديمة والوسطى حدث فى العصر الحديث مع الماركسية . لقد كان جوزيف روزنتال هو رائد الشيوعية فى مصر ، ومؤسس أول حزب شيوعى فيها فى عام ١٩٢٠ فى الاسكندرية من العناصر الاجنبية ، وعندما أراد أن يضم إليه العناصر الوطنية من أمثال سلامة موسى وحسنى العرابى وعبد الله عنان والدكتور على العنانى ، لم تدخل هذه العناصر الحزب على أساس التسليم بالمبادئ الماركسية ، وإنما على أساس اختيار المناسب منها للظروف الاجتماعية المصرية ، ورد «مايتنافر منها مع طبيعة الوثام الانسانى العام»!- على حسب تعبير الدكتور على العنانى - ثم لم تلبث بضعة أشهر حتى خرجت من الحزب حين أعلن اعتناقه المذهب الشيوعى علانية ، وانضم إلى الدولية الشيوعية الثالثة .

ومنذ ذلك الحين كان الصراع على الدوام يدور داخل الحركة الماركسية بين الذين يقبلون الماركسية على علاتها وبين الذين يُعملون فكرهم فيها ، فيقبلون منها ما يتفق مع تراثهم الحضارى ، ويرفضون ما لا يتفق .

وبصفة عامة فان أكبر مشكلتين قسمتا الماركسيين المصريين فكريا كانتا : الموقف من الدين ، والموقف من الطبقة والوطن .

أما بالنسبة للموقف من الدين فلم يقتنع كثير من الماركسيين بفكرة المادية الفلسفية القائمة على الالحاد ، لاختلاف دور الدين فى مصر عن دوره فى أوروبا ، واختلاف رجال الدين فى مصر عن رجال الدين فى أوروبا . فقد كان دور الدين فى مصر ايجابيا فى معظم الأحوال ، اذ كان عنصرا هاما من عناصر المقاومة الوطنية ضد الغزاة - هكذا كان دور الدين فى حركة المقاومة ضد الرومان فى العصر المسيحى ، وهكذا كان دوره فى حركة المقاومة ضد الغزاة فى الحروب الصليبية أولا ، ثم عند الغزوة الاستعمارية الثانية التى بدأت بالحملة الفرنسية ، واستمرت على طوال القرن التاسع عشر .

أما رجال الدين فى مصر فلم يلعبوا نفس الدور السلبي الذى لعبه رجال الدين فى أوروبا ، لسبب بسيط هو أن الأسلام لم يعرف رجال دين مقدسين ، وانما عرف فقهاء وعلماء فى الدين . وبالتالي فلم يلعب رجال الدين فى مصر دور الوساطة بين السماء والأرض كما جرى فى أوروبا ، ولم يكونوا أداة من أدوات الحكم الاستبدادى كما كان الحال بالنسبة لرجال الدين فى أوروبا ، بل كانوا على رأس زعماء المقاومة ضد الغزاة ، وأيضا ضد الاستبداد الشرقى على مدى العصر المملوكى أو العثمانى ، أو على طوال الاحتلال البريطانى .

أما بالنسبة للموقف من الطبقة والوطن ، فلم يسلم كثير من الماركسيين المصريين بفكرة الأممية تسليماً مطلقاً على حساب القومية أو الوطنية المصرية .

وقد رأينا شاهداً على ذلك فى العشرينات فى الانشقاق الذى وقع من جانب العناصر الوطنية على الحزب الشيوعى عندما انضم إلى الدولية الثالثة .

كما رأينا شاهداً آخر فى السنين الأخيرة فى وقوف كثير من الماركسيين إلى جانب مبادرة القدس التى قام بها الرئيس الراحل السادات ، رغم وقوف الاتحاد السوفيتى ضدها ، منطلقين فى ذلك من مصلحة وطنية بحتة وليس من مصلحة أممية .

وعلى هذا النحو فقد اختلف كثير من الماركسيين المصريين عن الماركسيين الأوروبيين فى أنه بينما قبل الآخرون الأيديولوجية الماركسية على علاتها ، فإن الماركسيين المصريين كانوا يختارون منها ما يستقر لديهم صحته من مبادئ وفقاً لتاريخهم الحضارى ! .

فقد كان المرحوم يوسف صديق - أحد كبار قادة ثورة ٢٣ يوليو - ماركسياً ، ولكن ذلك لم يمنعه من الحج إلى بيت الله الحرام ، لأنه كان مؤمناً بالله .

وقد روى لى الأستاذ خالد محيى الدين قصة اعتناقه للمبادئ الماركسية ، فقال إنه بدأ حياته فى الإخوان المسلمين ! وفى إحدى المرات جاءه ضابط بكتاب فى الماركسية هو : «الاقتصاد محرك التطور الاجتماعى» لجارودى ، فتأثر بهذا الفكر ، ولم يجد فيه - وفق روايته لى - أى تعارض بينه وبين الاسلام ، ولم ير فيه ما يصرفه عن دينه .

وفى فترة تأليف حزب التجمع زارنى خالد محيى الدين فى بيتى بمصر الجديدة فى أحد أيام الجمعة ، وعند سماع الأذان توجهنا معا

إلى جامع الامام على ، وكان يهرع فى سيره ، وكنت أطمئنه بأننا سوف نصل فى الوقت المناسب ! .

وقد خدم المفكر الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى الفكر الاسلامى الدينى أكثر مما خدمه معظم علماء الأزهر منذ أيام الشيخ محمد عبده وعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق ! .

ومن الطريف مارواه لى أحد كبار الماركسيين * الذين اعتقلوا فى حركة ٣-٥ سبتمبر ١٩٨١ ، وكان حبسه فى زنزانة منفردة ، فقد ذكر أنه قرأ القرآن كاملا ثلاث مرات طوال أيام حبسه ! .

لماذا إسوق هذا العرض التاريخى ؟ . اننى أسوقه تحية للصدىق أنيس منصور !

فقد أراد تحيتى فى مقاله بعدد «أكتوبر» التذكارى الصادر فى ٣ نوفمبر ١٩٨٥ ، فأورد مناسبة اتصالى الأول به ، عندما نشر لى مشكورا تصحيحا لخبر نشره فى المجلة عن لقاء حضرته فى واشنطن بين عدد من علماء مصر وإسرائيل ، اعتبرته محرفا ، اذ وصف اللقاء بأنه كان سريا ، بينما كان علنيا ، ولم يكن ثنائيا بل كان دوليا . ثم تفضل فحيا منهجى التاريخى ووطنيتى ، ووصفنى بأننى «شيوعى سابق» ! .

ولم أكن حتى كتب الصديق أنيس منصور مقاله أعتقد أنه يتصورنى «شيوعيا سابقا» ، لقد كنت أعرف أنه يعرف أننى كاتب يسارى ، أما شيوعى فهذه قضية أخرى مختلفة تماما .

ومن الغريب أننى اكتشفت فى نفس الأسبوع آخرين يعتقدون بأننى لست شيوعيا سابقا فحسب ، بل اننى شيوعى لا حق وملحد أيضا ! .

فكم كان طريفا عندما كنت أتحدث مع الأستاذ عبد الحكيم طه ، بقسم التصحيح فى مجلة أكتوبر ، وهو عالم دينى فاضل ، اعتاد أن يحيينى

* د . رفعت السعيد

دائما عند اللقاء بحفنة من «البونبون» ، وتطرق الحديث إلى ذات الجلالة ، فاذا به يتوقف فجأة ويتفرس في وجهى ويقول :«أفهم من ذلك أنك مؤمن؟»

ونظرت اليه ذاهلا وأنا أقول :«طبعاً ! واذا به يسر سرورا كبيرا ، ويضع يده فى درج مكتبة ليمنحنى حفنة أكبر ، ويقول : «كنت أعجب بك كاتباً ، ولكنى كنت أشفق عليك من عذاب النار لأنك شيعوى ملحد ، والآن فانى اطمأنت عليك ، وأنت تستحق هذه المنحة من البونبون»! .

وقد كان الموقف الأكثر إثارة حين كنت أحاضر طلبتى بعد ذلك بأيام، وتعرضت لمنهج البحث التاريخى ، وضرورة ألا يقبل المؤرخ الروايات الشفوية أو المكتوبة الا بعد تمحيصها والتحقق من صحتها ، وحذرت من أن الصور المنطبعة فى أذهان الناس لبعض الأشخاص أو الوقائع لا تنمحي بسهولة . واستدللت بواقعة الأستاذ عبد الحكيم طه الذى كان يعتبرنى شيعويا ملحدا ، وبتحية الصديق أنيس منصور التى اعتبرنى فيها شيعويا سابقا . واذا ببعض الطلبة يقبلون على مكتبى بعد المحاضرة يعربون عن سرورهم لأنى أزلت الفكرة التى كانت قائمة فى أذهان بعضهم بأنى شيعوى ملحد !. وذهلت ، فلم أكف فى محاضراتى على طوال السنين الطويلة السابقة عن ترسيخ الايمان بالله فى عقول شباب الطلبة ، فهل كانوا يظنون هذا واجبا مفروضا على أداؤه بحكم وظيفتى الجامعية ، وأنه يخالف معتقداتى الشخصية ؟ .

وحقيقة الأمر اننى لم أكن فى حياتى شيعويا سابقا أو لا حقا ! . فوصف « شيعوى» يطلق على الذين اشتغلوا بالحركة الشيعوية ، سواء فى شكل سرى أو علنى . ولم يسبق لى فى حياتى أن التحقت بهذه الحركة ، أو شاركت فى نشاطها بأى شكل من الأشكال . فأنا أنفر من العمل السرى بالغريزة ، ولا أستطيع أن أعمل الا فى النور وفى اطار شرعى .

وقد كان أول نشاط سياسى حزبي لى هو اشتراكى فى تأليف منبر اليسار ، الذى تحول فيما بعد إلى حزب التجمع ، لأنه كان منبرا شرعيا . وقد اشتركت فى تأليف هذا الحزب بحكم انتمائى الطبقي والفكرى ، فلم أنشأ فى طبقة اقطاعية أو رأسمالية ، وانما نشأت فى طبقة عمالية ، إذ كان والدى — دون أفراد أسرته جميعا — عاملا وزعيما عماليا ووفديا متطرفا . وقد أدخلنى الأزهر بعد أن حفظت القرآن الكريم، نظرا لأن التعليم فيه بالمجان ، ولكنى برمت بنظام التعليم فيه ، فاستأذنت والدى فى العمل واكمال تعليمى كما يروق لى على حسابى الخاص ، وهو ما فعلت ، وفى ذهنى أنموذج طه حسين الذى تعلم فى الأزهر وأكمل تعليمه فى الجامعة .

ومن الغريب أن بعض المتاجرين بالطبقة العاملة وبآلامها فى حزب التجمع ، لم يجدوا من نقيصة فى حياتى يعايروننى بها — عند ما دب الخلاف بينى وبينهم على سياسة مصر الخارجية — الا هذا الانتماء للطبقة العاملة !

وقد أغضببنى هذا كثيرا ، فقد كنت أعتز بانتمائى لطبقة تحكم نصف العالم المتمدن بينما كانوا ينتمون لطبقة هامشية تعيش على هامش العملية الانتاجية ، وقد كشفوا بذلك عن وجوههم القبيحة وخداعهم للطبقة العاملة ومتاجرتهم بمبادئها واحتقارهم الدفين لها . ولكنى أثرت ترك المحاسبة للطبقة العاملة نفسها .

أما عن انتمائى الفكرى ، فلم يكن من المعقول أن انتمى لفكر الطبقة التى تستغل الجماهير وتضيق عليها سبل الحياة ، لسبب بسيط هو أننى عانيت — ومازلت أعانى — من هذه الطبقة فى حياتى اليومية مع الجماهير. وقد كانت أهمية الفكر الماركسى هو وقوفه إلى جانب الطبقات التى تعاني من الاستغلال ، كما أنه كان يتضمن نظرية فى فهم تطور المجتمع البشرى وحركة التاريخ تعتبر من أدق وأصوب النظريات العلمية. ولذلك كان من الطبيعى أن يجتذبنى لدراسته دراسة وافية .

على أنه إلى جانب ذلك فإن الفكر الماركس احتوى على الفلسفة المادية ، التى تنكر وجود الخالق ! وكان على اتخاذ موقف من هذه الفلسفة ، ولكنى توصلت عن طريق العقل إلى أن وجود الله حقيقة ثابتة على رأس الحقائق، وأنه إذا كان كل من الماديين والمثاليين لم يشهدوا بداية الخليقة ، وإنما يعتمدون فى نظرياتهم على العقل ، فإن هذا العقل يقول انه لايمكن أن يحدث فعل بدون فاعل ، وهذا الفاعل لابد أن يكون موجودا قبل حدوث الفعل ، فلا يحدث قتل بدون قاتل يكون موجودا قبل القتل ، ولا يحدث أكل بدون أكل ، والأكل يكون موجودا قبل عملية الأكل ، ولا يحدث ضحك بدون ضاحك و الضاحك لابد أن يكون موجودا قبل أن يحدث الضحك ، والخلق لايمكن أن يحدث بدون خالق ، والخالق لابد أن يكون موجودا قبل حدوث الخلق!

وفوق ذلك فإن كل شىء.يتجه إلى هدف محدد له سلفا ، وينمو لى يكون شكلا معيناً مرسوما له من قبل ، والا كان نموا سرطانيا لاهدف له سوى التكاثر المخل بالتوازن ! ولكن الكون متوازن توازنا دقيقا ، وتحكمه قوانين لم يطرأ عليها خلل منذ بدء الخليقة ، والخلايا تنمو لى تكون أجساما بعينها حدثت سلفا ، ولاتنمو لى تكون ما يروق لها ! . والكواكب والأجرام تخضع لنظام يحكمها ، ولاتتحرك وفق هواها ، وهذا النظام لابد أن يضعه خالق ، هو خالق هذا الكون!

لهذه الأسباب ، التى هى مجرد نماذج للتفكير الموصل إلى ادراك وجود الله ، فقد رفضت الفلسفة المادية ، التى رأيت أنها لا تتفق مع العقل .

وفى الوقت نفسه ، وفيما يتصل بحكم الطبقة العاملة فى المرحلة الاشتراكية ، فقد رأيت أن التجارب التاريخية التى جرت حتى الآن فى البلاد الاشتراكية ، مثل الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية ، قد أثبتت أن هذه الطبقة مازالت بعيدة عن الحكم حتى الآن ! ، فلم ينتقل

الحكم إليها من يد الطبقة الرأسمالية ، وإنما انتقل الحكم إلى يد الطبقة الجديدة التى تتكون من رجال الحزب الشيوعى ، والتى تفرض دكتاتوريتها بزعم أنها ممثلة الطبقة العاملة . والمثال على ذلك فى بولندا حيث وصل الصراع ذروته بين نقابات العمال بزعامة ليش فاليسا وبين المؤسسة الشيوعية الحزبية والحكومية .

ولم يكن فى وسعى تجاهل هذه النتائج لتطبيق النظم الاشتراكية ، وكان على أن أخضعها للفحص العلمى ، فى إطار التفسير المادى للتاريخ، الذى أنا مقتنع به كنظرية علمية بالغة الدقة فى تفسير الظواهر التاريخية والسياسية وتطور المجتمع البشرى .

وقد تبين أن ماركس قد أخطأ خطأ فادحاً حين تصور أن وسائل الانتاج سوف تنتقل إلى يد الطبقة العمالية من يد الطبقة الرأسمالية ، وسوف يترتب على ذلك انتقال الحكم إلى يدها ، وفقاً لنظرية أن الذين يملكون يحكمون ! . فقد كان من المستحيل أن يحدث هذا الانتقال من الناحية الفعلية - كما كان الحال بالنسبة للطبقة الاقطاعية ثم الطبقة الرأسمالية - بعد الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ! ، وإنما كان المعقول أن يكون الانتقال من الناحية النظرية فقط ، لأن الملكية سوف تكون جماعية ، أى فى الحقيقة تكون ملكاً للدولة ! . ولما كان الحزب الشيوعى هو ممثل هذه الطبقة وهو الذى يحكم باسمها ، فقد كان من الطبيعى أن يحل محل الطبقة الرأسمالية فى الحكم !

وفى الوقت نفسه ، لما كانت الطبقة العمالية لا تملك من الناحية الفعلية ، فقد كان مستحيلاً عليها أن تحكم ! ، لأن الذين لا يملكون لا يحكمون - وفقاً لماركس نفسه .

وهذا هو السبب فى أن هذه الطبقة لا تتمتع بحريات سياسية تماثل تلك التى تتمتع بها الطبقة العمالية فى المجتمعات الرأسمالية ، والتى حصلت عليها من خلال صراعتها الطويل ضد الرأسمالية ، والتى تتيح

لها المشاركة فى الحكم واسقاط الحكومات - لأن النظام الشمولى الذى يسود المجتمعات الاشتراكية بحكم وجود طبقة واحدة ، لا يتيح فرصة العمل السياسى التى تتيحها النظم الليبرالية القائمة على تعدد الطبقات والأحزاب ! . وفى الوقت نفسه ، فان انتهاء الصراع الطبقي فى المجتمعات الاشتراكية قد أنهى بالضرورة ثورية الطبقة العاملة فيها ، خصوصا بعد أن أصبحت - من الناحية النظرية البحتة - تملك وسائل الانتاج . وهذا هو المأزق التاريخى الذى انتهت اليه .

الفصل السادس
عن ثورة يوليو
والناصريين

حملة قميص عبد الناصر .. وشهداء الناصرية *

تفضلت جريدة «صوت العرب»
التي تنطق بلسان الناصريين ، بهجائي
سجعا منذ بضعة أسابيع ، لما تصورته
من مهاجمتي للرئيس الراحل عبد
الناصر . وكانت تلك هذه المرة الأولى
التي أسمع فيها عن هذه الجريدة ،
التي يرأس تحريرها الصديق عبد
العظيم مناف . ولم أغضب للهجوم ،
لأنه يدخل في إطار المشروع من
الخلافا في الرأي ، ولم ينزل إلى
مستوى الاسفاف الذي تعودت عليه -
للأسف الشديد - بعض الأقلام الأخرى
التي تستخدم لغة حوارى شارع محمد
على سابقا في مهاجمة خصومها ،
وتزعم مع ذلك التقدمية والثورية . أو
تفتري عليهم الأخبار الكاذبة ! .

ومع متابعتي للأعداد التالية من
الجريدة ، والأعداد السابقة التي
حصلت عليها ، وعلى الرغم من أن
كثيرا من الأقلام التي تكتب في

* الوفد في ١٩٨٧/١/٢٢

الجريدة هي أقلام أكن لها الاحترام ، وتربطني بأصحابها صلات قديمة ، إلا أن السؤال الذى كان يلح فى ذهنى هو الهدف من الجريدة فى هذه المرحلة التاريخية التى تجتازها بلادنا ، والمنطلقات الفكرية التى تنطلق منها ، والقوى السياسية التى تنطق بإسمها .

فمن الواضح أن الجريدة قد كرسست معظم صفحاتها للدفاع عن عبد الناصر ، الأمر الذى حيرنى كثيرا ، فهل يحتاج عبد الناصر إلى دفاع ؟ . لقد كان عبد الناصر زعيما أردنا أو لم نرد ! ، وقد ترك بصمته فى تاريخ مصر بما لا يستطيع مؤرخ أن يمحوها ! ، وقد كتبت فى دراستى التاريخية عن حرب يونية ١٩٦٧ التى صدرت تحت عنوان «تخطيم الآلهة» أصفه بأنه كان أنقى وأطهر ما فى ثورة يوليو ! . وانجازاته فى تغيير البناء التحتى بالاصلاح الزراعى والتأميم لاينكر تقدميتها أحد ! ، وقد وصفت عصره بأنه عصر «الاستقلال الوطنى الحقيقى الذى لم تشهده مصر منذ قرون» ! ، كما أن نقله مصر من مرحلة الاقتصاد الزراعى إلى الاقتصاد الصناعى تشهد بها مصانع القطاع العام الضخمة التى تلعب دورا أساسيا فى حياة البلاد الاقتصادية الحالية ! .

هذه الانجازات التى حققها عبد الناصر لاتحتاج إلى دفاع ، ولا تحتاج إلى صدور جريدة أسبوعية تدافع عنها ، ولكن الجريدة تحاول أن تظهر عصر عبد الناصر كما لو كان عصر انجازات فقط ، وتحاول طمس سلبيات حكمه طمسا تاما ، أو تصويرها فى صورة ايجابيات ! أو تبريرها بما لا يصلح من الحجج والذرائع - الأمر الذى يُظهر الغرض الحقيقى ، وهو البحث عن دور لفلول نظام حكمه ، وتهيئة السبيل لهم للعب دور سياسى فى هذه المرحلة من حياتنا السياسية !

وقد نسيت الجريدة أن التاريخ لايعود إلى الوراء ، وأنه لا مكان فى العالم للمنهزمين ، وأن الدور التاريخى للناصرية قد انتهى إلى غير رجعة، وعلى شعبنا أن يتخلص منها ومن آثارها السلبية ، ويستبقى آثارها الايجابية ، ويشق طريقه إلى نظام أفضل .

وليس معنى ذلك أننى أرى أن النظام الحالى فى مصر ، الذى تثرى فيه أقلية طفيلية على حساب الكادحين ، هو النظام الأفضل ، وإنما أعنى أن الناصرية لم تعد النظام الذى يصلح لشعبنا ، وأن الناصريين لم يعودوا صالحين لحكم هذا الشعب ، بعد أن أولاهم من الثقة ما لم يوله لأحد فى تاريخه ، فلم يبادلوه شيئا من هذه الثقة ، بل قيدوا حرياته كما لم يقيدوها أحد ، وهزموا جيشه ، وبددوا ثرواته فى حروبهم الفاشلة ، وفرضوا دكتاتوريتهم العسكرية ، وزيفوا شعارات الديمقراطية ، وشوهوا التجربة الاشتراكية بما أساء إلى اسم الاشتراكية وهى السبيل للردة الرأسمالية .

وكل هذه السلبيات لا يغفرها تاريخ مصر لأحد ، خصوصا إذا أصر عليها ! . ذلك أن رفع شعار الناصرية ليس له معنى إلا التمسك بكل من السلبيات والايجابيات . فالناصرية ليست فكرا أو مذهباً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، وإنما هى تجربة تاريخية مرت بمصر بحسناتها وسيئاتها ، ولم يعرف التاريخ قوة سياسة تنتسب إلى تجربة تاريخية معينة ، إلا إذا كانت تتمسك بمفردات هذه التجربة ، وتراها صالحة للتطبيق مرة أخرى ، وتنوى إعادة تطبيقها إذا أتاحت لها الفرصة للقفز إلى الحكم ! .

ولقد حاول عبد الناصر نفسه تصحيح تجربته التاريخية بعد هزيمة يونية ١٩٦٧ القاسية ، بعد أن تبين له أن نظام الحكم الذى أقامه لم يكن نظاما صالحا - أو على حد قوله فى جلسة اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى يوم ٣ أغسطس ١٩٦٧ :

«أعتقد أنه من متابعة الأحداث التى جرت أخيرا وتحليلها بدقة يتبين لنا أنه لم يكن لدينا نظام سليم ، لم يكن لنا System سليم» .

ثم قال : «أنا رأى أن نعمل فورا على تغيير النظام الـ System الذى ماشيين عليه ، لأنه لازم فيه خطأ ، والمعروف أن نظام الحزب الواحد تحدث فيه دائما صراعات فى القمة على السلطة . . لذلك أنا شايف

ضرورة تغيير نظامنا ، بحيث لا يسمح النظام الجديد لشخص أو لشلة غير واعية أو جاهلة سياسيا أن تحكم البلد - البلد التي أعطتنا ثقتها المطلقة بلا حدود ...» ، إلى آخره .

بل لقد أدان عبد الناصر نظام حكمه ابلانة بليغة بقوله فى نفس الاجتماع : «تصوروا أننا أكبر هيئة سياسية فى البلد (اللجنة التنفيذية العليا) ، وكان عددنا سبعة أعضاء فقط ، ولم نتكلم ! ولم نقل الحقائق فى وقتها ! . هذا يعنى أن النظام تدهور ، وتدرج فى السقوط إلى حد أننا شعرنا بالخوف من أن نتكلم !

» من جانبى ، أنا أعترف وبانقد صريح أنى أخطأت عندما تركت الاشراف على الجيش منذ عام ١٩٦٢ بحيث لم أعد على علم بما يحدث فيه .. ان النظام الحالى استنفد كل مداه ولا بد من نظام جديد» .

والسؤال الذى يأتى بعد هذه النصوص الصريحة البليغة : إذا كان عبد الناصر نفسه قد اعترف بأن نظامه قد استنفد كل مداه ، وإذا كان قد اعترف بأن النظام الذى أقامه لم يكن نظاما سليما ، وإذا كان قد اعترف بأن نظامه كان يسمح «لشلة غير واعية أو جاهلة سياسيا» أن تحكم البلد ! - فهل يسمح شعبنا لتلك الشلة بأن تعود إلى الحكم من جديد ، وهى تحمل قميص عبد الناصر وتطلق على نفسها اسم الحزب الناصرى وتسمى نفسها «الناصرين» ؟ .

والم تكن هذه الشلة هى التى رفضت - فى تلك الجلسة - اصلاح النظام الذى أدانه عبد الناصر بنفسه ، وتمسكت به ، وأصرت على استمراره ، متذرعة بالمعركة ضد اسرائيل ؟

وهل يمكن لشعبنا أن يثق فى أن هذه الشلة يمكن أن تغير طبعها وطريقتها فى الحكم بعد أن أصرت عليها فى وجه عبد الناصر نفسه ؟

وهل ينخدع شعبنا بما ترفعه هذه الشلة الآن - فى مناخ حرية التعبير التى أتاحها محمد حسنى مبارك - من شعارات الديمقراطية والغيرة

على حقوق الإنسان ، وينسى أنها حين كانت فى الحكم كانت تدوس
بقدمها هذه الديموقراطية وحقوق الإنسان ؟ .

اننى أسأل الذين يرفعون عقيرتهم من هذه الشلة - أو من الناصريين
عموما - بحقوق الإنسان وبحرية الشعب وبالديموقراطية : هل رفع أحد
منهم عقيرته فى عهد الحكم الثنائى لعبد الناصر والمشير عامر بمثل هذه
النداءات البراقة ونادى بالديموقراطية ؟ أو حتى نطق بها همسا ؟ وهل
رفع مثل هذه الشعارات فى عهد الحكم الفردى لعبد الناصر بعد إعدام
المشير عامر ؟ .

أليسوا هم الذين زوروا انتخابات مجلس الأمة بعد صدور ورقة
مارس ١٩٦٨ ، التى قُصد بها امتصاص غضب الشعب من أحكام قادة
الطيران الذين ارتكبوا هزيمة يونيو - رغم أنه لم تكن ثمة أحزاب غير
الاتحاد الاشتراكى يخشى منها على سلطتهم ! ؛ وإنما - فقط - ليأتوا
بمحاسبهم الشخصين إلى البرلمان ؟ .

وأسألهم أيضا : هل احتج أحد منهم على اعتقال التقديميين
الحقيقيين والقذف بهم فى السجون ، وتعذيبهم على أيدي زبانية التعذيب
الذين أتوا بهم ليكونوا سيف عذاب مصلت فوق رؤوس الشعب ؟ .

هل قرأ أحد من هؤلاء الناصريين - الذين ينسبون أنفسهم ظلما إلى
القوى التقدمية - كتاب «رسائل الحب والحزن والثورة» للمعتقل السابق
الدكتور عبد العظيم أنيس ؟ ، وهل قرأ كتاب : «رسائل سجين سياسى
إلى حبيبته» للسجين السابق مصطفى طيبة ؟ . وهل قرأ كتاب :
«شيوعيون وناصريون» للمعتقل السابق الدكتور فتحى عبد الفتاح ؟ .
وهل قرأ للدكتور رفعت السعيد اعترافه بأنه أمضى الثلاثة عشر عاما
الأولى من حكم عبد الناصر فى سجون لا يستطيع أن يصف ما فيها من
بشاعة ؟ .

هل ارتفع صوت من أصوات هؤلاء الناصريين «التقدميين» !
بالاحتجاج على مصرع شهدى عطية الشافعى فى السجن ؟ ، كما

يحتجون حاليا على ما يزعمونه من اغتيال الحكومة للجندى سليمان خاطر ؟ .

وهل أتوا بوالدة شهدى عطية الشافعى لتجلس إلى جوار حرم الزعيم الخالد عبد الناصر ، لتلتقط لهما الصور التى تنشر فى الصحف السيارة ، كما أتوا بوالدة الزعيم ! سليمان خاطر لتجلس إلى جوار حرم الزعيم عبد الناصر؟ . أم أن شهدى عطية الشافعى كان يتيما ماتت أمه من الحزن والحسرة على الحكم التقدمى الثورى لعبد الناصر؟

هل أقام الحزب الاشتراكى العربى الناصرى مهرجانا جماهيريا ضخما فى قرية شهدى عطية الشافعى احتفالا بالذكرى السنوية لاستشهاده كما أقام هذا المهرجان الجماهيرى فى قرية اكياد بالشرقية احتفالا بالذكرى السنوية الأولى لوفاة الزعيم سليمان خاطر ؟ .

وإذا كان هذا الحزب ، الذى يضم فلول الناصرية ، قد اعتبر سليمان خاطر «أحد شهداء الناصرية» - أفلا يعتبر شهدى عطية الشافعى شهيدا أيضا من شهداء الناصرية؟ ولماذا يكتفى الحزب بإقامة مهرجان تأبين احتفالا بوفاة شهيد واحد من شهداء الناصرية ويحرم الشهداء الآخرين من هذه المهرجانات ؟ أم أنه يخشى ألا تكفى أيام وساعات ودقائق السنة لإقامة هذه المهرجانات ؟ .

لقد أعلن الحزب الاشتراكى العربى الناصرى فى هذا المهرجان «السينمائى» ! أن الناصريين «سوف يستمرون فى النضال على طريق سليمان خاطر» !- الجندى المسكين الذى دفع حياته ثمنا للعبة سياسية قدرة اشترك فيها الجميع ، لأن أية محكمة فى بلد آخر كانت جديرة بأن تبرئه مما فعل لو أصرت على إعادة عرضه على أطباء نفسيين يملكون الشجاعة لإثبات اختلاله العقلى وعدم مسئوليته عقليا عما فعل ، ولكن اعتبارات السياسة جاءت قبل اعتبارات العدل ، فأتاحت الفرصة لأعداء الديموقراطية الحقيقيين لإقامة مزار لسليمان خاطر ، وإقامة مهرجان

تأبين تمثيلية يبحثون فيها لأنفسهم عن دور ، ويختلقون بطولات لم يعرفها تاريخ مصر الطويل المليء بالبطولات الحقيقية ! .

والأدهى من ذلك أنهم ينسون التاريخ ، فيعلنون رفضهم للوجود الصهيوني في مصر ! ، كأنما جلب محمد حسنى مبارك ، والسادات من قبله ، هذا الوجود الصهيوني إلى مصر ؟ ، ولا يذكرون أنهم هم أنفسهم الذين أتوا به إلى بلادنا ! .

انهم ينسون أنهم هم الذين أتوا بهذه المصيبة إلى بلادنا ، بتهاونهم وعبثهم بمقدرات البلاد ، وافراغ شحنة الشعب المصرى الخلاقة من مضمونها ، وتعريض الجيش المصرى الباسل لهزيمة منكرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخه ، وأكثر من ذلك أنهم الذين خدعوا الملك حسين ، وعرضوا الضفة الغربية والقدس للضياع ، وتخلوا عن غزة ، وتسببوا فى تبديد القضية الفلسطينية ، وارجاعها إلى الصف الثانى من الأهمية بعد أن أعطوا الأولوية لقضية إزالة آثار العدوان . فلا زال هذا العدوان ، ولا حلت القضية الفلسطينية ! .

إنهم ينسون أن هزيمة يونيو المنكرة ، التى ارتكبها نظامهم الذى يدافعون عنه ويريدون اعادته إلى بلادنا ، هى أساس كل المصائب الحالية التى يمر بها العالم العربى ، من تمزق وتحلل وتصارع وحروب أهلية وتدهور فى أوضاعه الدولية وضياع ثرواته الطبيعية !

بل ينسون أن هذه الهزيمة المنكرة هى السبب فى ظهور «اسرائيل العظمى» التى تحتل الضفة الغربية وغزة والجولان وسيناء ، وقبل هذه الهزيمة كانت اسرائيل دولة صغيرة محدودة القوة .

لقد كان نظامهم بركة على اسرائيل ، ومصيبة على مصر والعرب ! . فليكفوا عن البحث عن دور ، فقد انتهى دورهم التاريخى ، ولينسحبوا إلى زوايا النسيان ، فهذا أفضل لهم ، ولمصر ، وللعرب ! .

من قتلة المسيح إلى قتلة الديموقراطية*

عندما كتبت مقالى فى جريدة
الوفد الغراء يوم ٢٢ يناير ١٩٨٧ تحت
عنوان : « حملة قميص عبد الناصر
وشهداء الناصرية » ، كنت أتوقع أن يرد
على شيخ من شيوخ الناصرية الذين
يدينون بالموضوعية والمنهج العلمى ،
خصوصا وقد التزمت فى هذا المقال
بما تعودت أن ألتزم به دوما من الابتعاد
عن التجريح الشخصى والتمسك
بالموضوعية والاستشهاد بالوثيقة ، ثم
فوجئت بالمقال الذى نشرته جريدة
الناصرين فى عددها الصادر يوم
١٩٨٧/٢/٨ على صفحة كاملة تقريبا
تحت عنوان : « إلى الدكتور عبد العظيم
رمضان ، مع التحية ، الناصريون
ليسوا حملة قميص ولكن دعاة فكر
ومناضلين » ، وهو يحفل بقدر كبير من
التجريح الشخصى ، الذى كنت أمل أن
يترفع صاحبه عن النزول إليه ،
خصوصا وأن التجريح يضر بالقضية
التي يترافع فيها ولا يفيدنا بشئ .

* الوفد فى ١٩٨٧/٢/١٩

فقد نسب إلى الكاتب أننى إنما أكتب «سعيًا إلى الشهرة» و«المكسب السياسى السريع» ! ، وإننى مجرد أداة لا إرادة لى ، وأن أنيس منصور اختارنى بذكاء - حسب قوله - لأحارب له وللصهاينة أسياده (هكذا!) قضاياهم ، ووظفونى فى حرب الناصرية وجمال عبد الناصر وتشويه كل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو وكل انتصاراتها وأمجادها» (لعله يقصد هزيمة يونيو ١٩٦٧ التى يهونون من شأنها فيسمونها «معركة عسكرية» !)

هذا فضلا عن التلميحات الرخيصة التى ترى فى شرف الانتساب إلى الطبقة العاملة نقيصة لايجب افلاتها للتشهير بصاحبها ! - الأمر الذى يصور احتقار الناصريين المضحك - رغم تقديمتهم الكاذبة - للطبقة العاملة ، التى ينسون أنها تحكم الآن نصف العالم ! ، وهو الاحتقار الذى دعا ثورة يوليو «المجيدة» لأن تشنق الشهيدى خميس والبقرى فى بداية عهدها - لأول مرة فى تاريخ الحركة النقابية ! - ثم تزيف الحركة النقابية طوال عهدها ، وتربطها ربطا محكما بجهاز الدولة ، بعد أن كانت قبل الثورة حركة مستقلة تلعب دورا رئيسيا فى الحركة الوطنية .

والطريف أن الكاتب - بعد كل هذا التجريح الشخصى - أراد أن يطمئننى فقال : «بداية أطمئنك على أن ردى لن يكون بمستوى من ردوا عليك ممن خاصموك سياسيا ووصفت كتاباتهم بالاسفاف واستخدام لغة حوارى شارع محمد على ، وسوف ألتزم بما لم يلتزم أنت به ، وهو المنهجية العلمية والموضوعية» .

وفى بداية ردى على الكاتب الذى خالف وعده بالالتزام بالمنهجية العلمية والموضوعية ، أود أن أفصح افتراءين افتتح بهما مقاله، ليس لأهميتهما ، وإنما لما يعكسان من أسلوب التلفيق للخصوم السياسيين .

فقد ادعى أنه قابلنى فى مكتب الدكتور رؤوف عباس «حيث كانت المفاجأة الكبرى» - حسب قوله - فقد دار حوار ، شارك فيه الكاتب على استحياء - كما يزعم - كان يتركز على كتاباتى الصحفية الغزيرة ! ، وفيه أبدى الدكتور تحفظه بأدبه الشديد (هكذا !) ، وشارك الكاتب فى هذا

التحفظ أيضا ! «وكان التحفظ يتضمن اعتراضا على ما أكتب ، ولكنه صاغه في عبارة تتضمن خشيته أن تؤثر غزارة الانتاج على جودته ا» .. إلى آخره .

وهذه الرواية لا أساس لها من الصحة في جملتها وتفصيلها ، فلم أقابل الكاتب في مكتب الدكتور «رؤوف عباس في كلية الآداب ، ولم أقابله في مكتبه بدار الأهرام ، بل إنني لم أدخل هذا المكتب ولا أعرف أين يقع ، وعلاقتي بالصديق الدكتور رؤوف عباس هي علاقة مؤرخ بمؤرخ لا كاتب بمؤرخ ، وصداقتنا الوطيدة لا تبيح له توجيه نقد لكتاباتى السياسية أو التاريخية على هذا النحو باسم الخوف أن تؤثر غزارة الانتاج على جودته ا .

فالدكتور رؤوف عباس يعرف جيدا القيمة العلمية لكتبى ، كما تعرف ذلك الجامعات العربية والأجنبية أيضا ، سواء في أوروبا أو الولايات المتحدة ، ولعله يعرف أيضا أن بعض الجامعات في الولايات المتحدة تكتب إلى «الاستثناس برأى» في تعيين بعض كبار أساتذة أوروبا بها المتخصصين في تاريخ العالم العربى ، كما أن اسمى موجود في بعض الموسوعات العالمية التى تعرف بالشخصيات البارزة فى العالم العربى . وكل ذلك ثابت بالأسانيد وليس ادعاء ، وقد اكتسبته بالعلم والعمل الجاد والموضوعية ، ولم أكتسبه بالتجريح الشخصى لأحد كما يفعل الكاتب ، أو بالكم على حساب الجودة .

ولقد قابلت الكاتب مرة واحدة في مكتب الأستاذ السيد ياسين بالأهرام ، وعرفنى به ، وأبدت إعجابى بباحثى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، وكان الكاتب واحدا منهم قبل أن يعمل بأحد البلاد العربية وتقطع صلتى به .

هذا فيما يتصل بالأكذوبة الأولى ، أما ما يتصل بالثانية ، فهي الخاطبة بما أورده الكاتب من أننى «تطاولت على أستاذى الدكتور محمد أنيس» اعتقادا منى خطأ بأن تحقيق الذات يجب أن يكون على حساب من علمونى ا وهو هنا يحاول الإيقاع بينى وبين أستاذى بعد أن وورى

التراب ، فيذكر أنه سمع مرارا شكوى الرجل منى فى أكثر من جلسة جمعت به قبل وفاته بشهور قليلة ! .

وفى طوال حياتى العلمية لم يحدث أن كتبت حرفا واحدا تناولت فيه على أستاذى ، لسبب بسيط هو أن ذلك يجافى التقاليد العلمية الأصيلة التى أحترمها وأدافع عنها .

فالأستاذية مرتبة رفيعة جدا ، وعلاقة فريدة تربط الأستاذ بطالب العلم مدى الحياة ، وتناول الطالب على الأستاذ جريمة لاتغتفرها التقاليد الجامعية .

وحتى عندما أصبحت أستاذا للتاريخ الحديث واحتلت منصبا جامعييا لم يحتله أستاذى الدكتور محمد أنيس ، فأصبحت عميدا لكلية التربية ، ظلت نفس الطالب إزاء الأستاذ .

وليس معنى ذلك ألا يقع خلاف فكرى بين الطالب والأستاذ ، أو يظل الطالب تابعا لأستاذه فى فكره ، وإلا تجمد الفكر والعلم ، وانما معناه أن الطالب بعد أن يصبح أستاذا بدوره ، يكون قد كون لنفسه فكره الخاص . فالأستاذية مدرسة مستقلة بذاتها ، ولكن تظل علاقة الاحترام والولاء قائمة مدى الحياة .

ولقد دافعت عن الدكتور محمد أنيس فى الصحف ضد ما وجهه إليه البعض من هجوم ، كما كتبت عنه فى كتبي مبينا دوره فى تطور الكتابة التاريخية ، كما رثيته بمقال معروف فى جريدة الوفد بعد وفاته ، بل اننى فى آخر أعمالى العلمية ، وهى تحقيق مذكرات سعد زغلول ، ورغم علمى بأن الدكتور محمد أنيس قد أوضح اختلافه معى فى بعض مواقف السياسية فى جريدة خليجية ، أشدد بموقفه القديم من الوفد ، وبعدم مسaire تيار الافتراء على الوفد الذى انصرف إليه بعض الباحثين فى التاريخ .

على أنى لم أدهش لهذا التجريح الشخصى والافتراء على الأحياء والأموات ، فهو تقليد من تقاليد التجربة الناصرية ، دفع ثمنه الكثيرون من الناس والكتاب والعلماء والمفكرين .

ومن هذا الافتراء أن الكاتب يعتقد أنى بنقدى للناصرين فى مقالى السالف الذكر بالوفد ، أريد أن أحجر على حقهم فى المشاركة السياسية وفى اعتناق ما يرون من أفكار أو مبادئ .

وبغض النظر عن أن تاريخ الناصريين هو تاريخ الحجر على حق خصومهم فى رأى فى المشاركة السياسية - ولا يختلف على هذه الحقيقة التاريخية أحد - وهم - بالتالى آخر من يتحدث باسم هذه الحقوق - فلست ممن يقعون فى هذا الخطأ ، فأنكر حقهم السياسى ، ولكنى أيضا لست ممن يقفون بمعزل عن الأحداث ، ويقفون موقفا سلبيا-، فيدع قوة سياسية ، غير ديموقراطية بتجربتها وبفكرها ، ترفع فجأة شعار الديمقراطية ، وتتقدم إلى الشعب للحصول على ثقته ، حتى إذا ما وصلت إلى الحكم تنكرت للديموقراطية، كما تنكرت للدستور الذى رفعته شعارا لحركتها يوم ٢٣ يوليو . فلا أقل من كشف هذه القوة السياسية أمام الشعب ، وله فى نهاية الأمر الحق فى أن يقرر لنفسه ما يشاء .

ومن الغريب أن الكاتب يتحدث عن زعماء الناصريين بوصفهم ضحايا أمضوا فى السجن سنوات طويلة بأحكام ظالمة أصدرها ضدهم حافظ بدوى وحسن التهامي . - وكأنه يتحدث عن زعماء الإخوان المسلمين أو الشيوعيين أو الوفديين الذين أمضوا معظم حياتهم فى السجن على يد هؤلاء ، أو بفضل سكوت هؤلاء .

وهى مغالطة غريبة تريد أن تصور حكم عبد الناصر الديكتاتورى على أنه كان حكما ديموقراطيا ، وتصور حكم السادات ، الذى سمح بالتعدد الحزبى التى يفيد منها الناصريون الآن ، على أنه حكم اريهاب واضطهاد .

أفلا يسأل الناصريون أنفسهم : كيف كانوا سيعاملون السادات ومؤيديه لو نجحوا فى قلبه والوصول إلى الحكم ؟ . أليس هذا قانون الصراع على السلطة : ويل للمغلوب ؟ . فلم التباكى - باسم الديمقراطية- ممن دمروا الحياة الديمقراطية ؟ .

ولكن الكاتب يتوسل بالنزاهة المالية للزعماء الناصريين - وهى نزاهة اعترف بها واحترمها واحترمهم من أجلها - ولكن ماذا بشأن النزاهة السياسية ؟ - هل يعتبر سلب الشعب حقوقه السياسية ، وفرض الوصاية عليه ، وتسليم جيشه إلى يد الجهلة والأدعياء ، والعبث بمقدراته ومصيره، من النزاهة السياسية ؟ .

ثم ان الكاتب يفسر قولى : «إن الدور التاريخى للناصرية قد انتهى إلى غير رجعة» ، بأن «التجربة الناصرية» قد انتهت ! - وهى مغالطة واضحة ، الغرض منها سرد انجازات التجربة الناصرية وأثارها فى تغيير التربة الاجتماعية فى مصر .

ولم أكن لأجادل أبدا فى انجازات التجربة الناصرية ، وإلا فقدت علميتى، ولكنى أضع التجربة كلها بايجابياتها وسلبياتها تحت الفحص التاريخى.

فالتجربة الناصرية - على سبيل المثال - تركت لنا أيضا الاحتلال الاسرائيلى لسيناء كلها ، فضلا عن الضفة الغربية وغزة والجولان ! ، كما تركت لنا حياة سياسية خربة ، وقوى سياسية مضروبة بقسوة بالغة، واقتصاد أثخنته الحروب الفاشلة ومظاهرات القوة المسرحية ، كما تركت تجربة اشتراكية أفسدتها بيروقراطية عسكرية لاتعرف الألف من الباء من الاشتراكية - فكيف يغفل باحث موضوعى عن هذه السلبيات ، ولا يذكر فقط إلا الايجابيات التى يتحدث عنها الكاتب ؟ .

ان الكاتب يقول إن الناصريين الآن «هم أول من يهمهم أمر نقد كل سلبيات الحكم الناصرى ، وأول من يخصص مراجعة التجربة بقسوة شديدة دون عواطف ودون عبادة لأشخاص » ا

وهذا الذى يقوله الكاتب مقصور على الناصريين وحدهم وفيما بينهم، ولكنه يحرمونه على غيرهم ، كما فعلوا دائما طوال التجربة الناصرية ! . فقد كانت محاضر الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى تحفل بالنقد ، ولكن هذا النقد كان محظورا على الشارع المصرى وعلى أية قوة سياسية أخرى ، فإذا مارسته فى أية صورة من الصورة سيقت إلى معسكرات الاعتقال وسلمت لأيدى زبانية التعذيب .

فما هو الجديد فى سلوك الناصريين ؟ . وأليس المقال الذى كتبه الكاتب والحافل بالتجريح الشخصى تحت اسم المنهاجية العلمية والموضوعية ، دليلا على أن هذا السلوك لم يتغير ؟ .

ثم كيف يتصور الناصريون أنه يمكنهم التخلص من تبعة أخطاء التجربة الناصرية تحت ذريعة أنهم ينقدون فيما بينهم سلبيات هذه التجربة ؟ ، أو تحت القول بأن الناصريين الجدد لا يتحملون أخطاء الناصريين القدامى أو - كما يقول الكاتب - : «أنت تحاسب جيلا شابا مكافحا بأثر رجعى ليس له دخل به» ! .

وينسى بذلك أن اليهود ما زالوا حتى عصرنا الحاضر هم قتلة المسيح ! ، وما زالوا يعاملون على هذا الأساس رغم مرور ألفى عام تقريبا ! ، وقد حاول البابا أن يبرئهم ، ولكن دون جدوى ، فما داموا يهودا لم يتبرءوا من اليهودية سوف يتحملون مسئولية ما فعله أسلافهم الأوائل وفقا للمعتقدات المسيحية . والناصرية قتلت الديمقراطية فى مصر ، ومن هنا يتحمل الناصريون تبعة هذا القتل طالما يتمسكون بها .

أما عدااء الناصريين للصهيونية فهو أمر يثير الشخزية ، فلم يخدم الصهيونية نظام مثل النظام الناصرى ! ، فقد تولى السلطة فى مصر واسرائيل دويلة صغيرة محاصرة فى البر والبحر الأحمر ، وانتهى باسرائيل وهى دولة عظمى تحتل أراضى ثلاث دول عربية ، ويمتد ذراعها الطويل إلى أى بقعة فى الوطن العربى ! .

وليس معنى ذلك أننى أشكك فى وطنية الزعيم عبد الناصر ، وإنما أشكك فى فعالية النظام الذى أقامه فى مواجهة الصهيونية والامبريالية .

فإذا جاء الكاتب وجاء الناصريون الآن يتحدثون عن حزبهم بأنه «حزب التحرير» ، فإن أحدا لا يستطيع أن يصدقهم ، لأن الجميع فى الوطن العربى يعرفون أنه الحزب الذى أدخل - باهماله وتهاونه - إسرائيل فى سيناء والضفة الغربية وغزة .

وإذا قال الناصريون : «لن نتراجع عن العمل من أجل تحرير فلسطين» ، تعجب الفلسطينيون ! لأن النصف الثانى من فلسطين إنما ضاع على يد الناصريين ! وتحول الصراع العربى الاسرائيلى من صراع على قضية فلسطين إلى صراع على قضية إزالة آثار العدوان ! .

ولقد دافع الكاتب عن بطولة الجندى سليمان خاطر التى يتاجر بها الناصريون وغيرهم ممن يدعون التقدمية ، على أساس أنه «تحول إلى أسطورة للمقاومة الشعبية ضد الصهاينة» ، وأنه «بطل تحدى العدو وعمل بشعار ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة» .

ولقد درست قضية سليمان خاطر دراسة متأنية ، ودرست حيثيات الحكم عليه ، ولم أجد فيما فعله أى بطولة شعبية أو عسكرية كما يزعم الكاتب ! .

فلم يخض سليمان خاطر معركة ضد الجيش الاسرائيلى ، أو ضد عدو يفوقه عددا وعدة من القوات الاسرائيلية ، وإنما خاض معركته ضد مجموعة صغيرة من النساء والأطفال والرجال ، وهى معركة غير متكافئة، فقد كان فى يده مدفعه الرشاش ، وكانوا عزلا من السلاح ! وليس فى ذلك بطولة ! .

وعلى المستوى الشعبى فلم يكن سليمان خاطر مدنيا تصدى بصدوره لحملة السلاح الاسرائيليين ، وإنما كان عسكريا تصدى بسلاحه لمدنيين أجانب ، فأين هى البطولة الشعبية ؟ .

إن المدنيين المصريين تصدوا لجنود الاحتلال الانجليزى فى ثورة ١٩١٩ ، واستشهدوا وهم يهتفون لمصر ، فهم أبطال ، كما أن العسكريين المصريين تصدوا بسلاحهم للسلاح الاسرائيلى فى الحروب العربية الاسرائيلية المختلفة وفى حرب أكتوبر ، فهم أبطال ، ولكن إذا قتل عسكرى بسلاحه مدنيين عزلا من السلاح فإنه لا يعد بطلا ، بل مجرما أو مجنونا ! .

إن أعمال المقاومة الشعبية كانت - على مدى التاريخ - أعمالا يقوم بها المدنيون ضد العسكريين المحتلين ، وليس العكس ! .

بقيت مغالطتان للكاتب ، الأولى أن خطة العبور التى نفذت فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، هى الخطة التى وافق عليها عبد الناصر ، وهى - كما ذكر الكاتب - خطة جرائيت واحد ! .

وهذا تزيف صارخ للتاريخ ! فلا يوجد عسكرى واحد فى مصر ممن اشترك فى معركة العبور أو أعد لها قال بهذا اللغو ! ، ويكفى أن أحيل الكاتب إلى مصدر معاد للسادات وهو مذكرات سعد الدين الشاذلى . فليرجع الكاتب للكاتب المختصة والوثائق .

أما اتهام الكاتب لحزب الوفد بأنه حزب الارتداد للخلف ، وتعجبه لكتابته فى صحيفة الوفد ! ، أفلا يسأل نفسه ، وهو يثق بتقدمية الدكتور محمد أنيس ، لماذا اشترك فى الوفد وتولى مركزا قياديا فيه إذا كان يعرف أنه حزب رجعى ؟ . ولماذا يكتب ماركسى مثل أحمد طه فى جريدة الوفد ، إذا كان يعرف أنه حزب الارتداد إلى الخلف ؟ .

وإذا يعرف الكاتب أن الوفد كان أسبق من ثورة يوليو فى ذكر اسم «الاشتراكية» ! ، بل إنه فى عهد ثورة يوليو كان الوفد أول من رفع شعار الاشتراكية فى برنامجه الذى نشره يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٥٢ ، فأعلن أن سياسة الوفد الداخلية «تتلخص فى العمل على رفاهية الشعب وترقيته عن طريق نظام اشتراكى اجتماعى» .

وكان ذلك حين كان ضباط ثورة يوليو يجفلون من ذة
«الاشتراكية» ويتبرءون منها ، بل كانوا يجفلون من لفظ «ثورة» ،
حركتهم بأنها «نهضة» أو «الحركة المباركة» ، وكان الشعار الذى
هو الاتحاد والنظام والعمل ! .

بل إنه فى الوقت الذى كان الوفد يتحدث عن سعيه لإقا
اشتراكى اجتماعى كان ضباط يوليو يقمعون الحركة النقابية ،
بالغة ويشنقون زعيمين من زعماء الحركة النقابية ، وهما مصطفى
ومحمد البقرى كما قدمنا .

وقد افتروا على الوفد ، فزعموا أنه رفض قانون الاصلاح
وبنوا على هذا الافتراء حله وتصفيته وإعتقال زعمائه ، مع أن
فعلاً مشروع الاصلاح الزراعى فى البرنامج السالف الذكر
منشور فى صحف يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٥٢ لمن يريد أن يطلع على
ورد بالحرف الواحد : «يرى الوفد أن مشروع تحديد الملكية و
الزراعى يتفق مع ما يهدف إليه من إشاعة العدالة الاجتماعية ،
بين الطبقات وتشجيع استثمار رؤوس الأموال فى الصناعات
فيها» .

فهل يقرأ الناصريون التاريخ المستند إلى الوثائق ، ويذ
المتاجرة بالعداء المصطنع للصهيونية ، بدلا من قراءة التاريخ
فى العاصمة الليبية ؟ .

رد على جريدة الناصريين

لماذا شنقت الثورة خمس والبقري * ؟!

* الوفد في ٣٠/٤/١٩٨٧ وأول
مايو ١٩٨٧ . وقد نشرت
الجريدة هذا المقال في عديد
متواليين .

تفضلت جريدة الناصريين *
فهاجمتني في مقالين متتاليين بتاريخ
١٥ و ٢٢ مارس ١٩٨٧ ، وكان المقال
للأستاذ محمد متولى حسين ، وهو
مقال موضوعي احترمت صاحبه لأنه لم
ينزل بنفسه إلى مستوى التجريح
الشخصي الذي نزل إليه كاتب المقال
الثاني ، الذي كنت أكن له ودا كبيرا
وأؤمل فيه خيرا كثيرا . ولذلك فإنني أرد
على المقال الأول خاصة .

وربما كان أول ما استلفت نظري
هو تقديم المقال الذي لست أظن أنه من
إنشاء الكاتب وإنما من إنشاء التحرير ،
والذي يتهمني بأنني «تخصصت ونذرت
ما بقى من حياتي للهجوم على ثورة
يوليو وللتنديد بكل ما تم على أيديها» !
وهو اتهام لست أدري أى الأسس أقيم
عليه ؟ . ففي حدود علمي أنه لا يوجد

* جريدة صوت العرب

مؤرخ حقيقى فى مصر قد أنصف ثورة يوليو - بوعى وعلم وعلى أساس أيديولوجى - كما فعلت ! ، ليس فقط فى كتبى وإنما فى مقالاتى السياسية والتاريخية .

فقد أنصفت انجازات الثورة فى البناء التحتى ، ، فى مرحلتها «البورجوازية الديمقراطية» ، وفى مرحلة «التحول الاشتراكى» انصافا كبيرا ، وكان تقييمى لهذه الانجازات ايجابيا ، فى الوقت الذى اعتبر خصوم الثورة السياسيون هذه الانجازات أكبر سلبياتها ! . وهذا التقييم الايجابى هو الذى يفرق بين مؤرخ بورجوازى ومؤرخ بروليتارى ينتمى لمدرسة التفسير المادى للتاريخ .

وكان آخر مقال كتبته فى هذا الصدد فى مجلة «النيل» الصادرة من الهيئة العامة للاستعلامات فى عددها الخاص الصادر فى يولييه ١٩٨٦ . ومن قبل ذلك فى مقال معروف بجريدة «أخبار اليوم» فى يولييه ١٩٨٤ .

على أن انصافى لثورة يوليو كان يقضى على - فى الوقت نفسه - بأن أقيم سلبياتها أيضا . وهذا هو الفرق بين الكتابة التاريخية والكتابة السياسية . فلا توجد كتابة تاريخية أحادية الجانب ، تكتفى بإبراز الايجابيات وتتغافل عن السلبيات ، وإلا فإنها لاتساوى ثمن الحبر الذى كتبت به .

كما أن هذا هو الفرق بين الحياد والموضوعية ! . فقد كنت أنا المؤرخ الذى قال بصراحة تامة إن الحياد التاريخى وهم من الأوهام ونفاق ومراءاة ، فالمؤرخ موقف ، ومن هذا الموقف يستمد أهميته الفكرية . ولكن على المؤرخ أن يكون موضوعيا ، بمعنى ألا يخفى ما يكمل الصورة التاريخية لحدث من الأحداث ، بسبب موقفه الاجتماعى ، ولا يتردد فى إدانة السلبيات فى تقييمه التاريخى .

ومن هنا ، فحين كتبت عن التيارات اليسارية فى الحركة الوطنية فى دراستى عن «تطور الحركة الوطنية فى مصر» ، وعلى الرغم من انتمائى لمدرسة التفسير المادى للتاريخ ، إلا أننى لم أتصور للحظة واحدة أن

يكون عملى مكرسا لإبراز ايجابيات تلك الحركة اليسارية واخفاء سلبياتها ، ولذلك فقد أدنت قيادات هذه الحركة ، وقلت إن التطرف الذى أبدته ، والرعونة التى أظهرتها ، قد أديا لاجهاض الحركة الاشتراكية فى مصر (يرجع للكتاب ص ٥٥٨ - ٥٦٠) - ذلك أن موقفى الفكرى لا يجب أن يكون على حساب موضوعيتى ! .

وعندما قدمت دراسة تاريخية عن تأميم قناة السويس ، لم أقل أبدا إن هذا التأميم «خطيئة» كما جاء فى «يوميث الهبرى» الهابطة التى كانت تلوث صفحات «الأهالى» ! أو كما جاء على أقلام ناصرية أخرى لاتقرأ بقدر ما تكتب ! ، وإنما قلت بالحرف الواحد :

إن هذا التأميم «يدخل فى إطار نضال شعب مصر من أجل تخليص اقتصاده من السيطرة الأجنبية ، وهو نضال له مخاطره الضرورية التى يجب على كل شعب حر أن يكون مستعدا لتقبلها منذ البداية . وكان نجاح مصر فى هذا التأميم ، ونجاح الإدارة المصرية فى إدارة شركة قناة السويس ، مقدمة لما وقع بعد ذلك من قيام مصر بعد انتهاء الحرب بتمصير كل البنوك الانجليزية والفرنسية وشركات التأمين ، وكذا كل الشركات الأخرى التى كانت تمارس نشاطا تجاريا أو انتاجيا ، فتحرر الاقتصاد الوطنى بذلك من السيطرة الأجنبية» (أنظر عدد ٤٧٠ من مجلة «أكتوبر» فى ٢٧ أكتوبر ١٩٨٥) .

على أنه لم يكن على أن أغفل السلبيات التى أحاطت بصدور قرار التأميم ، ومنها صدوره من عبد الناصر وحده بمعزل عن الحكومة ، بل وبمعزل عن الجيش نفسه الذى لم يعرف بالقرار إلا قبل صدوره بيوم واحد !

فليس من حق حاكم على وجه الأرض أن يتخذ قرارا مصيريا يتعلق بالحرب والسلام بعيدا عن شعبه وعن حكومته وعن جيشه ، مهما كان هذا القرار لمصلحة بلده ولمصلحة مواطنيه ، وإلا فيم وجدت الحكومات ،

وفيم وجدت قيادات الجيوش إذا كان للحاكم وحده - دون شريك أن يتخذ مثل هذه القرارات ؟ .

* وعندما تناولت حرب يونيه ١٩٦٧ فى دراسة تاريخية نشرت على مدى ٧٨ أسبوعا فى مجلة «أكتوبر» ، وتغلغلْتُ بالدراسة إلى أبعاد الهزيمة، هل كان على أن أقلب الهزيمة إلى نصر ؟ ، وأبدل السلبيات إلى ايجابيات ؟ ، حتى أنال اعجاب دراويش الناصرية ؟ أو كان على أن أقدم دراسة أمينة وموضوعية لهذا الحدث الخطير فى حياة مصر وفى حياة أمتنا العربية ، بكل ما فيها من مرارة وعلقم ، وحنظل - وهل كان على أن أتمس الأعذار لقيادة ألحقت بشعبنا المصرى وأمتنا العربية ذلك العار الذى لم يمحه إلا نصر العبور ؟ .

لقد قلت مرة ، فى ردى على الصديق الذى أجله وأحترمه وهو الأستاذ عبد الله إمام ، وكان ذلك فى جريدة الوفد : ان الطريق الأمثل لمناقشتى - وهو الطريق الأقصر أيضا - هو الوثيقة ! . بمعنى أننى أكتب التاريخ من الوثائق ، لأننى لا أملك موهبة الصديق نجيب محفوظ فى التأليف ! . ومن هنا فإما أن ما أكتبه صحيح أو خطأ ، فإذا لم يعجب أحدا ما أكتب ، فعليه اثبات خطئى بالوثيقة التى تنقض ما كتبت ، وإلا فإن ما كتبت يظل ثابتا سواء رضى أو لم يرض ! .

وعلى سبيل المثال ، وفيما يتصل بالسلبيات التى أحاطت بقرار التأميم ، فإن الطريقة الوحيدة لتفنيدها هى إثبات أن هذه السلبيات لاوجود لها ! - بمعنى إثبات أن عبد الناصر أشرك حكومته وجيشه فى قرار التأميم قبل اتخاذه ! . وفيما يتصل بسلبيات حرب يونية فعلى المعارض اثبات عدوم حدوثها ، باستخدام الوثائق التى تفند ما كتبت ! . وهكذا .

ما ورد - إذن - فى تقديم الأستاذ محمد متولى حسين من أنى نذرت ما بقى من ~~شخصياتى~~ للهجوم على ثورة يوليو ، هو محض اختلاق وافتراء ،

* نشرت «الوفد» هذا الجزء الثانى من المقال فى عدد أول مايو ١٩٨٧ .

لأن ما يكتبه المؤرخ عن تجربة تاريخية لا يمكن أن يدخل فى باب الهجوم أو الدفاع ، وإنما يدخل فى باب التقييم العلمى التاريخى ، الذى يستند إلى الوثائق .

وليس من حق أحد أن يحرم المؤرخ من تقييم الحدث التاريخى ، وما إذا كان يتفق مع حركة التاريخ أو يسير ضدها ، أو ما إذا كان قائد الشعب قد استخدم الامكانيات المتاحة له الاستخدام الأمثل ، أو أنه أساء استخدام هذه الامكانيات ، وما إذا كانت الحركة أو الثورة قد نقلت البلاد إلى الطريق الصحيح أو أنها قذفت بها إلى الضياع .. إلى آخره .

وهذا ينقلنى إلى مناقشة أهم السلبيات التى أدنت بها - فى تقييمى التاريخى - ثورة يولية ، وهى التى استخلصها بذكاء الأستاذ محمد متولى حسين - وحاول الرد عليها ، ولكنه أغفل استخدام الوثيقة فى الحوار .

لقد كان أول هذه السلبيات موقف الثورة من الطبقة العاملة ومن الحركة العمالية . ومن حسن الحظ أن الأستاذ محمد متولى حسين لم ينكر شنقها لخميس والبقرى ، ولكن تقييمه لهذا الشنق أنه خطأ وليس جريمة ، وطلب من الله أن يغفر للثورة هذا الخطأ ! الذى ذكر أنه ليس مقصودا ، وأنه لا يعبر عن احتقار للطبقة العاملة .

وطالما أن الكاتب قد استخدم معنى ألفاظا مثل «الفحش» وغيره ، فليسمح لى باستخدام لفظ مخفف لوصف هذا التحليل ، وهو أنه تحليل ساذج لا يستند إلى أى أساس فكرى .

فلم تبدأ ثورة يوليو كثورة اشتراكية تهتم بخدمة الطبقة العاملة - كما حاول أن يوحى - وإنما بدأت كثورة «بورجوازية ديموقراطية» - وهذا هو الوصف العلمى لها فى مرحلتها الأولى ، التى تبدأ من قوانين الإصلاح الزراعى إلى قوانين التأمين سنة ١٩٦١ . ووظيفة «الثورة البورجوازية الديموقراطية» فى الفكر الاشتراكى ليست اقامة الاشتراكية، وإنما نقل

المجتمع من مرحلته شبه الاقطاعية وشبه الرأسمالية إلى مرحلته الرأسمالية ، التى هى مرحلة ضرورية قبل اقامة الاشتراكية .

وهذا ما فعلته الثورة تماما - سواء أكانت تعى هذا الفكر بالعلم أم بالضرورة - بقوانين الاصلاح الزراعى ، التى لم تكن قوانين اشتراكية ، وإنما كانت قوانين رأسمالية تماما ، كانت تدعو لها الولايات المتحدة قبل ثورة يوليو للتخفيف من الأزمة الاستعمارية للرأسمالية العالمية ، كما دعت إليها الأمم المتحدة ، بل دعت إليها الرأسمالية المصرية نفسها فى مؤتمرها الأول سنة ١٩٤٦ - وهو ما يمكن للأستاذ محمد متولى حسين الرجوع إليه فى كتابنا : «صراع الطبقات فى مصر» .

ولقد كان الاجراء الثانى ، الذى لجأت إليه ثورة يوليو بعد قوانين الاصلاح الزراعى ، الذى نشر مشروعه فى الصحف يوم ١٢ أغسطس - هو شنق خميس والبقرى ! . وهما إجراءان متكاملان ، وليس متناقضين كما يتوهم البعض ! .

لقد كان الغرض من مشروع قانون الاصلاح الزراعى - كما ذكرنا - بل وكما فهم ضباط الثورة ناقصى الثقافة من مقال الدكتور راشد البراوى الذى نشر يوم ٤ أغسطس ١٩٥٢ ، هو توجيه رؤوس الأموال المحبوسة فى الملكيات الزراعية الكبيرة إلى الاستثمار فى الصناعة ، ومعنى ذلك نقل المجتمع المصرى من الاقتصاد الزراعى إلى الاقتصاد الرأسمالى الصناعى .

فلما قام عمال مصانع كفر الدوار بحركتهم غير المتوقعة ، توهم منهم بأن الثورة الاشتراكية قد بدأت ، هددوا بهذه الحركة أهداف الثورة من الاصلاح الزراعى تهديدا خطيرا . فلقد كان الهدف - كما ذكرنا - نقل المجتمع المصرى إلى المرحلة الرأسمالية الخالصة التى تسيطر فيها الطبقة الرأسمالية ، وليس نقله إلى المرحلة الاشتراكية التى تسيطر فيها الطبقة العاملة .

وقد شعر الضباط بالجزع لردود فعل الطبقة الرأسمالية فى ذلك الحين لحركة عمال مصانع كفر الدوار ، والتي هاجمته الحركة هجوما شديدا ، ووقف المليونير أحمد عبود يقول فى تصريح لجريدة «اللوموند» الفرنسية : « إن العمال يسمعون الكثير عن حدوث ثورة زراعية ، فليس غريبا أن يتساءلون عن الفوائد التى ستصيبهم بدورهم ! » .

لهذا السبب ، ولإعادة الطمأنينة إلى قلب الرأسمالية المصرية ، التى كان الضباط يعقدون الأمل عليها فى التحول الاقتصادى الرأسمالى - فقد كان عليهم التفكير فى عمل يخلعون به قلب الطبقة العاملة ، وينسونها به تماما العمل النقابى والمطالبة بالحقوق والاعتصابات والاضرابات وغيرها طوال المرحلة التاريخية القادمة - عمل غير مسبوق فى تاريخ الحركة العمالية فى مصر . وقد كان هذا العمل هو شنق خميس والبقرى ! .

وهذا هو ما حدث بالضبط ، وحقق به الضباط هدفهم ، وقام الضباط بتنفيذه بنفس الطريقة التى نفذ بها الانجليز محاكمة دنشواى ! .

فكما عقد الانجليز محكمة مخصوصة فى منطقة وقوع الحادث - أى فى شبين الكوم - فكذلك عقد الضباط محكمة مخصوصة - محكمة عسكرية مكونة من الضباط برياسة البكباشى عبد المنعم أمين - عقدت جلساتها فى منطقة الحادث ، بل فى مبنى إدارة الشركة نفسه ! . وحاكمت المتهمين محاكمة صورية ، ثم أصدرت حكمها بالإعدام على مصطفى خميس ومحمد البقرى ! .

بل لم تنس المحكمة أن تجمع العمال والأهالى خارج قاعة الجلسة ، وتتلو عليهم حكم الإعدام قبل التصديق عليه ، لاحداث نفس أثر تنفيذ الحكم أمامهم كما حدث فى دنشواى ! .

وبهذا العمل الوحشى ، الذى لم تجرؤ عليه الطبقة الرأسمالية المصرية نفسها طوال الحكومات التى أقامتها قبل الثورة ، والذى كان

عملا سياسيا مقصودا مائة فى المائة - ضمن الضباط خضوع الحركة العمالية لسلطتهم دون أى ازعاج ، يحركونها كما يشاءون ، حتى وفاة عبد الناصر ! .

بل إنه حين وقفت أقسام من الطبقة العاملة فى أزمة مارس إلى جانب الضباط ، وثبتتهم فى الحكم بعد أن كانوا قد سلموا تماما للقوى الوطنية والتقدمية التى كانت تعمل على عودتهم إلى ثكناتهم - جولى قادة الحركة العمالية جزاء سنمار ! . فلم يذكر الضباط من خدمات هؤلاء القادة إلا المبالغ التافهة التى دفعت لهم لخدمة الحركة ، وبلغ احتقار الضباط لهؤلاء القادة ذروته عندما حشدوا بعض العمال لاستقبال عبد الناصر بعد عودته من باندونج ، فحين حدث احتكاك بسيط بين صاوى أحمد صاوى ، قائد تلك الحركة ، والبكباشى أحمد أنور ، قائد البوليس الحربى ، وتحدى صاوى البكباشى أحمد أنور أن يذكر له ما قدمته الثورة لطبقة العمال بقوله : «إنتوا عملتوا لنا ايه ؟» لم يذكر له أحمد أنور أى انجاز تحقق ، لأنه لم يكن قد تحقق بعد شىء ! ، وإنما اكتفى باسكاته بصفتين على وجهه ! - أو على حد تعبير أحمد أنور نفسه لأحمد حمروش : «لم أتمالك نفسى ، فلهفته قلمين» ! .

والأغرب من ذلك رد فعل عبد الناصر لهذه الالهانة الجسيمة ، فلم يغضب لكرامة الرجل الذى ثبته فى منصبه ، بعد أن كان يبكي بكاء حقيقيا للصاغ أحمد طعيمة أثناء الأزمة ، وينفض يده مما يدبره حتى لايشنقه محمد نجيب فى ميدان التحرير - وإنما غضب من صاوى أحمد صاوى - كما يقول أحمد أنور ! .

وعلى ذلك فحين يكتب الأستاذ محمد متولى حسين بالحرف الواحد يقول : «من السذاجة ، إن لم يكن من السفاهة أن يضطر المرء إلى أن يعرض ما حققته الثورة من أجل الطبقة العاملة» ، ثم يقول - بالحرف الواحد أيضا - إن الثورة «بدأت بالقضاء على سيطرة رأس المال واحتكاره ، وانتهت باعلان الاشتراكية العلمية» - فمن حقى - كمؤرخ -

أن أصبح له معلوماته ، وأقول له إن الثورة بدأت بخدمة رأس المال ، وعلى حساب الطبقة العاملة ١ .

وإذا كان رأس المال لم يتجاوب معها وينفذ أهدافها في نقل البلاد من الاقتصاد الزراعى إلى الاقتصاد الصناعى ، فلأن الضباط وضعوا الحكم والسلطة في أيديهم بعد تصفية الأحزاب وانتهاء صفحة الديمقراطية الليبرالية ، فشكّلوا أكبر عائق في وجه التحول الرأسمالى ، لأن الطبقة الرأسمالية في أى بلد من البلاد ، لا تستثمر أموالها في التصنيع إلا إذا كانت تثق في الحكم ، وهى لا تثق في أى حكم إلا إذا كان هذا الحكم في يدها لا في يد ضباط عسكريين ، وهو ما يحدث في المجتمعات الرأسمالية التى تسود فيها الديمقراطية الليبرالية التى تسمح للرأسمالية بالوصول إلى الحكم من خلال انتخابات حرة.

ولقد كانت الخطوة الثانية التى اتخذتها الثورة للسيطرة على الطبقة العاملة ، بعد شنق خميس والبقرى . هى منع الطبقة العاملة من الاشتغال بالسياسة بإصدارها القانون رقم ٣١٩ الخاص بنقابات العمال ، والذى حل محل القانون رقم ٨٥ لعام ١٩٤٢ ، وفيه حرمت على الطبقة العاملة الاشتغال بالمسائل السياسية ، مع أن الطبقة العاملة قبل الثورة كانت جزءا لا يتجزأ من الحركة الوطنية ! .

ديموقراطية ثورة يوليو!

لأن جريدة الناصريين كتبت مقالا موضوعيا ترد به على ما كتبت فى جريدة الوفد ، دون أن تلجأ فيه إلى التجريح الشخصى الذى أصبح سمة من سمات يسار هذا الزمن الأغبر ، فإننى أرد على ما أثاره من نقاط بهدف الوصول إلى الحقيقة التى هى الغرض الرئيسى من أى نقاش .

وقد تحدثت فى مقالى الأول عن موقفى المنصف لانجازات ثورة يوليو فى البناء التحتى ، وقلت إن انصاف الثورة لا يكون بقلب السلبيات إلى ايجابيات ، أو اغفال السلبيات وإبراز الايجابيات كما يفعل دراويش الناصرية، لأن أية دراسة تاريخية تفعل ذلك لاتساوى ثمن الحبر الذى كتبت به ثم تناولت مسألة شنق الثورة لخميس والبقرى لأول مرة فى تاريخ الحركة النقابية فى مصر ، وأوضحت بالدليل

* الوفد فى ٢٨/٥/١٩٨٧

التاريخى أن هذا الشنق لم يكن - كما أرادت أن تصورها جريدة الناصريين - مجرد خطأ يمكن أن يغفره الله ، وإنما كان جريمة حقيقية ارتكبتها الثورة بأعصاب باردة لحساب الرأسماليين المصريين قبل الثورة التى كانت الثورة تعلق عليهم الآمال للتنمية .

وحتى لا يكون كلامنا فى هذا الصدد مجرد تحليل واستنتاج ، فمن الضرورى أن نعرض رأى عبد العناصر نفسه فى ذلك الوقت ، كما عبر عنه فى خطبه وتصريحاته .

فى خطابه يوم ٦ إبريل ١٩٥٤ فى وفود عمال السويس والاسكندرية بمقر قيادة الثورة ، وعندما شكا أحد العمال من الشركات الرأسمالية قائلاً : «إننا نحن العمال فى الشركات نشعر أن هناك سوسا ينخر فى عظامنا» - رد عليه عبد الناصر بقوله : «ان هذا السوس موجود فى كل مكان ، ولا يجعل مطلقاً أن نقول للعامل بين عشية وضحاها : هذه شركة البيض ملك لكم .. اننا نريد من العمال وأصحاب رؤوس الأموال أن يسيروا متحدين متكاتفين .. نحن لا يمكننا إلزام صاحب الشركة بإجابة جميع المطالب دفعة واحدة ، لأن هذا يؤدى إلى اختفاء رؤوس الأموال ، ومصلحة البلاد العليا تقضى بأن تقوم من ناحيتها بتشجيع استغلال أموالهم ، حتى تعم الشركات جميع أنحاء البلاد » .

ثم صرح عبد الناصر العمال قائلاً . «ليكن فى علمكم أن الحكومة ليس لديها المال الكافى للقيام بتلك النهضة الصناعية ، وعلى هذا فيجب أن تشجع كل من يريد استثمار أمواله حتى تستفيد البلاد ويستفيد العمال من ذلك » .

وفى خطاب عبد الناصر يوم ١٩ إبريل ١٩٥٤ ، فى وفود الفلاحين والعمال أزال كل وهم فى نفوسهم من ناحية انتصار الثورة لهم على حساب ملاك الأرض والرأسماليين ، فقال فى عبارة قاطعة :

«أمامنا الفلاح والعامل ، وصاحب الأرض وصاحب رأس المال . نحن نعمل للجميع ولا ننصر فئة على الأخرى ، سنكون حكاما بين الجميع ننصف صاحب العمل وننصف الفلاح وصاحب الأرض (!) » .
(راجع مجموعة خطب عبد الناصر ، القسم الأول ص ١٠٧ - ١٠٨ ،
(١٢٣)

ومن هنا ، فإذا قالت جريدة الناصريين إن الثورة قامت بالقضاء على سيطرة رأس المال ، فليس معنى ذلك أن السيطرة انتقلت إلى يد الطبقة العاملة ، بعد أن أعلن عبد الناصر بصراحة : «إن الثورة لن تنصر فئة على الأخرى » وإنما كان هذا القضاء لحساب ضباط ثورة يوليو .

وهو ما حدث بالفعل ، وهذا هو السبب الرئيسى فى إحجام الطبقة الرأسمالية عن الاستثمار ، لأن الطبقة الرأسمالية فى أى بلد من البلاد لا تستثمر أموالها فى عمليات التنمية إلا إذا كان الحكم فى يدها من خلال نظام ليبرالى حقيقى يتيح لها الوصول إلى الحكم .

وهذا يدفعنا إلى معالجة النقطة الثانية من النقاط التى أثارها جريدة الناصريين ، وهى ما زعمته من ديموقراطية ثورة يوليو ، التى وصفها كاتبها بجرأة يحسد عليها بأنها كانت ديموقراطية فى أرفع مراحلها - أو على حسب نص عبارتها : «ارتقت ثورة يوليو بالديموقراطية إلى أرفع مراحلها» ! .

ويقصد الكاتب بهذا القول ما أطلق عليه اسم «الديموقراطية الاشتراكية» التى يقول إن الثورة أعلنتها فى عيد هو أعظم أعياد الديموقراطية فى تاريخ مصر سنة ١٩٦٢ . ولعله يقصد قرارات التأميم فى يوليو ١٩٦١ ، أو يقصد الاعلان الدستورى بشأن التنظيم السياسى لسلطات الدولة العليا ، الذى صدر بقرار جمهورى فى سبتمبر ١٩٦٢ ، الذى أنشأ مجلس الرئاسة ليوحى بأن سلطات رئيس الجمهورية الفردية قد انتقلت إلى قيادة جماعية . وإن كان الأرجح أنه يقصد قرارات التأميم

لأن الإعلان الدستوري لم يغير الوضع الدكتاتوري للسلطة الحاكمة من الناحية الفعلية شيئاً .

وهذا يضعنا أمام خطأ آخر من أخطاء تحليلات الناصريين لانجازات ثورة يوليو ، التي يغفلون فيها الفرق بين النظرية والتطبيق .

فمن المحقق أن الاشتراكية هي أرفع مراحل الديمقراطية ، لأنها تحرر جماهير العمال من قيود علاقات الانتاج الرأسمالية ، ولكن بشرط أن تنقل الحكم إلى يد الطبقة العاملة وفقاً للنظرية الاشتراكية ، لا أن تضع الحكم في يد طبقة عسكرية تكونت على مدى العشر السنوات السابقة على قرارات التأميم ، لأن هذا معناه بوضوح نقل الطبقة العاملة من يد الرأسمالية ، ووضعها في يد هذه الطبقة العسكرية .

ولست في حاجة إلى القول بأن وضع الطبقة العاملة مع الطبقة الرأسمالية أفضل من وضعها مع الطبقة العسكرية ، لأن القضية هي أولاً وأخيراً هي قضية الانتاج - وهذا ما يغفله الكثيرون عند التحليل للأسف الشديد . فالمجتمع لكي يعيش لابد أن ينتج ، وقد مر هذا الانتاج بأنماط وعلاقات متغيرة ومتطورة عبر التاريخ ، ولكن الانتاج كان هدف المجتمع الأعلى ، لأنه هو الذي يحفظ حياة الفرد والمجتمع .

ومعنى هذا الكلام أن لكل طبقة دورها التاريخي في العملية الانتاجية ، وبدونها تسقط العملية الانتاجية في هوة ليس لها قرار - أي يتوقف المجتمع عن الانتاج . فطبقة السادة في مجتمع العبيد لها دور تاريخي لاتستطيع أن تؤديه طبقة أخرى ، فإذا قضى على هذه الطبقة في عصرها توقفت العملية الانتاجية للمجتمع ، وتوقف التطور التاريخي . وما ينطبق على طبقة السادة ينطبق على الطبقة الاقطاعية وعلى الطبقة الرأسمالية .

هذه أولويات يجب على من يتصدى للكتابة في المسائل النظرية أن يكون على معرفة بها وإلا وقع في أخطاء تحليلية قاتلة .

وهذا يفسر لماذا لم ينتقل المجتمع المصرى بقرارات الاصلاح الزراعى التى أعلنتها ثورة يوليو إلى المرحلة الرأسمالية ؟ كما أنه لم ينتقل بقرارات التأميم التأميم إلى المرحلة الاشتراكية ؟ لأن القرارات الأولى كانت تتطلب انتقال السلطة إلى يد الطبقة الرأسمالية ، ولأن القرارات الثانية كانت تتطلب انتقال هذه السلطة إلى يد الطبقة العاملة ، ولكن ضباط ثورة يوليو عطلوا التطور التاريخى الصحيح باستيلائهم على السلطة وحرمان كل من هذه الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة منها .

ومن هنا لم تنتج الطبقة الرأسمالية ، ولم تنتج الطبقة العاملة ! فقوانين الحركة التاريخية تقضى بأن كل طبقة لاتستطيع أن تنتج إلا فى ظل الحكومة التى تنبثق منها وتمثل مصالحها ، وهو ما يحدث حالياً فى المجتمع الرأسمالى الذى تحكمه الطبقة الرأسمالية ، وفى المجتمع الاشتراكى الذى تحكمه الطبقة العاملة .

وانتاج الطبقة الرأسمالية فى المجتمعات الرأسمالية يتمثل فى استثمار أموالها فى المشروعات التى تعمل فيها الطبقة العاملة ، والتى تضطر فيها الطبقة الرأسمالية إلى الدخول فى علاقات مع الطبقة العاملة تسمح بالصراع الطبقي فى شكل سلمى عن طريق إعطاء الطبقة العاملة حق الاضراب والانتخاب المباشر لاختيار ممثليها فى الهيئة التشريعية . فيتكون من ذلك نظام انتاجى يقدم المجتمع إلى الأمام.

ولكن انتقال وسائل الانتاج إلى يد الطبقة العسكرية التى أنشأتها ثورة يوليو ، نقل البلاد إلى نظام بيروقراطى وليس نظاما اشتراكيا - وهو شر أنواع الأنظمة على الاطلاق ، لسبب بسيط هو أنه ليس نظاما انتاجيا، وإنما هو دخیل على أنماط الانتاج التى عرفها التاريخ ، والتى تقوم على طبقات وليس على أوليغاركيات (أقليات) ، لأن وسائل الانتاج لابد أن تكون فى يد طبقة تحافظ عليها وتصونها وتعمل على تنميتها لصالح المجتمع وتحس نحوها بإحساس الملكية - ولاتكون فى يد

بيروقراطية هي غير منتمية بالضرورة إلا إلى وظائفها ، فإذا تركت هذه الوظائف انقطعت الصلة بينها وبين وسيلة الانتاج التي تديرها .

هذا هو أساس التسيب الذي نلاحظه فى القطاع العام - سابقا وحاليا - وهو أساس الخسائر التي يعانيتها القطاع العام سابقا وحاليا ، وهو أساس تدهور العملية الانتاجية الحالى بعد أن فقدت كل أساس تقوم عليه النظم الاقتصادية - وهو الأساس الطبقي - ولم تعد - بالتالى - تدار إدارة رأسمالية أو إدارة اشتراكية مما تعرفه النظم الرأسمالية أو الاشتراكية .

وهذه هي الديموقراطية رفيعة المستوى التي تتحدث عنها جريدة الناصريين ، والتي تقول إن ثورة يوليو نقلت المجتمع المصرى إليها ، ووصفتها بأنها «ديموقراطية الاشتراكية» .

فلعل القارىء الآن يعرف أن الفرق بينها وبين الديموقراطية الاشتراكية الحقيقية هو نفس الفرق بين النحاس والذهب أو بين القصدير والفضة ، انه الفرق بين الزيف والحقيقة أو بين الكذب والصدق ، لأن تلك الديموقراطية لم تكن أكثر من دكتاتورية الأقلية العسكرية التي كانت تحكم مصر ، واشتراكية المنتفعين الجدد من ضباط ثورة يوليو الذين انتقلت إلى أيديهم وسائل الانتاج .

حياة المؤرخ *

أصبحت كتابة تاريخ
مصر المعاصر كالقبض على الجمر
سواء بسواء ! وهذا ما أصبحت أحس
به كلما تناولت حدثا تاريخيا أتعرض
فيه لشخصية معاصرة على قيد الحياة
، إذ سرعان ما أجد نفسي في اليوم
التالي أمام عريضة اتهام من هذه
الشخصية ، تطعن في أمانتي العلمية
ونزاهتي وكفأتي ، ثم تتسرع هذه
الشخصية في الدفاع عن نفسها بما
تراه ! .

وقد طالما قلت إن مثل تلك
الشخصيات التاريخية المعاصرة ليس
بها حاجة لإساءة الظن بي وبما أكتبه ،
لسبب بسيط هو أنني لست متورطا في
الأحداث ، ولست طرفا فيها ، وأنه لا
مصلحة لي - بالتالي - في نسبة أشياء
لتلك الشخصيات ترى أنها لم تقع
بالشكل الذي أوردته ، وأنه من حق هذه
الشخصيات أن تكتب إلى برؤيتها

* الوفد في ١٩٨٧/١١/٢٣

التاريخية من وجهة نظرها ، وبما تراه يصحح الواقعة التاريخية حسبما وقعت ، وسوف ترى أنني سوف أنشرها بترحاب كبير ، وسوف أعلق عليها تعليقا تاريخيا يبين وجهة نظري فيها فى ضوء الروايات والحقائق الأخرى ، فإذا لم أفعل فإنه يحق لتلك الشخصيات أن تسمى الظن بى وبما أكتب ، وأن توجه إلى ما تشاء من الطعن والسباب ! .

وفى عدد ١٥ نوفمبر ١٩٨٧ من جريدة الناصريين ، فوجئت بمقال للسيد مجدى حسنين تحت عنوان : «إذا لم تستح فاكتب ما شئت» ! - ذكرت الجريدة إن جريدة الوفد رفضت نشره - وهو يحفل بالتجريح الشخصى الذى ترفض جريدة الوفد عادة أن تجعل صفحاتها ميدانا له .

وفى هذا المقال يبدى السيد مجدى حسنين غضبه لما نشرت عن مشروع مديرية التحرير فى مقالى عن «الأسس التاريخية لحادث المنصة» الذى نشرته جريدة الوفد ، وفيه قلت : إن الثورة أسندت أخطر التغييرات الاقتصادية والاجتماعية إلى قيادات من أهل الثقة على حساب الخبرة الضرورية ، وضربت مثلا بمديرية التحرير التى أسندت مشروعها إلى ضابط صغير برتبة صاغ ، ومنحته سلطات مطلقة لمدة ثلاث سنوات كاملة ، ولكن الخسائر أخذت تتوالى ، مما اضطر عبد الناصر إلى عزل الضابط الصغير ، وضم مديرية التحرير إلى وزارة الزراعة .

فعلى الرغم من أنى لم أذكر اسم السيد مجدى حسنين ، إلا أنه غضب - كما قلت - وكتب مقاله الهجومى ، الذى اتهمنى فى نهايته بعدم الحياء ، واختتمه بقوله : «إذا لم تستح فاكتب ما شئت» ! . وقال إنه كان واجبا على أن أستجوب وأناقش كل الأطراف ، وأن أحقق وأدقق فى كل المعلومات ، وألا أعتمد على شاهد واحد متحيز قام بتخريب أهم مشاريع الثورة لبناء الريف ، وأعاد الاستغلال كاملا للقرية فى عهد السادات - وهو سيد مرعى ! .

ولست راغبا فى الدخول فى معركة عقيمة مع السيد مجدى حسنين، الذى أكن له التقدير ، وسوف أكتفى بإجابة موضوعية على طعنه

واتهاماته ، فأقول له اننى لم أعتد على مصدر واحد - هو سيد مرعى -
فيما كتبت ، وإنما استجوبت شهادات كل الأطراف بالفعل ، وعلى رأسهم
عبد الناصر نفسه ، وشهادته فى هذا الصدد تغنى عن كل شهادة ،
وتتمثل فيما أقدم عليه من «طرده» للسيد مجدى حسنين من مديرية
التحرير فى ٣ نوفمبر ١٩٥٧ .

وتعبير «طرده» ليس تعبيري ، وإنما هو تعبير السيد أحمد حمروش
فى كتابه القيم : «قصة ثورة ٢٣ يوليو» ! . وإذا كنت أحسن الظن بالزعيم
الكبير عبد الناصر ، فلست أعتقد أن «طرده» للسيد مجدى حسنين من
مديرية التحرير التى أنشأها ، إنما كان لنجاحه فى إدارتها ! ، وإلا
اتهمت الزعيم عبد الناصر بالظلم ، وعدم تقدير الرجال ، والازدراء
بالنجاح !

كذلك لست أرى أن رأى السيد مجدى حسنين فى المهندس سيد
مرعى مما يخدم الزعيم عبد الناصر كما يتصور ، وإنما يسىء إليه كل
الاساءة ، ويؤكد أنه زعيم لا يحسن تقدير الرجال ، وأنه يسمح لنفسه
بالخدعة ! لأن الزعيم عبد الناصر عندما طرد السيد مجدى حسنين من
مديرية التحرير، أسند إدارتها للمهندس سيد مرعى بالذات ، إذ أتبعها
إلى وزارة الزراعة التى كان المهندس سيد مرعى وزيرها .

ومن حق السيد مجدى حسنين أن يكتب عن المهندس سيد مرعى ما
كتبه فى مقاله من قدح ، ويتهمه بما شاء من اتهامات ، ولكن ليس من
حقه أن يتهمنى بعدم الموضوعية وعدم النزاهة لأنى صدقت عبد الناصر
ووثقت بدوافعه فى طرد السيد مجدى حسنين من مديرية التحرير .

ذلك أنى لو كتبت أن عبد الناصر طرد السيد مجدى حسنين من
مديرية التحرير لأنه نجح فى إدارتها ، لخالفت الموضوعية ولما صدقنى
أحد ، بل لهاجمتنى جريدة الناصريين ، واعتبرت ما كتبت هجوما سافرا
على عبد الناصر وعلى ثورة يوليو ، يضاف إلى هجومى الواحد بعد

الألف على الثورة الذي أحصاه السيد مجدى حسنين بدقة حسابية يحسد عليها ! .

بل إن قبولي للاتهامات التى وجهها السيد مجدى حسنين إلى المهندس سيد مرعى سوف يوقعنى فى مشكلة أخرى مع جريدة الناصريين ! لأنه وصف المهندس سيد مرعى بأنه كان رجلا «يفيىض حنقا طبقييا واجتماعييا على الفلاحين» ، وأنه كان يريد الحفاظ على ثروة الطبقات والفئات التى ينتمى إليها» وأنه جعل رسالته أن يحتوى مشاريع الثورة واندفاعها» ، وأنه «لايطبق قيام زراعة تعاونية وجماعية عصرية وعلمية فى مصر» .. إلى آخره ! .

فإذا أنا قبلت هذه الاتهامات ، أفلا أكون قد قبلت فى الوقت نفسه انسحاب هذه الاتهامات على الزعيم عبد الناصر؟ ، أو رميته بالغفلة ؟ لأنه لم يستطع اكتشاف هذه الصفات فى المهندس سيد مرعى حتى نهاية حياته ، وسمح للمهندس سيد مرعى بخداعه إلى الحد الذى جعله يسند إليه أخطر مشروع للثورة ، وهو مشروع الإصلاح الزراعى ، كعضو منتدب للإصلاح الزراعى بدرجة وزير أولا ، ثم كوزير دولة للإصلاح الزراعى ، ثم كوزير للزراعة إلى جانب عمله كوزير دولة للإصلاح الزراعى لمدة أربع سنوات كاملة ، ثم اضافته مديرية التحرير إلى وزارة الزراعة ليصبح مسئولاً عن وزارة الزراعة والإصلاح الزراعى ومديرية التحرير ! ، ثم أعادته وزيرا للزراعة مرة أخرى بعد النكسة !

كيف لم يكتشف عبد الناصر - إذا صدقنا ما يقال عن ذكائه ولباحيته - حنق المهندس سيد مرعى الطبقي والاجتماعي على الفلاحين - حسب تعبير السيد مجدى حسنين - وتركهم يقاسون من حنقه طوال تلك الفترة الطويلة ؟ .

وحتى أقنع السيد مجدى حسنين بآنى لا أتباهى من فراغ بآنى المؤرخ الأكاديمي الموضوعي النزيه الصارم فى استقصاء الحقيقة -

حسب كلامه - فأنى أحيله إلى عدة أطراف أخرى لم أنس الرجوع إليها ومناقشتها قبل أن أكتب ما كتبت عنه

ففى أول مجلس نيابى قام بعد الثورة ، عندما تناول وزير الزراعة (عبد الرزاق صدقى فى ذلك الحين) مشروع مديرية التحرير فى بيانه إلى المجلس ، تقدم العضو محمد رشدى النحال بطلب تشكيل لجنة برلمانية للتحقيق فيما يثار حول هذا المشروع من تبذير فى أموال الدولة من القائمين على تنفيذه ، ودراسة ما إذا كان مشروعاً ناجحاً أو فاشلاً !

وفى أكتوبر ١٩٥٧ تقدم العضو سيد جلال بسؤال إلى وزير الزراعة، يطالبه فيه بموافاة المجلس بتكاليف استصلاح الفدان بهذه المديرية ، وعدد الموظفين التابعين لها بكل من القاهرة والاسكندرية ، وكذا عدد السيارات التى تقوم باستخدامها ، وتكاليف تشغيلها وصيانتها ! .. إلى آخره .

وقد لقى هذا السؤال استحساناً شديداً من جمهور الشعب ، بل اعتبر سيد جلال بطلاً ليتقدم بمثل هذا السؤال - كما يعترف عبد اللطيف البغدادى فى مذكراته !

وفى هذه المذكرات يضيف البغدادى أنه عندما أصدر عبد الناصر قراره باستبعاد مجدى حسن من مديرية التحرير ، وأمر بإذاعته فى نشرة أخبار الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر - ابتهج الشعب بهذا القرار ، وكسب جمال من ورائه مكسباً شعبياً ، لأنه كان هناك شعور عام من أغلبية أفراد الشعب بعدم الرضى عن طريقة مجدى فى إدارته لمشروع مديرية التحرير» !

وهنا أكتفى بهذا القدر دون الدخول فى تفاصيل أخرى ! فقط لكى أثبت للسيد مجدى حسن أننى أملك قدراً من الحياء يجعلنى أتوقف عن كتابة مالا تستحب كتابته مما يجرح ويسىء! وله - إذا شاء - أن يستمر فى قراءة ما كتبه السيد عبد اللطيف بغدادى فى مذكراته فى هذا الصدد ! .

ومن هنا فلعله يوافقنى الرأى بأن ما أورده فى مقاله عن المعجزة الاقتصادية والاجتماعية المتمثلة فى مديرية التحرير حاليا ، لاتدين له بالفضل ، بل ربما كانت تدين لخروجه ! - اللهم إلا إذا كان يقصد أنه كان صاحب الفكرة فى إنشاء المشروع ، وهو ما تجمع عليه المصادر بالفعل . فليكتف بهذا الفضل ولينسب فضل وصول مديرية التحرير إلى ما وصلت إليه حاليا إلى أصحابه الحقيقيين !

الفصل السابع
ثورة يوليو والوفد

في ذكرى مرور مائة

عام على ميلاد

مصطفى النحاس

مطرب

الاستعراض

بزعيم ! *

أقسم بالله العظيم أنني لا أعرف
حتى الآن سببا واحدا - تاريخيا أو
شخصيا - يدفع نظامنا الوطني في
مصر إلى تجاهل زعيم وطني لا يختلف
أحد على وطنيته وشجاعته وتضحياته
على مستوى الوطن المصري أو مستوى
الوطن العربي - وهو الزعيم مصطفى
النحاس ، الذي ولد في يونية ١٨٨٩ -
أي منذ مائة عام .

أقول ذلك ردا على رسالة من
الصديق الأستاذ الدكتور عبد الرشيد
على والي ، أستاذ الأمراض الباطنية
بكلية طب طنطا ، الذي دأب على أن
يسألني هذا السؤال بين حين وآخر ،
كلما قفز إلى ذهنه كالصاروخ ولم يجد
له إجابة .

وفي هذه الرسالة يقول : « لقد
مضت مدة ليست بالقصيرة منذ كتبت
إليك - ورددتم على مشكوريين وقتها -
وكان الخطاب بخصوص زعيم مصر

* أكتوبر في ١٩٨٩/٢/٢

خالد الذكر والرئيس الجليل مصطفى النحاس - كرم الله مثواه - والذي لا يزال حتى الآن ينال عن عمد تجاهلا لتاريخه وكفاحه ، سواء من الإعلام أو من الدولة ، وذلك دون سبب مقنع . وكنتم قد وعدتم بأن تعهدوا لأحد طلبة الماجستير بإعداد رسالة عن الزعيم خالد . أرجو أن أسمع من سيادتكم أخبارا سارة عن ذلك الموضوع .

وأصارع القارئ العزيز بآنى لا أعرف سببا واحدا لهذا التجاهل ، وإذا كان لدى نظامنا الحاكم - الذى لا أشك في وطنيته - أى سبب ، فأنى أطالبه بأن يصدر به بيانا رسميا يوزعه على الصحف ! وإن كنت لا أعرف - حقيقة - من يمكنه أن يكتب مثل هذا البيان ، إذ لابد أن يكون مؤرخا لأن القضية قضية تاريخية فى الأساس وليست قضية سياسية ، وإذا كانت قضية تاريخية فهي تحتاج إلى مؤرخ متخصص فى التاريخ المعاصر لمصر ، ولابد أن يكون هذا المؤرخ هو صاحب هذا القلم ، بعد أن شاء قدرى أن تكون كل أعمالى العلمية تقريبا ، وعددها يزيد على العشرين كتابا - ناهيك عن مئات المقالات ! - فى تاريخ مصر المعاصر .

وحتى أختصر الطريق فليست أعتقد أن رأس هذا النظام ورأس هذا البلد وزعيمها الرئيس محمد حسنى مبارك ، لديه ما يدفعه إلى التحامل على مصطفى النحاس أو تجاهله ، وقد تشرفت بمعرفة الرئيس والحديث معه فى مناسبات عديدة ، بعضها عام وبعضها انفرادى ، ولم أشعر إطلاقا بأن هذا الرجل العظيم يحمل أى ضغينة لأحد ، حتى لمن يهاجمونه ليل نهار من الأحياء - ناهيك عن الأموات - أو حتى لمن تجاوزوا حدودهم فى حق هذا الوطن فى فترة ما ، ناهيك عن تفرغوا فى خدمة هذا الوطن فى كل الفترات وفى كل الأوقات ، مثل مصطفى النحاس .

كذلك فإن الرئيس محمد حسنى مبارك يتمتع بخصيصة ، نتحدث بها فيما بيننا نحن الكتاب والمفكرين ، الذين جمعتنا قضايا وفرقتنا قضايا ، ووجدنا أنفسنا فى ساحة مبارك سواء بسواء لا يميز بيننا فى

المعاملة ولا يستأثر بواحد ضد آخر ، ولا يقرب مفكرا لأنه ينتمى للحزب الوطنى ، ويعادى مفكرا لأنه يسارى أو وفدى ! - فنقول فيما بيننا فى تفسير ذلك : إن الرئيس صفحته الحزبية بيضاء ! بمعنى أن الرئيس لم يسبق له أن كان وفديا أو اخوانيا أو شيوعيا حتي ينجاز بتاريخه إلى الوفد أو الاخوان أو الشيوعيين ، وانما كان جنديا مقاتلا كرس حياته للقتال دفاعا عن هذا البلد .

يضاف إلى ذلك أن الرئيس محمد حسنى مبارك لم يتورط مع ثورة يوليو فى الصدام مع الوفد عند قيام الثورة ، ولم تحدث بينه وبين مصطفى النحاس مواقف تدعوه إلى تجاهل هذا الزعيم الكبير ، على نحو ما فعل الرئيس السابق عبد الناصر ، الذى كان مصطفى النحاس عقبة فى سبيل توليه السلطة فى البلاد ، ودون الوصول إلى الزعامة التى حققها فيما بعد - فكان الطريق التقليدي فى هذا الصراع على السلطة هو ضرب رأس الوفد وهو مصطفى النحاس .

وقد تم ذلك بالفعل عن طريق القوة ، وسط تهليل الصحافة الانجليزية ، التى كتب بعضها - مثل الديلى هيرالد - يقول إن أفول نجم النحاس أهم بكثير من أفول نجم فاروق ! - وهو صحيح لأن أفول نجم فاروق كان لحساب الديمقراطية وحرية الشعب ، وأفول نجم مصطفى النحاس كان على حساب الديمقراطية وعلى حساب حرية الشعب .

كذلك لم يكن ثمة صدام بين الرئيس محمد حسنى مبارك ومصطفى النحاس ، كذلك الذى كان بين الرئيس الراحل محمد أنور السادات ومصطفى النحاس . فعداء السادات لمصطفى النحاس عدااء قديم يرجع إلى ما قبل الثورة ، منذ تصور أن حصار الانجليز لقصر عابدين بالدبابات فى يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ كان لفرض مصطفى النحاس على فاروق - وهو ما أثبتنا عدم صحته فى كتابنا تطور الحركة الوطنية فى مصر - وأن قبول مصطفى النحاس تأليف الوزارة كان بأمر الانجليز وليس بتوسلات فاروق إليه لينقذ عرشه . وقد تلا ذلك اشتراك السادات

فى حادث اغتيال أمين عثمان ، واشترك مع عبد الناصر فى الصدام مع مصطفى النحاس بعد قيام الثورة .

ولكن بالنسبة للرئيس محمد حسنى مبارك ، فلا يوجد سبب واحد لتبنيه موقف ثورة يوليو من مصطفى النحاس ، لأنه موقف فرضته ظروف تاريخية لم تعد قائمة الآن ، فضلا عن أن التجاهل نفسه فقد مبرر بقائه ، فقد كان الغرض منه فى البداية حماية الثورة من تأثيرات زعيم شعبى أرادت وأده حيا ، وحتى تمنع عقد المقارنة بين دكتاتورية عبد الناصر وديموقراطية مصطفى النحاس .

ولكن مثل هذه المقارنة فى عهد مبارك أصبحت تدعم زعامة مبارك من أوجه كثيرة ، فحتى فى عهد مصطفى النحاس قبض على مصطفى أمين ستا وعشرين مرة - صحيح أنه كان يدفع الكفالة ، ويخرج أقوى مما دخل ، ولكن لم يقبض على صحفى فى عهد مبارك بسبب أساءته حرية ابداء الرأى .

من هنا فإن الحرية التى فتحها محمد حسنى مبارك للكلمة والرأى، بعد ثلاثين عاما من قيام ثورة يوليو ، فضلا عن مناخ الديموقراطية الذى أشاعه فى حدود النظام السياسى الذى ورثه ، وحرصه الشديد على عدم ضرب هذه التجربة تحت أية ظروف داخلية أو خارجية ، يرشحه لأن يكون أول رئيس دولة منذ قيام ثورة يوليو ينهى التجاهل الرسمى لمصطفى النحاس ، وهو التجاهل الذى يلقي بآثاره فى وسائل الاعلام الرسمية بالضرورة !

فلربما لا يعرف الرئيس مبارك أن رقابة التليفزيون حذفت مشهدا أو مشهدين من مسلسل لياالى الحلمية « عن مصطفى النحاس ، شاءت أمانة أسامة أنور عكاشة إلا أن يضمنها المسلسل ، أحدهما عن وفاة مصطفى النحاس !

ولا يوجد سبب لذلك الا تجاهل النظام السياسى الحاكم لهذا الزعيم ، لأنه من غير المعقول أن يتصور المسئولون أن يخرج مشاهدو المسلسل فى

مظاهرات ، عقب مشاهدة الحلقة ، تطالب بعودة مصطفى النحاس إلى الحياة !

هذا الخوف من مصطفى النحاس حيا وميتا هو أمر مخجل للغاية ، لأنه ناشئ من ادراك كامل بمكانة مصطفى النحاس فى نفوس الشعب المصرى الوفى ، ولا يجب أن يكون وفاء الشعب لمصطفى النحاس سببا فى تجاهله ، لأن هذا الوفاء انما هو لصالح الحكام الذين يعملون لصالح الشعب ، وانجازات الرئيس مبارك فى الحقل الوطنى تضعه فى مصاف الخالدين من حكام مصر ، ووفاء الشعب المصرى لزعمائه ولذكراهم هو أمر يطمئن الرئيس مبارك إلى تخليد ذكراه كما خلد الشعب المصرى ذكرى زعماءه السابقين .

لقد اتفق على تقدير مصطفى النحاس أعداؤه قبل أصدقائه . فقد كتب مصطفى أمين يقول :

« عرفت وأنا فى سجن المخابرات أن مصطفى النحاس توفى إلى رحمة الله ، وحزنت كثيرا عليه ، وأسفت أننى لا أستطيع أن أكتب رثاء له . لقد أحببت هذا الرجل وحاربتة ، وسجنت من أجله ، وفصلت من المدارس من أجله ، واختلفت معه فى الرأي ، وهاجمته وهو رئيس حكومة ، فلم يفكر فى أن يضعني فى السجن ، ولم يفكر فى أن يدبر لى تهمة ، أو يحاكمنى على جريمة أنا برىء منها .

«من حق النحاس على أن أشيد به وأنا مسجون ، وأن أذكره كرجل قاد كفاح هذه الأمة ، وضحى فى سبيلها ، ونفى من أجلها ، وحمل الزعامة بعد سعد زغلول ، وكانت نهايته هى نهاية الديمقراطية .

« ولقد أسعدنى أن الملايين خرجت لتشيع جنازته ، وحزنت أن الصحف لم تخصص الصفحات للحديث عن تاريخ هذا الرجل وأمجاده ، التى هى أمجاد شعب مصر وأمجاد شعب مصر . . لقد اعتبروا هذه الجنازة الشعبية الهائلة ثورة على النظام ، وانقضاضا على الحكم ،

وصدرت الأوامر بالقبض على مئات من الوفديين المعروفين بتهمة أنهم مشوا في الجنازة ، ولم أكن أعلم أن الوفاء أصبح جريمة في هذا البلد .

انتهى كلام الأستاذ مصطفى أمين عن مصطفى النحاس ، وقد كان خصما سياسيا عنيدا له . والفضل ما شهدت به الأعداء والمطلوب الآن اعتراف الرئيس مبارك بمصطفى النحاس ، اذ ليس من المعقول أن يكون الرئيس في جانب ، والشعب المصرى في جانب آخر ، فيتجاهل الرئيس مصطفى النحاس بينما يعترف به الشعب فمثل هذا الموقف مما يصعب تصويره ، لأن الرئيس مبارك مع الشعب دائما في مشاعره وأحاسيسه وعواطفه .

ولعل الوقت قد حان لنقل رفات الزعيم مصطفى النحاس إلى جانب زعيم الأمة سعد زغلول ، ليكون الضريح جامعا لبطلين وطنيين بارزين ، قدما للشعب المصرى الكثير ، وضحايا من أجله بالكثير .

وللأمانة فلسب أول من نادى بهذه الدعوة ، وانما هو مفكر يسارى معروف ، لم ينتسب في حياته للوفد ، وهو الكاتب أحمد حمروش ، وقد نادى بها منذ أكثر من عشر سنوات .

ولا يخشى أحد من استفادة حزب الوفد الجديد من هذا الاعتراف ، لأن المستفيد أكثر من ذلك هو الحزب الوطنى ، اذ يدعم مسيرته تحت لواء الرئيس مبارك نحو المصالحة الوطنية ، ويعزز سمعته في البلاد العربية التى تكن جميعها لمصطفى النحاس التقدير والوفاء ، حتى ان بعض الشوارع فى بعض العواصم العربية تحمل اسم مصطفى النحاس ويكسبه حب الجماهير التى يعيش مصطفى النحاس فى ضميرها الوطنى . فضلا عن ذلك فلست أعتقد أن الحزب الوطنى يخشى من انتصار الوفد الجديد عليه فى أية انتخابات قادمة ! .

ان حياة مصطفى النحاس مليئة بالمواقف الخالدة التى صنعت منه زعيما شعبيا عظيماً فى عصر امتلأ بالزعامات شبه الاقطاعية

والرأسمالية ، وعلى الرغم من أنه لم يكن ينتمى لهذه الطبقة ، وإنما كان ينتمى إلى الطبقة البورجوازية الصغيرة (الطبقة الوسطى) ، إلا أن نضاله الذى لم يهدأ ضد الانجليز والقصر جعله أطول قامة من كل هؤلاء الزعماء .

ومع أنه يصعب تماما تناول حياة شخصية وطنية عظيمة فى سطور قليلة ، إلا أنه يمكن القول إن مصطفى النحاس وقف طوال حياته إلى جانب الحق ضد الباطل ، وإلى جانب الحرية ضد الاستبداد ، وإلى جانب الاستقلال ضد الاستعمار ، وإلى جانب الوحدة الوطنية المقدسة ضد التفرقة والفتنة الطائفية ، وإلى جانب الوحدة العربية ضد الانقسام والانفصال .

فقد وقف مصطفى النحاس إلى جانب سعد زغلول عندما انقسم الوفد انقسامه الكبير فى ٢٨ ابريل ١٩٢٠ ، وهو الانقسام الذى تدعمت به الوحدة الوطنية المقدسة بما لم تتدعم من قبل ، إذ كان مصطفى النحاس المسلم الوحيد الذى وقف مع سعد زغلول ، ووقف معه ثلاثة من الأقباط هم : واصف بطرس غالى بك وسينوت حنا بك وويصا واصف بك، وبذلك شكل الأقباط الأغلبية فى الوفد لأول مرة فى تاريخ الحركة الوطنية !

وقد وقف مصطفى النحاس على الدوام ضد محاولات استغلال الدين فى السياسة ، إذ كان يعتبر ذلك - حسب تعبيره - « اقحاما للدين فيما ليس من شأنه » ، وأنه من الضرورى أن « ننزه الدين عن اقحامه فيما ليس من مسائل الدين » . وعندما جعل أحمد حسين شعار جمعية مصر الفتاة الله ، الوطن ، الملك « قال له مصطفى النحاس : « ان وضع اسم «الله» فى برنامج سياسى يعد « شعوذة » .

وعندما أراد الشيخ حسن البنا ترشيح نفسه لعضوية مجلس النواب فى ابريل ١٩٤٢ ، رفض النحاس أن تعمل جماعة دينية بالسياسة ، وخير

البنا بين أن يعلن جماعته حزبا سياسيا ، وفى هذه الحالة يكون من حقه ترشيح نفسه لعضوية مجلس النواب ، أو تبقى جماعته جماعه دينية فقط، ويتنازل عن ترشيح نفسه .

وكان شعار مصطفى النحاس الذى حفظ به الوحدة الوطنية هو : «الدين لله والوطن للجميع» . ولم يجد في ذلك الحين من يتحدى هذا الشعار بشكل فعال ، لأن الجماهير المصرية كانت مع مصطفى النحاس وعندما تحررت مصر من قبضة الانجليز لحد كبير بمعاهدة ١٩٣٦ ، وأحس مصطفى النحاس في عام ١٩٣٧ بأن القوى السياسية المرتبطة بالقصر تسعى لاتخاذ فاروق الشاب محورا لضرب الدستور والديموقراطية ، رأى أن يقتل الأفعى قبل أن تظهر أنيابها ، وقرر أن يخلع فاروق عن العرش فى نوفمبر ١٩٣٧ ، واستصدر قرارا من البرلمان بذلك ، ولكن عرقلت السياسة البريطانية خطواته ، حتى تمكن فاروق من اقالته في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ . وقد فعلت ثورة يوليو ما كان مصطفى النحاس ينوى القيام به ، ولكن بعد أن دفعت البلاد الثمن غاليا .

وكانت طريقة مصطفى النحاس فى مفاوضة الانجليز طريقة فريدة ، وهى طريقة تحريك الشعب المصرى ، والاستناد عليه وتلقي القوة والدعم منه ، والتحدث دائما باسمه . فحين كان يرفض مقترحات يعرضها عليه الجانب البريطانى كان يقول : « لو ان هذه المقترحات عرضت على الشعب المصرى لرفضها حتما ، لأن الشعب ينتظر مقترحات أحسن منها» أو : « إن هذه النقطة حساسة جدا بالنسبة للشعب المصرى » ، أو : « ان قبول هذه النقطة يجعلنا فى مركز صعب جدا أمام الأمة المصرية » . وعندما كان الجانب البريطانى يحتج عليه أحيانا بأنه لم يسمع مثل هذا الاعتراض من المفاوضين المصريين السابقين ، كان النحاس يرد فى حسم قائلا : « إنكم تعرفون اننا نحن الذين نمثل الشعب المصرى ونحرص على حقوقه » (انظر مفاوضات النحاس - هندرسون على سبيل المثال) .

وقد كان مصطفى النحاس هو السياسى الوحيد فى عصره الذى لم يكون ثروة منقولة أو غير منقولة ، ولم تستطع الشركات الأجنبية احتواءه كما احتوت غيره عن طريق تعيينهم أعضاء ورؤساء فى مجالس إداراتها، مثل أحمد زيور ، واسماعيل صدقى ، وحسين سرى ، وحافظ عفيفى ، وعلى ماهر ، وحلمى عيسى ، وسابا حبشى ، ومحمد حافظ رمضان ، والدكتور محمد حسين هيكى ، وعلى الشمسى ، ومحمد محمود خليل ، وأحمد ماهر .

والطريف أنه لم يستطع أن يجمع بين مسكنين فى القاهرة ، عندما اضطرته الظروف إلى استئجار مسكن له فى جاردن سيتى إلى جانب مسكنه فى مصر الجديدة ، مما دفعه إلى استئذان شركة مصر الجديدة فى تأجير مسكنه من الباطن ، « لأكمل مصاريفى عن طريق الحلال المشروع » . وقد سعد عندما أذنت له الشركة بذلك « ناظرة إلى منزلتى فى الأمة وخدماتى للبلاد وسكانها ، علما منهم بأن لا مطمع لى فى ابتزاز أموال أو ابتغاء ثروة من وراء رئاسة شركة أو قبول عضوية فى المصارف والبيوت المالية،- انما يعرفون عنى كما يعرف المصريون جميعا أننى أعيش من كسبى الحلال ، عفى النفس ، طاهر اليد فلا تمتد يدي إلى حرام » .

وأرجو ألا يضحك أحد من القراء على هذه الواقعة ، ممن يعرفون مئات الألوف ممن يمتلكون حاليا أكثر من مسكن فى القاهرة ، بل أكثر من عمارة ! - وقد كان ذلك فى العصر الذى يطلق عليه اسم الاقطاع ! مع أن مصطفى النحاس فى ذلك الوقت كان محاميا عظيما يستطيع أن يجنى ثروة من عمله فى المحاماة ، ولكنه كرس حياته للدفاع عن مصر والشعب المصرى ، وكانت الثروة الوحيدة التى جمعها هى حب الجماهير.

وعلى ذلك فانى حين أطالب الرئيس محمد حسنى مبارك بالاعتراف بمصطفى النحاس ، فانى لا أطلبه لصالح مصطفى النحاس ، وإنما أطلبه لصالح تاريخ الشعب المصرى ، لأن عدم اعتراف الدولة بهذا

الزعيم الوطنى قد ترتب عليه تلقين أبنائنا فى المدارس والجامعات تاريخ مصر قبل الثورة مزيفا ، اذ لا يستطيع أحد من مؤلفى كتب التاريخ للمدارس الحكومية أو الخاصة الكلام بأمانة عن دور مصطفى النحاس ثم تسمح وزارة المعارف بتدريس كتابه ! وقد رأينا أن التليفزيون المصرى حذف المشاهد التى ورد فيها اسم مصطفى النحاس من مسلسل ليالى الحلمية ، لعدم اعتراف الدولة به .

ولقد سبق لى أن قلت إن عدم اعتراف الدولة بمصطفى النحاس معناه حذف ثلاثين عاما من نضال الشعب المصرى تحت زعامة وقيادة هذا الزعيم ، وهو أشبه بحذف دور جمال عبد الناصر من تاريخ ثورة يوليو ، أو حذف اسم محمد أنور السادات من حرب أكتوبر ، أو حذف اسم محمد حسنى مبارك من استرداد سيناء وطابا ومن انجازاته العظيمة فى مجال حرية الرأى والمصالحة الوطنية والمصالحة العربية وغير ذلك من الانجازات .

ومن هنا حين أطالب بالاعتراف بمصطفى النحاس وبدوره الوطنى التاريخى فى قيادة نضال الشعب المصرى ، فانما أطلب بانتهاء تزييف تاريخ مصر !

انهم لا يتغيرون ! *

المحزن فى حملة قميص عبد
الناصر أنهم لا يتغيرون ، وهم أيضا ، لا
يتعلمون . فما رددوه منذ خمسة
وثلاثين عاما فى الهجوم على الوفد
وتزييف تاريخ مصر ، ما زالوا يرددونه
فى عام ١٩٨٩ بنفس الفاظه تقريبا ،
وبنفس الأكاذيب ، وبنفس المغالطات ،
متجاهلين كل الكم الهائل من المعلومات
التاريخية التي ظهرت فى تلك الفترة ،
ومتجاهلين ما تكشف من فساد
ومخازى حكم ثورة يوليو مما يتضاءل
إلى جانبه فساد ومخازى عهد ما قبل
الثورة !

فحين يكتب كاتب فى جريدة
«الأهالى» مقالا طويلا بعنوان « فاروق
ملكا » : بلاغ معاصر « يتهم أحزاب ما
قبل الثورة - أى بما فيها الوفد ! -
بأنها تسابقت على اغراء الملك بتمزيق
الدستور ! - فمن المؤكد أن هذا الكاتب
ما يزال يعيش بفكره فى عام ١٩٥٢ ،

* الوفد فى ٧ / ٨ / ١٩٨٩

أى يعيش فى جو حملة التضليل التى ساقها الضباط ضد الوفد، لاستدامة دكتاتوريتهم العسكرية على البلاد ، ودفن الديمقراطية ، وتصفية القوى الوطنية الديمقراطية والتقدمية ، حين كانت هذه الحملة المضللة ترى من مصلحتها تجاهل تاريخ مصر كلية ، ووضع حزب الأغلبية الشعبية - الذى لم يحكم أكثر من سبع سنوات مقابل واحد وعشرين عاما حكمتها أحزاب الأقلية المتعاونة مع القصر - على مستوى واحد مع تلك الأحزاب ، لتبرير وأد الديمقراطية الليبرالية واستدامة الديكتاتورية العسكرية .

وإذا نحن التمسنا العذر للضباط والقوى السياسية التى ساندتهم وقتذاك فى تلك الحملة المضللة ، وبررناها بالرغبة فى تقديم ديمقراطية أفضل ، فكيف نلتمس العذر للكاتب الذى يردد نفس تلك الأباطيل بعد أن انكشف نوع الديمقراطية التى قدمتها الثورة لمصر ، ونوع الدساتير التى صاغتها ، ونوع الممارسة السياسية التى مارسها ؟ ألم يكن من الأفضل للكاتب أن يسقط تماماً ذلك الجزء من الحملة المضللة السابقة التى اتهمت الوفد ، الذى هو أكبر حزب ليبرالى شهدته مصر ، باغراء الملك فاروق على تمزيق الدستور ؟ .

وحين يعود الكاتب فيردد افتراءات الثورة ضد فؤاد سراج الدين ، ويقول إنه « لم تكن له سابقة جهاد واحدة أو توضحية بارزة من قبل الثورة » ، فآلم يكن من الأكرم له أن يذكر لنا سوابق عبد الناصر فى الجهاد قبل الثورة ، وتضحياته التى هيات له أن يحكم مصر لمدة ثمانية عشر عاما ؟ . أو يذكر لنا سوابق جهاد ضباط يوليو وتضحياتهم التى هيات لهم الاستيلاء على الحكم ، وضرب كل القوى الوطنية الديمقراطية والتقدمية التى ناضلت الاستعمار والاستبداد قبل الثورة ، وفرض وصايتهم على البلاد ؟

وحين يستمرىء الكاتب هذا الهزر فى مقاله ، فلا يذكر من حكم الوفد الأخير إلا حكاية نسب فاروق وقرار نقابة الأشراف ، فألا يكون ذلك

إلا التهريج بعينه ؟ إن الكاتب يتصور أن الشعب المصرى قد أثرت فيه مسألة نسب فاروق ، أو أن الشعب المصرى كان يتصور أن الأشراف مقدسون فانتقلت قداستهم إلى فاروق . وينسى أن الشعب المصرى على الدوام كان يفرق بين الرسول ، الذى تلقى الرسالة من الله ، ونسله ، الذين هم أفراد عاديون يحسن بعضهم السلوك ويسئله بعضهم !

وقد كتب سعد زغلول عن أحد هؤلاء الأشراف ، وهو السيد محمد توفيق البكرى ، يقول إنه « يعتقد فيه الجبن والدناءة وفساد الأخلاق ، وأنه يستحق أشد العقاب على هذه الصفات » ! ولم يكن البكرى وقتذاك شريفا عاديا بل كان نقيب الأشراف ! وليس أدل على انعدام قيمة وأثر مسألة نسب فاروق من أن الشعب المصرى استقبلها بسخرية . فألا يكف الناصريون عن المتاجرة بهذه القصة المضحكة فى مهاجمتهم للوفد قبل الثورة ؟ .

ثم يتبدى جهل الكاتب المطبق بتاريخ مصر الاجتماعى والسياسى حين يسوق هذه العبارة : « كوفى زعماء الوفد على جهادهم القديم ، وانتقلوا إلى طبقة جديدة ، فضعف ارتباطهم بالطبقة التى جاءوا منها » .

وهو كلام مضحك ، لأن زعماء الوفد قدموا من الطبقة البورجوازية ، ولم تكن ثمة طبقة أكبر منها لينتقلوا إليها ! وإذا كان الكاتب يقصد طبقة كبار الملاك الزراعيين ، فلو أنه قرأ كتابى : « صراع الطبقات فى مصر » لعرف أن هذه الطبقة لم تنقطع أبدا عن قيادة الوفد ، بل ظلت تشكل عنصرا هاما وأساسيا فى قيادته ولم يكن ثمة فارق كبير فى هذا الشأن بين الوفد وحزب الأحرار الدستوريين .

ولم يكن دخول فؤاد سراج الدين ، وهو من كبار الملاك ، فى قيادة الوفد - من ثم - دخولا لعنصر اجتماعى جديد ، لأن بقية أعضاء الوفد - فيما عدا مصطفى النحاس - كانوا من كبار الملاك بنفس الدرجة تقريبا . ولكن الكاتب يصور هذا الانتقال المزعوم لزعماء الوفد إلى طبقة جديدة

على أنه « مكافأة » أو لا يحدد بشكل من الأشكال من هو الذى قدم هذه المكافأة : هل هو القصر ، العدو اللدود للوفد ، أو هو الشعب ، أو هو الحظ ، أو هو الكاتب نفسه الذى يكتب أى كلام ؟

والطريف أن الكاتب يتحدث عن رغبة الوفد فى البقاء فى الحكم ، كما لو كانت رغبة أثيمة ، وكأن المفترض فى حكومة أغلبية وصلت إلى الحكم عن طريق انتخابات ضارية أن تفرط فى الحكم بسهولة ؟

وهو يتحدث عن مساومة حكومة الوفد مع القصر ، ولا يتعرض بالذكر لالغاء معاهدة ١٩٣٦ على يد هذه الحكومة ، حتى يتفادى الربط بين السبب والمسبب ، أو بين الوسيلة والغاية ، وحتى يتيح لنفسه ترديد الحملة القديمة التى تعطنت وتعفنت ولم تعد تصلح للحوار السياسى بعد ٣٥ عاما من الثورة .

ولكن الناصريين لا يتغيرون ، لأنهم لا يتعلمون !

حكومة الوفد الأخيرة ومناطق العملاء

بعض الكتبة الصغار يتصور أن الكاتب أو المفكر لا بد أن يكون فى الأصل عميلاً لجهة ما ، تستكتبه وتدفع له أجره ! ولا بأس - فى رأى هذا البعض - من أن يكون الكاتب عميلاً لجهتين أو ثلاث !

ولهذا تصيبهم الحيرة اذا وجدوا كاتباً ينتمى إلى مصر وحدها ولا يدين بالولاء لغيرها ، وتفشل مقاييسهم - بالتالى - فى الانطباق عليه ، فيصيب الخل والخلط تحليلاتهم ، ويكتبون كلاماً غثاً رخيصاً - كما وقع من أحد الكتاب فى جريدة « الأهالى » منذ أسبوعين أو ثلاث .

فقد أراد أن يقدم للقراء كتاب : « فاروق ملكا » للأستاذ أحمد بهاء الدين ، وهو كتاب قديم وجديد معا - أى أنه كتاب خالد ! ولكنه قرأه قراءة ناصرية ، ولم يستوعب ما طرأ عليه بعد ذلك من دراسات ومعلومات ،

* الوفد ٢١ / ٨ / ١٩٨٩

وتصور أن خلود الكتاب معناه أن حقائقه خالدة لا تتغير، مع أنه لا يوجد كتاب خالد بهذا المعنى إلا القرآن الكريم ، فعرضه عرضاً مشوها ، ولم يستخرج منه إلا كل ما يشوه تاريخ الوفد ، مع أن أهم عناصر خلود كتاب « فاروق ملكا » أنه أنصف الوفد ، وأنصف تاريخ وزارته الأخيرة بالذات ، حتى ولو أخطأ في تحليل بعض المعلومات .

ولكن صاحبنا - لأنه يقرأ قراءة ناصرية - لم ير حرفاً واحداً مما كتبه أحمد بهاء الدين عن إيجابيات حكومة الوفد الأخيرة ، ولم يلتقط سوى تلك القصة الممجوجة عن نسب فاروق ، وأخذ يضيف إليها افتراءات ثورة يوليو على الوفد وعلى فؤاد سراج الدين ، ونسى أن هذه القصة لم يكن لها أى تأثير سياسى لصالح فاروق . بل نسى تعليق أحمد بهاء الدين البليغ عليها الذى يقول إن « فاروق أخطأ الحساب ، ولم يفهم أن الزمن قد تأخر ، وأن بحثه عن القداسة والتشريف عن هذا الطريق المفتعل يجعل أحقر بائعة سمك فى القاهرة تضحك منه » ! - نسى الكاتب ذلك ، ولم يتذكر سوى افتراءات ثورة يوليو على الوفد ، التى جعلت من هذه القصة وغيرها من القصص الرخيصة ، سنداً لثورة يوليو فى اغتصاب السلطة من الشعب ، وانتزاع الحكم منه والتربع فوق صدره ، وحرمان حزب الأغلبية الشعبية من الحكم لصالح الشعب ولصالح مستقبله الاقتصادى والسياسى .

لهذا السبب حين تصديت لهذا الافتراء فى عدد ٧ أغسطس من الوفد فى مقالى بعنوان : « انهم لا يتغيرون » ، وأثبت فيه الحقائق التاريخية ، لم يعجب هذا التصدى كاتب العرض ، وأخذ فى تطبيق مقاييس العمالة على ، ليعرف الجهة التى أعمل لحسابها !

وإذا بتفكيره يقوده إلى أننى عميل لكل من فؤاد سراج الدين ، والرئيس محمد حسنى مبارك ، وحكام اسرائيل ، والسعوديين - كل هؤلاء معا ! .

ولأن مقاييس العمالة عنده تتسامح فى العمالة لجهتين أو ثلاث فقط ، فان عمالتى لأربعة جهات متعارضة المصالح مرة واحدة ، انتزعت منه الاعجاب ، ولم يملك - للأمانة - إلا أن يسجله فى مقاله ، فكتب يقول :

إن « الذى يقدر على الجمع بين عشق فؤاد سراج وحب الرئيس مبارك والاشادة بحكام اسرائيل والتطبيع معهم ، والاستفادة من السعوديين ، لا شك أنه يستحق الاعجاب ! . » .

وقد ذكرنى هذا المنطق بواقعة رواها البعض لى منذ أكثر من عشرات سنوات ، حين انتدبت لالقاء محاضرات فى تاريخ مصر المعاصر فى كلية تربية عين شمس ، واذا بما أقوله فى المحاضرات يثير انزعاج بعض السلطات ، ورأى المسئول أن يعرف هويتى السياسية ، فاستحضر نسخة من المذكرات التى أدرسها للطلبة ، ولم يكد يفتح أول صفحة حتى وجد عنوانا عن « الاخوان المسلمين » ، فاقتنع فوراً بأنى من الاخوان المسلمين !

ولكن اللغظ لم يتوقف ، فاستحضر المذكرات مرة أخرى ، ووجد أننى أعالج موضوع جماعة مصر الفتاة الفاشية ، فصحح معلوماته إلى أنى فاشى النزعة !

ولما استمر اللغظ ، استحضر المذكرات مرة ثالثة ، ووجد أننى أدرس للطلبة تاريخ الحركة الشيوعية فى مصر ، فاستقر لديه أننى إخوانى فاشى شيوعى معا ! وسواء كان ما روى لى صحيحا أو غير صحيح فانه رمز لمنطق كاتب العرض الذى تصور جمعى بين العمالة لفؤاد سراج الدين والرئيس محمد حسنى مبارك وحكام اسرائيل وحكام السعودية .

ولو ثابر على قراءته لما أكتب لرأى اننى عميل أيضا للاتحاد السوفيتى ! لأننى دافعت عنه بشراسة ضد الهجوم اليومى الذى يشنه عليه كاتب يمينى * فى احدى الصحف القومية ، ولم أكف عن الدفاع عنه فى وجه تلطيخ اليمين . كما أنه سوف يتبين أيضا أننى عميل للعراق ، لأنى كنت أول كاتب مصرى أيد العراق فى حربه ضد إيران ، بينما كان الجميع يكتبون فى تمجيد الثورة الايرانية ، بل ظلت أدافع عن قضيته .

* هو الأستاذ محمد الحيوان

ضد إيران بينما كان زعماء الناصرية وبعض اليسار يحج إلى خصومه من الحكام يلتمسون منهم العون والتأييد والدعم .

كذلك سوف يكتشف أنى عميل للفلسطينيين ، لأنى جعلت الدفاع عن قضيتهم أحد المحاور الرئيسية فى حياتى السياسية ، وتعرضت من أجل هذه القضية إلى بذاءات النصابين وثوار المصاطب وتجار الكلام .

وهكذا فان منطق العملاء سوف يقوده إلى أنى عميل لجهات لا حصر لها ، ولكنه لن يدرك أبدا أنى عميل لمصر وحدها ، وأن الحق وحده هو ما أهدف إليه وما أبتغيه .

والآن فانى أسجل هنا ما نسيه كاتب العرض من كتاب « فاروق ملكا » ، عن حكومة الوفد الأخيرة ، لكى يعرف القراء كيف ينحرف هذا الفريق من الكتاب الناصريين عن الحقيقة ويخدعون قراءهم .

فقد كتب أحمد بهاء الدين وهو يتحدث عن الحرية التى وفرتها حكومة الوفد الأخيرة للشعب قائلا .

« استفاد الشعب من الحرية التى توفرت له سنتى ١٩٥٠ و١٩٥١ إلى حد بعيد . فرأينا صحفا متحررة تظهر فى الميدان وتكسب القراء الكثيرين . ظهرت صحف « اللواء الجديد » ، و « الكاتب » و « الملايين » و « الجمهور » و « الدعوة » و « الاشتراكية » . وكان لكل جريدة أسلوبها فى مهاجمة الملك السابق .. وكان منطقيا أن لا تقصر هذه الصحف حملاتها على شخص الملك وأفراد حاشيته ، فامتد هجومها إلى النظام الاجتماعى الظالم ، والحالة الاقتصادية التعسة ، والموقف الوطنى المائع . وأخذ الناس يكتشفون كل يوم أن الأوضاع كلها مرتبطة بوجود الملك ، كما أن وجود الملك مرتبط باستمرارها . »

ثم يسجل الأستاذ أحمد بهاء الدين ما تحقق فى السنتين اللتين حكم فيهما الوفد من انجازات بفضل الحرية التى حققها للشعب ، فيقول :

« انظر إلى تلك الانتصارات الضخمة التى حققها الشعب فى خلال سنتين من الحرية النسبية : فضح الملك وقدم شركاءه إلى المحاکمة ،

حطم كل محاولاته لفرض نظم رجعية جديدة ، عبأ السخط بين الجماهير وحدد أهدافه فى الملك الفاسد وبطانة السوء وكل من يدور فى فلكه من سياسيين ، وتوج الشعب هذه الانتصارات بالغاء المعاهدة ، وبتقرير حق شبابه فى حمل السلاح ومحاربة الانجليز ، ودفع الحكومة إلى حالة من شبه الحرب مع الاستعمار لأول مرة فى تاريخنا الحديث .

ثم يقول أحمد بهاء الدين فى « فاروق ملكا » : « تركت وزارة الوفد كل أدوات الدعاية تهاجم الانجليز ، وتنمى طاقة الكراهية للاستعمار إلى حد لم يسبق له مثيل منذ ثورة ١٩١٩ ، ونقلت الاحساس المباشر بقبضة الانجليز من مدن القنال إلى جميع أنحاء القطر ، وشجعت كتائب التحرير بأقصى وسائل التشجيع الأدبى والمادى ، حتى لقد كان ميكرفون الاذاعة ينتقل إلى معسكراتهم فى القنال يروى قصصهم وينقل أحاديثهم لمواطنيهم

بعد ذلك كله ، وقبل أن تقع كارثة حريق القاهرة ، بدأت الوزارة تمد الفدائيين بالسلاح ، وتشجيع ضباط الجيش والبوليس على التطوع ، وقد سحبت سفيرها فى لندن ، وهمت بقطع العلاقات السياسية ، فلم يبق بينها وبين حالة الحرب الفعلية إلا شعرة واهية ... »

هكذا كتب أحمد بهاء الدين فى كتابه « فاروق ملكا » عن حكومة الوفد الأخيرة ، مما عجز الكاتب الصغير عن رؤيته ، فقدم عرضه الكوميدي للكتاب ، الذى شوه فيه تاريخ الوفد ، وردد افتراءات ثورة يوليو التى فضحها الشعب منذ وقت طويل ، فأثبت ما سبق أن قلناه من أن هذا الفريق الهزيل من الكتاب الناصريين لا يتعلمون من التاريخ ، كما أنهم فى نفس الوقت لا يستحون !

مبارك وزعمات ما قبل ثورة يوليو *

مما يدل علي سرعة ايقاع الحياة في مجتمعنا المعاصر ، آتني سافرت إلى لندن لاضر لقاء علميا عن الأصوليين في مصر والعالم ، ولقضاء بضعة أيام في هذه المدينة الرائعة التي أعدها وطننا ثانيا لي منذ كنت أستاذاً زائراً بجامعة لندن قبل تسع سنوات - ثم عدت بعد عشرة أيام لأجد المسرح السياسي في مصر قد تعرض لعدة تغييرات مؤثرة كان محورها الرئيس حسني مبارك ، ولأقرأ في نفس يوم وصولي عن انتخابات الرئيس المصري رئيسا لمنظمة الوحدة الأفريقية .

وسوف أدع مؤقتا المسألة الأخيرة لمقال خاص ، وأتناول في هذا المقال قنبلتين فجرهما الرئيس مبارك ، الأولى في خطابه التاريخي في عيد الثورة ٢٣ يوليو ، والثانية في تعقيبه على نتائج المؤتمر الخامس للحزب الوطني في ختام جلساته .

* أكتوبر في ٦/٨/١٩٨٩

نُشر تحت عنوان :

« من إصلاح تاريخ مصر إلى

إصلاح اقتصاد مصر »

والقنبلة الأولى هى تلك الفقرة الهامة من خطاب الرئيس مبارك فى خطاب عيد الثورة التى يقول فيها

« ليس هناك من يختلف على أن زعماء مصر ، قبل ثورة يوليو وبعدها ، ومنذ بدأ الشعب نضال الاستقلال واجلاء الاحتلال ، أعطوا لمصر أقصى طاقتهم فى اخلاص وايمان ، وأدى كل منهم بمساندة هذا الشعب دوره فى حدود الظروف والامكانيات المتاحة . وليس نضال الشعوب الا حلقات متصلة ، وكتابا متعدد الفصول وصلا واستمرارا ، والحكم بعد ذلك للتاريخ .»

ان هذه الفقرة الهامة تصحح خطأ وقعت فيه ثورة يوليو بتجاهلها لزعيم مصر الخالد الذكر مصطفى النحاس .

ويحق لى أن اعتبرها استجابة سريعة من الزعيم محمد حسنى مبارك لندائى الذى وجهته على صفحات مجلة أكتوبر منذ بضعة أسابيع قليلة تحت عنوان : «مطلوب الاعتراف بزعيم » ، وفيه قلت إنه لا يوجد سبب واحد يلزم الرئيس محمد حسنى مبارك بتبنى موقف ثورة يوليو من مصطفى النحاس ، لأن ذلك الموقف فرضته ظروف تاريخية معينة لم تعد قائمة حاليا ، فضلا عن أن هذا التجاهل نفسه فقد مبرر بقاءه ، فقد كان الغرض منه فى البداية حماية الثورة من تأثيرات زعيم شعبى أرادت وآده حيا ، وحتى تمنع عقد المقارنة بين دكتاتورية عبد الناصر وديموقراطية مصطفى النحاس ، ولكن هذه المقارنة فى عهد مبارك أصبحت تدعم زعامة مبارك من أوجه كثيرة ، فحتى فى عهد مصطفى النحاس قبض على مصطفى أمين ستا وعشرين مرة ، صحيح أنه كان يدفع الكفالة ويخرج أقوى مما دخل ، ولكن لم يقبض على صحفى فى عهد مبارك بسبب اساءته حرية ابداء رأى . وهذا يرشح الرئيس مبارك ليكون أول رئيس دولة منذ قيام ثورة يوليو ينهى التجاهل الرسمى لمصطفى النحاس ، وهو التجاهل الذى يلقي بآثاره فى وسائل الاعلام الرسمية بالضرورة .

وقد انتهز الرئيس مبارك بالفعل أول فرصة ليعلن اعترافه بكافة زعماء مصر قبل الثورة وبعدها ، وليقول انهم أعطوا مصر أقصى طاقتهم فى اخلاص وايمان ، وأدى كل منهم دوره فى حدود الظروف والامكانيات المتاحة بمساندة الشعب . وهو أول اعتراف من هذا النوع منذ قيام ثورة يوليو .

فقد كان موقف رؤساء الدولة يتراوح بين أمرين : إما الهجوم على قيادات ما قبل ثورة يوليو بصفة عامة ، وعمال على بطل ! ودون تفرقة بين اسماعيل صدقى صاحب مدرسة تزوير الانتخابات البرلمانية ومحمد محمود صاحب اليد الحديدية ، وبين مصطفى النحاس الزعيم الليبرالى الأصل الذى لم يلوث يده أبدا بدماء الديموقراطية - وإما تجاهل مصطفى النحاس كلية كأنه لم يقدر نضال هذا الشعب ضد الاستعمار والاستبداد والاستغلال على مدى ثلاثين عاما قبل الثورة .

ولكن الرئيس محمد حسني مبارك يصحح هذا الوضع الخاطيء ببيانه السالف الذكر ، فيرتفع فوق سخائم الثورة إلى المستوى الرفيع الذى تعود الشعب أن يراه متربعا فوقه ، وهو ما تترتب عليه - بالضرورة - النتائج الآتية :

أولا ، أن تتصرف رقابة التليفزيون والاذاعة المصرية على هذا الأساس . فترفع الحجر المعلن والخفى عن كل ما يتصل بمصطفى النحاس ، أسوة بالزعيم الخالد سعد زغلول ، وسواء فيما يتعلق بالتسجيلات أو المؤلفات أو غيرها فأذكر أننى كنت أذيع منذ شهرين أو أكثر برنامجا ثقافيا من أحد البرامج الاذاعية ، عن المذهب الليبرالى فى مصر ، وتعرضت لرفاعة الطهطاوي وأحمد لطفى السيد وسعد زغلول وبعض الشخصيات التى خدمت الفكر الليبرالى ، وعندما عرضت تقديم حلقة عن مصطفى النحاس ، أفهمت فى أدب جم أن ذلك يمكن أن يسبب احراجا للسلطات المسئولة ، وقد يترتب على ذلك عدم الموافقة على اذاعة الحلقة ! فأرحت نفسى ، وأرحت السلطات ! كذلك فقد ذكرت فى مقالى

عن مصطفى النحاس أن رقابة التليفزيون حذفت فقرة من مسلسل ليالى الحلمية تعرضت لوفاة مصطفى النحاس .

وهذا كله يجب أن يتوقف بالضرورة بعد بيان الرئيس محمد حسنى مبارك ، ولا يجب أن يتعلل البعض فى الاصرار على الخطأ بضرورة الحصول على موافقة كتابية من السيد صفوت الشريف ، وزير الاعلام ، لأن الحجر الذى فرض على مصطفى النحاس لم يحدث بأوامر كتابية من أى وزير للاعلام ! وانما الحجر فرض بحكم الأمر الواقع المتمثل فى خصومة ثورة يوليو للزعيم المصرى الكبير ، وله قوة الالزام التى تفوق أحيانا قوة الأمر المكتوب . وقد تغير هذا الأمر الواقع الآن بقوة بيان الرئيس مبارك

أما النتيجة الثانية ، فهي أن الكتاب والمفكرين والأدباء ، الذين ظلوا طوال سنى الثورة بعبيدين عن مصطفى النحاس فى أعمالهم التى يقدمونها للاذاعة والتليفزيون ، لم يعد يحول بينهم وبين الاقتراب من مصطفى النحاس حائل . وأنا أتوقع من كتاب الأعمال الأدبية التى تعتمد على الخلفية التاريخية ، مثل أسامة أنور عكاشة ومحمد جلال وفتحى غانم وغيرهم ، الاهتمام بتقديم أعمال جديدة تنسج خيوطها حول مصطفى النحاس وتلك الحقبة الثرية من تاريخ مصر التى قاد فيها هذا الزعيم نضال هذه الأمة .

فمن الملاحظ أن جميع الأعمال التى تناولت حقبة ما قبل الثورة قد تقولبت فى قالب واحد لا يتغير ، وهو فساد القصر الملكى وفساد طبقة الباشوات التى التفت حول القصر - وهو ما يتفق مع منطق الثورة ومفهومها فى معالجة تلك الفترة ١

ولكنها تغفل تماما أعظم وأخلد ايجابيات تلك الفترة ، وهى النضال الشعبى الذى لم يسبق له مثيل، الذى جعل من تلك الفترة أصخب الفترات فى تاريخ مصر ، وأحفلها بالشخصيات والزعامات والحركات العقائدية

والسياسية - وذلك لمجرد أن هذا النضال تم تحت زعامة مصطفى النحاس !

وهذا تسطيح ، بل تزوير لتاريخ شعبنا ونضاله الوطني ، وإخفاء لأهم فترات نضاله على الإطلاق ، وهى الفترة التى كانت للجماهير الكلمة العليا ، وكانت التنظيمات الشعبية هي وحدها المحرك والقائد دون أى تدخل من أعلى - أى على العكس تماماً مما حدث فى ثورة يوليو ، حين كانت سلطة الدولة هى التى تعطى الضوء الأخضر لأى تحرك ، أو تعطى الضوء الأحمر لمنع أى تحرك !

نعم لقد أهيل تراب النسيان والإخفاء على نضال وتضحيات الشعب المصرى للتخلص من الاحتلال البريطانى على مدى الثلاثين سنة السابقة على ثورة يوليو ، فلم يظهر لمشاهدى مسلسلاتنا التاريخية سوى بعض المشاهد الهزلية لطرابيش بعض الباشوات من المدرسة العثمانية ، وهم ينحنون على يد الملك يقبلونها ، أو وهم يقضون السهرات الحمراء ، أو وهم ينكرون بالفلاحين - كأن هذا كله هو تاريخ تلك الفترة !

مع أن ثورة يوليو شهدت نفس المشاهد ، شهدت من يركعون أمام عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ومن هم دونهما من الضباط الأحرار الذين استمروا فى السلطة ، وشهدت من يسهرون السهرات الحمراء والخضراء والزرقاء ، وشهدت من يجلدون الشرفاء من المفكرين والكتاب وغيرهم من أبناء الشعب !

وهذا التزوير كله يجب أن ينتهى الآن . لقد كان له ما يبرره عندما كانت السلطة فى عهد ثورة يوليو لا تعترف بتاريخ هذه الثورة ، وحين كانت تحذف تاريخ نضال شعبنا على مدى السنوات الثلاثين السابقة عليها ، وحين كانت تفرز الايجابيات والسلبيات ، فتنسب إليها كل الايجابيات وتنسب إلى عهد ما قبل الثورة كل السلبيات .

ولولا أن بعض الأعمال العظيمة لنجيب محفوظ أعادت التوازن بعض الشيء بين العهدين ، لظنت جماهيرنا أن عهد ما قبل الثورة كان عبارة

عن طرابيش حمراء ذليلة أو متسلطة أو فاسقة ، وعهد الثورة عبارة عن أمجاد وانتصارات ، ولا شيء غير ذلك !

ومن حسن الحظ بالنسبة للأدباء أن تاريخ فترة ما قبل ثورة يوليو قد درس دراسة أكاديمية لم يعد يستغنى عنها أو يستطيع أن يتخطاها أي باحث أو مؤرخ أجنبي أو وطني يتعرض لتاريخ هذه الفترة

فهناك المجلدات الثلاثة من « تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٤٥ » لصاحب هذا القلم ، وهناك « الحركة السياسية في مصر من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٢ » لطارق البشري ، وكلها تغطي تلك الفترة بالكامل - هذا فضلا عن بعض الأعمال العلمية الجادة التي عالجت بعض الحركات السياسية والعقائدية التي برزت في تلك الفترة ، وكتابا أحمد بهاء الدين « فاروق ملكا » ومحمد زكي عبد القادر . « محنة الدستور » .

وبمعنى آخر أن إعادة تقييم الرئيس محمد حسنى مبارك لفترة ما قبل يوليو ، قد فتح الباب أمام إعادة تقييم هذه الفترة على المستوى الأدبي في ضوء الحقائق التاريخية ، وبعيدا عن المؤثرات السياسية ، وهو يزيل أمام ضمائر الأدباء الوطنيين كل حاجز لاعادة تركيب صورة عهد ما قبل ثورة يوليو على أسس موضوعية ، بدلا من الأسس المشوهة الحالية ، وهى صورة أعتقد أنها سوف تشد انتباه جماهيرنا لأنها تقدم له الجديد الذى لم يشاهد فى التليفزيون المصرى أو يسمعه فى الاذاعة المصرية طوال حياته

على كل حال فهذا ما يتصل بالقنبلة الأولى التى فجرها الرئيس محمد حسنى مبارك ، أما القنبلة الثانية فهى اعلان الرئيس مبارك رأيه بضرورة تطوير المصانع الخاسرة أو يتولاها القطاع الخاص ، وأن هناك توجيهات بتسليم القطاع الخاص المشروعات الصغيرة

ولعلى أبعد الناس عن الثقة بالقطاع الخاص في بلدنا ، لأسباب تتصل باختلافه اختلافا كليا عن القطاع الخاص فى البلاد الرأسمالية ،

الذي يسبقه تاريخ طويل وتقاليد راسخة ، كما أن له حاضراً فعالاً ومستقبلاً مضموناً - ولكنى أؤمن بأن الانتاج في بلد مثل بلدنا هو ضرورة حيوية لتحسين الحاضر وبناء مستقبل أفضل ، وأنه بدون انتاج فإن حاضراً شعبنا ومستقبله يتعرضان لخطر جسيم .

ومن هنا فلست أظنني حريصاً على قطاع عام غير منتج ، يسوده التسبب والسلبية ويتراكم فيه الموظفون بلا عمل سوى التوقيع في كشف الحضور والانصراف ، ويدار ادارة غير اقتصادية يكثر فيها الفاقد ويقل فيها العائد ، ويقل فيه مستوى السلعة بكثير عن مثيلتها الأجنبية . فهذا اهدار لطاقة شعبنا وحكم على مستقبله بالبوار .

ولعلى كنت من الكتاب القلائل الذين لم يكفوا عن التنبيه إلى ضرورة الاهتمام بتطوير الادارة في القطاع العام تطويراً حديثاً يواكب ما يجري في العالم المتقدم ، حتى يمكننا أن نلحق بالركب ، أو حتى نوقف هذا التدهور الفظيع في العملية الانتاجية . وكان ما طلبته في أحد مقالاتي هو أن ندير القطاع العام ادارة رأسمالية ١

ومن المعروف أنه لا مكان في النظم الرأسمالية لغير المنتج ، ولا مكان أيضاً لمن يخسر . فالعامل الذي لا ينتج ينذر مرات محددة ثم يفصل والرأسمالى الذي لا يربح أو يخسر يترك مكانه على الفور لمن هو أقدر منه على الربح وتعويض الخسارة . فالبقاء للأصلح دائماً ، وهو قانون حفظ للغرب الرأسمالى بقاءه حتى الآن في وجه النظم الاشتراكية ، وساعده على الانتصار عليها في كثير من الأحيان .

ولكننا في مصر جعلنا بعض شركات القطاع تكايا للعاطلين الذين لا يعملون بل يوقعون في كشوف الحضور والانصراف ، واستدمننا عليها إدارات فاشلة سنوات وسنوات حتى تراكمت خسائرها بالملايين . وقد كان من حق الرئيس مبارك أن يتساءل : لماذا تحقق شركة مثل شركة مصر للألبان خسائر بلغت ٨٠ مليون جنيه في العام الماضى بينما لا تخسر شركات الألبان الأخرى في القطاع الخاص ؟

والغريب أنه غير مطلوب من ادارة القطاع العام شيئاً أكثر من الحزم ،
وتطبيق القانون بدقة ، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، ووضع
مبادئ الادارة العامة الموجودة في الكتب موضع التنفيذ !

ولكن الكثيرين من رؤساء مجالس الادارات يخشون من شوشرة
الفاستدين ، وتشنيعاتهم في صحف المعارضة ، وشكاواهم إلى السلطات
العليا . كما يرتعدون حين تصل إليهم شكوى سطرها فاسد إلى رئيس
الجمهورية تطلب الرد عليها ! رغم روتينيته هذه الاجراءات . وكثيرون
يخشون أن يؤدي الحزم إلى تحركات عمالية تثير السلطات العليا ضدهم
وتدفعها إلى تغييرهم .

وهذا كله أدى إلى سقوط هيبة الادارة على كل المستويات ، حتى
أصبح الرؤوس في معظم الأحوال أقوى من الرئيس ، وأصبح اللص
أقوى من الشريف ! ومن لا يعمل أقوى ممن يعمل !

وقد انعكس ذلك على مستوى صناعة السلعة . فأذكر أنني حين
اشتريت منذ عام وبضعة أشهر سيارة نصر ١٢٨ وتسلمتها من مركز
غمرة ، كنت أتصور أنني أستطيع أن أسافر بها فوراً إلى الإسكندرية ،
اذ كان في ذهني ما أراه في الأفلام الأجنبية حين يشتري الفرد سيارة
ليقطع بها الولاية إلى ولاية أخرى ! ولكنني فوجئت بها تسير سير
السلحفاة ، و تكاد تتوقف في وسط الطريق ، واستطعت بصعوبة بالغة أن
أصل بها إلى شركة « مصريات » في مصر الجديدة للإصلاح !

وقد تعجبت في أثناء قيادتي لها في تلك الفترة العصيبة : كيف أمكن
قيادتها من المصنع حتى غمرة ؟ وكيف لم يبلغ السائق الذي قادها عما
بها من خلل فور وصوله حتى يمكن اصلاح هذا الخلل قبل تسليم
السيارة للعميل ؟ وقد اتصلت وقتذاك بمسئول كبير في شركة في شركة
النصر لصناعة السيارات أبلغه ما جرى وأنا حزين كل الحزن ، لأن
سمعة بلدي تجسدت وقتها في تلك السيارة .

وطوال فترة الضمان ، وهى ستة أشهر ، لم أكف عن الذهاب بها إلى شركة « مصريات » لاصلاح هذا الخلل أو ذاك ، حتى إن الشركة قامت فى احدى المرات بتغيير صندوق الجيربوكس (التروس) لتعذر الرجوع بالسيارة إلى الخلف . وفى أثناء تردى على الشركة كنت أرى كثيرا من الحالات ومتاعب أصحاب السيارات الجديدة ، كما قرأت فى الأهرام بعض الشكاوى المثيلة وما زلت أجرى عمليات الاصلاح فى السيارة كما لو كانت سيارة قديمة ! وكل ذلك مما يستحيل حدوثه مع ادارة رأسمالية

فلم نسمع أن سيارة إيطالية أو ألمانية أو فرنسية أو يابانية أو أمريكية تعطلت بعد خروجها من المصنع ، ولم توصل صاحبها لأبعد من عشرة كيلومترات ! والا أغلق المصنع أبوابه ، وتشرد عماله بعض أشهر وجيزة، لأن البقاء للأصلح .

وهذا كله يوضح أن الرقابة علي جودة الانتاج منعدمة تماما فى كثير من مصانع القطاع العام ، وهذا ما تراه حين تشتري أية سلعة ، فحين تنبه البائع إلى بعض عيوب السلعة يرد عليك بأن الأمر هكذا دائما ، وأن ما يقدمه لك أفضل الموجود ! ومعنى ذلك أنه لا توجد مواصفات عالمية ولا محلية !

وكل ذلك يؤدي إلى نتائج خطيرة أهمها : الانصراف عن السلعة الوطنية والاقبال علي السلعة الأجنبية لضمان خلوها من العيوب . ومعنى ذلك بوار الصناعة الوطنية وازدهار الصناعة الأجنبية ، ومعناه خسارة مصانع القطاع العام وربح المصانع الأجنبية !

أما النتيجة الثانية فهي زيادة تكاليف السلعة الوطنية عن تكاليف السلعة الأجنبية ، بسبب زيادة الفاقد فى الوقت والمواد الخام ، الأمر الذى يضطر بعض رؤساء مجالس الادارات إلى رفع سعر السلعة

لتحقيق ربح صناعى ، فيزيد العبء على المواطنين ، ويزيد سخطهم على الدولة ، ويفقد الثقة في الحاضر والمستقبل .
° أما النتيجة الثالثة فهي تدهور الانتاج ، وهو أخطر ما يصيب أمة من الأمم ، فالأمة التى لا تنتج تحكم على نفسها بالعدم .

قيادة ثورة ١٩١٩.. وتعماليم الميثاق *

الأستاذ سعد كامل كاتب ومفكر يساري أكن له التقدير والاحترام ، وتتميز كتاباته بعمق النظرة التحليلية التي تستند إلى التفسير المادي للتاريخ، وكنت أظن حتى الأسبوع الماضي فقط أنه يعرف تاريخ مصر معرفة تامة - على الأقل من مؤلفاتي التي تبلغ أكثر من عشرين كتابا - ثم اكتشفت أنه يعتمد في معرفة تاريخ مصر علي مصدر واحد فقط هو « الميثاق » !

فقد كتب الأستاذ سعد كامل مقالا في جريدة « الأخبار » يوم ١٠ يوليو ١٩٨٨ حفل بأخطاء تاريخية فادحة كنت أتمنى لو أنه تجنبها عن طريق تعلم التاريخ من كتب التاريخ ، وليس من الكتب التي تزور وتشوه التاريخ لخدمة أغراض سياسية ، مثل « الميثاق »

وربما كانت أفدح هذه الأخطاء هي التي كتبها عن ثورة ١٩١٩ ، والتي ردد فيها مفتريات الميثاق عن فشل هذه

* الوفد في ١٨ / ٧ / ١٩٨٨

الثورة ، وإلقاء تبعة فشلها على قيادة الوفد ! . فقد ورد فى مقاله هذه العبارة . « فشلت ثورة سنة ١٩١٩ بعد أن تهدنت قيادة الثورة مع الانجليز ، وارتضت بالفتات والشكليات : ملك بدلا من السلطان ، علم أخضر بدلا من العلم التركى ، وزارة للخارجية وبعض المناصب يتولاها المصريون بدلا من الانجليز . ولم تستطع ثورة ١٩ أن تستولى على الحكم، ولا أن تطرد الانجليز ، ولا أن تنهى الاقطاع » !

تبسيط شديد ، وتسطيح لتاريخ الحركة الوطنية ليس له مثيل ، ومسح لنضال الجماهير المصرية التى قدمت حياتها رخيصة فى سبيل الاستقلال والدستور ، لا يليق من كاتب يساري

فالسيد سعد كامل هنا لا يستطيع أن يعرف الفرق بين قيادة ثورة ١٩١٩، التى نسب اليها هذا التهادن ، والتى هى ممثلة فى الوفد وزعيمه سعد زغلول ، وبين القيادة التى انشقت على قيادة ثورة ١٩١٩ ، وعقدت هذا الاتفاق المتهادن ، وألفت فيما بعد حزب الأحرار الدستوريين - فالكل عنده سواء ، على نحو المثل الدارج . « كله عند العرب صابون » !

وطالما أن الأمر كذلك ، فالأستاذ سعد كامل لا يهتم أن يعرف أنه عندما عقد الاتفاق الذى حقق لمصر تلك المكاسب الشكلية . ملك ، وعلم ، ووزارة للخارجية - وهو اتفاق مشروع تصريح ٢٨ فبراير - كان سعد زغلول منفيا فى سيلان ! . وكان نفيه إلى سيلان مقصودا به عقد هذا الاتفاق المتهادن بالذات ، لأن وجوده فى مصر كان كفيلا باحباط المشروع

فالحركة الوطنية فى ذلك الحين كانت منقسمة بين التيار المتشدد - تيار الوفد الذى كان يقوده سعد زغلول - والتيار الذى كان يتكون من عدلى باشا وثروت باشا واسماعيل صدقى باشا وآخرين . وكان التيار الأخير مستعدا للتعاون مع الانجليز على أساس تنازلات صورية تصدر من جانب انجلترا وحدها ، دون حاجة إلى ابرام اتفاق مشترك أو

معاهدة. ولما كان وجود سعد زغلول حرا طليقا يمكنه من احباط هذا المشروع ، لذلك اعتزم اللورد ألنبي ازالة هذه العقبة ، وكتب إلى حكومته يدعوها إلى عمل الترتيبات لاعتقاله فى بعض الأملاك البريطانية فيما وراء البحار ، واقترح « سيلان » مكانا للنفى « لأنها مقرونة فى الأذهان باعتقال عرابى ، فمن شأن اسمها أن يحدث تأثيرا عظيما » ! وقد تم هذا النفى بالفعل يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ ، وبعد شهرين اثنين كان يصدر تصريح ٢٨ فبراير الذي أعطى مصر ملكا بدلا من سلطان ، ووزارة خارجية ، وعلماء.

هذا هو الدرس الأول فى تاريخ مصر للصديق سعد كامل أما الدرس الثانى ، فهو عن ردود فعل سعد زغلول والوفد لهذا الاستقلال الصورى فقد وقف الوفد من هذا الاستقلال منذ البداية موقف العداء الصريح ، وظل ينكره انكارا تاما فى كل المفاوضات التى جرت بينه وبين انجلترا ، وفى جميع المناسبات التى تطلبت من انجلترا الاشارة إليه .

فقد وصف سعد زغلول تصريح ٢٨ فبراير بأنه « أكبر نكبة على البلاد » ، وأنه « عبارة عن خدعة ، وعن وسيلة يراد بها الحصول على تصحيح مركز انجلترا فى مصر » ، وأنه اذا قبلت الأمة هذا التصريح ، فانها تقبل بهذا أن يكون لحكومة انجلترا حق مؤقت فى كل هذه الأمور ، وهذه الأمور عندما نبحثها نجدها ليست فقط حماية ، بل اشتراكا فعليا فى سيادة البلاد « ! فالذين يحاولون أن يترضوا الأمة عنه بطريقة أخرى ، إنما يحاولون خداعها أو اكراها . ولا تقبل الأمة أن تنخدع ، ولا يصح لها أن تنخدع ، ولا يصح لها أن تخضع لهذا الاكراه » !

و «إنى لا يمكننى ، بصفة كونى وكيلا عن الأمة، ولا بصفتى الشخصية ، أن أقبل هذا التصريح مطلقا ، والا كنت سابا للضحايا ، كنت قاذفا لأولئك الذين تبرعوا بأرواحهم فى حماية الوطن ، واستحققت أكبر العقاب منكم ومن الأجيال القادمة » ١ .

هذا هو موقف قيادة ثورة ١٩١٩ من الاستقلال الناقص الذى أتى به تصريح ٢٨ فبراير - قيادة أبعدت إلى سيلان لافساح السبيل إلى فرض هذا الاستقلال الناقص ، وهى لم تتردد فى إدانة هذا الاستقلال والتصريح الذى أتى به بكل ما وسعها من أدوات التعبير ، ومهاجمة الحكومة التى أتت على أساس هذا الاستقلال ، بل لقد ذهبت هذه القيادة الوفدية فى مهاجمة الحكومة والإنجليز إلى حد أن قبضت السلطة العسكرية البريطانية على أعضاء الوفد الموجودين فى مصر ، كانوا ثلاثة من المسلمين وأربعة من الأقباط (لمن يهمهم أمر الوحدة الوطنية !) فى يوم ٢٥ يوليو ١٩٢٢ ، وقدمتهم للمحاكمة ، وحكمت عليهم بالاعدام بتهمة طبع منشور يعرض حكومة جلالة ملك مصر للكراهية والاحتقار ؟

أقول : اذا كان هذا هو موقف قيادة ثورة ١٩١٩ ، الحقيقى ، المستقى من الوثائق التاريخية ، فما هو الوصف الصحيح الذى نصف به من يتهم هذه القيادة - زورا وافتراء - بأنها متهادنة مع الانجليز ؟ وإلى متى سوف ندير هذه الاسطوانة المشروخة كلما عقدنا مقارنة بين قيادة ثورة ١٩١٩ وقيادة ثورة يوليو ؟ أوليست قراءة التاريخ الصحيح أجدر بمن يتصدى للكتابة فى هذه المسائل الخطيرة التى تصنع الضمير الوطنى ؟ .

بقيت نقطة أخيرة ، هى قول الصديق سعد كامل - عند تعرضه لثورة يوليو - : « لأول مرة منذ قرون استطاع المصريون أن يمسكوا بناصرية الحكم » ! - هذا خطأ تاريخى يا سيدى ما كان يجب أن تقع فيه ! ، اذ كيف استطاع المصريون أن يمسكوا بناصرية الحكم فى ظل نظام دكتاتورى عسكرى ألغى مؤسسات الشعب الدستورية ، وأقام مكانها مجالس مزيفة شعبية زور لها الانتخابات وعين فيها الأنصار ، وأعطى القانون أجازة طويلة استمرت ثمانية عشر عاما ، وأقام المعتقلات لمخالفيه فى الرأى ؟ .

إن المصريين استطاعوا فقط أن يمسكوا بناصية عندما استطاعوا أن يفرضوا ممثليهم الحقيقيين فى البرلمان والحكومة من خلال انتخابات حرة ومن سوء حظ المصريين أن المدة التى أمسكوا فيها بناصية الحكم بهذا المعنى لم تتجاوز سبعة أعوام فى خلال سبعة آلاف عام ! - وهى المدة التى حكم فيها الوفد بارادة الشعب قبل ثورة يوليو ، وفيما عدا ذلك فقد ظل الحكم فى يد الأوليغاركية (الأقلية) التى تملك أو تسيطر ، سواء قبل ثورة يوليو ممثلة فى القصر وكبار الملاك ذوى النزعة الأوتوقراطية ، أو فى عهد ثورة يوليو ممثلة فى ضباط الجيش وأقربائهم ومحاسبيهم ! .

وهذا هو الدرس الثالث فى تاريخ مصر أقدمه للصديق سعد كامل !

الفصل الثامن
الحرب العربية
الباردة

مصر ليست مسئولة عن تمزق العالم العربي ! *

السيد اسماعيل فهمي ، وزير خارجية مصر الأسبق ، من الشخصيات السياسية التي أكن لها عميق الاحترام لأنه رفض أن ينفذ سياسة لا يرضى عنها ضميره الوطني، وقدم استقالته بشجاعة إلى الرئيس الراحل السادات، متنازلا اختيارا عن كل ما يتيح له منصب الوزارة من نفوذ وسلطان . ومثل هذا النوع من الوزراء نوع فريد في تاريخ وزارات ثورة ٢٣ يوليو ، التي حولت الوزراء إلى موظفين كبار يُؤمرون فينفذون ! . ومن هنا فقد دخل السيد اسماعيل التاريخ كرجل استطاع أن يقول كلمة «لا» في وجه الحاكم ، وتحمل في رضى كل ما يمكن أن يترتب على هذه الكلمة من نتائج .

على أن المشكلة هي أنه من الصعب على من قام بهذه التضحية ، وتنازل عن منصبه الوزاري دفاعا عن قضية عامة، أن يعترف بأنه كان في

الجانب الخطأ ، وكان الحاكم فى الجانب الصواب ١ . لأن هذا الاعتراف يضيف إلى التوضيحية التى قدمها شعورا غير مريح لصاحبه - وهو أن التوضيحية كانت بلا جدوى ، وأنها لم تخدم غرضا عاما من الأغراض ! . ومن هنا هذا الاصرار من جانب السيد اسماعيل فهمى على أنه كان على صواب ، وعلى أن التاريخ أثبت أنه كان على حق - على الرغم مما أثبتته التاريخ بالفعل من أنه كان على خطأ ! .

وقد كان ذلك فى معرض الحديث الذى أدلى به لجريدة «الوفد» فى عدد ٢٤ أكتوبر ١٩٨٥ ، فقد ذكر أنه قال للسادات فى استقالته بالحرف الواحد : «ان الذى سيحدث سيترتب عليه آثار خطيرة جدا على مصر وعلى العالم العربى» . ثم قال : « وكل الذى حسبته وقع بالضبط : النظام العربى كله تصدع ، لأن النظام العربى عبارة عن مصر + العالم العربى ، وليس العالم العربى + مصر» ! .

وكم كان بوى أن أترك للسيد اسماعيل فهمى هذا الاعتقاد ، ليحقق ما يريد من رضا نفسى ، لولا أن اعلان هذا رأى يضر بمصلحة مصر ضررا بليغا ، فوق أنه يخالف الحقيقة التاريخية التى تمخضت عنها الأحداث ، وهو - أكثر من ذلك - ينطلق من منطلقات فكرية قديمة يجب إنهاؤها الآن من حياتنا السياسية حفاظا على شخصيتنا القومية، وهى منطلقات زرعت فى أذهان شبابنا زمنا طويلا أننا عرب أولا ثم مصريون ثانيا ، بينما الحقيقة هى أننا مصريون أولا ثم عرب ثانيا ! .

أما أن هذا رأى يضر بمصلحة مصر السياسة ضررا بليغا ، فلأنه يبرر للعالم العربى سياسة العزلة التى يصر على فرضها على مصر على حساب كل مصلحة عامة ، والتى يقيمها على دعوى أن مصر هى سبب تمزق الوحدة العربية ، لأنها خرجت على الصف العربى، وأن عليها - بالتالى - اذا أرادت انهاء هذه العزلة أن تعود أدراجها إلى الوراء ، وتعلن توبتها وندمها على ما قدمت من سياسة لم تنل الاجماع العربى ، وتتخلى عن سياسة كامب ديفيد ! .

وهذا الرأى يضع السيد اسماعيل فهمى - من حيث لا يريد فيما أظن! - فى صفوف جوقة الصمود والتصدى ، وجوقة اليسار الأسمى التى تعزف على هذه النغمة منذ قيام السادات بمبادرته ، والتى تدير بها ظهرها إلى مصر ، وتولى وجهها شطر العالم الخارجى - شرقيا كان أو غربيا - مع أن الواجب الوطنى يقضى بتفهم وجهة نظر مصر ، وتحرى وجه الحق فيما تبتغيه من تحرير ترابها الوطنى ، الذى هو أغلى عندها من أى تراب .

ومع ذلك ، فلو كان هذا الرأى يتفق مع الحقيقة التاريخية لما تعرضنا له - علي الرغم من أن المثل الشعبى يقول : « انصر وطنك وظالما كان أو مظلوما » ! - ولكن هذا الرأى خاطئ ، وهذه الدعوى التى ترددها الدول العربية هى دعوى مليئة بالتغريب والكذب والنفاق ، فانقسام العالم العربى سابق على مبادرة السادات ، ومبادرة السادات - من ثم - هى نتيجة وليست سببا لهذا الانقسام . وهذا ما يجب أن يعرفه الذين يتقون الله فى مصر .

نعم ، ان ما يجب أن يعرفه المصريون هو أن العرب لم يتوحدوا على الإطلاق منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى : لا قبل ثورة ٢٣ يوليو ، ولا فى عهد عبد الناصر ، ولا فى عهد السادات . وأنهم لم يكفوا عن التطاحن والتحارب فيما بينهم حتى وقتنا الحاضر! ، وأنه لم تقم حرب عربية عامة ضد اسرائيل طوال ثورة يوليو ، بل حرب مصرية بالدرجة الأولى ، تسائدها دولة واحدة أو دولتان عربيتان .

فعلى الرغم من محاولات مصطفى النحاس لتحقيق شكل من الوحدة العربية - وهو الذى تمخض عن انشاء جامعة الدول العربية - الا أن حرب فلسطين رجعت بفكرة الوحدة العربية فى مصر إلى الوراء ، بسبب ما تعرض له الجيش المصرى من خيانات ، وتخلي بعض الجيوش العربية عن مواقعها التى كانت قد احتلتها - من غير ارغام اسرائيلى ! - مما

أفسح المجال أمام الجيش الاسرائيلي ليحتل تلك المناطق احتلالا سهلا ، ويتجه نحو الجنوب ويحارب المصريين ويجلبهم عن مناطقهم .

وبينما كان الاسرائيليون فى الفالوجة يحاصرون القوات المصرية - التى جاءت بناء على طلب العرب أنفسهم وتحقيقا لأوامر القيادة العربية ذاتها - كانت الحكومات العربية تتخلى عن مصر ، وأكثر من ذلك تبدي شماتتها فى الجيش المصرى ! . وهكذا لم تحقق حرب فلسطين الأولى أية وحدة حقيقية أو صورية ! .

وفى عهد عبد الناصر التفت الشعوب العربية حول الراية القومية العربية ، ولكن الحكومات العربية ظلت تناصب عبد الناصر العداء فى غالبيتها العظمى ، وتخشى من مشاريعه الوحدوية . وقد أطلق «مالكولم كير» على هذه المرحلة اسم «الحرب العربية الباردة» (من ١٩٥٨ إلى ١٩٧٠) التى بلغت ذروتها فى حرب اليمن .

وبعد هزيمة ١٩٦٧ ، توحد الموقف العربى مرة واحدة فقط فى مؤتمر قمة الخرطوم - أو مؤتمر اللاتات الثلاث - وبعدها تحلل من جديد . وحاول عبد الناصر عبثا أن يشد الحكومات العربية إلى عمل عربى موحد ضد اسرائيل ، ولكنه فشل فى ذلك .

وبلغ التمزق ذروته حين قبل عبد الناصر مبادرة روجرز ، فانطلقت الأنظمة العربية تزايد عليه ، وظهرت جبهة صمود وتصدى ضده من سوريا والعراق والجزائر ، ترفع شعار الحرب الشاملة . دون أن تحارب!، مما دعا هيكى - باسم النظام الناصرى - إلى محاجة هذه الدول بقوله : «إذا كان على مصر أن تحارب ، فأبسط شئ أن يكون لمصر حق الاختيار ، ولا يمكن أن يفرض عليها مخطط وتوقيت» إلى آخره . وفى هذه الفترة ضربت المقاومة الفلسطينية ضربتها القاصمة فى أيلول ١٩٧٠ .

وفى عهد السادات حاول شد الحكومات العربية إلى عمل عربى ضد اسرائيل لتحرير الأراضى المحتلة ، ولكنه فشل فى ذلك فشلا ذريعا ، وقد زار الفريق الشاذلى كلا من الجزائر والعراق والمغرب لبحث توصيات مجلس الدفاع العربى المشترك بدعم دول المواجهة العسكرية ، ولم تثمر زيارته أية فائدة ، فى الوقت الذى كانت العلاقات بين مصر وليبيا متوترة بسبب عدم الاستجابة لضغوط الوحدة . وبنت مصر خطتها العسكرية على أساس الحرب وحدها دون اشتراك أية دولة عربية، على أمل أن يتمخض عن ذلك اشتراك العرب فى المعركة مع مصر .

وقد عبر السادات عن ذلك فى اجتماع ٢٤ أكتوبر ١٩٧٢ التاريخى بقوله لقادته العسكريين : «ستكون المعركة مصرية أساسا ، وسوف يقف العرب موقف المتفرج فى البداية ، ولكنهم سوف يجدون أنفسهم فى موقف صعب أمام شعوبهم ، فيضطروا إلى أن يغيروا موقفهم » ! .

وقد حقق النصر الأسطورى للجيش المصرى - بعبور القناة وتحطيم خط بارليف - توحدا فى الصف العربى ، فاستخدم العرب سلاح البترول، مما دفع البعض إلى القول بظهور قوة عالمية سادسة ، ولكن وحدة الصف تمزقت بعد ابرام مصر اتفاق فك الاشتباك الأول بين مصر واسرائيل يوم ١٨ يناير ١٩٧٤ ، وبدأت حملة الاساءة إلى مصر .

فقد اتهم حافظ الأسد مصر بأنها خانت القضية العربية بصفة عامة، وخانت سوريا بصفة خاصة ! . (يعترف اسماعيل فهمى فى مذكراته بأن هذه الحملة لم يكن ثمة مبرر لها) . ثم تفاقم ذلك بعد اتفاق فك الاشتباك الثانى ، وانضم ياسر عرفات والمنظمة إلى سوريا ، وظهر فى العالم العربى ما عرف باسم جبهة الرفض ! .

فى ذلك الحين كان العالم العربى ينقسم إلى كتل متصارعة متحاربة حول مشاكل لا تمت للصراع العربى الاسرائيلى بصلة ! ، فقد نشب الصراع فى المغرب العربى بين كل من الجزائر والمغرب وموريتانيا حول الصحراء المغربية ، كما نشب فى الوسط المغربى بين ليبيا وتونس ، ونشب

فى المشرق العربى بين سوريا والعراق والأردن ولبنان ، ثم نشب فى الجنوب بين اليمن الجنوبية واليمن الشمالية ، ثم بين نظام عدن والصومال ، وبينه وبين المملكة العربية السعودية ، ثم بينه وبين السودان ، ثم بينه وبين العراق ، فضلا عن نزاع الجمهورية الصومالية مع جارتها اثيوبيا ، والنزاع بين العراق وايران - وكل ذلك على حساب أولويات تحرير الأراضى العربية المحتلة من قبل اسرائيل منذ حرب يونيه ، وعلى رأسها سيناء .

ومنذ عام ١٩٦٧ تمزقت جبهة المواجهة ضد اسرائيل ، دون أن يكون لمصر يد فى ذلك من قريب أو بعيد .

ففى يونيه ١٩٧٦ أخذ النظام السوري يصعد تدخله العسكري فى لبنان ، ويدفع بقواته إلى لبنان (لا إلى اسرائيل!) بعد أن كانت معظم أراضيه فى يد القوات الوطنية التقدمية والفلسطينية . وفى يوليو ارتكب مذبحه تل الزعتر ، فانهار لبنان مع انهيار القوات الوطنية التقدمية ، وانفتح الباب للتدخل الاسرائيلى فى جنوب لبنان ، وتحولت المقاومة الفلسطينية من الهجوم إلى الدفاع ، وبذلك تفسخت الجبهة الشمالية تماما! .

ولما كان الانهيار والتفكك والتدخل فى الموقف العربى من شأنه أن يستبعد تماما فكرة حرب شاملة تشترك فيها الجيوش العربية ضد اسرائيل ، فقد كان الحل الآخر والوحيد هو الحل السلمى ، وهذا ما دعا السادات إلى التفكير فى مبادرة القدس .

وقد كان هذا ما أثار اعتراض السيد اسماعيل فهمى ، وقدم من أجله استقالته ! . فلقد كان السيد اسماعيل فهمى يعول فى ذلك الحين على الحل مع الولايات المتحدة ، فهو أحد مهندس التقارب المصري الأمريكى . ولكنه كان بذلك يقع فى خطأ فادح وخديعة كبرى ، فلم يكن من مصلحة الولايات المتحدة فى أى وقت احلال سلام فى هذه المنطقة العربية ، وكانت سياستها فى ذلك الحين قائمة على التسويق . وهو ما

أدركه السادات ، ولذلك رأى القفز من فوق الموقف الأمريكي إلى الاتصال المباشر مع إسرائيل لفرض الأمر الواقع عليها ، وهو موقف صائب . ويعترف اسماعيل فهمي في حديثه للوفد بأن مبادرة السادات «قوضت السياسة الأمريكية من جذورها بالنسبة لرؤيتها في حل مشكلة الشرق الأوسط» - طبقا لما اعترف به الأمريكان أنفسهم - ويقول في موضع آخر إن «السادات بذهابه إلى القدس قوض جميع المشاريع الأمريكية وغير الأمريكية للسلام» .

المشكلة - إذن - هي في أن السيد اسماعيل فهمي كان يراهن على السياسة الأمريكية ، يتوقع منها الخير وأن تكون في صالح مصر والعالم العربي ، وهو وهم كبير ما زال العالم العربي يقع فيه لأن الولايات المتحدة لن تتجه لتحقيق السلام الا إذا كان العالم العربي متحدا، وكان في امكانه التأثير على مصالحتها - وهو أمر مستبعد إلى نهاية هذا القرن على الأقل ! . فلما رأى اسماعيل فهمي السادات يتجه مباشرة إلى إسرائيل ظن أنه تنكب الطريق الصحيح - الطريق الأمريكي ! .

ولكن السادات فرض موقفا جديدا وخطيرا بمبادرته الجريئة على السياسة الأمريكية لم تكن مرتاحة اليه في البداية ، ثم أخذت تحتويه بعد أن وقفت الحكومات العربية موقفها الغبائي المعروف - الموقف الذي يعول على السياسة الأمريكية في حل مشكلة الأراضي العربية المحتلة وحل قضية فلسطين . ففقدت فرصة تاريخية كانت جديرة - من خلال الاتصال المباشر بإسرائيل - أن تحقق انجازات هامة ، لأن في إسرائيل لتخلي قوى على استعداد للتخلي عن الأراضي المحتلة مقابل السلام والحفاظ على الهوية الاسرائيلية والنظام الديموقراطي الاسرائيلي ، ولا توجد مثل هذه القوى في الولايات المتحدة، التي تقوم سياسة حكومتها على مبدأ فرق تسد وتغذية الحريق الناشب في المنطقة العربية سواء عن طريق الصراع العربي الاسرائيلي ، أو عن طريق الصراعات العربية ، أو عن طريق الصراع العراقي الايراني ! .

وسواء اتفق السيد اسماعيل فهمي معي في هذا التحليل ، فان الشيء الذى لا يستطيع أن يجادل فيه هو الحقائق التاريخية التى أوردناها ، والتى تثبت بصورة دامغة وحاسمة أن العالم العربى لم يتمزق بعد كامب ديفيد ، وانما كان ممزقا بالفعل ! ، وأن كامب ديفيد كانت نتيجة لا سببا !

وقد كان من حق مصر أن تجتهد ، وتختار الطريق الذى تراه فعلا فى تحقيق الجلاء الاسرائيلى عن أرضها ، دون انتظار لتلقى هذا الأمر من أية جهة عربية أخرى . وأن ترد علي من شنوا عليها أشنع الحملات بمثل ماُرد به النظام الناصرى على خصومه فى البلاد العربية الأخرى ، عندما قبل مبادرة روجز بقوله : « ان الذين لا يحاربون ليس من حقهم أن يعلموا غيرهم ممن حاربوا فعلا» ، وأنه «اذا كان علي مصر أن تحارب فأبسط شيء أن يكون لمصر حق الاختيار، ولا يمكن أن يفرض عليها مخطط وتوقيت » !.

ومن هنا فإنى أناشد السيد اسماعيل فهمي ، وأناشد كل الذين يعززون حجة الحكومات العربية فى عزل مصر ، ويسلمونها الأسلحة التى تكرر بها هذه العزلة ، وتضلل بها شعوبها العربية - بأن يتقوا الله فى مصر ، فنحن مصريون أولا ! .

الجامعة العربية « عتبة أم عقبة » في طريق الوحدة ؟

قليل هم الأمراء في عالمنا العربى المعاصر ، الذين يشغلون أنفسهم بالأعمال العلمية وتأليف الكتب فى تخصصاتهم . وقد كان من أمراء مصر الذين عملوا بالتأليف الأمير عمر طوسون ، الذى قدم مؤلفات تاريخية على جانب عظيم من الأهمية لما تحوي من وثائق ؛ وهى تعتبر من المصادر التى يرجع اليها المؤرخون ، وعلى رأسها « تاريخ مديرية خط الاستواء » و « مالية مصر من عصر الفراعنة إلى الآن »

وفى المملكة الأردنية الهاشمية يمثل الأمير الحسن بن طلال ، ولى عهد المملكة ، هذا الطراز الفريد من الأمراء العلماء ، فهو يقود حركة ثقافية وعلمية على جانب كبير من الأهمية سوف ألقى عليها الضوء فى فرصة قريبة ، وقد صدرت له عدة مؤلفات ، منها القدس ، دراسة للضفة الغربية وقطاع غزة «

أكتوبر فى ٢٣/٣/١٩٨٦

و «السعى نحو السلام ، سياسة الوسطية فى الشرق العربى » ، وهى مؤلفات تتميز بالعلمية وبالرأى أيضا ، كما تعكس نظرة مؤلفها النافذة فى أمور العالم العربى ، بحكم مركزه السياسى الرفيع . ومن هنا كانت مضاعفة أهميتها للقارئ العادى والباحث معا .

وقد اخترت الأخير : « السعى نحو السلام ، سياسة الوسطية فى أمور العالم العربى » الذى صدر فى عام ١٩٨٥ ، لأقدم للقارئ رؤية الأمير العلمية والسياسية لأوضاع العالم العربى السياسية التى قادته إلى مأزقه الراهن ، والتى حلها بدقة علمية جديرة بالتقدير والاعجاب .

ومع أن الأمير تتبع جذور الواقع العربى إلى أصوله الأولى فى قلب التاريخ العربى حتى فجر القرن العشرين ، وظهور فكرة القومية العربية لدى العرب ، وثورة الشريف حسين العربية ، ثم تشكيل الكيانات السياسية المنفصلة للدول العربية ، وبرز قضية فلسطين مع ظهور الخطر الصهيونى - فإن العرض الذى سوف أقدمه فى هذا المقال يتجاوز ذلك كله - لضيق المجال - ويبدأ من أهم حدث معاصر فى حياة الأمة العربية ، وهو إنشاء جامعة الدول العربية .

إذ يستلقت نظرنا من دراسة الأمير الرأى الهام الذى يقيم به جامعة الدول العربية ، والذى يرى فيه أنه على الرغم من أن إنشاء الجامعة العربية قد جاء « كخطوة أولى لتحقيق الوحدة المنشودة ، فلم تعد - حتى يومنا هذا - عن كونها عقبة فى سبيل تحقيق الغاية التى أنشئت لأجلها » !

فقد اعترفت الجامعة العربية بسيادة الدول الأعضاء ، وحملت على عاتقها مهمة حماية وحدة أراضيها الإقليمية . كما استند ميثاق جامعة الدول العربية إلى فكرة الإجماع فى الاتفاق على جميع القضايا ، مما جعلها تستحق الوصف الذى أطلقه عليها الملك عبد الله ، وهى أنها «جسم له رؤوس » ! وجعلها - منذ بداية أمرها - « جامعة محدودة الفاعلية و القوة ، وهى فى بعض الأوقات تكاد تكون بلا حراك ! بل إن

ما فعلته فى سبيل توحيد العرب أقل مما فعلته فى تكريس أوضاعهم الانقسامية « !

وقد انتقد الأمير الحسين بشدة فكرة الإجماع الذى قام عليه ميثاق الجامعة العربية ، وهدد بأنه ما لم يتغير هذا الأساس فى اتخاذ القرارات ، « فإن الدول العربية ، ذات التفكير المتشابه ، قد تضطر إلى التصرف تصرفا مستقلا عن مداولات الجامعة وقراراتها » .

وقال الأمير الحسن فى كتابه إن الجامعة العربية ، على الرغم من اضطلاعها بدور إيجابى فى تحقيق استقلال الدول العربية ودول العالم الثالث ، فإنها كانت بعيدة عن تحقيق الوحدة السياسية ، إذ كان حمسها لهذه القضية ضئيلا ! . ثم إن اخفاقها المتكرر فى معالجة قضية فلسطين ، ولا سيما بعد نكبة عام ١٩٤٨ ، حط من قدر الجامعة .

وقد تتبع الأمير الحسن التطورات التى لحقت بالعالم العربى نتيجة هزيمة العرب فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، فذكر أن الصدمة التى سببتها الهزيمة أطاحت بجميع النظم الحاكمة فى الشرق العربى تقريبا فى غضون السنوات العشر التالية ، عن طريق انقلابات عسكرية اتسمت بالعنف . وأدت إلى صبغ القومية العربية بالصبغة الراديكالية .

ففى عام ١٩٤٩ تعرضت سوريا لانقلاب عسكرى ، ثم أطيح بالنظام الجديد فى غضون بضعة أسابيع ، بسبب عدم البت فيما إذا كان على سوريا أن تتحد مع الأردن ، أو مع العراق ، أو تبقى مستقلة ومتحالفة مع مصر والمملكة العربية السعودية ؟ . ثم تعرضت لانقلاب ثالث تسبب فى مزيد من الزعزعة لاستقرار المنطقة العربية بأسرها . وفى عام ١٩٥١ اغتيل رياض الصلح ، رئيس وزراء لبنان ، فى أثناء زيارته للأردن .

وبعد ذلك بأيام اغتيل الملك عبد الله ، ملك الأردن ، فى القدس . وفى عام ١٩٥٢ قامت حركة الضباط الأحرار فى مصر بخلع فاروق وتولية ابنه الطفل مكانه . كخطوة أولى فى سبيل إلغاء الملكية التى تم فى

عام ١٩٥٣ . أما العراق والسودان فكان عليهما الانتظار إلى عام ١٩٥٨ !
ولم يلبث مفهوم الوحدة العربية أن تعرض لتغيير آخر راديكالي
(جذري) ، وذلك « بحقن » برنامج عمل القومية العربية بفكرة الاشتراكية
الثورية ، باعتبارها عنصرا سياسيا فيه ، وبدأ التفكير الاشتراكي
والسياسات الاشتراكية تلقى ظلالة كثيفة على العداء القومى للعالم
الغربي ، وقد ظلت الصرخة التي يجتمع الناس حولها هي معاداة
الاستعمار ، ولكنها ازدادت اقترانا بتأكيد الأفكار السياسية الراديكالية ،
التي تبناها أساسا النظام الجديد في مصر ، والجماعات القومية مثل
حزب البعث السوري .

ومع تغير الاتجاه الايديولوجي للحركة القومية - الذي أصبح
انعكاسا لصورة المصالح المتضاربة للأنظمة العربية المتباينة - بدأت تظهر
في صفوف العرب تصدعات هائلة ، وتعذر تكوين وجهة نظر مشتركة
بشأن زعامة العرب السياسية .

وقال الأمير الحسن ، إنه مع ذلك ، وعلى الرغم من انقسام العالم
العربي إلى دول « رجعية » ودول « ثورية » فإن حقيقة الأمر أن هذا
التقسيم كان يخلو مكانه بين الحين والحين للضرورات السياسية
ولمصالح الحكام العسكريين وللاعتبارات التي تناسبهم ! .

والمثال ما حدث في النزاع بين العراق ومصر حول الموضوع المتعلق
باستقلال دولة الكويت ، فقد كان النظام في كل من العراق ومصر - منذ
ثورة تموز ١٩٥٨ - عسكريا ثوريا مسرفا في النضالية والعداء للغرب ،
ومع ذلك فقد انتعشت المنافسة التقليدية بين بغداد والقاهرة للظفر بزعامة
الشرق العربي !

وقد جاءت الوحدة المصرية السورية في عام ١٩٥٨ أمانة على إنتهاء
عصر وإبتداء آخر . فقد كانت تتطلع إلى تطبيق نظام سياسى جديد
مستعار من شرق أوروبا بعد تطويعه ، يقوم على التنظيم النقابى ، ونظام
الحزب الواحد ، والحكم الشمولى .

على أن هذا النموذج الجديد لم يقدم الحل الأمثل ، فقد اتضح للجميع أنه إذا كان النظام القديم القائم على النظام السياسى الغربى والديموقراطية الليبرالية قد أخفق ، « فإن النموذج الجديد قد أصبح أداة للقمع وإخماد الأنفاس . ومع التضائل المطرد فى القدر اليسير المتاح من الحرية الفردية ، ومع انهيار الاقتصاد القومى ، وتزايد المنازعات والتراشق بالاتهامات بين العرب ، أصبح الحال لا يطاق . وقد بلغ هذا الاتجاه الجذرى فى السياسة العربية ذروته ، ولقى حتفه فى حرب حزيران (يونية) عام ١٩٦٧ ، واحتلال اسرائيل لمساحة من الأراضى فاقت كل توقعات أشد العرب تطيرا وتشاؤما » .

والحقيقة ان الفترة فيما بين عامى ١٩٥٨ و١٩٦٨ كانت فترة « اتصل فيها التنازع بين العرب ، وتبديد ثرواتهم . وانشغل العرب بجدل عقيم حول ما يتعين عليهم أن يصنعوه بعدوهم ، عوضا عن ان يشغلوا أنفسهم بما يستطيعون صنعه لأنفسهم ! » .

وفى عام ١٩٦١ انفصمت عرى الجمهورية العربية المتحدة بانفصال سورية عنها عقب انقلاب ، وتراجع عبد الناصر وراء متاريس إعادة البناء الاشتراكى فى الداخل .

وقد تمخضت الانقلابات التى وقعت فى بغداد ودمشق فى عام ١٩٦٣ ، بقيادة أعضاء حزب البعث والمتعاطفين مع عبد الناصر ، عن إجراء محادثات حول إعادة إقامة وحدة ثلاثية ، ولكنها لم تنجح .

وفى ظل هذه الأوضاع نامت المحاولات الخاصة باستحداث عملية سياسية لحكم المجتمع العربى ، نوما عميقا ، وبحلول عام ١٩٦٤ واجه الشرق العربى من جديد ما أصبح يعتبر ظاهرة مألوفة ، وهو انهيار كل صورة من صور الوحدة أو التضامن أو التفاهم المشترك بين العرب .

ومن جديد أصبح العالم العربى فى حالة بلبلة تامة ، اذ اختفى القاسم المشترك الذى كان يقرب بين ما يسمى « بالدول الثورية » « الدول

الرجعية « - فكانت سورية فى عراق مع مصر والعراق ! ، وكانت المملكة العربية السعودية فى تناحر مع مصر بسبب اليمن ، وكانت الجزائر تحارب المغرب ، وكان المغرب ساخطا لاعتراف تونس بموريتانيا .

وفى خضم هذه البلبلة وسوء الفهم حدث تحول جديد يندرج بسوء العاقبة فى الأحداث التى تجرى فى فلسطين ، تمثلت فى مشروعات إسرائيل لتحويل روافد نهر الأردن ، وتزايد المصادمات شراسة على كل من الجبهتين الأردنية والسورية .

وفى أواخر عام ١٩٦٣ دعت مصر إلى عقد مؤتمر قمة عربى للتداول فى هذا الوضع الخطير . وقد أصبحت مؤتمرات القمة مظهرا دائما من مظاهر السياسة العربية ، وهى فى الواقع بديل عن الدورات العادية لجامعة الدول العربية .

وقد تميزت هذه المؤتمرات الأولى بغموض الغرض منها ، وافتقارها إلى الإعداد اللازم ، سواء بحثت قضية حقوق مياه نهر الأردن ، أو موضوع الفدائيين الفلسطينيين . وقد كانت النتيجة الملموسة الوحيدة لها هى انشاء منظمة التحرير الفلسطينية فى عام ١٩٦٤ .

بيد أن مؤتمرات القمة - التى عقد منها اثنا عشر مؤتمرا فى السنوات العشرين الأخيرة - لم تسفر عن تحسين فى الوضع المنكوب للفلسطينيين ، ولا احتوت حركتهم الوطنية ، ولا أشبعت أمانيتهم السياسية ، ولا حالت (وهو الأكثر دلالة) دون قيام حروب مع إسرائيل ، فى عامى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، أو الحرب المتطاولة والأوسع تدميرا فى الخليج بين بلدين إسلاميين ، أو الدمار الوحشى المفجع فى لبنان ، فأصبحت المنطقة مهددة بحرب من الخارج ، وبتجزئة فى الداخل .

وعلى هذا النحو استهلكت الحرب ، وعدم الاستقرار ، والنزعة الراديكالية (المتطرفة) طاقات الشعب العربى ، وأدى إنكار الحقوق المشروعة ، وغياب المؤسسات العامة القادرة على حماية التكوين المتعدد

للمجتمع العربى ، والمحافظة عى تنوعه العرقى والدينى ، إلى السماح للتطرف الجامح بالهيمنة على إدارة الشئون العامة ، كما أضافت سياسة التعصب إلى الصراع الاجتماعى و إلى إستقطاب الجماعات بَعْدَ جديداً .

وبسبب انقضاء مدة طويلة جدا دون ايجاد حل لقضية فلسطين ، أصاب الفساد والتسمم كل تطور إيجابى فى السياسات المحلية ، لا فى الدول العربية فحسب ، بل وفى اسرائيل أيضا ! ونذر أن صارت المنطقة تحت سطوة تهديد بالبلقنة وبسياسة التجزئة كما هو شأنها اليوم .

وقد تناول الأمير الحسن بن طلال فى كتابه أزمة المقاومة الفلسطينية ، فأوضح بذكاء أنها قامت نتيجة مباشرة لتغلب الصبغة الراديكالية على العمل السياسى العربى ، وقال إنه كانت للفدائيين مصلحة ثابتة فى اشتداد الراديكالية العنيفة التى تضمن لهم البقاء . فبعد انقضاء حوالى خمسة عشر عاما من تشتت الفلسطينيين ، رأى الكثيرون منهم أن الدول العربية قد اسادت إلى قضيتهم الوطنية عندما كانت تتصرف باسمهم وتدافع عنهم . لذلك اتفق رأى جماعات الشباب الفلسطينيين على تبنى طريقة جديدة فى النضال لاسترداد فلسطين ، وسعى هؤلاء إلى أخذ زمام المبادرة فى النضال الوطنى فى أيديهم ، واسترداد حقهم فى التحدث باسم شعبهم . وتقرير مصيرهم ، وتأكيد هويتهم الوطنية كفلسطينيين وكعرب أيضا ، ولكن وعيهم يختلف عن الوعى العربى التقليدى ويستقل عنه ، اذ هو وعى يقوم على انتمائهم إلى أرض معينة هي فلسطين يقترن اسمهم بها . وكانت نتيجة هذا التأكيد دعوتهم الفلسطينيين إلى حمل السلاح ومنازلة العدو الاسرائيلى . على أن الأمر الذى لم يدخله الفلسطينيون فى الحسبان هو الملابس الخطيرة التى ستجرها أعمالهم ، إذ لم يكن يسعهم التصرف كأفراد أحرار ومستقلين ، فهم فى الجوهر فلسطينيون ، ولكن وضعهم فى جميع الدول العربية - باستثناء الأردن الذى منحوا فيه حق المواطنة

كاملة - كان وضع لاجئين . ومهما يكن تعاطف مضيفيهم مع قضية الفلسطينيين ، فانهم لم يكن فى وسعهم تعريض مصالحهم الوطنية للمخاطرة ، أو التخلّى عن التزاماتهم الدولية .

وقد اتضح لجميع الدول العربية أن الاستراتيجية الجديدة للمقاومة الفلسطينية هي بمثابة دعوة إلى خوض حرب جديدة مع اسرائيل ، لم تكن الدول العربية مستعدة لها ، بسبب افتقارها إلى الاستعدادات العسكرية وانعدام وجود استراتيجية عربية مشتركة .

و الأمر الذى يستلقت نظرنا من هذا العرض العلمى الذى قدمه الأمير الحسن هو ما دلل عليه من غياب الوحدة من تاريخ العرب المعاصر! حتى إن الأمير الحسن يعتبر أن انشاء جامعة الدول العربية. الذى جاء كخطوة أولى فى سبيل الوحدة ، قد تحول إلى عقبة فى سبيل الوحدة ، وأن الجامعة قد فعلت فى سبيل تكريس أوضاع العالم العربى الانقسامية أكثر مما فعلته فى سبيل وحدتهم !

وهو رد علمى على فريق المزايدىين المصريين والعرب الذين يحاولون تصوير العالم العربى قبل مبادرة الرئيس السادات بأنه كان عالما موحدًا حتى جاءت المبادرة فقسمته ومزقته شذرا مذرا ! وهو ما أشرنا إليه فى بعض مقالاتنا السابقة بقولنا إن كامب ديفيد كانت « نتيجة » - وليست « سببا » - لانقسام العالم العربى .

الموضع العربي والأقلية الصاخبة !

في مقالنا السابق عرضنا رؤية
الأمير الحسن ، ولي عهد الأردن ، في
كتابه الهام « السعي نحو السلام ،
سياسة الوسطية في الشرق العربي »
لأوضاع العالم العربي وتطورها
التاريخي .

ومنها رأينا كيف فشل العرب في
تأسيس وحدتهم ، وكيف حافظوا على
أوضاع التمزق التي خلفها الاستعمار ،
بل ان جامعة الدول العربية التي أقامها
العرب كخطوة نحو الوحدة ، فعلت في
تكريس الانقسام ما لم تفعله في
سبيل الوحدة ! .

وقد قدمنا هذه الرؤية التاريخية
الصادقة لنرد على مزيغي التاريخ ممن
صوروا العالم العربي قبل مبادرة
الرئيس السادات في صورة العالم
الموحد حتى جاءت المبادرة فقسمته !

ويقول الأمير الحسن إن فكرة
القومية العربية ظلت لدى العرب فكرة

أكتوبر في ٣٠ / ٣ / ١٩٨٦

غامضة نوعا ما بل مشوشة . وسبب هذا التشويش هو أن معظم القومية العربية حاولوا مرارا وتكرارا النظر إلى تاريخ العرب لا في الحاضر ، بل في قالب المستقبل ، واستمسكوا دوما بحجتهم القومية العربية لن تقوم لها قائمة إلا إذا توافقت صورة الماضي الإلهي بأسره مع التصور الذي وضعوه للحاضر والمستقبل ، فحاولوا الماضي بشكل يبرر هذه النظرة ، وبذلك جنحوا إلى معاملة العربي ، لا كما هو ، بل كما ينبغي أن يكون . فبدت مشاعر الخيبة أحست بها الأجيال المتعاقبة من العرب ، وكأنها جزء لا يتجزأ من التفكير هذا . وبانعدام الأسس السليمة ، أخفقت محاولات إعادة أساس للأمة العربية .

وتطلعا من منظري القومية إلى قولبة الماضي للتمشي مع قد المستقبل ، اعتبروا كل ما ورد في تاريخ الإسلام الطويل من تأكيد سيطرة عربية ، دليلا على هذه القومية . ومؤدى هذا في واقع الأمر الإسلام إنما يتحول من كونه دينا عالميا يدعو إلى المساواة بين الناس وهو ما ابتغاه الرسول (صلى الله عليه وسلم) للإنسانية جمعاء - إلى سمة تد على الحياة القومية العربية وحدها ! . أما الحركات التطهيرية المختلفة ، التي كانت غايتها الوحيدة العودة بالإسلام إلى ما كان من نقاوة وبساطة - ابتداء من حركة الوهابيين في نجد ، إلى الحركة الشعبية في الثمانينات من هذا القرن - فقد أولها القوميون عذرا جوهري من الوعي القومي العربي .

على أنه عندما تحدث الأمير الحسن عن « السعي نحو السلام يتحدث عن مبادرة القدس التي قام بها الرئيس الراحل السادات تجاوز ذلك وتحدث عن اتفاقيات كامب ديفيد !

وهي قفزة كنا نود لو تجنبها ، لأن اتفاقيات كامب ديفيد ليس مبادرة القدس ، وإنما هي نتيجة موقف الدول العربية من مبادرة إسرائيل وظهور جبهة الصمود والتصدي ، ومحاولة العرب عزل السادات طريق رميته بالخيانة والتخلي عن القضية الفلسطينية والدول العربية

فقد قطعوا عليه - بذلك - خط الرجعة عندما اصطدم بالتعنت الاسرائيلي ، لم يجد بدا من المضي في مسيرته على أساس حل مصرى اسرائيلي بالدرجة الاولى ، وليس على أساس حل عربى اسرائيلي كما بدأ مسيرته !

ومن ناحية أخرى فان اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في جبهة الصمود والتصدي قد استبعدها - من الناحية الفعلية - من التسوية التي قدمتها اتفاقيات كامب ديفيد . ومن هنا حققت اتفاقيات كامب ديفيد سلاما جزئيا بين مصر واسرائيل ، ولم تحقق سلاما شاملا بين العرب واسرائيل ، لسبب بسيط هو أنها عُدت بين مصر واسرائيل ، ولم تعقد بين العرب واسرائيل !

وعلى ذلك فإن المنطق الذي قدمه الأمير الحسن لرفض الأردن اتفاقيات كامب ديفيد ، كان - في هذا الضوء - منطقا معقولا ، فقد أقامه على أساس أن الصيغة التي وُضعت أزاحت قضية فلسطين جانبا ، واستهدفت تحقيق سلام جزئى بين اسرائيل ومصر ، وأن الاطار الذي ورد في الاتفاقيات لتسوية القضية الفلسطينية قد برهن فعلا على عدم جدواه ، اذ تم التخلي عن المحادثات المقترحة حول الحكم الذاتى للأراضي المحتلة .

على أن الأمير الحسن بنى على تحييد مصر - نتيجة توقيعها على اتفاقيات كامب ديفيد - تحول الميزان الاستراتيجى لمصلحة اسرائيل ! وهو ما يمكننا أن نرد عليه بالتساؤل التالى :

هل كان الميزان الاستراتيجى لمصلحة العرب عندما كانت سيناء تحت الاحتلال الاسرائيلي وعندما كان هذا الاحتلال يشل طاقة مصر فى كافة المجالات ؟

فى الواقع أن الميزان الاستراتيجى قد تحول لمصلحة اسرائيل منذ فرضت قبضتها الاحتلالية على كل من سيناء والجولان والضفة الغربية

وغزة فى حرب يونية ١٩٦٧، ومنذ فشل العرب فى تحرير هذه الأراضى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ فيما عدا خمسة عشر كيلو مترا على طول القناة حررتها القوات المصرية .

وقد تأكد هذا الميزان لصالح إسرائيل عندما انقسم العرب فى أعقاب الحرب مباشرة ، وظهرت قوى الرفض لاتفاقية سيناء ، ولم يجمع العرب صفوفهم بشكل جدى ، ولم يحاولوا التأثير فى الميزان الاستراتيجى لصالحهم عن طريق التفوق العسكرى .

بل لقد فقدت مصر مصدر السلاح السوفيتى بعد الخلاف مع الاتحاد السوفيتى حول قضيتى جدولة الديون وتعويض الأسلحة التى فقدت فى حرب أكتوبر . ولم يكن السلاح الغربى - التى أخذت فى ابتياعه من أمريكا وأوروبا - ليكفل لها أى تفوق عسكرى على إسرائيل . ولما كانت مصر أكبر دولة عربية تهدد إسرائيل تهديدا حقيقيا ، فكأن فاعلية مصر العسكرية فى التأثير على الميزان الاستراتيجى كانت فاعلية شبه معدومة . وما يقال عن مصر يقال عن بقية الدول العربية .

وإذا سلمنا بهذه الحقيقة ، وهى أن مصر ، بعد أن خرجت الجيوش الإسرائيلية من سيناء ، قد أصبحت أقوى عسكريا - فكأن الميزان الاستراتيجى يكون قد تحول قليلا لصالح العرب .

ولا أهمية فى هذا الشأن لحجة تحييد مصر ، لأن كل الدول العربية - من الناحية الفعلية - محايدة فى الصراع العربى الإسرائيلى ! ، فلا يوجد أى مخطط من أى نوع لشن حرب ضد إسرائيل ، بل لقد وقف الجيش السورى الذى يحتل لبنان موقف الحياد أثناء الغزو الإسرائيلى للبنان ! وما زال يقف محايدا !

وصحيح أن إسرائيل قد أمّنت جانب مصر بعد اتفاقيات كامب ديفيد ، ولكنها كانت آمنة أيضا وهى تحتل سيناء بعد أن فقد الجيش المصرى مصدر السلاح السوفيتى ، ولم يعد فى قدرته العسكرية شن حرب تحرير جديدة ! .

وهناك فى إسرائيل اليوم من ندم لانسحاب إسرائيل من سيناء ، خصوصا بعد أن تبين ان المعاهدة المصرية الاسرائيلية لم تمنع مصر فى عهد مبارك من الوقوف إلى جانب القضايا العربية ، وسحب السفير المصرى فى إسرائيل ، وقيام ما أصبح يعرف باسم « السلام البارد » ! هذا الخلاف مع رأى الأمير الحسن حول بدايات تحول الميزان الاستراتيجى لصالح إسرائيل لا يقلل من أهمية رأى الأمير ، فمن حقه أن يعرض « رؤيته الأردنية » للأحداث ، ومن حقنا أن نعرض « رؤيتنا المصرية » ، وأن كنا فى نهاية الأمر متفقين معا على الطريق الذى للسلام ، والذى يختلف عن طريق من يطلق عليهم اسم المتشددى العرب، ونعنى بهم الذين يزايدون ولا يحاربون !

فالعرض الذى قدمه الأمير الحسن للأوضاع العربية التى تستوجب انتهاج الطريق الأردنى للتسوية ، عرض ممتاز ، لاحظ فيه بمرارة تلك المفارقة ، وهى أن العرب والأسرائيليين قد تبادلوا أدوارهم التقليدية فى الشرق الأوسط !

فالتريق من مؤتمر الخرطوم فى عام ١٩٦٧ إلى مؤتمر فاس فى عام ١٩٨٢ قد تتميز باتجاه العرب الثابت إلى حل القضية الفلسطينية حلا سلميا ، على أساس قبول مبدأ رد الأرض مقابل الاعتراف بها ، فى حين كانت اسرائيل تتماسك بالموقف الأصى للعرب فى مؤتمر الخرطوم ، بعدم المفاوضات مع اسرائيل وعدم الاعتراف بها وعدم الصلح معها !.. فهى - الآن - التى ترفض المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وترفض الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى على أرض وطنه، وتعلن حربا لاهوادة فيها على كل أثر للهوية الفلسطينية !

ومن هنا لم يعد سبب استمرار الصراع رفض العرب اسرائيل وتهديدهم بالقائها فى البحر ، وإنما أصبح السبب حملة الليكود السياسى، وزعمائه شارون وشامير لطرده العرب إلى الصحراء واعادتهم إلى حياة البداوة المترحلة الأولى .

وفى الحقيقة أنه بعد أن كان زعماء إسرائيل فى أعقاب حرب يونية ١٩٦٧ يؤكدون أنهم لا يطمعون فى شبر من الأرض العربية ، وأن قسارى مايفونه هو اعتراف العرب بسيادتهم السياسية كدولة ، والتعايش السلمى مع جيرانهم العرب - تغير الموقف تغيرا جذريا ، فأعلن بيجن فى البرلمان الاسرائيلى فى ٢ سبتمبر ١٩٨٢ أن اسرائيل هى وحدها التى تقرر أين يتعين رسم تخومها الدولية ، وأن الضفة الغربية ستظل تحت سيطرة إسرائيل لأجيال كثيرة قادمة .

وقال الأمير الحسن : إن الراديكاليين العرب يتخيلون أن الوقت - مع ذلك - هو لمصلحة العرب ، وأن التوسع الإسرائيلى الحالى سوف يؤدى إلى الإضرار بأمن إسرائيل واستقرارها كدولة ، إذ سيؤدى إلى زيادة الضغط الديموغرافى (السكانى) ، « ومط » موارد اسرائيل إلى ما يتجاوز حدود قدرتها الإرادية ، فيصبح العرب قادرين على إغراق الاسرائيليين والإحداق بهم ، كما حدث فى جنوب لبنان ، إلى أن يتم طردهم .

وقد رد الأمير على هذه النظرية بالقول بأنها على الرغم مما تبدو عليه من جدارة ، فإنها تحتاج إلى ألف دورة ألفية حتى تتحقق ! ، وأن التغيير السكانى الجارى فعلا فى الأراضى المحتلة للضفة الغربية وغزة يشير إلى نتيجة مختلفة عن ذلك بالنسبة للمستقبل المباشر .

فعلى الرغم من أن معدل المواليد العرب فى الضفة الغربية هو ٤٥ فى السنة . فان معدل زيادة السكان لا يزيد على ١٥ فى المائة ! ويرجع السبب إلى تيار هجرة العرب من الأراضى المحتلة ، الذى تنشط فى تشجيعه السلطات الاسرائيلية .

فعندما احتلت اسرائيل الضفة الغربية وغزة فى عام ١٩٦٧ ، دفعت بنحو ثلاثمائة ألف من العائلات الفقيرة إلى الأردن فى مخيمات اللاجئين ، وفى نفس السنة أدمج نحو مائة ألف عربى يقيمون فى

القدس فى سكان اسرائيل ، بعد إعلان ضم المدينة العربية بصورة رسمية .

ومنذ ذلك الحين غادر الأراضى المحتلة أكثر من مائة ألف عربى آخرين . فى الوقت الذى كان يتزايد عدد السكان اليهود بمعدل أكثر من ٢ و ٢ فى المائة ! - وهى نسبة مضطردة الارتفاع بسبب الهجرة أساسا ويسبب إنشاء المستوطنات اليهودية ، التى أقيم منها حتى الآن ١٦٥ مستوطنة فى مناطق غير المقدس ، وذلك لتحقيق ما أسماه موشيه ديان « بخلق أمر واقع » !

ويقول الأمير الحسن إنه بفضل التدابير التى استحدثتها اسرائيل والمتعلقة بملكية الأراضى ، ظفرت بالسيطرة المباشرة على ٢٧ فى المائة من جملة مساحة أراضى الضفة الغربية ، ولم يقتصر هذا التملك على الأراضى المسجلة باسم الدولة ، بل ضم أراضى مملوكة للاجئين نزعَت مليكتها فى غيابهم .

ويعيش فى الضفة الغربية وقطاع غزة الآن حوالى مليون وثلاثمائة ألف فلسطينى . محاصرين ومهددين بالانقراض داخل وطنهم ! وهم يفتقرون إلى مساندة أية حكومة عربية يستطيعون أن يفزعوا إليها للدفاع عن مصالحهم ، بعد أن قبل الأردن فى عام ١٩٧٤ ما اتفق عليه العرب من الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى .

ويذكر الأمير الحسن أن الأمر لا يقتصر على الأراضى المحتلة ، فهناك فى اسرائيل من يريدون أحداث عملية انهيار داخل المجتمع العربى تحوله إلى قبائل وعشائر ، والذى حدث فى لبنان من قيام حرب متعددة الأطراف هو باكورة هذه العملية .

وقد أورد الأمير مقالا « لأويد ينون » فى فبراير ١٩٨٢ وصف فيه العالم العربى بأنه مجموعة من الأقليات العرقية والجماعات المنقسمة ،

وأنها جميعا عرضة لمزيد من الانقسام نتيجة لأزمات داخلية تدمرها تدميرا ذاتيا ، وهو يرى أن المجتمع العربى منقسم بسبب هذه المنازعات والخصومات ، وهو - بالتالى - عاجز عن أن يشكل تهديدا لإسرائيل .

ويقول الأمير الحسن إنه مما لا شك فيه أن القتال الدائر فى لبنان ، والضم التدريجي للأراضى المحتلة الذى تمارسه السلطات الاسرائيلية ، قد ضاعفا من حدة المأزق المستمر الذى تواجهه التسوية للنزاع العربى الإسرائيلى ، وإن مشكلة فلسطين اليوم هى أبعد من أى وقت مضى عن الحل العادل والدائم .

كما إن سياسات التطرف والصراع المسلح التى يعتنقها كل من الراديكاليين (المتطرفين) العرب واليهود . تهدد سلم الشرق الأوسط بل سلم العالم بأسره ، وليس ثمة شك فى أن الأطراف المختلفة من كل العرب والاسرائيليين ، العاقدة العزم على الحيلولة دون إجراء تسوية سلمية ، ستستغل جمود السياسة الأمريكية ، فى تنفيذ مآربها ، كما أن الراديكاليين والمتطرفين من الفلسطينيين وغيرهم من العرب سوف ينتهزون هذه الفرصة لبسط هيمنتهم ، وإرهاب المعتدلين ممن يسعون إلى السلام .

كما أن السياسية التوسعية لحكومة اسرائيل ستستجمع قواها ، وتكتسب وقتا ، لكى تحقق هدفها الذى طال زمان انتظاره ، والمتمثل فى ضم الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة ومرتفعات الجولان بصورة رسمية

ومن ثم فإن حل أزمة الشرق الأوسط قد أصبح يحتاج إلى استراتيجية جديدة شاملة للسلام . كما أن التعاون بين الأردن ومصر ومنظمة التحرير الفلسطينية يحتاج إلى مؤازرة عربية وإلى مؤازرة دولية أيضا ، ولا بد للمؤازرة أن تنصب على حل قضية فلسطين .

فهل تستطيع الولايات المتحدة أن تكون وسيطا فعالا فى النزاع العربى الاسرائيلى ؟ إن المحك هو المبدأ الوارد فى منطوق القرار ٢٤٢

الصادر من الأمم المتحدة الذى يدعو إسرائيل إلى رد الأراضى العربية التى تحتلها مقابل اعتراف العرب بالدولة اليهودية . وعلى الولايات المتحدة أن تقيم البرهان على أن التزامها بهذا المبدأ هو التزام قائم لا يتزعزع ؟

ولما كانت الحالة الحاضرة من التفرق العربى عقبة رئيسية ، فلا بد من وضع نهج مشترك ليكون الأساس اللازم لمفاوضات التسوية ، للتوصل إلى حل شامل للقضية الفلسطينية وحل عام لمشكلات الشرق الأوسط ، ولا شك أن المطالبة بقرار عربى إجماعى - كما يقتضيه ميثاق جامعة الدول العربية - هو قيد خطير ، ومن ثم فلا بد من إجراء تعديل فى هذا الميثاق يستهدف احتواء أى موقف عربى مخالف ، قد تتخذه أقلية صخّابه من الدول الأعضاء .

بعد عودة العرب إلى مصر : كشف الحساب !

بقرار قمة عمان بفتح الباب امام
الدول العربية لإعادة علاقاتها
الدبلوماسية مع مصر ، تنتهى صفحة
سوداء من صفحات تاريخ الأمة
العربية، سيطر فيها المزايدون
والمهيجون ، والمتاجرون بالآلام الشعب
الفلسطينى ، ومرتزقة الزعماء
والحكام ، وثورىو الكلام المناضلون من
فوق منابر الخطابة والهاربون من
ساحات الوغى !

فى ظل هذا السيطرة ، وعلى مدى
نحو تسع سنوات ، سقطت البلاد
العربية إلى حضيض لم تتدن إليه من
قبل ، وقاست من الهوان ما لم تقاسه
من قبل ، وانتهبتها الحروب الأهلية
والخارجية والانقلابات الداخلية ،
وتحول سلاح البترول من سلاح فى
يدها إلى سلاح فى يد أعدائها ، وبعد
أن كانت الدول العربية فى أعقاب حرب
أكتوبر تنذر بأن تكون قوة دولية

أكتوبر فى ١٩٨٧/١١/٢٩ .

سادسة ، تراجعت إلى نهاية صف دول العالم ، بعد أن أصبحت « ملطشة » للصغير والكبير من الدول .

وتبدى ذلك - بصفة خاصة - فيما آلت إليه القضية الفلسطينية في تلك الحقبة التاريخية السوداء ، وهى القضية التى اتخذها النصابون ذريعة لإقناع الدول العربية المعتدلة بقطع علاقتها الدبلوماسية مع مصر ، وسحب مقر جامعة الدول العربية من القاهرة .

لقد نسى النصابون هذه القضية فور اتخاذ قمة بغداد قرارها بقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر ! كما نسوا إسرائيل أيضا ! فلم يرتفع سلاح عربى ضدها لصالح القضية الفلسطينية - فيما عدا سلاح الكلام طبعاً ! وأكثر من ذلك أن السلاح العربى وجه إلى صدور الفلسطينيين أنفسهم ، فقتلت قوات حافظ الأسد من قتلت منهم فى تل الزعتر ، وأدارت سلاح الفلسطينيين من صدور الاسرائيليين إلى صدور اخوتهم الفلسطينيين ، وحاولت تصفية ياسر عرفات جسديا فى طرابلس مع جنوده من المناضلين الفلسطينيين .

وفى الوقت نفسه زاد الخطر على كل دولة عربية ، حتى اضطرت الدول التى لم يكن لها من الجيوش سوى رموز إلى بناء جيوش حقيقية من مال وعرق شعبها ، لكى تدفع عن نفسها أذى الطامعين من الخارج ومن جيرانها ، وتخصص الميزانات المرهقة لشراء السلاح ، وهى - مع ذلك - جيوش صغيرة لا تردع عدوا ولا تحمي شعبا . وكانت هذه الدول تبخل باليسير من المال لدعم الجيش المصرى أو مساعدة مصر اقتصاديا على الصمود .

وهكذا انتهت تلك الحقبة من الزمن ، ولبنان أكثر تمزقا وأبعد عن الوحدة الوطنية ! والقضية الفلسطينية فى الصف الأخير من اهتمام العالم الخارجى والعالم العربى على السواء ! وموقف ليبيا فى تشاد يزداد ضعفا وتهالكا ، وقد انتهت مواجهتها مع الولايات المتحدة بتجاسر الأخيرة على ضرب طرابلس وقصف مقر القذافى ! .

كذلك انتهت الحقبة بنظام حافظ الأسد المزايد وما زالت اسرائيل تقبع فوق جولانه دون نقصان ! ، وهو يزداد تبجحا ومتاجرة بكامب ديفيد وحقدا على مصر التي حررت سيناءها ، كما يزداد بعدا عن العروبة بوقوفه - دون حياء - إلى جانب ايران في حربه القاتلة ضد العراق العربى* .

ولقد انتهت الحقبة واساطيل الدول الكبرى تحتل الخليج العربي لحماية مصالحها تحت ستار حماية المصالح العربية ، وثروة دول الخليج التي هبطت عليه من السماء مع البترول ، تتبدد مع استمرار الحرب الإبرانية العراقية إلى ما لا نهاية .

أما بالنسبة لإسرائيل فقد استفادت من التمزق العربى كل الاستفادة ، ولم يسعدها شيء أكثر من ابتعاد الدول العربية عن مصر . وخروج مقر جامعة الدول العربية من مصر ! .

ولم يفدها شيء أكثر من التطرف العربى فى تشديد قبضتها على الأرض الفلسطينية المحتلة فى الضفة الغربية وغزة ، واهتضام الجولان فى معدتها القوية ، وغزو لبنان ، ثم الانسحاب منه مع استبقاء سيطرتها على جنوبه ، وقصفها المستمر للمواقع الفلسطينية ، وإبقاء جيش لبنانى يعمل لحسابها على أرضه ! .

والطريف أنه حين غزت اسرائيل لبنان ، زعم النصابون فى جبهة الصمود والتصدى أن كامب ديفيد هى السبب ، وأنه لولا مبادرة السادات لما جرؤت اسرائيل على هذا الغزو ! كأنما كان احتلال اسرائيل لسيناء مما يجعلها تهاب مصر ويجعلها تعمل لحسابها عند الغزو ؟ وكأن تحرير سيناء يضعف مصر ولا يقويها ؟ مع أن العكس هو الصحيح ، وهو أن مصر ، التى لا تقبع على أراضيها جيوش اسرائيلية ، هى أكثر قوة وقدرة على الحركة والمساعدة .

* كانت جميع الدول العربية - فيما عدا سوريا وليبيا - تقف مع العراق ضد إيران ، انطلاقا من الرابطة القومية العربية ، قبل أن تحول العراق حرابها إلى جارتها العربية الكويت

والمهم أن قطع الدول العربية علاقتها الدبلوماسية مع مصر ، بسبب ما زعمته من تخلى مصر عن القضية الفلسطينية لم يترتب عليه تحرير شبر واحد من فلسطين ، ولم يسفر عن تقدم القضية الفلسطينية خطوة واحدة ، بل ترتب عليه أن غاصت أقدام الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وغزة ، وازداد صلفا وتجبرا .

فقد تبينت اسرائيل أن اعلان جبهة الرفض العربية عزمها على الصمود والتصدي لم تكن تقصد به سوى صمودها وتصديها بالكلام وليس بالسلاح ! . ولما كان الكلام لا يحرر أرضا ، فقد تركت اسرائيل الكلام لدول الصمود ، واحتفظت لنفسها بالسلاح تضرب به من أول المفاعل الذري العراقي فى الشرق ، إلى مقر منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس فى الغرب - أى تذرع به السماء العربية من مشرقها إلى مغربها !

وقد اكتشفت كل من العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية خدعة الصمود والتصدي بعد وقت وجيز من قطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر . فلم تكذ تنشب الحرب بين العراق وايران ، بعد قيام الثورة الاسلامية المزعومة ، حتى كانت دولتان من دول الصمود والتصدي المزعوم - هما سوريا وليبيا - تتخذان مواقفهما إلى جانب ايران ضد العراق ، باسم الاسلام ! ، كأنما كان العراق دولة مجوسية أو بوذية وليس دولة إسلامية عربية ؟

وأفاقت العراق على الخطأ الذى ارتكبته بتحالفها مع الدولتين المزايدتين ، اللتين تكيلان بمكيالين ، فباسم العروبة تقطعان العلاقة مع مصر ، وباسم الاسلام تتحالفان مع ايران ضد العراق !

أما منظمة التحرير الفلسطينية ، التى تحالفت مع جبهة الصمود والتصدي ، فقد اكتشفت سريعا أنها الضحية الأولى لهذا الصمود والتصدي ! ، اذ سرعان ما اشتبكت معها ليبيا القذافى ، وطردتها من

أراضيها ، كما اشتبكت معها سوريا حافظ الأسد ، وفجرت الحرب الأهلية فيها !

وحين أنقذت مصر ياسر عرفات من طرابلس أدرك حينذاك - وحينذاك فقط - أن مصر هي الدولة الوحيدة التي لم تلوث يدها بدماء الفلسطينيين، وأنها الدولة العربية الوحيدة التي بذلت من أجل فلسطين من التضحيات ما لم تبذله دولة عربية قط . فخرج ياسر عرفات من طرابلس إلى القاهرة، ليعلن - عمليا - بطلان الذريعة التي اتخذتها قمة بغداد لقطع علاقاتها الدبلوماسية مع مصر .

ولقد كانت الكويت من الدول العربية التي ترتفع فيها أكثر الأصوات تطرفا ضد مصر ، بعد أن فتحت صحافتها صدرها لعدد كبير من النصابين المصريين الذين ارتزقوا من النضال ضد مصر باسم العروبة ، واعتبروا قطع الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية مع مصر نضالا قوميا ، كما أسلمت أعلامها للمتطرفين الذين شجعوا التهجم على مصر. ولكن الأحداث أثبتت للقيادة السياسية الكويتية صدق عروبة مصر ، وزيف عروبة المزايدين التجار الذين ارتزقوا من مهاجمة مصر. فقد وقفت القيادة السياسية المصرية إلى جانب الكويت عندما أخذ يتعرض للخطر على يد العدو الإيراني الأثيم . وصح القول بأن الصديق يعرف عند الشدة ، وكانت مصر هي الصديق .

وهكذا كانت الدول العربية التي قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع مصر هي الخاسرة في كل الأحوال .

وفى الواقع أن قرارات قمة بغداد بمقاطعة مصر سياسيا واقتصاديا ، والتوصية بقطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية الثنائية مع مصر ، وتعليق عضويتها في جامعة الدولة العربية ، ونقل مقر الجامعة من القاهرة - كانت قرارات باطلة ، لافتقارها إلى الاجماع من ناحية ، ولأن ميثاق الجامعة العربية لا توجد به نصوص عن تعليق العضوية من جهة

أخرى . وفوق ذلك لأنها اتُخذت تحت ضغط ثوريي الكلام الذين لم يقدموا للقضية الفلسطينية واحداً على مائة مما قدمته مصر ، ثم أثبتوا تجاهلهم لهذه القضية بعد اتخاذ قرارات مقاطعة مصر، فلم يرفعوا سلاحاً في وجه إسرائيل ، وإنما رفعوه في وجه الفلسطينيين ! .

أما مصر فلم تركع . لقد سحب العرب أنفسهم من صناعة السلاح، فلم تسقط صناعة السلاح ، وإنما ازدادت قوة بعد أن أصبحت خالصة لمصر ! وبعد الطفرة الكبيرة التي حققها التصنيع الحربي المصري في السنوات الثلاث الأخيرة أصبح لدى مصر شبه اكتفاء ذاتي

فمصر تصنع الطائرة « جازيل » و « ألفا جيت » و « توكانو » وهي تصنع العربات المدرعة والدبابات . والصواريخ المضادة للدبابات . كما تصنع أحدث رادار أمريكي من طراز تي - بي - إس ٦٣ . والصناعات الحربية المصرية قادرة على تلبية احتياجات القوات المصرية والعربية والصديقة .

وعلى الرغم من قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر والبلاد العربية فلم تكذب تنشب الحرب الإيرانية العراقية حتى كانت مصر تضع إمكانياتها الحربية تحت تصرف العراق . وكان السادات - الذي اتهمه العراق علي رأس دول الرفض ، بالخيانة - هو الذي سارع إلى تزويد العراق بالذخيرة بعد أن منعها عنه السوفييت ، وبرر ذلك أمام الرأي العام المصري بأن مصر لا تستطيع أن تنسى وقفة العراق إلى جانبها في حرب أكتوبر .

واستمر ذلك في عهد الرئيس مبارك ، الذي نقل مساعدة مصر للعراق إلى مستوى جديد . ورغم أنه كان في وسع مصر بيع السلاح للعراق باسم العروبة . وبيعه لإيران باسم الإسلام ! ، فإنها لم تلوث عروبتها ، ولم تفعل كما تفعل كل الدول الرأسمالية والاشتراكية التي تبيع للمعسكرين علناً وسراً .

كذلك لم تركع مصر اقتصاديا ، فان سياسة الانفتاح الاقتصادى ، على الرغم من ضربها طبقة الموظفين والمثقفين ومحدودى الدخل اقتصاديا لحد كبير ، فإنها اتاحت لشرائح البورجوازية المصرية الصغيرة من الحرفيين فرصتها التاريخية ، كما خدمت الفلاحين والعمال الزراعيين ، وأتاحت فرصة الثراء للشرائح الدنيا التى عاشت فى الحرمان قرونا . وشهدت مصر فى فترة المقاطعة العربية عددا من أصحاب الملايين لم تشهده فى تاريخها الطويل ، وصح القول بأن مصر قد أصبحت أغنى دولة عربية ، وإن كانت تملك أفقر حكومة ، نظرا لتخلف نظام الضرائب فيها . ولو أحكمت مصر نظام الضرائب لامتلك أيضا أغنى حكومة !

وعلى المستوى السياسى فإن مركز مصر الدولى لم يتأثر بالمقاطعة العربية ، أو بفقد مركزها فى جامعة الدول العربية ، فلم تكن مصر تجنى من هذا المركز سوى المغارم - مغارم النضال من أجل قضايا العرب ، التى أصبحت قضايا مصر بالضرورة - فخسرت فى هذه القضايا كل ما كسبته من تجربتها الاشتراكية ، وقدمت للمجهود الحربى فيما بين حربى ٦٧ و ٧٣ فقط ، نحو عشرة مليارات من الجنيهات .

ومن هنا لم تؤثر المقاطعة العربية على علاقة مصر ببقية دول العالم . بل لقد قدمت هذه المقاطعة الفرصة لمصر لإثبات أن مركزها الدولى لا يستمد من مركزها العربى ، وإنما من مركزها المصرى الحضارى الأصيل ، ومن نضج سياستها على المستوى الدولى إزاء القضايا العالمية ، ومن احترامها لمواثيقها الدولية ، ومن الاختيار المصرى للسلام .

ولقد كان موقف السياسة السوفيتية الأخير من مصر ، اعترافا هاما بحقيقة مركز مصر السياسى الدولى ، الذى لا تستطيع أية دولة تجاهله ، والذى تستمده من شخصية مصر ذاتها وليس من أية دولة أخرى فى المنطقة العربية .

إن تحسن العلاقات المصرية السوفيتية ، فى وقت يتزامن تاريخيا مع اعادة البلاد العربية علاقاتها الدبلوماسية مع مصر ، يعد انتصارا عظيما للسياسة المصرية يسجل لها فى لوحة الشرف فى التاريخ .

ولما كانت هذه السياسة المصرية يقودها الخسيس محمد حسنى مبارك ، فهى تعد انتصارا شخسيا له بكل المعايير . فقد كان على الدوام رجل الدولة الذى يقود سفينة مصر بكل المسئولية والأمانة والذكاء والنضج السياسى . وكان على الدوام الملاح الذى لم يفقد توازنه أبدا فى وجه الجليل من الأحداث .

وبقى علينا أن ننتظر موقف المزايدى المصرى وتجار الكلام ، الذين هلّوا لقرارات قمة بغداد ، واعتبروها انتصارا شخسيا لهم بعد أن حرضوا عليها . وبعضهم اعتبرها قرارات مخففة بعد أن كان يطمع فى أن تعلن الدول العربية الحرب على مصر ! - هؤلاء المزايدون وتجار الكلام ، الذين تاجروا فى صحف الدول العربية ، وارتزقوا على حساب مصر ، وألقوا الوحل على رؤوس الشرفاء بيد ، بينما هم يقبضون باليد الأخرى . ماذا يكون موقفهم الآن ؟

إننا ننتظر ردود فعل هؤلاء بعد أن ضاعت من أيديهم الذريعة التى كانوا يتذرعون بها لإثبات عروبتهم - ذريعة مقاطعة الدول العربية لمصر - وسوف ينكشف موقفهم الحقيقى ، الذى سيظهر منه إذا كانوا قد تابوا وأنابوا وعادوا إلى مصر ، أم أنهم سيثبتون إلى جانب الذين يدفعون !

مخاطرة مصر ومتاجرة الآخرين ! *

كان فى وسع الرئيس مبارك أن يستريح ، كما يستريح بعض التجار العرب الذين يناضلون بالكلام من داخل أبراجهم المسلحة تحت الأرض ، والذين أثروا عدم إعادة علاقاتهم السياسية مع مصر عندما سنحت لهم الفرصة التاريخية لذلك - ولكنه لم يفعل، لأن الحكم عنده ليس استحوذاً على السلطة ، والتمتع بها ، وفرض الارهاب والقهر على رعاياه ، والتهويز بكلمات النضال - التى لم تعد تخدع أحدا - من أجل القضية الفلسطينية والعروبة - وإنما الحكم عند الرئيس مبارك هو مغرم وليس مغنم ، وهو العمل الدؤوب من أجل الوحدة الوطنية، وارساء السلام الاجتماعى ، وتحقيق مصالح الجماهير الشعبية ، وهو - على المستوي الخارجى - تأكيد دور مصر التاريخى الذى حاول النصابون والمهرجون السياسون فى جبهة الجمود

* أكتوبر فى ٢١/٢/١٩٨٨

والتردى (التى كان اسمها جبهة الصمود والتصدى) انتزاعه منها بقطع علاقاتهم السياسية مع مصر ، ونقل مقر جامعة الدول العربية من القاهرة إلى تونس .

لقد كانت المتغيرات الجديدة التى طرأت على الساحة السياسية ، ودعت الرئيس مبارك إلى تحركه هى : عودة الغالبية الساحقة من الدول العربية إلى مصر بعد قرارات قمة عمان ، وانتفاضة الحجازة فى الضفة الغربية وغزة

لقد كانت عودة العلاقات السياسية بين العرب ومصر بمثابة إزالة الحواجز التى أراد أدعياء الزعامة فى العالم العربى اقامتها فى وجه الزعامة المصرية ، وحرمان مصر منها ، رغم أن الزعامة المصرية كانت دوما فى خدمة العرب وفى خدمة مصالحهم ، ولم تكن أبداً على حساب العرب وعلى حساب مصالحهم ، بل ولم تسع إليها مصر بل سعى إليها العرب .

لم تسع إليها مصر سعد زغلول أو مصطفى النحاس ، ولم تسع إليها مصر عبد الناصر ، ولم تسع إليها مصر السادات ، ولم تسع إليها مصر مبارك - وانما كانت المصلحة العربية العليا هى التى سعت إليها ، ودعت المفكرين العرب فى أنحاء العالم العربى إلى المناداة بها . وقد دفعت مصر ثمنها من جيبيها الخاص وليس من جيب العرب ، كما دفعتها من دماء المصريين وليس من دماء العرب .

فعندما فشلت خطة النصابين والمهرجين العرب فى عزل مصر عن العرب ، كان من الطبيعى أن تستأنف مصر دورها التاريخى فى خدمة المصالح العربية ، مدعومة هذه المرة بعلاقات سياسية رسمية بينها وبين الدول العربية ، وبتأييد عربى رسمى ، ومستفيدة من علاقاتها الطيبة مع كل من الولايات المتحدة واسرائيل والاتحاد السوفيتى وأوروبا - وهى العلاقات التى هى ثمرة صبر دعوب من جانب الرئيس مبارك .

وهذا كان أحد المحركين الرئيسيين فى تحرك الرئيس مبارك ، أما المحرك الثانى فهو انتفاضة أطفال الحجارة الفلسطينية التى فاجأت الجميع من حيث لا يحتسبون . فلم يكن يليق بمصر وبدورها التاريخى أن تكتفى بتأييد هذه الانتفاضة بالكلام ، أو كان ببضعة دولارات لدعم كفاح الشعب الفلسطينى ، وانما كان يفرض عليها استثمار هذه الانتفاضة فى تحرك سياسى كبير لخدمة القضية الفلسطينية التى أحيتها الانتفاضة من رقاد ، لأن ترك هذه الانتفاضة تعيش على كلمات التشجيع ، زو دولارات الصمود ، كان بمثابة دفعها إلى « الاستنقاع » بعد فترة تطول أو تقصر من الزمن ، فلا يوجد شعب فى العالم يستطيع أن يظل شاكى السلاح إلى الأبد ، لأن أمور الحياة والمعاش تدفع الشعوب بعد فترة إلى ترك السلاح قليلا لتلتقط أنفاسها ، ثم تعود إليه من جديد .

وهذا ما دعانى ، فى مقالى الذى نشرته لى مجلة « أكتوبر » بعدد ١٠ يناير ١٩٨٨ - تحت عنوان : « هل نشاهد مبادرة سلام جديدة » ؟ - إلى مطالبة الرئيس مبارك بالقيام بمبادرة سلام جديدة « تحظى بتأييد الولايات المتحدة الأمريكية ، وتستقطب قوى السلام فى اسرائيل التى تشعر بعبء الاحتلال الاسرائيلى للضفة الغربية وغزة » ، حتى « نحفظ الانتفاضة الفلسطينية من التسرب ، ونكرم التضحيات الفلسطينية التى دفعت حياتها دفاعا عن الشرف والحرية والكرامة » . ولم أكن فى هذه الدعوة أعبر عن رأى فقط ، بل وعن رأى بعض زعامات غزة .

وقد كان تارئيس مبارك على مستوى الشجاعة والمسئولية القومية التى تميز بهما ، فكثيرون من زعماء العالم العربى يحجمون عن التحرك بمبادرات من أى نوع من أجل القضية الفلسطينية ، لأنهم يعرفون أن كل من يتقدم لرفع هذه القضية من نار الصراع العربى الاسرائيلى ، تحترق أصابعه حتما ، بسبب انعدام الاتفاق حول هذه القضية ، حتى بين ذوى الشأن أنفسهم ، وهم الفلسطينيون .

ومن هنا فقد كان الرئيس مبارك يعرف مسبقا أن أى مبادرة يتقدم بها من أجل الفلسطينيين ، قد يعارضها من الفلسطينين أكثر ممن يؤيدونها ! وقد تلقى من الاعتراض داخل مصر والعالم العربى أكثر من التأييد ! بل انها قد تفسح المجال لأدعاء البطولة والحرص على مصالح الشعب الفلسطينى ، لاعادة تشغيل الاسطوانة المشروخة المعتادة عن حصول الشعب الفلسطينى على حقوقه كاملة غير منقوصة ، وربما طرد الاسرائيليين من اسرائيل المزعومة ، وعودة السيادة الفلسطينية إلى أرض فلسطين - وهى صيحات يطلقها هؤلاء الأدعاء بسهولة من فوق مكاتبهم ، دون أن يعنوا أنفسهم بدراسة علاقات القوى ، وامكانيات تحقيق هذه الأمنى الوطنية والقومية .

ولكن حرص الرئيس مبارك على انتفاضة الحجارة ، ورغبته في تحريك القضية إلى المؤتمر الدولى - الذى أصبح محل اجماع العرب - دعاه إلى المخاطرة بتقديم هذه المبادرة ، ليس بأمل الحصول على اجماع عالمى عليها ، وانما بأمل أن تنطلق منها الأطراف المختصة إلى صيغة مناسبة تضع القضية الفلسطينية على طريق الحل المعقول .

ولكن بعض الأقلام ، التى علقت على هذه المبادرة ، كانت ماتزال تعيش تحت الأفكار القديمة التى تتصور مثل هذه المبادرة فى شكل دفاع طويل عن القضية الفلسطينية ، أو خطبة حماسية ! ، فلم تنتبه إلى أنها محاولة لجمع الأطراف حول هدف واحد ، عن طريق ايجاد الصيغة التى لا تنفر أحدا أو الصيغة التى تعطى طرفا فى مقابل أن يأخذ الطرف الآخر .

ولعل عبارة فى مبادرة الرئيس مبارك لم تثرمن الاعتراض من جانب هؤلاء أكثر من العبارة التى يدعو فيها الرئيس إلى ايقاف العنف من جانب الطرفين الفلسطينى والاسرائيلى . لقد كان هؤلاء المعارضون يتوقعون أن يدعو الرئيس فى مبادرته إلى ايقاف القمع غير المشروع الذى تمارسه اسرائيل ، ويدعو الطرف الفلسطينى إلى الاستمرار فى انتفاضته حتى تتحقق مطالبه !

ولم تم ذلك لكانت اقتراحات الرئيس خطبة تأييد سياسية وليست مبادرة ! ولما قبلت اسرائيل مجرد النظر اليها ، وكذلك الولايات المتحدة . ولكن الرئيس مبارك - فى مقابل ذلك - دعا إلى عقد المؤتمر الدولى ، فاذا قبلت اسرائيل والولايات المتحدة عقد المؤتمر الدولى فان ذلك يبرر فترة التقاط الأنفاس ، لأن الفلسطينيين لا يكونون قد أوقفوا أعمالهم مقابل لا شئ ، وانما يكونون قد حققوا الهدف من أعمالهم ، وهو حل القضية الفلسطينية من خلال مؤتمر دولى

وربما كان أكبر رد على المعارضين - سواء من جانب المصريين أو العرب أو الفلسطينيين - على مبادرة الرئيس مبارك ، أن كلا من اسرائيل والولايات المتحدة لم تعتبرها محققة لمصلحة اسرائيل ، بل اعتبرتاها محققة لمصلحة الفلسطينيين ! فلم تسارعا إلى قبولها ، وأرادت ادارة ريجان قبول الجانب السلبي منها وهو الدعوة إلى وقف أعمال العنف ، واغفال الجانب الايجابى وهو عقد المؤتمر الدولى - أى ارادت أن تفقد المبادرة عنصر التوازن فيها ، وتحويلها إلى مبادرة لخدمة المصالح الاسرائيلية والأمريكية .

والمحقق - على كل حال - أن تحرك الرئيس مبارك كان لفائدة القضية الفلسطينية ، لأنه أجبر الأطراف الأخرى على التحرك بأفكار أخرى ، تتفق جميعها على ترك موقع الجمود الذى كانت تقع فيه القضية الفلسطينية إلى موقع أكثر تقدما .

فالليكود ، الذى كانت سياسته العنصرية وراء الانتفاضة ، والذى كان يستعد لهضم الضفة الغربية وغزة فى معدة اسرائيل العظمى ، وكان يضيق على الفلسطينيين تحت الاحتلال فى حياتهم وأمور معاشهم، ويمارس معهم سياسة التفرقة العنصرية - قد أخذ يبدى استعداداه للتخلي عن هذه السياسة ، ولكن فى اطار خطته العامة التى ترفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وتأبى التعامل معها ، وتسعى للفصل بين الفلسطينيين فى الداخل والفلسطينيين فى الخارج - فطرح

فكرة الحكم الذاتى للضفة الغربية وغزة من خلال القيادات المحلية المنتخبة - وذلك للافلات من الحل الشامل الذى يحققه عقد المؤتمر الدولى، وللافلات من الغضب الشعبى الذى يثيره الحكم المباشر فى الضفة الغربية وغزة - وهو تطور ، وإن لم يتفق مع الأمنى والأهداف الوطنية الفلسطينية ، إلا أنه يخفف من عبء الاحتلال الاسرائيلى .

وبالنسبة للولايات المتحدة ، فقد اقتنعت - كما عبر شولتز فى غداء تكريم مبارك الأخير بأن « أوهام واقتراحات الماضى القديمة يجب أن تتفق مع حقائق الحاضر الجديدة » ، وأن الولايات المتحدة سوف تنشط دورها فى عملية السلام ، وأرسلت ريتشارد ميرفى ، مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط ، للتباحث مع كل من مصر وسوريا واسرائيل والسعودية والأردن ، ثم كلف الرئيس ريجان شولتز بالتوجه إلى منطقة الشرق الأوسط للقيام بجولة مكوكية بين دول المنطقة .

وهذا التحرك من كافة الأطراف ، هو نتيجة تحرك الرئيس مبارك ، الذى هو بدوره - دون ريب - نتيجة تحرك الشعب الفلسطينى فى الأراضى المحتلة . وهذه هى اسهامة مصر ، واسهامة الرئيس مبارك ، ولكن الرئيس مبارك - من جهة أخرى - لا يجب أن يتحمل مسئولية ما تنتهى إليه هذه التحركات من نتائج ، لأن هذه النتائج تتوقف على تفهم كافة الأطراف للموقف ، وقدرة الفلسطينيين على الاستفادة منها ، وهو أمر مرتبط بمدى قدرتهم على التوصل إلى اتفاق فيما بينهم على ما يمكن قبوله وما يمكن رفضه .

وهذه هى المشكلة الحقيقية فى الواقع ، لأنه لن توجد زعامة فلسطينية - سواء على الجانب المتطرف أو المعتدل - سوف تقبل ما هو أقل من تحقيق الأمنى الوطنية كاملة ، والا عرضت نفسها للاتهام بالتهاون والانهازامية والتخاذل والاستسلام وتضييع ثمرة انتفاضة أطفال الحجارة ! .

وفى الوقت نفسه لا يستطيع أى أحد فى العالم العربى النصح للفلسطينيين بأخذ ما هو متاح ، ثم المطالبة بالباقى، على نحو ما فعلت

الحركات الوطنية فى مشرق العالم العربى ومغربه ، والا عرض نفسه
لنفس الاتهامات ! .

ومعنى ذلك أن الانتفاضة الفلسطينية إما أن تسفر عن شىء ، أو
تسفر عن لا شىء ! - أى أنها إما أن تجبر الولايات المتحدة واسرائيل
على القبول بعقد المؤتمر الدولى ، والجلء عن الأرض المحتلة فى الضفة
الغربية وغزة ، واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ، واما أن تسفر عن
عودة الأمور إلى مكانت عليه دون أى تحسن فى أوضاع الفلسطينيين
الواقعين تحت الاحتلال ! .

وبطبيعة الحال فان الأمر مرتبط بطول نفس الانتفاضة حتى تحقق
هدفها ! ، أما اذا قصر هذا النفس ، سواء لنجاح القمع الاسرائيلى ، أو
لتسرب حرارة الانتفاضة بسبب حاجة الناس إلى استئناف معاشهم ،
فهنا يكون قبول المعروض أمرا واجبا ، للانتقال منه إلى موقع أفضل .

وربما كان رأى الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة هو الحاسم فى
هذا الصدد ، ليس فقط لأنهم هم الذين فاجأوا العالم بانتفاضتهم ،
وانما لأنهم هم الذين يعانون وحدهم من الاحتلال الاسرائيلى ، ومن
حقهم أن يقرروا لأنفسهم مصيرهم ! .

ولقد قال الرئيس مبارك فى خطاب ١٠ فبراير : « ان رغبتنا فى
التسوية السلمية لا تعنى قبولنا لأي تسوية لا تحقق مطالبنا » ولم يكن فى
وسعه أن يقول غير ذلك كحاكم مصرى ، ولكن فى وسع الفلسطينيين فى
الضفة الغربية وغزة أن يقولوا ما يشاءون ، أى أن يقبلوا أو يرفضوا ما
يرون ، دون ضغوط من هنا وهناك - أى من المنظمة أو من غير المنظمة ! -
فى ضوء صراع القوى الدائر الآن فى الأراضى المحتلة بين الشعب الثائر
والسلطة العسكرية القمعية الحاكمة .

ولربما كانت عبارة الرئيس مبارك فى هذا الصدد أكثر دقة بقوله :
«علينا أن نسعى إلى تحسين ما هو معروض ومطروح ، بالمشاورة

والتأثير الفعال بكافة الوسائل الممكنة ، لأن استرداد الحق عملية معقدة بالغة الدقة ، وليست قالباً جامداً يقول له المرء : كُنْ ، فيكون ! . وإذا تبين لنا أن الصيغة المطروحة تعود بنا إلى صيغة الحكم الذاتى - كما تشير بعض الدوائر - فسوف تكون نصيحتنا المخلصة أن نطورها على نحو آخر .

وتقديرى الشخصى أن الأوضاع فى اسرائيل تهيىء فى هذه الأيام فرصة لا تعوض لنقل القضية الفلسطينية إلى طريق الحل العادل ، لو اتبعت المقاومة الفلسطينية - فى داخل الأراضى المحتلة وخارجها - نصيحة الرئيس مبارك - أي تحسين وتطوير ما هو معروض ومطروح ، وليس المسارعة برفضه برمته - وفقاً للعادة القديمة ! .

فالشعب الاسرائيلى الآن - فى غالبية الكبري - مقتنع تماماً بأن الضفة الغربية وغزة هى أراضى محتلة ! ، وسوف تجلو عنها اسرائيل إن عاجلاً أو آجلاً . وإذا كان يوجد فى الشعب الاسرائيلى من كان يوهم نفسه بضم هذه الأراضى وتكوين دولة اسرائيل العظمى ، فقد أطارت الانتفاضة هذه الأوهام ! :

وربما كانت قراءة الصحف الاسرائيلية فيها الدليل على ذلك ، ف لأول مرة يطلق اسم الأراضى المحتلة على الضفة الغربية وغزة بمثل هذا الأسلوب ! ، وتوصف القوات الاسرائيلية بأنها قوات احتلال ! .

وقد وصلتني من لطيف دورى صحيفة « المرصاد » ، لسان حال حزب العمال الموحد (المابام) عدد ٣٠ ديسمبر ١٩٨٧ - فاذا بها لا تفترق كثيراً فى تناولها لأحداث الانتفاضة عن أية صحيفة مصرية أو عربية !

ففى صدر صفحاتها وبالمناشيت الأحمر تكتب : « الاحتلال يسوق مئات الشباب والصبية إلى المحاكم والسجون ! » ، وتقول : إن « المحافل العالمية تواصل توجيه الانتقادات والتنديد بالسياسة الاسرائيلية » .

وفى عدد ٢٧ يناير ١٩٨٨ كتبت الجريدة الاسرائيلية عن « ممارسات الاحتلال فى المناطق » ، وتحدثت عن « جرائم الاحتلال » التى تكتفى وسائل الاعلام الاسرائيلية بنشر القليل منها ، وقالت إن ممارسات الاحتلال فى المناطق المحتلة تثير سخطا عالميا يضع حكومة اسرائيل فى عزلة مطبقة عن الأسرة الدولية « إلى آخره ! .

والمهم أن مصر فى عهد مبارك ما زالت تقدم الدليل تلو الدليل على عروبتها ، وعلى تحملها مسئولياتها ازاء الشعب الفلسطينى ، ووقوفها فى الملومات إلى جواره مهما كلفها ذلك من مخاطرة ، تاركة لأبطال الصمود المزعوم السلامة والمتاجرة ، والمزيد من التردى ! .

مفارقات مميزان القوى بين العرب واسرائيل !

ربما كان أكبر ما يميز عصرنا هو أن السياسة فيها قد تعقدت إلى حد أصبح يفوق قدرة السياسيين على حلها وحدهم ، فكان على العلماء التقدم لمساعدة السياسيين على حل هذه المشاكل عن طريق الدراسات والأبحاث، التي تنعقد لها المؤتمرات التي يختلط فيها العلم بالسياسة .

وتعتبر مشكلة الشرق الأوسط أنموذجا لهذه المشاكل التي تعقدت على أيدي السياسيين حتى استفزت لحلها العلماء والأكاديميين من كافة التخصصات . ومن هنا تلك المؤتمرات العديدة التي عقدت خلال العقد الأخير من هذا القرن ، واشترك فيها علماء وسياسيون من كافة أطراف النزاع .

وقد كان الفلسطينيون يحجمون في البداية عن الاشتراك فيها تحت الاعتقاد بأنها شركاء تجذبهم لاتخاذ مواقف لا تناسب القضية الفلسطينية،

أكتوبر في ٤/٦/١٩٨٩

ثم أخذوا تدريجيا يدركون أهمية الاشتراك فيها ، حتى لا تبقى الساحة محتكرة للاسرائيليين فقط ، ولما تتيحه لهم من فرصة لاثبات وجهة نظرهم ، والدفاع عن مصلحة بنى وطنهم .

وفى مصر ، كان اليساريون والناصريون ينظرون لهذه المؤتمرات نظرة الشك والاتهام ، ويطالبون بشنق من يشترك فيها من العلماء والمتقنين المصريين ، وكان صاحب هذا القلم من بين هؤلاء الذين ارتفعت الصيحة بشنقهم . حتى ان جريدة الأهالي طالبت الشعب المصرى في أحد أعدادها بمقاطعتى وعدد من المفكرين والعلماء ، لحضورنا مؤتمرا فى فندق ووتر جيت بواشنطن .

والطريف أنه على الرغم من أنى كنت مصدر المعلومات الوحيد عن هذا المؤتمر وما دار فيه ، ورغم أنى وزملائى دافعنا عن القضية الفلسطينية بأفضل مما كان يدافع عنها قادتها ، الذين كانوا فى ذلك الحين يقودون أحقق السياسات وأفشلها - فإن الجهل والتعصب قاد البعض إلى إدراج هذا الدفاع عن القضية الفلسطينية في مؤتمر دولى ضمن ما أسماه بالتسلل الثقافى الاسرائيلى (هكذا !) .

بل إن بعض المرتزقة من ثوريى الكلام كتبوا نشرة بعنوان « التحرك الثقافى الاسرائيلى فى مصر » طبعها مركز الدراسات العربية بلندن ، بدون ذكر أسماء من كتبوها أو من كتبها ، أدخلوا فيها لقاء فندق ووتر جيت ضمن هذا التحرك ، كما لو أن دفاعنا في المؤتمر كان دفاعا عن اسرائيل وليس دفاعا عن القضية الفلسطينية - الأمر الذى استفزنى لمهاجمة هذه النشرة فى مقال لى بجريدة العرب اللندنية. فى ٨ ابريل ١٩٨١ .

ولكن هكذا كان حضور مثل تلك المؤتمرات مادة خصبة للمرتزقة من الكتاب يهاجمون فيها من حضروها ويرمونهم بتهم الخيانة لوطنهم ولل قضية الفلسطينية ! .

ثم حدث التحول الأكبر في موقف القيادة الفلسطينية ، الذي فرضته ظروف الانتفاضة ، فتحررت من شعارات المزايدين وثورتي الكلام والمتاجرين بالآلام الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة ، واعترفت بالدور الهام الذي تلعبه تلك المؤتمرات العلمية/السياسية في كسب التأييد للقضية الفلسطينية ، وفي اتخاذها ساحة عريضة للدفاع عن الحق الفلسطيني ، وأصبح حضور الفلسطينيين هذه المؤتمرات أمرا معتادا ، بل مطلوبا .

ومن هنا فقد ثوار الكلام في مصر الذريعة التي كانوا يتذرعون بها وهم يهاجمون العلماء المصريين الذين حضروا هذه المؤتمرات - ذريعة القضية الفلسطينية - بل لم يعد يمانعون في حضور هذه المؤتمرات .

وهذا ما حدث في المؤتمر الأخير عن « السلام في الشرق الأوسط » الذي عقد في فندق بوريفاج في أوشى - لوزان في ٢٣ - ٢٦ مارس ١٩٨٩ - إذ حضره الأستاذ محمد سيد أحمد ، عضو حزب التجمع البارز ، والمدير السابق لجريدة « الأهالي » . واستطاع من خلاله أن يعبر عن وجهة نظره أمام مشتركين من جهات كثيرة من العالم .

ويعتبر هذا المؤتمر أكبر مؤتمر عقد عن السلام في الشرق الأوسط من ناحية اتساع نطاق عدد الدول التي قدم منها مشتركون ، ومن ناحية شخصيات من حضر منهم .

فقد حضر عن الجانب الفلسطيني كل من فيصل الحسيني وحنا سنيورا ، وحضر عن الجانب الاسرائيلي أبا اييان ويائيل دايان (ابنة موشى ديان) وألوف هارييفين ، مدير معهد فان لير بالقدس ، وعدد من العلماء الاسرائيليين .

كما حضر عن الجانب المصري كل من السفير تحسين بشير ويوسف ادريس ومحمد سيد أحمد ومنى مكرم عبيد ، بالاضافة إلى صاحب هذا القلم .

كما حضر عن الجانب الأمريكى فيليب حبيب المبعوث الشخصى السابق فى الشرق الأوسط لرئيس الجمهورية الأمريكية ، وحضر عن الجانب السوفيتى البروفيسور ألكسى فازيلييف ، نائب مدير معهد الدراسات الخارجية بأكاديمية العلوم بموسكو - إلى جانب علماء قدموا من باريس ولندن وروما ونيويورك والدانمارك وألمانيا وقبرص .

وكان منظم المؤتمر هو البروفيسور فاتيكيوتيس ، أستاذ العلوم السياسية بمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن ، وصاحب مؤلفات هامة فى تاريخ مصر وتاريخ ثورة يوليو ، وله صداقات عديدة تمتد على مساحة العالم العربى ، وبسبب موضوعيته فإنه كثيرا ما تعرض لهجوم العناصر المتشجعة فى مصر التى تتوقع من كل صاحب قلم فى الخارج أن يكتب من نافذتها وليس من نافذته ! ولكنه - على كل حال - يحظى باحترام فى الدوائر العلمية فى الخارج .

وقد كان لى حظ مزاملته فى معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن كأستاذ زائر فى عام ١٩٨٠ - ١٩٨١ . وقد أشرف على عديد من الرسائل العلمية التى تتناول موضوعات فى تاريخ مصر .

والمهم هو أن هذا المؤتمر - كما قلت فى كلمتى التى ألقيتها فى إحدى جلساته - قد عقد تحت « اعتقاد متفائل جدا هو أن السلام فى الشرق الأوسط يتحقق إذا تحقق السلام بين إسرائيل وجيرانها » - وهو ما اتجهت إليه كل الأبحاث التى القيت فى المؤتمر ، مع أن الأحداث قد تجاوزت هذا المفهوم ونقلته إلى آفاق أخرى .

وعلى سبيل المثال - وكما قلت - فإن مصر عقدت معاهدة سلام مع إسرائيل ، وكان الاعتقاد أنها سوف تتوقف عن سباق التسلح ، وتوفر التسليح لعمليات التنمية . ولكن الخطر لم يكد يتوقف على حدودها الشرقية ، حتى بدأ على حدودها الغربية - أى الحدود المصرية الليبية - بعد أن أخذ القذافى يقود حملة رفض وتحريض وتهديد ضد مصر ، ويرسل عملاءه ومفرقاته إلى مصر، ويهدد أمن البلاد .

وفى الوقت نفسه فان استمرار الصراع بين اسرائيل والفلسطينيين ولبنان جعل من الضرورى الاحتفاظ بجيش قوى تأهباً لأي شيء ومن هنا فان معاهدة السلام مع اسرائيل لم تجلب لمصر السلام الذى كانت تصبو اليه ، ولم توفر نفقات التسليح لعمليات البناء !

وفى نفس الوقت بدأت الحرب بين العراق وايران ، لتستمر ثمانى سنوات ، وتكلفت تضحيات وخسائر بشرية ومادية هائلة . ومع أنها توقفت الآن ، الا أن العراق عليه أن يحتفظ بجيش قوى متطور ، ولا يستطيع أبداً أن يوقف سباق التسليح بينه وبين ايران تحسباً لهجوم فى المستقبل * .

كذلك فان الصراع العربى الاسرائيلى قد ولد عدة صراعات أخرى فى المنطقة ، كما ولد مشاكل ما زالت تسبب القلق والاضطراب فيها .

وعلى سبيل المثال ، فان فشل الحرب العربية الاسرائيلية الأولى فى منع قيام دولة اسرائيل قد أدى إلى سقوط عديد من الأسر والطبقات الحاكمة فى العالم العربى عن طريق انقلابات عسكرية امتدت على طول الوطن العربى ، وأخضعت معظم بلاد العالم العربى للحكم الدكتاتورى العسكرى ، الذى حرم الشعوب العربية من الاستمتاع بحريتها الداخلية واختيار حكوماتها الديموقراطية ، وبالتالي حرّمها من الاحساس بالأمن والسلام .

وفى الوقت نفسه فان الصراع العربى الاسرائيلى أدى إلى الانقسام الحالى فى العالم العربى . وأدى - بالتالى - إلى الصراعات والحرب الباردة العربية . ثم فيما بعد الحروب العربية العربية .

فلقد كان العالم العربى قبل بداية الصراع العربى الاسرائيلى يتجه إلى الوحدة الاقليمية ، التى عبرت عنها فى ذلك الوقت جامعة الدول

* أثبتت الغزو العراقى للكويت أن التسليح العراقى لم يكن لمواجهة إيران فقط ، وإنما لأغراض توسعية

العربية ، ولكن هذا الاتجاه توقف بعد النزاع العربي الاسرائيلي . اذ انقسمت الدول العربية إلى دول عربية محافظة ودول عربية ثورية وبعد هزيمة ١٩٦٧ انتهت فكرة الوحدة العربية . ثم بعد زيارة السادات للقدس انشقت جامعة الدول العربية بخروج مصر منها وانتقال مقرها إلى تونس ، وتحولت ليبيا لتصبح مصدر خطر على حدود مصر الغربية يجبر مصر على الاحتفاظ بجيش قوى . ووقعت بالفعل صدامات عسكرية بين البلدين . كذلك فان الصراع العربي الاسرائيلي قد أدى إلى تفجر الحرب الأهلية في لبنان وأدى إلى دخول الجيش الاسرائيلي لبنان واستمرار الوضع المتفجر فيه إلى الآن .

وفي الوقت نفسه فان نشوب الصراع بين الفلسطينيين والاسرائيليين في الأراضي المحتلة في الضفة الغربية وغزة قد أجبر كل دولة عربية على النظر إلى فكرة السلام على أنه أمل بعيد المنال ما لم تنسحب اسرائيل من الأراضي المحتلة وتدع للفلسطينيين تكوين دولتهم المستقلة .

وعلى هذا النحو فان تصور السلام في الشرق الأوسط في صورة سلام بين اسرائيل وجيرانها بدون حل للقضية الفلسطينية انما هو تصور خاطيء ، وعلى المؤتمر أن يؤكد على هذه النقطة اذا أريد تصور الشرق الأوسط يعيش في حالة سلام .

مع كل هذا الكلام الذي قلته ، الا أن الأبحاث التي قدمت للمؤتمر قد احتوت على ما يثير الانزعاج حقا ، ويؤكد على ضرورة التوصل إلى سلام في الشرق الأوسط تنعم به كل الأطراف .

وعلى سبيل المثال فان الورقة التي قدمها الوف هارييفين ، مدير معهد لير بالقدس ، قد تضمنت احصائيات عن حجم التسليح بين دول الشرق الأوسط تثير التأمل ، خصوصا بعد ان عقد المقارنة بينهما وبين حجم التسليح في كل من انجلترا وفرنسا !

وعلى سبيل المثال ، وفيما يتصل بعدد الدبابات - وهي السلاح الأرضي التقليدي في المعارك - فإن الاحصائية عن ١٩٨٧ - ١٩٨٨ تشير إلى أن عدد الدبابات التي تملكها كل من مصر والعراق والأردن والمملكة العربية السعودية وسوريا يبلغ ١٣٥٧٥ دبابة مقابل ٣٨٩٠ تملكها إسرائيل ومقابل ١٤٠٠ دبابة تملكها بريطانيا و ١٥٠٠ تملكها فرنسا ! ويخص مصر من عدد هذه الدبابات ٢٤٠٠ بينما يخص العراق ٥٥٠٠ والأردن ١٠٢٥ والمملكة العربية السعودية ٥٥٠ وسوريا ٤١٠٠ دبابة !

أما الطائرات ، وهي سلاح الجو التقليدي في المعارك ، فإن نصيب الدول العربية السالفة الذكر من عدد هذه الطائرات هو ٢١٥٢ طائرة مقابل ٦٨٢ تملكها إسرائيل ، و ٨٠٠ لبريطانيا و ٧٠٠ لفرنسا وتملك مصر وحدها ٦٠٠ طائرة ، والعراق ٧٠٥ ، والأردن ١٠٧ ، والمملكة العربية السعودية ١٩٠ وسوريا ٦٥٠ طائرة .

أما ميزانية الدفاع في كل بلد من البلاد السالفة الذكر ، فإن المقارنة تثير الدهشة . ويكفي أن نقول إنها بلغت في عام ١٩٨٧ في مصر ٦٤ مليار ، وفي العراق ٨ مليارات ، وفي الأردن ثلاثة أرباع المليار ، وفي المملكة العربية السعودية ١٦٢ مليار ! وفي سوريا ٣٤ مليارات ، وفي إسرائيل ٦٤ مليار .

ومعنى ذلك أن ميزانية الدفاع في كل من مصر وإسرائيل في ذلك العام قد تساوتا (٦٤ مليارات) كما بلغت ميزانية التسليح في المملكة العربية السعودية ضعف ميزانية التسليح في العراق (١٦٢ : ٨ مليارات) !

وفي الوقت نفسه تظهر الاحصائية تضاعف ميزانية الدفاع في مصر في السنوات العشر الأخيرة ، بدلا من أن تنخفض إلى النصف كما كان متوقعا بعد المعاهدة المصرية الاسرائيلية !

فقد عقدت هذه المعاهدة في مارس ١٩٧٩ ، وكانت ميزانية التسليح في العام السابق تبلغ ٢٨ مليارات ، فانخفضت في عام المعاهدة إلى ٢٢

مليارات ، وبقيت على هذا الرقم في عام ١٩٨٠ ، ثم انخفضت إلى ٢١ في عام ١٩٨١ ، ولكنها ارتفعت في العام التالي وما بعده إلى ٢٥ . وفي عام ١٩٨٤ قفزت إلى ٣٧ مليارات . والمهم أن مجمل ميزانية الدفاع في السنوات العشر في مصر من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٧ وصل إلى ٣١٩٠ مليارات من الدولارات .

أما في العراق فكان من الطبيعي أن ترتفع ميزانية التسليح والدفاع بسبب الحرب مع إيران من ٢٢ في عام ١٩٧٨ إلى ٣٥ في عام ١٩٨١ ، ثم إلى ٨١ و ١٠٣ ، و ١٢ ، و ١١ ، و ٨ مليارات من الدولارات في الأعوام التالية (١٩٨٢ - ١٩٨٧) ، بما وصل بميزانية الدفاع على مدى السنوات العشر من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٧ إلى ٦٩٦٠ مليار من الدولارات

وهذا ما يعادل ثلث ميزانية الدفاع في السعودية في نفس الفترة حيث بلغت ١٨٨ مليارات ، تدرجت في السنوات من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٧ على النحو الآتي : ٩٦ ، ١٤٢ ، ٩ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٦٩ ، ١٩ ، ١٨٥ ، ١٧٥ ، ١٧٣ ، ١٦٢ ، ١٦٢ ، ١٦٢ مليار من الدولارات - وهو ما يظهر الاهتمام البالغ الذي توليه المملكة العربية السعودية للدفاع عن نفسها .

أما إسرائيل ، فنلاحظ أنه في نفس العام الذي وقعت فيه المعاهدة المصرية والاسرائيلية ، وهو عام ١٩٧٩ ، ارتفعت ميزانية الدفاع فيها بنسبة الثلثين تقريبا ! إذ ارتفعت من ٣٣ في عام ١٩٧٨ إلى ٣٥ في عام ١٩٧٩ . كما ارتفعت في العام التالي ١٩٨٠ إلى ٦٥ مليارات ، ونزلت في عام ١٩٨١ بنسبة طفيفة إلى ٥ مليارات ، ثم ارتفعت في العام الذي يليه إلى ٤٥ مليارات . وفي الأعوام التالية من ١٩٨٣ إلى ١٩٨٧ أصبحت على النحو الآتي : ٤٦ - ٤٣ - ٤ - ٤٣ - ٤٦ .

والمهم أن اجمالي نفقات الدفاع في السنوات العشر السالفة الذكر في إسرائيل بلغ ٤٦٣ مليار - أي أكبر مما أنفقته مصر مرة ونصف ، وبما يعادل ربع ما أنفقته المملكة العربية السعودية تقريبا ! (٤٦٣ : ١٨٨ مليارات من الدولارات) .

والمهم أيضا أن مجمل ما أنفقته دول الشرق الأوسط الست السالفة الذكر فى السنوات العشر المذكورة قد بلغ ٣٦٧ مليارا من الدولارات ، منها ٤٦ مليارا فقط لاسرائيل ، والباقي وقدره نحو ٣٢١ مليارا من الدولارات أنفقته البلاد العربية!

والطريف أن هذه الأرقام تضيف اليها مصادر واشنطن ما بين ٥٠ و ١٠٠ فى المائة ، اذ يذكر أنتونى كوردسمان أنه فيما بين عامى ١٩٧٣ و ١٩٨٣ أنفقت دول الشرق الأوسط ٥٤٢ مليارا من الدولارات على قواتها المسلحة . ويبدو أنه أضاف إلى هذه الدول الست دولا أخرى - كما يقول هارييفين .

والمهم هو هذا السؤال : إلى أى حد خدمت هذه المليارات التى بلغت ٣٢١ مليارا أنفقتها الدول العربية على التسليح ، القضية الفلسطينية ؟ وإلى أى حد ألحقت الضرر بإسرائيل وخدمت الأمة العربية ؟ وهل يجدى الأمة العربية الآن أن تلطم الخدود وتشق الجيوب على ثروتها التى تبذرت فى الهواء *

* ملاحظة : لم تكن حرب الخليج قد نشبت بعد بكل ما أنفق فيها من مليارات .

أسطورة النظم التقدمية !

يبدو أنه على - قبل أن أبدا كتابة هذا المقال - أن أوضح للإخوة التقدميين ، وأيضا لمن يتاجرون بشعارات التقدمية ، أنني ربما كنت الأستاذ الجامعي الوحيد الذي لم أعمل فى أية جامعة من الجامعات المنتشرة فى بلاد البترول العربية ، سواء فى الخليج أو فى المملكة العربية السعودية. وبالتالي فلست مدينا لأى بلد من هذه البلاد بأى شئ . كما لا أنوى أن أعمل فى بلد من هذه البلاد فى المستقبل ، فان مسئولياتى فى بلدى تحرم على مجرد التفكير فى ذلك ، وبالتالي فلست أطمع من هذه البلاد فى شئ .

وبالتالى - أيضا - فان ما أكتبه فى هذا المقال لا يجب أن يؤول من أية قوة سياسية أو تقدمية أو تتاجر بالتقدمية بأى تأويل خاطئ ، وانما هو مجرد اعادة نظر ، أو اعادة تقييم لما ثبت فى أفكارنا على مدى نصف القرن

أكتوبر فى ١٢/٢ / ١٩٩٠

المنصرم من معتقدات وأيديولوجيات ، وما حملناه في رؤوسنا من صور
النظم التقدمية والرجعية .

ذلك أنه منذ أقدم صدام حسين على اجتياحه الاجرامى للكويت ،
تحت شعار مساعدة حكومة الانقلاب المزعومة أولا ، ثم تحت شعار عودة
الكويت إلى الوطن الأم ثانيا - أخذت تنطلق من أوساط سياسية معينة،
تتعاطف مع النظام العراقي، دعوى تقول إنه حتى لو انسحب النظام
العراقي من الكويت ، فإن النظام العربى فى هذه المنطقة يجب أن يتغير -
كأن الخل فى هذا النظام العربى هو الذى أدى إلى احتلال النظام
العراقى للكويت - وليس السبب الحقيقى الذى أدى هذا الاحتلال هو
المأزق الاقتصادى الذى وجد النظام العراقى نفسه فيه بعد حرب الثمانى
سنوات ، ورغبته فى هذا الخروج منه على حساب الكويت !

وقد غذى هذه الدعوى الباطلة ما أخذ النظام العراقى يغطى به
جريمة اجتياحه بلدا عربيا اسلاميا صغيرا مجاورا من اثاره قضية
توزيع الثروة العربية ، رغم ما يعرف الجميع فى هذا الوطن العربى وفى
خارج هذا الوطن من أن العراق ليس هو مصر ، وليس هو الأردن أو
تونس أو السودان واليمن - أى أنه ليس دولة فقيرة تعتمد على مواردها
المحدودة التى تكاد تحفظ حياتها بشق النفس ، وانما هو دولة بترولية
ثرية - أو أنها كانت دولة ثرية قبل أن تتكشف حماقة النظام العراقى فى
هجومه على ايران ، ويقذف فى أتون الحرب بعشرات ومئات المليارات من
أموال الشعب العراقى المنكوب .

ومعنى هذه الدعوة أنه اذا كان يراد اعادة توزيع الثروة العربية فان
على العراق أن يدفع من ثروة البترول التى أتته بدون تعب ولا جهد ما
يجب أن تدفعه أية دولة بترولية من دول الخليج أو السعودية ، بدلا من
احتلال الكويت وسرقة شعبها وتشريده وتخريبه . لأن ما فعله لا يدخل
فى باب توزيع الثروة ، وانما يدخل فى باب « تكويش » الثروة ، واحتكار

الثروة لحسابه الخاص ، والسيطرة على نحو عشرين في المائة من المخزون العالمى للبترول ، للانطلاق منه إلى « تكويش » بقية الخليج عن طريق احتلال بقية دولها !

هذا ما يجب أن يفهمه كل من يملك رأسا يفكر في هذا الوطن العربى الكبير ، وليس من يملك مجرد يدين كبيرتين تقبضان الثمن للترويج لهذه الفكرة المضللة ، والتعمية على السبب الحقيقى لغزو العراق للكويت ، وتصويره فى صورة خلل النظام العربى !

وفى الحقيقة أن النظام العربى قبل الغزو العراقى للكويت لم يكن به من داء ينخر فى عظامه ويورثه الشلل ، الا وجود نظام صدام حسين والنظم المثيلة التى فرضت دكتاتوريتها على الشعوب العربية وقتلت أبنائها ، وأهدرت ثرواتها وبددت طاقتها .

هذه النظم هى التى أطلق عليها خطأ اسم : « النظم التقدمية » ، لا لشيء الا لأنها طبقت بعض مبادئ الاشتراكية ، وأملت وسائل الانتاج فيها ، أو بعضها ، وقدمت للعالم خليطا غريبا من الاشتراكية والرأسمالية ، والديموقراطية والدكتاتورية ، يعد أسوأ بكثير مما قدمته النازية التى أطلقت على نفسها اسم الاشتراكية الوطنية ، ومن هاتين الكلمتين صيغ اسم « النازى » الذى أصبح علما على حزب هتلر .

ولا أستطيع أن أتبرأ ، أو يتبرأ كل الاشتراكيين الحقيقيين فى هذا البلد من تهمة أننا نحن الذين أطلقنا على هذه النظم اسم « النظم التقدمية » ، وأطلقنا على النظم الأخرى اسم « النظم الرجعية » أو المحافظة .

لقد كنا تحت وهم أن ما رأيناه من تأمين وسائل الانتاج يساوى الاشتراكية التى قرزنا عنها فى الكتب وحفظنا نظرياتها ، وكانت أنظارنا مركزة على البناء التحتى لنظام الحكم ، ولم نلتفت إلى الممارسات الفاشية التى كان يمارسها النظام فى البناء الفوقى ، كما أننا نلتفت إلى الممارسات الأخرى التى تخالف كل ما يقضى به البناء التحتى .

ومن هنا فقد أطلقنا على نظام عبد الناصر صفة النظام « التقدمى » ، رغم أنه وضع الاشتراكيين المصريين فى السجون ، واستشهد فى سجنه اشتراكيون خدموا الفكر الاشتراكى فى مصر بأمانة و إخلاص ، وقدموا كل ما يمكن من تضحية .

وقد صدق عبد الناصر نفسه أن نظامه نظام تقدمى ، وأنه نظام اشتراكى ، لدرجة أنه أخذ يشن هجومه المتواصل على النظم العربية الأخرى التى تأخذ بالنظام الرأسمالى ، باعتبارها نظاما رجعية ، وكان على رأس هذه النظم المملكة العربية السعودية ، التى أخذ يحرض على تغيير نظام الحكم فيها عن طريق تأليب شعبها على النظام لقلبه .

وعندما ثار بضعة ضباط فى اليمن بقيادة عبد الله السلال ، ضد الحكم الملكى ، تصور عبد الناصر أن الشعب اليمنى بأجمعه يقف صفا وراء قيادة الانقلاب على نحو ما فعل الشعب المصرى عندما قامت ثورة يوليو، فأرسل قوات الجيش المصرى لحماية هذه الثورة التقدمية ! ولم يمض قليل حتى اكتشف عبد الناصر أن الشعب اليمنى فى وادٍ ، وقيادة الثورة اليمنية فى وادٍ آخر ، وأن نظامه القبلى كان يجعل الشعب اليمنى أميل إلى القبول بحكم الإمامية منه إلى القبول بحكم بضعة ضباط من أفراد الشعب . وسرعان ما وجد الجيش المصرى نفسه يخوض معاركه ضد الشعب اليمنى بدلا من أن يخوضها ضد الأسرة المالكة !

وعلى هذا النحو استنزفت ثروة الشعب المصرى فى قتال ضد الشعب اليمنى استمر خمسة أعوام ، حتى نشبت حرب يونية ١٩٦٧ لتستنزف الباقى من الثروة فى شكل الأسلحة التى تركت فى سيناء بدون استعمال ، وتقدر بنحو أربعة آلاف مليون دولار ، أو فى شكل الأسلحة التى كان على الجيش المصرى أن يتسلح بها لخوض حرب أكتوبر . حتى إذا ما كان اليوم السابق على عبور قواتنا المسلحة القناة ، كان الاقتصاد المصرى قد وصل إلى الصفر ! وذلك بفضل النظام التقدمى المظفر لعبد

الناصر ، وبلغ مقدار ما أنفق على المجهود العسكرى عشرة مليارات من الدولارات وفقا لمحمدحسنيين هيكل .

ومن الطريف أنه فى خلال ذلك قام عبد الناصر بتغيير جوهرى فى استراتيجية الوحدة العربية ، فقد غير شعار حرية - وحدة - اشتراكية إلى : حرية - اشتراكية - وحدة - أى أنه قدم قيام النظام الإشتراكى على الوحدة ، وقسم العالم العربى إلى قسمين : قسم اشتراكى قابل لقيام الوحدة بين أجزائه ، وقسم رأسمالى رجعى لا تقبل الوحدة مع أى من أجزائه ! ووقف عبد الناصر متفاخرا فى الميثاق يقول . إن مفهوم الوحدة قد تجاوز المفهوم السياسى إلى المفهوم الاجتماعى - أى الوحدة بين النظم التقدمية وحدها !

وبطبيعة الحال فلم تتحقق أية وحدة حقيقية دائمة ، لا بين النظم العربية التقدمية ، ولا بين النظم الرجعية ! بل من الطريف أن الوحدة المصرية السورية لم يفجرها الا القضية الاجتماعية عندما أراد عبد الناصر تطبيق النظام الاشتراكى على سوريا وهى غير جاهزة له !

وكل ما حدث هو انقسام العالم العربى - الذى توحد فى جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٤ - إلى نظم تقدمية ونظم رجعية ، أما النظم التقدمية فهى تلك التى يحكمها قادة الانقلابات العسكرية بعد أن تحولت إلى جمهوريات ، وأما النظم الرجعية فهى تلك التى ما زالت تحتفظ بنظامها الملكى !

وقد ظل هذا هو الوضع حتى أفاق عبد الناصر منه مع هزيمة ١٩٦٧ ، عندما ضم مؤتمر الخرطوم النظم التقدمية والرجعية على السواء . ولكن عداء عبد الناصر ظل قائما للنظم الملكية « الرجعية » فى نظره . أى ظل معاديا للملك حسين فى الأردن ، والملك فيصل فى السعودية ، والملك الحسن فى المغرب ، والملك إدريس فى ليبيا ، وكان يتوق إلى التخلص من هذه النظم الرجعية .

فقد أيد ثورة الفلسطينيين على الملك حسين التي استطاع سحقها في أيلول الأسود ١٩٧٠ ، وأيد كل الثورات التي قامت في وجه الملك الحسن في المغرب ، كما سارع إلى تأييد الثورة الليبية بقيادة العقيد معمر القذافي ، وأيد - كما سبق أن ذكرنا - ثورة السلال ضد الملك يحيى في اليمن ، كما أيد من قبل ثورة عبد الكريم قاسم ضد النظام الملكي في العراق . وكان عبد الناصر على استعداد لارسال القوات المصرية لمساندة كل ثورة تقوم ضد أى ملك عربى ، لتوسيع قاعدة النظم التقدمية ، التي كان يرى ضرورتها لأية وحدة عربية حقيقية .

ومن الغريب أن الأحوال في النظم التقدمية كانت تسير بشكل شبه ثابت ضد الوحدة ! - أى على عكس ما كان يتصور عبد الناصر ! - ولم يثبت على ولائه له غير الثورة الليبية بقيادة العقيد معمر القذافي .

لقد انتهت الوحدة المصرية السورية بكارثة الانفصال ، الذى دق مسمارا كبيرا فى نعش الوحدة العربية ، بل أفقد عبد الناصر نفسه الأمل بإمكانية تحقيق الوحدة العربية . وبعد ذلك كانت علاقة عبد الناصر بحكومات الانفصال من أسوأ ما يمكن .

أما بالنسبة للنظام العراقى ، فقد خاض عبد الناصر معركة ضارية ضد عبد الكريم قاسم ، خصوصا بعد ادعاءاته في الكويت ، التي اعتبرها عبد الناصر محاولة اقليمية وليست وحدوية . وكانت القاهرة مقر « التجمع القومي العراقى » بعد فشل حركة الموصل في آذار مارس ١٩٥٩ ، وكان هذا التجمع يستهدف اسقاط حكم عبد الكريم قاسم .

وفى عهد حسن البكر ونائبه صدام حسين وقع أكبر صدام مع عبد الناصر ، عندما قبل الأخير مبادرة روجرز ، وانتهزها النظام العراقى فرصة للمزايدة على ثورية عبد الناصر . فلم يتردد عبد الناصر في مهاجمة الرئيس العراقى بحضور سبعة رؤساء دول عربية فى مؤتمر طرابلس فى ٢١ يونية ١٩٧٠ ، فقد قال له :

« من سوء الحظ أننا لا نستطيع أن نثق فيكم. إن تجاربنا السابقة معكم تدعونا إلى الشك فيكم وفي كل ما تتقدمون به ! لقد كنت أنت رئيس الوفد العراقي الذي جاءنا سنة ١٩٦٣ يتباحث في موضوع الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق ، وثبت أن كل ما قلتموه لم يكن بكل أسف الا كذبا علي طول الخط . وفي حين جئتم تتحدثون عن الوحدة كنتم تعتقلون الوجدويين ! انكم تتحدثون عن معركة قومية ، وأنتم في الحقيقة لا تقومون الا بمناورات حزبية . لقد أن الأوان لكي تعرفوا أن الأمة العربية لم تعد تستطيع تحمل المناورات . ان تحرير فلسطين لن يكون بالكلمات وانما تحرير فلسطين يكون بالدم » .

وقد ساند الملك حسين عبد الناصر في قوله ان النظام العراقي يحارب بالكلمات ، فقال إنه عندما وجهت اسرائيل لواء مدرعا اجتاز الخطوط اللبنانية فجر يوم ١٣ مايو ١٩٧٠ تعزيزه المدفعية والطيران ، لتصفية قواعد المقاومة الفلسطينية في المرتفعات الجنوبية الشرقية من لبنان ، أذاع راديو بغداد أن المدفعية العراقية في الأردن قصفت القوات الاسرائيلية المتقدمة ، ولكن الملك حسين اكتشف كذب هذه الادعاءات ، وأنه لم يحدث شيء من هذا القصف ! وبعد ساعتين من الاذاعة الكاذبة قامت احدى بطاريات المدفعية العراقية بتوجيه بعض الطلقات نحو العدو ، الذي لم يكن في مجال الرماية العراقية ! وقال الملك حسين : لا نريد أن يحدث مثل هذا ، لا يمكن أن يذاع بيان في اذاعة بغداد ، وبعده بساعتين تطلق قنابل لا يمكن أن تصل إلى مواقع العدو » !

والطريف أن كل النظم التي كان عبد الناصر يعتبرها تقدمية في ذلك الحين ، كانت تهاجم مصر بسبب قبولها مبادرة روجرز ! وقد تمثلت هذه النظم في العراق وسوريا والجزائر . بل إن اليمن الجنوبية ، التي كانت في ذلك الحين واقعة تحت نظام شيوعي ، هاجمت عبد الناصر معلنة أنها مصممة على الحرب والتحرير من النهر إلى البحر ! وعندما أبلغت هذا التصميم لموسكو ، سأل الجانب السوفيتي الوفد اليمني قائلاً : ولكنكم

هنا لتحصلوا علي ١٠ طائرات وخمسين دبابة ، فهل أنتم قادرون علي الحرب بهذه القوات ؟

وقد وجه محمد حسنين هيكل هجومه إلى كل من العراق وسوريا والجزائر ، لرفعها شعار الحرب الشاملة دون أن تحارب بالفعل^١ ورفع باسم النظام الناصري شعار : « إن الذين لا يحاربون ، ليس من حقهم أن يعلموا غيرهم ممن حاربوا فعلا كيف تكون الحرب » .

والمهم أن ما اعتبر في ذلك الوقت نظما تقدمية . كان موقفها من مصر ، ومن القضية الفلسطينية ، ومن القضايا القومية . موقفا تجاريا لا ثوريا ! كما كان علي يدها بالذات تعطيل حركة الوحدة العربية التي وضعت أساسها جامعة الدول العربية ، والتي أرسى أساسها الملوك الرجعيون !

وهذا يثير الشك في أن هذه النظم التقدمية قد زرعته الامبريالية في العالم العربي لكي تستديم سيطرتها على العالم العربي ، وتستنزف ثرواتها . ومن المعروف أن جميع هذه النظم قد نشأت نتيجة لانقلابات عسكرية ناجحة لا يدرى أحد دور الامبريالية في نجاحها ، أو حجم هذا الدور^١

وسواء كان للامبريالية دور ، أو أن التخريب الذي مارسته هذه النظم ضد شعوبها كان يحقق أغراض الامبريالية بأكثر مما كانت تحلم به ! - فيكفي أن نورد المثل بما ألحقه النظام العراقي الحالي من خراب بالعراق لم يكن في وسع أية قوة امبريالية أن تلحقه به بدون حرب تخوضها ضد العراق وتهزمه وتحتل بغداد !

ففي خلال مدة هذا الحكم التقدمي المشئوم ، استطاع أن يدفن نحو نصف مليون شهيد من أبناء الشعب العراقي على مدى ثماني سنوات من الحرب العراقية الايرانية ، وهي حرب لم يكن ثمة ضرورة لها - كما ثبت من تنازل صدام حسين الأخير لايران ! - فقد تنازل عن كل دعاويه

التي شن الحرب ضدها على أساسها ، وكأن النصف مليون شهيد
العراقي كانوا نصف مليون قطة عراقية !

وعلى المستوى الاقتصادي كان العراق دولة غنية عندما تولى
حكمها هذا النظام ، فوجه ثرائها إلى اقتصاد الحرب ، وضاع أكثر من
مائة مليار من الدولارات علي أسلحة الدمار ، تحولت العراق بعده إلى
دولة محتاجة ، تحاول أن تسد حاجاتها عن طريق احتلال الكويت ودول
الخليج ! وتستخدم في ذلك ذريعة تاريخية باطلة تدعى فيها أن الكويت
أرض عراقية !

وعلى مستوى التحرر من الاستعمار والصهيونية ، فلم تلعب هذه
النظم أى دور ذي قيمة في تحرير الشعب الفلسطيني ، كما أنه كان
بفضل النظام العراقي التقدمي أن جاءت أساطيل الغرب بعد اجتياحه
للكويت ، بارادة شعوبها هذه المرة ، لاجباره على الانسحاب من الكويت ،
وحماية دول المنطقة من عدوانه مستقبلا !

وما ينطبق على النظام العراقي ينطبق على النظم « التقدمية »
الأخرى - التي لا نرى حاجة للتعرض لها حرصا على علاقات مصر
معه . ويكفى القول انه لا يوجد نظام منها استطاع أن يحقق لشعبه ما
حققته النظم الرجعية .

إن كل من يعرف ما تحقق في الكويت أو السعودية أو الامارات أو
البحرين أو غيرها من تقدم مذهل في كافة المجالات ، وما وفرتة هذه
النظم لشعوبها من أمن واستقرار ورخاء ، وما حفظته من ثروة شعوبها
وحياة الأفراد ، ويقارن ذلك بما تحقق في النظم التقدمية ، من حروب
وموت ودمار واحتلال وخراب اقتصادي ، ليعرف فساد الدعوى التي تطلق
حاليا عن تغيير النظام العربي في هذه المنطقة ، اللهم الا اذا كان
المقصود أن يستبدل بهذه النظم الرجعية نظما أخرى « تقدمية » من طراز
نظام صدام حسين في العراق تقود الأمة العربية إلى الهلاك !

مصر والجزائر .. والاحتكام إلى التاريخ !

لست أعتقد أنني أنوى الدخول في
المعركة الدائرة حالياً بين الأستاذ
إبراهيم سعدة وبعض الصحف
الجزائرية لجملة أسباب :

أولها أنني أوافق على كثير مما
كتبه الأستاذ إبراهيم سعدة ، وأعتقد
أنه يعبر عن كثير مما يجول في خاطري
في هذا الصدد .

والثاني أن مستوى الحوار من
الجانب الجزائري قد تدنى إلى حد
يخرجه من دائرة الحوار ومن دائرة
الموضوعية .

أما السبب الثالث فهو أن الجزائر
كانت البلد العربي الوحيد الذي
أمضيت فيه تسعة أشهر من حياتي
أستاذاً في جامعة قسنطينة ، ولى فيه
تلامذة بعضهم الآن من هو عضو هيئة
تدريس في واحدة أو أكثر من
الجامعات الجزائرية ، كما أن لى فيه

* أكتوبر في ١٩٨٨/٧/٣

أصدقاء ، ولست أنوى أن أنزل بنفسى إلى مستوى حوار من هذا النوع
قد يؤثر على صورتى لدى التلاميذ والأصدقاء .

وإنما أنوى فقط أن أصحح بعض الوقائع التاريخية التى وردت فى
كتابات بعض الصحفيين الجزائريين الذين خرجوا عن اطار مهاجمة
الأستاذ إبراهيم سعدة إلى مهاجمة مصر ، وشعب مصر ، وسياسة
مصر ، وزعيم مصر - وهو شر ما ينجر ف إليه كاتب ينسى مسئولياته
القومية ، وينسى أمانة الكلمة ، وينسى حقائق التاريخ ، ويتخذ من قلمه
معول هدم بدلا من أن يتخذ أداة تصحيح وبناء .

فحين يكتب كاتب جزائرى يصف مصر بأنها «لاتعدو أن تكون نقطة
جغرافية شاردة وسط القارة الافريقية ولا ذكر لها ولا دور» ! - فلا
نستطيع إلا أن نصفه - بأدب شديد - بأنه يجهل التاريخ ، ويجهل
الجغرافيا ويجهل السياسة ، ، بل ويجهل آداب الكتابة أيضا . ولا
نستطيع حتى أن نمنحه شرف وصفه بأنه عدو لمصر ، لأن أعداء مصر
يعرفون قدرها ولا يقولون هذا الهراء ، ولا ينزلون بأنفسهم إلى المستوى
الذى يعرضهم للسخرية والاستهزاء ! .

اننى أعرف المشكلة التى يعانى منها شعب الجزائر ، والتى لم يكن
له يد فى صنعها ، وإنما صنعها الاستعمار الاستيطانى الفرنسى الطويل
الذى استمر قرابة قرن ونصف - وهو أطول استعمار غربى لبلد عربى ،
إذ استمر من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٩٦٢ ، هذه المشكلة القومية هى
مشكلة تأكيد قوميته المزعزعة ، واثبات هويته العربية .

وقد يعجب القارىء لوجود مشكلة من هذا النوع ، وهو معذور فى
تعجبه ! ، لأن الشعب المصرى لم يعان من هذه المشكلة على مدى تاريخه ،
فعلى طول التاريخ كان الشعب المصرى يعرف أنه شعب مصرى ، ويعرف
حدوده الجغرافية ، ويعرف الحكومة المركزية ، ويعرف نظم الإدارة ،
ويعرف القوانين التى تطبق على جميع السكان ، ويتطور من طور إلى طور

مع أطوار الحضارة المختلفة ، ويعرف كيف يصنع التاريخ، ويؤثر في العالم القديم والوسيط والحديث والمعاصر.

وهو ما لم يعرفه شعب الجزائر ، لأسباب جغرافية واجتماعية وسياسية .

ويكفى هنا أن أقول إنه بعد نصف قرن من اطلاق صيحة «مصر للمصريين» فى الثورة العرابية ، لم يكن الشعب الجزائرى يعرف أنه شعب جزائرى عربى ! ، ولم يكن حتى يعرف بوجود وطن جزائرى يموت دفاعا عنه ! ، ولم يكن يعرف بوجود وطنية جزائرية ، وإنما كان يعتقد أن الجزائر فرنسية ! ، وأنه شعب فرنسى مسلم ! .

وحتى لا يظن القارىء أننا نهزل ، فاننا نورد هنا نصا لفرحات عباس ، الزعيم الوطنى المشهور ، الذى كان رئيسا لحزب الاتحاد لأنصار البيان الجزائرى ، والذى أصبح فيما بعد رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة أثناء الثورة الجزائرية فى ١٩ سبتمبر ١٩٥٨ . لقد كان فرحات عباس يعتقد حتى وقت قريب أن «الجزائر أرض فرنسية !» ، وأن الجزائريين - حسب قوله - «فرنسيون لنا نظام اسلامى لأحوالنا الشخصية» ! .

بل إنه فى يوم ٢٣ فبراير ١٩٣٦ نشر مقالا شهيرا فى جريدة «الأنتانت» L'entente ينكر فيه بصفة قاطعة وجود وطن جزائرى أو قومية جزائرية! ، ويقول إنه سأل الأحياء والأموات وزار القبور فلم يجد من يحدثه عن هذا الوطن ! ، ويمضى فى مقاله فيقول :

«كان يمكننا أن نكون من القوميين ، وهذا الاتهام ليس بالشئ الجديد ، فقد تحدثت إلى شخصيات عديدة حول هذا الموضوع ، ورأى معروف .

فالاحساس القومى هو ذلك الشعور الذى يدفع بشعب إلى العيش داخل حدوده الترابية ، وهو الشعور الذى خلق هذا العدد من الأمم . ولو كنت قد اكتشفت أن هناك أمة جزائرية لغدوت إنسانا قوميا ، ولن يحمر

وجهى آنذاك خجلا كما يحمر من ارتكاب جريمة ، فالرجال الذين يموتون دفاعا عن فكرة وطنية يُجلون ويُحترمون أبلغ الاحترام ، وليست حياتى بأغلى وأثمن من حياة هؤلاء .

«ولكنى لن أموت من أجل الوطن الجزائرى ! ، لأن هذا الوطن غير موجود ! ، ولم أستطع الاهتداء إليه ! . ولقد سألت التاريخ ، وسألت الأحياء والأموات ، وزرت القبور ، فلم يحدثنى أحد عن هذا الوطن ! ، وليس فى وسع إنسان أن يقيم بناء على الريح ! . ولقد بددنا نهائيا السحب الكثيفة والأوهام ، لنربط - إلى الأبد - مستقبلنا بما تحققه فرنسا فى هذه البلاد . ولا أرى إنسانا يؤمن إيمانا جديا بقوميتنا » ! .

هذا الذى كتبه زعيم وطنى كبير كفرحات عباس ، تولى رئاسة الحكومة الجزائرية المؤقتة فيما بعد ، يرسم للقارئ صورة واضحة لما وصفته من مشكلة الجزائر القومية ، وهى مشكلة البحث عن هوية ! . وهى مشكلة تنفرد بها الجزائر ، ولا تقع فى تونس أو المغرب على سبيل المثال ، لأسباب تاريخية تتمثل فى أنه لم يكن هناك على مدى التاريخ دولة اسمها الجزائر !

أى على العكس تماما مما كان عليه الحال بالنسبة لمصر ، فقد كان هناك على الدوام منذ أقدم العصور دولة اسمها مصر !

فمنذ الفتح الإسلامى لشمال أفريقيا توالى على حكم المغرب العربى عدة دول قوية عملت على توحيدة بقدر ما تستطيع تحت سلطانها ، ولم تكن هذه الدول تنتسب إلى بلد من بلاد المغرب ، وإنما كانت تنتسب لصاحب الأمر أو للعقيدة .

وكانت أولى هذه الدول هى دولة الأدارسة ، التى سقطت فى سنة ٣٠٥ هـ على يد قائد الدولة العبيدية . وفى تلك الأثناء كانت قد تأسست دولة الأغالبة فى ١٨٤ هـ لتستمر إلى سنة ٢٩٦ هـ ، وقد شمل حكمهم ما يعرف الآن بتونس والجزائر .

وفى سنة ٤٦٢ هـ تأسست دولة المرابطين التى وحدت المغرب العربى كله. وفى أثناء وجود هذه الدولة قامت دولة الموحدين سنة ٥٤١ هـ واستطاعت القضاء على دولة المرابطين ، وأخضعت بلاد المغرب من أقصاها إلى أقصاها .

وقد كان فى أواخر هذه الدولة أن انقسم المغرب العربى إلى ثلاث دول : دولة الحفصيين التى امتد سلطانها على تونس والجزائر الحالية فيما عدا تلمسان ، التى قامت فيها دولة بنى الواد سنة ١٢٣٥ م ، ودولة بنى مرين فى المغرب الأقصى .

وفى كل ذلك لم تكن ثمة دولة باسم الجزائر كما هو واضح ، كما لم يكن ثمة كيان قومى جزائرى له حدود جغرافية محددة ، أو تراث قومى جزائرى له سمات حضارية موحدة ! .

ولم يبدأ الأمر إلا عندما دخلت الجزائر فى حظيرة الدولة العثمانية وتكوين ما عرف باسم «نيابة الجزائر» أو ولاية الجزائر ، وكانت تقتصر على شمال الجزائر . وقد جرت محاولات لتوسيع النفوذ العثمانى جنوبا، وأرسلت طوابير عسكرية إلى واحات ورغلة وتوغرت داخل الصحراء ، ولكن لم تكن ثمة سلطة تتركز على إدارة مباشرة ، وإنما اعتمد العثمانيون على محالفات القبائل ، وتركوا التكتلات القبلية القوية - وخاصة فى بلاد القبائل - دون تدخل فى شئونها .

وهذا الوضع هو الذى أتاح الفرصة للفرنسيين للقول بأن الجزائر بحدودها الجغرافية الواسعة إنما هى من خلق فرنسا ! وقد أخذ شأن مدينة الجزائر فى التضاؤل منذ القرن الثامن عشر حتى إنه عندما تم استيلاء الفرنسيين عليها فى سنة ١٨٣٠ كان سكانها قد هبطوا إلى ٣٠ ألف نسمة .

والمهم - بالنسبة لموضوعنا - أن نوضح الفرق بين الجزائر ودولة كدولة المغرب ، برزت كدولة كبرى فى مطلع العصور الحديثة ، وألحقت بالجيوش البرتغالية الهزائم ، وكونت شخصيتها القومية وحكومتها

الوطنية ونظاما كاملا للإدارة الداخلية ، سواء فى عهد الأسرة السعدية أو فى عهد أسرة الأشراف العلويين الممتدة حتى الآن ، ولم تخضع للسيادة العثمانية ، وذلك من شهادة عدو لدود للمغرب هو الجنرال ليوتى، المقيم الفرنسى العام فى المغرب ، فى تصريح له بمدينة ليون فى ٢٩ فبراير سنة ١٩١٦ ، قارن فيه بين وضعية الجزائر عند احتلال فرنسا لها، ووضعية المغرب ، وفى هذه الشهادة قال :

«بينما وجدنا أنفسنا فى الجزائر إزاء مجتمع فى حكم العدم ، وأمام وضعية مهلهلة قوامها الوحيد هو نفوذ رأى التركى ، الذى انهار بمجرد وصولنا - إذا بنا نجد فى المغرب امبراطورية تاريخية مستقلة ، تغار إلى أقصى حد على استقلالها وتستعصى على كل استعباد . وكانت هذه الدولة إلى السنوات الأخيرة تظهر بمظهر دولة قائمة بذاتها ، بموظفيها على اختلاف مراتبهم ، وبتمثيلها فى الخارج ، وهيئاتها الاجتماعية التى لا يزال معظمها موجود على الرغم مما طرأ على السلطة المركزية مؤخرا من تدهور ، وسفرائها الذين كانوا منذ ست سنوات فقط سفراء للمغرب فى بطرسبورج وبرلين ومديريد وباريس » .. إلى آخره .

هذا هو السبب فى أنه بعد مائة عام من الاحتلال الفرنسى كان الجزائريون فى غالبيتهم قد نسوا هويتهم الوطنية والقومية ، واعتقدوا أنهم فرنسيون لهم نظام اسلامى لأحوالهم الشخصية ! ، وهو السبب أيضا فى أن زعيما وطنيا كبيرا مثل فرحات عباس يكتب فى عام ١٩٣٦ - أى فى الوقت الذى كان شباب مصر يخرج إلى الشوارع صائحا : الاستقلال التام أو الموت الزؤام ! ، ويعد نصف قرن من صيحة مصر للمصريين أثناء الثورة العرابية - منكرا وجود قومية جزائرية أو وطن جزائرى ، ويقول إنه لن يموت من أجل الوطن الجزائرى لأن هذا الوطن غير موجود ! .

وهو نفسه السبب فيما أطلقنا عليه اسم المشكلة القومية التى يعانى منها الجزائريون ، وهى «مشكلة البحث عن هوية» ، وهى مشكلة تأكيد

القومية المزعزعة ، واثبات الهوية العربية . وهى مشكلة لايعرفها إلا من كابد العيش فى الجزائر فترة من الفترات .

فأذكر أننى حين حضرت حفل افتتاح العام الدراسى فى جامعة قسنطينة فى سبتمبر ١٩٧٣ ، تصورت أننى فى فرنسا ولست فى بلد عربى ! ، فقد كانت الخطب التى ألقاها رئيس الجامعة والخطباء كلها باللغة الفرنسية ، وحين قام واحد ليقدم - فى عربية ركيكة - موجزا لما قيل من خطب ، خرج الجميع : أساتذة وطلبة ! ، ولم يبق سوى ونفر قليل من الأساتذة المصريين ونحن فى ذهول نتساءل : هل نحن فى بلد عربى حقا ؟ .

فى ذلك الوقت كان الرئيس الجزائرى هوارى بومدين يرفع شعار الوحدة المغربية الذى كان يطمع فى أن تحتل الجزائر فيها مركز الزعامة ، ولا يرفع شعار الوحدة العربية ، التى تبعد أمل الجزائر فى الزعامة ، على الرغم من أنه كان يخوض معركة التعريب .

وقد اضطررتُ فى ذلك الحين إلى عمل قاموس جزائرى عربى صغير يشتمل على الكلمات والمصطلحات البسيطة التى تواجه الحياة اليومية ، بعد أن عجزت تماما عن فهم ما يتكلم به الجزائريون ، إلا داخل الجامعة!.

ولقد مرت مياه كثيرة تحت الجسور منذ ذلك الحين ، فوفقا لآخر تصريح فإن عدد الذين تعربوا - أى تعلموا اللغة العربية - بلغ عشرين مليونا من نحو ثلاثة وعشرين مليونا ، وهو أمر طبيعى إذ وُلد ثلثا السكان فى عهد الاستقلال .

على أن المشكلة بالنسبة للجزائر تمثلت فى أنها - بكيانها الحديث الممزق بين الثقافة الفرنسية والثقافة العربية - تمثل أضعف الكيانات فى المغرب العربى ، إذ تقع بين كيانين عربيين عريقين ، هما : الكيان التونسى والكيان المغربى ، ولكنها تحاول أن تحتل موقع الزعامة عليهما دون أن

تملك المقومات القومية أو الحضارية التي تؤهلها لهذه الزعامة ، وهو ما يدركه بسهولة كل فرد يزور تونس أو المغرب ثم يزور الجزائر .

وهذا يفسر نزعة التشدد التي تحاول السياسة الجزائرية الظهور بها في الشئون العربية ، حين تبدى التشدد في الصراع العربى الاسرائيلى ، وحين انضمت إلى جبهة الصمود والتصدى - كما يفسر أن هذا التشدد لم يترجم إلى أعمال من أى نوع ! فهى لا تعطى الفلسطينيين مالا أو سلاحا ، وانما تعطيهم كلاما حماسيا فقط ! . وهى تناصب الاسرائيليين العداء ، ولكنها لا تحاربهم اكتفاء بالمقالات والخطب والتصريحات ! وحين تقرأ كلام الصحف الجزائرية عن اسرائيل يخيل إليك أن الطائرات الجزائرية تدك تل أبيب ، بينما هى تستعد لمواجهة بلد عربى مجاور هو المغرب ! .

ومحاولة الجزائر التنافس مع مصر على زعامة الأمة العربية هى من نفس الطراز الكوميدي الذى تحارب به اسرائيل ، فهى تنسى أن الزعامة مقومات وامكانيات وليست ادعاء ، وتنسى أن البلاد العربية هى التى وضعت مصر فى موضع الزعامة ، ولم تسع إليها مصر - كما يشهد التاريخ .

بل إن محاولة الجزائر أن تلعب دورا ينافس دور مصر هى أيضا محاولة كوميدية ، فالجزائر بموقعها وبثقلها الحضارى لا يكاد يحس بها أحد ولا تؤثر تأثيراً يذكر ، بينما مصر بموقعها وثقلها الحضارى تؤثر ، حتى ولو لم تتحرك على الاطلاق ! . ويكفى أن مصر قد غيرت خريطة العالم السياسية فى العقدين الأخيرين من هذا القرن بمبادرتها فى الحرب والسلام ، فقد هزت العالم بحرب أكتوبر ، ثم هزت العالم بمبادرة السلام ! .

ويعتبر تمسك الجزائر بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع مصر ، رغم إعادة الدول العربية هذه العلاقة ، من نوع المراهقة القومية التى تحاول

بها السياسة الجزائرية اثبات عروبتها وتشدها في المسائل القومية .
كما تحاول به لفت الأنظار إليها وإلى دورها .

- ونظرا لأن الدبلوماسية الجزائرية لم تتأكد هويتها العربية بعد ، فقد أوقعت نفسها في تناقض قومي خطير ، وهو الاخلاص للعروبة في الصراع العربي الاسرائيلي ، وخيانة العروبة في الصراع العراقي الايراني ! فلم يسأل أحد نفسه في الجزائر ، ممن يدينون ما يزعمونه من صداقة مصر باسرائيل التي هي «عدوة الأمة العربية بأسرها» كيف يبررون صداقة الجزائر لإيران ، بينما هي تحارب العراق وتهدد دول الخليج منذ ثمانى سنوات ؟ وقد قتل في هذه الحرب نصف مليون جندي، وبلغت تكاليفها الاقتصادية إلى ستمائة ألف مليون دولار ؟ وفقا لبعض التقديرات - هل لأن ايران صديقة الأمة العربية ؟

نعم لم يسأل أحد نفسه من الجزائريين : كيف تمتنع السياسة الجزائرية عن مصافحة «السفاحين الاسرائيليين الذين يقتلون الفلسطينيين»، وتصافح السفاحين الايرانيين الذين يقتلون العراقيين ؟ وهل تحول العراقيون إلى عرب من الطبقة الثانية ، وأصبح الفلسطينيون عربا من الطبقة الأولى ؟ وكيف تدعو الحكومة الجزائرية سفاحا ايرانيا ، هو السفير الايراني في عاصمتها ، لحضور مؤتمر القمة العربية الأخيرة في الجزائر ، ولا تدعو القائم بأعمال مصر ، التي حملت أعباء أربع حروب ضد اسرائيل ، بحجة أن مصر تصادق اسرائيل عدوة العرب ؟ .

هذا التخبط في السياسة العربية ، وهذه المزايدة في الصراع العربي الاسرائيلي ، والخيانة والتخاذل في الصراع العراقي الايراني ، وهذه المراهقة القومية التي تمتنع حتى الآن عن اعادة العلاقات الدبلوماسية مع مصر التي هي أكبر دولة عربية ، وهذا الاتهام لمصر بخيانة قضايا الأمة العربية لأنها حررت سيناء ، في الوقت الذي تخون فيه الجزائر الأمة العربية بعلاقاتها العربية مع إيران - كل ذلك من أعراض أزمة الهوية القومية التي تعاني منها الجزائر .

فإذا كانت الجزائر دولة عربية مخصصة لعروبتها حقا ، فلماذا تضع
يدها هي يد قتلة العرب العراقيين ؟ ، وإذا كانت قد ميزت فعلا هويتها
العربية من الهوية الفرنسية فلماذا لاتحذو حذو الدول العربية في إعادة
علاقاتها مع مصر ؟ ، وإذا كان الناس لم يسمعوا عن دولة باسم دولة
الجزائر قبل عام ١٩٦٢ فكيف يكتب صحفى جزائري فرنسى نكرة يصف
مصر - التى هى أقدم دولة فى التاريخ - بأنها لا تعدو أن تكون نقطة
جغرافية شاردة وسط القارة الافريقية ولا ذكر لها ولا دور ؟ . فهل
يستطيع أحد فى الجزائر الإجابة على هذه الأسئلة الهادئة الموضوعية ،
أم نتوقع سيلا من السباب ؟ !

تأملات أيدولوجية فى معرض السعودية *

يثير معرض السعودية المقام على أرض مصر ، والذي يعرض النقلة الكبيرة للمملكة العربية السعودية من مرحلة التخلف إلى مرحلة التقدم الحضارى الذى يواكب العصر الحديث، قضية هامة ، هى ملكية وسائل الانتاج وموقف الفكر اليسارى منها ! .

ذلك أن موقف الفكر اليسارى التقليدى من ملكية وسائل الانتاج كان حاسما فى انحيازه إثنى جانب الذين لا يملكون ضد الذين يملكون ! ، وفى وقوفه ضد الأسر الحاكمة لصالح الطبقات المحكومة .

وقد انعكس هذا الموقف ابان فترة عبد الناصر على تقسيمه للدول العربية إلى دول تقدمية ودول محافظة ودول رجعية ! ، وإعادة ترتيب أوليات شعاره من حرية - وحدة - اشتراكية ، إلى حرية - اشتراكية - وحدة ! ، وإطلاقه

عبارة «وحدة الهدف قبل وحدة الصف» ، وخوضه معارك طاحنة مع الدول العربية ، التي أدخلها فى تصنيف الدول المحافظة والرجعية ، بهدف تحريض شعوبها على الثورة ضد الأنظمة الحاكمة فيها ، وقلب نظام الحكم إلى حكم اشتراكى .

وقد أدت هذه المراهقة الفكرية ، التى أخذت بالشعارات ولم تتعمق إلى الظروف الاجتماعية فى كل بلد ، ولم تعن نفسها بتقدير ملاءمتها للثورة الاشتراكية أو عدم ملاءمتها - أدت إلى تمزيق وحدة الدول العربية، واشتعالها بالخلافات والنزاعات ، وقيام ما عرف باسم «الحرب العربية الباردة» ! - مما ترك آثاره الثابتة على فكرة الوحدة العربية الشاملة - بمعنى وحدة الدول العربية فى شكل فدرالى - التى تحولت الآن إلى تراث وتاريخ فقط ، يتاجر بها النصابون والدجالون السياسيون من الحكام والكتاب وهم يهوون بمعاولهم على أسس هذه الوحدة ، بوقوفهم إلى جانب إيران ضد العراق ، ونسفهم الأساس القومى من جذوره ! .

والمهم هو أن الممارسة السياسية على مستوى العالم العربى فى المرحلة الأخيرة من تاريخه المعاصر ، قد اتخذت مسارا لم يكن يخطر ببال أحد ، أو يمكن أن يتنبأ به الفكر اليسارى ! .

فمن ناحية ، فقد أثبت تاريخ معظم النظم العربية التى تصنف فى جانب النظم التقدمية ، أنها مجرد نظم دكتاتورية تنتقى من الاشتراكية ما يزيد من قوة قبضتها على الشعب ، ولا يزيد من قوة قبضة الشعب على نظام الحكم ! . وأنها تستغل سيطرتها على وسائل الانتاج لتمارس مغامراتها العسكرية على حساب موارد الشعب الاقتصادية . وأنها تحولت من نظم جمهورية إلى نظم ملكية مدى الحياة ! - بمعنى أن رئيس الجمهورية فيها يظل رئيسا مدى الحياة .

كما أثبتت كثير من هذه الجمهوريات - أو الملكيات مدى الحياة - أنها تمارس على الشعب استبدادا يفوق ما كانت تمارسه أسوأ النظم الملكية على مدى التاريخ ، بل إنها لا تتردد فى ممارسة عمليات الإبادة الجماعية

لخصومها - كما حدث فى حلب على يد نظام حافظ الأسد ، وأبىد فيها أكثر من خمسة وعشرين ألفا - مما لم يفعله هولاء أو أتىلا ملك الهون! بل أثبتت كثير من هذه النظم التى تصنف كنظم تقدمية أنها أشد النظم تعصبا لاقليميتها ! على الرغم من أنها أعلى الأصوات التى تتاجر بشعار القومية العربية والوحدة العربية ! ، وبالتالى فهى أكثر النظم عزلة داخل الوطن العربى ، لأنها تقيم علاقاتها على أسس أيديولوجية مزعومة، تصدق فيها نفسها وتزعم فيها لنفسها أنها أفضل النظم العربية ! . كما أن نظامها الحديدى الدكتاتورى داخل بلادها يعزل شعبها لحد كبير عن الشعوب العربية ، لأنه يحصر هذه الاتصالات فى إطار أيديولوجى يتفق مع أيديولوجية النظام ! .

وفى الوقت نفسه فإن هذه النظم فقدت لحد كبير عنصر الاستقرار فى نظام الحكم ، بفضل الصراعات الداخلية بين القوى المتصارعة على السلطة ، والتصفيات المتعاقبة ، والانقلابات العسكرية التى اتخذت شكل حروب أهلية فى بعض النظم ، كما حدث مؤخرا فى اليمن الجنوبية ! .

فهل كان هناك من يصدق ذلك . وأى إحباط لجيل من المثقفين ، الذى عاش الأربعينيات فى أحلام وردية لمستقبل ترفرف فيه أعلام الجمهورية والوحدة والاشتراكية والديموقراطية والأمن والسلام ، فإذا بكل هذه الأحلام الوردية تتحول فى هذه الأيام إلى كابوس ثقیل على يد عناصر البورجوازية الصغيرة من العسكريين الذين تولوا زمام الأمور فى كثير من أنحاء العالم العربى من خلال الانقلابات العسكرية ! « .

لقد تحولت الجمهورية - كما قلت - إلى ملكية مدى الحياة ، دون أن يحتوى الكثير منها على فضائل الملكية ، وتحولت الوحدة على يد هذه النظم إلى تمزق لم يشهد له تاريخ العالم العربى مثيلا ، بعد أن تحولت الحواجز الكرتونية التى أقامها الاستعمار إلى حواجز خرسانية على أيدي قادة الانقلابات العسكرية ! وتحولت الاشتراكية إلى رأسمالية

دولة! وانتقلت وسائل الانتاج من أيدي الطبقة الرأسمالية الساهرة على مصالحها ، إلى طبقة بيروقراطية غير منتمية لايهمها إذا خرب القطاع العام أو عمّر ، طالما أنها تحصل على مرتباتها فى كلتا الحالتين ؛ ، وتحولت الديموقراطيات الناقصة إلى دكتاتوريات عسكرية سافرة تحكم بالحديد والنار ! .

وقد نجت النظم الملكية بنفسها من هذا الكابوس ، لأن وسائل الانتاج ظلت فى يد من يحرسها وينميها ، وصحيح أن ارتفاع أسعار البترول قد لعب دورا هاما فى تمكين معظم تلك النظم من بناء بلادها وخدمة شعوبها على نحو لم يكن متوفرا من قبل ، ولكن وجود هذا العامل نفسه فى يد كثير من الحكام العسكريين مكنها من لعب دور مضاد ، وهو سر المغامرات العسكرية ، وشراء الأقلام ، واستنزاف الثروة البترولية التى يملكها الشعب فى الحروب مع الجيران ، والمثال على ذلك العقيد القذافى وحربه فى تشاد ، ومغامراته ضد مصر وتونس!.*

فضلا عن ذلك فإن غياب البترول فى بعض النظم الملكية ، لم يعطل مسيرتها فى خدمة شعبها وبناء بلدها ، والمثال على ذلك الأسرة الأردنية، فقد زرت الأردن منذ عام أو أكثر ، وشاهدت بنفسى حركة العمران والازدهار الاقتصاى ، وبناء المصانع والجامعات .

وهذا ينقلنا إلى معرض السعودية المقام فى مصر ، فهو شهادة للنظام الملكى السعودى ، الذى اتهم أيام الحقبة التاريخية بالرجعية والمحافظة ، وكانت محطة صوت العرب بالقاهرة تحرض الشعب السعودى ليل نهار على الثورة عليه - بأنه استطاع بفضل شعوره بالانتماء لبلده ، وابتعاده عن المغامرات العسكرية والسياسية ، وتركيز جهوده فى بناء بلده والدفاع عنها ضد الأعداء - أن يقفز ببلده قفزات واسعة على طريق التقدم والحاق بالعصر الذرى وكل ذلك وغيره مما

* كان عزو العراق للكويت فى ذلك الوقت فى علم الغيب ليؤكد صدق النظرية .

يمنح المواطن السعودي الاحساس بالأمن والثقة فى المستقبل
وأعتقد أن إقامة هذا المعرض فى القاهرة هو عمل مفيد جدا للربط
بين الشعبين الشقيقين ، وتوطيد العلاقة بين النظامين . وهو بالنسبة
لكثيرين مثلى ممن لم يروا المملكة العربية السعودية فى حياتهم ، فرصة
لمشاهدة مظاهر تقدم شعب عربى شقيق

الفصل التاسع

عن

الشعب الفلسطيني

ومنظمة التحرير

القضية الفلسطينية والترهّل الشورى *

أليس من الغريب والمثير معاً أنه
وسط تراجيديا القضية الفلسطينية ،
التي تحفل بقرقعة السلاح منذ
العشرينات من هذا القرن ، والتي جرت
العالم العربى إلى مأساته الحالية من
التمزق والانقسام والحروب الأهلية ،
إلى الاحتلال الاسرائيلى لأراض
غالية من أراضيه فى الضفة الغربية
وغزة والجولان وجنوب لبنان - تبرز
هذه المشاهد التى تحدث على أرض
الجزائر ، والتى تثير الابتسام
والضحك أكثر مما تثير البكاء ،
وتتحول التراجيديا المحزنة المأساوية
إلى كوميديا سارة ضاحكة ؟ .

والأفليس من حق الشعب
المصري أن يضحك ، بعد هموم المعركة
الانتخابية ، التى استنزفت طاقته
وحرمته من ابتسامته المعهودة - وهو
يقرأ عن اجتماع منظمات المقاومة
الفلسطينية الرئيسية (وهى ثمانية

* ٢٦ / ٤ / ١٩٨٧

بالتمام والكمال!) . التى عقدت الاجتماع التحضيرى للمجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر الذى بدأ دورته الجديدة يوم ٢٠ ابريل ، لكى تبحث من القضايا التحريرية الخطيرة التى تعودت أن تبحثها ، قضية استمرار أو قطع حركة فتح التى يرأسها ياسر عرفات ، علاقاتها مع مصر ! .

وتقول الأخبار - المضحكة والمبكية - أن قضية العلاقات مع مصر تثير الانقسام بين المنظمات الفلسطينية المختلفة ! . خصوصا بين أهم هذه المنظمات ، وهى : فتح لياسر عرفات ، والجهة الشعبية لجورج حبش ، والجبهة الديمقراطية لنايف حواتمة - فبينما يرى ياسر عرفات استمرار هذه العلاقات ، فان جورج حبش يعارضها ! ، بل ان حركته لم تقرر بعد بشكل نهائى ما اذا كانت ستشارك فى اجتماعات المجلس الوطنى الفلسطينى أم لا ، لأن الاشتراك يتوقف على تطور الحوار فى الجزائر بشأن الاتفاق على مسألة العلاقات مع مصر ! . أما السيد نايف حواتمة فيسعى إلى حل وسط ! .

والشعب المصرى أن يضرب كفا على كف وهو يقرأ هذا التهريج من القيادات الفلسطينية ، التى أثبت مصير القضية الفلسطينية ، الذى وصلت إليه حتى الآن ، أنها أفشل القيادات فى تاريخ حركات التحرر الوطنى ! .

فلم تجتمع هذه القيادات تحت ألوية النصر ، بل اجتمعت تحت ألوية الهزيمة ، بل تحت ألوية الهزائم المتلاحقة التى أصابت القضية الفلسطينية على أيديهم ، بينما هم ينقسمون ويتصارعون فيما بينهم إلى حد التصفية الجسدية ، وإلى حد التنافس على الزعامة بما لم تعرفه حركة سابقة ، وإلى حد الدخول فى حرب أهلية تحاصر القيادة الفلسطينية من البر بينما تحاصرها القوات الاسرائيلية والامبريالية من البحر ! .

لقد عرفت حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث الحروب الأهلية، ولكن بعد تحرير الأرض ، وبعد رفع أعلام الاستقلال ترفرف خفاقة علي أرض الوطن ، ولكنها لم تعرف الحركة التى تتحارب قبل أن تحرر ! ، كما هو الحال بالنسبة لحركة المقاومة الفلسطينية ! . ذلك أنه اذا كانت الحروب الأهلية تضعف البنية القومية لأى دولة مستقلة ، وقد تودى بها فى النهاية ، فكيف يكون الحال بالنسبة لحركة تقوم لتخوض حربها ضد العدو الذى يحتل أرضها ، فاذا بها تنسى عدوها الأساسى ، وتتجارب فيما بينها ، من قبل أن تحرر شبرا واحدا من الأرض ؟ .

إن توجه ممثلى هذا العدد الكبير من المنظمات الفلسطينية إلى الجزائر ، للاشتراك فى الاجتماع التحضيرى للمجلس الوطنى الفلسطينى ، يعد فضيحة حقيقية لأية حركة تحرر وطنى تستحق اسمها، لأنه اذا كانت هذه المنظمات لم تقتنع بالتوحد فيما بينها حول الأهداف القومية العليا ، أو حول تكتيك المقاومة الفلسطينية - فكيف تقنع غيرها من القوى العربية بمساندتها فى معركتها التحريرية ؟ ، بل كيف تقنع القوى العالمية المؤثرة فى الصراع العربى الاسرائيلى ؟ .

والغريب و المثير معا أن هذه المنظمات الفلسطينية تتصرف كما لو كانت قد هزمت اسرائيل ، وحررت فلسطين ، وأقامت دولتها ، وبقي عليها أن تختار من تقيم معه علاقتها من الدول ومن تقطع علاقتها بها - مع أن جميع حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث - وخصوصا فى العالم العربى - بلا استثناء قد سعت إلى طلب المساندة والمساعدة من كل من تستطيع ضمه إلى صفها من الدول ، وفى الحدود التى تقدر عليها كل دولة ، حتى ولو كانت بيانا صحفيا مؤيدا لقضيتها ، أو ادانة لاعتداء يقع عليها - أى أن هذه الحركات الحققة قد درجت على الكسب لا الخسارة ، وعلى اعتبار أية مساعدة تقدم لها - مهما تضاءلت - مما يقربها إلى هدفها النهائى ، وهو التحرير .

ولكن بعض المنظمات الفلسطينية الثمانى لا تجد فيما يبدو بنفسها حاجة إلى الكسب ! فهى قانعة بما حققت للقضية الفلسطينية من مكاسب تمثلت فى رسوخ قدم اسرائيل فى الضفة الغربية وغزة ، وزيادة المستوطنات الاسرائيلية ، وخضوع الشعب الفلسطينى للاحتلال الاسرائيلى لمدة تبلغ أربعين عاما كاملة - حتى الآن - ولا يوجد أى بصيص أمل فى انتهائها مع وجود هذه المنظمات فى قيادتها ! .

نعم ، لا تجد بعض المنظمات بنفسها حاجة إلى تأييد أكبر دولة فى العالم العربى ، وهى مصر ، لثخصيتها ، لأنها تجد فى تأييد سوريا حافظ الأسد ، التى تعيش على أرضها ، ما يكفيها لتحرير فلسطين من الاحتلال الاسرائيلى ، والقاء اسرائيل فى البحر ! .

فحافظ الأسد هو الذى دخل لبنان بقواته بينما كانت الغالبية الساحقة من أراضيه فى أيدي القوات الوطنية اللبنانية والقوات الفلسطينية ، فارتكب مذبحه تل الزعتر ضد القوات الفلسطينية ، ومهد الطريق لغزو اسرائيل جنوب لبنان ، وأشعل نار الحرب الأهلية بين فصائل المقاومة الفلسطينية فى لبنان ، وأتم عمل اسرائيل باخراج ياسر عرفات من لبنان بعد أن كادت تتم تصفية جسديا ! .

أما جريدة مصر ، فهى أنها أنقذت ياسر عرفات من طرابلس ، احتراما لشجاعته كزعيم بقى وسط أفراد شعبه ، ولم يترك رجاله لحظة واحدة أثناء الحصار الذى فرضه عليه خصومه السياسيون الفلسطينيون ، ولأنه رمز المقاومة الفلسطينية - فأعادت مصر بذلك للمقاومة الفلسطينية صورتها التى مزقتها الحرب الأهلية شر ممزق ، وأساءت إليها بما لم تسيء إلى نفسها حركة فى العالم . ولم تبال مصر ، فى سياستها هذه إزاء ياسر عرفات ، برفض اسرائيل لياسر عرفات ، ولم تقف سياسة كامب ديفيد حائلا بينها وبين أداء دورها فى حماية المقاومة الفلسطينية من خصومها - أو من نفسها ! .

نعم فعلت ذلك مصر ، مع أنها لو فعلت العكس ، وتخلت عن ياسر عرفات ، وتركته يلقي مصيره في طرابلس ، لتغير وجه القضية الفلسطينية تماما بعد سقوط رمزها ، ولانتقلت الزعامة الفلسطينية إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة في الضفة الغربية وغزة ، لأن الشعب الفلسطيني في هذه الأراضي المحتلة، الذي يعاني وحده من ظلمات الاحتلال ، لم يكن ليختار قيادة أقل أهمية من قيادة ياسر عرفات ، وأقل سيطرة على قيادات المنظمة ! .

وهكذا في الوقت الذي كانت مصر تنقذ ياسر عرفات ، كانت تنقذ في الوقت نفسه قيادات المنظمات الفلسطينية السبع الأخرى ! ، التي كانت ستتبعه حتما بانتقال الزعامة إلى الضفة الغربية وغزة .

بل إن مصر لو تخلت الآن عن ياسر عرفات ، في الوقت الذي تخلت عنه سوريا وليبيا ، وفي الوقت الذي تجمد فيه الاتفاق الاردني الفلسطيني ويتعرض للالغاء الواقعي أو الرسمي ، بكل ما يعنيه ذلك من تخلي الأردن عن ياسر عرفات أيضا - فان كل الأطراف المؤثرة في القضية الفلسطينية تكون قد أسقطت رمز المقاومة الفلسطينية ، وأسقطت - بالتالي - قيادات المنظمات السبع الأخرى التي تكون قد فقدت محورها الرئيسي وأساس وجودها - وهو حركة فتح . وعندئذ ماذا يبقى أمام الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة غير اختيار زعامته من داخل الأراضي المحتلة ، أو الاتجاه إلى الزعامة الأردنية التي تربطها بها رابطة مستقبل ومصير ؟

وهذا يوضح المفارقة في الموقف ، بل يوضح طرافته ! ، فان مصر لا تجتمع حكومتها لكي تقرر استمرار علاقتها مع المقاومة الفلسطينية أو توقفها - بل تجتمع المنظمات الفلسطينية الثماني لتبحث استمرار العلاقات مع مصر أو توقفها ! .

فهل يتصور دعاة قطع العلاقات مع مصر ، أن مركز مصر الدولي

سوف يهتز أو أن نظام الحكم فى مصر سوف يسقط لو قطع المجلس الوطنى الفلسطينى فى دورته الجديدة علاقته مع مصر ؟ ، أو يتصور هؤلاء الدعاة أن الشعب المصرى سوف يقوم بثورة عارمة ضد نظام الحكم الذى قطع معه المجلس الوطنى علاقاته ؟ . أو يتصور هؤلاء الدعاة أن الدول العربية سوف تشن - فى هذه الحالة - حربا ضد مصر بعد أن قطعت علاقاتها معها بعد مبادرة السلام ومعاهدات كامب ديفيد ؟ .

بل هل يتصور هؤلاء الدعاة أن أحدا فى العالم العربى ، أو فى العالم الخارجى ، يأخذهم على محمل الجد ؟ ، أو يتوهم للحظة واحدة أنهم يملكون أى تأثير فى حل القضية الفلسطينية ؟ ، أو يمثلون قوة يحترمها الشعب المصرى أو تحترمها حكومته ؟ .

ان هؤلاء الذين ترهلوا ثوريا ، وتحول نضالهم لتحرير بلدهم إلى نضال للاحتفاظ بزعامتهم الزائفة وامتيازاتهم المادية تحت سيطرة حافظ الأسد أو غيره من الحكام العرب ، هؤلاء الذين انتهى دورهم التاريخى فى قيادة أمتهم ، وشاهدوا فشلهم بأعينهم وهو يتجسد فى توطيد الاحتلال الاسرائيلى أقدامه فى الضفة الغربية وغزة يوما بعد يوم ، وضياع فرصة التحرير مع انقسامهم وتمزقهم وتصارعهم - هؤلاء الزعماء الذين لا يدين لهم أحد من مواطنيهم بزعامة أو قيادة ، لا يستطيعون تهديد مصر بقطع علاقاتهم بها ، وانما يجب عليهم العض بالنواجذ على هذه العلاقات ، لأنها لمصلحتهم أولا وأخيرا ، ولأن مصر لا تغنم من ورائها شيئا سوى تحقيق انتمائها العربى الأصيل ، وأداء دورها التاريخى فى خدمة أمتها العربية ، وخدمة الشعب الفلسطينى الشهيد الذى ابتلى بمثل هذه الزعامات التى لم يشهد التاريخ لها مثيلا .

وهكذا نصل إلى الهدف الرئيسى من مقالنا ، وهو عن القضية والقيادة فى المشكلة الفلسطينية . فمن الواضح أن الاحساس بالوقت قد انعدم تقريبا لدى القيادات الفلسطينية بالنسبة لحل القضية ! - ربما لأنها تعيش خارج الأرض المحتلة ، ولا تخضع لنفس الظروف القاسية

التي يخضع لها السكان الفلسطينيون ، كما هو الحال بالنسبة لأية قيادة تخوض النضال على أرضها . ومن نافلة القول أن القيادات الفلسطينية ليست مسئولة عن هذا الوضع ، كما أن هذا الوضع لا يعيبها في شيء ، ولكن أسلوب ممارسة النضال ، الذي يتناسى كلية حقائق الظروف التي تمر بها المشكلة الفلسطينية ، هو الذي يوحى بهذا التفكير !.

فمن الواضح أن القيادات الفلسطينية تعيش في عالم من الوهم صنعته لنفسها ، وحبست نفسها فيه ، ولا تريد أن تخرج إلى أرض الواقع ، فهي تنسى كل شيء ، سواء فيما يتصل بتنامي القوة العسكرية الاسرائيلية ، وعجز القوة العربية العسكرية عن التصدي لها ، واجبارها على القبول بحل عادل للقضية الفلسطينية ، أو بالنسبة للأوضاع العالمية في عصر التوازن الذري ، وانقسام المعسكر الاشتراكي الذي أثر تأثيرا سلبيا على حركات التحرر الوطني ، فضلا عن اكتفاء الدول العربية بالنضال الكلامي وعدم وضع طاقة الأمة العربية في خدمة الصراع العربي الاسرائيلي ، بما أدى اليه من التحرك المصري نحو السلام مع اسرائيل ، وما أثاره من ردود فعل عربية تمثلت في قطع العلاقات السياسية مع مصر . ثم الحرب العراقية الايرانية التي استنزفت الثروة العربية وهددت المشرق العربي بالخطر الايراني الذي أصبح يحتل المركز الأول من اهتمام البلاد العربية حاليا ، وأخيرا المزايدات في صفوف المقاومة الفلسطينية التي تفتقد كل أساس مادي ، والتي تُفقد المقاومة فاعليتها .

كل هذه الحقائق التي تتعلق بظروف المشكلة الفلسطينية حاليا ، والتي تتناساها تماما القيادة الفلسطينية ، قد أدى إلى تحول القضية الفلسطينية من الناحية الفعلية إلى قضية مكتبية ، أو قضية قضائية ! وأقصد بالقضية الفلسطينية هنا قضية الأرض المحتلة في الضفة الغربية وغزة ، وليست القضية التي تفرعت منها وهي قضية المقاومة المحاصرة

فى لبنان من قبل القوى العربية .

بمعنى أن الثورة الفلسطينية لم يعد تمثل قوة مقاومة عسكرية تحريرية يمكن الاعتماد عليها فى استرداد الأرض المحتلة - كما تعلقت عليها الآمال بعد هزيمة يهنيه ١٩٦٧ - وأكثر من ذلك أنها صفت تماما من الناحية الفعلية ، فلم يعد فى وسعها توجيه أية ضربة عسكرية ضد اسرائيل ، سواء من لبنان أو الاردن أو سوريا ، وسواء من قبل قوات ياسر عرفات ، أو من قبل قوة جورج حبسن ونايف حواتمة التى تتشدق بالفاظ القوة ولم نعرف أنها شنت فى الجولان أية عمليات ضد اسرائيل! . ومن هنا ، وطالما أن المقاومة الفلسطينية فقدت قوتها العسكرية ولم يعد فى يدها أرض عربية تمارس منها عملياتها التحريرية ، وطالما أنه لا توجد دولة عربية تفكر فى خوض حرب ضد اسرائيل لتحرير أرض فلسطين ، بل، انه حتى سوريا لا تفكر فى خوض حرب ضد اسرائيل لتحرير الجولان ! . وطالما أن العراق قد خرج من المعركة بحرية القائلة ضد ايران ، ومصر خرجت بإبرام معاهدة السلام - فان وسيلة القوة لتحرير الضفة الغربية وغزة واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة لم تعد مطروحة ! .

وعلى ذلك فان من حق الشعب المصرى ، ومن حق الشعوب العربية كافة أن تتساءل عن الفائدة التى تجنيها القضية الفلسطينية من تجاهل القيادات الفلسطينية حقائق الموقف ومزايداتهما، وتصريحاتها الحماسية وسياستها الغربية التى ما تكاد تصل بالقضية إلى مرحلة من مراحل تطورها حتى تعود بها إلى بدايتها ! .

فاذا كان فى وسع المقاومة الفلسطينية بمفردها حل القضية الفلسطينية فلماذا لا تحلها ؟ . واذا كان هذا الحل مستحيلا بدون اشتراك الطرف الأردنى فلما لا تصل بالاتفاق الأردنى الفلسطينى إلى نهايته ؟ . ولماذا حصل التجميد ثم التفكير فى الالغاء ، لتعود القضية إلى نقطة الصفر من جديد ؟ ثم تمضى أعوام حتى يتم اتفاق أردنى فلسطينى

آخر ، ثم يتعرض للتجميد ، ثم للإلغاء بعد خمسة أعوام أخرى ؟ ، ثم تبدأ دورة جديدة من البحث عن اتفاق آخر ، لكي يتجمد بعد سنوات ، ثم يلغى بعد سنوات أخرى ، وتعود القضية إلى نقطة البداية من جديد ؟ . والشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة يعيش في ظلام الاحتلال الاسرائيلي ! .

لماذا لا تدرس القيادات الفلسطينية حركات التحرر الوطني في الوطن العربي ، وتعرف من أين بدأت ، وكيف سارت ، وماذا أبرمت من اتفاقيات مع المحتل ، وكيف تمكنت من الحصول لشعوبها على الحرية وتخلصت من الاحتلال العسكري ؟ .

لماذا لا تدرس تاريخ الحركة الوطنية في مصر وسوريا وليبيا والعراق والأردن والسودان وتونس والجزائر والمغرب وغيرها ، لتعرف كيف تعاملت قيادات تلك الحركات الوطنية مع الواقع ، ولم تنفصل عنه أبدا ، ولم تنفصل عن شعبها ، بل تصدرت نضاله بصدورها ، وعانت من عسف الاحتلال النفي والتشريد والاعتقال والشنق ، ولم تزايد بينما هي تجلس إلى مكاتبها الوثيرة في دمشق ؟

أليست دراسة الحركات الوطنية في العالم العربي أفيد للقيادات الفلسطينية من البعد عن الواقع ، أو التحليق في الخيال ، والتفكير في قطع العلاقات مع مصر ! أو إلغاء الاتفاق الأردني الفلسطيني - مما يكشف عن تهريج وهزل وعيب ومجون ، ولا يكشف عن الجدية الواجبة فيمن يتصدى لقيادة الحركات الوطنية .

و بشعر الشعب الفلسطيني بطول احتلال *

عندما يكتب تاريخ قيام وسقوط
منظمة التحرير الفلسطينية ، سوف
يسجل أن أهم أسباب سقوط هذه
المنظمة هو محاولة توحيدها ! . ففي كل
حركات التحرر الوطني في بلاد العالم
الثالث كانت هناك خلافات بلغت حد
الانقسامات ، ولكن كان هناك باستمرار
تيار رئيسي تلتف حوله معظم القوى
الوطنية ويسانده الشعب ، ويمضي
بشجاعة بحركة التحرر الوطني إلى
الأمم ، بينما تعيش التيارات الأقل
أهمية على هامش الحركة الرئيسية ،
وتلعب دورا يتناسب مع حجمها . ولم
يحدث أبدا أن عطلت التيارات الأقل
أهمية مسار الحركة الرئيسية أو
فرضت نفسها عليها وجثمت على
صدرها وحبست أنفاسها - كما فعلت
مع منظمة التحرير الفلسطينية .

وفي كل حركات التحرر الوطني
في العالم جرى صراع بين الزعامات

* أكتوبر في ١٠/٥/١٩٨٧

الوطنية ، ولكن كانت تبرز باستمرار زعامة تبرهن على أنها أكثر تمثلا لمصالح الشعب ، وأقوى تعبيراً عن أهدافه ، وأقدر سياسة على استخلاص حقوقه . وحول هذه الزعامة كان يلتف الفريق الأعظم من الشعب الذى يدين لها بالولاء والمساندة والتأييد ، بينما عرفت الزعامات الأخرى قدرها ، والتزمت حدودها ، ولم تحاول أن تفرض نفسها بالقوة كما فعلت مع منظمة التحرير الفلسطينية ! .

ومن هنا فإن محاولة ياسر عرفات توحيد منظمة التحرير الفلسطينية ، إنما هى فى حقيقتها حق يراى به باطل ! ، لأن كافة الأطراف تعرف جيداً أنها لا تستطيع أن تتوحد ! ، ولا تملك عناصر التوحيد من مبدأ أو عقيدة أو قوة تستند إليها ! .

فمنظمة التحرير الفلسطينية تختلف عن أية حركة أخرى فى أنها حركة نشأت خارج أرضها ، واستندت إلى قوى سياسية متنازعة متصارعة ، واكتسبت من هذه القوى السياسية كل خواص الصراع . وهذا الكلام لايسهل فهمه إلا إذا ألمنا إلمامة سريعة بهذه الحركة .

فربما يدهش القارئ إذا عرف أن ياسر عرفات لم يُنشئ منظمة التحرير الفلسطينية ، بل نشأ خارجاً عليها ! . لقد نشأت منظمة التحرير الفلسطينية ، على يد جامعة الدول العربية ، وبالذات على يد مؤتمر القمة العربى الأول بالقاهرة الذى عقد فى يناير ١٩٦٤ ، عندما أراد هذا المؤتمر إبراز الشخصية الفلسطينية ، فحول ممثل فلسطين فى جامعة الدول العربية ، أحمد الشقيرى ، تكوين منظمة التحرير الفلسطينية ، لتكون ممثلاً لمجموع الشعب الفلسطينى . وتم ذلك بالفعل عندما انعقد المؤتمر الوطنى الفلسطينى بالقدس فى مايو ١٩٦٤ .

على أنه فى نفس الوقت ظهرت خارج منظمة التحرير الفلسطينية حركة التحرير الوطنى الفلسطينى (فتح) على يد ياسر عرفات ، وكونت جناحها العسكرى العاصفة . وكانت هذه الحركة مستقلة عن «منظمة

التحرير الفلسطينية» الخاضعة لوصاية الدول العربية . ثم أخذت تسعى إلى الاستيلاء عليها وعلى قيادتها ، وهو ما أفلحت فيه بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، ففي ١٥ إبريل ١٩٦٨ اختير ياسر عرفات ممثلاً للحركة وناطقاً رسمياً باسمها .

على أن القيادة لم تستقر لعرفات أبداً ، لقد ظهرت إلى جانبه حركات وزعامات أخرى بسبب انقسام الشعب الفلسطيني إلى ثلاث مجموعات : مجموعة تعيش تحت الاحتلال الاسرائيلي ، ومجموعة تعيش في الأردن ، ومجموعة ثالثة تعيش في المنفى تحت سيطرة الأنظمة العربية في سوريا والعراق ولبنان .

فقد سارعت الأنظمة العربية التي يعيش فيها الفلسطينيون في المنفى إلى إنشاء منظمات فلسطينية ، لم يكن لها من صفتها سوى الاسم ! لأنها كانت في الحقيقة إمتداداً لهذه الحكومات . وفي الوقت نفسه أنشأت بعض الأحزاب العربية غير الحاكمة ، التي أرادت اللعب في الملعب الفلسطيني ، منظمات أخرى تحمل أسماء فلسطينية ، ولكنها في الحقيقة كانت إمتداداً لها .

وعلى ذلك فقد ظهرت إلى جانب حركة «فتح» حركة «جبهة التحرير العربية» ، التي تمثل الجناح الفلسطيني في حزب البعث في العراق ، وحركة «العاصفة» ، التي تمثل الجناح الفلسطيني في حزب البعث في سوريا . و«الجبهة الشعبية» - وهي أصلاً «شباب الثأر» التي تمثل الجناح الفلسطيني في حركة القوميين العرب ، بعد أن اتحدت مع مجموعة «أبطال العودة» . ثم انشقت عن «الجبهة الشعبية» ثلاث مجموعات هي : «الجبهة الشعبية الديمقراطية» التي يرأسها نايف حواتمة ، وجماعة «زعرور» ، وجماعة جبريل .

وإلى جانب هذه المنظمات الخمس وجدت ثلاث منظمات أخرى هي : قوات التحرير الشعبية ، و«منظمة فلسطين العربية» ، و«جبهة النضال

الشعبي» . بالاضافة إلى عدد لا يحصى من المنظمات الأخرى التى لا تمثل أهمية تذكر .

مع ذلك فقد انقسمت هذه المنظمات فكريا إلى قسمين :
يمين ، وتمثله حركة «فتح» . وفيها قيادة منظمة التحرير الفلسطينية،
وتلتف حولها جماهير الضفة الغربية وغزة .
ويسار وتمثله كل من «الجبهة الشعبية» لجورج حبش ، والجبهة
الديموقراطية «لنايف حواتمة» .

وفى حين تحصر حركة «فتح» نفسها بالقضية الفلسطينية والاحتلال
الاسرائيلى لفلسطين ، فإن المجموعة الثانية ترى أن عدوها ليس فقط
اسرائيل ، وإنما هو الصهيونية العالمية ، والامبريالية العالمية ، والنظم
الرجعية والمحافظة العربية ! .

هذا هو السبب فى أنه على مدى نحو ربع قرن لم تتوحد هذه
المنظمات أبدا ، لأن لكل منها فكر وعقيدة وهدف يختلف عن الأخرى ،
ولأن لكل منها زعامة لا يمكن أن تنصوى تحت زعامة أخرى ! ، ولأن كل
حركة منها تستمد سندها من دولة عربية تتناقض سياستها مع سياسة
الدولة العربية التى تستند إليها الحركة الأخرى .

هذا ما جعلنا نقول بأن محاولة توحيد منظمة التحرير الفلسطينية
فى الجزائر هى حق يراد به باطل ، لأن الجميع يعرف تماما استحالة هذا
التوحيد ، لأنه يعنى – ببساطة شديدة – توحيد سياسة سوريا حافظ
الأسد ومصر حسنى مبارك ! ، فالأول يساند الجبهة الشعبية لجورج
حبش والجبهة الديموقراطية لنايف حواتمة . ويعادى عرفات إلى حد شن
حرب ضده وحصاره فى طرابلس ومحاولة تصفيته جسديا ، والثانى
يساند ياسر عرفات .

بل ان المحاولة تجعلنا نشك أيضا فى أهدافها ، لأن وحدة تضم
جورج حبش ولنايف حواتمة – أى تحظى بمباركة سوريا – لن تكون أبدا

لحساب حل القضية الفلسطينية بالطريق السياسى ! - أى من خلال تعاون فلسطينى أردنى .

ولذلك نستطيع أن نفهم الآن لماذا أُلغى الاتفاق الفلسطينى الأردنى كضمن للوحدة ، كما نستطيع أن نفهم لماذا كانت هذه الوحدة على حساب مصر، لأن مصر هى الطرف الثالث فى الحل السياسى .

الهدف - إذن - ليس الوحدة . وإنما القضاء على فكرة الحل السياسى للقضية الفلسطينية ، ومن هنا كانت النتيجة الرئيسية لاجتماع المجلس الوطنى الفلسطينى وللمناورات التى دارت فيه ، إبعاد الأردن ومصر من حل القضية الفلسطينية ! .

ولست ممن يعتقدون فى مهارة الرئيس السورى حافظ الأسد كما يتوهم البعض ، لأن بقاء الجولان تحت الاحتلال الاسرائيلى إلى الآن دليل دامغ على أنه أفشل حاكم عربى - ، وإنما ثقتى الأكيدة فى مهارة ياسر عرفات ! .

فهذا السياسى البارع ، الذى استطاع ، فى وسط أصعب الظروف وأشرس صراع الاحتفاظ برياسته لمنظمة التحرير الفلسطينية على مدى عشرين عاما كاملة حتى الآن - أى أكثر مما استطاع معظم رؤساء الدول العربية - والذى استطاع - فوق ذلك - الاحتفاظ بحياته رغم خطر الموت الذى يتربص به فى كل خطوة يخطوها - هذا السياسى لا يقدم على مثل هذا التنازل للرئيس السورى حافظ الأسد حبا وتقديرا ، بعد أن حاول القضاء عليه فى طرابلس ، كما أنه لا يقدمه رغبة فى تحالف مع الأسد يعرف مقدما نتيجته ! - وإنما يقدمه لأنه الطريق الوحيد لتفادى الحل السياسى للقضية الفلسطينية ! .

وتقديرى الشخصى ، الذى يستند إلى شواهد تاريخية شتى ، أن ياسر عرفات يرى أن مخاطر الحل السياسى على زعامته ومركزه فى رأس منظمة التحرير الفلسطينية هى أكبر بكثير من مكاسبه . واعتقادى

الشخصي أيضا أن الكثيرين من زعامات المنظمة الملتفين حول ياسر عرفات يرون ذلك أيضا ! .

بل لعل هؤلاء يؤمنون بأن هذا الحل السياسي فيه القضاء النهائي على زعامتهم ودورهم التاريخي . لأنه مهما بلغ الحل السياسي من ارضاء المطالب الفلسطينية فلن يكون أكثر من انعكاس أمين لميزان القوى، سواء بين إسرائيل والمنظمة من جهة ، أو بين إسرائيل والدول العربية من جهة أخرى . وهذا الميزان حاليا ، وربما إلى نهاية هذا القرن ، في صالح إسرائيل بصفة مطلقة !

ومن هنا فإن أي حل سياسي للقضية الفلسطينية لن يكون بحال في صالح منظمة التحرير الفلسطينية أو في صالح زعامة ياسر عرفات ومساعديه ، ولن يكون له من نتيجة إلا سقوط هيبة المنظمة ورئيسها ورجالها ، طالما أنها لم تحقق للشعب الفلسطيني إلا ما تعكسه علاقات القوى غير المتكافئة بينه وبين إسرائيل ! .

ومن سوء حظ ياسر عرفات أن خصومه السياسيين ليسوا خصوما عاديين ممن يصادفه أي زعيم وطني في أي بلد من بلاد العالم الثالث - أي خصوم يستندون إلى إرادة الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة ، وإنما هم خصوم يستندون إلى قوة دولة عربية تزودهم بالمعدات العسكرية التي تتزود بها الجيوش الحديثة ، وهم خصوم لم يتورعوا عن خوض حرب أهلية ضده ، وكادوا يتمكنون منه بالفعل في طرابلس ، ولم ينج منهم إلا بتدخل مصر والدول الكبرى . وقد فعلوا ذلك لمجرد أنه أبدى بعض الاعتدال في سياسته . فماذا يكون موقفهم حين يترجم هذا الاعتدال في شكل حل سياسي للقضية الفلسطينية يعكس علاقات القوى بين الأطراف ؟ .

هذا هو السؤال الذي يشغل بال عرفات ومساعديه ! . فلن يجديهم في شيء تأييد فلسطيني الضفة الغربية وغزة الذين يكتوون بنار الاحتلال كل يوم ، والذين يريدون تخفيف وطأته بأي ثمن ، حتى ولو كان

هذا الثمن هو التدرج الذى عرفه كل شعب عربى فى المنطقة تحرر من الاستعمار ! .

نعم ، فلن يستطيع ياسر عرفات ولا مساعده محاجة خصومهم فى الرأى - ممن يستندون إلى سوريا حافظ الأسد - بأن مصر حصلت على استقلالها على ثلاث مراحل ، بتصريح ٢٨ فبراير أولا ، ثم معاهدة ١٩٣٦ ، ثم معاهدة الجلاء سنة ١٩٥٤ . أو أن العراق حصل على استقلاله من خلال عدد أكبر من المعاهدات . وكذلك كان الحال فى سوريا ، وتونس ، والأردن ، وليبيا ، والجزائر ، والمغرب .. إلى آخره .

ذلك أن خصوم ياسر عرفات يزعمون أنه يمكن تحرير فلسطين ، وإنهاء صفحة دولة إسرائيل ؛ بحرب عربية اسرائيلية خامسة أو سادسة أو سابعة ! - وطالما أن الأمر كذلك . فليس هناك ما يغرى ياسر عرفات أو المنظمة على المجازفة بحل سياسى للقضية الفلسطينية يحقق للشعب الفلسطينى أقل من ذلك ، ويقضى فى نفس الوقت على زعامته وينهى صفحة المنظمة .

هذا هو اللغز ، وهذه مفاتيح حله ! . وهذا هو السبب فى تأرجح وتذبذب العلاقات بين منظمة التحرير والأردن ، أو بينها وبين مصر ، أو بينها وبين سوريا ! . وهذا هو السبب فى تهرب منظمة التحرير من الحل السياسى ، سواء بعدم الاعتراف بالقرار ٢٤٢ ، أو بإلغاء الاتفاق الأردنى الفلسطينى ، أو باغضاب مصر ، أو باغضاب الأردن ، أو بالناورة مع سوريا أو مع الأردن أو مع مصر ، أو بالتذرع بالوحدة الفلسطينية .. إلى آخره ! .

ومن هنا فعلى الذين يبنون آمالهم ، سواء فى مصر ، أو فى الأردن ، أو فى الأراضى الفلسطينية المحتلة ، أو فى أى بقعة من بقاع العالم العربى - على حل سياسى للقضية الفلسطينية تبرمه المنظمة برياسة عرفات ، يحقق أقل مما تحققه وعود جورج حبش ونايف حواتمة وحافظ الأسد - أن يهدموا هذه الآمال بسرعة ، لأن ياسر عرفات أو أى مساعد

من مساعديه فى المنظمة لن يوقع على مثل هذا الحل ، لأن معناه سقوطهم سياسيا وانتهاء صفحتهم ودورهم التاريخى ، وربما تصفيتهم جسديا .

بل أزعـم أن وجود المنظمة بأوضاعها الحالية هو - على هذا النحو - ضمان بأن مثل هذا الحل السياسى لن يتحقق على الاطلاق ! *

ولست ألوم المنظمة على هذا الموقف ، لأن لكل حركة وطنية ظروفها الخاصة المحيطة بها ، وإنما السؤال الذى يطرح نفسه ، هو : كيف يكون إذن حل القضية الفلسطينية ؟ .

اننا نعرف جميعا أن حل أية قضية وطنية لايتحقق إلا بإحدى وسيلتين : الأولى ، القوة ، على أساس أن ما أخذ بالقوة لايسترد إلا بالقوة . وهذه الوسيلة حاسمة كما هو واضح ، وتتحدد نتيجتها بنتيجة استخدام القوة .

والوسيلة الثانية هى المفاوضات ، ونتيجتها كما هو واضح تتحدد بعلاقات القوة بين الطرفين المتفاوضين ، ومن هنا فهى على الدوام لصالح الطرف القوى وضد مصلحة الطرف الضعيف ! .

ولما كانت طريقة القوة غير مطروحة فى الوقت الراهن ، ولعدد غير مرئى من السنين ، لأن المنادين بها قد أثبتوا أنهم مجرد أدعياء ، ولم نرهم يلجئون إلى القوة إلا ضد الفلسطينيين أنفسهم أو ضد أو غيرهم - كما هو الحال بالنسبة لسوريا التى استخدمت القوة فى لبنان ضد الفلسطينيين ، ولم تستخدمها ضد الاسرائيليين ، سواء عند شروعهم فى غزو لبنان أو فى أثناء وجودهم فيه حتى الآن . أو بالنسبة لليبيا التى تستخدم قوتها فى تشاد ، ولا تستخدمها ضد اسرائيل ! .

ولما كانت طريقة الحل السياسى غير مطروحة أيضا فى وجود منظمة التحرير الفلسطينية - كما أثبتت تاريخ ممارساتها ومناورتها

* لم تكن انتفاضة الحجارة قد انفجرت بعد

الأخيرة فى الجزائر - فعلى الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية وغزة أن يطمئن إلى شىء واحد أكيد ، هو بقاءه فى ظل هذه الأوضاع الحالية حتى تقرر إسرائيل أن هذه الأوضاع لم تعد لمصلحتها هى ، فتأخذ فى تغييرها من جانب واحد ! .

وهذا ما فعلته انجلترا فى مصر بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ! . ولكن المشكلة أنه حتى تصريح ٢٨ فبراير لم يتم بمحض قرار فجائى اتخذته حكومة انجلترا ، وإنما تم بعد مفاوضات مضنية قام بها الفريق المعتدل فى السياسة المصرية بقيادة عدلى يكن ، ومن وراء ظهر سعد زغلول ، الذى نفى وقتذاك خصيصا لتهيئة السبيل لهذه المفاوضات ! .

ومع أن فريق ياسر عرفات يمثل على وجه التحقيق الفريق المعتدل فى منظمة التحرير الفلسطينية ، إلا أنه نظرا لأنه لا يستطيع أن يقبل أقل مما يقبله الفريق المتشدد للظروف التى أوضحناها - فإنه من الناحية الفعلية يتساوى مع الفريق المتشدد ! .

وهذا ما تعرفه جيدا إسرائيل ، وهو ما تستثمره فى دوام احتلالها وزيادة مستوطناتها ، وتغيير التركيب الاجتماعى فى الضفة الغربية وغزة إلى تركيب يهودى .

ومن هنا فلنا أن نبشر ياسر عرفات بطول زعامة ، ونبشر الشعب الفلسطينى بطول احتلال ! . *

* بعد كتابة هذا المقال بسبعة أشهر فقط ، أى فى ديسمبر ١٩٨٧ ، انفجرت انتفاضة الحجارة بقيادة جديدة غير قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، وفرضت نفسها على سياسة المنظمة ، وقللت من شأن المنظمات المتطرفة الأخرى التى كانت تملك تأثيرا على المنظمة ، وخلقت وضعاً جديداً لمصالح تسوية القضية الفلسطينية بطريق التدرج الذى أشرنا إليه فى هذا المقال .

منظمة التحرير ونضال السادات *

عندما يكتب تاريخ الصراع العربى
الاسرائيلى لن يستطيع مؤرخ أن
يحصى الجرائم التى ارتكبها المزايدون
فى الوطن العربى فى حق الشعب
الفلسطينى أو فى حق الأمة العربية .

فبعد أحد عشر عاما من إلقاء السادات
خطابه فى الكنيسيت الاسرائيلى ، الذى
استحق عليه تهمة الخيانة ، كان ياسر
عرفات يدلى بخطابه فى جنيف أمام
الجمعية العامة، ثم يدلى بعدها
بتصريحاته التى وافق فيها على
الشروط الأمريكية لبدء الحوار، واعترف
فيها بحق اسرائيل فى الوجود ، ونبذ
كل أشكال الإرهاب ، وقبل قرارى
مجلس الأمن ٢٤٢ و ٣٣٨

أى أنه ارتكب كل «الخيانة» ! التى
أدانها المزايدون وثور الكلام على مدى
السنوات الطويلة السابقة فيما بين
خطاب السادات وخطابه !

* أكتوبر فى ١٩٨٩/١/٨

وفيما بين الخطابين يم ويسبب المزايدين النصابين وثوار الكلام ، وقع أكبر انقسام فى العالم العربى ، بطرد مصر من جامعة الدول العربية ، ونقل مقرها من القاهرة إلى تونس ، وصدرت قرارات المقاطعة فى حق الشرفاء ممن أيدوا مبادرة القدس ، واغتيل يوسف السباعى ، وارتكبت جرائم التصفية الجسدية ضد كل صوت عاقل ارتفع فى وجه التطرف المجنون الذى كان يضيف إلى معاناة الشعب الفلسطينى فى الأرض المحتلة .

ثم بلغ التطرف ذروته فى العام الماضى حول انتخابات بلدية القدس ، حين اقترح حنا سنيورا مشاركة الفلسطينيين فى انتخابات بلدية القدس ، فخرجت الأبواق السورية ، وعصابة أبو نضال الارهابية - جنبا إلى جنب مع كتلة الليكود ! - تندد بالفكرة ، ويحذر متحدث باسم منظمة التحرير من «مغبة الوقوع والانجرار نحو قضايا هامشية تصرف الأنظار عن جوهر الصراع مع العدو الصهيونى» ! مدينا أية أفكار أو برامج تتناقض ومهمات التصدى الحازم للاحتلال» ! .

وجاءت دورة المجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر فى العام الماضى أيضا التى تحكمت فيها المنظمات الصغيرة وعلى رأسها الجبهتان الشعبية والديموقراطية ، ومعهما «جماعة أبو نضال» السيئة السمعة - حسبما يصفها صبرى جريس فى مجلة شئون فلسطينية - لتتحرف بالمجلس عن طريق حل القضية الفلسطينية ، إلى التحالف مع سوريا التى ارتكبت - فى ظل نظامها الحالى - الجرائم تلو الجرائم على مدى عشر سنوات ضد القضية الفلسطينية ثم يرتكب المجلس خطيئته الكبرى بتوجيه اللوم والتقريع إلى مصر مؤكدا قرار عام ١٩٨٣ بشأن تقييد العلاقات مع النظام الحاكم والتركيز على التعامل مع ما أسماه بالحركة الوطنية المصرية .

تلك الدورة للمجلس الوطنى الفلسطينى فى العام الماضى ، بما سبقها من موقف التنديد من اقتراح مشاركة الفلسطينيين فى انتخابات

بلدية القدس ، وجهت ضربة قاصمة للفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة، نبهتهم إلى سوء المصير الذى ينتظرهم إذا استمروا فى تسليم قيادهم للمنظمة بتصلبها الذى كانت عليه . --

وقد عبرت أقلام فلسطينية هامة عن هذا المعنى ، فكتب صبرى جريس ، رئيس تحرير مجلة «شئون فلسطينية» مقالا نقديا خطيرا فى عدد يونيه ١٩٨٧ يقول فيه :

«بدت الدورة الأخيرة للمجلس الوطنى وكأنها طبعة مكررة من دورات المجلس السابقة ، التى عرفناها جيدا حتى الآن بانعدام تنظيمها وقلة معاييرها وقراراتها الانشائية (وهذه المرة الضارة أيضا !) فى رتابة تثير الحزن . أما المشاكل الملحة والحقيقية فقد بقيت بعيدة عن متناول البحث، وبدا واضحا أن ما كان سوف يكون دون زيادة أو نقصان

ثم يستطرد فيقول . «إن الدرس الكبير المائل للعيان من هذه التجربة، هو أن حركة المقاومة باتت غير قادرة على تجديد نشاطها ، والتعامل بما تمليه ضرورات المصلحة مع التطورات المستجدة والتحديات الكبيرة التى تواجهها القضية الفلسطينية .. ان هذه التركيبة بأسرها قد تفقد فعاليتها وتنكفىء على ذاتها وتترهل وتشيع تدريجيا ، بحيث لا يحسب لها عندئذ أى حساب ، على الرغم من أنها تبقى مسجلة فى عالم الأحياء . ولعل المصير الذى آلت إليه الهيئة العربية العليا - أو حكومة عموم فلسطين - يكفيننا مثالا » !

أما رد الفعل الثانى ، فقد تمثل فى انفجار الانتفاضة الفلسطينية التى اصطلح على تسميتها بانتفاضة الحجارة ، فى الضفة الغربية وغزة، والتى كانت تعنى أن الفلسطينيين تحت الاحتلال الاسرائيلى قد قرروا أن يتولوا قضيتهم بأيديهم ويتصدوا بأنفسهم للاحتلال ، بعد أن فشلت كل الوسائل التى ابتدعتها منظمة التحرير الفلسطينية فى تحقيق التحرير .

وكما أن هذه الانتفاضة كانت أظرم ما واجهت اسرائيل ، فكذلك كانت أظرم ما واجهت منظمة التحرير ، ، لأول مرة أخذت المنظمة تواجه

مصير حكومة عموم فلسطين ، إذا لم توفق نفسها مع أوضاع الانتفاضة، وتتغير مع الظروف الجديدة ، وتتفهم أوضاع المتغيرات التي فرضت نفسها على القضية الفلسطينية .

ومن هنا كان تغيير قرارات المؤتمر الوطني الفلسطيني الذي عقد في الجزائر ، ثم خطاب ياسر عرفات في جنيف ، وتصريحاته التي أعقبتها ، مما يمثل تحولا عن موقف ١٩٨٧ بما يعادل ١٨٠ درجة . فقد نحى جانبا الاختيار السوري - الذي كان يمثل انتحارا للقضية الفلسطينية - وعاد إلى الاختيار الأردني . وفي الوقت نفسه عادت القيادة الفلسطينية إلى القاهرة تلتمس منها العون ، وتعترف بدورها في مساندة القضية الفلسطينية . ثم أخذت سياسة الواقعية (التي كانت تسمى بالخيانة فيما مضى !) تسيطر وتتحكم في مسار المنظمة ، وبذلك افتتحت صفحة جديدة في نضال منظمة التحرير الفلسطينية .

ومن المحقق أن الفضل في هذا التغيير الذكي يرجع إلى ياسر عرفات ، وإلى مجموعة الواقعيين في المنظمة . لقد كان موقف ياسر عرفات والواقعيين في المنظمة ضعيفا قبل الانتفاضة ، بسبب شدة صخب النصابين المزايدين الخاضعين للسيطرة السورية ، وبسبب الخوف من نفس الاتهامات التي وجهت إلى السادات ببيع القضية الفلسطينية والتضحية بالشعب الفلسطيني ! ولكن الانتفاضة غيرت الموقف ، فالفرق بين مطالب المنتفضين ومطالب المزايدين كالفرق بين السماء والأرض ، فلم يطلب المنتفضون إزالة دولة اسرائيل والقضاء على الكيان الصهيوني وإنما طالبوا بإزالة الاحتلال الاسرائيلي عن الضفة وغزة في مقابل السلام ، وهذا المطلب يستطيع أن يجتذب إليه تأييد الرأي العام العالمي ، بل يجتذب الرأي المناصر للسلام داخل اسرائيل نفسها . ومن هنا انعزل المتطرفون المزايدون بالضرورة عن الثورة الفلسطينية ، ولم يعودوا يمثلون أى خوف لدى الواقعيين من زعماء المنظمة وعلى رأسهم ياسر عرفات . فكان التغيير الذي شاهدهناه في جنيف ، والذي يعد نقطة تحول في القضية الفلسطينية .

نعم يعد نقطة تحول فى القضية الفلسطينية لأنه يشتمل على متغيرين:

المتغير الأول ، هو أن الوجود الاسرائيلى لم يعد ينفى الوجود الفلسطينى كما أن الوجود الفلسطينى لم يعد ينفى الوجود الاسرائيلى . بل يمكن لكل من اسرائيل وفلسطين أن تتواجدا معا على أرض فلسطين . وهذا هو مغزى الاعتراف بقرار ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ .

وحتى نبرز أهمية هذا الاعتراف يمكن أن نعود إلى وجهة النظر الفلسطينية من الوجود الإسرائيلى ، كما وردت على لسان مناضل فلسطينى بارز ، هو الدكتور فايز صايغ ، فى حوار مشهور على شاشة التليفزيون الأمريكى أجراه المذيع الأمريكى دافيد سسكند يوم ٣ ديسمبر ١٩٦٧ — أى بعد النكسة بنصف سنة ، وفيه يقول :

«نحن نرفض الاعتراف بإسرائيل ، لأن إسرائيل هى اغتصاب لأحد الأقاليم العربية . . إن إسرائيل موجودة ، لأن فلسطين قد منعت من أن توجد . إن وجود إسرائيل يكمن فى عدم وجود فلسطين .

سسكند : يعنى انكم لن تعترفوا بإسرائيل قط ؟

صايغ : لن نعترف بإسرائيل التى يعد وجودها انكارا لحق عرب فلسطين فى الوجود .

سسكند : هكذا لن تعترفوا أبدا بدولة إسرائيل ؟

صايغ : لقد سبق أن قلت ذلك اثنتى عشرة مرة .

سسكند : قل نعم أولا ، اجابة على ذلك السؤال .

صايغ : قلت لا ، لن نعترف بدولة إسرائيل التى يعنى وجودها عدم وجود الشعب العربى فى فلسطين .

سسكند : دكتور صايغ ، فى استطاعتك أن تستأثر بالتليفزيون الأمريكى لمدة أربع ساعات فى الليلة ، أى اثنين وخمسين أسبوعا فى

السنة ، ولن يكون الدفاع عن قضيتك بأفضل مما دافعت ! ولن يستمع إليها أحد على نحو أكثر نفورا من هذا ، لأن أمريكا – كما تعلم – هي إحدى الدول الموقعة في الأمم المتحدة على قيام دولة إسرائيل ، وعلى شرعيتها وسيادتها .

وهذا يفسر قبول الولايات المتحدة التفاوض مع منظمة التحرير بعد اعلان عرفات قبول المنظمة قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ، الذى يشمل «الاعتراف بسيادة كل دولة فى المنطقة ، وحققها فى أن تعيش ضمن حدود أمنة ومعترف بها ، خالية من التهديدات أو أعمال القوة» .

ولكنه يفسر أيضا اعتراف المنظمة بأنها قد فشلت فى حل الصراع مع إسرائيل بالقوة ، بنفس القدر الذى فشلت فيه الدول العربية فى حله بالقوة من خلال اربع حروب – أى أنه اعتراف بالأمر الواقع . وهو اعتراف لا غبار عليه ، كما أنه لم يكن ثمة غبار على الألمان حين اعترفوا بانقسام دولة ألمانيا الموحدة إلى دولتين بعد الحرب العالمية الثانية ، * لأن التاريخ يحفل بكثير من الأمور الواقعة التى فرضت نفسها على الأمم والشعوب ولم تملك إزاءها إلا الاعتراف أو الفناء .

نعم ليس فى هذا الاعتراف بالأمر الواقع ما تلام عليه المنظمة ، وإنما الذى تلام عليه أنه تأخر كثيرا ، وأنه لم يحدث فى الوقت المناسب – أى فى الوقت الذى اعترفت فيه مصر بهذا الأمر الواقع ، وقام السادات بزيارته التاريخية إلى القدس .

فلم تستطع المنظمة أن تفهم أن السادات لم يقم بهذه الزيارة من باب الخيانة أو بيع القضية الفلسطينية ، وإنما قام بها لأن أكبر حرب خاضها ضد إسرائيل ، وحقق فيها انتصارا أسطوريا بكل المعايير ، لم تسفر إلا عن تحرير شريط على طول الضفة الشرقية للقناة بعمق خمسة عشر

* كان انقسام ألمانيا وقت كتابة هذا الكلام يبدولى أسيا ١

كيلومترا ، وأنه لا يستطيع أن ينتظر عشر سنوات أخرى حتى تنهيا الظروف لحرب جديدة يخوضها ضد اسرائيل لتحرير بقية سيناء - ناهيك عن إزالة دولة اسرائيل ! .

كذلك لا غبار على المنظمة أن اتجهت إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، واستجابت لشروطها للحوار ، لكي تضغط بها علي اسرائيل للقبول بانهاء احتلالها للضفة الغربية وغزة ، كما أنه لم يكن ثمة غبار على السادات حين قال ان ٩٩ فى المائة من أوراق اللعبة فى يد الولايات المتحدة ! فمن قبل أن يقول السادات ذلك كان عبد الناصر قد قال هذا المعنى بصورة أبلغ ، حيث وصل بالنسبة إلى مائة فى المائة !

ففى لقائه بدوايت أيزنهاور ، رئيس الولايات المتحدة وقتذاك ، فى فندق والدورف استوريا يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٠ ، تطرق الحديث إلى «مسئولية أمريكا» ذات التأثير فى المجال الدولى ، وأخذ عبد الناصر يدلل على ضخامة حجم هذه المسئولية بأبلغ مما فعل السادات ، فقال ما معناه حسبما يروى محمد حسنين هيكل :

«إنما نحن ، وشعوب أخرى كثيرة غيرنا ، نتمنى لو أن قادة أميركا تذكروا الوزن الكبير لبلادهم ، وهم يقررون خطواتهم السياسية ، وإنى لأضرب لكم المثال من تجربتين عشناهما معا فى العالم العربى ، وعاشتتهما معنا الولايات المتحدة : أولاها ، مشكلة العدوان على فلسطين سنة ١٩٤٨ ، والثانية ، مشكلة العدوان على مصر سنة ١٩٥٦ . ان الفشل الذى لاقتة الأمم المتحدة فى المشكلة الأولى ما زال مكمنا للخطر فى العالم العربى . كما أن النجاح الذى لاقتة الأمم المتحدة فى المشكلة الثانية استطاع أن ينقذ العالم من حرب ذرية مروعة».

واستطرد جمال عبد الناصر يسأل أيزنهاور بما معناه :

«هل تستطيع أن تقول لى : لماذا نجحت الأمم المتحدة فى مشكلة العدوان على مصر ، ولماذا فشلت نفس الأمم المتحدة فى مشكلة العدوان على فلسطين ؟ لقد كان الفارق الوحيد بين النجاح والفشل للأمم المتحدة

فى تقديرى هو موقف أمريكا : نجحت الأمم المتحدة سنة ١٩٥٦ لأن أمريكا وقفت معها ، وفشلت الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨ لأن أمريكا تخلت عنها !

هذا هو ما قاله عبد الناصر بنفسه للرئيس الأمريكى . وقد نقله عنه محمد حسنين هيكل - كما ذكرنا - فى مقال نشرته له مجلة «نحن والعالم» فى عددها الصادر فى كانون الأول ١٩٦٠ والصادر من بيروت ، نقلا عن جريدة الأهرام ، على أثر فوز كنيدي برئاسة الجمهورية . وهو يغنى عن التعليق ، لأنه يلغى تأثير الأمم المتحدة بدون أمريكا .

فإذا جاءت منظمة التحرير الفلسطينية الآن لتعطى للولايات المتحدة نفس الدور الذى أعطاه لها من قبل عبد الناصر والسادات ، فإنها لا تكون قد تجاوزت حقائق هذا العصر .

وهذا ما سبق لنا أن نبهنا إليه فى عديد من مقالاتنا ، فكثيرا ما قلنا إن المعركة الأساسية هى مع الولايات المتحدة وليست مع إسرائيل ، وإن الولايات المتحدة هى التى تسيّر إسرائيل ولا تسيّر إسرائيل الولايات المتحدة ، لأن هذا ضد طبيعة الأشياء ، فليس من المعقول أن دولة تتكون من ثلاثة ملايين ، تسيّر دولة تتكون من ٢٥٠ مليوناً ! وإنما للولايات المتحدة مصلحة أساسية فى إشعال هذه المنطقة بالنار بالصراعات والحروب والفتن والثورات ، لكى يثرى تجار السلاح وتروج بضاعتهم . وإن الذين يموتون فى هذه المنطقة هم عرب ومسلمون وإسرائيليون ولا يموت أمريكيون .

وقلت إن حل القضية الفلسطينية يتم من خلال واحد من طريقين : إما عن طريق الولايات المتحدة ، باقناعها بمصلحتها فى هذا الحل ، وبإنه لن يؤثر تأثيرا سلبيا على نفوذها فى المنطقة ، وأما عن طريق التفاوض المباشر مع إسرائيل ، وتقديم التنازلات اللازمة لأمنها ! - وفى كلتا الحالتين فإنهما تقومان على الاعتراف بالأمر الواقع ، الذى تتجرعه الدول عادة عبر التاريخ ، حتى يتسنى لها ترتيب أمورها والاستفادة مما لديها ،

بدلاً من أن تبنى حياتها وتدمر امكاناتها طلباً للمستحيل ، وهو ما تجرعتة اليابان وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية ، ولم يكن فى وسعهما غير ذلك .

وقد كانت المشكلة بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية هى أنها تريد - بامكانيات هزيلة للغاية - هى مجرد عمليات فدائية هنا وهناك ، أو عمليات خطف طائرات هنا وهناك - أن تجبر الولايات المتحدة واسرائيل على الرضوخ لرغبة الحركة الوطنية الفلسطينية فى إزالة دولة اسرائيل . وعندما عجز السادات عن ذلك بعد انتصار ضخم مدو حطم فيه خط بارليف فى ست ساعات ، وأراد أن يتصرف وفقاً للأمر الواقع ، ويجلس مع اسرائيل على مائدة المفاوضات من أجل حل شامل ، اتهمته المنظمة بالخيانة بدلاً من أن تشترك معه فى الاجتهاد الذى حرر سيناء ، فرحبت اسرائيل بهذا العناد لأنها كانت تضع يدها على الأرض ، واستمرت فى بناء المستوطنات فى الضفة الغربية ، وأنزلت العذاب بالفلسطينيين فى الأراضي المحتلة دون أن يردعهم رادع .

فلما قامت انتفاضة الحجارة ، أعطت للمنظمة امكانات جبارة للتحرير لم تكن تملكها من قبل ، وهى نفس الامكانات التى قامت عليها حركات التحرر الوطنى فى أنحاء العالم الثالث - وفى العالم العربى على الأخص - فى مصر وتونس والجزائر والمغرب وسوريا والعراق والأردن ولبنان وغيرها ، فأخذت المنظمة تتعامل مع الأمر الواقع - بعد أن كانت تتجاهله - وتحاول تغييره لصالح القضية الفلسطينية ، فكان هذا الانقلاب فى سياستها ، الذى نرحب به ، وندعو قادتها الواقعيين ، وعلى رأسهم ياسر عرفات ، إلى المضى فيه قدماً ، مهما كان فيه مما يعرضهم لهجوم المزايدى النصابين .

ولا يضيرهم أن يتبعوا نهج السادات ، الذى داس على أشواك التخوين والمقاطعة العربية ، بينما كان يلقي التعنت من سياسة بيجين والليكود ، حتى تكلفت جهوده بالنجاح ، فكانت سيناء أول أرض عربية

تتحرر من الاحتلال الاسرائيلى . وهو ما نرجو أن يكون مصير الضفة الغربية وغزة ، فتكون فلسطين هى الأرض العربية الثانية التى تنال شرف التحرير .

منظمة التحرير ونهج

السادات (٢)

أدفع عن المزايدين !

عندما كتبت مقالى فى عدد ٨ يناير ١٩٨٩ بعنوان : « منظمة التحرير ونهج السادات » لم أكن أقصد سوى الترحيب بالتغيير الجذرى الذى حدث فى موقف منظمة التحرير الفلسطينية من اسرائيل ، والذى اعترفت فيه المنظمة بالأمر الواقع الذى تجاهلته على مدى السنوات السابقة ، وترتب عليه استمرار معاناة الشعب الفلسطينى فى الأراضى المحتلة حتى اليوم دون أية بارقة أمل فى انتهاء هذه المعاناة ، مما فجر انتفاضة الحجارة المباركة التى قلبت الموقف رأسا على عقب ، ونقلت القضية الفلسطينية إلى مستوى جديد .

على أن صديقا عزيزا يرأس تحرير جريدة حكومية كبرى * رأى فى مقالى ما أسماه « بمعايرة » المنظمة لأنها فعلت اليوم ما اعتبرته خيانة

* هو الأستاذ محفوظ الأنصارى

أكتوبر فى ١٩٨٩/١/٢٢

بالأمس ! مع أن فكرة « المعاييرة » لم تخطر ببالى . وإنما كنت أوظف التاريخ فى وظيفته الحقيقية ، وهى بناء الحاضر والمستقبل . ومن هنا كانت دعوتى للمنظمة - وبصفة خاصة للواقعيين من زعمائها وقادتها - إلى المضى قدما فى السياسة الجديدة لصالح القضية الفلسطينية ، «مهما كان فيه مما يعرضهم لتهجم المزايدين » - كما قلت .

ومن هنا فان محاولة الصديق العزيز وصف مقالى بـ « المعاييرة » لا يمكن أن تكون إلا محاولة لتبرئة ساحة « المزايدين » ، الذين رفضوا التعامل مع الواقع - لأسباب سوف يحاسبهم عليها التاريخ عندما تكتمل الوثائق وتتكامل الصورة - ولا يمكن أن يكون مقاله دفاعا عن المعتدلين أنصار التعامل مع الواقع وتغييره ! .

ومثل هذه المحاولة لتبرئة « المزايدين » مرفوضة تماما ، لأنها تنزع عن التاريخ سلاح المحاسبة الذى يخشاه كل سياسى أو حاكم على ظهر الأرض ، فيتصور أنه يكفى أن يعود إلى صوابه فتعود صفحته بيضاء نقية كأن لم تشبها من جرائمه وخطاياہ على مر السنين شائبة ! - وهذا لا يقدر عليه إلا المولى سبحانه وتعالى فى علاہ ، لرحمته بالعالمين ، ولكن التاريخ لا يملك هذه الرحمة ، وإنما يملك - فقط - العدل ! .

بل ليسمح لى الصديق العزيز أن أعتبر محاولته هذه محاولة خطيرة، إذ ليس لها من نتيجة إلا تشجيع المزايدين على الاستمرار فى مزايدهم القاتلة ، دون خشية محاسبة التاريخ ، فإذا أجبرتهم الظروف على التراجع عن المزايدة لم يعد ثمة فرق بينهم وبين المناضلين الحقيقيين الذين مشوا على الشوك الذى زرعه أمامهم المزايدون ، وتحملوا الآلام لخدمة أمتهم !

نعم لا يعود هناك فرق بين القذافى - على سبيل المثال - وبين السادات ومبارك أو بين حافظ الأسد - الذى ما زال جولانه محتلا حتى الآن - ومبارك الذى تحررت سيناؤه الآن !

ومن حسن الحظ أن هذا الكلام ليس كلامي - حتى أتهم بالمعايرة -
وانما هو كلام الفلسطينيين المنصفين أنفسهم ، بل هو كلام كاتب كبير
مثل صبرى جريس المدير العام لمجلة « شئون فلسطينية » التي تصدر عن
منظمة التحرير ، في تحليله لنتائج دورة المجلس الوطنى الفلسطينى
الثامنة عشرة . التى عقدت فى الجزائر فى النصف الثانى من شهر
ابريل عام ١٩٨٧ ، وفيه كشف بوضوح كيف تأثرت تلك النتائج بسياسة
قادة المنظمات الصغيرة المزاييدة التى أورثت المنظمة الانقسام والنزق
والتحجر وضيق الأفق ، والتى تفرض دكتاتورية الأقلية على الأغلبية
باسم الوحدة الوطنية - وعلى رأس هذه المنظمات الصغيرة الجبهتان
الشعبية والديموقراطية ، فضلا عن « مجموعة السفاحين المعتوهين
المعروفة أكثر باسم « جماعة أبو نضال » سيئة الصيت والسمعة» -
حسب تعبيره - فجاءت تلك النتائج « متسريعة ، وفجة ، لا تنم عن نضج
سياسى كبير ، وبدا كأنها بمثابة قفزة إلى الوراء » ! .

ومن هنا كان ترحيبنا بانتصار حكمة المعتدلين - الذين يمثلهم ياسر
عرفات ورفاقه - على نزق ومتاجرة المزايدين ، وهو الانتصار الذى يمثل
نقطة تحول ضخمة فى تاريخ المقاومة الفلسطينية .

ولكن الصديق العزيز - فيما يبدو على أحسن الفروض - يتصور أنه
لا فرق بين المعتدلين والمزايدين ! فكلهم « منظمة التحرير » التى لا تجب
«معايرتها » . وكان عليه أن يعرف أولا رأى هؤلاء المزايدين الذين
هاجمتهم، فى المعتدلين الذين رحبنا بانتصار اتجاههم .

فلم يكن ياسر عرفات - فى رأى هؤلاء المزايدين - إلا « سادات
فلسطين »! وكانوا يسمون القيادات الفلسطينية الملتفة حوله بـ « رموز
الانحراف » أو « القيادة اليمينية المتنفذة » لمنظمة التحرير الفلسطينية ،
الخاضعة « لساتات فلسطين » ! ، وكانوا يسمون أنصار عرفات باسم
«الزمر العرفاتية » - إلى آخر هذه المسميات التى تكشف خطأ تصور

الصدیق العزیز أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت منظمة واحدة ، وليست عدة منظمات متناقضة متصارعة يصفى بعضها بعضا ، وتشتعل فيما بينها الحرب الأهلية بين فترة وأخرى ، وآخر هذه الحروب هي الحرب الأهلية الفلسطينية التي دارت رحاها فوق أرض لبنان ، وكاد عرفات يفقد فيها حياته لولا تدخل مصر والدول ! .

الفرق الكبير - اذن - فى التحليل بينى وبين الصدیق العزیز ، هو أنه ينظر إلى منظمة التحرير كمنظمة متجانسة فكريا وسياسيا ، وأنا أنظر إليها كمنظمة متصارعة منقسمة بين معتدلين ومزايدين يتقاتلون فيما بينهم حتى الموت ، ومن هنا بينى تحليله للتغيير الذي طرأ على موقف المنظمة على أنه « جزء من عملية تطور طبيعية » ! بينما أبنى تحليلى على أن التغيير انما هو نتيجة انتصار فريق المعتدلين على فريق المزايدین . وهو ينسب التغيير إلى الأمور التي فرضتها ترتيبات ما بعد الحرب العالمية الثانية ! ، بينما أنا أنسبها إلى الأمور التي فرضتها ترتيبات ما بعد انتفاضة الحجارة ! لأن ترتيبات ما بعد الحرب العالمية الثانية موجودة طوال مدة الصراع العربى الاسرائيلى ، بل كانت هي نفسها الترتيبات التي حكمت الصراع العربى الاسرائيلى ، ولكن ترتيبات ما بعد الانتفاضة هي التي رجحت كافة المعتدلين على كفة المزايدین .

بل إن الصدیق العزیز يتصور أن التغيير الذى حدث مع الفلسطينيين حدث - وبنفس الدرجة - حسب قوله ، مع العاهل الأردنى ، الذى أدرك في لحظة - كما يقول - أن العملية بأسلوبها القديم وعلاقاتها القديمة ومفاهيمها السابقة ، عقيمة مسدودة الطريق ولن تصل إلى أى شىء ، فاتخذ قراره بفك الارتباط القانونى والادارى بين مملكته وبين الضفة الغربية والقطاع ! - مع أن التصور التاريخى الصحيح لما فعله الملك حسين يبين بوضوح أنه كان نتيجة لعقم سياسة منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت خاضعة فيها لسيطرة المزايدین ، وليس نتيجة لعقم العملية بأسلوبها القديم ! لأن المنظمة عادت إلى نهج الملك حسين ورؤيته

لحل الصراع وتحرير الأرض المحتلة ، ولم ينتقل الملك حسين إلى نهج المنظمة الذى كان يعرف أنه كان نهجا فاسدا خضع لسيطرة المزايدين .

ومن هنا ، إذا شاء الصديق العزيز أن يضع التغيير الذى طرأ على موقف المنظمة ، فى شكل : تطور أم توبة ، فإننا نسميه « توبة » ! لأن التوبة هى عودة إلى الطريق المستقيم ، ولا نسميه « تطورا » ، لأن التطور هو تقدم تدريجى إلى الأمام ، وليس « عودة » بأى حال ، اللهم إلا إذا كانت عودة إلى الطريق المستقيم !

وفي الواقع أن المنظمة تأخرت ثلاث سنوات فى اتخاذ هذا التغيير ، كما تثبت وثيقة رسمية بالغة الأهمية ، هي الخطاب المشهور الذى وجهه الملك حسين إلى الأمة فى يوم ١٩ شباط (فبراير) ١٩٨٦ ، والذى أعلن فيه « عدم تمكنه من مواصلة التنسيق سياسيا مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، «حتى تكون للكلمة معناها ، التزاما ومصداقية وثباتا»!

هذا الخطاب يوضح جيدا أن ما قبلته المنظمة اليوم ، هو نفسه ما كان معروضا عليها يوم ٢٥ يناير ١٩٨٦ ، ورفضته تحت ضغوط المزايدين . ومعنى ذلك أن التغيير جاء من المنظمة وليس من الملك حسين أو الولايات المتحدة ! أى أن المنظمة تابت عن موقفها السابق ، وعادت إلى الحق الذى يفرضه الأمر الواقع ، بعد أن حررت الانتفاضة يد المعتدلين من بطش المزايدين .

نعم ، فقد عادت المنظمة إلى ما أسميناه بالخيار الأردنى ، بعد أن تخلت عن الخيار السورى المتطرف القاتل للقضية الفلسطينية . وهذا الخيار الأردنى هو ما أسماه الملك حسين « بالصيغة الأردنية الفلسطينية» ، والتي طرحها أمام الدورة السابعة عشرة للمؤتمر الوطنى التى عقدت فى عمان فى نوفمبر ١٩٨٤ .

فقد أوضح أمام المؤتمر أن « الموقف الدولى بعامة يرى أن بالامكان استرجاع الأرض المحتلة من خلال صيغة أردنية فلسطينية ، ترتب على الطرفين التزامات يعتبرها العالم ضرورية للوصول إلى تسوية سلمية عادلة ومتوازنة » .

وقال انه « إذا توافرت لديكم القناعة بهذا الخيار ، فوق ما بيننا من أواصر كأسرتين ، وما يجمعنا من وحدة في المصير والغايات - فنحن مستعدون للسير معا على هذا الطريق ، والخروج للعالم بمبادرة مشتركة أما اذا كنتم تعتقدون بأن المنظمة قادرة على السير بمفردها ، فنقول لكم : على بركة الله ، ولكم منا الدعم والتأييد ، وسيظل القرار أولا وأخيرا لكم » .

وأوضح الملك حسين أن الخطوط العريضة التي يمكن أن تشكل الاطار العام للمبادرة المقترحة ، هي : قرار مجلس الأمن ٢٤٢ كأساس للتسوية العادلة ، ومبدأ الأرض مقابل السلام ، والمؤتمر الدولي ، وقيام صيغة للعلاقات الأردنية الفلسطينية تكون قاعدة للانطلاق عربيا ودوليا نحو عقد مؤتمر دولي للسلام .

وقد قبلت المنظمة هذا الاطار في ذلك الحين ، وتم ابرام الاتفاق الأردني الفلسطيني المشترك ، الذي عرف باتفاق الحادي عشر من شباط، وفيه اقامة اتحاد كونفدرالي بين الدولتين - مما أدى إلى إعادة الحياة إلى جهود السلام التي كادت تدفن .

وكانت فائدته للمنظمة عظيمة ، فقد برر مشاركتها في المؤتمر الدولي المقترح ضمن وفد أردني فلسطيني مشترك ، على أساس أنه إذا كانت الكونفدرالية هي خط النهاية ، فلماذا لا يمارس طرفاها حل النزاع في اطار المؤتمر الدولي ؟ ولم يكن هذا المكسب هينا ، لأن مشاركة المنظمة في المؤتمر الدولي شكلت في العقد الأخير إحدى العقبات الرئيسية لعقد مؤتمر دولي للسلام .

أما الفائدة الثانية للمنظمة فقد تمثلت في أن الاتفاق أرسى قواعد دور مسئول للمنظمة في تحقيق السلام العادل و حمايته من خلال الترابط مع الأردن .

وبناء على هذا الاتفاق أخذ الملك حسين يدير الحوار مع الولايات المتحدة الأمريكية في مايو وديسمبر من عام ١٩٨٥ ، بينما كان الرئيس مبارك يدير حوارا من جانب آخر .

ولكن المزايدين تقدموا لعرقلة الجهود ، وارتكبوا حادث اختطاف طائرة الركاب المصرية المعروف باسم « حادث مطار لارنكا » ، الذي تلتها الغارة الاسرائيلية على مقر منظمة التحرير في تونس .

ومع ذلك أمكن الوصول إلى اتفاق مع الولايات المتحدة على دعوة المنظمة إلى المؤتمر الدولي في حالة قبولها قراري ٢٤٢ و ٣٣٨ ، وقبل مبدأ المشاركة في التفاوض مع حكومة اسرائيل ضمن المؤتمر الدولي ، وشجب الارهاب وهو ما أبلغ به الملك حسين القيادة الفلسطينية في ديسمبر ١٩٨٥ .

بل إنه في ٢٥ يناير ١٩٨٦ أثمرت الجهود مع الولايات المتحدة عن تعهد مكتوب بأن « الولايات المتحدة تقبل دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في مؤتمر دولي ، إذا هي أعلنت قبولها الواضح لقرار مجلس الأمن ٢٤٢ ، واستعدادها للتفاوض مع حكومة اسرائيل في اطار مؤتمر دولي ، وادانتها للارهاب » . وكان الموقف الأمريكي قبل ذلك يقتصر على فتح حوار مع المنظمة إذا هي قبلت القرار ٢٤٢ .

على أن المنظمة - تحت ضغط المتطرفين - رفضت قبول قرار ٢٤٢ في هذا الاطار ، مصرة على ضرورة أن اعترف الولايات المتحدة بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني لا يغطي حق تقرير المصير الذي تصر المنظمة على قبول أمريكا المسبق له .

وبهذا الاصرار قفل باب الحوار مع الولايات المتحدة ، وانتهت جهود كل من الملك حسين والرئيس مبارك بالفشل ، واضطر الملك حسين إلى أن يلقي خطابا قوميا شاملا يعلن فيه للأمة هذا الفشل ، ويعلن عدم تمكنه من مواصلة التنسيق مع قيادة منظمة التحرير .

وسرعان ما أخذت مركب المنظمة تخضع لسيطرة المتطرفين ، فأخذت المنظمة - بقدرة قادر - تتحول من الخيار الأردني المتاح ، إلى الخيار السوري المستحيل ، وبلغ ذلك ذروته في الدورة الثامنة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر في ابريل ١٩٨٧ ، التي خضعت لتأثير التيار « الشعبوقراطي » - حسب تعبير صبرى جريس - أى تأثير الجبهتين الشعبية والديموقراطية ، اللتين يعيش زعمائهما في سوريا ، «ومن لف لفهما » .

وتحت هذا التأثير تم الغاء الاتفاق الأردني الفلسطيني ، وبذل المجلس الوطني كل ما في وسعه لاسترضاء سوريا ، التي يرتكب حكامها على مدى السنوات العشر السابقة الجريمة تلو الجريمة ضد القضية الفلسطينية ، ابتداء من تل الزعتر إلى الحرب الأهلية في لبنان ، إلى التقاعس عن أداء الواجب خلال الاجتياح الاسرائيلي للبنان ، إلى دعم المنشقين في طرابلس ، إلى وقوفها وراء حركة « أمل » في محاولاتها الاجرامية لتصفية المخيمات . فلم يشر المجلس الوطني في قراراته إلى هذه الجرائم من قريب أو بعيد ، في الوقت الذي انهال باللوم والتقريع على مصر ، مؤكدا صراحة قرار سنة ١٩٨٣ بتقييد العلاقات مع السلطة المصرية والتركيز على ما أسماه بالحركة الوطنية المصرية - يقصد المعارضة - بصورة استفزازية للحكومة المصرية .

فاذا جاءت المنظمة - بعد عام واحد من هذه القرارات التي اتخذتها الدورة الثامنة عشرة للمجلس الوطني ، التي تحولت فيها إلى الخيار السوري ، وقضت على كل محاولات حل القضية الفلسطينية بالطرق السلمية - لتعود مرة أخرى إلى الخيار الأردني في الدورة التاسعة عشرة التي عقدها المجلس الوطني في نوفمبر ١٩٨٨ ، وتعلن عن العمل لتحقيق وحدة كونفدرالية مع الأردن عند اتمام تحرير الأرض المحتلة ، ويعلن عرفات في جنيف اعتراف المنظمة بقراري ٢٤٢ و٣٣٨ ، وحق اسرائيل في الوجود ، ونبذ الارهاب - دون أن يكون قد حدث أى تغيير أو تراجع

فى موقف الولايات المتحدة أو اسرائيل ! - فكيف يأتى الصديق العزيز ، رئيس تحرير الجريدة القومية الكبرى ، لينسب هذا التحول الذى طرأ على موقف المنظمة فى خلال عام واحد ، إلى ترتيبات ما بعد الحرب العالمية الثانية ؟ وإلى انقسام ألمانيا وكوريا واعتراف أمريكا بالصين الشعبية ؟ ويقول انه جزء من عملية تطور طبيعية « ؟ .

بل يتهمنا بسطحية التحليل بقوله إن « المشكلة أكبر والأزمة أعمق »! وبأنه فاتنا الاهتمام بقضية الشرق الأوسط وفلسطين سنوات طويلة ، وأنه كان يجب علينا أن نجهد أنفسنا بالقراءة والعودة إلى التاريخ الحديث والمعاش ! ، ثم يتهمنا بمعايرة المنظمة لأنها ارتكبت كل « الخيانات » التى ارتكبتها السادات ، ويتصور أنه - بذلك - قد برأ ساحة المزايدين ! ، الذين كرسنا مقالنا لإدانة وكشف جرائمهم فى حق الشعب الفلسطينى تحت الاحتلال الاسرائيلى ! .

إننى أقول إنه لا فائدة من تبرئة المزايدين تحت أى سبب أو شعار ، أو مساواتهم بالمعتدلين فى قيادة المنظمة ، ولا فائدة من أن ننسى دماء يوسف السباعى وعصام سرطاوى التى أراقها المزايدون ، لأن هؤلاء المزايدين ما زالوا موجودين فى الساحة ، يتربصون بكل المحاولات الشريفة التى يقوم بها ياسر عرفات ورفاقه لانتهاء معاناة الشعب الفلسطينى تحت الاحتلال الاسرائيلى ، ويريدون استدامة الأوضاع القديمة التى كانوا فيها يرهبون ويخوفون ويسيطرون ويجمدون القضية الفلسطينية ويدفعون بها إلى هوة ليس لها قرار !

من أهم أعمال المؤلف

- ١ - تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩١٨ - ١٩٣٦)
(القاهرة : دار الكاتب العربى ١٩٦٨) .
- ٢ - تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩٣٧ - ١٩٤٨) -
مجلدان .
(بيروت : دار الوطن العربى ١٩٧٣) .
- ٣ - الصراع الاجتماعى والسياسى فى مصر ، من ثورة
يوليو إلى أزمة مارس ١٩٥٤ .
(القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٧٥) .
- ٤ - عبد الناصر وأزمة مارس .
(القاهرة : دار روز اليوسف ١٩٧٦) .
- ٥ - الجيش المصرى فى السياسة (١٨٨٢ - ١٩٣٦) .
(القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧) .
- ٦ - صراع الطبقات فى مصر (١٨٣٧ - ١٩٥٢) .
(بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٨) .
- ٧ - الصراع بين الوفد والعرش (١٩٣٦ - ١٩٣٩) .
(بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩) .
- ٨ - الفكر الثورى فى مصر ، قبل ثورة ٢٣ يوليو .
(القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨١) .
- ٩ - المواجهة المصرية الاسرائيلية فى البحر الأحمر (١٩٤٩ -
١٩٧٩) .
(القاهرة : دار روز اليوسف ١٩٨٢) .

- ١٠ - الاخوان المسلمون والتنظيم السرى .
(القاهرة : دار روز اليوسف يناير ١٩٨٣) .
- ١١ - الصراع بين العرب وأوربا ، من ظهور الاسلام إلى
انتهاء الحروب الصليبية .
(القاهرة : دار المعارف ١٩٨٣) .
- ١٢ - حرب أكتوبر فى محكمة التاريخ .
(القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٤) .
- ١٣ - مذكرات السياسيين والزعماء فى مصر .
(القاهرة : دار الوطن العربى ١٩٨٤) .
- ١٤ - تحطيم الآلهة ، حرب يونيو ١٩٦٧ . (جزءان) .
(القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٤) .
- ١٥ - الغزوة الاستعمارية للعالم العربى ، وحركات المقاومة .
(القاهرة : دار المعارف ١٩٨٤) .
- ١٦ - مصر فى عصر السادات . (الجزء الأول)
(القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٦) .
- ١٧ - مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الأول (القاهرة -
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧) .
- ١٨ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ، (القاهرة - الهيئة
المصرية العامة للكتاب - سلسلة تاريخ المصريين رقم ١
سنة ١٩٨٧) .

- ١٩ - أكلوبة الاستعمار المصري للسودان (القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٣ سنة ١٩٨٨) .
- ٢٠ - مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الثانى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨) .
- ٢١ - مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الثالث (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩) .
- ٢٢ - مصر فى عصر السادات (الجزء الثانى) (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٩) .
- ٢٣ - مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الرابع (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠) .
- ٢٤ - الاجتياح العراقى للكويت فى الميزان التاريخى (القاهرة : ١٩٩٠) .
- ٢٥ - حرب الخليج فى محكمة التاريخ (القاهرة : الزهراء - ١٩٩٠) .
- ٢٦ - العلاقات المصرية الاسرائيلية ١٩٤٨ - ١٩٧٩ (القاهرة - سلسلة تاريخ المصريين ٤٩ سنة ١٩٩١) .
- ٢٧ - مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الخامس (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢) .
- ٢٨ - الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك (القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢) .

مع آخرين :

- ١ - مصر والحرب العالمية الثانية ، مع الدكتور جمال الدين المسدى والدكتور يونان لبيب رزق .
(القاهرة : مؤسسة الأهرام ١٩٧٨) .
- ٢ - تاريخ أوروبا فى عصر الرأسمالية ، مع د . يونان لبيب رزق ود . رءوف عباس .
(القاهرة : دار الثقافة العربية ١٩٨٢) .
- ٣ - تاريخ أوروبا فى عصر الامبريالية ، مع د . يونان لبيب رزق ود . رءوف عباس .
(القاهرة : دار الثقافة العربية ١٩٨٢) .

كتب مترجمة :

- ١ - تاريخ النهب الاستعمارى لمصر (١٧٩٨ - ١٨٨٢) تأليف جون مارلو .
(القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦) .

الكشافات

- ١ - كشاف الاعلام .
- ٢ - كشاف الهيئات .
- ٣ - كشاف البلاد والأماكن .
- ٤ - كشاف الحوادث .
- ٥ - كشاف الدوريات .

قام بعمل الكشافات كل من الباحثين بمركز
وثائق وتاريخ مصر المعاصر الأتية أسماؤهم .

الأستاذ . سامي عزيز
الأستاذة استيرة غالى
الأستاذة . ماجدة سليم

(١)

الحسن بن طلال « الأمير » : ٦٧١ ، ٦٧٤ ،
٦٧٧ - ٦٨١ ، ٦٨٣ - ٦٨٦
الحسين بن علي بن أبي طالب : ٣٢
الخميني : ٥٥ ، ٧٥ ، ٧٨
التهبي « الشيخ » : ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ،
١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٣
الريان : ٢٤٧
الطيب النجار « الشيخ » : ١٨١
العادل « الملك » : ٥١٦
الغزالي « الشيخ » : ١٨٠ ، ١٨١
القخر الرازي « الامام » : ٢٤٢
النبى « اللورد » : ٦٥٧
المودودي : ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٥٠
اميرة حسن : ٥٢٧
انيس منصور : ٣٥ ، ٥٤٢ ، ٥٦٢ ، ٥٧١ ،
٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٩٢
أوبيد ينون
ايزنهاور ، نواين : ٧٧١
ايبان ، أبا : ٧٠٩

(ب)

بايزيد « السلطان » : ٤٣
بسمارك : ٥٦٤
بطرس بطرس غالى : ٥٢٠
بويوف ، نيكولاى : ٥٦٤
بونابرت ، نابليون : ٤٧
بيجين ، مناحم : ٤٢٥ ، ٤٧٨ ، ٥٤٨ ، ٦٨٤ ،
٧٧٣
بيريز : ٥٠٦

(ت)

تحسين بشير : ٧٠٩
توفيق الحكيم : ٩ ، ٢٢٥ ، ٥٤٢ ، ٥٦٣
توفيق نوس « باشا » : ٢٩١

(ث)

ثروت « باشا » : ٦٥٦
ثروت عكاشة : ٣٥٨

أريوس « امبراطور » : ٥٧٢
ابراهيم بن عبد الله الناصر « الدكتور » : ٢١٤
ابراهيم سعدة : ٤١١ ، ٤١٣ - ٤١٧ ، ٤١٩ ،
٧٢٨ ، ٧٢٧
ابراهيم شكرى : ٣٢٦ ، ٣٤٧
ابراهيم عبد الهادى : ٢٨٥
ابو بكر الصديق : ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١٤٣
أبى جعفر المنصور : ٣٨ - ٤١
أبى جهاد : ٥٢٨
اثنايوس : ٥٧٢
احمد المجذوب : ٨٢ ، ٨٣
احمد الهونى : ٥٤٥
احمد بهاء الدين : ١٧٠ ، ١٨٠ ، ٢٩٧ ، ٤١٥ ،
٥٤٦ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٥٠
احمد بهجت : ٨٢ ، ٩٤ ، ١٠٤ ، ١٢٨ ، ١٢٩
احمد حسين : ٧٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٩ ، ٣٤٣ ، ٦٣١
احمد حمروش : ٦٠٨ ، ٦٣٠
احمد زيور : ٦٣٣
احمد صدقى : ٦٣٣ ، ٦٤٧ ، ٦٥٦
احمد طه : ٤٥٧
احمد فؤاد « الملك » : ٢٤ ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ١٩٤ ،
٢٨٩ ، ٣٩٤ ، ٤١٤
احمد عرابى : ٤٧
احمد قدرى : ٤١٥
احمد كمال ابو المجد « الدكتور » : ٥٩ ، ٦٠ ،
٦٥ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٤
احمد لطفى السيد : ٦٤٧
احمد ماهر : ٦٣٣
احمد هيكل : ٤١٨
اسامة أنور عكاشة : ٦٢٨ ، ٦٤٨
اسماعيل صدقى : ٢٨٥
اسماعيل فهمى : ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٦٦٣ ، ٦٦٥ ،
٦٦٨ - ٦٧٩
الجاحظ : ١٤٢
الحسن « الملك » : ٥٠٦ ، ٧٢١ ، ٧٢٢

(ج)

جاء الحق على جاد الحق « الشيخ » : ١١٤ ، ١٥٣

جلال يحيى كامل : ١٤٧

جمال بدوى : ١٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٦١٢

جمال عبد الناصر : ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ - ٢٨١ ، ٢٨٣ - ٢٨٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦

جوانا « الملكة » : ٥١٦

جورباتشوف : ٥٦٤

جورج حبش . ٧٤٦ ، ٧٥٢ ، ٧٥٨ ، ٧٦١

(ح)

حافظ الاسد . ٦١ ، ٦٢ ، ١٣٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٨٩ ، ٥٠٦ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٦٦٧ ، ٧٣٩ ، ٧٤٨ ، ٧٥٨ ، ٧٧٦ ، ٧٧١ ، ٧٥٩

حافظ بدوى : ٥٩٥

حافظ عففى : ٦٣٣

حامد ابو النصر : ٩٤

حامد سليمان : ٤٩ - ٥٣

حسام عيسى « الدكتور » . ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢

حسن ابراهيم : ٣٧٥ ، ٣٧٧

حسن ابراهيم حسن « الدكتور » : ١٤٣

حسن ابو باشا : ١٣٤ ، ١٨٧

حسن البكر : ٧٧٢

حسن البنا : ٢١ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٤ ، ٣٢٦ ، ٦٣١

حسن التهامى : ٥٩٥

حسن الهضيبي : ١٧٠ - ١٩ ، ٢١ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩

حسن حنفى « الدكتور » . ٢٠٥

حسن رجب : ٣٢٩

حسن فؤاد : ٥٤٢ ، ٣٤٥

حسن كامل « اميرالاي » : ٤٧٥

حسنى العربى : ٥٧٢

حسنى عبد الباقي : ٣٢٩

حسين « الملك » : ٢٩٤ ، ٤٢٦ ، ٤٨٨ ، ٥٨٩ ، ٧٢١ - ٧٢٣ ، ٧٧٩ - ٧٨٢

حسين سرى : ٦٦٣

حسين عبد الرازق : ٣٣٩ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧

حسين فهمى . ٣١٤ ، ٣٢٨

حسين مختار : ٢٨١

حلمى القاعود : ١٣١ - ١٣٤

حلمى عيسى : ٦٣٣

حمدى الحكيم : ٢٦١

حمدى غيث : ٥٢٩ ، ٥٣١ - ٥٣٩

حمزة البسيونى : ٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤

حنا سنيورا : ٥٢٥ ، ٧٠٩ ، ٧٩٦

(خ)

خالد عبد الناصر : ٤٧٢ ، ٤٩٧ ، ٥٣٠ ، ٥٣٩

خالد محيى الدين : ٣١٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٥٧ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٤٧٠ ، ٥٧٤

خليل صابات : ٣١١

خليل عبد الكريم . ٧٨ ، ٧٩

(د)

د قلد يانوس : ١٨٢

د يان ، موتشى : ٣٧٧ ، ٤٨٦ ، ٦٨٥ ، ٧٠٩

د يان ، يائيل : ٧٠٩

(ر)

راشد البراوى : ٦٠٦

رتشارد قلب الاسد : ٣٢٨ ، ٥١٦

رجاء العربى : ٩٣

رسل ، برتراند : ٥٤٦

رشا : ٢٠٣

سليمان خاطر : ٥٦ ، ١٨٤ ، ٢٩٠ ، ٣٣٥ ،
٣٤٨ ، ٥٥٨ ، ٥٨٨ ، ٥٩٨
سهام نصار « الدكتورة » : ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
٣١١-٣٠٨
سيد جلال : ٦٢١
سيد طنطاوى : ٢٤٥ ، ٢٥٤
سيد قطب : ٢٨ ، ٤٣ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٥٠ ،
٣٢٦
سيد مرعى : ٦١٩ ، ٦٢٠
سينوت حنا « بك » : ٦٣١

(ش)

شادية : ٤٩٦ ، ٥٠٠
شارون : ٥٢٨ ، ٦٨٣
شامير ، اسحق : ٤٧٧ ، ٤٨٦ ، ٥٢٤ ، ٥٤٦ ،
٦٨٣
شمس الامة الحلوانى : ٢٣٩
شمس بدران : ٢٨١ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢
شهدى عطيه الشافعى . ٢٩١ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨
شو ، برنارد : ٥٤٦
شولتز : ٧٠٢
شويكار : ٥٢٠
شيف ، زائيف : ٥٢٧

(ص)

صاوى احمد الصاوى ٦٠٨
صبرى ابو المجد : ٣٠٠
صبرى جريس : ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٧٨ ، ٧٨٣
صدام حسين : ٣٤٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٢ ،
٧٢٤ ، ٧٢٥
صفوت الشريف : ٦٤٨
صفوت حسن لطفى « الدكتور » : ١٤٧
صفى الدين ابو شناف : ٢٨٧
صلاح الدين الايوبى : ٥١٢ ، ٥١٥ - ٥١٧
صلاح حافظ : ١٨٠ ، ٤٠٢
صلاح شادى : ١٢٤
صلاح عيسى : ٣١٩٠
صلاح منتصر : ١٠
صلاح نصر : ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

رشاد الهونى : ٥٤٢

رشيد رضا : ٢٥٠

رفاعة الطهطاوى : ٦٤٧

رفعت السعيد « الدكتور » : ٥٥٨ ، ٥٨٧

رفعت المحجوب « الدكتور » : ١٨٣ ، ١٨٩ -
٣٥٣ ، ٣٤١ ، ١٩١

روجرز : ٢٩٩

روزنتال ، جوزيف : ٥٧٢

رؤوف عباس « الدكتور » : ٥٩٢

رياض الصلح : ٦٧٣

ريجان ، رونالد : ٧٠٢

(ز)

زكى بدر « اللواء » : ٥٨ ، ٨١ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ،
٢٨٣ ، ٤٢٤

- س -

سابا حبشى : ٦٣٣

سالم نجم « الدكتور » : ٥٠٩ ، ٥١٠ ،
٥١٢ - ٥١٦

سامح عاشور : ٤٥٢ - ٤٥٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ - ٤٦٨ ،
٤٧٠ - ٤٧٢ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ - ٤٨٩ ، ٤٩١ ،
٤٩٢ ، ٤٩٤ - ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٢

سامى الجردينى : ٤٦

ستاك ، لى « السردار » : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٧٢
ستالين : ٥٦٤

سسكند ، دافيد : ٧٦٩

سعد الدين الشاذلى « اللواء » . ٣٨٤

سعد زغلول « باشا » . ١١٩ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٤١٠ ،
٥٩٤ ، ٦٢٩ - ٦٣١ ، ٦٣٧ ، ٦٤٧ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ،
٦٩٨ ، ٧٦٣

سعد كامل : ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩

سلامة موسى : ٥٧٢

سليم « السلطان » : ٤٣

سليمان الحلبي : ١٨٥

سليمان بن هشام بن عبد الملك : ٣٩

(ط)

طارق البشري : ٢٥٥ - ٢٥٧ ، ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٦٥٠
طنطاوى « الشيخ » انتظر محمد سيد طنطاوى
طنطاوى جوهري « الشيخ » : ١٠٦ ، ٤٧
طه حسين : ٥٧٧

(ع)

عادل البلك : ١٩٤
عادل امام : ٥٢٠
عادل حسين : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣٢٩
عبد الحكيم احمد طه : ١٢٦ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦
عبد الحكيم عامر : ٤٨٧
عبد الحليم ابو غزاله « المشير » : ٧ ، ٢٧١ ، ٣٧٢
عبد الحميد يونس : ٤٩٦
عبد الرازق السنهورى : ١٥
عبد الرازق صدقى : ٦٢١
عبد الرحمن الشرقاوى : ٣١٤ ، ٤٠٢ ، ٤١٥ ، ٥٧٥
عبد الرحمن بن خلدون : ٣١
عبد الرحمن بن معاوية : ٣٩
عبد الرحمن رضا « باشا » : ٢٩٩ ، ٣٠٠
عبد الرحمن عمار « بك » : ٨٢
عبد الرشيد على وافى « الدكتور » : ٦٢٥
عبد الستار الطويلة : ٣١٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ — ٤٠٥ ، ٤١٠ ، ٥٢٤
عبد العزيز حجازى : ٣٨٥
عبد العزيز فهمى « باشا » : ١٢٠
عبد العظيم السباعى : ٢١٤
عبد العظيم انيس « الدكتور » : ٥٥٨ ، ٥٨٧
عبد العظيم رمضان « الدكتور » : ١٠ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٧ — ١٤٠ ، ١٤٩ ، ٣٠٣ ، ٣١٩ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٩٩ — ٥٠١ ، ٥١٠ — ٥١٢ ، ٥٢٩ ، ٥٤٦
عبد العظيم مناف : ٥٨٣

عبد الغنى الراجحى : ١٤٨ - ١٥١ ، ١٥٤
عبد القادر حسن « الفريق » : ٢٨٥
عبد القادر المغربى « الشيخ » : ١٠٦
عبد الكريم قاسم : ٧٢٢
عبد اللطيف البغدادي : ٣٥٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٦٢١
عبد الله « الملك » : ٦٧٢ ، ٦٧٣
عبد الله السلال : ٧٢٠
عبد الله بن الزبير : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٨
عبد الله بن عباس : ١٦٤ ، ٢٤٩ ، ٢٦٢
عبد الله بن على : ٣٩
عبد الله بن مروان : ٣٢ ، ٣٩
عبد الله عنان : ٥٧٢
عبد الملك بن مروان : ٢٨ ، ٥٠
عبد المنعم امين : ٤٥٨
عبد المنعم مديولى : ٥٢٠
عبد الهادى قنديل : ٤٢٤
عبد الوهاب خلاف : ٢٥٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤
عثمان بن عفان : ٣٧ ، ٤٢ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٢٥ ، ١٤٤
على يكن « باشا » : ٦٥٦ ، ٧٦٣
عزيز صدقى « الدكتور » : ٣٨٤
عصام صرطاوى : ١٨٥ ، ٧٧٧ ، ٧٨٤
عصمت عبد المجيد « الدكتور » : ٥٢٠
على الدين هلال « الدكتور » : ٩٢ ، ٩٣
على الشمسى : ٦٣٣
على العنانى « الدكتور » : ٥٧٢
على بن على طالب : ٣٠ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٨ ، ١٢٥ ، ١٤٤ ، ٤٢٠
على صبرى : ٢٨٣
على عبد الخبير : ٣٨٥
على عبد الرازق « الشيخ » : ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ، ١٦٩ ، ٥٧٥
على ماهر « باشا » : ٢٧٢ ، ٦٣٣
على نجم : ٢٢٧
علوى احمد : ٨٥ ، ٨٨
عماد كامل : ١٧٩ ، ١٨٠

عمر التلمساني : ٩٢

عمر المختار : ١٣٥

عمر بن الخطاب : ٢٧ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٦٦ ، ١١٠ ،

١٢٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٦٤ ، ٢٦٢

عمر بن عبد العزيز : ٢٧ ، ٤٠ ، ١٤٣

عمر طوسون « الأمير » : ٦٧١

عمر عبد الرحمن « الدكتور » : ٤٣ ، ٢٢٧

(ق)

فاروق « الملك » : ١٠٦ ، ١١٩ ، ٢٧٥ ، ٢٨٤ ،

٢٩٤ ، ٦٢٧ ، ٦٢٢ ، ٦٣٥ - ٦٣٧ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ،

٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٥٠ ، ٦٧٣

فاروق القصاص : ٨٨

فاروق حسنى : ٨ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ،

فازيليف ، الكسى : ٧١٠

فاليسا ، ليش : ٥٧٩

فاتيكويتيس : ٧١٠

فايز صايغ : ٧٦٩

فتحي رضوان : ٢٠٢ ، ٢٠٧

فتحي عبد الفتاح « الدكتور » : ٥٨٧

فتحي غانم : ٤٠٢ ، ٦٤٨

فرج فودة « الدكتور » : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ - ٦٨ ،

٨٢ ، ٨٣ ، ٩٤

فرحات عباس : ٧٢٩ ، ٧٣٠

فريد عبد الكريم : ٤٥٦

فهمى هويدى : ١٠٢ - ١٠٤ ، ١١٣ ، ١١٥ -

١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٦ - ١٢٩ ، ١٣٧ ، ١٣٩ - ١٤١ ،

١٤٧ - ١٤٩ ، ١٥٣

فؤاد « الملك » ، انظر احمد فؤاد

فؤاد المهندس : ٥٢٥

فؤاد مرسى : ٤١٨

فيصل « الملك » : ٧٢١

فولتير : ٢٠٢

فيصل الحسينى : ٥٢٥ ، ٧٠٩

فيليب جلاب : ١٨٠

فيليب حبيب : ٧١٠

(ق)

قسطنطين « الاول » : ٥٧١

(ك)

كارتر ، جيمى : ٥٤٦ - ٥٤٨

كامل حسن كامل : ٢١٦

كامل زهيرى : ٥٥٩

كامل صدقى « بك » : ١٥

كليبير : ١٨٥

كمال الدين حسين : ٢٧٧

كمال حسن على « فريق اول » : ٢١٩ ، ٢٨٦ ،

٢٨٧ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥

كورسمان ، انتونى : ٧١٥

كيندى : ٧٧٢

(ل)

لطفى واكد : ٣٢٠

ليوتى « الجنرال » : ٧٣٢

لينين : ٤٥٦

(م)

ماركس ، كارل : ٥٧٩

مالك « الامام » : ٤١

مجدى امين : ٨٥

مجدى حسنين : ٩ ، ٦١٨ ، ٦٢١

محسن محمد : ٢٠٠

محمد ابراهيم كامل : ٥٤٨ ، ٥٤٩

محمد اسماعيل على « الدكتور » :

١٢٧ ، ١٤١ - ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٥٥

محمد البقرى : ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٥

- ٦٠٧

محمد الحيوان : ٧٧ ، ٦٤١

محمد السعيد : ٤١٠

محمد السيد سعيد « الدكتور » : ٢٧٤ ، ٢٧٦ ،

٢٨٢

محمد أنور السادات : ٦ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ١٠٢ ،

١٢٦ ، ١٢٣ ، ١٢٣ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٨٧ ، ٢٠٥ ،

- محمد حيدر « باشا » : ٣٧٢ ، ٣٨١ ،
 محمد رشدي بركات « المستشار » : ٤٩٦
 محمد رشدي النحال : ٦٢١
 محمد راغب دويدار : ٤٢٤
 محمد زكي عبد القاسم : ٦٥٠
 محمد سعيد العشماوي « المستشار » .
 ٢٤-٢٦ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٨٢ ، ٨٨ ،
 ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٣ ،
 ١٢٦ - ١٢٨ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ،
 ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٤١ ، ٤٩٦
 محمد سليم العوا « الدكتور » : ١٣٨ ، ١٣٩ ،
 ١٤٢
 محمد سيد احمد . ٣٢٠ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦
 محمد سيد طنطاوي « الدكتور » . ٢٤ ، ٢٧ ،
 ٣٧ ، ٨٤
 محمد سيد محمد « الدكتور » : ٢٢٩
 محمد صابق « الفريق » : ٣٨٢ - ٣٨٥
 محمد عبد الحليم ابو غزاله : ٣٨٧ - ٣٨٩
 محمد عبد الحليم موسى . ١٨٩ ، ١٩٠
 محمد عبد الحميد رضوان : ٢١٦
 محمد عبد العزيز الشناوي « المستشار » :
 ٤٩٦
 محمد عبد العظيم علي « الدكتور » : ١٤٧
 محمد عبد الغني الجسمي . ٣٨٥ ، ٣٨٧
 محمد عبد الوهاب البشري : ٣٨٣
 محمد عبده « الشيخ » . ١٠٦ ، ١٦٩ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٥٧٥
 محمد عثمان اسماعيل : ١٣٣
 محمد فوزي « الفريق » : ٣٨٢ - ٣٨٦
 محمد متولي الشعراوي « الشيخ » : ٩٤ ،
 ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٧ - ١٨٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
 ٤١٨
 محمد محمود خليل : ٦٢٣ ، ٦٤٧
 محمد نجيب . ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨١ ،
 ٦٠٨
 محمد فؤاد سراج الدين : ٣٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ،
 ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٠ ، ٦٤١
 ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٥ ، ٣١٥ ،
 ٣١٧ ، ٣٥٨ - ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ - ٣٧٠ ، ٣٨٣ ،
 ٣٨٤ ، ٣٨٥ - ٣٨٨ ، ٣٩٤ - ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،
 ٤٠٤ ، ٤١٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ،
 ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ -
 ٤٧٣ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٧ ،
 ٥٠٠ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ،
 ٥٣٠ ، ٥٣٢ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٧ -
 ٥٤٩ ، ٥٥٥ ، ٥٦٧ ، ٥٨٦ ، ٥٨٩ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ،
 ٦٢٦ - ٦٣٠ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٥ -
 ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٦٣ - ٦٦٥ ، ٦٦٧ ، ٦٦٩ ،
 ٦٧٨ - ٦٨٠ ، ٦٩٨ ، ٧١٢ ، ٧٧٠ - ٧٧٣ ، ٧٧٥ -
 ٧٨٤ ، ٧٧٨
 محمد انيس « الدكتور » : ٥٩٤ ، ٥٩٩
 محمد بن ابي بكر : ٢٦٦
 محمد بن الحسن الشيباني . ٤٠
 محمد بن الياس : ٢١
 محمد بن حنبل : ٤٢
 محمد بن سلمى : ٢٣٩ ، ٢٤٩
 محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين .
 ٢٨ ، ٤٠
 محمد بن طغج الإخشيدى : ٣١
 محمد توفيق البكري : ٦٣٧
 محمد جلال : ١٧٩ ، ٦٤٨
 محمد حافظ رمضان : ٦٣٣
 محمد حسنى مبارك : ٧ ، ٩ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
 ٢٦٧ - ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،
 ٢٨٧ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٨ - ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٦ ، ٣٤٨ - ٣٥٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٥٣ ،
 ٤٦٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠٦ ، ٥١٤ ، ٥٤٧ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ،
 ٦٨٣ - ٦٩٦ ، ٧٠٢ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٥٠ ،
 ٧٥٨ ، ٧٧٦ ، ٧٨٢
 محمد حسنين هيكل : ٢٩٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٤
 محمد حسين هيكل « الدكتور » : ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،
 ٦٣٣ ، ٧٧١ ، ٧٧٢
 محمد حلمى مراد : ٣٠١

محمود الأنصاري : ٥٧٧

محمود الجيار : ٤٤٨

محمود المراغي : ٣٢٠

محمود عبد اللطيف : ١٧ ، ١٠٧ ، ١٠٨

محمود فهمي النقراشي : ٤٨ ، ٨٢ ، ٨٣

محمود فوزي « الدكتور » : ٢٨٣ ، ٥٤٧-٥٤٩

مراد سيد احمد : ١٥ ، ٧٠٩

مراد غالب « الدكتور » : ٥٤٩

مرتجى « الفريق » : ٣٨٢

مروان بن عبد الحكم : ٣٢

مروان بن محمد : ٤٠

مصطفى النحاس : ٩ ، ٦٤ ، ٧٦ ، ١٠٦ ، ١١٩

٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٣٧٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤٦٩ ، ٦٢٥

٦٢٩ ، ٦٣٠-٦٣٤ ، ٦٤٦-٦٤٩ ، ٦٦٥ ، ٦٩٨

مصطفى امين : ٦٢٨ - ٦٣٠ ، ٦٤٦

مصطفى خميس : ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٦٠٠ ، ٦٠١

٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨

مصطفى شردي : ١٠

مصطفى شكري : ٣٢٩

مصطفى عبد الرازق : ٥٧٥

مصطفى كامل مراد : ٣٢٩ ، ٥٦٤

مصطفى مشهور : ٣٢٩

معاوية بن أبي سفيان : ٣٠ ، ٣٧ ، ٣٩

معاوية بن يزيد : ٣٢ ، ٣٣

معمر القذافي : ٦١ ، ٦٢ ، ٣٦٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤

٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥٤

٤٥٥ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨٨-٤٩٠ ، ٤٩٧

٤٩٨ ، ٥٠١ ، ٥٠٦ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥٥٣

٥٥٤ ، ٦٩٠ ، ٦٩٢ ، ٧١٠ ، ٧٢٢ ، ٧٧٦

مكدونالد : ٢٣٧

مكرم عبيد : ٢٨٩ ، ٢٩٠

مكرم محمد احمد : ١٢٤ ، ١٢٨ ، ٥٢٢

ممدوح سالم : ٢٨٦

منى جمال الدين : ٥١٩

منى مكرم عبيد : ٧٠٩

موسى صبرى : ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٤٣٨ ، ٤٥٨

(ن)

نايلة عوض « الدكتورة » : ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢١١

نانسى احمد عويس : ١٦٠ ، ١٩٤ ، ١٩٦

١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٤

نايف حواتمة : ٧٤٦ ، ٧٥٢ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨

٧٦١

نبيل يوسف : ٣٠١

نجيب الغرابلى : ٤١٤

نجيب محفوظ : ٩ ، ٣٢٥ ، ٥٤٢ ، ٥٤٦ ، ٥٦٢

٦٠٤ ، ٦٤٩ ، ٧٧٧

نصر بن احمد الساسانى : ٣١

نور الدين : ٤٥٧

نيكسون : ٢٩٥

(هـ)

هارون الرشيد : ٣٢٨

هاريفين ، الوف : ٧٠٩ ، ٧١٥

هشام بن عبد الملك : ٣٩

هنداوى بوير : ٧٩ ، ٨٠

هندرسون : ٦٣٢

هوارى بومدين : ٧٣٣

(و)

ويصاواصف « بك » : ٢٨٩ ، ٦٣١

(ى)

ياسر عرفات : ٤٢٦ ، ٤٤٢ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥١٠

٥٢٨ ، ٥٤١ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٦٨ ، ٦٦٧ ، ٦٩٣

٧٤٦ ، ٧٤٨ ، ٧٥٢ ، ٧٥٦-٧٦١ ، ٧٦٣ ، ٧٦٨

٧٧٠ ، ٧٧٣ ، ٧٧٧ - ٧٧٩ ، ٧٨٢ ، ٧٨٤

يحيى « الملك » : ٧٢٢

يزيد بن الوليد بن عبد الملك : ٣٧

يزيد بن عبد الملك : ١٣٤

يزيد بن معاوية : ٣٢ ، ٣٣

يوسف ادريس « الدكتور » : ٧٠ ، ٧٠٩

يوسف الجندى : ٢٩١

يوسف السباعى : ١٨٥ ، ٧٦٦ ، ٧٧٧ ، ٧٨٤

يوسف صبرى ابو طالب : ٣٧١

كشاف الهيئات

(أ)

اتحاد نقابات عمال مصر : ٤٥٧

الاتحاد الاشتراكي : ٥٦ ، ٢٠٦ ، ٣٩٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٩٧

الاتحاد القومي : ٥٦ ، ٢٠٦ ، ٣٢٩ ، ٣٤٢

الازهر الشريف : ١١٤-١٢٠ ، ١٤٨-١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٧٣ ، ٢٦٠ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧

الإسعاف : ١٩٠

أكاديمية الشرطة : ٨١ ، ٨٥ ، ٨٨

الأمم المتحدة : ٦٨٩ ، ٧٧٠-٧٧٢

(ب)

البرلمان الاسرائيلي : ٦٨٤

البنك الاهلي المصري : ٢٥٦-٢٥٨

البنك المركزي : ٢٢٧

بنك مصر : ٢٤٠

(ت)

تنظيم ثورة مصر : ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢-٤٦٣ ، ٤٩٧ ، ٥٥١ ، ٥٥٣-٥٥٥ ، ٥٥٧-٥٥٩

(ج)

جامعة الازهر : ١٤٥ ، ١٤٨

الجامعة الأمريكية : ٣٠٣ ، ٣١٠

جامعة الدول العربية : ٩ ، ٥٠٦ ، ٥٢٢ ، ٥٦٢

٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٦ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٧ ، ٦٩٠

٦٩١ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٦٩٨ ، ٧١٢ ، ٧٢٤ ، ٧٥٦

٧٧٧ ، ٧٦٦

جامعة القاهرة : ٩٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٨

جامعة قسطنطينية : ٧٢٧ ، ٧٣٣

جامعة لندن : ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٤٥ ، ٦٤٥ ، ٧١٠

جامعة المنوفية : ٣٠١ ، ٣٠٩ ، ٣١١

جماعة الإخوان المسلمين : ٣١ ، ٧٧ ، ٨٢

٨٤ ، ٩٤ ، ١٠٩ ، ١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٥٩

٣٠٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ - ٣٢٨ ، ٣٢٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٦٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٨ ، ٥٥٨ ، ٥٧٤ ، ٥٩٥ ، ٦٢٧ ، ٦٤١

جماعة التكفير : ٥٧ ، ٦٦ ، ١١٣ ، ١٢٧ ، ١٨٧ ، ٣٢٧ ، ٣٤٣

جماعة الجهاد : ٤٨ ، ٥٧ - ٥٩ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ٣٢٧

جماعة مصر الفتاة : ٣٠٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٤٣ ، ٦٣١ ، ٦٤١

(ح)

حزب الاحرار الدستوريين : ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٢٤ - ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٤٣ ، ٤٠٨ ، ٦٣٧ ، ٦٥٦

الحزب الاشتراكي الناصري : ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٤ ، ٤٥٢ ، ٤٦١ ، ٤٩١ ، ٤٩٧ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٨٨

حزب الامة : ٣٢٩ ، ٤٠٨

حزب البعث السوري : ٦٧٤ ، ٦٧٥

حزب التجمع : ٢٠٥ ، ٢٧٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٦ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٣

٣٤٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٩ ، ٤٤١-٤٤٣ ، ٤٤٥-٤٤٧ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٥٧٤ ، ٥٧٧

٧٠٩

حزب الخضر : ٣٢٩ ، ٣٤٣

الحزب الشيوعي : ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٣٠٦ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٥٧٣ ، ٥٧٩

حزب العمل : ٦٠ ، ٧٦ ، ٣٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٧٠ ، ٥٥٨ ، ٦٢٧

حزب الليكود « الاسرائيلي » : ٥٣٦ ، ٥٤٦ ، ٧٦٦ ، ٧٧٣

حزب المابام الاسرائيلي (حزب العمال الموحد) : ٤٣٥ ، ٧٠٤

الحزب الوطني : ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٣ ، ٢٩٨ - ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٤-٣٢٦ ، ٣٢٩

٣٤٣ ، ٣٤٦-٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٦٠ ، ٣٩٨ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤٣٠ ، ٥٠٤ ، ٥١٠ ، ٦٣٠ ، ٦٤٥

حزب الوفد : ٦٤ ، ٧٣ ، ١٢٠ ، ٢٧٣ ، ٢٨٩ ،
٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،
٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٨ ، ٣٩٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ،
٤٢٤ ، ٤٦٤-٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٥٩٩ ،
٦٢٧ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦-٦٣٨ ، ٦٤٠ ،
٦٥٦

(ش)

شركة الحديد والصلب : ٢٨٥ ، ٢٨٦
شركة الريان : ٢٣٧
شركة مصر للالبان : ٦٥١
شركة النصر لصناعة السيارات : ٦٢٢

(ق)

القضاء العالى : ٤٨٢ ، ٤٨٦ ، ٤٩٦
قوة الطوارئ الدولية : ٢٩٤

(ك)

كلية الاعلام : ٢٢٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٨
كلية التجارة : ١٤٥
كلية التربية : ٣٠١ ، ٣٠٩ ، ٣١١
كلية تربية عين شمس : ٦٤١
كلية الحقوق : ٩٠
كلية الشريعة والقانون : ١٤٥
كلية طب طنطا : ٦٢٥
كلية الطيران : ١٩٤ ، ٢٠٥

(م)

المباحث الجنائية العسكرية : ٣٨٨
مجلس الامة : ٢٤ ، ٧٧٠ ، ٧٨١
مجلس الدولة : ٢٠٧
مجلس الشعب : ٨٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣٢ ، ٣٣٩ ،
٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٦٠ ، ٣٩٨ ،
٤٣٥
مجلس قيادة الثورة : ٣٧٢ ، ٣٧٤
مجلس النواب : ٧٦ ، ١٠٦ ، ٣٥٢ ، ٦٣١ ،
٦٣٢

محكمة امن الدولة العليا : ١٥٩

محكمة الثورة : ١٠٧ ، ١٤٢

محكمة الجنايات : ٩٨ ، ١٥٩

محكمة العدل الدولية : ٤٩٦ ، ٥٢٠

مدرسة بحر البقر : ٣٦٤ ، ٤٢٩

مركز تاريخ مصر المعاصر : ٣٠٣ ، ٣١٠

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية

بالأهرام : ٥٩٣

المركز القومى للسينما : ٥١٩ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ،

٥٣٢ ، ٥٣٣

المطابع الاميرية : ٤٩٤

معهد الدراسات الافريقية الآسيوية : ٥٤٢

منظمة التحرير الفلسطينية : ١٨٤ ، ١٨٥ ،

٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ،

٥١٠ ، ٥١١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٦٨ ، ٧٧٠ ، ٧٧٣ ،

٧٧٥ ، ٧٨٤

منظمة الوحدة الافريقية : ٥٣٩ ، ٦٤٥

(ن)

نقابة الأطباء : ٥٠٤ ، ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥٢١

نقابة المحامين : ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٧٥ ، ٧٤٦ ،

نقابة المهندسين : ٥١١ ، ٥١٤

(هـ)

هيئة التحرير : ٥٦ ، ٢٤٢

(و)

وزارة الانتاج الحربى : ٣٨٦

وزارة الثقافة : ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٧١

وزارة الحقانية : ١٢٠

وزارة الخارجية : ٢٨٦ ، ٤٩٤ ، ٦٥٦

وزارة الداخلية : ٥٨ ، ٨٢ ، ١٩٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ،

٢٨٤ ، ٢٨٢

وزارة الدفاع : ٢٨٢ ،

وزارة العدل : ٢٨٣ ، ٢٨٤

وزارة المعارف : ٦٣٤

كشاف البلاد والأماكن

(أ)

أبو زعبل : ٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٤٨٥

أبو ظبي : ٥٤٢

الاتحاد السوفيتي : ١١٨ ، ٣٢١ ، ٣٤٥ ، ٣٦٠ ،

٣٩٢ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ، ٥٠٨ ، ٥٤٩ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ،

٥٦٧ ، ٥٧٤ ، ٥٧٨ ، ٦١٢ ، ٦٢١ ، ٦٤١ ، ٦٨٢ ،

٦٩٨

الأردن : ٦١ ، ١١٨ ، ٤٣٤ ، ٤٤٧ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ،

٦٧٣ ، ٦٧٧ ، ٦٧٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٦ ، ٧٠٢ ، ٧١٣ ،

٧١٨ ، ٧٢١ ، ٧٢٣ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٧ ، ٧٥٩ ،

٧٦١ ، ٧٧٣ ، ٧٧٧ ، ٧٨١

الأستانة : ٤٧

استراسبورج : ٢١٥

اسرائيل : ٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

١٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،

٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩ ، ٤٢٤ -

٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ،

٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ،

٤٧٨ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ - ٥٠١ ،

٥٠٤ - ٥٠٧ ، ٥١٠ - ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ،

٥٢٠ - ٥٢٢ ، ٥٢٤ - ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ - ٥٣٥ ،

٥٣٨ ، ٥٤٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ ، ٥٦٧ ،

٥٦٨ ، ٥٩٧ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٦٦ - ٦٦٩ ،

٦٧٦ - ٦٧٨ ، ٦٨١ - ٦٨٦ ، ٦٩١ ، ٦٩٤ ، ٦٩٨ ،

٧٠٠ - ٧٠٧ ، ٧٠٧ - ٧١٠ ، ٧١٥ ، ٧١٨ ، ٧٢١ ،

٧٢٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ،

٧٥٧ - ٧٦١ ، ٧٦٣ ، ٧٦٥ ، ٧٦٨

اسكندرية : ١٧٩ ، ٤٥٥ ، ٥٧٢ ، ٦٥٢

الاسماعيلية : ١٨٩

اسوان : ٤٥٥

اسيوط : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٩١

اصبهان : ٣١

افغانستان : ٥٦٧

أكباد : ٥٨٨

المانيا : ١١٩ ، ٤٥٦ ، ٥٦٤ ، ٧١٠ ، ٧٧٠ ، ٧٧٣ ،

٧٨٤

امارات : ٧٢٥

امريكا : ٦٩ ، ٥٥٤ ، ٦٨٢ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٨٢ ،

٧٨٤

انجلترا : ٥٢ ، ٢٧٦ ، ٤١٧ ، ٥٣٣ ، ٥٤٦ ، ٥٥٦ ،

٥٦٣ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٥٧ ، ٧١٢ ، ٧٦٣

الاندلس : ٣٠ ، ٣١ ، ١٣٥

انطاكية : ٧٠

الاهواز : ٣١

اوروبا الشرقية : ٥٧٨ ، ٦٨٢

ايران : ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ١٥٢ ، ٢٩٤ ، ٣١٨ ،

٣٤٨ ، ٣٨٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٥٦ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ،

٥٤٥ ، ٥٤٥ ، ٦٦٨ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٧١١ ، ٧١٤ ، ٧١٨ ،

٧٣٥ ، ٧٣٨

ايرلندا : ٥٥٩

ايطاليا : ١٧٥

(ب)

باريس : ٧١٠ ، ٧٣٢

البحر الابيض المتوسط : ٥١٢ ، ٥١٥

البحر الاحمر : ٢٩٤ ، ٤٢٤ ، ٤٨٥

بحر الصين : ١٩٦

البحرين : ٣١ ، ٧٢٥

برلين : ٧٣٢

بروسيا : ٥٦٤

بريطانيا : ١٦٤ ، ١٨٦ ، ٧١٣

البصرة : ٣١

بطر سبرج : ٧٣٢

بغداد : ٢٠ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٣٥ ، ٤٠٢ ،

٤٨٤ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥

سبلان : ٦٥٦ - ٦٥٨

سيفاء : ٢٩٢ , ٢٩٥ , ٣٦٩ , ٢٨٤ , ٤٢٣ - ٤٢١ ,
٤٣٦ , ٤٣٩ , ٤٤٣ , ٤٤٤ , ٤٤٦ - ٤٤٨ ,
٤٥٢ - ٤٥٥ , ٤٦٢ , ٤٦٣ , ٤٧٠ , ٤٧٣ , ٤٧٧ ,
٤٨٢ , ٤٨٤ , ٤٨٦ , ٤٨٧ , ٤٨٩ , ٤٩٠ ,
٤٩٣ - ٤٩٧ , ٥١٠ , ٥١١ , ٥١٥ , ٥٢٠ , ٥٢٣ ,
٥٢٦ , ٥٢٧ , ٥٣٢ , ٥٣٦ , ٥٤١ , ٥٤٥ - ٥٤٩ ,
٥٥٣ - ٥٥٧ , ٥٦٢ , ٥٦٦ , ٥٦٧ , ٥٨٩ ,
٥٩٦ , ٥٩٨ , ٦٣٤ , ٦٦٨ , ٦٨٢ , ٦٨٣ , ٧٣٥ ,
٧٧١ , ٧٧٣ , ٧٧٦ .

(ش)

شارع محمد علي : ٥٨٢ - ٥٩٢

الشام : ٢١ , ٧٠ , ٥١٦

شبين الكوم : ٢١٦

الشرقية : ٥٨٨

شرم الشيخ : ٢٩٤

(ص)

الصحراء الغربية : ٦٦٧

الصومال : ٦٨

الصين : ٢٩٢ , ٤٢٤ , ٧٨٤

(ض)

الضفة الغربية : ٣٦٩ , ٤٢٦ , ٤٢٧ , ٤٣٠ ,
٤٣١ , ٤٤٩ , ٤٥٥ , ٤٦٠ , ٤٦٠ , ٥١٥ , ٥٢٣ , ٥٣٦ ,
٥٣٢ , ٥٤٥ , ٥٤٦ , ٥٤٩ , ٥٥٧ , ٥٦٧ , ٥٨٥ ,
٥٩٦ , ٥٩٨ , ٦٨٤ - ٦٨٦ , ٦٧١ , ٦٧١ , ٦٩١ ,
٦٩٩ , ٧٠١ , ٧٠٢ , ٧٠٤ , ٧١٢ , ٧٤٥ , ٧٤٩ ,
٧٥٢ , ٧٥٣ , ٧٦٠ , ٧٦٣ , ٧٦٧ , ٧٨٨ , ٧٧١ ,
٧٧٢ , ٧٧٤ , ٧٧٧ , ٧٧٩ .

(ط)

طابا : ٤٨ , ٤٢٥ , ٤٥٢ - ٤٥٥ , ٤٦٢ , ٤٦٣ ,
٤٧٠ , ٤٧٥ , ٤٧٧ , ٤٩٠ , ٤٩١ , ٤٩٦ ,
٤٩٧ - ٥٠٠ , ٥٠٢ , ٥٢٠ , ٥٢٢ , ٥٢٥ , ٥٤٧ ,
٥٦١ - ٥٦٣ , ٥٦٦ , ٥٦٨ , ٦٣٤ ,
طيرستان : ٢١

طرابلس : ٦٩ , ١٣٥ , ٥٠٦ , ٦٩٣ , ٧٤٨ , ٧٤٩

٧٥٨ , ٧٦٠ - ٧٨٣

طرة : ٤٥٦

طنطا : ٤٥٦ , ٦٢٥

طهران : ٦١

(ع)

عنق : ٦٦٨

العراق : ٦١ , ٦٢ , ٢٤٨ , ٢٤٥ , ٢٤٧ , ٢٤٨ ,

٤٢٩ , ٤٣٠ , ٤٣٤ , ٤٤٠ , ٤٥٦ , ٥٤٢ , ٥٤٣ ,

٥٤٥ , ٥٦٧ , ٦٤١ , ٦٦٦ - ٦٦٨ , ٦٧٣ , ٦٧٤ ,

٦٧٦ , ٦٩١ , ٦٩٢ , ٧١١ , ٧١٣ , ٧١٤ , ٧١٨ ,

٧١٩ , ٧٢٢ , ٧٢٣ , ٧٢٥ , ٧٣٥ , ٧٣٨ , ٧٤٠ ,

٧٥٢ , ٧٥٧ , ٧٧٣

عكا : ٥١٦

عمان : ٧٨

(غ)

غزة : ٣٦٩ , ٢٨٤ , ٤٢٦ , ٤٢٧ , ٤٣٠ , ٤٣١ ,

٤٥٥ , ٤٦٠ , ٤٩٤ , ٥٢٣ , ٥٣٦ , ٥٤٦ , ٥٤٩ ,

٥٥٧ , ٥٦٦ , ٥٦٧ , ٦٨٤ - ٦٨٦ , ٦٧١ , ٦٩١ ,

٦٩٨ , ٧٠٤ , ٧١٢ , ٧٤٥ , ٧٤٩ , ٧٥٢ , ٧٥٣ ,

٧٦٠ , ٧٦٣ , ٧٦٧ , ٧٦٨ , ٧٧١ , ٧٧٤ , ٧٧٧ ,

٧٧٩

غمره : ٦٥٢

(ف)

فارس : ٢١

فاشونيه : ٥٢٣

الفالوجا : ٦٦٦

فرنسا : ١٥ , ٤١٧ , ٥٥٩ , ٥٦٣ , ٥٦٤ , ٧١٢ ,

٧١٣ , ٧١٣

فلسطين : ١٧ , ٤٣٦ , ٥٩٨ , ٦٦٧ , ٦٧٧ ,

٦٩٣ , ٧١٣ , ٧٤٧ , ٧٤٨ , ٧٥٦ , ٧٥٨ ,

٧٦٧ - ٧٦٩ , ٧٧٤ , ٧٧٧ , ٧٧٨ , ٧٨٤

فيتنام : ٥٦٧

فيتا : ٧٧٧

(ق)

القاهرة: ٩٨، ١٢٤، ١٩١، ٢١٤، ٢١٥، ٣٦٧، ٣٧١، ٥٠٣-٥٠٧، ٥٠٩-٥١١، ٥٥٤، ٥٥٧، ٥٦٢، ٦٢١، ٦٣٣، ٦٤٠، ٦٧٤، ٦٩٣، ٦٩٨، ٧٤١، ٧٥٦، ٧٦٦، ٧٧٧

قبرص: ٧١٠

القدس: ٦١٠، ٣٦٥، ٤٧٢، ٥١٩، ٥٢٢، ٥٢٤، ٥٣٢، ٥٣٦، ٥٤٩، ٥٨٩، ٦٧٤، ٦٨٠، ٦٨٥، ٦٦٨، ٧٠٩، ٧١٢، ٧٥٦، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٧٠

قرطبة: ٦٩

القسطنطينية: ٤٣، ٤٥

القناة (قناة السويس): ٣٧٩، ٣٨٤، ٤٦٨، ٤٩٤، ٤٩٥، ٥٠٠، ٥٦٦، ٦٠٣، ٦٤٣، ٦٨٢

(ك)

كامب ديفيد: ٣٣٦، ٣٦٨، ٣٦٩، ٤٢١، ٤٤١، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٥١-٤٥٥، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٨٢-٤٨٦، ٤٩٠، ٤٩٧، ٥٠٠، ٥٢٠-٥٢٣، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٧-٥٤٩، ٥٥٣، ٥٥٤، ٦٧٨، ٧٥٠، ٧٤٨، ٦٨١

الكعبة: ٢٤٧

كفر النوار: ٦٠٦

كوريا: ٧٨٤

الكوفة: ٤٠

الكويت: ٦١، ٣٤١، ٣٤٥-٣٤٨، ٥٠٦، ٦٩١، ٦٩٣، ٧١١، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٥، ٧٤٠

(ل)

لبنان: ١١٨، ٢٩٤، ٤٢٧، ٤٣٦، ٤٤٤-٤٤٦، ٥٠٦، ٥١١، ٥٦٧، ٦٧٣، ٧٧٣، ٧٧٩، لندن: ١٥١، ١٩٤، ٥٤٢-٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٦٤٣، ٧٠٨، ٧١٠، ٧٧٧

لوزان: ٥٢٥

ليبيا: ٦١، ٤٣٤-٤٣٧، ٤٥٤، ٤٨٢، ٤٨٥، ٤٨٩، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٣٣، ٥٥٤، ٦٦٧، ٦٩١، ٦٩٢، ٧١٢، ٧٢١، ٧٤٩، ٧٥٣، ٧٦١، ٧٦٢

ليون: ٧٣٢

(م)

المحلة: ٤٥٦

المحيط الاطلنطي: ١٩٦

موريد: ٧٣٢، ٧٧٧

مديرية التحرير: ٦١٨، ٦١٩، ٦٢١، ٦٢٢

المدينة المنورة: ٢٢، ٢٣

المرج: ٣٧٥

مصر: ٥-٨، ١٧، ٢٤، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٤٢، ٤٣، ٤٥-٤٨، ٥٦، ٥٨، ٦١، ٦٢، ٦٦، ٦٨، ٧٣، ٧٥-٧٧، ٨١، ٨٤، ٩٣، ١٠٧، ١١٣، ١١٤، ١١٧-١٢٠، ١٢٨، ١٤٧، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٠، ١٨١، ١٨٥-١٨٧، ٢٣٥-٢٣٨، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٤-٢٧٦، ٢٨٣-٢٨٥، ٢٨٩-٢٩٥، ٢٩٨، ٣٠١-٣٠٥، ٣٠٧-٣١٠، ٣١٢-٣١٧، ٣٢١، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٤-٣٣٨، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥٥، ٣٥٨-٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٩-٣٧١، ٣٨١-٣٨٣، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٤-٤٠٨، ٤١١، ٤١٢، ٤١٧-٤٢١، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٣١-٤٣٦، ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٧٠، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٧، ٤٨٢، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩٤، ٤٩٥، ٥٢٩، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٤-٥٣٦، ٥٤٣، ٥٥٧، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٩، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٩، ٦٠٢-٦٠٧، ٦١٣، ٦١٧، ٦٢٠، ٦٢٦، ٦٢٩، ٦٣٢-٦٣٧، ٦٣٩، ٦٤٢، ٦٤٦-٦٤٨، ٦٥١، ٦٥٥، ٦٥٦-٦٥٩، ٦٦٣-٦٦٧، ٦٦٩-٦٧١، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٦، ٦٨١، ٦٨٣، ٦٨٦، ٦٨٩-٦٩٩، ٧٠٨-٧١٤، ٧٢٠، ٧٢٣-٧٢٥، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٣٠، ٧٣٢، ٧٣٤-٧٣٧، ٧٤٠، ٧٤٦، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٣، ٧٦٦

مصر الجديدة: ١٠، ٥٧٤، ٦٢٣

مضايق تيران: ٤٢٤، ٤٨٧، ٤٩٥

المغرب: ٣١، ٥٠٦، ٦٦٧، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٣٢، ٧٣٤، ٧٥٣، ٧٦١، ٧٧٣

مكة : ٣١ ، ٢٨

موريتانيا : ٦٦٧

موسكو : ٥٦٤ ، ٧١٠ ، ٧٢٣

المنيا : ٨ ، ٤٨ ، ٢٩١

ميدان التحرير : ٦٠٨

ميدان المنشية : ٣٦٣

(ن)

ناجازاكي : ٥٦٤ ، ٥٦٦

نجد : ٦٨٠

نفق الشهيد احمد حمدي : ٤٩٥

نيودلهي : ٣٦٦

نيويورك : ٧١٠

(هـ)

هيروشيما : ٥٦٤

(و)

واشنطن : ٤٣٩ ، ٥٤٦ ، ٥٧٥ ، ٧١٥

الولايات المتحدة : ١٠ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ١١٨ ، ١٣٥ ،

٢٤٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٤١٧ ، ٤٢٥ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ،

٤٣٩ ، ٤٤٥ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥٢٥ ،

٥٣١ ، ٥٣٣ ، ٥٥٧ ، ٥٦٤ ، ٥٦٧ ، ٥٩٣ ، ٦٠٦ ،

٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٩٠ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ،

٧٠١ - ٧٠٣ ، ٧٧٠ ، ٧٧٣ ، ٧٨٠ ، ٧٨٢ ، ٧٨٤

(ي)

اليابان : ٤٦ ، ٤٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ٥٦٤ ، ٧٧٣

يافا : ٥١٦

اليمامة : ٣١

اليمن : ٢٢ ، ٦٦٨ ، ٦٧٦ ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢٣ ،

٧٣٩

كشاف الحوادث

(أ)

- اتفاق ارننى فلسطينى : ٧٨١ ، ٧٨٢
 اتفاق كامب بيفيد : ٨ ، ٢٩٥ ، ٢٦٩
 ٤٤٦-٤٤١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٥٠٠ ، ٥٠٤ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٢١ - ٥٢٣ ، ٥٦٨
 احتلال اسرائيل جنوب لبنان : ٢٨٢ ، ٤٨٥
 الاحتلال الاسرائيلى لسيناء : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٥١ - ٤٥٥ ، ٤٦٢ ، ٤٨٧ ، ٤٩٧ - ٥٠٠ ، ٥٢٣ ، ٥٤٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥
 ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٨ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٧٧٤ ، ٧٨٤
 احتلال اسرائيل للجامع الأقصى : ٤٨٤ ، ٤٨٥
 احداث ١٧ ، ١٨ يناير سنة ١٩٧٧ : ٢٩٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨
 أزمة الخليج : ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦
 اغتيال امين عثمان : ٦٢٧
 اغتيال «الجندى» سليمان خاطر : ٥٨٨
 اغتيال حسن البنا : ١٨٧
 اغتيال الدكتور رفعت المحجوب : ١٨٨ - ١٩١ ، ٢٤١
 اغتيال رياض الصلح : ٦٧٢
 اغتيال السادات : ١٢٢ ، ١٨٧ ، ٢٠٦ ، ٢٣٥
 اغتيال السردارلى ستاك : ١٨٦ ، ١٨٧
 اغتيال الشيخ النهبى : ١٢٢ ، ١٨٧
 اغتيال الملك عبد الله : ٦٧٢
 اغتيال المقراشى «باشا» : ١٨٧
 إلغاء الملكية فى مصر سنة ١٩٥٣ : ٦٧٢ ، ٦٧٤
 انتفاضة الحجارة : ٥٢٢ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٧٦٧ ، ٧٧٣ ، ٧٧٩
 الانسحاب الاسرائيلى من سيناء : ٤٢٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣
 انفصال سوريا عن مصر سنة ١٩٦١ : ٦٧٥
 انقلاب بغداد ودمشق سنة ١٩٦٣ : ٦٧٥

إنقلاب سوريا سنة ١٩٤٩ : ٦٧٧

(ت)

- تحرير سيناء : ٢٨٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٩٠ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٥٥
 تحرير طابا : ٢٨٤ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٨٢ ، ٤٩٠ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧
 تحطيم خط بارليف : ٤٨٧
 تحويل اسرائيل لروافد نهر الأردن : ٦٧١
 تشييع جنازة مصطفى النحاس : ٦٢٩
 تطبيع العلاقات مع اسرائيل : ٥١١ ، ٥١٥

(ث)

- الثورة الايرانية : ٦٤١
 ثورة تموز سنة ١٩٥٨ : ٦٧٤
 ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ : ٧ ، ٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ - ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٣٩٨ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٥٣٠ ، ٥٣٦ ، ٥٧٤ ، ٥٨١ ، ٥٨٤ ، ٥٩٢ ، ٥٩٩ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٩ ، ٦٢٣ ، ٦٢٨ ، ٦٤٢ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥٦ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٥ ، ٦٧٢ ، ٧١٠ ، ٧٢٠
 الثورة الجزائرية : ٧٢٩
 ثورة سنة ١٩١٩ : ٦ ، ٨ ، ٩ ، ٢٣٦ ، ٢٧٥ ، ٢٩١ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٥٩٩ ، ٦٤٢ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٨
 الثورة السوفيتية : ٢-٧
 الثورة العراقية : ٢٤٨ ، ٢٧٤ ، ٧٢٩ ، ٧٧٢
 لثورة الفلسطينية : ٧١٨
 ثورة القاهرة الأولى : ١٨٥
 ثورة القاهرة الثانية : ١٨٥

(ح)

- حادث المنشية ومحاولة اغتيال عبد الناصر : ٢٢٤

حادث المنصة . ٣٠٥ ، ٣٠٦

حرب الاستنزاف : ٣٦٤ ، ٤٢٩

حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ : ٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٩٢ ،

٣٥٨ ، ٣٦٤ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٧٣ ، ٤٨٦ ،

٤٨٩ ، ٥٠٦ ، ٥٢٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٧ ، ٥٩٥ ، ٥٩٩ ،

٦٣٤ ، ٦٧٦ ، ٦٨٢ ، ٧٢٠ ، ٧٣٤

الحرب الأهلية في لبنان : ٧١٢

الحرب الإيرانية العراقية : ٣٥ ، ٦٠ ، ٦١ ،

٥٠٦ ، ٥٤٩ ، ٥٦٧

حرب سنة ١٩٤٨ : ٤٢٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٥ ، ٥٦٦ ،

٦٧٣

حرب سنة ١٩٥٦ « العدوان الثلاثي » . ٢٩٤ ،

٣٧٦

حرب الخليج : ٧١٥

الحرب العالمية الاولى : ٥٤٦ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤

الحرب العالمية الثانية : ٥٦٤ ، ٥٦٧ ، ٧٧٠ ،

٧٧٣ ، ٧٧٩ ، ٧٨٤

حرب اليمن : ٢٧٧ ، ٦٦٦

حرب يونيه سنة ١٩٦٧ : ٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣٧٧ ،

٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ،

٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٢ ، ٤٧٣ ،

٤٨٥ - ٤٨٨ ، ٥٠٠ ، ٥٠٧ ، ٥٢٢ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ ،

٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٢ ، ٦٦٨ ،

٦٧٦ ، ٦٨٤ ، ٧١٢ ، ٧٢٠ ، ٧٥٢ ، ٧٦٥

الحروب العربية العربية : ٧١١ ، ٧١٥ ، ٧٧١

حريق القاهرة : ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٦٤٣

حصار الانجليز لقصر عابدين سنة ١٩٤٢ :

٦٢٧

(د)

دستور سنة ١٩٢٣ : ٣٩٨ ، ٤١٤

ذك اسرائيل للمفاعل النووى العراقى : ٤٨٤ ،

٤٨٥

(ش)

شنق شكرى مصطفى : ١٨٧

(ص)

الصراع العربى الاسرائيلى . ٦٦٧ ، ٦٨٢ ،

٦٩٩ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٤٧

(غ)

الغزو الاسرائيلى لجنوب لبنان : ٦٨٢

الغزو العراقى للكويت : ٧١١

(ق)

قانون الطوارىء : ٣٣١ - ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩

قتل المشير عبد الحكيم عامر : ٣٧٩ ، ٣٨٣

قضية التنظيم الشيوعى : ٢٧٤ ، ٢٨٥

قضية سليمان خاطر : ٥٦

قضية عبود الزمر : ٥٦ ، ٦١

القضية الفلسطينية : ٤٥٦ ، ٥٠٧ ، ٥١٠ ،

٥٢٣ - ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٤٥ ، ٥٦٣ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ،

٥٦٩ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ،

٧٨٣ ، ٧٨٤

(غ)

الغارة الاسرائيلية على مقر منظمة التحرير

فى تونس : ٧٨٢

(م)

مباحثات الكيلو ١٠١ : ٤٢٧

مبارزة روجز : ٦٧٠ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣

محاولة خلع فاروق عن العرش سنة ١٩٣٧ .

٦٣٢

منبحة تل الزعتر : ٦٦٨ ، ٦٩٠

معاهدة سنة ١٩٣٦ : ٦٣٢ ، ٦٣٨

مفاوضات النحاس هندرسون : ٦٣٢

المقاومة الفلسطينية : ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٧٤٨

مؤتمر الخرطوم سنة ١٩٦٧ : ٦٦٦ ، ٦٨٣ ،

٧٢١

مؤتمر طرابلس : ٧٢٢

مؤتمر قمة عربى سنة ١٩٦٣ : ٦٧٦

(هـ)

هجرة العرب من الاراضى المحتلة : ٦٨٤

(و)

الوحدة مع سوريا : ٣٧٥ ، ٣٧٦

كشاف الدوريات

الجرائد (أ)

الاتحاد : ١٢٤ ، ٥٤٢

الأخبار : ٦٥٥

أخبار اليوم : ٦٠٢

الإخوان المسلمين : ٤٧

الاشتراكية : ٦٤٢

الأهالي : ٦٢ ، ٧٨ ، ٢٠٥ ، ٣١٣ ، ٤٢٨ ، ٣٢٠ -

٤٣٠ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٧٩ ، ٤٨٣ ، ٥٢٩ ، ٥٤٤ ،

٦٠٣ ، ٦٣٥ ، ٦٣٩ ، ٧٠٩

جريدة الاهرام : ١٠٢ ، ١١٤ ، ٥٢٧ ، ٥٦٤ ،

٦٥٢ ، ٧٧٢

الاهرام الدولي : ١٥١

(ب)

الجمهور ٦٤٢٠

الجمهورية ٢٨١٠ ، ٢٩٧ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩

(د)

الدعوة : ٦٤٢

الدبلي هيرالد : ٦٢٧

(س)

السياسة : ٢٩٩

(ش)

الشرق الأوسط : ٥٤٦

الشعب : ٥٨ ، ٣٠١ - ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ،

٣١٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٩ ، ٤١٣ ، ٥٤٤

(ص)

الصاعقة : ٢٩٩

صوت العرب : ٩ ، ٢٢٨ ، ٥٨٣ ، ٦٠١

(ع)

العرب اللندنية : ٧٠٨

عل همشمار : ٥٦٠

(ك)

الكاتب : ٦٤٦

الكشكول : ٢٩٩

(ل)

اللوموند : ٤٨٩ ، ٦٠٧

اللواء الجديد : ٦٤٢

(م)

المرصاد : ٥٦٠

الملايين : ٦٤٢

المنار : ٢٥٠ ، ٢٥٣

الناصرين : ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٥ ، ٥٩١

النيل : ٦٠٢

(هـ)

- هاريتس الاسرائيلية : ٥٢٧

الهدف : ١٢٤

(و)

الوطن : ١٢٤

الوقد : ١٠ ، ٨١ ، ١٢٠ ، ١٣١ ، ٢٥٥ ، ٣٥١ ،

٥٠٣ ، ٥٨٣ ، ٥٩١ ، ٥٩٤ ، ٦٠٤ ، ٦١١ ، ٦١٧ ،

٦١٨ ، ٦٣٥ ، ٦٣٩ ، ٦٥٥ ، ٦٦٤

المجالات :

(أ)

اكتوبر : ١٠ ، ١٣ ، ١٣ ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٧٣ ،
 ٧٧ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ،
 ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
 ٢١٩ ، ٢٧٩ ، ٣٠٥ ، ٣١٣ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٤١ ،
 ٣٧١ ، ٣٨١ ، ٤١١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٣ ، ٤٤١ ، ٤٥١ ،
 ٤٦١ ، ٤٧١ ، ٤٨١ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ،
 ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٩ ، ٥٢٩ ، ٥٤١ ، ٥٥١ ،
 ٥٦١ ، ٥٧١ ، ٥٧٥ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٢٥ ، ٦٤٥ ،
 ٦٤٦ ، ٦٧١ ، ٦٧٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٧ ، ٩٦٩ ، ٧٠٧ ،
 ٧١٧ ، ٧٢٧ ، ٧٥٥ ، ٧٦٥ ، ٧٧٥

(ب)

روز اليوسف : ١٢٤ ، ٣١٥ ، ٤٠٢ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨

(ش)

شئون فلسطينية : ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٧٨

(ص)

صباح الخير : ٣٦٨ ، ٤٦٧ ، ٥٤٢

(ل)

ليقرا تورنا جازيتا : ٥٦٤

(م)

المصور : ٢٩٧ ، ٣٤٧

(ن)

نحن والعالم : ٧٧٢

(هـ)

الهلال : ٤٦

الفهرس

تقديم ٥

الفصل الأول : التطرف الدينى ١١

قصة تطبيق الشريعة الإسلامية ١٣

الخلافة الإسلامية بين الدين والتاريخ ٢٣

ممارسات الدولة الإسلامية عبر التاريخ ٣٥

الحركة الإسلامية فى مصر بين الألفام والأوهام ٤٥

من عبود الزمر إلى الخمينى ، والممارسات الديموقراطية الخطرة ٥٥

الفكر الدينى الانقلابى والسؤدد المفقود ٦٣

الانتخابات وأصحاب اللحى السياسية ٧٣

التطرف الدينى فى أكاديمية الشرطة ٨١

الإرهاب تحت مظلة الدين ٨٧

التطرف الدينى ، ومحاكمة الشيخ على عبد الرازق مرة أخرى ! ٩٧

محاكم التفتيش .. مرة أخرى ١٠٥

يا فضيلة الشيخ ! ١١٣

بالتى هى أحسن ! ١٢١

الجماعات الدينية المتطرفة بين الحقيقة والوهم ١٣١

ردة حضارية .. أم صحوة فكرية ١٣٧

فضيلة الشيخ .. مرة أخرى .. وأخيرة ! ١٤٧

بين الشريعة الإسلامية والقانون المصرى	١٥٧
الشيخ الشعراوى وخصومه	١٧١
عودة إلى الشيخ الشعراوى وخصومه	١٧٧
اغتيال المحجوب فى الميزان التاريخى	١٨٣
ظاهرة الحجاب فى مجتمعنا المعاصر : حجاب على الرأس أم على الفكر ؟	١٩٣
الحجاب بين التشهير والترشيد	٢٠٣
الفتاة المصرية بين الحجاب والجينز والاغتراب	٢١٣
الخارجون من تحت السماء	٢٢٣

الفصل الثانى : الدين فى خدمة توظيف الأموال :	٢٣٣
من توظيف الدين إلى توظيف الأموال	٢٣٥
لا .. لإرهاب المفتى	٢٤٥
مرة أخرى . لا للهجوم على المفتى	٢٥٥

الفصل الثالث : عن الديموقراطية والحياة الحزبية فى مصر:	٢٦٥
حول مصادرة جريدة الأهالى	٢٦٧
تلامذة حمزة البسيونى لن يفيدوا نظام مبارك	٢٧٣
لتكن حادثة أبو زعبل آخر ما يشهده عهد مبارك	٢٧٩
جحيم الديموقراطية	٢٨٩
الصحافة بين حرية الرأى وحرية التشهير	٢٩٧
حرية الصحافة وقانون الغاب	٣٠٥
انقلاب الأهالى	٣١٣

لقاء الرئيس الفكري وحياتنا الحزبية فى الميزان	٣٢١
المعارضة وقانون الطوارئ	٣٣١
بدون دمعة نذرفها على مقاطعة المعارضة للانتخابات	٣٤١
مجلس القطط السمان	٣٥١

الفصل الرابع : نظام مبارك	٣٥٥
ثورة يوليو وشرعية الحكم الحالى	٣٥٧
الملاح . وأحداث الأمن المركزى	٣٦٣
عن المؤسسة العسكرية (١)	٣٧١
عن المؤسسة العسكرية (٢)	٣٨١
الديموقراطية فى مصر والبدائل المبررة	٣٩١
قبل أن نطالب بفتح حساب جديد	٤٠١
هل كان اختيار وزير الثقافة خطأ فادحا ؟	٤١١

الفصل الخامس : لعبة معارضة كامب ديفيد فى مصر	٤٢١
المعارضة وعيد تحرير سيناء	٤٢٣
الوطنية والعمالة بين عهدى عبد الناصر ومبارك	٤٣٣
اللعبة السياسية الرديئة	٤٤١
اللعبة السياسية الرديئة والمؤتمر العجيب	٤٥١
حول اللعبة السياسية الرديئة	٤٦١
هذا الطفح السياسى	٤٧١
هذه الهرطقة الوطنية	٤٨١

٤٩١	المغالطون ولغز طابا
٥٠٣	نقابة الأطباء تعيش فى المريج
٥٠٩	نقابة الأطباء بين أرض الواقع وأرض المريج
٥١٩	الأمية السياسية فى المركز القومى للسيما
٥٢٩	ليقتع حمدى غيث بالتمثيل
٥٤١	كامب بيفيد بين السادات ووزراء خارجيته
٥٥١	قتلة «ثورة مصر» : مجرمون أم أبطال ؟
٥٦١	وماذا بعد عودة طابا وانتهاء حرب أكتوبر ؟
٥٧١	الخطأ الذى وقع فيه كارل ماكس وأنيس منصور

٥٨١	الفصل السادس : عن ثورة يوليو والناصرين
٥٨٣	حملة قميص عبد الناصر ، وشهداء الناصرية
٥٩١	من قتلة المسيح إلى قتلة الديمقراطية
٦٠١	لماذا شنت الثورة خميس والبقري ؟
٦١١	ديموقراطية ثورة يوليو
٦١٧	حياء المؤرخ

٦٢٣	الفصل السابع : الثورة والوفد
٦٢٥	مطلوب الاعتراف بزعيم
٦٣٥	انهم لا يتغيرون
٦٣٩	حكومة الوفد الأخيرة ومنطلق العملاء
٦٤٥	مبارك وزعامات ما قبل ثورة يوليو

قيادة ثورة ١٩١٩ .. وتعاليم الميثاق ٦٥٥

الفصل الثامن : الحرب العربية الباردة ٦٦١

مصر ليست مسئولة عن تمزق العالم العربي ٦٦٣

الجامعة العربية : عتبة أم عقبة في طريق الوحدة ؟ ٦٧١

الوضع العربي والأقلية الصاخبة ٦٧٩

بعد عربة العرب إلى مصر : كشف الحساب ٦٨٩

مخاطرة مصر .. ومتاجرة الآخرين ٦٩٧

مفارقات ميزان القوى بين العرب وإسرائيل ٧٠٧

أسطورة النظم التقدمية ٧١٧

مصر والجزائر .. والاحتكام إلى التاريخ ٧٢٧

تأملات أيديولوجية في معرض السعودية ٧٣٧

الفصل التاسع : عن الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير ... ٧٤٣

القضية الفلسطينية والترحل الثوري ٧٤٥

ويشعر الشعب الفلسطيني بطول احتلال ! ٧٥٥

منظمة التحرير ونهج السادات ٧٦٥

أنقاع عن المزايدين ؟ ٧٧٥

٧٨٥.....	من أهم أعمال المؤلف
٧٨٩.....	الكشافات
٧٩١... ..	كشاف الأعلام
٧٩٩	كشاف الهيئات
٨٠١	كشاف البلاد والأماكن
٨٠٧	كشاف الحوادث
٨٠٩	كشاف الدوريات

* أخطاء مطبعية

رقم الصفحة	الخطأ	رقم السطر	الصواب
٧٦	النوب	٥	النواب
٧٩	السلام	١	الاسلام
٧٩	عقيرتهم	١١	عقيدتهم
٩١	محمد كمال ابو المجد	٦	احمد كمال ابو المجد
١١٤	الأهر	٢٥	الأزهر
١١٧	الأهر	٩	الأزهر
١٢٢	التى	٧	الذى
١٢٥	ملو	١٢	ملتوي
١٢٩	لينكرا	٦	لينكر
١٤٢	الدكتور محمد اسماعيل العوا	٢١	الدكتور محمد سليم العوا
١٨٩	من القتل اللواء	٣	من قتل اللواء
٢٩١	مفر	١٧	مقر
٢٩٢	١٩٧٠	٢٦	١٩٧٧
٣١٧	احسست	٢٤	أحسست
٣٦٩	لا تنتهز	١	لا نتهز
٣٨٧	تشغيل	٢٦	تشغل
٤٨٥	الفتاة	٦	القناة
٥٠١	ساسة	٢٢	سياسة
٥٥٨	مرقمة برقم ٥٥٧ مكرر	-	والترقيم هو ٥٥٨
٥٨٦	ادلته بليغة	٤	إدانة بالغة
٦٣٠	وللأمانة فلسب	١٣	وللأمانة فلست
٦٣١	واصف بطرس غالى بك	١٥	بطرس غالى بك
٦٩٩	تارئيس	٢١	الرئيس
٧٥٢	فلما	٢٤	فلماذا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٥٣٩ / ١٩٩٢

١٥ 977 - 01 - 3227 - 6



هذا الكتاب

يعد هذا
الكتاب من كتب التاريخ الساخن .
فهو يتتبع بالرصد اليومي والتحليل والنقد حركة
الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر في عصر مبارك
بين فريقين من القوى السياسية : فريق قوى التحرر الوطني
والاجتماعي الذي قاتل من أجل تحرير سيناء من الاحتلال الاسرائيلي،
ويريد أن يدفع عجلة التقدم في مصر إلى الأمام ، ويمضي بحركة
الاستنارة التي بدأت في القرن التاسع عشر إلى غايتها الطبيعية في خدمة
جماهير الشعب المصري وخدمة تقدمه . والفريق الآخر هو فريق قوى الانغلاق
الديني والاجتماعي والسياسي ، الذي يتلفع بعضه بعباءة الدين ويريد -
بالارهاب - أن يعود بمصر أربعة عشر قرنا . ويتلفع بعضه الآخر بقميص
عبد الناصر ويريد - بالارهاب أيضا - أن يعود بمصر أربعة عقود من السنين .
ومؤلف الكتاب هو الدكتور عبد العظيم رمضان ، أستاذ التاريخ المعاصر
بجامعة المنوفية ، وعميد كلية التربية السابق ، والكاتب السياسي
المرموق ، وعضو المجلس الأعلى للثقافة ، وعضو المجلس الأعلى
للصحافة ، وعضو مجلس الشورى ، ورئيس لجنة التاريخ
والآثار ، ورئيس مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر،
وصاحب أكثر من عشرين كتابا في
تاريخ مصر .